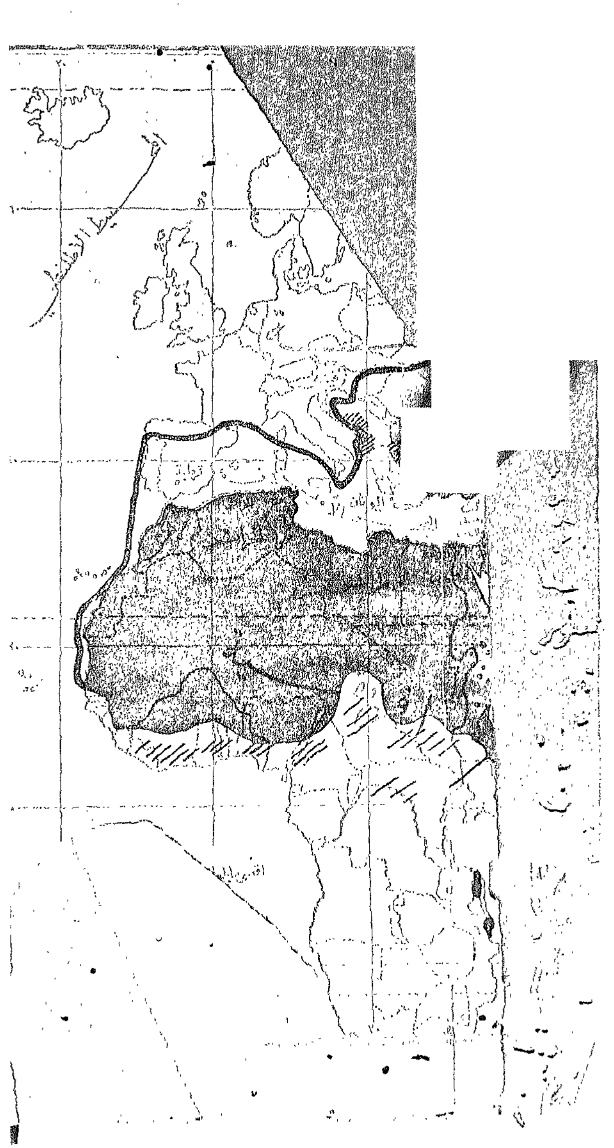


حاضر العالم الإسلامي

حاضر العالم الاسلامي

تأليف

لوثروب ستودارد

الامريكي

Lothrop Stoddard

وفيه فصول وتعليقات وحواشٍ مستفيضة

عن دقائق احوال الامم الاسلامية وتطورها الحديث

وضعها

الامير شكيب ارسلان

نقله الى العربية

عجاج نويهض

الجزء الاول

القاهرة

١٣٤٣

المطبعة السلفية ومكتبتها

لصاحبيهما: محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

ملتزم نشر هذا الكتاب

نجيب متري

صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

« حاضر العالم الاسلامي » كتاب حديث الوضع ، نُقل الى عدّة لغات أوروبية وشرقية ، وبعد إخراجه طُبع غير مرّة في الانجليزية ، فذاع في أمريكة وأوربة ذيوعاً عظيماً ما كان مثله لكتاب غيره في بابه ، فأحلّه كثير من الساسة والمنصفين وأهل البحث والعلم المحل الأرفع ، وأقبلوا عليه ، واهتدوا به في الاحاطة الحقة بكثير من طبائع الاسلام ، والانقلاب الاسلامي على اختلافه في آسية وافريقية قبل الحرب العامة وبعدها ، واتخذوا منه عوناً على تدبر ما بين العالم الاسلامي وبين الدول الغربية المستعمرة من صلات وعلاقات ، حق التدبر . وقد شهد المحقّقون للعلاّمة ستودارد الامريكي ، بصحة القول ، وإصابة العدل والحق في الحكم . ومما قالته (مجلة المجلات) الانكليزية عند صدور الكتاب ان صاحبه « ارميا القرن العشرين » [1] .

وقد رأيت في نقل « حاضر العالم الاسلامي » الى العربيـة خدمة بارّة ، رجوت اذا وفقت الى القيام بهـا أن يتقبّلها كل قارىء كريم بقبول حسن . فاستأذنت المؤلف في الترجمة ، فأجابني الى ذلك طيب الخاطر . وأمدني باذن خاص منه ومن شركتي الطبع الامريكية والانكليزية. فاشكر له هذا شكراً كبيراً

وبعد الفراغ من ترجمته طلبت من حضرة العربي الكبير ، والسياسي الشرقي

---

(١) للعلامة ستودارد مؤلفات أخرى شهيرة منها :

« الثورة على الحضارة »	The Revolt Against Civilization
« نهضة الشعوب الملونة »	The Rising Tide of Colour
« الحقائق الجنسية في أوربة »	The Racial Realities of Europe
« أوربة اليوم : ذهنيتها القومية »	Present-Day Europe : its National States of Mind

وغير ذلك .

الضليع ، الثقة في الشؤون الاسلامية ، كاتب العصر صاحب السعادة الأمير شكيب ارسلان ، رعاه الله وأطال بقاءه ، أن يتفضل بكتابة مقدمة يُطرّز بها جيد الكتاب ، فتفضّل سعادته ، وهو على أسفار متلاحقة بين الشرق الادنى واوروبة ، بتلبية الطلب على النحو الذي سيمر بك في المقدمة التالية التي وضعها سعادته غير قاصر فضله على وشل ما طلبت ، دون فيوض الفصول الممتعة ، والتعاليق الجامعة ، التي منها ماهو تحت المتن ، ومنها ماهو وارد مستقلا مع سبق الاشارة اليه . فجاء الكتاب بعد ذلك جامعاً للحسنتين : حسنة الوضع للعلامة ستودارد الامريكي الغربي ، وقد بلغ من التوفيق في كتابه علماً وتحقيقاً ، مبلغاً عز على غيره من سبق الواضعين . وحسنة المزيد من فرائد الفصول والحواشي والتعاليق ، لصاحب السعادة الامير شكيب ، الحجة السياسي الشرقي ، جزاه الله عما بذله في هذا السبيل خير جزاء ونفعنا بعلمه الواسع ، واضطلاعه الجامع . وكان الكتاب بأصله مجلداً واحداً فغدا بعد المزيد مجلدين كبيرين .

واني أشكر لحضرة صاحبي المطبعة السلفية العامرة ما أنفقاه من عناية تامة ، وجهد دقيق ، في اخراج هذا الكتاب بمجلدين ، حتى جاء رافلا بثوبه هذا .

والله حسبي وكفى

القاهرة ٨ رمضان ١٣٤٣
٢ أبريل ١٩٢٥

عجاج نويهض

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسّر وأعِنْ

الحمد لوليّه ، والصلاة على نبيّه ، والسلام على كل هادٍ الى سويّه.

وبعد ، فإنّ الاوربيين الذين يغورون في كلّ أمر ، ويختتلون كل سرّ ، ويوسعون كل قضية درسا ، ولا يسأمون في اطراف الارض بحثاً ولا فحصاً ، يذهبون الى ان في العالم الاسلامي حركةً شديدةً ، وغلياناً عظيماً ، وان آسية وإفريقية ماخضتان بحوادث خطيرةٍ يكون من الجهل تجاهلها ، ومن الخرقِ الاستخفاف بها . ومنهم من يغلو في تقدير هذه الحركة وتوسيع دائرتها ، فيرى الاسلام من اقصاه الى اقصاه متحمساً للقيام ، والشرقَ من أوله الى آخره متحفزاً للصراع ، ويجد العالمَ القديمَ كلّه مستوفزاً يريد ان يقتفي اثر اليابان ، ليستردّ مجداً سالفاً ، ويستجدّ عزاً آنفا ، ويشحط عنه كل غريب ، ويكشف كل مغير ، وان الشرقيين لاسيما المسلمين منهم ، يأبون الا استرجاع أملاكهم المغصوبة باصبارها ، واحراز حقوقهم المهضومة بحذافيرها .

كما أن نفراً تراهم بالعكس ، يقولون ان الاسلام جسم متفكك الاجزاء ، متقطّع الاوصال ، عاجزٌ عن الصراع ، فاقدٌ لأسباب الدفاع ، ينقصه العلم ، كما يعوزه السلاح ، لايريش ولا يبري ، ولا يقدر على ثورةٍ ذات بال ، فمن أحمق الحمق وأسفه السفه ان تقيم أوربا للاسلام وزناً ،

وان تحسب للشرق — حاشا اليابان — حسابا ، وان تمهل الاسلام في استصفاء مابقي له على الاستقلال ، الى ان تكون عصت مقادته على الراكب ، وعست قناته على الغامز ، فالاحزم والاحوط هو مضاء أوربا في سياستها المبنية على الفتح ، غير مبالية بصخب ولا اعتراض ، ولا متحرجة عن تفجير الدماء في قمع ثورة او منع انتقاض . ولهذا تجد هذه الفئة ممعنة في مطامعها ، مستمرة في غلوائها ، مطيعة في اختلاس الممالك دواعيَ أهوائها ، لاتنظر الى العواقب ، ولا تتصرّف في أمر تصرف محاذرٍ ولا مراقب . وكان الناس يظنون ان الحرب الكونية بما أتت به من المثُلات والعِبر ، واجرته من جداول الدماء وسيول العبَر ، ونزفته من أمواه الحياة ، ونسفته من أركان العمران ، وانفدته من القناطير المقنطرة ، وطيّرته من الجاهيد الموفّرة ، ووضعته من الاعباء على كاهل البشرية ، وأورثته من الانسراق في كل عضو من اعضاء الهيئة الاجتماعية ، قد تنبّه رجال الدول الى سير القصد ، ومراعاة الحق ، وإيثار الرفق ، والصدوف عن ترّهات الحيف ، والتكلم بغير نغية السيف ، لانه من المقرّر ان هذه الكائنة العظمى ، والطامّة الكبرى ، كانت لها جملة عوامل أهمها التهافت على الاستعمار ، والتسابق على اقتسام الاقطار ، والظن بأن كل ماهو غير أوربي فانما هو آلة للاستغلال وموضوع للاستثمار . فخاب أيضاً الامل بالاتعاظ بهذه الحرب التي لم يُر التاريخ لها مثالا ، واخطأت الفراسة بان هذه المصائب والاهوال تلهم ساسة الدول الغربية رشداً واعتدالا . بل رانت

المطامع على البصائر ، وغلب الجشع على الحجى ، وطمست الاهواء الالباب . مع انه كان يكفي هؤلاء مثلة معاهدة « ڤرساي » التي لو كانت مبنية على قاعدة الانصاف لما احتيج اليوم الى لجنة الخبراء ، ولما وقع ماهو واقع وما سيقع من الخصام والمراء ، وما سيفضي يوماً الى حرب ثانية ، ومصائب تالية . وكذلك معاهدة « سڤر » التي اضطر واضعوها ان يمزقوها ، بعد تلك الدماء التي اراقوها ، والبلدان التي غادروها خرابا ، وزرعوها اسنّة وحرابا . فمع أنهم رأوا خطأهم صراحية ، ومع ان زرعهم لم يثمر الاّ شوكاً ، ومع ان العداوة قد لقحت من ذي انف ، وان دواعي الحرب عادت اكثر مما بدأت ؛ لايريدون ان ينتهوا عن ضلالهم القديم ، ولا ان يربعوا على ظلمهم الجديد ؛ ولا ان ينظروا الى ما عليهم من الديون المجهضة الاحمال ، ولا يفكرونَ فيما على ظهورهم من امثال الجبال ، وانما يعولون في حماية مطامعهم على النيران المحرقة ، والقنابر المصعقة ، وعلى الحرب الجوية ، باعداد الالوف المؤلفة من الطيارات التي يرونها اَخصرَ طريقاً وأخفَّ مؤونة وأوحى قتلا . ولا يلاحظون ما في قتل النساء والاطفال من الفظاعة التي لا تليق الاّ بالمتوحشين الذين ياكل بعضهم لحم بعض ، وما في تدمير المساكن على رؤوس الابرياء والوادعين من مخالفة دعوى الانسانية التي يزعمون انهم حماتها في الارض .

فالعالم الاسلامي الذى لا يزال محور سياستهم قهره واعناته ، وتجريده من السلاح بكل وسيلة ، والحيلولة بينه وبين الاتحاد والتماسك

بكل حيلة ، احتياطاً من وراء رسفّانه في قيوده الحاضرة ، واماناً على ديمومة خنوعه لسلطتهم القاهرة ، لا يصح أن يقال انه بلغ من النهضة الدرجة التي تكفل له حطم سلاسله الثقيلة ،واسترداد ممالكه العريضة الطويلة ، واستئناف معاليه الخالية ، ومصيره مع العالم الاوربي الى حالة متساوية . ولا أدرك بهذه السنين القلائل من اليقظة ما يكفي لتجديد ما اخلق من حاله ، واستشن من شأنه ، بل لا يزال ويالالاسف الجهل مخيماً على اكثر آفاقه ، وما برحت العصبيات الجاهلية عاملة عملها في تفكيك عراه وبعثرة أجزائه ،كما أن الرعب من سطوة الاجانب الا من رحم ربك ملء الجوانح ، واليأس من استطاعة القيام فاشٍ في الافكار والخواطر . وكانه الى هذه الحالة بعينها نظر النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال :« يوشك أن تتداعى عليكم الامم من كل جانب تداعي الاكلة على القصاع . قالوا : أو مِنْ قلة منا يومئذ يارسول الله ؟ قال : لا . ولكنكم غثاء كغثاء السيل يُجعل الوهل في قلوبكم ويُنزع من قلوب أعدائكم ، من حبكم الدنيا وكراهيتكم الموت » أو كما قال . نعم صار المسلمون ، الا الاقل منهم الى زمان لا تغنى عنهم كثرتهم شيئاً ، بل صارت الفئة القليلة من غيرهم تتحكم في الفئة الكثيرة منهم ، وتخبطهم بكل عصا ، وهم لا يستطيعون حيلةً ولايهتدون سبيلا ، وراح الاجنبي يفتح بلدانهم بهم ويسلط بعضهم على بعض ،ويقتل هذا بذاك مستفيدا من قتل الاثنين : الذي يقاتله والذي يقاتل معه . واذا سألت أحدهم لماذا اعطاء هذه المقادة كلها واقتحام الموت في سبيل الاجنبي الذي

تغلب عليه ، أجابك انه انما يساق الى الموت رغماً . والحال أن الموت الذى يخشاه فى عصيان الاجنبي ،هو ملاقيه فى طاعته ، فهو من خوف الموت في الموت ، ومن حذر العذاب في أشد العذاب . فلا بد لاستقلال الاسلام ، من زوال هذه الاوهام ، ومن انتشار المعارف التي لا تجتمع مع الذل في مكان ، ولا تبرح دون تلك الغاية مصاعب وقُحَم ، ومصائب وغُمَم ، وليال مظلمة طوال ، ومعارك تشيب لها ذوائب الاطفال . وانما الذى يخطىء فيه سكارى العز ونشاوى الساعة الحاضرة من الاوربيين ، اعتقادهم انها حالة ستبقى على الدهر ، وان ثلثماية وأربعين مليوناً من المسلمين سيلبثون الى الابد رهن اسارهم وفريسة استعمارهم ، ووقود نارهم ، واعتبارهم الشرقيين عملة يسمن الغربيون بهزالهم ، ويسعدون بشقائهم ، ويقوون بضعفهم ، ويحيون بحتفهم . حقاً لقد تجاوزوا الحد ضلالاً وغرورا ، واستكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ، وظنوا أنهم انما كتبت لهم السيادة خالصة من دون الناس وأمنوا جفوات الايام ،واخذوا الطريق على الفلك الدوّار فلا يدور لهم الا بحسب المرام. كلا هذا منهم خيالٌ زائل ، ووهمٌ أرقُّ من شبح باطل ، فلن يبقى الشرقيون أبد الدهر مَدْنقة هينة عليهم نفوسهم ولن يصبروا أكثر مما صبروا على أن يلي أمورهم من ليس منهم ، ولا بد أن يأتي الزمن الذى يصبح كلٌ فيه سيداً فى دياره ، مانعاً لذماره ، مساويا فى الارض لمن ظن سلطانه سرمداً ، ودوره مؤبداً ، وعمل اليوم عمل من لا ينظر ما يكون غدا ، لا سيما المسلم الذى يقرأ كل يوم في قرآنه

ما يجمله بكل جارحة من جوارحه رجلا ولا يرضى له بالاستقلال بدلاً ، وينفخ فيه من روح الانفة ما يصور الذل كفرا ، ويلقى في روعه من حب العلم ما يصير الجهل وزراً ، ويحتم عليه من الاخذ باسباب القوة ما يخيل الضعف شركا . كلا لن يلبث الشرق لدى دول الاستعمار هو الشحمة الرُقّى ، والامم التى لا تملك لانفسها حقا ، ولا تنفض عن أعناقها رقاً ، ولا يمكن أن يظل الاوروبي سيد الارض غير مدافع وصاحب الحكم غير مزاحم ، متسلطا على ما في الدنيا من الجهات النفيسة ، مستأثرا بما بين المشرق والمغرب من الجنبات الرئيسة ، فلم يبرح الدهر قلّبا ، والدوام محالا ، والتاريخ يركب الامم طبقا عن طبق ، ويلحق من تأخر بمن سبق ، وما من بهشة الا وراءها جهشة ، وقد كذب من طمع في صفو بلا كدر ، وصعودٍ بلا حَدَر . ومن أعظم الخطأ الظن بأن الشرق لا يُلِمّ على شمث ، وأن آسية وافريقية لن تنهضا من عثار وهما ثلثا العالم ، ولقد سار الشرق فى مدة وجيزة عقبَاتٍ جياداً ، واجتاز أزماتٍ شداداً ، وهو ماض فى سيره الى الامام لا سبيل بعد اليوم الى تعويقه ، ولا حاجز يمكن أن يقف في طريقه ، بدسائس تلقى ، ومبالغ سرّية تنفق ، وأخلاق تُفسَد ، وذمم تشرى وأشراك تبثّ ، وأسياف تُسلّ . ولا المحلقات فى الجو تقدر على كم الافواه ، ولا الغازات السامة تقوى على إطفاء نور الله ، وماتزيد هذه الوسائل تلك الامم المستضعفة الا شوقاً الى الحرية ، ونداء الى الثارات واصراراً على الضغائن ، ومهما يكن من حيل العباد فللكون سَنَن

هو سائره ولله أمر هو بالغه .

وقد كتب كثير من المؤلفين الاوربيين على الحركة الاسلامية بعد الحرب ، فنهم مخطيء ومنهم مصيب، ومنهم من خلطقو لاسديداً وآخر بعيدا . ومنهم من تكهن بالشر وانذر بالويل. ومنهم من أحسن الظن وهدي الى الطيب من القول . ولا شك في كون خيرة ما ألّف في هذا الباب ، ونبلة ما خيض من هذا العباب ، هو الكتاب المسمى « بالعالم الاسلامي الجديد[1] » تأليف العلامة الحصيف البليغ المستر ستودّارد الاميركيّ الذى أخرجه كتاباً جامعا وشهاباً لامعا ، وحصيلة بحث دقيق ، ونتيجة احفاء عميق ، فهو فى هذا الموضوع أفضل المؤلفات على التحقيق . توخى صاحبه العدل فى الحكم والاعتدال في الوصف والوقوف عند اعتراض الشك ، وأبى القاء الكلام على رُسَيْلاته وازناً الامور بميزانها غير مقصّر ولا مشطّ ، ولا مفرطٍ ولا مفرّط وهو الامد الذى يكبو دونه جواد غيره من المصنفين ، والغاية التى لا تتاح الا للافذاذ من صيّابة المحققين . وضعه محرره باللغة الانكليزية ، وترجمه بعضهم الى الفرنسية وربما ترجم الى غيرها من اللغات الاوربية ، ونقله أحد أدباء الترك الى التركية ، ولكن أكثر من أعجب بهذا الكتاب هم أدباء العرب ، فقد تبارى عدة من أفاضلهم فى تعريبه خدمة لقومهم.

(١) هو بالانكليزية The New World Of Islam وقد رأينا أن ترجمته ب «حاضر العالم الاسلامي » أوفى بالمراد فى العربية وأدل على الغرض من العالم الاسلامي الجديد ، أو العالم الاسلامي الحديث ، أو عالم الاسلام الجديد ، أو عالم الاسلام الحديث .

(المعرب)

ونصحا ، وانبرت أقلامٌ مرهفة لجلاء عرائسه على منصة هـذه اللغة الفصحى ، وانما سبق غيره الى الأمام ، الشاب الاديب الكاتب الناهض عجاج افندي نويهض ، فابرزه في حلة من نسيج الضاد تشتد بها أُطُق النطق ، وتقترن بها حلاوة العبارة بلسان الصدق . وكان قد كتب اليّ في العام الماضي وأنا في أوربا يلتمس مني تصدير هذا الكتاب بمقدمة تليق بمقامه الخطير ، وتكون في أوله مقدمة وهي في الحقيقة من ورائه ظهير ، وكنت قبل ذلك اطلعت على هذا الكتاب ووقفت على مافيه من جمال مناحٍ ، وسداد آراء ، وسممت حسن الاحدوثة عنه ممن يعرفون الخمر من الخل من القراء ، فرأيته لاضطراره الى الاجمال ، وعدم تعرضه لكثير من المسائل الاّ على سبيل الايماء ومن قبيل الاستشهاد ، يحتاج في بعض المظان الى الاكمال أو الايضاح . فعلقت عليه مما أملاه الخاطر الفاتر حواشي رجوت أن تكون طرازا لحبره ، ونظاما لدرره ، وأوردت فيه من أخبار العالم الاسلاميّ ما لا يزال مجهولا عند اكثر المسلمين ، ومعظم الشرقيين ، بعلة تناءي البلاد وتراخي الابعاد ، وضرب الدول المستعمرة بالاسداد . فكانت طريقتي في هذه التعليقات ترك ما استفاض العلم به وتواتر الخبر عنه ، ولو كان في حد ذاته جللاً ، الى البحث عما خفي شأنه ، وعمي خبرُهُ ولو كان أمرُهُ فُرُطا ، فاعتنيت بقدر الطاقة بتحرير المواضيع الغامضة والمسائل الغريبة ، وتحريت أنباء الاصقاع النائية ، دون البلدان القريبة . اذما من فائدة في البحث عن قضايا تساوى الخاص والعام في فهم معناها

وسرد أخبار لم يبق قصريٌ ولا مُعمي الا رواها أو علم الحواها، فتحاشيت في هذه الحواشي التواريخ المشهورة المكرّرة، والمعلومات التي في كل يوم منها خبر في الصحف المنشّرة، فجاءت بأبكار من المواضيع لم تجلها الأقلام لحداثة عهدها وأخرى من أخبار زوايا من بلاد الاسلام عميت أحوالها لانقطاعها وبعدها، وقد اخترت فيها كلها التلخيص اذ لو أرخى فيها الكاتب عنان القلم لما حوتها اجلاد، ولا وفى بها جَلَد ولا اجتهاد. هذا وان رأيَنَا الذي نعول عليه أولا وآخراً، ونرجع اليه باطنا وظاهرا، ان الشرق أجمع سينتبه من رقدته، وينهض من كبوته، وانه كما شهد القرن التاسع عشر استقلال أميركا بأسرها، فسوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسية بعروتها وزرّها، وانه لا تمضي الثمانون سنة الباقية لتمام هذا القرن حتى يلي الاسلام بلاده، ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده، ليس هنالك كهانةٌ ولا عرافة، ولا هي مقاصد تدرك بالرقي أو العيافة، ولكن يُعرف المستقبل من الحاضر، ويدل الاول على الآخر. هذا وان نهوض الشرق هو الشرط الاول في سؤدد السلام، وراحة الانام، وحقن الدماء الحرام، وحفظ موازنة العالم واستواء الاقسام. وما دام الغربيون يرون الشرق لجيوشهم مجالا، والاستعمار لدول أوربا دليلا تقفوه يمينا وشمالا، فالحروب بين الدول قائمة متتابعة، الى قيام الساعة، والاختراعات التي تفتخر بها المدنية مصروفة الى استئصال البشر وناهيك ما في مدنية كهذه من الشناعة، وما دامت جمعية الامم مثل العروضِ بحراً بلا ماء، ما وجدت الا

لتلبس الاعتداء حلة قانونية ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الاسماء ، لا يطيعها سوى ضعيف عاجز ، ولا تستطيع أن تحكم على قوي متجاوز ، فكيف يغطى الحق بالثرثرة والحق أبلج ، وكيف يستقيم الظل والعود أعوج ، فلا مندوحة للامم الشرقية عن الاقتداء باليابان فى التماس المنعة ، و مضارعة الدول الغربية فى ارتياد العلم واقتباس الصنعة ، حتى اذا قرع النبع بالنبع ، ووقع النصل على النصل اقتنع كل بدياره ، وأمسك الجار عن هضم جاره ، فان المال السائب هو الذي يعلم الناس الحرام . وان الخوان الممدود هو الذى يبعث الاشتهاء الى الطعام . فليحرص الشرقيون من كل فريق أن يكونوا أولى قوة مانعة ، وان يوحدوا كلمتهم فيجعلوها كلمة جامعة ، فان بقوتهم خلاص الغرب والشرق ، والادالة من الحرب للسلم ومن الباطل للحق ، بحول الله وكرمه .

شكيب أرسلان

مرسين ٢٥ شعبان سنة ١٣٤٣
٢١ مارس سنة ١٩٢٥

فهرس الموضوعات

للجزء الاول

تمهيد للمؤلف

ان العالم الاسلاميّ من أقصاه الى أقصاه ، قد تغلغلت فيه عوامل الانقلاب أبعد مُتَغَلغَل ، وانبثّت في عروقه فواعل التبدّل أوسع مُنبثّ ، حتى كمل اختماره وتمّ استعداده ، فراح يجتاز هذا الدور الخطير في التحوّل ، ثوّار القوى الى مالاحدّ له . فاذا ماسرّحت ببصرك نحو العالم الاسلامي رقعةً رقعةً ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان الى الكونغو ، رأيت ال ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ من المسلمين ، قد ثارت نفوسهم مشتدّة الحركة والانفعال ، نازعة الى كل ضَرْب جديدٍ من ضروب الآراء والافكار ، والمطامح والآمال . وان عقبى هذا الانقلاب الشامل لعظيمة جداً ، وستتأثر بنتائجها العميمة أُمم الارض جمعاء ، ولله الامر من قبل ومن بعد .

على ان العامل الاكبر في هـذا الانقلاب هو الحرب العامة . ولكن منشأه ليراه المستقصي اقدمَ عهداً وأبعدَ أصلا ، اذ انّ بذوره قد القيت في تُرَب العالم الاسلامي قبل الحرب الكبرى بمئة سنة بل أكثر ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البذور تنمو مزدادة الاستعداد والقوة الحيوية ، نمواً مستمرّ المنهج ، بطيء الحركة في أول العهد ، ثم على التوالي أوضحَ سبيلاً وأوسعَ انتشاراً ، وما زال الانقلاب الاسلامي على مسراه هذا حتى أدركته الحرب العامّة التي قد تضعضع منها الكيان ، فكانت عامل الثورة فجأةً في المعمور الاسلاميّ ، فطفق يثور ويهتاج منتقلاً من حال الى حال ، مربدّ الجوّ بقاتم السحب ، لا يسمع فيه السامع الا القواصف .

وان وصف هـذا الانقلاب العجيب ، ودورِ التحوّل العظيم ، وما اليها من مختلف الاسباب والعلل والنتائج ، هو غرضنا الذي قد ابتغيناه من اخراج هذا

الكتاب للناس . وقد كنا في ذلك من الذين يصوّرون الشيء كاملا تاماً فأتيناعلى بيان كلّ صُور الانقلاب من دينيّة ، وتهذيبيّة ، وسياسيَّة ، واقتصاديّة ، واجتماعيّة . وفي كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكونها ، ونشوئها وترقّيها ، وعمومها وانتشارها ، وصفاتها وحالاتها ، وما فيها من قوة انسياق وعامل . اضف الى هذا اننا لم نُغفل ايضاح ما في بعض المواضع من الاختلاف بسبب الاقليم والبيئة ، من حيث اننا قد بسطنا تلك المضارعة العامة والصفة الكلية ، مما هو مصاحبٌ لجميع الحركات على اختلافها مصاحبة دالة على ما هنالك من وحدة متوخاة في هذا الانقلاب الاسلامي .

ان موضوع الكتاب وان كان مختصاً بالعالم الاسلامي في المقام الأول ، غير انه تناول الكلام على غير المسلمين ، كالعناصر الهندوية (الهندوس) في الهند وسواهم استيفاء للغرض من جميع الوجوه التي لها صلة بالموضوع . لذلك جُعل الكلام كافيا وافيا في شأن الشرقين الادنى والاوسط . أما الشرق الاقصى فلم نتناول الكلام في أحواله مباشرة ، ولكننا قد أشرنا الى ما هو مشاهد من الشبه والمماثلة بينه وبين العالم الاسلامي في الماجريات العامة اشارة ينبغي للقارىء ان يقيم لها وزنا .

لوثروب ستودارد

مقدمة

في

نشوء الاسلام وارتقائه وانحطاطه

يَفْنى البَرايا ويأتي الوقتُ مُختلِفاً
لِيُخرِجَ الدهرُ تاريخاً من الرِّمَمِ

«شيلر (في وليم تل) تعريب الرافعي»

كاد يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ الاعجب الذي دوّن في تاريخ الانسان. ظهر الاسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان، وبلاد منحطة الشأن؛ فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض، ممزقاً ممالك عالية الذرى مترامية الأطراف، وهادماً أديانا قديمة كرّت عليها الحقب والأجيال، ومغيراً ما بنفوس الأمم والأقوام، وبانياً عالماً حديثاً متراص الأركان — هو عالم الاسلام.

كلما زدنا استقصاءً باحثين في سر تقدم الاسلام وتعاليه، زادنا ذلك العجبُ العجاب بهراً فارتددنا عنه باطراف حاسرة. عرفنا أن سائر الأديان العظمى انما نشأت ثم أنشأت تسير في سبيلها سيراً بطيئاً ملاقيةً كل صعب، حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ في تأييده والذبّ عنه حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه. بطل النصرانية قسطنطين، والبوذية «اسوكا»، والمزدكية قبا كسرى،

كل منهـم ملك جبار أيّد دينه الذي انتحله بما استطاع من القوة والأيد . انما ليس الأمر كذلك في الاسلام ، الاسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية ، تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ ، فلسرعان ماشرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته في جهات الارض، مجتازاً أفدح الخطوب وأصعب العقبات ؛ دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر مشدود . وعلى شدة هذه المكاره ، فقد نُصر الاسلام نصراً مبيناً عجيباً ، اذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قرنين ، حتى باتت راية الاسـلام خفاقة من « البيرينيس » حتى « حملايا » ، ومن صحاري أواسط أسية حتى صحاري أواسط أفريقية .

كان لنصر الاسلام هذا النصر الخارق ، عوامل ساعدت عليه ؛ أكبرها أخلاق العرب ، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعتـه ، والحالة العامة التي كان عليها المشرق المعاصر في ذلك العهد . ان العرب ، وان كان ماضيهم ما برح منذ عهد متطاول في القـدم حتى عصر الرسالة ماضياً غير مشرق باهر ، فقد كانوا أمةً استودعت فيها قوة عجيبة ؛ تلك القوة الكامنـة التي بدأت منذ نشوء الاسلام تظهر جليةً الى عالم الوجود . فقد ظلت بلاد العرب اجيالاً طوالاً من قبـل محمد ، مباءة يشتـد فيها تزخار القوى الحيوية ، وجيشان العوامل الروحانية . كيف لا وكان العرب قد فاقوا آباءهم وأجدادهم إيغالاً في الشرك والوثنية ، وانقضى عليهم وهم على هـذه الحـالة عهد ليس بالقليل حتى استحالت عناصر أمزجتهم من شـدة ذلك كله فصاروا توّاقين بفعل غرائزهم واخلاقهم الى تبديل حالهـم وتحسين شأنهم . هكذا كانت حالتهـم العقلية والنفسانية ، حالة الاستحالة الكبرى ، والانقـلاب العظيم ، والاسـتجداد الكبير ، لما صاح فيهم نفير الاسلام . ان محمداً وهو عربي من العرب ، الا روح قومه متجسدة ؛ ونفسهم متجسمة . استطاع محمد ، وهو يبشر بالوحـدانية تبشيراً عارياً عن زخارف الطقوس والأباطيل ، ان يستثير حق الاستثارة من

نفوس العرب الغيرة الدينية ، وهي الغيرة الكامنة متمكنة على الدوام في كل شعب من الشعوب السامية. واذ هبّ العرب لنصرة دعوة ابن عبد الله ، من بعد ما ذهبت من صدورهم الاحن المزمنة ، والعداوات الشديدة التي كان من شأنها من قبلُ الذهاب بحولهم وقوتهم ، وانضم بعضهم الى بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة في رأسه نور للناس وهدى للعالمين ، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحاريهم في شبه الجزيرة ، ليفتحوا بلاد الا له الأحد الفرد الصمد .

أجل ، هب الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزعزع ، فلاقى في سبيله جوّاً روحانياً خالياً ، في ذلك العهد كانت كلتا مملكتي فارس وبيزنطية باديتين للعيان كأنهما الانحاء الجاف فارق عوده لانموّ فيه ولا حياة ؛ وكان الدين في كل من هاتين المملكتين صار ديناً يزرى عليه ويسخر منه . اما في فارس فقد كان دين « المزدكية » القديم قد انحط انحطاطاً كبيراً حتى أصبح مجوسية باطلة وصناعة خداعة بين أيدي الموابذة يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قسوة ، فكره الناس ذلك الدينَ في الباطن كرهاً شديداً ومقتوه مقتاً عظيماً .

واما في القسم الشرقي من المملكة الرومانية ، وهو مملكة بيزنطية فقد ألبس الدين فيها لباساً غير لباسه الأول فاستحال الى الأباطيل الشركية وانتشرت فيه الأوهام والخزعبلات التي كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذوو العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، فغدت النصرانية عبثاً وسخرية . وعلى الجملة فقد كانت البدع والضلالات قد مزقت « المزدكية » الفارسية والنصرانية البيزنطية شر ممزق ، وبذرت في كل منها بذور الاضطهادات الهمجية والعداوات الوحشية ، فنمت تلك البذور نمواً هائلاً . ولا يعزبن عن البال انه كان على رأس كل من بيزنطية وفارس سلطان مستبدّ قاهر ، وملك عات أرهق الرعية ارهاقاً لا قبل لأمة باحتمال مثله ، فماتت كل عاطفة من

عواطف حب الوطن والاخلاص للدولة، زد على جميع ذلك ان هاتين المملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بعيد حرب طاحنة التظت نيرانها بينهما خرجت كلاهما منها مفتوتاً في عضدها، منهوكة قواها .

هكذا كانت حالة العالم لما غشيه طوفان الاسلام ؛ وعلى هذا الاعتبار فان العاقبة التي رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لابد منه ولا منتدح عنه . وجميع مافي الامر ان كتائب المملكة الرومانية الشرقية ومتدرعة فارس ، كانت من قبل خواضة حرب فتاكة ، لم تقو الآن على صد حملة الحاملين عليهما من أمة الصحراء المتعصبة ؛ فسقطت امام الفاتحين العرب سقوط التلاشي والاعياء ؛ فالهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم حمساً أبطالاً ؛ بل ان هذه الأمم التي كانت حتى الفتح الاسلامي مدقوقة العنق من جانب ملوكها ، قبلت الفاتحين مستاسلمة ؛ فقام عديد أرباب البدع يتهللون فرحاً وسروراً لنجاتهم من نير المضطهدين المقوتين . ولم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الاعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل في دين النبي العربي أفواجاً ، إيثاراً له بجدته وسذاجته على ذينك الدينين اللذين صارا غاية في الانحطاط والتدني . وقد عرف العرب بدورهم كيف يستدنى الحكم ويوثق السلطان حتى دانت لهم أمور الملك واستقرت نقطة دائرتها في أيديهم . فالعرب لم يكونوا قط أمة تحب اراقة الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير ؛ بل كانوا ، على الضد من ذلك ؛ أمةً موهوبة جليل الاخلاق والسجايا ، توّاقةً الى ارتشاف العلوم ، محسنةً في اعتبار نعم التهذيب ، تلك النعم التي قد انتهت اليها من الحضارات السالفة . واذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً ؛ وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة — الحضارة العربية ؛ وهي جماع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي ؛ ذلك الجماع الذي نفخ فيه العرب روحاً جديدةً .. فنضر وأزهر ، وألفوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الاسلامية ، فاتحد

وتماسك بعضه ببعض ، فأشرق وعلا علواً كبيراً . وقد سارت الممالك الاسلامية طيلة القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ — ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارةً ورقياً ، وتقدماً وعمراناً ، مرصعة الاقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والحواضر العامرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم ، يشعان اشعاعاً باهراً . طيلة هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الاسلامي يضيء على الغرب النصراني نوراً ، ثم غابت كواكبه . وأفلت أنجمه ، حتى أدركته لياليه السوداء وأجياله المظلمة .

لم يكد يستهل القرن العاشر حتى تبدّت الظواهر الواضحة تدل على حينونة العهد الذي أخذت فيه الحضارة العربية في الانحطاط ، وما كانت تلك الظواهر لتكذب فيما دلت عليه ، غير ان تلك الحضارة انما كانت في أوائل عهد الانحطاط تهبط دركةً دركةً ، وعلى هذه الحال المستمرة ، وانقضاء العصر العربي منذ القرن العاشر ، فقد دامت الحضارة العربية جلدةً تنتزع حياتها من مخالب الفناء انتزاعاً ، وسابقة للغرب النصراني ، حتى حاول النازلة الكبرى التي حلت بساحتها في القرن الثالث عشر . وكانت الاسباب في انحطاط الحضارة الاسلامية جمةً ، أشدها أن روح الشقاق القديمة الاصل ، تلك الروح التي كانت على الدوام آفة سياسيةً تنخر في جسم الدولة ، عادت فظهرت اذ نشأ التنازع على امارة المؤمنين ، وهذا التنازع قد أفضى الى فتن دموية ، وهذه الفتن وما فيها من حوادث الاغتيال وسلب الارواح قد أفنت تلك الحرارة التي عرفت في صدر الاسلام ، فقام مقام الابطال الأول ، مثل أبي بكر وعمر حاملي لواء الاسلام الأولين ، امراء دنيويون اتخذوا الخلافة وسيلة للجور والظلم ، والتباهي بمتاع الدنيا واعراضها . وكانت الخلافة في المدينة في الحجاز ، ثم نقلت الى دمشق في سورية ، ثم الى بغداد في العراق . أما في الحجاز فلم يكن البغي ولا الاستبداد هناك مستطاعاً ، لأن عرب

عواطف حب الوطن والاخلاص للدولة . زد على جميع ذلك ان هاتين المملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بعيد حرب طاحنة التظت نيرانها بينهما خرجت كلاهما منها مفتوتاً في عضدها ، منهوكة قواها .

هكذا كانت حالة العالم لما غشيه طوفان الاسلام ؛ وعلى هذا الاعتبار فان العاقبة التي رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لا بد منه ولا منتدح عنه . وجميع مافي الامر ان كتائب المملكة الرومانية الشرقية ومتدرعة فارس ، كانت من قبل خواضة حرب فتاكة ، لم تقو الآن على صد حملة الحاملين عليهما من أمة الصحراء المتعصبة ؛ فسقطت امام الفاتحين العرب سقوط التلاشي والاعياء ؛ فلهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم حمساً أبطالاً ؛ بل ان هذه الأمم التي كانت حتى الفتح الاسلامي مدقوقة العنق من جانب ملوكها ؛ قبلت الفاتحين مستسلمة ؛ فقام عديد أرباب البدع يتهللون فرحاً وسروراً لنجاتهم من نير المضطهدين المقوتين . ولم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الاعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل في دين النبي العربي أفواجاً ، إيثاراً له بجدته وسذاجته على ذينك الدينين اللذين صارا غاية في الانحطاط والتدني . وقد عرف العرب بدورهم كيف يستدني الحكم ويوثق السلطان حتى دانت لهم أمور الملك واستقرت نقطة دائرتها في أيديهم . فالعرب لم يكونوا قط أمة تحب اراقة الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا ، على الضد من ذلك ؛ أمة موهوبة جليل الاخلاق والسجايا ، توّاقة الى ارتشاف العلوم ، محسنة في اعتبار نعم التهذيب ، تلك النعم التي قد انتهت اليها من الحضارات السالفة . واذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة ـ الحضارة العربية ؛ وهي جماع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي ؛ ذلك الجماع الذي نفخ فيه العرب روحاً جديدة . فنضر وأزهر ، وألفوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الاسلامية ، فاتحد

وتماسك بعضه ببعض ، فأشرق وعلا علواً كبيراً ، وقد سارت الممالك الاسلامية طيلة القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ — ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارةً ورقياً ، وتقدماً وعمراناً ، مرصعة الاقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والحواضر العامرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم ، يشعان اشعاعاً باهراً . طيلة هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الاسلامي يضيء على الغرب النصراني نوراً ؛ ثم غابت كواكبه ، وأفلت أنجمه ، حتى أدركته لياليه السوداء وأجياله المظلمة .

لم يكد يستهل القرن العاشر حتى تبدّت الظواهر الواضحة تدل على حينونة العهد الذي أخذت فيه الحضارة العربية في الانحطاط ، وما كانت تلك الظواهر لتكذب فيما دلت عليه . غير ان تلك الحضارة انما كانت في أوائل عهد الانحطاط تهبط دركةً دركةً ، وعلى هذه الحال المستمرة ، وانقضاء العصر العربي منذ القرن العاشر ؛ فقد دامت الحضارة العربية جلدةً تنتزع حياتها من مخالب الفناء انتزاعاً ، وسابقة للغرب النصراني ؛ حتى حاول النازلة الكبرى التي حلت بساحتها في القرن الثالث عشر . وكانت الاسباب في انحطاط الحضارة الاسلامية جمةً ؛ أشدها أن روح الشقاق القديمة الاصل ؛ تلك الروح التي كانت على الدوام آفةً سياسيةً تنخر في جسم الدولة ؛ عادت فظهرت اذ نشأ التنازع على امارة المؤمنين ، وهذا التنازع قد أفضى الى فتن دموية ، وهذه الفتن وما فيها من حوادث الاغتيال وسلب الارواح قد أفنت تلك الحرارة التي عرفت في صدر الاسلام . فقام مقام الابطال الأول ؛ مثل أبي بكر وعمر حاملي لواء الاسلام الأولين ؛ امراء دنيويون اتخذوا الخلافة وسيلة للجور والظلم ، والتباهي بمتاع الدنيا واعراضها . وكانت الخلافة في المدينة في الحجاز ، ثم نقلت الى دمشق في سورية ، ثم الى بغداد في العراق . أما في الحجاز فلم يكن البغي ولا الاستبداد هناك مستطاعاً ؛ لأن عرب

الصحراء الاشداء ، أهل الاستقلال والحرية ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر ولا الانقياد لآمر مرهق ، وقد أوصاهم النبي بالحرية والشورى ، فقال لهم قولا مبينا « انما المؤمنون اخوة »(١) وقد كانت الخلافة في الحجاز شورويّة قائمة على قواعد الاسلام الصحيحة واركانه . فالامة هي التي اختارت أبا بكر وعمر وولت كلامنهما عليها خليفة ، وكلاهما كان ينزل على رأي الامة وحكمها ، وذلك على مقتضى الشريعة التي أوحى الله بها الى نبيه محمد وهي القرآن الكريم

وأما في دمشق ، ولا سيما في بغداد ، فقد تحولت الاحوال وتبدلت الأمور ، ولا يعجبن من ذلك والعرب الصرحاء الاقحاح ، الجاري في عروقهم الدم العربي البحت ، الدم المتحدّر اليهم من أصلاب ابناء الجزيرة ، انما كانوا فئة قليلة في أفواج الناس وطوائف الخلق الذين لاعداد لهم من أهل الشام وفارس وغيرهم من سائر المغلوبين المنتحلين الاسلام حديثاً ، فامتزج دم الغالب بدم المغلوب ، وجمع الاسلام بين الاجناس المختلفة والنحل المتنوعة . ولما كانت جميع هذه الشعوب المغلوبة قد سئمت الذلّ من ملوكها السابقين فعادت بسبب ذلك لاتقوى على احتمال الارهاق والصبر على المحنة ، لحدثان مادانت خاضعة مصافية للخلفاء المسلمين الذين أخذوا على التوالي يصطنعون ويستكفون من هذه الرعايا عمالا وحاشية ، وبالتالي جنداً لحراسة سياج الملك والذبّ عن حياض الدولة . وما زال الأمر هكذا حتى عرا الملك العربي ماعراه من النوائب ، فأخذ ظل سلطان العرب ، وقد ولت غرر أيامهم ، يتقلص الى الصحراء ، وأنشأت حكومتهم تنقلب الى مطية من مطايا الاستبداد الشرقي . ولما نقلت الخلافة الى بغداد بقيام دولة بني العباس (٧٥٠ م) ازدادت كلمة الفرس نفوذاً وامتد شأنهم وسلطانهم الى كل زاوية من زوايا الدولة ، وما الخليفة الأعظم هرون(٢)

(١) هذه آية قرآنية وليست حديثاً نبوياً — المعرب

(٢) نعم كان هارون الرشيد جباراً سفاكا للدماء على نمط غيره من ملوك الشرق المستبدين ، وقد كاد يبطش بالامام الشافعي لتهمة انه يميل الى أولاد علي ، كما ان ولده المعتصم أمر بضرب الامام احمد بن حنبل لانكاره القول بخلق القرآن ، وكما ان مالك بن انس امام دار الهجرة ضرب

الرشيد ، بطل «الف ليلة وليلة (١)» الا الملك العربي على شاكلة ملوك الفرس مثل قيا كسرو وكسرى انو شروان ، خلافاً كل الخلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر . وفي بغداد كما في غيرهامن سائر حواضر المملكة الاسلامية كان الاستبداد مقوضاً لأركان الدولة ايما تقويض، فغدا خلفاء النبي وهم على هذه الحال طغاة موسوسين ، وألاعيب بين أيدي الحظايا ، لايستطيعون القيام بعد بعبء من اعباء السلطان ولا القيادة بزمام من أزمة المملكة الاسلامية

ما انفكت المملكة تهبط وتتقهقر حتى تقطعت أوصالها ، وتفككت اجزاؤها ، وسُلبت منتها ، فصارت الوحدة السياسية مما لا يستطاع دوامه لافتقار الدولة الى قواد محنكين ، ولعفاء ذلك المزاج الاسلامي الصافي الجامع لسجايا عرب الصحراء الأول . وقبيل ظهور الاسلام كان أهل كل مصر من الامصار التي انتشر فيها ظلم اكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، ينزعون منزعاً قومياً ويحاولون نهضة وطنية ، فجاء الفتح الاسلامي طامياً ، قاضياً على جميع هذه المنازع ، أما الآن ، والمملكة الاسلامية محتضرة في النزع ، فأنى يستطاع المجيء بمثل ماجيء به في صدر الاسلام ؟ استطاع الاسلام ان يجعل الملايين من الخلق على اختلاف عناصرهم وأمزجتهم ومعتقداتهم ، ينتحلون الرسالة المحمدية ديناً ، ولكنه لم يستطع أن يُحيل هذه الملايين الى صورة اسلامية متماسكة البنيان ثابتة الصبغة ، فاعترض الازدرادَ شجاً ، وساء

في ايام المنصور لقوله ليس لمكره يمين. فاذا كان هذا هو العمل مع مثل اولئك الائمة العظام، مصابيح الاسلام ، الذين اناروا براهينه وشرعوا قوانينه ، وكانوا من العلم والزهد والتقوى بالمكان الذي لايخفى ، فما ظنك بحالة غيرهم من الامة . والحقيقة ان الخلافة لم يستقم أمرها على مراد الشارع الا مدة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ثم عادت بعد أن صارت بالارث ملكا عضوضا « ش »

(١) كتاب « الف ليلة وليلة » الوارد فيه ذكر هرون الرشيد مراراً عديدة قد ترجم الى أكثر اللغات الغربية وله عند الغربيين مقام ادبي رفيع لما حواه من وصف المعيشة العربية وعادات العرب الصرفة ايام العصر الذهبي في بغداد ، ورجال الادب من الفرنجة على الجملة يعدونه ذخراً من علم الأدب الخالد في العالم « المعرب »

الهضم فساءت نتيجته . دعا محمد العرب فلبوا دعوته حقاً ، لأنه انما اتاهم بكتاب وآيات وآراء مما كانت عقولهم وطبائعهم مستعدة بالفطرة لقبوله احسن قبول ، وناداهم مستفزاً نعرتهم وحميتهم ، وهم اخوان نخوة سجية وخلقاً ، فاستجابوا نداءه طائعين . فلما دخلت شعوب مختلفة غير عربية في الاسلام ، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يفسر بوحي غريزته رسالة النبي ، على ما يلائم منازعه الشعبية وميوله التقاليدية الخاصة ، ويوافق روح التهذيب الذي كان عليه ؛ فنتج عن جميع ذلك ان الاسلام الحقيقي الذي شاهده العالم في أول منشأه قد اعوج والتوى . ولنا أجلى دليل على هذا ما حدث في بلاد فارس حيث استحالت الوحدانية التي نادى بها محمد ، الى مذهب الشيعة ؛ فبات أهل فارس الشيعة على صلات واهية تكاد لا تربطهم بعالم السنة الاسلامي [1] ، واستحالت الوحدانية أيضاً عند البربر سكان البلاد المغربية الأفريقيه وغيرهم الى حال عبدت معها الأولياء ؛ وحدث مثل هذا عند المسلمين في الهند . على ان جميع ذلك لما شدد النبي في تحريمه والنهي عنه نهياً قاطعاً .

وما كفى ما حدث من الاختلافات الدينية ، وما أصاب صورة الرسالة النبوية ؛ حتى عمت البلوى بأن مُني الاسلام بتمزق الوحدة السياسية

(١) يذهب بعضهم الى كون استيلاء العرب على فارس وابادتهم ملك كسري ؛ معما كان سابقا من العداوة بين هاتين الامتين منذ احقاب متطاولة ، قد كان من نتائجها ايغار صدور العجم على العرب وتربصهم بهم الدوائر حتى يأخذوا منهم بثارهم . ولما كان دين الفرس المجوسية قد تلاشى امام الدين العربي المبين ، وعجز عن أن يكون عنصراً للمقاومة ، انتهز الفرس اول فرصة شقاق وقعت في الاسلام نفسه ، ونصروا الفئة التي وجدوا اكثر العرب ضدها وهي الشيعة ، ولعبوا دورا عظيما في توسيع هذه الفتنة بين العرب من طريق الدين فشفوا احنتهم من العرب لما كان هؤلاء أزالوه من سلطانهم بدون أن يقاوموا نفس الاسلام الذي رأوا برهانه اسطع من أن يكابر ، بل بمقاومة احدى فئتيه التي هي السنة والجماعة والتي كان منها جمهور العرب . لهذا تجد الفارسي يكره العرب ويحتقر كل شيء لهم الا الدين . وترى مهيار الديلمي يقول (قد جمعت المجد من طرافه : نسب الفرس ودين العرب) ومع كون الدين الاسلامي يمنع العصبية للاجناس ويضع فوقها اخوة المؤمنين خاصة كانت لاتزال ترى آثار العصبية الفارسية في بلاد العجم بالرغم من مزج الاسلام للاجناس ، حتى قال الصاحب بن عباد ، وهو فارسي الاصل خالص العقيدة الاسلامية عند ما جاء احد

والانشقاقات الزمنية . فأوّل ماحدث من هذا النوع كان في أوائل عهد الدولة اذ فرّ أحد المضطهدين من بني أمية الى الاندلس حيث انشأ في قرطبة خلافة (١) منافسة لتلك التي في بغداد ، فاعترف مسلمو الاندلس قاطبة بهذه الخلافة حتى وبرابرة شمال افريقية . ومن بعد ذلك بعهد أنشئت خلافة أخرى في مصر ؛ هي الخلافة الفاطمية ، وخلفاؤها متحدّرون على مازعموا من فاطمة بنت الرسول . أما الخلفاء العباسيون في بغداد فما برحوا يهبطون دركات الانحطاط ، ويفقدون من دولتهم وسلطانهم حتى صاروا بعد مدة من الزمن عبيداً مطاويع بين أيدي الترك — العنصر الغريب الداخل عليهم .

وقبل ان نشرع في بيان كيفية انتقال الدولة من ايدي العرب الهجناء ، ذوي الدم المزيج ، الى ايدي الترك ؛ وخطورة ذلك عظيمة في تاريخ الاسلام ؛ نؤثر ان نقول كلمة في اسباب انحطاط التهذيب والمدارك العقلية عند العرب ،

الفرس وتلا الابيات التي يفتخر بها على العرب وجاوبه عليها بديع الزمان الهمذاني : مارأيت رجلا يفضل العجم على العرب الاوفيه عرق من المجوسية ينزع اليه . ولما رسخت قدم الاسلام في العجم وزال كل عرق للمجوسية منهم عشقوا التشيع عشقاً كان أعظم عوامله كره العرب ، الى ان كاد الانسان يراهم شيعة قبل كل شيء . ومما ينسب الى الفيلسوف الفرنساوي رنان : ان الفرس هم شيعة أولا ومسلمون ثانيا . ولا شك ان في هذا القول مبالغة وانما يصدق على كثير من عامتهم . وبهذه الايام الاخيرة نجم عندهم كما عند غيرهم من الامم الاسلامية فئة تدين بالقومية وتحارب الجامعة الاسلامية ، ولكنها لاتزال ضعيفة بالقياس الى السواد الاعظم الذي عمدته الاسلام ، بل قد زال من بينهم اكثر النفرة التي كانت عندهم لاهل السنة مما هو نتيجة انحطاط القوة السياسية الاسلامية باجمعها وشعور العجم بالحاجة الى التضامن مع سائر المسلمين ، سنة الله في المستضعفين ولن تجد لسنة الله تبديلا (ش)

(١) الحقيقة هي ان عبد الرحمن الاموي الذي فر من وجه بني العباس الى الغرب ، ولحق بالاندلس واسس ملكا ودولة مستقلا بهما عن بني العباس ولقبه المنصور العباسي بصقر قريش ، اقتصر في دولته على الامارة ولم ينافس العباسيين في الخلافة العامة ، بل كانت تتلى الخطبة في مساجد الاندلس باسم خلفاء بغداد امام الملوك من بني امية الى ايام عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر الذي استفحل شأنه ، واتسع سلطانه ، واستولى على عدوتي الاندلس وافريقية ، واوغلت جيوشه في بلاد الافرنجة ، وصار اعظم ملوك زمانه ، فهو أول من تلقب من الامويين في الاندلس بالخليفة وبايعه مسلمو المغارب بالخلافة (ش)

ذلك الانحطاط الذي رافقه تمزق الوحدة السياسية في جميع الأدوار الأخيرة من العصر العربي .

كان العرب في عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الاخلاق ، سليمة الطباع ، نيرة السجايا ، مقاديم يركبون كل صعب ، تحركهم روح الرسالة بغاية غاياتها ، وتبعث فيهم عزماً شديداً وغيرةً متوقدةً . كانوا أشداء العصبية الدينية ، وهي العصبية المعروفة في كل جيل من الاجيال السامية ، وعلى شدة هذه العصبية ، فانهم لم يكونوا فيها على غير هدى ؛ بل كانوا مستبصرين يستنيرون بنور العقل وهدايته ؛ ومتمسكين تمسكا شديداً بمعتقدات دينهم وأركانه وأصوله ؛ غير ان دينهم هذا انما كان ديناً سهل الاكتناه والمأخذ ، واضحاً جلياً ؛ كان جوهر تعاليم محمد الوحدانية مع السنة المعلومة . فالاعتقاد كل الاعتقاد بأن لااله الا الله ، وبأن محمداً رسوله[1] من لدنه كما انزل في القرآن ، والقيام بالفرائض المسنونة المعينة ؛ كالصلاة ، والصوم ، والحج ، انما هذا فحسب هو جملة الاركان التي تألف منها الاسلام الذي كان عليه العرب يوم أصعدوا في الأرض يفتحون العالم الشرقي .

فالاسلام ، وهو هذا الدين البين الصريح ما كان ليقيد عقل العربي ويلقي عليه سجوفاً فوق سجوف . والعربي كان قد ادرك حالاً ثار فيه جده ، واشتعلت غيرته ، فبات توّاقا الى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها ، والتبسط في شؤون الحياة وتوفير أحوالها ، والتكيف على حديث مقتضياتها ، والخروج بها عما الفه أزماناً في فيافي الصحراء وكثبانها . لهذا لما نشر العرب فتوحهم ومدّوا سلطانهم على الاقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التنعم بالنعم المادية واستلذاذ الترف ورخاء العيش فحسب ، بل عكفوا جادين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة . فنشأ عن جميع هذا الجد

(١) الرسالة النبوية هي من عند الله ، وهي غير الالوهية اذ لم يقل محمد انه اله بنفسه بل كان يتحاشى قولا مثل هذا ، فقال انه آخر الانبياء والمرسلين ، أولهم آدم ثم قفى على أثره بموسى ثم بعيسى ، ثم بمحمد خاتم المرسلين كافة .

والترقيات ان أخرج للناس تهذيب عربي سام . فاضاءت العقول وازدهرت ازدهاراً كان فخر الحضارة العربية ، وواسطة قلادتها ، ودرة تاجها . وكان ردح من الزمن كانت فيه هذه الحضارة مشرقة الشموس، يانعة الثمار، وارفة الظلال . فسادت الحرية العقلية، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية، ووضعت القواعد والأصول ، واستنبطت الأحكام . بيد ان هذا لم يكن من صنيع العرب وحدهم ، بل شاركهم فيه كثير ممن كانوا متظللين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا في عهد ملوكهم قبل الفتح الاسلامي يذوقون الامرين ، ويسامون خسفاً شديداً في سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التي كانوا يخالفون فيها النصرانية البزنطية والمجوسية الفارسية .

على انه كان لهذا العصر الزاهر حد وقف عنده ، ثم عرا شمسه كسوف فظلام مطبق ، فظهرت فرق رجعية ، فما برحت تستقوي وتناهض غيرها من الفرق الحرة حتى تغلبت عليها ، ثم أنشأت تسود سيادة شديدة ممتدة . وانقضت الايام التي قامت فيها الفرق الحرة المعروفة على العموم بالمعتزلة (١) مستمسكة بلباب الاسلام وجوهره الصحيح ؛ وذاهبة الى أن العقل انما هو مقياس كل شيء . وقامت الآن الفرق الخلافية المحافظة من بعدها ذاهبة الى ان النقل والسنة انما هما مقياس كل شيء . واخذ من على هذا المذهب وفيهم كثير من النصارى الذين دخلوا في الاسلام وكانت أمزجتهم مابرحت مشربة روح دينهم البزنطي القديم ، يفسرون القرآن الكريم ويؤولونه ، ثم يؤلفون بين هذا التفسير والتأويل وبين السنة التي نقلتها الصحابة عن النبي ، وأوغلوا في ذلك ايغالاً بعيداً . فنتج عن ذلك أن أصيب الاسلام بمثل ما أصيبت به النصرانية في الاجيال المظلمة ، من تلبيس الدين عقائد غير عقائده ، ونسبة الآراء الدينية الجافة اليه وهو براء منها . فلا غرو اذا اشتد الخلاف واتسعت شقته وطال عهده بين الذين اعتصموا بالسنة والنقل فقاسوا عليهما ، وبين

(١) يقصد المؤلف بالمعتزلة جميع الفرق الحرة التي نشأت في الاسلام — «المعرب»

الذين جعلوا العقل نفسه مقياساً لكل [1] شيء . واذ قد انتهى الحال بالاسلام الى مثل هذا ، فالغلبة الأخيرة انما باتت متوقعة وهي غلبة عقيدة السنة والنقل على العقل . وفي الواقع فان تاريخ السنة والتقاليد [2] في كل بلد من بلاد الشرق انما هو تاريخ السير نحو ادوار الاستبداد وعواقبه المشؤومة.

كانت قد تلبدت في سماء الشرق سحب سوداء قاتمة ؛ فلما اشرقت عليها شمس الاسلام الأولى من الصحراء حقبة من الزمن ، مزقتها وبددتها ، وكيف لا تضمحل تلك السحب وقد سادت الحرية العقلية والفكرية ، غير انه بعد انقضاء هذا الدور دور النور والحرية ، عادت الغباوة والعقائد والأوهام تملأ فضاء الشرق وتستولي على عقول ابنائه . ومما ساعد على ذلك استحالة الخلافة الاسلامية من الشورى السياسية الصحيحة الى الاستئثار فالاستبداد .

فلما رسخ الاستبداد في الدولة ، وجاوز افقها بعيداً ، أخذت آثار ذلك تبدو جلية في موضع موضع ، والاستبداد بطبائعه هو عدو الحرية وقاتلها اينما وجدت ، سواء أكانت حرية العقل والفكر أم حرية العمل . وكان بعض الخلفاء من بني أمية في دمشق ، وقد استهواهم مذهب المعتزلة في بدء الأمر ، يوسعون في حرية الفكر ويرتاحون اليها ، ولكن لما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة ، اجفلوا منها أيما اجفال واضمروا لها القضاء عليها،

(١) لاشك في ان الكثيرين من علماء السنة غالوا في التقاليد والمحافظة على النقل ، ولكن مما لا شبهة فيه أن مرجع الايمان عند الجميع هو العقل ، وهو مشرق الدين ، ومناط اليقين ، وبدونه لا يقوم اسلام ، ولا يعتد بايمان ، والقرآن العظيم من اوله الى آخره يناشد بالعقل ، ويحاكم الى العقل ، ويهيب بالخلق الى التأمل والنظر ؛ وقد رأينا كثيرين من الائمة مثل حجة الاسلام الغزالي وغيره ممن ليسوا بمعتزلة يقولون اذا تعارض العقل والنقل أول النقل حتى يطابق العقل (ش)

(٢) ان لعقائد السنة والنقل والتقاليد عوامل وراثية عنصرية ؛ ومكانية أقليمية . وللبيئة والوراثة تأثير شديد في نشوء الانسان وتحوله في الشرق على الخصوص . وليس هنا موضع الاتيان على بيان هذه العوامل . انما يمكن مريد الاطلاع أن يقف على ذلك حق الوقوف في مؤلفات العلامة (أليسورث هنتنغتن Prof. Huntington)

فالمعتزلة حقاً لم تقصر أمرها على الآراء الفلسفية فحسب بل تخطت ذلك فأنشأت ترفع عقيرتها منادية بالرجوع الى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين ، يوم كان أمير المؤمنين يُنتخب للامارة انتخاباً ولا يرثها وراثة وهو منقاد لرأي الأمة ونازل على حكمها وشوراها . وقام الخوارج وهم من قلب شبه الجزيرة ومن أشد العرب عصبية يؤيدون تراثهم من حرية الصحراء ويذودون عنه وينادون بتوسيع نطاقه ، غير معترفين بسلطة الخليفة ، ولا مبالين بهيبة أمير المؤمنين (١) وذاهبين في السلطة الى أبعد من الحكم الجمهوري نفسه

فنشأ عن ذلك ان الخلفاء أخذوا يستدنون اتباع الفرق المحافظة ويقربونهم منهم ، ويعتضدون بهم ، ويقصون عنهم الفرق الحرة كالمعتزلة ويشددون

(١) أول من خرج على الامام بل على الامامة من حيث هي ، قائلين لاحكم الا لله ولا لزوم لنصب الخليفة ؛ هم الفرقة التي قاتلت سيدنا عليا رضي الله عنه ؛ ومن هناك بدأ تاريخ الخوارج الذين لعبوا دوراً عظيما في الاسلام وكانوا فرقاً متعددة ؛ يختلف بعضها عن بعض بمبادىء معلومة ، ولما طال النزاع بين علي ومعاوية على الخلافة ، نهض من هؤلاء الخوارج من قالوا قد تمادت هذه الفتنة التي بجرت جداول من الدماء بين المسلمين وما السبب فيها سوى علي ومعاوية ، ثم هناك عمرو بن العاص الذي هو من موقدي نارها ، فلنقتل هؤلاء الثلاثة ولنرح الاسلام منهم . فانتدب لذلك منهم ثلاثة قصدوا اغتيال الثلاثة أما معاوية فنجا بكونه يوم اريد قتله لم يأت الى المسجد للصلاة وبعد ذلك جعل لنفسه مقصورة ليكون بمنجاة من المكيدة ، واما عمرو فاشتبه على القاتل برجل اسمه خارجة فقتل خارجة خطأ بدلا عنه ، واما أمير المؤمنين فاصابه القاتل وفدحت به المصيبة كما هو معلوم وقال الشاعر :

وليتها اذ فدت عمراً بخارجة   فدت عليا بمن شاءت من البشر

وكان قد رسخت روح الفوضوية في الخوارج الى ان صاروا يقتالون الملوك وارباب السلطة مفادين بانفسهم متباهين بغيلاتهم مترقبين الاجر على عملهم حتى قال بعضهم في عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي كرم الله وجهه :

لله در المرادي الذي اخترمت   يداه مهجة شر الخلق انسانا

ياضربة من مريد ما أراد بها   الا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

ولا احسب هذا القول الا من شدة ولعهم بمناهضة السلطة ، ولمجرد غلوهم في انكار الامامة التي كان علي مثالها ، والا فقل ان وجد في التاريخ البشري مثل علي بن أبي طالب في كمال صفاته ، وكثرة فضائله ، وعلو مزاياه ، ومن كان يقدر ان يقول في علي شيئاً ، فانت ترى ان هذه المنازع الفوضوية وروح مغالبة السلطة التي نراها في الغرب الاوربي اليوم قد عرفها الشرق ايضاً   (ش)

عليها النكير ، ويستعينون بالمشايعين لهم من العرب الهجناء ويشـدون بهم أزرهم ، مؤثرينهم على العرب الصرحاء من شبه الجزيرة ، حتى باتت الحكومة في الدولة العباسية حكومة دينية مستبدة ، فرسخت عقائد الدين ملبسة لباس التقاليد وقررت حدودها ، واضطهد اتباع مذاهب المعتزلة وقتلوا تقتيلاً . وما كاد يكون القرن الثاني عشر من التاريخ المسيحي حتى امحت كل معالم الحضارة العربية ، وقوضت أركانها ، وجف كل عنصر من عناصر الحياة فيها ؛ وقضي على كل فكر مبتكر ، ورأي مبتدع . وعاد لا يسمع صوت من أصوات المعتزلة ، ولا يرى لأحد منهم أثر ، وهجع العقل الاسلامي هجعته الطويلة ؛ وما زال مغرقاً فيها حتى استفاق اليوم استفاقته الكبرى مذعوراً .

في أوائل القرن الحادي عشر م . تجسم انحطاط الحضارة العربيـة تجسماً تاماً . وبعد ان اختفت الروح العربية الأولى التي هبت من الصحراء هبوبها العجيب ، أخذ العرب الهجناء يرون ملكهم السياسي يذهب من أيديهم الى أيدي غيرهم من الدخلاء ، وكان هؤلاء الدخلاء الوارثون للدولة العربيـة هم الترك . والترك هم العرق الغربي من الجيل الطوراني ، جيل القبائل الرحالة التي كانت منذ عهد لا يعرف أوله تجوب انجاد أواسط آسية وشرقيها ، ولما كان العرب يفتحون فارس ، تحاكت قوادهم وجنودهم بالترك الرحالة ، وهؤلاء عهدئذ يعوجون المفاوز محاولين جواز حدود فارس الشمالية الشرقية ، غير ان العرب وهم في ابان سلطانهم ، ويخشـع غالب قطين الارض لذكر خلفائهم ، ما كانوا ليرهبوا الترك أو يحسبوا لهم حساباً ، بل رأوا في الترك نفعاً لهم ، والترك قوم عرفوا بالجفاء والقسوة ، لا يحسنون شيئاً أكثر من طاعة آمرهم والقتال كالمجانين ، فلهذا ما كان الخلفاء لينفروا منهم في أول الأمر بل أخذوا يستأجرون منهم جنـداً من الطراز الأول لاعزاز الجيش والذود عن ذمار الدولة ، ويستكثرون منهم بطانة وحرساً .

قلنا ان العرب ما كانوا ليرهبوا الـترك في أول الأمر ، ولـكن لما وهن

عظم الخلافة وذهبت ريحها تحولت الحال فآلت غير مآل ، اذ تمكن الترك المستأجرون من الحلول في كل موضع قوي من مواضع الدولة ، ولا سيما في الجيش العربي ، فانشأوا يتصرفون تصرف السيد الآمر والحاكم المطاع ، ففتحوا أبواب التخوم العربية الشرقية ، ومهدوا السبيل تمهيداً لابناء جنسهم ، فأخذ هؤلاء يتدفقون كالموج وعلى رؤوس طوائفهم قوّاد أمراء ، وطفقوا يعيثون في البلاد احراراً أنى شاءوا ، ويقيمون حيث طاب لهم المقام ، ويجوسون خلال الديار ، ويسلبون وينهبون ، ويفجعون ويفتكون .

ولما شرع الترك يدخلون في الدولة كانوا يقبلون سريعاً على الدخول في الاسلام أيضاً ، بيد أن الاسلام لم يدمث من جفائهم ولم يقوّم من أودهم كثيراً ، ومتى ماجئنا نعتبر شأن هؤلاء الترك الدخلاء يجب علينا ان نفرق بينهم وبين الترك العثمانيين المعاصرين ، سكان القسطنطينية وآسية الصغرى . فان الترك العثمانيين اليوم ، انما يجري في عروقهم دم مزيج ، بعضه أوروبي وبعضه الآخر اسيوي غربي ، ويخالط مزاجهم عنصر غربي ، وعنصر شرقي عربي ، فهم والحالة هذه ، يختلفون اختلافاً كبيراً ، تهذيباً وخلقاً ، عن آبائهم واجدادهم الأولين (١) وعلى هذا كله فان العثمانيين المتأخرين ما برحت فيهم السيم الطورانية الخشنة التي يتميز بها ترك قفقاسيا المعروفين بالتركمان عمن سواهم من الترك المقيمين في غربي آسية

(١) هذه نظرية الفئة الكبري من علماء الترك العثمانيين الذين درجوا وقد وافقهم عليها كثير من ادباء الترك المعاصرين مثل عبد الحق حامد بك الملقب بالاديب الاعظم ، وسليمان نظيف بك واخيه فائق عالى ، وجناب شهاب الدين بك ، وجلال نورى بك ، والشاعر محمد عاكف ، وانور باشا المؤرخ (هو غير انور باشا ناظر الحربية وهذا أيضا ممن يقول بهذه النظرية) واسماعيل حقي بك الديار بكرى ، واسماعيل حقي بك الازميرى ، ورضا توفيق الفيلسوف ، ومنهم علي كمال الذى قتله الكماليون في ازميد لخيانته وجم غفير من كتابهم ومفكريهم ووزرائهم وشيوخهم ، وهي ان الاتراك العثمانيين وان كانوا من الترك اصلا ومحتداً فقد أصبحوا باختلاط دمهم بسائر الامم التي ساكنوها من قرون في غربي آسية وجنوبي اوربا من فرس وعرب وكرد وجركس وكرج وروم وارمن وبلغار وارناووط وبشناق الخ ، امة قائمة بذاتها قد ابتعدت كثيرا عن

فكيف كان التركي القديم بطباعه وسجاياه ترى ؟ انما كان في المقام الأول جندياً مجرباً ومقاتلا باسلاً ، وهو لم يكن في ذلك العهد ذا فكر ثاقب وعقل مبتكر ، بل كان فيه شيء من حب الاطلاع والاستشفاف ، فلم يقتبس غير القليل من الآراء المسكرية في شؤون القتال ، فالطاعة العمياء ثم الطاعة العمياء وقتال الاستبسال فحسب ، هما جميع ما كان عليه التركي يوم تقدم ليتناول قيادة الاسلام من الخليفة العربي الضعضع الواهن العظم .

الترك الاصليين ولا سيما من المغول الذين يقال لهم ياجوج وماجوج ، والذين قد اشتهروا بقبيح المنظر وغلظ الطبع وكره الحضارة والشغف بسفك الدماء وتخريب الديار ونسف العمران ، مما اتفق المؤرخون شرقاً وغرباً على انه دأبهم ، حال كون الأتراك العثمانيين قد عرفوا بصباحة الوجوه وكرم الاخلاق ودماثة الطباع وحب المدنية والجمع بين شدة البأس ورقة الشمائل ، ويزيدون على ذلك أن الثقافة التركية العثمانية والادب التركي العثماني (وهم يسمون ذلك بالحرث) هما خاصان باتراك آل عثمان لأنهما مقتبسان من الآداب العربية والفارسية ، لأن لغة العرب ولغة الفرس كانتا لغتي العلم والشعر عند الأتراك منذ هاجروا الى غربي آسية ، فلذلك قيل للغة الدولة اللغة العثمانية لافتراقها كثيراً عن لهجة أتراك اواسط آسية ، ولكونها لاتشبه في شيء لغة المغول . فهذه الفئة وان كانت لا تبرأ من الترك المسلمين سكان التركستان الروسي والتركستان الصيني وشمالي فارس ، فهي تبرأ من المغول وتلعن تاريخهم وتقول انهم هم كانوا سبب بوار الشرق وانحطاط الاسلام ، وانهم هم الذين نسفوا عمران البلاد التركية خراسان وما وراء النهر والبلاد الفارسية والبلاد العربية ، فاهلكوا الملايين ودمروا العواصم الكبرى ، ولم تقم للشرق بعد مصيبتهم قائمة . وبعض هذه الفئة مثل أنور باشا المار الذكر يزعم انه لايوجد أدنى صلة نسب بين الترك العثمانيين والمغول ويميل الى ان الترك هم اصلا من الجنس الابيض الآري ، وانما اختلطوا بسبب الجوار بالجنس الاصفر المغولي ، وقد وصف بعض مؤرخي الترك اعمال جنكيز وهولاكو وقومهما بمثل ماوصفها به مؤرخو العرب والفرس والافرنج والروس ، لا بل الف لهذا العهد رجل اسمه طاهر المولوي كتاباً خاصا بفظائع جنكيز وهولاكو وفجائعهما ، وقال ليس للترك أن يفخروا بمثل هؤلاء المفسدين في الارض العائثين المدمرين الذين كانوا علة انحطاط الشرق عن الغرب ، واعظم بلاء وقع على الاسلام ، واذا اراد الأتراك المسلمون ان يراجعوا صحيفة احسابهم فليراجعوا تاريخ آل طولون بمصر وتاريخ السلاجقة وآل زنكي الاتابكي والدولة العثمانية . وقال جلال نوري صاحب التصانيف الاجتماعية العديدة : الترك العثمانيون هم مسلمون أولا وترك ثانيا .

وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية ، تخالف الفئة الاولى في كل هذه النظريات واشهر دعاتها ضيا كوك الب ، واحمد اغايف ، ويوسف آقشورا اللذان قدما من الروسية ، وجلال ساهر ، ويحيى كمال ، وحمد الله صبحي رئيس وجاق « ترك يوردي » ومحمد امين بك الشاعر

حقاً ، ما دهى الاسلام وسائر العالم معاً ، مثل هـذه الداهية ، وما نزل بالحضارة العربية مثل هذه النازلة ، وكفى الاسلام انه دان لحكم أمة متعصبة

الملي ، وكثير من الادباء والمفكرين واكثر الطلبة والنشء الجديد ، وهؤلاء يزعمون ان الترك هم من اقدم امم البسيطة واعرقها مجداً واسبقها الى الحضارة ، وأنهم هم والجنس المغولي واحد في الاصل ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ، ولم يقتصروا فيها على الترك الذين في سيبريا وتركستان الروس وتركستان الصين وفارس والقوقاس والاناطول والروملي ، بل مبدأوهم مد هذه الرابطة الى المغول في الصين والى المجار والفنلانديين في اوربا وكل من يقال انه ينمي الى اصل طوراني ، وهم يقولون بخلاف ما يقول الاولون ، فهم ترك اولاً ومسلمون ثانياً ، وشعارهم عدم التدين واهمال الجامعة الاسلامية الا اذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية ، فتكون عندئذ واسطة لا غاية ، وقد غلا كثير من هذه الفئة في الطورانية حتى قالوا : نحن اتراك فكعبتنا طوران . وهم يتغنون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول ولا ينكرون شيئاً من اعمالهم ، وينظمون الاناشيد للاحداث في وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الاعجاب بها ويرقوا مستوى نفوسهم بزعمهم ، وقد سألت صديقي ورفيقي في مجلس الامة محمد امين بك الشاعر الملي ، وهو من أحسنهم أخلاقاً وممن لا يبلغ بهم نزوع العرق الطوراني ان يشنأ العرب وينصب لهم العداوة ، كما هو شأن كثير من رفاقه ، بل ممن سبقت لهم خطب في المجالس ينوه فيها بفضل العرب ، فقلت له : كل شيء فهمته وانكم طورانيون وانه ينبغي لكل امة ان تتمسك بجامعتها القومية وتحييها في صدور ابنائها وان ذلك لا ينافي الاسلام لان الجامعة الطورانية باعتبار أن الترك مسلمون تقوي الاسلام ولا توهنه ولكن الذي لم افهمه الى اليوم هو افتخاركم دائماً بجنكيز مع عيثه وتدميره وما جرى من قومه من نسف العمران واكتساح البسائط . فقال لي : « نفتخر به لكون تشكيلاته العسكرية كانت في غاية الانتظام « تشكيلات عسكريه سى مكمل ايدى » وما يعزى الى المغول من العيث والدعارة فلا يزيد على ماجرى في الحرب العامة من التخريب الذي اقتضته الدواعي الحربية . افلا ترى ما فعل الالمان في شمالي فرنسا مع انهم ارقى امة متمدنة » . هذه هي نظريتهم من جهة ما اشتهر به المغول من العيث والفساد في الارض ، وليس هذا محل تبيين الفرق بين تخريبات المغول وتخريبات الالمان في شمالي فرنسا .

وقد امتد الخلاف بين هاتين الفئتين في الترك الى مواضيع أخر من أهمها مسئلة الرجوع الى اللغة التركية القديمة ، وعلى رأيهم « تصفية » اللغة التركية الحاضرة من الالفاظ العربية والفارسية ، والاعتياض منها بالفاظ تركية مهملة بعدم استعمالها بين الاتراك العثمانيين مع ان استعمال العربي والفارسي هو مما يضعف القومية الطورانية ، وعلى فرض ان هنالك معاني لا توجد بازائها كلمات تركية صرفة فيمكن الاخذ من العربي والفارسي على شرط تتريك هذا المستعار من تينك اللغتين ، وقد دارت على هذه المسئلة الجلى مباحثات ومناقشات طويلة ، ولا تزال دائرة ، وحزب التصفية هذا هو كما لا يخفى هو الحزب الطوراني ، كما ان حزب العربي والفارسي

مغالية جافة جاسية ، لم يكن الرقي مستطاعاً في ظل دولتها [١] ، فبات ضرباً من ضروب المستحيل . أجل ، لا ينكر ان الاسلام قد اعتز بقوة حربية ، كبيرة جديدة ، ولكن قد سيء التصرف بهذه القوة حتى جنت على الاسلام جنايات هائلة ، وجرحته جروحاً كبيرة فبات نزيفاً يتقهقر سريعاً . وأول عمل قام به الترك الزاحفون هو اكتساحهم آسية الصغرى ، واستيلاؤهم على

هو الحزب الاسلامي ، واستعملوا في الاستانة لفظي « تركجي » و « اسلامجي » للدلالة على هذين الحزبين

وبرهان الحزب الاسلامي في مناهضة التصفية هو اولا ان اللسان التركي وان كانت فيه متوفرة أسماء الامور المادية وافعال الحركات البدنية ، فهو لسان فقير في الامور العقلية ، قليل الالفاظ المؤدية للمعاني المجردة ، ان امكنه ان يفي بحاجة امة في حال البداوة وطور السذاجة فلا يمكنه الوفاء باحتياج امة راقية ودولة عظيمة ، فلا بد له والحال هي هذه ، من الاستعارة من لغة العرب والتوكؤ على لغة الفرس ، لاجل اكمال مانقصه من تلك الجهة . ثانيا ان الادب التركي الذي نشأ ونما وحررت فيه الكتب المتعة ، وقصدت القصائد البليغة ، وصار أدباً ممدوداً ، وجال في ميدانه فحول من الكتاب ونوابغ من الشعراء هم مفاخر امة الترك انما هو هذا الادب المقتبس من الفارسي والعربي والذى صار أدباً قائماً بذاته ، افيحسن ان يغير اسلوبه وتبدل ديباجته ، ويحرم الناس طلاوته ويعدل عنه الى ادب تركي بحت يرجع الى لغة ليس فيها شيء من الاستعداد لتكوين ادب بالغ درجة الرقي كالادب العثماني الحاضر ، وعلى فرض المحال أنه تيسر ذلك افلا يلزم حقب متطاولة لتأسيس ادب جديد ؟ اما كون استعمال العربي والفارسي هو مما يضعف القومية التركية والحال ان مقصد الترك الجدد هو ايقاد شعلتها في النفوس فالحزب الاسلامي هذا لايجد الادب العثماني هذا حائلا دون نمو الفكرة التركية بل يجد تقرب التركية من العربية والفارسية ، عدا كونه ازين لها وازيد في محاسنها ، انفع للاتراك من الجهة السياسية لأنه يؤكد الروابط التي تربط العرب والفرس وسائر المسلمين بالامة التركية مما يزيدها قوة ومنعة اذ كان هذا الحزب لايزال دستوره في السياسة هو الاتحاد الاسلامي ويرى الاسلام فوق كل شيء ، وقد كان انور باشا ناظر الحربية يقول اذا كان اتراك التركستان مرتبطين بنا ، فليس ذلك لكوننا اتراكا مثلهم بل لكوننا مسلمين فحسب. (ش)

(١) كما ان المؤلف وغيره من كتاب الافرنجة يجعلون انحطاط الاسلام نتيجة استيلاء الاتراك عليه ، كذلك بعض الاتراك الجدد يجعلون سبب انحطاط تركيا هو صبغتها الاسلامية ، وعلى الاخص صبغتها الاسلامية العربية ، ويقولون اذا وجب أن نبقى مسلمين وجب ان ننزع من اسلامنا ديباجته العربية . وعلى هذا بدأوا في هذه الايام بقراءة الخطب في صلوات الجمع بالتركية. ولسنا الآن في مقام تفنيد مزاعم هذه الفئة (ش)

بيت المقدس في أواخر القرن الحادي عشر م (١). غير ان جانباً من آسية الصغرى ما برح حتى اليوم قسماً من العالم النصراني. ولما أخذ سيل الفتح العربي يتدفق في القرن السابع م من شبه الجزيرة، فما زال يطمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس، فصدمه الروم هناك، اذ استجمعت الامبراطورية الرومانية الشرقية من قواها ما استجمعت واستطاعت أن توقف الفتح العربي عند حد، عند تلك الجبال، على عناء وتعب شديدين. اما الآن فاجتاز الترك الحدود البيزنطية ودوّخوا آسية الصغرى تدويخاً، وأخذوا يهددون القسطنطينية وهي الحصن الشرقي الحريز للنصرانية (٢). وكانت بيت المقدس في أيدي المسلمين منذ الفتح العربي (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية ايما رعاية (٣)، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره، فلا ضيقوا على النصارى ولا نالوا بمساءة طوائف الحجاج الوافدين كل عام الى بيت المقدس من كل فج من افجاج العالم النصراني، بيد ان الترك بعد فتحهم البلاد، لم يجروا على مثل ما جرى عليه العرب من قبلهم، فالترك لما كانوا لا يرون لذة في غير السلب وكره غير المسلمين، أخذوا يستلبون الاماكن المقدسة، ويمتهنون حرمة النصارى، ويحولون دون الحج، فبات مستحيلاً

فاكتساح آسية الصغرى والاستيلاء على بيت المقدس معاً، انما نزلا نزول

(١) اكتسح الترك آسية الصغري بعد انتصارهم على الجيش البيزنطي، فسحقوه سحقاً في معركة «منزيكرت» سنة ١٠٧١ م. واستولى الترك السلجوقيون على بيت المقدس فسنة ١٠٧٦.

(٢) وقد كان العرب حصروا القسطنطينية ست مرات، واستشهد أبو أيوب الانصارى في حصارها. ومقامه معروف فيها «سلطان ايوب» واسس لعهد العرب جامع غلطة (ش)

(٣) لما فتح المسلمون القدس جاءها عمر رضي الله عنه وطاف في معاهدها المقدسة، ولما كان في كنيسة القيامة جاء وقت الصلاة، فابتغى محلا ليصلي فدعاه البطريرك صفرونيوس الى مكان يصلي فيه داخل الكنيسة فقال له: لا يأتي المسلمون بعدي فيقولون هنا صلى عمر يدعون بالكنيسة وخرج عمر من الكنيسة وصلى في مكان بني فيه جامع فيما بعد. (ش)

الصاعقة على النصرانية ، فقامت لهذا الخطب وقعدت ، وطفقت اوروبة تميد من اقصاها الى اقصاها مشتعلة بغضاً دينياً ومحتدمة غضباً وحنقاً ، وقام ألوف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور ناراً دينية ويحضون على حماية بيت المقدس وقبر المسيح ، حتى جن الغرب النصراني جنونه الكبير ، والتهبت الغيرة الدينية في كل جارحة من جوارحه وعرق من عروقه ، وغشى التعصب على ابصاره ، فهب يبعث البعوث الصليبية ، والجحافل الجرارة دراكاً ، لقتال الشرق الاسلامي في سبيل الصليب

فداهية الترك ، ونازلة الحروب المقدسة الصليبية ، كانتا شر طعنة طعن بها صدر العالم ، وسبباً دائماً في سوء العلاقات بين الشرق والغرب (١) . ففي سنة ١٠٠٠ م . كانت العلاقات النصرانية الاسلامية أخذت تستقيم وتسير سيراً منبئاً بالكف عن العداء ، ومبشراً بازدياد تحسن الحال وخير المصير . وكانت الاحقاد ، التي ثارت على أثر تدفق الاسلام ، على حال التلاشي والاضمحلال ، وظهر عهدئذ ان الحدود الجغرافية بين عالم الاسلام وعالم النصرانية كادت تستقر ، فليس أي الفريقين يطمع بعد في الخروج على الآخر ، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطير وكبير غير الاندلس ، حيث كان هناك مصطدم الاسلام والنصرانية المصطدم الأخير ، بل على كل كانت الاندلس اذ ذاك قد باتت تعد حداً فاصلا بين العالمين ، وعلى الجملة فقد كانت علائم ازدياد الوئام والطمأنينة بين الاسلام والنصرانية متجلية واضحة ، وناحية منحى حميداً ، فلو قدر لهذه الحال ان تستمر وتسير بحيث يسكن كل عالم الى أخيه ، لكانت أتت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والانسانية . فالعالم الاسلامي كان ما برح حتى ذلك الأوان سابقاً لاوربة الغربية سبقاً بعيداً ، وفائقاً عليها علماً وتهذيباً ، بيد ان الحضارة العربية كان قد أخذ الكمد والكلف يبدوان عليها ، في الحين الذي طفقت فيه نفس الغرب النصراني تجيش ، ونهمته تشتد ، للافلات من ربق جهله ، والخروج

(١) لم تكن اوربا في وقت من الاوقات اقل تعصباً من الترك والظن بعضهم خلاف ذلك (ش)

من ظلمته وبربريته • فأي خير كان أعظم من ذلك الخير الذي كان يرجى من الود الوليد الذي ظهر في القرن الحادي عشر م • بين الشرق والغرب فيما لو قيض له النمو أمداً بعيداً ؟ بل ترى أي نفع كان أجلّ من تقارض العالمين بعضهما البعض العون واقتسام السراء والضراء ؟

أجل، لو كان ذلك لكان به نجاة كبيرة، ولكانت الحضارة العربية الاندلسية، وفيها علوم اليونان والرومان، قد ايقظت نهضتنا من مرقدها قبل استيقاظها بعهد طويل، ولكانت روح الغرب التي تمشت في جوارحه في الاجيال الوسطى، تلك الروح الجبارة، هبت فتناولت الشرق وتغلغلت في احشائه متغلغلها في الغرب، فنجت الحضارة الاسلامية من متخبطها ومتعثرها في ذلك الحلك الداجي الذي طال عهده

غير انه ما كان ذلك ليكون • فقد اختفى العربي الدمث الخلق، اللين العريكة، وجاء من بعده التركي المتعصب الخشن القاسي، فعاد الاسلام يثب ويهتاج، ولكن شتان بين اهتياجه الأول بالأمس، واهتياجه اليوم ! أما بالأمس فقد كانت تحرك العرب روح الرسالة وفضائلها ومُثلها العليا، واما اليوم فما يحرك الترك انما هو روح الطمع والفتك وحافز الاستيلاء والغصب • ومن ذلك الحين بدأ العراك يشتد، وناره تتقد بين الدولة التركية، والحضارة الغربية التي كان نشوءها مرجواً لها عهدئذٍ، ودام هذا العراك قروناً. وما كانت الحروب الصليبية سوى رد الغارة على الترك الذين أخذوا منذ ذلك العهد يوالون غاراتهم على النصرانية برهة ستمائة سنة، حتى صدموا الصدمة الكبرى عند اسوار «ڤينا» سنة ١٦٨٣ م [1] وقد كان من الطبيعي أن

(١) مازلنا نؤكد ان الاوربيين في عهد الحروب الصليبية وفيما بعدها بقرون لم يكونوا قل من الترك تعصبا ولاجفاء وان تاريخهم في الحروب الصليبية وما جرى منهم عند فتح القدس أمن ذبح ٧٠ الف مسلم في المسجد الاقصى حتى سبحت الخيل الى صدورها في الدماء ومن استئصالهم شأفة المسلمين من الاندلس، وصقلية وجنوبي فرنسا وسردانية ؛ مع انهم كانوا يحصون في هذه البلدان بالملايين تاريخ شاهد بصحة مانقول، فقد عفى الاوربيون كل أثر للاسلام

تأصل العداء ، واستحكمت الشنأة ، واستقر التعصب بين الاسلام والنصرانية ، مما ما برحت جراثيمه حية ، وسموم ثماره نامية حتى الآن . وهذا النضال الذي تتلو انباءه في صحف الاخبار اليوم ، النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتلته الوطنيين ، وبين اليونان في آسية الصغرى ، انما هو حلقة من سلسلة حروب بين الاسلام والنصرانية ؛ حلقتها الاولى كانت في فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة ، وحلقتها الأخيرة الى اليوم هي هذه الحرب بين الترك واليونان في أغوار الاناضول وانجادها .

في أوربا ولم يرضوا ان يبقى فيها مسلم واحد . حال كون الترك الذين يقال انهم برابرة بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الاجناس كانوا يقدرون في اوقات عديدة ان يستأصلوهم أو ان يحملوهم على الجلاء ، كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب . وقد يقال ان الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الاسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدي الذي يمنع الاكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية . وقالوا ان السلطان سليمان القانوني كان فكر في سوء المغبة من بقاء الملايين من الاروام والبلغار والارمن وغيرهم في الممالك العثمانية ؛ واحب اخراجهم ؛ وقيل بل السلطان سليم ، وكان كل مرة يعترض في ذلك شيخ الاسلام ويقول : ليس لنا عليهم الا الجزية . والجواب قد يكون ذلك ويثبت ان الاسلام هو الذي هذب الاتراك وحال بينهم وبين طرد المسيحيين من ديارهم ؛ فلماذا ياليت شعري لم يهذب الانجيل الشريف اقوام اوربا ولم يمنع البابا اسكندر السادس واساقفه الكنيسه في اسبانية ، والملك فرديناند ، والملكة ايزابلا ، وغيرهم من الملوك المشهورين بالكثلكة من نصب ديوان التفتيش وارتكاب تلك الفظائع في العرب واليهود ممن بقي على ديانته سراً الى ان جلوهم باجمعهم عن ذلك القطر الذي اوطنه العرب زهاء ٨٢٠ سنة ، مع ان الانجيل كما لايخفى لايجيز شيئاً من هذه الافعال بل يوصي الناس بحب الاعداء فكيف تتالف مع شريعة الانجيل التي هذا مبلغ وداعتها وتسامحها قضية تحريق الناس بالنار لاجل عقائدهم ......

لانريد أن نعزو الى هذا المؤلف التجاهل أو التعصب فيما جهله نتيجة عمل الترك بل نشهد بكونه من اوفر المؤلفين الاوربيين انصافاً وتحرياً ، ولكن ثمة امور لايزال الاوربي مهما بلغ من انصافه وحرية فكره غافلا عنها أو هو لما يعتقده من علو قومه وكونهم مجبولين من طينة هي غير طينة الآخرين ، لايقدر ان ينظر الى عيوب قومه وآثام بني جلدته بالعين التي يرى بها عورات غيرهم من الاقوام . فقد جرت لنا مباحثات طويلة مع كثير من علماء الافرنجة في موضوع التسامح وعدمه ، فكنا نراهم يعتقدون انه لا يوجد في الدنيا اقل تسامحاً وسجاحة من أهل الشرق فاذا ذكرناهم بما فعلوه بعرب الاندلس قالوا : ذلك شيء آخر ، والى الآن لانفهم لماذا هو شيء آخر . وبعضهم يقول هذه حوادث جرت في القرون الوسطى . فاذا سلمنا

وليس من غرضنا في هذا الكتاب ان نبحث في تاريخ الحروب التي قامت بين الترك والنصرانية ، انما ما يجب حفظه في البال ان تلك الحروب ظلت الى اليوم عداء مزمناً ، وعلة دائمةً بين الشرق والغرب

اما الشرق الاسلامي فقد قدّر له بعدان دارت الأيام بحضارته العربية ، وحنا عنقه للنير التركي الثقيل ، ان يلاقي فوق ذلك اهوالاً أشدّ وأفدح ، منهالةً عليه كغيرها من الجيل الطوراني • ففي أواخر القرن الثاني عشر ، هبت العروق الشرقيــة من الجيل الطوراني ، ملتفــةً ملتئمةً حول بعضها بعضاً ، مكونةً وحدةً دامت مدةً ، وعلى رأسها زعيم جبار عات هو جنكيز خان . اتخذ هذا الطاغية « الطاغية الذي لايغلب » لقباً له ، وطفق يزحف ناهباً العالم نهباً • فاكتسح في أول أمره الصين الشمالية وأنزل بها هولاً شديداً ، ثم اتجه غرباً ، زاحفاً مدمراً ، وناهباً مخرباً ، فرأى العالم من بلائه ما لم يرَ مثله من عات قبله • هذا هو النهوض الذي نهضه المغول في ذلك العهد ، وهذا اسمهم ما برح حتى اليوم اذا ماجرى على الألسنة ، وجفت له القلوب واقشعرت منه الابدان .

زحف جنكيزخان بكتائب من الجند لاتحصى ، مستصحباً مهرة المهندسين الصينيين لصنع البارود في تخريب المدن والحصون فكان وفرسانه سيلاً جارفاً

بكونها جرت في القرون الوسطى فاذا يقولون في الموبقات والفظائع التي جرت من الجنس الابيض الاوربي في هذا العصر نفسه سواء في القرن التاسع عشر أو القرن العشرين مما فعلوه في مستعمراتهم بافريقية الوسطى وشمالي افريقية والكونغو والسودان المصري وبما فعلوه في الهند وغيرهما من آسية ' بل بما وقع بمعرفة منهم في الرومللي اثناء الحرب البلقانية بل بما أوقعه بعضهم ببعض في الحرب العامة .... هذا كله لم يقع في القرون الوسطى ' ولا في الجاهلية الاوربية ' بل جرى في عصر النور وبحبوحة الحضارة وعنجهية التهذيب الاوربي . نعم لانفهم كيف اذا ذبح الترك الارمن يكون ذلك توحشا وبربرية وتمتلىء الصحف بالفاظ القسوة والوحشية والهمجية ' وتقوم القيامة ' فاذا ذبح البلقانيون مسلمي الرومللي واستباحوا حرمهم أو الاروام مسلمي غربي الاناضول ' لم تجد شيئاً من تلك النيامة ولا هاتيك النعرة وان عبر عنها بشيء قيل انها حوادث مؤسفة أو ماجريات لاتخلو منها حرب أو مقابلة بالمثل لاعتداآت سبقته ويجتهد كل الاجتهاد في تغطيتها بجر ذيول النسيان عليها . هذا الذي نعترض عليه وقلما نجد عليه جواباً سديداً ولكن ليس وصاحب هذا الكتاب بالذي يتعمد تعمية الحقائق (ش)

وناراً آكلة ، وأعظم بلاء حلّ بالبشرية . لم تكن غاية المغول الفتح والاستيطان ، حتى لاالغنم ولا الاستلاب لحسب ، بل هراقة الدماء ، وتعذيب الأرواح ، ودرس البلاد وملاشاة العمران . فذبحوا الشعوب تذبيحاً ودكوا المدن دكاً بحيث لم تنج بلاد حل فيها المغول من الهول ، وكان شأنهم في قطر شأنهم في سائر الأقطار .

ومات جنكيزخان بعد بضع سنوات من زحفه هذا ، فقام خلفاؤه من بعده وانتهجوا نهجه في الزحف وتعميم النازلة . فالمغول حقاً طعنوا الاسلام والنصرانية معاً طعنة خارقة ؛ اذ حاق باقطار شرقي أوربة مثل ما حاق بغيرها من الأقطار الأسيوية ، وتلك آثار الهول المغولي في روسية ما برحت شاهدة على بربرية المغول وهمجيتهم . غير أن الهول الذي نزل بالعالم الاسلامي كان أشد منه في العالم النصراني ، فالمغول بزحفهم على روسية لم يجاوزوا تخوم بولندة قط ؛ فنجت بذلك اوربة الغربية ؛ لكن ما أريد لأوربة الغربية من النجاة لم يرد مثله لجانب من العالم الاسلامي . ان العاصفة المغولية بهبوبها من الشمال الشرقيّ في آسية استطاعت أن تطبق العالم طراً ، من الهند حتى مصر ، مقتلعة جارفة كل شيء في سبيلها . وقد كانت فارس ؛ وهي اذ ذاك ما برحت منهب الكتائب التركية ، تحاول النجاة بحضارتها الوليدة فدهمتها الجوارف المغولية غاشية ماحقة ، فتلاشت قوة فارس وتضعضع كيانها أيما تضعضع ، ثم تقدم المغول نحو العراق ليعطوا بغداد ، مدينة الحضارة والتهذيب ، نصيبها من الهول . وكانت بغداد عهدئذ قد ذهب الكثير الزاهر من عزها ومجدها ، فذوت نضارتها من بعد هرون الرشيد ، وتنكر الدهر لذلك المليون من السكان ، بيد ان بغداد ، على كل هذا ، كانت ما برحت مدينةً عظيمة من أمات المدن الكبرى ، فيها كرسي الخلافة ومركز الحضارة العربية ، فانقضّ عليها المغول سنة ١٢٥٨ م . وأعملوا فيها أيدي التخريب والتدمير فذبحوا أهلها تذبيحاً . وكادوا يمحونها محواً من على وجه الأرض . على أن

هذا لم يكن جميع البلاء . كانت بغداد عاصمة العراق ، وكانت ما برحت في العراق سدود الري العجيبة من فجر التاريخ (١) ، تمثل مهارة بناتها الأولين وقدرتهم ، وتقي البلاد من مهابّ أعاصير الصحراء . فكانت العراق على الدوام وفيها هذه السدود الكبرى جنة الأرض دهري العالم . وقد تعاقب الفاتحون الكثار في البلاد دوراً بعد دور وعصراً بعد عصر فكان من شأن كل فاتح أن يبقي على هذه السدود ، لا بل يعظم شأنها وشأن بناتها ، ويعتبر كل الاعتبار قدر نفعها وخيرها للبلاد . فلما غشي المغول العراق سرعان ماقوّضوا هذه السدود تقويضاً بحيث لم يبقوا منها حجراً على آخر . فعفت أقدم حضارة عرفها العالم ، وخرب مهد التهذيب البشري ومحيت آثار أعمال جدت في سبيلها البشرية طيلة ثمانية آلاف سنة على الأقل ، تخوت العراق خواءها هذا المشهود حتى اليوم ، وباتت مرتدية حلة من الجفاف المحرق ومنشأ لأوبئة الحمى المنتشرة متى ماكان فيضان ؛ يسكن قراها الحقيرة أقوام من الفلاحين ، ويجوب رحابها رحالة من البدو ، يرعون ماشيتهم أرضاً كانت من قبل منابت الحضارة والتهذيب .

فالنازلة التي حلت ببغداد انما كانت ضربة قاضية على الحضارة العربية ولا سيما في الشرق . وكانت هذه الحضارة قد أصيبت ، من قبل نازلة المغول ، بضربة أخرى في الغرب وهي نازلة الاندلس العربية . وموجز ذلك أن الاسلام بعد انتشاره في جميع افريقية الشمالية ، جاز البحر وطبق اسبانية من أقصاها الى أقصاها ، نخفقت فيها أعلامه وأشرقت شموسه وازدهرت الحضارة العربية الاسلامية الاندلسية ازدهاراً كاد لا يُرى مثله في أي قطر آخر من الأقطار الاسلامية الشرقية . وكانت قرطبة عاصمة الاندلس . وفيها كرسيّ الخلافة الغربية . فبلغت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبلغاً كبيراً ، حتى لعلها

(١) يوجد في العراق ترعه دارسة منسوبة الى الرشيد . حدثنا بعض مهندسي الالمان الذين زاروا تلك البقاع ايام الحرب انها مما تعجز الحكومات الحديثة عن القيام بعمل مثله في العمق والطول والعرض (ش)

كانت تفوق بغداد غينها رقياً وحضارة ، وقد عاش ملك العرب في الاندلس قروناً عديدة ملكاً زاهراً آمناً والعرب حاصرون للنصارى في الكور الجبلية الشمالية من البلاد . فلما بدأ سلطان العرب يضعف ويولي ، وقوتهم تهين ، أخذ النصارى يدفعون المسلمين جنوباً مستردين منهم البلاد كورة فكورة . وكانت معركة « لا زافادي طولوزة » سنة ١٢١٣ م خضدت فيها شوكة العرب ، وفت في عضدهم فتاً كبيراً . ثم من بعد ذلك صارت تتوالى انتصارات النصارى على غير عياء حتى سقطت قرطبة في أيدي المستردين من نصارى اسبانية المتعصبين ، فبادر هؤلاء الى استئصال شأفة الحضارة العربية الاندلسية ، على نحو ما كان يقوم به المغول عندئذ في الشرق . فذهبت الاندلس من أيدي المسلمين ، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذي كان زاهراً سوى رقعة صغيرة واقعة في الطرف الجنوبي من البلاد وهي غرناطة ، التي بقيت في حوزة المسلمين حتى استكشاف كولمبوس اماركة ، ثم بعيد ذلك طردوا منها ، فاختفت على الأثر معالم الحضارة العربية في الغرب .

وكان الشرق الاسلامي مازال يشقى وتتوالى عليه فجائع المغول وأهوالهم وأمامنا الآن آخر داهية من دواهيهم ، وهي زحف تيمورلنك في أوائل القرن الخامس عشر م . ففي هذا العهد كان المغول الأول الغربيون قد صاروا مسلمين ، غير أن الاسلام لم يذهب بالكثير من وحشيتهم وبربريتهم واقتفى تيمورلنك آثار جنكيزخان في تذبيح الخلائق وتدمير البلاد ، فما كانت نفسه تغتبط بشيء اغتباطها بمناظر الاهرام من جماجم البشر ، وأي هرم أكبر من ذلك الذي شيده تيمورلنك من سبعين الف جمجمة بعد تخريبه مدينة أصبهان في بلاد فارس وانقضى عهد المغول الهائل في الشرق الاسلامي ، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين .

الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية العديدة التي جاءت آسية الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البيزنطية . وغالب الفضل في

تشييد المجد الذي شيدوه وعزهم الذي بنوه انما عائد الى عديد سلاطينهم الذين كانت لهم الغلبة على سائر القبائل المجاورة ، فاستطاعوا بذلك ان يوحدوا جميع القوى التركيـة العظيمة ، ثم طفقت فتوحاتهم تمتد شرقاً وغرباً . وفي سنة ١٤٥٣ م . دك الترك صرح الامبراطورية البيزنطيـة دكاً ، وفتحوا القسطنطينية ، وخلال قرن تال فتحوا الشرق الاسـلامي من فارس حتى مراكش [١] ، ودوخوا شبه جزيرة البلقان من اقصاها الى اقصاها ، وتغلغلوا في احشاء هنغارية [٢] حتى بلغوا اسوار «ڤيينة» . واستطاع الترك العثمانيون ما لم يستطعه ابناء عمهم المغول من قبلهم : فبنوا مملكة منيعة الاركان ؛ غير ان ملكهم هذا كان فيه جاف وبربرية وذلك انما لبعدهم عن روح التهذيب والتثقيف ، فانهم لم يبرعوا في شيء براعتهم في فنون القتال ، بل كانوا فيها من أشهر الأمم واشدها قوة وبأساً ومراساً ، ولما كانوا في ابان مجدهم وسلطانهم كانت خيالتهم ورجالتهم من أفضل طراز الجيوش التي شهدها العالم ، فارعبوا بها أوروبة رعباً شديداً .

وفي هذا العهد كانت أوروبة قد بدأت تستيقظ وتسير سير التقدم الصحيح ، وتنشىء حضارةً متدرجة مدارج الرقي والثبات ، وبينما كان الشرق الاسلامي يئن من الاهوال المغولية والفتوح التركية ، كان الغرب النصراني يشعل مصابيح النهضة ، ويعد اسباب استكشاف امارِكة وطريق الهند ، ذلك الاستكشاف الخطير الشأن ، العظيم النتائج مما لا يخفى على أحد . ومما يزيده خطورة هي الحالة التي كانت عليها أوروبة في ذلك العهد ، فانه لما كان كولمبوس وڤاسكادي غاما يقومان بأسفارهما البحرية قبيل ختام القرن الخامس عشر ، كانت الحضارة الغربية محاصرة في نطاق ضيق لا تجوز دائرته القسم الغربي من أوروبة الوسطى ،

(١) استولت الدولة العثمانية على جميع شمالي افريقية من بوغاز السويس الذي صار اليوم ترعة الى آخر حدود ولاية وهران من المغرب الاوسط واكن المغرب الاقصى بقي في حوزة اصحابه (ش)

(٢) بقيت بلاد المجار في حوزتهم ١٥٠ سنة وفيها حمامات معدنية من بنائهم الى يومنا هذا وقبور بعض المجاهدين (ش)

وهي اذ ذاك في أكره يوم من أيام نضالها وجلادها مع البربرية الطورانية . كانت روسية تمزقها سنابك خيول التتر المغول (١) وكان الترك ، وهم ثملون بشوكتهم الحربية يغيرون منتصرين من الجنوب الشرقي مهددين قلب أوروبة شر تهديد (٢) . هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة أسية وشمالي أفريقية وشرقي أوروبة يوم كانت الحضارة الغربية وهي طفلة في المهد تستقبل حكم القضاء النازل إما لها واما عليها . وعلى الجملة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع في سبيل بقائها أشد منازعة ، موليةً ظهرها السور العظيم ـ سور الاوقيانوس . فلذلك لا نكاد نستطيع ان نتصور حق التصور كيف واجه اجدادنا الاوقيانوس ، وشرعوا يمخرون عبابه في تلك الليلة الظلماء والفترة العصيبة من الاجيال الوسطى . لا جرم ، كانت أوروبة في تلك الحقبة انما تذود عن بقائها بجميع ماكان فيها من قوة وبأس ، وترد عنها غاشية البربرية الاسيوية ، وما هي الا ليلة وضحاها ، فاذا بليل الخطر الاسيوي وقد انجلى ، وبالاوقيانوس بات طريقاً آمنة ، فصارت أوروبة من بعد ذلك سيدة البحار ، ثم سيدة العالم بأسره .

قضي الامر ودارت الاقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان . فبعد ان ركبت أوروبة متن البحار ، صارت تستهزىء بجبابرة آسية وعتاتها ،

(١) كانت الروسية هذه التي صارت فيما بعد اعظم دول الارض تدفع الجزية للمغول وملوكها يذهبون صاغرين الى حضرة ملوك المغول لاجل تقليدهم ملكهم . وقد اوغل المغول بعد اسلامهم في بلاد الروسية الى الغرب حتى وصلوا الى بولونيا وليتوانيا ، ولا يزال الى يومنا هذا بضع عشرة قرية في ليتوانيا اهلها مسلمون يبلغون بضعة عشر الف نسمة ، وأكثر منهم باق في بولونيا ؛ وقد سألت بعض ادبائهم عن أصلهم فقالوا انهم من بقايا الغارات المغولية (ش)

(٢) لما نزلت بحرية الترك في طولون ونيس نجدة لفرنسيس الاول ملك فرنسا الذي دخل في ذمة سليمان القانوني ، امسك اهل تلك الديار عن قرع اجراس كنائسهم احتراما للترك . وبقيت القوة البحرية العثمانية اعظم قوة في البحر المتوسط متصرفة بزمام هذا البحر وأوربا كلها ترعد منها فرقا الى واقعة ليبانت في زمان سليم الثاني ، وهي الواقعة التي اجتمعت فيها اساطيل النصرانية على الاسطول العثماني فدمرته ولم ينج منه الا القليل مع أنه كان أقوى منها باجمعها وكان النصر متوقعاً له لا لها (ش)

وكانت من قبل بردح ترى النصر عليهم أبعد منالا من الجوزاء • ثم أخذت موارد الثروة تفيض على أوروبة من وراء البحار ، فاتقد نشاط القارة واشتدت قوتها • ولا يعجبن من ذلك وأوربة قد كشفت القناع عن ابكار بلدان فأخذت تستورد منها خيرات لا نفاد لها ، غذاء طيباً لحياتها وصناعتها ؛ فباتت والشرق شتان ما هما . فاي موارد كانت للشرق الاسلامي الحرب المهشم ، ازاء اماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند ؟ هكذا دبت الحياة دبيبها الهائل في الحضارة الغربية ، فانتفضت وهبت من مرقدها ، وأخذت تخطو الى الأمام خطوات الجبابرة ، محطمة أغلال اجيالها الوسطى تحطيماً ، وقابضة على طلاسم العلوم ، جادة نحو العصور الحديثة

وعلى كل هذا ، فقد ظل الشرق الاسلامي جامداً ساكناً ، ملتفاً بخلقان الحضارة العربيـة التي طال على خوائها الأمد ، ومتسكعاً في ديجور الظلام ؛ ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعضعت قوته الحربية وبلغت حد التلاشي ، فوهن عظم الترك بعد الشدة ، واستغرقوا في انحطاطهم ، فصاروا لا يستطيعون مجاراة أوروبة اختراعاً وارتقاء ، ولا تحسـين فن من فنون القتال • وقد كرّت حقب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضاً قتالاً عنيفاً فلم يستطع الحملة على الشرق ، فعلت منزلة اسم العثمانيين علواً كبيراً ، بيد انه لما اغار الترك على اسوار « ڤينة » سـنة ١٦٨٣ م • فردوا على اعقابهم خاسرين ، ايقنت أوروبة حينئذ ان هنالك انما كان منقلب قوة المملكة العثمانيـة ؛ فأخذ جد العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل • ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكر على المملكة العثمانية الـكرة بعد الأخرى ، منتاشاً منها ما استطاع ؛ ولو لم تورث نار الحسد بين بعض الدول الغربية بعضاً ، فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعني لو لم تختلف هذه الدول في اقتسام الغنيمة ، لمزقت الامبراطورية العثمانية شر ممزق ، منذ عهد عهيد •

ثم توالت الأيام على العالم الاسلامي وهو هاجع لا يستيقظ ، حتى كان

القرن التاسع عشر ، فتململ في مهجعه مستثقلا وطأة الغرب ، وفي خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامي ، وتخضع لهـا الاقطار ، في شرقي أوروبة وجزائر الهند ، واما جلّ العالم الاسلامي ومعظمه ، من مراكش حتى أواسط اسية ، فقد ترك وشأنه ، فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحـة ، بل ظل مستغرقاً في هجعتـه ، مستهزئاً « بكفرة » أوروبة ، راضياً مسلماً ان شقاءه انما بمشيئة من الله ، لا يقيم لرقي اوروبة وزناً ولا يحسب لمستنبطاتها حساباً (١) .

هكذا كانت حالة العالم الاسلامي لمـا استيقظ استيقاظه في مطلع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبة تقف بازائه مجنونة بثورتها الصناعية ، مدججة باسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع ، وبين يديها الغاشمتين الطبيعة مسخرة مفضوحة اسرارها وآلات حربية جهنمية لم يحلم احد من البشر بمثلها من قبل .

فكانت النتيجة المتوقعة لما شرعت حملات أوروبة تغشى الشرق الاسلامي ، أخذت اقطاره تسقط الواحد تلو الآخر في ايدي الحاملين عليـه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبة الكبرى قـد اقتسمت جميع العالم الاسلامي ؛ فاستولت بريطانيـة على الهند ومصر ، وعبرت روسية القوقاس وبسطت سلطانها على أواسط آسية ، وفتحت فرنسة شمالي أفريقية ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الاقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلاميـة ؛ وما زالت الحالة هكذا ، حتى جاءت الحرب الكونية العظمى ، فكانت شاهـداً على آخر دور من أدوار اذلال الشرق الغرب . ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد اذ وضعت الحرب العامة اوزارها ، قضي على كيان الدولة العثمانية ؛ فلم تبق من بعد ذلك دولة اسلامية

(١) نعم كانوا يعللون انحطاطهم الذي هو نتيجة كسلهم وفساد أخلاقهم بكونه قدراً مقدوراً لا حيلة فيه اعتذاراً عما هم فيه من التهاون والغفلة وسوء الادارة (ش)

مستقلة استقلالاً صحيحاً ، فتمّ اخضاع العالم الاسلامي ـ ولكن على القرطاس !!

اجل ، تم ذلك على القرطاس فحسب . والسبب في ذلك انه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر ، لسرعان ما هبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلها من قبل . كان الشرق الاسلامي طيلة هذه المئات من السنين التي كرت عليه وهو حانٍ عنقه للغرب ، تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيما وينفعل بعضها ببعض انفعالاً كبيراً ، حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلاً .

وهذا المد ، مد بحر المطامع الغربيـة الطامي ، قد غالى في ايلام الشرق مغالاة شديدة ، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيراً !! ودار الشرق الاسلامي حول نفسه فرأى تماسة حاله وما هو حالّ بساحتـه . فاخذت نفسه تجيش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه تثور ثوراناً عجباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي ، فهب الـ ٢٥٠،٠٠٠،٠٠٠ من اتباع النبي محمد [1] ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان حتى الكونغو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها . قدح الزناد في صحراء شبـه الجزيرة ، مهد الاسلام ، ثم أخذ الشرر يتطاير الى كل جانب من جوانب العالم الاسلامي ، اذ في الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية في مطلع القرن التاسع عشر ، وهي دعوة الاصلاح الاسلامي ، ثم كان

(١) المسلمون اليوم عددهم يزيد على ٣٠٠ مليون . والسبب في كون صاحب هـذا الكتاب اعتبرهم ٢٥٠ مليوناً هو متابعتـه لغيره من المؤلفين الاوربيين الذين لا يزالون يحسبون المسلمين اليوم على معدل احصاآت جرت منذ عشرات من السنين ، مع أن عدد المسلمين ازداد بهذه الاثناء كثيراً فالعلامة نانسن الالماني كان يحزر مسلمي أفريقية وحدهم بنحو ٧٦ مليوناً ، وهذا منذ ٣٠ سنة ثم كثيرون من الجغرافيـين لا يزالون يحصون مسلمي الجاوى وسومطرة ٢٥ مليوناً والحال أنهم ٣٥ مليوناً وكذلك مسلمو الصين هم من ١٠ الى ٢٠ مليوناً ومسلمو الروسية هم ٣٥ مليوناً وكثيراً ما يحصونهم ٢٠ مليوناً وهلم جراً . (ش)

من أمرها ان ترقت واتسعت حتى بلغت في نطاقها دور النهضة الاسـلامية ، ثم عرفت بالتالي بالجامعة الاسلامية .

ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحولات في العالم الاسلامي مقصورة على تلك العوامل الداخليـة المنبعثة عنه فحسب ، بل ان هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تتدفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يبث في الشرق الاسلامي روح الاستيقاظ والثوران ، من ذلك عقائد الحـكومة النيابية ، والعصبية الجنسية ، والعلوم العمليـة ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

فثوران العالم الاسلامي هذا الثوران ، وشدة التضييق الاوروبي الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولا حدّ ، يزيدان في هيجانه فيشـعلان فيه روح الحركة والعمل . ان الحرب الـكونية العظمى قد أتت بعجائب عظيمة ، وأرت ما لم يرَ من قبل ، فانشأ الاسلام يميد ويضطرب ، ويتمخض تمخضاً شديداً منتقلا من حال حاضر الى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غايتـه تجدد عالم اسلامي حديث .

ولبيان كيفية هذا الانتقال والتجدد اللذين سترى ثمارهما في عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الـكتاب .

الفصل الاول

في

اليقظة الاسلامية

في القرن الثامن عشر كان العالم الاسلامي قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ، ومن التدني والانحطاط أعمق دركة ؛ فاربدّ جوه وطبقت الظلمة كل صقع من اصقاعه ورجا من ارجائه ، وانتشر فيه فساد الاخلاق والآداب ؛ وتلاشى ما كان باقيا من آثار التهذيب العربي ؛ واستغرقت الأمم الاسلامية في اتباع الاهواء والشهوات ؛ وماتت الفضيلة في الناس ؛ وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ؛ وانقلبت الحكومات الاسلامية الى مطايا استبداد وفوضى واغتيال ؛ فليس يرى في العالم الاسلامي ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين كسلطان تركية وأواخر ملوك المغول في الهند ؛ يحكمون حكماً واهناً فاشي القوة متلاشي الصبغة ؛ وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التي هم في حكمها وينشئون حكومات مستقلة ولكن مستبدة كحكومة الدولة التي خرجوا عليها ؛ فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون اخضاع من في حكمهم من الزعماء هنا وهناك ؛ فكثر السلب والنهب ؛ وفقد الأمن ؛ وصارت السماء تمطر ظلماً وجوراً ، وجاء فوق جميع ذلك رجال الدين المستبدون يزيدون

الرعايا ارهاقاً فوق ارهاق ، نغلت الأيدي ، وقعد عن طلب الرزق ، وكاد العزم يتلاشى في نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بواراً شديداً ، وأهملت الزراعة ايما اهمال .

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء ، فألبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة الناس سجفاً من الخرافات وقشور الصوفية ، وخلت المساجد من أرباب الصلوات وكثر عديد الادعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان الى مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم في الحج الى قبور الأولياء ، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يشرب الخمر والأفيون في كل مكان ، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء . ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرهما من سائر مدن الاسلام ، فصار الحج المقدس الذي فرضه النبي على من استطاعه ضرباً من المستهزءات ، وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطاً بعيد القرار ، فلو عاد صاحب الرسالة الى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يدهي الاسلام ، لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين ، كما يلعن المرتدّون وعبدة الأوثان(١)

وفيما العالم الاسلامي مستغرق في هجعته ومدلج في ظلمته ، اذا بصوت قد يدوي من قلب صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ، يوقظ المؤمنين ويدعوهم الى الاصلاح والرجوع الى سواء السبيل والصراط المستقيم ، فكان الصارخ هذا الصوت انما هو المصلح المشهور محمد بن عبد الوهاب الذي أشعل نار الوهابية فاشتعلت واتقدت ، واندلعت ألسنتها الى كل زاوية من زوايا العالم

(١) لو أن فيلسوفاً نقريساً من فلاسفة الاسلام ، أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية ، أراد تشخيص حالته في هذه القرون الاخيرة ، ما أمكنه أن يصيب المحز وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الاميركي ستودارد . (ش)

الاسلامي . ثم أخذ هذا الداعي يحض المسلمين على اصلاح النفوس واستعادة المجد الاسلامي القديم والعز التليد ؛ فتبدت تباشير صبح الاصلاح ثم بدأت اليقظة الكبرى في عالم الاسلام .

وُلد محمد بن عبد الوهاب في نجد الواقعة في قلب الصحراء العربية ؛ حوالي سنة ١٧٠٠م وكانت نجد في ذلك العصر ، على انحطاط العالم الاسلامي وتدليه ؛ أنقى البلدان اسلاماً وأطهر الأقطار ديناً . وقد عرفنا فيما أسلفنا من الكلام كيف كانت تنتقل الخلافة من دور الشورى الى دور الاستبداد الشرقي وكيف أخذ على أثر ذلك العرب الاحرار أباة الضيم يعودون أدراجهم الى الصحراء حيث امتنعوا بحريتهم في حرز بلادهم وموطنهم ؛ وصدوا عنهم كل حامل عليهم . فلا خليفة ولا سلطان غرّر بنفسه يوماً لاختراق تلك الصحاري الرملية المحرقة والتوغل في فيافيها المهلكة حيث الموت الكريه كامن على الدوام لكل طامع غريب دخيل . فالعرب هناك لم يعرفوا قط حاكماً عليهم ؛ بل دأبهم دوماً الحل والترحال وارتياد المنتجعات في مختلف الواحات في قلب الصحراء . وفي هذا الحصن المنيع استطاع العرب منذ القديم الاحتفاظ بفضائلهم الدينية لا يشوبها شائبة ؛ ورابطتهم السياسية لا ينفخ في بنيانها ريح . أما البدو الرحل فالزعامة فيهم لشيوخهم الذين يتولون القيام على أحكامهم وتدبير شؤونهم . وأما الحضر في الواحات فالزعامة فيهم على الغالب لشيوخ الأسر العليا منزلةً ومكانةً ؛ بيد أن مبلغ ما في أيدي هؤلاء الشيوخ من السلطة المطاعة حق الطاعة ؛ انما هي سلطة صورية واهنة ؛ لا تقوى على الدوام على الوقوف في وجه تيار العادات القومية والعرف . وجل ما استطاع الترك اخضاعه من بلاد العرب هو انهم بسطوا شيئاً من سلطانهم على الاماكن المقدسة الحجازية وساحل البحر الأحمر . أما نجد ؛ البلاد الداخلية ؛ فقد ظلت حرة مستقلة . وما برح عرب الصحراء فيها يغالون في الاحتفاظ بما يتحدر اليهم من آبائهم واجدادهم من فضائل الدين ووحدة السياسة وعروة الجامعة ؛ فلذلك ما انفكوا

قط ينعون على العالم الاسلامي سقوطه فيما نهت الرسالة عنه وهم يزيدون استمساكاً بالاسلام على اصله وجوهره ولبابه ؛ وذلك حقاً مما يلائم طبائعهم ويتفق مع امزجتهم .

هكذا كانت حالة نجد لما ولد فيها ابن عبد الوهاب . واذ كان منذ أول شأنه شديد الميل الى الاطلاع والتفقه في الدين ، لسرعان ما اشتهر ذكره وذاع اسمه ، فعرف بعلم وافر قواما على التقوى . فحج الى مكة في أوائل عمره وطلب العلم في المدينة المنوّرة ، وساح الى كثير من البلاد المجاورة حتى فارس ثم عاد الى نجد مشتعلا غضبا دينيا لما رآه بأم عينه من سوء حالة الاسلام ، فصحت عزيمته على القيام بدعوة الاصلاح . فقضى سنين عديدة راحلا من بلاد الى بلاد في شبه الجزيرة ، فبشر بالدعوة ، موقظا النفوس ، حتى استطاع بعد جهاد طويل أن يجعل محمداً ابن السعود ، وهو أكبر أمراء نجد واعلى زعمائها كعباً وشأناً ، يقبل الدعوة ويدخل فيها ، فاكتسب ابن عبد الوهاب بذلك مكانة أدبية عالية ومنزلة اجتماعية رفيعة وقوة حربية لا يستهان بها ، فاستفاد من ذلك استفادة جليلة قد مكنته من بلوغ غايته وادراك غرضه . فتكونت على التوالي وحدة دينية سياسية في جميع الصحراء العربية شبيهة بتلك الوحدة التى أنشأها صاحب الرسالة ، وفي الواقع فان المنهج الذي نهجه ابن عبد الوهاب ليشبه شبها كبيراً ذاك الذي نهجه الخلفاء الراشدون كابي بكر وعمر . ولما مات سنة ١٧٨٧ خلفه ابن السعود فكان خير خليفة للمصلح الاسلامي الكبير ، واقتفى الوهابيون آثار خلافة الراشدين ، وعلى ما كان في يد ابن السعود من القوى الحربية العظيمة ، فان ذلك ما كان ليصرفه عن أن يكون على الدوام نازلا على رأي الجماعة وشوراها ، فلم يمتهن حرية أتباعه وبنى قومه ، وكانت حكومته على عنفها مكينة عادلة فانقطع التعدي وأمن الناس السرقات وانتشر الامن وسادت الطمأنينة والراحة . وعكف على

العلم والتهذيب ، فكان في كل واحة مدرسة ، وفى كل قبيلة بدوية عدد من المعلمين

وبعد أن اخضع ابن السعود نجداً ، وتم له الامر في كاملها ؛ أخذ يستعد ليقوم بعمل أكبر الا وهو اخضاع جميع العالم الاسلامي . ونشر الاصلاح فيه . فجعل نصب عينه في المقام الاول تحرير الاماكن المقدسة الحجازية • فكرّ على الحجاز في صدر القرن التاسع عشر بمقاتلته الشجعان المشتعلين غيرة « دينية » . وكان له ما أراد من الاستيلاء على الاماكن المقدسة ؛ فلم تستطع قوة الوقوف في وجه الوهابيين وهم يحملون على الترك ، والترك في نظرهم أهل الارتداد والجحود ؛ ومغتصبو الخلافة اغتصاباً ؛ وحقها أن تكون أبداً فى العرب • وبينما كان ابن السعود سنة ١٨١٤ يعد العدة لفتح سورية وهمته متينة ؛ كان يخيل الى العالم منه ان الوهابيين متدفقون على الشرق تدفقاً ؛ وصانعون ما شاءه الله من الاصلاح في الاسلام .

غير أن ذلك ما قدر ليكون • فلما أيقن سلطان تركية انه لا يستطيع القضاء على الوهابيين استصرخ بطلا من مشاهير الابطال ، وهو محمد على ، واستكفاه امر القضاء عليهم • وكان هذا المقدام الالباني سيد مصر واميرها ، وواقفاً حق الوقوف على قدرة اوربة وشدة بأسها وتفوقها ، فدعا اليه ضباطاً من أهل الغرب فنظموا له جيشاً قويا ، ودربوه تدريباً على الطراز الغربى ، وجهزوه بمعدات الاسلحة الغربية . وكان غالب هذا الجيش مؤلفاً من المقاتلة الألبانيين الاشداء ، فسرعان ما اجاب محمد على نداء السلطان ، فأيقن حينئذ ان الوهابيين على شدة غيرتهم الدينية وحماستهم لن يستطيعوا بعد الوقوف في وجه البنادق والمدافع الاوروبية يطلق عيارها جنود مجربون . وما هي الا مدة قصيرة حتى استردت الاماكن المقدسة الحجازية ، ورد الوهابيون على اعقابهم فانقلبوا الى الصحراء ، فاختفت الامبراطورية

الوهابية الوليدة للحال اختفاء السراب ، وأرخي الستار على الدور السياسي الوهابي (١)

بيد ان خاتمة هذا الدور السياسي كانت فاتحة الدور الديني ، فقد ظلت نجد بؤرة تشتعل فيها نار الغيرة الدينية ، ومنبثق نور تنبعث منه الاشعة الوهاجة الى كل ناحية من نواحي الارض ، وما فتيء الوهابيون منذ قضي على قوتهم السياسية يبثون روح الحركة الدينية في مئات الألوف من الحجيج الوافدين كل عام الى مكة والمدينة من كل قطر من أقطار العالم الاسلامي ، فيقتبس هؤلاء ناراً وهابية ثم يعودون الى أوطانهم يشعلون بها ما استطاعوا اشعاله في سبيل الاصلاح . وهكذا قد استطاع الوهابيون ان يبذروا بذوراً تلاها الاختمار الشديد للثورة الدينية في كل فج اسلامي ، حتى بلغت دعوتهم الدينية أقصى المعمور فقام في شمالي الهند الزعيم الوهابي المغالي السيد احمد(٢) مستنفراً مسلمي بنجاب وأنشأ دولة وهابية . فكان هذا الزعيم يعد عدته لفتح سائر شمالي الهند فحالت منيته بينه وبين ذلك ، واضمحلت الدولة الوهابية الهندية سنة ١٨٣٠ غير انه لما جاء الانكليز يفتحون البلاد عانوا الأمرين من بقايا النار الوهابية الكامنة في الرماد ، وظلت هذه النار مخبوءة الى ماشاء الله فكانت عاملا من عوامل « الثورة الهندية » ، ثم استطار من شررها ماتناول افغانستان وسائر القبائل الهندية عند الحدود الشمالية الغربية فاشعلها ايما اشعال . وفي تلك الغضون قام السيد محمد بن السنوسي في الجزائر وأتى مكة ورضع أفاويق الوهابية فيها ، ثم أخذ يجاهد في سبيل انشاء الطريقة الدينية المعروفة باسمه تمهيداً للجامعة الاسلامية . وفي ذلك الأوان أيضاً

(١) اقرأ مايأتي في الدعوة الوهابية وحركتها :

الاسلام بالقرن التاسع عشر A Le Chatelier, l'Islam au XIX^e siècle (Paris 1888)

معتقد الوهابية A. Chodzko "Le d'éisme des Wahabis" Journal Asiatique

(٢) هو غير « السر السيد احمد » من عليكره المسلم الهندي الحر المعدود من رجال منتصف القرن التاسع عشر

نشأت الدعوة البابيــة (البهائية) في بلاد فارس ، وهذه الدعوة وان كانت بتعاليمها بعيدة عن تعــاليم الوهابية ، غير أنها بلا مشاحة حاملة روحاً كروح الوهابية كأنها منعكس لها .

وخلال جيل تلا اتسعت الدعوة الوهابية بأفقها ومضطربها اتساعاً كبيراً ، وتطورت تطوراً عظيما حتى صارت تعرف باليقظة الاسلاميــة ، ثم اتسعت دعوة اليقظة الاسلامية بأفقها أيضاً حتى تعددت متجهاتها ومناحيها ، وأهم هذه المتجهات انما هي الدعوة الكبرى المعروفة بالجامعة الاسلامية . واننا سنفرد قسما مخصوصاً في غير موضع من هذا الكتاب للكلام على هذه الدعوة الكبرى نبين فيه سيرها وخطورتها السياسية ؛ مكتفين الآن بالكلام على سائر وجهات اليقظة الاسلامية ومبلغ مكانتها الدينية والتهذيبية (١)

فالدعوة الوهابية انما هي دعوة اصــلاحية خالصة بحتة . غرضها اصــلاح الخرق ، ونسخ الشبهات ؛ وابطال الأوهام ؛ ونقض التفاسير المختلفة والتعاليق المتضاربة التي وضعها أربابها في عصور الاســلام الوسطى ؛ ودحض البــدع وعبادةِ الأولياء ؛ وعلى الجملة هي الرجوع الى الاسلام والأخذ به على أوله وأصله ؛ ولبابه وجوهره ؛ أي انمـا الاستمساك بالوحدانية التي أوحى الله بها الى صاحب الرسالة ؛ صافيــةً ساذجةً ؛ والاهتــداء والائتمام بالقرآن المنزله مجرداً ؛ واما ما سوى ذلك فباطل وليس فى شيء من الاسلام . ويقتضي ذلك الاعتصام كل الاعتصام بأركان الدين وفروضه وقواعد الآداب ؛ كالصلاة والصوم وغير ذلك ؛ والكون على السذاجة التامة في أحوال المعيشة ؛ وتحريم

(١) لا ينكر أن الوهابية هي نهضة في الاسلام عظيمة ممتدة في أكثر بلاد العرب وفي الهند ، والقائمون بها الو تعصب شديد ، وربما أفرطوا في مباديهم وغلوا في عقائدهم شأن جميع المذاهب التي لا يقف اتباعها عند الحد الذي وضعه اصحابها . ولكن المقرر أنها حركة انابة الى العقيــدة الحق وهدى السلف الصالح واقتفاء أثر الرسول (ص) والصحابة ، ونبذ الخرافات والبدع ، وحظر الاستغاثة بغير الله ، ومنع التمسح بالقبور ، والتعبــد عنــد مقامات الاولياء ، ولذلك يسمونها عقيدة السلف ، ويلقب الوهابيون أنفسهم سلفيين ، واكثر اعتمادهم في الاجتهاد على الامام احمد بن حنبل ، والامام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية . (ش)

اتخاذ الملابس الحريرية ؛ والتأنق في الأطعمة ؛ وشرب الخمر والقهوة ؛ والأفيون والتبغ ؛ وغير ذلك مما بعضه من اسباب السرف وبعضه الآخر من المضار المفسدة لسلامة العقل ؛ وليس هذا جميع مافي الأمر ؛ بل عد الوهابيون المباني الدينية المزخرفة من نواهي الاسلام ؛ فهدموا قبة قبر الرسول في المدينة المنورة ؛ وخربوا مآذن المساجد ؛ فهم على ايغالهم في الإعتصام بالفروض الدينية وقواعد الآداب ، كانوا على ضعف شديد في المدارك وبعد في التعصب . فلذلك كان من حسن حظ الاسلام انهم باءوا بخسران سلطتهم السياسية ؛ فقصروا مساعيهم ودعوتهم على التعاليم الدينية الأدبية فحسب

وقام على أولئك عدد من النقدة ؛ اتخذوا الوهابية دليلاً لكلامهم وقالوا انما الاسلام بجوهره وطبائعه غير قابل للتكيف على حسب مقتضيات العصور ومماشاة أحوال الترقي والتبدل ؛ وليس إتماً لتطورات الأزمنة وتغيرات الأيام ؛ بيد أن نقدهم هذا لفاسد باطل ولامسوغ له . اذ قد فاتهم ان الدور الأول لكل اصلاح ديني انما هو الرجوع الى حالة أصل ذلك الدين المراد اصلاحه ؛ والاستمساك به على حاله الأولى استمساكاً لا يحتمل نقد ناقد ولا اتهام متهم . فالمصلح الديني لا يرى سبيلاً للقيام بالاصلاح وبلوغ الغاية، الا بنسخ جميع البدع والاوهام اللاصقة بالدين، دون اعتبار صفاتها وماهيتها. ليعتبرنّ العاقل اللبيب انه لما بدأ الاصلاح البروتستنتي عندنا انما كان مبدأه على هذه الطريقة ، فقد نبذ المتعصبة المتشددة من البروتستنت المعروفين « بالمتطهرين » المصلح الكبير « أراسيموس »(١) واتهموه بالباطل، وشددوا عليه النكير ، متعامين قائلين ان الحركة الاصلاحية انما هي افتراء على الدين الصحيح ، ولا شأن لها سوى ابدالها « البابا » المعصوم بالتوراة المعصومة

(١) هو سيديريوس اراسيموس (١٤٦٧ — ١٥٣٦ م) أحد الابطال الثلاثة في الاصلاح الانكليزي على عهد آل تودور . وزميلاه يوحنا كوكف (١٤٦٦ — ١٥١٩ م) وتوما مور (١٤٧٨ — ١٥٣٦ م) — (المعرب) .

وأخذت اليقظة الاسلامية تنتشر انتشاراً مزداداً ، ومبادىء التجدد والاصلاح الحقيقي تنمو نمواً مطرداً . وكان مما لا شك فيه وأمره طبيعي أن عادت الحرية العقلية الى الظهور شيئاً فشيئاً ، فلم يجهد المصلحون المسلمون في أوائل القرن التاسع عشر كثيراً حتى ادركوا المعتزلة ، فاستكشفوا دفائنها ونفخوا فيها نسمة روحية فصارت الى الحياة . وقد سبق لنا فأتينا على وصف النزاع الذي قام مشتداً بين أرباب مذهب النقل والسنة والتقليد من جانب ، وأرباب مذهب العقل أعني المعتزلة من جانب آخر في أوائل عهد الاسلام ، فكانت الغلبة لأتباع المذهب الاول ، فاختفت المعتزلة وامحت آثارها امحاءً حتى عادت فظهرت اليوم الى الوجود بظهور المصلحين الأحرار ، الذين ما فتئوا يؤيدون مذاهبهم وآراءهم الاصلاحية ببراهين أولئك الجهابذة السابقين من المعتزلة ، وبأحاديث وبآيات من الكتاب . فمن ذلك استشهادهم على قبول الاصلاح في الاسلام بما هو مأثور عن صاحب الرسالة من قوله : « ما أخبرتكم به عن الله فخذوه ، وما أخبرتكم به من عند نفسي فانما أنا بشر مثلكم أصيب وأخطىء » وقوله أيضاً : «أنتم في زمن من عمل بعشر ما علم به هلك ، وسيأتي زمن من عمل فيه بعشر ما علم به نجا [1] »

وقبل ان نشرع في الكلام على آراء هؤلاء المصلحين المسلمين وما قاموا به من الاعمال في سبيل الاصلاح ، يجدر بنا ان نبحث بحث الممحص الخبير في نقود النقدة الغربيين ، القائلين ان الاسلام بطبائعه غير قابل للاصلاح ، وبماهيته غير مستعد لايلاف روح العصور المترقية بترقي الحضارة والعلوم ، اذ لم ينفرد الجدليون النصارى [2] وحدهم

(١) مشكاة المصابيح جلد ١ صفحة ٤٦ و ٥١

(٢) اقرأ كتب القس المرسل س . م . زويمر Rev S.M. Zwemer الآتية : —

« بلاد العرب أو مهد الاسلام » Arabia, The Cadle of Islam (Edimbourg' 1900.

« مفندات الاسلام » Reproach of Islam. London 1915

« العالم الاسلامي اليوم » The Mohemmedan World of To-day

وهي مجموعة محاضرات وخطب تليت في مجمع المرسلين البرتستنت المعقود في القاهرة سنة ١٩٠٦

في هذه النقود وما يدور حولها أخذاً ورداً (١) بل شاركهم في.

(١) اشتهر زويمر هذا بعداوة الاسلام ، وحرر كتبا افترى فيها على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين ماشاء واودع فيها من التدليس ومن التزوير ومن قلب الحقائق ومن كل ماينفر الطباع من الاسلام ماحقه ان يكون سمة عار باقية على الدهر في جبهة التبشير بكتاب شريف كالانجيل هو اعلى من ان يتوسل المتوسل الى نشره بالكذب والافتراء . ولقد اطلعت له مؤخراً على كتاب عنوانه « الاسلام . ماضيه . حاضره . ومستقبله » فيه معلومات كثيرة عن مساعي المبشرين في اقطار الاسلام كلها قطراً قطراً ، وعن درجة نجاح تلك المساعي وحبوطها ، مما هو حري بالاطلاع بل بانتباه العلماء والمفكرين من أهل الاسلام لمقاومة دسائس تلك الجمعيات المنبثة في جميع تلك الاقطار ، تحت اشكال متنوعة ، منها رسالات دينية ، ومنها بعثات جغرافية ، واكثرها مستشفيات ومصاح وملاجىء للفقراء . وزويمر هذا من رأيه في طريقة التبشير عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية — حيث يعلم ان قلعتهم ثمة منيعة — بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم ، واستمالة اهوائهم ، وتمريض اجسامهم ، ومؤاساة فقرائهم ، وبالاختصار استثمار امراضهم وعللهم وكروبهم وخصاصاتهم ، ولا ينكر ان هذا الرأي هو رأي مجرب خبير ساح في جزيرة العرب وفي كثير من بلاد الاسلام وعلم مايعوز الاسلام من وسائل التعليم والتمريض ، وما عليه المسلمون من اهمال هذه الجهات بالرغم من كثرة الاوقاف التي يأكلها نظارها ، والمعاهد الخيرية التي درس معظمها ، وصارت أثرا بعد عين .

وقد استوفى زويمر تاريخ التبشير وسيره في البلاد الاسلامية من مشرقها الى مغربها وحمد الله على نجاح الرسالات الدينية المسيحية في كثير من الاصقاع لاسيما في بلاد الجاوى ، حيث معدل من يتنصرون كل سنة من المسلمين هو ٥٠٠ نسمة ، وقد بلغ مجموع المتنصرين بزعمه في الجاوى نحو ١٨ الفاً ، وزعم ان الهند ايضاً شاهدت من نجاح هذه الرسالات شيئاً كثيراً ، وان ٢٠٠ مبشر يطوفون اليوم في شمالي الهند هم من متنصرة الاسلام . ومع كون زويمر هو برتستانتياً قحاً (اصل نسبته من نورماندية بفرنسا ولما طردوا البرتستانت من فرنسا في زمان لويس الرابع عشر ارتحل سلفه الى هولانده ثم الى اميركا) فهو لا يفرق بين احد من رسله ، وهو يغتبط بمساعي الرسالات الارثوذكسية الروسية بين التتر ، ومجاهيد البعثات الكاثوليكية في افريقية ، ويدعو النصرانية كلها الى توحيد العمل وشن الغارة على الاسلام من كل جهة ، ويحث على اغتنام فرصة الضعف العظيم الذي حل بالاسلام على اثر الحرب العامة ، وانهيار قوته السياسية ، لاجل جوب اقطاره ، والجوس خلال دياره ، وتأسيس مراكز التبشير في الممالك الاسلامية التي كان دخول المبشرين اليها ممنوعاً . ويقول ان اول خطوة جرت لاجل توحيد الاعمال واشراك الحركات بعضها مع بعض هي المؤتمر التبشيري الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٠٦ واجتمع فيه ٦٢ مبشراً ونحوهم من المدعوين بالنيابة عن تسع وعشرين جمعية من اوربا واميركا ، غايتها كلها تبشير المسلمين . ووضع هذا المؤتمر اوزاره عن نداء عام الى العالم المسيحي باجمعه لاستجلاب نظر اهتمامه الى هذه المهمة العظمى وهي حمل المسلمين على الانجيل (مع انهم يعتقدون بالانجيل بدون حاجة الى عناء زويمر وامثاله) وعقب هذا المؤتمر مؤتمران آخران احدهما في « لوكناو » بالهند والثاني في « ادينبورغ » بانكلترة .

ذلك غيرهم في ابناء الفرنجة كاتباع مذهب العقلية وفيهم « رينان »

ويقرع زويمر الحكومات المسيحية على تقصيرها من اجل ملاحظات سياسية في عضد رسالات التبشير ، ويعقد مناحة عظيمة على ترك انكلترة ولاية « كافرستان » (شرقي افغانستان) لعبد الرحمن خان امير الافغان حتى بعث اليها احد قواده غلام حيدر فحمل اهل تلك الولاية على الاسلام فاسلموا قاطبة . ويقول ان اهالي مقاطعة كيلان في بلوجستان ليسوا مسلمين الابالاسم فالبدار البدار الى تنصيرهم قبل ان يصيروا مسلمين متعصبين . . . وفي جزيرة بورنيو من البحر المحيط لايزال جيل اسمهم « الداياكس » على الوثنية ولكن يحيط بهم المسلمون ، فتجب المبادرة الى منع دخول الاسلام بينهم قبل فوات الفرصة لئلا تعظم النقمة .

والطامة الكبرى عند زويمر هي في اواسط افريقية ، فانه يندوب لهفاً على انتشار الاسلام في تلك الارجاء بهذه السرعة الغريبة ، ويتأوه على كونه في السودان كله لايوجد اكثر من عشرين مبشرا ، وينقل بعض شواهد من مجلة التبشير العالمي (Missionary Review of The Wrld) بتاريخ ١٩٠٦ ثم بتاريخ ١٩٠٧ معناها انه في سنة ١٨٩٨ كان عدد المسلمين قليلا جداً في اده (Iddah) على النيجر وانه في سنة ١٩٠٦ كان يوجد منهم في كل مكان الى آبو (Abu) وانه اذا بقيت الحال على ذلك المنوال فلا يرجى ان تبقى قرية وثنية على طول (النيجر) الى سنة ١٩١٠ (فما ظنك الآن ونحن في سنة ١٩٢٣ ؟) وبالاجمال يقول ان نحو ٥٠ مليوناً في اواسط افريقية واطرافها قد اسلموا بالرغم من مساعي المبشرين الذين لم يعرفوا من اين تؤكل الكتف .

ويتكلم عن مجاهيد الجمعيات التبشيرية في عدن ، والشيخ عثمان منذ سنة ١٨٨٧ . وفي بغداد والبصرة والبحرين ومسقط منذ سنة ١٨٨٩ . ولكن فيما يظهر لم تحصل الجمعيات في البلاد العربية هذه على شيء من النجاح الذي صادفته في الهند والبنجاب وبلاد الجاوى . ويقول ان بعثة اسوجية احتلت بخارى وخوقند وكاشغر وياركاند ولايوجد بعثة بروتستانية غيرها في آسية الوسطى ولكن بعثة الروس الارثوذكسية قامت باعمال جليلة بين مسلمي الروسية .

ويقول ان الجمعيات التبشيرية لاتزال غير قائمة بواجباتها فيما يتعلق بمسلمي بلاد العرب الداخلية ، والقوقاس ، وجنوبي فارس ، وتركستان ، وافغانستان ، وبلوجستان ، والصين ، وجزر الفيلبين . ويشكو مر الشكوى من كون بلاد الافغان لاتزال بكراً لم تطمثها قدم مبشر ، وان والافغان يمنعون المبشرين من دخول ارضهم ، الا أنه يمني نفسه بان حكومة افغانستان لابد ان تسمح للمبشرين بالدخول ، ويقول ان الجمعية البرسبيتيرية الاميركية قد هيأت برنامجاً لذلك وستجعل مشهد علي (شمالي افغانستان) مركزاً للحركات (الذي نعلمه ان افغانستان مصممة ان لاتدع بعثة دينية اجنبية تدخل ارضها .

ومما يروى أنه في مؤتمر « ادنبورغ » قدم أحد الاعضاء الذين جابوا الصين تقريرا يتضمن البرنامج اللازم لمشروع تنصير مسلمي الصين الذين هم منتشرون في ١٥ ولاية من أصل ١٨ من هذه المملكة العظيمة .

وهو يرجو ان ثمرات التبشير في السنين المقبلة ستكون أعظم منها فيما مضى ، ولا ينكر ان تنصير السود هو عقبة كأداء نظراً لبغض الزنوج للجنس الابيض الاوربي على اطلاقه ،

وتضامنهم في وجهه ، ولكنه يوجب على أوربا اجتياز هذه العقبة وعدم المبالاة بالصعوبات التي تلقاها من جانب السود ، وأن تعلم ان هذه الفرصة اذا ضاعت فلاتعود أبداً ، فينبغي أن تكون هزيمة الاسلام في الحرب العامة انتصاراً للكنيسة المسيحية (هكذا بالحرف) وينتقد طريقة بعض الحكومات المسيحية التي - أحياناً بدون روية - تصلح ادارة الاسلام الدينية ، وتنظم اوقاف المسلمين ، مع أن هذه الاوقاف جسيمة دارة ، يمكن بها عمارة المساجد وتسهيل العبادة وتعزيز قوة الاسلام الدينية ، وقد شوهد كيف زادت سكة حديد الحجاز عدد زوار المدينة ، وكيف زادت خطوط الترامواي زيارة كربلا ، وصارت شركة كوك تسفر أغنياء المسلمين الى مكة .

وأما من جهة التعليم فاذا اتبعت الحكومات الاوربية برنامج التعليم التي هي جارية عليه في السودان والنيجر (يظهر ان الظروف قضت عليها بالترخيص بحصة من التعليم الديني) . وفي كلية غوردون في الخرطوم فان هذه الخطة هي مما تزيد الحواجز بين الاسلام والنصرانية ...

ثم يقول أما المدارس العليا التي تأسست لمكافأة الصادقين من المسلمين (أي الصادقين للحكومات الاوربية) فلعمري اكثر الاحيان لم تكن تلك الصداقة حقيقية بل هي مداجاة منهم ، ولا يكون لتلك المكافئات ثمرة سوى زيادة تمسك المسلمين باسلامهم بل احتقارهم لسادتهم الاوربيين الذين يرونهم قد أصبحوا يتبصبصون لهم (من رأي زويمر اذاً أن الحكومات الاوربية يجب أن تستخدم دماء من تلي عليهم من المسلمين وأموالهم ومجاهيدهم وتحذر من أن تراعي خواطرهم بشيء يشعرون منه انها تقيم لهم وزناً).

وأخيراً يقول ان الاسلام قد تلاشت قوته ، وانهارت دعائمه ، وسقطت مكانته الاولى ، ومشت سكة الاجنبي في حقله ، فلا تناسب زيادة قهره واعناته والظهور بمظهر الشماتة به لئلا يحرك ذلك من عصبية أهله ، ويثير من نخوتهم ، ويؤجج من نيران احقادهم ، فينهضوا ويثوروا للمقاومة ، بل يلزمنا أن نأخذهم بالوداعة والملاطفة وبذرف الدموع لاجل ان نستل سخائم صدورهم ، ونتمكن من حرث ذلك الحقل الذي صار مباحا أمامنا .... على أنه لا يؤخذ من ذلك انه يجب سلوك مسلك الضعف مع الاسلام والعدول الى التهيب ، اذ لا يعقل انه اذا دعى الانسان الى بيت لم يبق له ابواب ولا نوافذ ان يضيع وقته في احتشام اصحاب ذلك البيت ومعاملتهم برقة الادب والكياسة .... انه يتحتم سوق الحملة بحكمة ومهارة ولكن يتحتم سوقها بشدة .... ويجب ان الكنيسة تعبي جميع قواها من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب ، تحت راية مؤسسها وتشن هذه الغارة على الاسلام الى ان تصل الى غايتها الخ . هذا مما قطفناه من كلام زويمر مع تلطيف كثير من العبارات وحذف كثير منها .

ونحن نجاوب المستر زويمر وامثاله ممن فيهم من هو مقتنع بعمله مبتغ وجه الله في جهده ، أنه ان كان المقصود دعوة الاسلام الى الانجيل فالمسلمون يؤمنون بالانجيل الشريف وبرسالة المسيح صلوات الله عليه وسلامه وان كانت الدعوة هي الانجيل في الظاهر والسيطرة الاوربية في الباطن فهذا حلم من احلام المبشرين ، اذ لا بد للاسلام ان يستعصى على هذه الدعوة ، ويقف في وجهها سداً منيعاً . وان كان مقصد هؤلاء المبشرين هو خلاص النفوس والاشفاق من هويها في النار الحاطمة ، والعياذ بالله ، فالاولى بهم أن يذهبوا الى الوثنيين الذين هم اكثر من المسلمين عدداً في الدنيا ، واحوج الى الارشاد ، بل ان يهدوا الملايين العديدة من انفس المسيحيين الذين نبذوا الدين ظهريا ودانوا بالتعطيل والالحاد واخذوا يحاربون الكنيسة . فعلى الانسان أن

الفرنسي [1] ، ونفر من أعاظم الرجال الذين تقلدوا مناصب الأحكام العالية في العالم الاسلامي نظير اللورد كرومر [2] واضرابه . أما هذا الاخير فقد أوجز رأيه بقوله : « الاسلام غير قابل للاصلاح ؛ أعني ان الاسلام مجدداً مصلحاً انما هو غيره حاضراً ، بل هو شيء آخر »

وعلى هذا فيجب علينا أن نتدبّر حقّ التدبّر أقوال هؤلاء النقدة لوقوفهم أكثر من غيرهم على شؤون الاسلام ، ولأن منهم من عرف المسلمين في ديارهم عهداً طويلا . على انه بعد اقامة الوزن لهذا كله لا يتردد الباحث المقارن في تاريخ الأديان ، ولا سيما في آراء المصلحين المسلمين الحدثاء ، وما استطاعوا القيام به من الاصلاح من القرن الماضي ، ان يدحض جميع هذه المتهمات ادحاضاً ، ويجبه أربابها بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة جبهاً.

يجب الا يغربنّ عن البال ان الاسلام في يومه هذا انما يجتاز دوراً كذلك الدور الذي قد اجتازته النصرانية في أوائل عهد الاصلاح في القرن الخامس عشر . فالدوران حقاً متشابهان من حيث سيادة عقيدة النقل والتقاليد على عقيدة العقل سيادة مطلقة ، ومن حيث العداء المنتشر للحرية الفكرية والعلوم الطبيعية الصحيحة ، لا ينكر أن الواقف على كتب الشريعة الاسلامية والتاريخ الاسلاميّ للألف الأخير ، يبدوله على الجملة أن الاسلام لم يتفق كل الاتفاق مع الحضارة الحديثة ، والتقدم العصري ، ولكن نقول أفلم تكن النصرانية على مثل هذه الحالة عينها في صدر القرن الخامس عشر ؟ فمن يقارن بين الشريعتين الاسلامية والنصرانية من جميع وجوههما، يرَ أنّ روح الأولى اليوم ، وروح الاخرى بالامس ؛ انما هي روح واحدة. فلننظر في شيء من

يدبر بيته قبل أن يمد يده لتدبير بيت جاره . أما المسلمون فلا حاجة الى تبشيرهم لأنهم يعبدون الاله الحق ولا يشركون به احداً ، ولأن شريعتهم ملأى بالفضائل والآداب ومكارم الاخلاق واقامة ميزان العدل حتى مع العدو وتحث على العلم والانسانية والحضارة واغاثة الملهوف وحب القريب، وعند اللزوم تذرف الدموع أيضا على البائسين . (ش)

(١) كتابه «الاسلام والعلم » Renan, l'Islamisme et la Science Paris 1883

(٢) كتابه مصر الحديثة Cromer Modern Egypt. Vol 2 London 1908

هذا ؛ وهو تحريم الربا في الشريعة الاسلامية تحريماً لو أبيح لكان من شأنه القضاء على التجارة والصناعة باعتبار معنييهما اليوم . وقد كان من أمر غالب هؤلاء النقدة أن يذكروا غير مرة تحريم الربا هذ ادليلاً على جمود في الاسلام جمود يمسك به عن مجاراة الحضارة العصرية . بيد انه يجب الا يندّ عن البال ان الشريعة النصرانية قد حرّمت الربا أيضاً تحريماً لا يوصف ؛ وقد كانت متشددةً في ذلك ما استطاعت ، فكانت نتيجة الأمر أن اليهود انبروا للميدان وظلوا قروناً عديدةً محتازين التجارة الأوروبية وجناةَ ثمراتها ، لا يشاركهم في ذلك مشارك ولا يزاحمهم مزاحم . وحدث أن « اللمبرديين » أقدموا حيناً على التداين بعض التداين ، فعدّوا هراطقة النصارى وكفرتهم ؛ واتهموا بارتكاب النواهي ؛ واضطهدوا شرّ اضطهاد . ولننظر في شيء آخر يزدد الأمر تحققاً وانجلاءً . يقول متعصبة النقدة ان الاسلام يجافي الحرية الفكرية ، وينكر استكناه الحقائق العلمية الطبيعية . فلعمرُ الحق لو شاء الاسلام أن يحتجّ على النصرانية ويردّ اليها افتراءها ؛ أ كان لديه حجةٌ أدمغُ وبرهانٌ أقطعُ مما هو مدون في صحف التاريخ النصرانيّ ان « غاليلو » المشهور قد جلد وعذّب ؛ وأذيق الهول أشكالاً ، منذ أقل من ثلثمائة سنة[1]، بحضرة المجلس « البابوي » ، ليرتدّ عن تعطيله وهرطقته التي جاهر بها يومئذ ان الأرض تدور حول الشمس ؟

أيليق بنا بعد جميع هذا أن نتعامى عما قاله محمد في شأن العلم ؟ وان ننكر تكريمه له كل التكريم ؛ وهذه كلماته البليغة ما زالت شاهداً على ذلك خالداً ، وهاك بعضها : —

« اطلبوا الحكمة ولو في الصين »

« اطلبوا العلم من المهد الى اللحد »

« كلمة حكمة خير من مئة صلاة تقيمها »

(١) ١٦٣٣

« يوزن مداد الحكماء بدم الشهداء يوم القيامة »

« العلماء ورثة الأنبياء »

« ما خلق الله شيئاً أفضل من العقل ، خلق الله العقل وقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ، فقال وعزتي وجلالي ماخلقت شيئاً أحسن منك ، فبك أحاسب وبك أعطي وبك أمنع »

فهذه الأحاديث وكثير غيرها انما هي برهان على أن الاحرار من المصلحين المسلمين يؤيدون اصلاحهم الحرّ بالنصوص الدينية الماشية لكلّ عصر ، والصالحة لمقتضيات كل دور . ولست أعني بهذا ان دور هذا الاصلاح في عالم الاسلام ؛ بحق كونه دوراً اصلاحيا حراً ، سائراً سير التقدم والترقي ، فهو لامحالة مدرك غاية الظفر وبالغ محجة النجح التام . فالتاريخ انما يحوى بين دفتيه كثيراً من أخبار الأمم التي فشلت بعد جهد وحبطت عقب نصب . وقد علمنا فيما تقدم من الكلام كيف نشأت المعتزلة الحرة في أوائل الاسلام ، وكيف ذوت فجفت فذهبت ريحها . بيد أن الحقيقة الكبرى التي ينبئنا بها التاريخ ، وليس باستطاعة أحد انكارها ؛ انه متى ماحان ميقات اليقظة الحقيقية في أمة ؛ وأنشأت العصبيةُ الجنسية تدبّ في عروق أبناء تلك الأمة دبيباً مستمراً ، أصلح الدين لا محالة ؛ وتفض عنه غبار التقليد اللصوق به ؛ وحرّر من عهد رسفانه ؛ وحمل محملاً يلائم روح اليقظة ؛ وأخذ به أخذاً متفقاً مع متجه النهضة . فهل من أمة من أمم الأرض يقظت يوماً هذه اليقظة فهبت فسارت في سبيل العلى ثابتة الخطى رابطة الجأش ؛ فكان الدين حجر عثرة أو علة فشل لها ؟ اللهم لا . قد تبلغ تلك الأمة فترةً تقف فيها مذللةً صعباً من الصعاب ، أوحالةً أربةً من الارب ، أو مزيحةً عقبةً قائمةً في السبيل . ثم ما تزال مستحثةً ركابها ومعملةً المهاميز في مطيها ، حتى تبلغ الغاية وتقتطف ثمرة الجهاد يانعةً . وعلى ذلك فليعلم أنه ليس من الممكن بعد أن العالم الاسلامي يونى عزمه فيتقاعس عن السير الدراك مادامت روحهُ ثائرةً وعزمه متقداً ؛ وهو

فوق ذلك كله يزداد مساساً مع الحضارة الغربية ، واقبالاً عليها وأخذاً عنها . ان العالم الاسلامي لن يستطيع بعد اليوم البقاء على عزلته كما كان فيما مضى ، حتى ولو شاء هذا ، اذ جميع ما فيه اليوم انما يبرهن على انقلاب شديد وانفعال عميق وتطور من حال الى حال . يقول النقدة مثل اللورد كرومر ان الاسلام، منقحاً ليس الاسلام حاضراً ، بل شيئاً آخر ، أليس هذا ترى العجب كل العجب ؟ فلماذا لا يظل الاسلام إسلاماً ؟ أإذا شاء المسلمون أن يظلوا الى ما شاء الله مسلمين ، وان يظلّ دينهم دينهم ، وان يستنيروا ابداً بروح الرسالة المحمدية ، أنكرنا عليهم اسمهم كأنه شيءٌ يجب أن لا يكون ؟ هذه النصرانية الحديثة تختلف اختلافاً بعيداً عما كانت عليه في الأجيال الوسطى ، وأكثرها اليوم يباين أكثرها بالأمس ، وهناك تناف واسع الشقة وتباين شديد بين بعض الكنائس والبعض الآخر ، ناهيك بهما من تناف وتباين بعيدي المضطرب والغور ، وعلى هذا كله فجميع الطوائف النصرانية ما برحت تدعى نصرانية ؛ فبالله علام هذا التعامي في حق الاسلام ؟

وقد حان لنا الآن بعد الذي تقدم أن نبسط الكلام على قادة الاصلاح من المسلمين ، مدققين النظر في ذلك بتجرد عن الهوى بحيث يجب أن تكون أحكامنا مبنيةً على ماقاله هؤلاء المصلحون القادة من الأقوال وما قاموا به من الأعمال ، وليس على ماهو مدون عنهم في بطون الكتب والتواريخ التي ذهب واصفوها فيها مذهب الغرض ، فقد قال أحد المصلحين المسلمين وهو جزائري (١) قولا سديداً : — « لاتقاس حضارة أمة بما في كتبها الدينية من السطور والعبارات ، بل بما تقوم به تلك الأمة من الأعمال . »

أنشأ المسلمون الأحرار المتأخرون مذهبهم الحر على الأسس التي وضعتها المعتزلة منذ ما يقرب من ألف سنة خلت . ومن تدبر تاريخ الاسلام حق التدبر ، أيقن كل الايقان ان الإسلام لم يخل يوماً في جميع ماضيه حتى في أشد

(١) هو اسماعيل حامد

عصوره حلكاً من بعض المصلحين الاحرار ذوي العقول النيرة والمدارك الثاقبة والهمم الصادقة، الذين اخذ كانوا يتوالون الحقبة بعد الحقبة، فيصرخون في المسلمين صرخات الاصلاح الشديدة، ويرفعون علماً من اعلام الهدى والارشاد، واليك مثالاً من هذا، فقد كتب الغراني المشهور، وهو من رجال القرن السادس عشر: «ليس بعزيز على الله عزّ وجلّ ان يكشف لعباده الخاصين في المستقبل مالم يكشف مثله لغيرهم فيما مضى من العصور، وان ينزل من نعمه الروحانية على مستحقيها من الحكماء في كل دور، النعم التي تفيض نوراً على أبصارهم وبصائرهم فتهديهم سواء السبيل»

فهذه الصرخات التي توالت والمصابيح التي أوقدت في فترات مختلفة طيلة جميع الاجيال التي كرت على الاسلام من بعد انحداره عن الأوج، قد كان من شأنها ان تمهد السبيل بعض التمهيد للمصلحين المتأخرين، اذ لم ينتصف القرن التاسع عشر، حتى كان قد قام في كل بلد من بلدان المسلمين في الرقعة الاسلامية عدد من روّاد الاصلاح ودعاته ينبهون ويوقظون، ويحضون ويستحثون، بيد ان هؤلاء كانوا نزراً في بدء عهد الاصلاح الحديث. فلاقوا في سبيل ذلك مثل ما لاقى غيرهم من الذين ساروا سيرهم، اذ هبّ رجال الدين (١) وسواد السذج يرمون المصلحين بالمروق من الاسلام، فكان من طبيعة الامر ظهور النزاع والمشادة بين المسلمين في سبيل الاصلاح. وقد كانت الهند أول رقعة اسلامية رفعت فيها أعلام الاصلاح، فقام فيها عصبة من المصلحين، ذوي عزمٍ شديد وعلى رأسهم «السر» السيد احمد خان،

(١) كره صاحب الرسالة ان يعين وظائف دينية يتولى القيام بها رجال مخصوصون، فالاسلام من حيث الاصل لم تنص كتبه الشرعية من من المسلمين يتولى القيام بالوظيفة الدينية، على حد ماهو الامر في النصرانية واليهودية والبرهمية وغيرها. فأي مسلم كان يستطيع ان يقوم في المصلين اماماً، بيد انه على توالى الايام نشأت طائفة من القوم العارفين بالاصول الشرعية والفقه الاسلامي ودرجت تتولى المناصب الدينية حتى عرفت بالتالى برجال الدين " ثم نشأت طوائف اخرى كطائفة «الدراويش» وامثالها. على ان الاسلام لم يكن يعرف شيئاً من هذا في أول عهده.

وانبروا يجاهدون في سبيل الدعوة الكبرى للاصلاح الحر، فألفوا الجمعيات ونشروا الكتب والصحف ، وانشأوا الكلية العلميـة الاسلامية في عليكره واما «السر» السيد احمد خان فهو خير مثال من المصلحين الأحرار المتأخرين، وكان مذهبه مذهب المحافظين المتمسكين بفضائل الدين ، فبكى حالة الاسلام ، وأعظم شقاء المسلمين، منتقداً غيرة وهابية . وكان يعتبر قدر الحضارة الغربية، ويحض ابناء قومه على ورود منهلها، وأخذ الصالح منها، فقد كتب سنة ١٨٦٧ في هذا الشأن يقول : « يجب علينا أن ندرس الكتب العلميـة الغربية ، وان كان مؤلفوها ليسوا بمسلمين، وكان فيها ما يخالف القرآن الكريم ، وأن نأخذ إخذة العرب في أوائل عهـد ملكهم ، فانهـم لما شرعوا ينشئون حضارتهم الكبرى لم يترددوا البتة في دراسة كتب فيثاغورس وكتب غيره من فلاسفة اليونان »

ثم أخذت دعوة الاصلاح الحرّ تنمو نمواً سريعاً في الهند وتزداد قوةً ورسوخاً ، وقام فيها من القادة المشهورين عدد كبير أعزوا شأنها اعزازاً كبيراً مثل مولوي شيراغ علي ، والسيد أمير علي العبقريين اللذين اشتهرا في العالم كله بما اخرجاه للناس من الكتب القيمة الباحثة في شئون الاسـلام وروحه ، وقد كتبا هذه الكتب [1] باللغـة الانكليزية الفصحى فذاعت ذيوعاً قلّ أن يعرف له مثيل ، وهذان البطـلان وغيرهما أمثالهما في الهنـد لقبوا نفوسهم « بالمعـتزلة الجديدة » ، وشرعوا يجاهدون جهاد المصلحين العظاء في سبيل الاصلاح ذائدين عن حياضه ومؤيديه بكل حجة دامغة وبرهان قاطع ، ومنادين بوجوب اسـتقصاء الشريعة الاسلامية واستدرار خيرها واستثمار الاوفق منها لمقتضيات العصر ، لأن لا سبيل لتجدد الاسلام التجدد الصحيح الباقي غير هذا السبيل ، وقد كتب أحد هؤلاء القادة العظام وهو السيد « خدا

(١) لعل خير ما كتب السيد أمير علي كتابه « روح الاسلام » (لندن ١٨٩١)
« The spirit of Islam »

بخش » في بعض كتبه يقول : « ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يبغض شيئاً بغضه للشرائع والقوانين الجامدة التي تقيد العقل فتقوده صاغراً أعمى . ليس القرآن الكريم الا كتاب هدى للمؤمنين ، وليس عثرة في سبيل ترقي المجتمع والآداب والشرائع والقوانين والمدارك العقلية » . ثم جاء على كلام نعى فيه حالة الاسلام منه : « لعمري ان هذا الاسلام اليوم ليس هو الاسلام الذى أتى به صاحب الرسالة ، بل ان الاسلام الذي جاء به النبي لبريء من هذه السلاسل المؤلفة من حلقات الوظائف والمناصب الدينية [1] ، وعار عن هذا التعصب القاتل والجهل الشديد ، والأوهام والاباطيل الكفرية » . ثم انهى كلامه قائلاً : «هل الاسلام عدو للترقي والتقدم ترى ؟ اني لأعوذ بالله من قائل نعم ، فمتى وضع الاسلام في البوتقة وأخرج منه ما علق به من جميع هذه الأباطيل الخداعة ، كان ذلك الدين الساذج الحلو المساغ . فالاسلام على أصله ووصفه انما هو ركنان لا ثالث لهما : توحيد الله تعالى ، والايمان بأن محمداً هو رسول الله ، وما عدا ذلك فليس من الاسلام »

وفي ذلك العهد كانت دعوة الاصلاح الحر قد طفقت تنتشر في كل قطر من

(١) كنت مرة في المدينة المنورة فشاهدت فيها شيخ الحرم النبوى (وكان يومئذ زيور بك مدير المذاهب في الاستانة سابقا) وبعض خدمة الحرم في ساعة مخصوصة بعد العصر ، يدخلون الحجرة الشريفة لايقاد الشموع والقيام ببعض الخدمات المرسومة ، وقبل دخولهم يلبسون جميعهم وشاحاً أبيض شفافاً ، وكأنهم يريدون بذلك زيادة التعظيم والتوقير ، فذكرني ذلك بالاوشحة التي هي من النوع نفسه يلبسها بعض رجال الاديان الاخرى التي فيها ماليس في الاسلام من الرتب الدينية والدرجات الكنسية ، وذلك عندما يدخلون الى معابدهم . وهم لايلامون على ذلك لأن لخدمة الدين طبقة مخصوصة عندهم بخلاف الاسلام . وصادف ان كان هناك السيد أبو بكر خان من عظماء الهند احد اعضاء مجلس الهند الاعلى وهو ليس ممن يحسن التركية ولا العربية لايعرف من الالسن الاسلامية الا الفارسي ، وجميع تحصيله كان في انكلترة ، ولكنه كان يفهم روح الاسلام جيداً . فجاء وكاشفني بما وقع في نفسه من انكار هذه العادة . ولكن : «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» حديث شريف . (ش)

الاقطار الاسلامية ، فهبّ المصلحون الاحرار في كل بلاد يبشرون بالدعوة ويجاهدون في سبيلها بجد قوي وعزم أكيد . فقد ظهر الاحرار في تركية وكانوا القابضين على أزمة الدولة خلال غالب المدة بين حرب القريم والعهد الحميدي (١) ، ومدبري شؤون المملكة وساسة أمورها . وقام في أحرار الترك عظماء مثل الوزيرين رشيد باشا (٢) ومدحت باشا ، المجاهدين الكبيرين في سبيل تحرير الدولة العثمانية من ربقة ذلها ، وقائديها نحو التجدد والترقي . وظل الدعاة الاحرار في تركية يغالبون الاهوال مغالبة ويعانون من الاستبداد الحميدي مالم يعانِ مثله غيرهم ، فقتلوا تقتيلاً ، وأهبطوا جوف الارض وقاع البوسفور ، ونفوا وعذبوا ، حتى كانت ثورة سنة ١٩٠٨ فذهبت عاصفتها بصرح الاستبداد وقوضت أركانه تقويضاً ، فبرزت « تركية الفتاة » الى الوجود . وفي مصر كان لواء الاصلاح خفاقاً يحمله أبطال عظماء مثل الشيخ محمد عبده ، مصلح جامعة الأزهر ، وصديق الورد كرومر الحميم (٣) . وفي سائر

---

(١) ١٨٥٦ الى ١٨٧٨

(٢) مصطفى رشيد باشا اعظم رجال الدولة العثمانية في القرن الماضي ، تولى الصدارة في زمان السلطان محمود الى زمان السلطان عبد المجيد ، ونبغ له تلامذة في السياسة لم تعرف الدولة امثالهم منهم امين عالي باشا المشهور ، ونده فؤاد باشا الذي ليس باقل شهرة منه ، ومنهم مدحت باشا ابو القانون الاساسي أو الحكم الشوروي الذي يقال له عند الاتراك « مشروطيت » (ش)

(٣) استاذنا فريد عصره ، ووحيد مصره ، حجة الاسلام الشيخ محمد عبده ، اكرم الله مثواه ، تعرف اليه محرر هذه الحواشي في عهد الطلب ، ايام كان هو منفياً في بيروت على أثر الحادثة العرابية وذلك سنة ١٨٨٦ ، ولازمته واخذت عنه واستفدت منه بقدر ماوسع فتور خاطري ، واستفضت من بحر حكمته ماامكن ان يناله قصور عارضي ، ووجدت فيه الضالة التي كنت انشدها ، والبغية التي كنت ابحث عنها ولا اجدها ، ورأيت في فهمه العقيدة الاسلامية الشكل الوحيد الذي يرجى ان ينهض بالاسلام بعد ان آل الى هذه الحال ، وان يقيل عثاره بعد أن ظن ضعفاء العقول ان عثرته لاتقال . وما زلت بعد أن عاد الى وطنه مصر الى ان ادركته الوفاة رحمه الله اجاذبه حبل المكاتبة ، وأقف على رأيه في اكثر الامور جزئيها وكليها ، واستطلع منه طلع الاحوال ، وهو يبث الى مالا يبثه الى غيري من سوانح فكره ، وذوات

بلاد المسلمين كبلاد التتر الروسية ، كانت دعوة الاصلاح تنتشر فيها انتشاراً سريعاً ، فكثر عديد الاحرار وروّاد الاصلاح ودعاة التجدد (١)

على ان هؤلاء المصلحين الاحرار الذين أتينا على ذكرهم انما هم على مذهب الاعتقاد بوجوب تنشئة الاصلاح في المسلمين تنشئةً متدرجةً مماشيةً لمقتضى العصر ، وبأن الاسلام لقابلٌ أحسن قبول لكل تحولٍ وتطور ، ومستعد بطبائعه لايلاف تبدلات العصور والادوار ؛ والتكييف على حسب ترقي الحضارات . فهم من هذا النحو محافظون كل المحافظين ، مستمسكون جهدهم واستطاعتهم بالاسلام الصحيح ، وهو عندهم من المجتمع روحه وغذاؤه ومن العمران مادته الحيوية ومنهله العذب

وهناك فريق آخر من المسلمين الذين بلغت منهم مؤثرات الحضارة الغربية

صدره ، وبينما كان بعض حساده يتهمونه بمماشاة الدولة المحتلة وموافقة اللورد كرومر كان يكتب الي قائلا : « الاحوال هي مما يتعاظم له الالم ، ويعجز عن وصفه القلم » فكنت اعلم انه ما اراد الا تخفيف الداء ؛ وتقريب اجل البلاء ، وتمهيد طريق الجلاء " وما زال شأنه يعلو ، وحقيقته تظهر " وجوهره ينجلي بالحك ، وعقيدة فضله تتمحص من الشك ؛ الى ان اتفق الناس على كونه أحد أفذاذ الشرق الذين قلما جاد بهم الدهر " وواسطة عقد المصلحين المجددين في هذا العصر ، وظهر ان طريقته الاسلامية المصرية ستزداد مع توالى الايام انتشاراً " وتكون هي طريقة المستقبل ومعوّل الآتي

ولقد كان جامعا بين العلم والعمل ، فلا تجد مايساوى فضله وبلاغته وثقوب أفكاره ، وقوة ملكته في الفلسفة " سوى علو مباديه ، وبعد همته " وغزارة مروءته ، وطهارة اخلاقه ؛ وهيهات أن يأتي الزمان بمثله

ومن حسناته الكبرى " واياديه التي ملأ بها طباق العالم الاسلامي برا ، اخذه بيد الاستاذ العلامة السيد رشيد رضا في نشر مجلة « المنار » التي هي لسان حال ذلك المصلح العظيم ، وترجمان افكاره . فهي والحق يقال احسن مجلة ظهرت في باب الاصلاح الديني وتطهير الاسلام من شوائب البدع واعادته سيرته الاولى في عهد السلف " وتأليفه مع المدنية الحاضرة . كما ان الاستاذ السيد رشيداً المشار اليه هو الاولى بان يخلف الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مشروعه وفقه الله وسدد خطاه . (ش)

(١) للاطلاع على حركة الاحرار في بلاد التتر الروسية اقرأ كتاب ارمنيوس فمباري « التهذيب الغربي في الاقطار الشرقية » Arminius Vambery, « Western Culture in Eastern Lands » (London 1905)

مبلغاً عظيماً ، ووغل فيهم تيارها موغلاً كبيراً ، فاقبلوا على كل شيء غربي أغثاً كان أم سميناً، وولوا ظهورهم جميع ماضيهم بحيث صاروا لا يحفلون بمفخرة من مفاخر تاريخهم ولا يبالون بذكرى من ذكريات سالف أيامهم ، ففي كل من البلاد الاسلامية المترقية ، ولا سيما في البلاد التي مازالت منذ عهد طويل في حكم الغرب كالهند ومصر والجزائر، عدد من ابناء المسلمين الذين طلبوا العلوم في الغرب ونشأوا نشأة الغربيين أخلاقاً وتهذيباً ، فباتوا لا يكترثون لشأن من شؤون الدين الذي ولدوا فيه ، ولا يهابون المصارحة بالتعطيل والالحاد ، فتلاشت في نفوسهم حرارة الاسلام وذهبت منهم عصبية الايمان ، وقد وصف اسماعيل حامد الجزائري حال مثل هؤلاء من ابناء قومه بقوله : «كان للالحاد الغربي مبلغ كبير من التأثير في جمهور ليس بالقليل من مسلمي الجزائر الذين وان كانوا ما برحوا مسلمين في الظاهر ، فهم يجهلون حد ما وصلت اليه روحهم الدينية من التلاشي . ان هؤلاء لا ينكرون الاسلام دينهم ومعتقدهم، غير انهم قد أضحوا من فتور الغيرة الدينية في نفوسهم بحيث غدوا لا يبالون البتة بنشره في الناس وبالدعوة اليه في غير المسلمين . فالاسلام عندهم انما مقصور على من يأتي من بعدهم من الاولاد والاحفاد فحسب . وليس يتناول أحداً سواهم من الخلق أجمعين . فالحق ان الاسلام لبراء مما هم فاعلون ، وليس ذلك هو الحرية الفكرية ، على ما يزعمون ، بل انما هو الفتور فالتلاشي [1]»

وانه لمن الغرابة بمكان أن نرى فريقاً آخر من المسلمين يختلفون عن الفريق الذي تقدم ذكره اختلافاً بعيداً وفي ذلك من التناقض والتباين ما يقضي بالعجب الشديد ، فان أتباع هذا الفريق الآخر هم من الناشئة الاسلامية متشبعون آراء الغلو الغربي كالالحاد والاشتراكية والبلشفية وغيرها . وغلوهم

(١) كتاب اسماعيل حامد « المسلمون الفرنسيون في شمالي افريقية »
"Les Musulmans Français du Nord de L'afrique" Paris 1906

هذا لا يقل عن مبلغ ما هم عليه من التعصب الديني الكثير ، وهم يسعون جهدهم لعقد عروة اتحاد بينهم وبين فريق الرجعيين ، حتى اذا ماعقدت هذه العروة ، وكانت محكمة موثقة ، وتألفت منها تلك القوة الكبرى ، كانت نتيجتها الهاب صدور المسلمين كرهاً ومقتاً للغرب . ولما كان هؤلاء الغلاة يعدون نفوسهم ، في كل بلاد هم فيها ، انهم انما قادة سواد الأمة بحق ، لذلك تراهم أبداً نهماً أشد النهم في الظهور الى عالم السياسة والقيام على شؤونها كيما يتسنى لهم بلوغ الغرض من دك سيطرة الغرب المنتشرة في الشرق الاسلامي دكاً . فهم والحالة هذه من غلاة الوطنيين لا يألون في السعي وراء تحقيق غايتهم ، ولا سيما بأشد الوسائل الرجعية في سبيل الجامعة الاسلامية ، وقد رأينا غير مرة كيف يجدّ هذا الفريق الملحد في استثارة الروح الاسلامية وهياج النعرة القومية ، فقد كتب السيد بخش يصف رجلاً من هذا الفريق بقوله : « اني أعرف سيداً مسلماً ، يعرف من أين تؤكل الكتف ، موفق الحال كبير النجح ، انما في يديه اداة يستعين بها على عمله ، ولولاها لما حاز شيئاً مما هو حائز عليه من هـذا التوفيق والنجح ، وما تلك الاداة الا الدين . فهو يبالغ في الظهور في بني قومه مظهر المسلم المتمسك بشعائر الاسلام المتشدد فيها ، وكثيراً ما يقوم في الجموع خطيباً مرشداً حاضاً مستثيراً ، غير انه على ما اعتقد في نفسي ليشتمل في نفسه على آراء في الاسلام وصاحب الرسالة مما ينبو عن سماع مثله سمع (ڤولتير) ولم ينطق بمثله لسان (غبن) »

واننا سنسهب الكلام في فصلي « الجامعة المصرية » و « العصبية الجنسية » من هذا الكتاب على بيان أعمال هذا الفريق ، بيد ان ما يجب الاشارة اليه في هذا الموضع اشارة مخصوصـة ، انما هو التباين في المنهج والوسائل لتحقيق الاصلاح العام في العالم الاسلامي ، بين هذا الفريق ، وبين المصلحين المخلصين الصادقين الذين أتينا على ذكرهم من قبل ؛ ناهيك به من تباين ضار يفسد الاصلاح . فغلاة الوطنيين ، والضرر الذي ينتاب الاصـلاح انما ناشيء من

جانبهم ، دأبهم استثارة الروح الدينية في قلوب سواد الأمة ، وحمل هذا السواد على مقت كل شيء غربي يرونه في بلادهم ، وعداء الغرب في كل أمر سوى ما يؤول الى ترقية القوى العسكرية الاسلامية ، وفي هذه القطعة المقتطفة من مقال لاحد عظماء رجال « تركية الفتاة » (١) يخاطب اوروبة ، مثال بيّن على هذا :ــ

« أجل . الدين الاسلامي لم يبرح ولن يبرح على عداء حضارتكم وتقدمكم . فاعلموا ياجهابذة الغرب ان النصراني ، سواء أرفيعاً كان أم وضيعاً دنيئاً ، فانه بمجرد كونه نصرانياً ، ليس له عندنا منزلة ولو حقرت مهما حقرت من منازل الانسانية . وهذه مقالتنا لكم سهلة واضحة : ان من ضل سبيله فانكر وحدانية الله الواحد الأحد ، واتخذ له من دون الله ارباباً ، فقد ضرب بالبله والخبال ، فان رمنا صلته كان ذلك منا احتقاراً لديننا وانكاراً لباريء الكائنات. وعلى ذلك فالمتخذ الهاً غير الله والجاحد الوحدانية . لمستحق اللعنة الابدية . وليس ذلك جميع الامر بل ان أقدس عمل يقوم به المؤمن هو قتاله لهذا المنكر الجاحد ، حتى يحمله على الدخول في الاسلام ، أو يستأصل شأفته من على وجه الارض . هذا ما يأمرنا به الهنا الواحد الذي لا آله إلا هو . نحن لا نعرف في هذا العالم سوى المؤمنين أو الكفار ، أما نحن المؤمنين ، فتصل صلات المحبة والاحسان والاخوة بعضنا ببعض ، وأما أنتم الكفار ، فاننا لكم ماقتون ومبغضون ومقاتلون . وشركم انما الذي يقول بوجود الله من حيث يعتقد بولادته من البشر ، فما أشد هذا الضلال ، وما أبعد شقة الخلف بيننا وبينكم ! ان وجود مثل هؤلاء الكفار منكم بين ظهرانينا لآفة في كياننا ، ولا غرابة فمعتقدكم انما هو غض من دين التوحيد ، ومعاشرتكم ليست مما نتطير به ومعاملتكم عذاب لنفوسنا .

« وعلى هذا كله ، فاننا ننبذكم نبذاً من حيث ندرس انظمتكم السياسية

(١) كتبه الشيخ عبد الحق في جريدة شريف باشا « مشروطية » آب سنة ١٩٢١

والعسكرية ، فكأنكم والحالة هذه تدفعون الينا اسلحتكم لنقاتلكم بها فنشتد قوة بازائكم ونعظم شوكة ، فوق ما تجود به علينا العناية الازلية من العون عليكم في عصر اشعلتم فيه نار غيرتنا الدينية وهجتم فينا ذكرى شهدائنا وابطالنا المسلمين الذين استشهدوا في سبيل الدين . فنحن جميعاً على اختلاف مذاهبنا ومناهجنا متحدون على مقتكم وكرهكم ؛ وبعد هـذا كله أيقودكم الوهم الى الظن أننا صائرون نحو حضارتكم يا أبناء الفرنجـة ؟ نعوذ بالله من ذلك ومنكم ! »

ولا شك في ان مثل هذا المقال يلاقي في جمهور المسلمين وسوادهم آذاناً صاغية وقلوباً واعية [1] . وفي هذا الموضع ينبغي الا يذهب عن البال ان المصلحين الاحرار مابرحوا الاقلين عدداً ، وان كانت قوتهم متوالية الازدياد والاشتداد ، اذ يفوقهم السواد الجاهل من الأمـة ، السواد المجتاز اليوم دوراً من أشد أدوار التمخض والانتقال والخروج من الظلمة الى النور ، اضف الى هذا ان من أظهر صفات السواد اعجابهم بشأن بلادهم فيرونها خير البلدان وجنة الدنيا بلا مراء ؛ ويعدون كل بلاد سواها مستحقة المقت والازدراء ؛ وان اعترف المسلمون الذين على هذ الطراز بسلطان الغرب وتفوقه على الشرق فانما يفعلون ذلك على غلٍ في القلب واحتدام الحفيظة — لذا تراهم يكرهون كل شيء جديد ، ويشتعلون غيظاً وتألماً من جراء ما يشعرون به ويرونه حولهم من شدة خناق السيطرة الغربية . وعلى الجملة فان هذا السواد الجاهل هم بين أيدي قادة الجامعة الاسلاميـة وغلاة الوطنية ، يتصرفون بهم كيفما شاءوا تصرف الخزاف في صنع الطينة بين يديه .

فالاسلام اليوم تتجاذبه قوتان : قوة المصلحين الاحرار ، وقوة الغلاة الرجعيين . أما الاولى فبها مناط الآمال في الفوز بالاصـلاح على ما تقتضيه

(١) في هذا المقال غلو عظيم لايخفى على أحد ، ولكن الغـلاة لاتخلو منهم امة ولا أتباع طريقة . (ش)

سنة سير العمران والترقي ، ولها من الزمن اكبر عون ونصير ما دام العالم الاسلامي لا حيدة له عن قبول مؤثرات الحضارة الغربية ، لا بل مادامت هذه الحضارة ثابتة الاركان بعيدة عن الانهيار والانقراض . وعلى كل حال فالمتوقع ان الذين سيرفعون علم الظفر والغلبة بالتالي انما هم المصلحون الاحرار . ولكن من يستطيع الرجم بالغيب والكشف عن مخبآت المستقبل لينبئنا ما لعله ناشيء في السبيل من عقبات وما يقوم به الرجعيون الغلاة من وضع العثرات ؟ وصفوة القول ، فلا ادوار الاصلاح في عالم الاسلام اليوم ، ولا العلاقات بين الشرق والغرب بمعزل عن الاخطار الحاملة آجنة البلايا ، تلك الاخطار التي سنأتي على بيان أدلتها في الفصول التالية من هذا الكتاب .

بقي علينا ان نذكر الحقيقة الكبرى التي يجب الا تغفل ، وهي أن في كل قطر من اقطار العالم الاسلامي جمهوراً من المصلحين الاحرار يزدادون عدداً ويشتدون قوة وينضم الى لوائهم رجال من سائر الاحرار الخبراء الراسخين علماً باسرار نهضات الامم وتقدمها ، والى جانب هذا الفريق فريق المحافظين ، وجميعهم ، وقد رأوا حالة الاسلام والمسلمين ، انما يعملون عصباً متحدة متماسكة الاطراف في سبيل الاصلاح العام في المعمور الاسلامي ، منتهجين المناهج القويمة والسبل السديدة ، شاعرين حقاً بان الفترة لعصيبة وعالمين ان الدور دور انتقال شديد وحاسبين فوق جميع هذا ان جهادهم هذا الجهاد هو من أشد الاعمال نبالة والمقاصد مفخرة والواجبات شرفاً . أما ما يتوقع من التطور في الشريعة الاسلامية وقوانينها ازاء هذا الاصلاح ، فليس من شأننا البحث فيه في هذا المقام . انما التاريخ ينبئنا انه متى ما اقتضت سنة النشوء اصلاحاً ، وأعدت اسبابه وعلله ، واجازته دوراً اختمرت فيه عناصره ، كان ذلك الاصلاح واقعاً ولا تبدل لسنة العمران البشري .

ومما لا مراء فيه ان روح الاصلاح ، على اختلاف مظاهرها وصورها ، قد تغلغلت في الاسلام ودبت فيه دبيباً هائلاً وفشت في كل عرق من عروقه .

لحركته فتحرك ، فاخذ ينفعل انفعالاً عظيما . فعالم الاسلام اليوم هو غيره منذ عشرة عقود . قد استطاعت الوهابية التي ظهرت منذ أكثر من مئتي سنة ان توقظ الاسلام فاستيقظ مذعوراً ، فما كانت تلك العصبية الدينية الا الضرم في النار أو الغريسة نمت فجاءت باطيب الثمار ، أضف الى هذا أن روح الحرية والحركة ، والمؤثرات الغربية في زائد انتشار وانبثاث في كل رقعة من الرقاع الاسلاميه ، وان كانت المخاوف والمحذورات تقرأ في جبهة المستقبل ، ففي جبهة المستقبل أيضاً تقرأ الآمال الحسان .

الفصل الثاني

في

الجامعة الاسلامية

اليقظة الاسلامية ، شأن كل انقلاب عظيم ، نشأت نشوءاً ملتبساً فاشتبه بعض متجهاتها ببعض اشتباهاً كبيراً . ولا عجب فذلك انما هو من طبيعة كل دور من ادوار اليقظة والتنبه واطوار الانتقال والتحول • فقد بدأت اليقظة الاسلامية بالدعوة الوهابية الدينية الاصلاحية ، ثم أخذت تجتاز ادواراً عديدة متشعبة المناحي وأحيانا متناقضة الصفات • وقد سبق لنا فبسطنا الكلام في الفصل السابق من هذا الكتاب على متجه الاسلام اليوم ومسيره ومنتحاه في سبيل الاصلاح المترقي على حسب ما تقتضيه طبيعة النشوء ؛ وأوضحنا ان روح الاصلاح ما فتئت تدب في كل عرق من عروق العالم الاسلامي دبيباً طبيعياً هائلا ؛ فتدفعه الى الامام دفعاً متواصلا ؛ ولم نغفل مبلغ ما للحضارة الغربية من التأثير في ذلك • وقلنا فوق جميع هـذا ان المصلحين الاحرار الذين تناط بهم الآمال في احراز الفوز والغلبة ؛ ما برحوا الاقلين عدداً ؛ بينما سواد المسلمين ما انفكوا ينتفضون ممزقين حجب الجهـل ، ويستيقظون من هجعتهم استيقاظ المذعور ؛ يقودهم قادة يختلفون كل الاختلاف عن المصلحين الاحرار — قادة هم أميل الى ركوب خطط العنف والمشاكسة ، منهم الى انتهاج مناهج الرفق والموادعة ؛ يؤثرون مجافاة الغرب والاعراض عن الاخذ عنه ، الى مقاومته وايغار الصدور عليه • بيد ان هذا التيار الذي يثيره ويوقدناره هؤلاء القادة وأمثالهم ، وشأنه شأن كل تيار مرافق لحال الانقلاب مصاحب الدور الانتقال ؛ لم يستقر على قرار ؛ ولا عرف لافقه حد ؛ ولا وضح مجراه ولا بان متجهه بيانا تاماً بعد • وهو على اختلاف صفاته ومنقلباته لايخرج عن

وقوعه في مضطرب « الجامعة الاسلامية » و « العصبية الجنسية » ؛ وها نحن باسطون الكلام على :

الجامعة الاسلامية

الجامعة الاسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام انما هي الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الاسلامي • وهي قديمة باصلها ومنشأها منذ عهد صاحب الرسالة ؛ أي منذ شرع الرسول يجاهد فالتف من حوله المهاجرون والانصار معتصبين معه بعاصبة الاسلام لقتال المشركين . وقد ادرك محمد (ص) خطورة الجامعة وعلو منزلتها في المسلمين حق الادراك ؛ وعلم كل العلم مالها من عظم الشأن وجلل المقام في قلوب المؤمنين ؛ فغرس غريسها بيديه في نفوسهم ؛ فنمت وتغلغلت ، وامتدت جذورها وبسقت اغصانها وفروعها وينعت ثمارها . فقد كر عليها أكثر من ثلاثة عشر قرنا ؛ فما اوهن كرور هذه القرون من الجامعة الاسلامية جانبا ولا ضعضع لها كيانا ؛ بل كلما تقادم عليها العهد وتناسخ الملوان ازدادت الجامعة شدة وقوة ومناعة واعتزازاً . حقاً ان الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصراني والنصراني • ولا ينكر ان المسلمين يتقاتلون بعضهم مع بعض قتالا شديداً ؛ بيد ان هذا الجدال ليس له من الشأن أكثر مما لاحقر نزاع ينشأ بين افراد الاسرة الواحدة ؛ المشتبكة الارحام ؛ اذ لا حقد في الاسلام. فعند الشدائد تذهب الاحقاد من بين المسلمين ؛ فيصطلحون على الامر الذي فيه يختلفون ويتألبون جموعاً متراصة متماسكة لقتال العدو المهاجم ورد الخطر الداهم . ومن أحب ان يقف حق الوقوف على ما أراده الاسلام من غرض الجامعة وغايتها فلينظر الى حال المسلمين اليوم والى تيار هذا التعاطف والتشاكي يعلم سر الجامعة ومكانتها في نفوس المسلمين . وفي الواقع ليس من دين في الدنيا جامع لابنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامة

والاستمساك بعروتها كدين الاسلام . ان المسلمين قد افتتحوا بلاداً عديدة ورقاعا كبيرة فى الارض منتزعيها من النصرانية والبرهمية [(١)] [(٢)] واستأصلوا

(١) لم تستقر الفتوحات الاسلامية بعد ان رسخت في الهند استقراراً لزمت حدوده . بل جاوزت الهند الي جزيرتي جاوى وصومطرة العظيمتين . فعطل الاسلام دين البرهمية فيهما وجعل اهل الجزيرتين قاطبة مسلمين .

(٢) افتتح العرب المسلمون السند وجانباً من الهند في صدر الاسلام . ثم اكمل الفتح محمود بن سبكتكين الغازي الشهير ، ورسخت قدم الاسلام في الهند من بعده . ثم استولى الاسلام على كل الهند بدون استثناء ، ودانت له جميع ملوك الهندوس ، يقال لم يبق خارجا عن طاعة الاسلام في الهند سوى مملكة يقال لها (اودبور) لها ملك يقال له (مهرانا) وهو لقب اكبر من مهراجا . وسبب تفرده بهذا اللقب انه هو الوحيد من ملوك الهند قاطبة الذي لم يخضع لسلطنة الاسلام ، ولذلك هو الى يومنا هذا يتقدم في الاحتفالات الرسمية جميع نظرائه

اما من جهة عدد النفوس فلا يزال الهندوس هم ثلاثة ارباع الاهالى والمسلمون الربع . وهذا الربع يبلغ ٧٣ مليون نسمة . والمسلمون في نمو تام ، يزيد عددهم سنة عن سنة كما يتضح من الاحصاآت الانكليزية .

وبمناسبة الهند هذه نذكر ملخص تقسيمات تلك البلاد العظيمة ليكون للقارىء تصور عام بها :

فهى ثلاثة اقسام : القسم الاول هو المستقل تماماً ، وهو عبارة عن مملكتين في الشمال (نيبال) و (بوتان) . واهل نيبال خمسة ملايين كلهم هندوس ، واهل بوتان مليون واحد هندوس أيضا فيهم قليل من المسلمين ، وكلهم امة محاربة مشهورة بالشجاعة . واشهر عساكر الهند الانكليزية هم من أبناء هاتين المملكتين ؛ يتطوعون في الجندية نظراً لفقر بلادهم ووعورة اراضيهم . وللانكليز هناك وكيل مقيم لايكاد يكون له نفوذ

ثم القسم الثاني وهو الذي تحت حماية انكلترة ، وهو يدفع خراجا سنويا لها ، وملوكه وامراؤه مضطرون ان يحضروا حفلة تتويج ملك انكلترة امبراطوراً على الهند ، وعدد هذ القسم ٧٠ مليوناً ، أي سكانه مع سكان القسم المستقل لايزيدون على ربع الامبراطورية الهندية وبقية الهند تديرها الحكومة الانكليزية مباشرة كسائر املاكها

فالامارات التي هي تحت الحماية هى ما يأتي : (حيدر اباد الدكن) ، اهلها ١٣ مليوناً ، اكثر من نصفهم هندوس ولكن سلطانها مسلم يقال له (النظام) ، وفيها وزير مقيم من قبل الانكليز لكن نفوذه على المملكة محدود . وهناك جيش عدده ٣٠ ألفا اكثره عرب من (حضرموت) . ولحيدر اباد نوعان من الجند : الاول يستقل به سلطان البلاد ، والثانى مرصد للاشتراك في حماية المملكة الهندية كلها وهذا قواده من الانكليز . والخراج الذي تدفعه حيدر آباد لانكلترة زهيد ، واستقلالها الداخلي يكاد يكون تاماً

ثم (ميسور) وهي أرقى مملكة في الهند وأهلها مختلطون مسلمون وهندوس ، والملك ويقال له مهراجا ـ هندوسي وفيها مجلس ندوة

ثم (كشمير) وعدد اهلها ثلاثة ملايين اكثرهم مسلمون ، ولكن المهراجا هندوسي ، وهي في شمالي الهند كما ان ميسور في الجنوب

ثم (ترافنكور) واهلها اربعة ملايين اكثرهم هندوس ومعهم مسلمون ؛ ولهم مجلس ندوة ، وعليهم مهراجا هندوسي

ثم (بروده) عدد اهلها مليونان هندوس ، ولها مهراجا هندوسي وهي مملكة راقية غنية وفيها مسلمون

ثم (غواليار) وأهلها مسلمون وهندوس ولكن المهراجا هندوسي ، وعدد اهلها مليونان ونصف مليون ، ومكانها في وسط الهند ، وهي معدودة من البلاد الراقية ؛ وعندها جيش منظم

ثم (ايندور) وهي في قلب الهند ايضاً ، واهلها مليونان هندوس ، وملكهم منهم

ثم (أودبور) التي مر ذكر سلطانها انه يتقدم جميع ملوك الهندوس وهي في وسط الهند ايضاً .

ثم (رامبور) وهي امارة اسلامية ؛ عدد اهلها نصف مليون أو يزيدون ، عليهم ملك مسلم يقال له النواب

ثم (جهور) وهي نصف مليون ايضاً ، وأهلها مسلمون لهم نواب

ثم (بهوبال) واهلها مسلمون عددهم مليون ، ولهم ملكة يقال لها الرئيسة ، كانت متزوجة بالعلامة المجتهد المؤلف الشهير ذي التصانيف العديدة الممتعة باللغة العربية السيد صديق حسن خان بهادر رحمه الله

ثم (بهاوليور) في شمالي الهند . عدد اهلها مليون وهم مسلمون ولهم نواب مسلم ايضاً

ثم (جبور وجودبور وآلور وبيكانير وجسلمار وكوتا) ، وكلها امارات هندوسية . وتونك واهلها مسلمون . وريفا وباتيالا ونابها وجن وكولابور . وسكانها مختلطون مسلمون وهندوس

واما القسم الثالث الذي تليه انكلترة مباشرة فعدد سكانه ٢٣٠ مليوناً واهم بلاده (البنغاله) و (البنجاب) و (اغرا) وولايات (مدراس) و (بمباي)

ولقد آثرنا ذكر تقاسيم الهند هذه ـ ولو بصورة مجملة ـ لأن القارىء قلما يجدها في الكتب العربية . ثم لاننا احببنا ان نذكر نسبة عدد مسلمي الهند الى عدد الهندوس . وان نبين اماكنهم من الهند

***

ولما كان المؤلف اشار في حاشية كتابه الى تسرب الاسلام من الهند الى جزائر الاوقيانوس واستيلائه على جزيرتي جاوه وسومطره العظيمتين رأينا من الضروري ان نقول كلمة في هذا الموضوع وهي :

ان الاسلام بدأ ينتشر في هاتيك الجزائر في اواسط القرن الثامن للهجرة أو القرن الرابع عشر للميلاد وفي بلدة « غريزيك » من بلاد سورابايا من الجاوى قبر مولانا ملك ابراهيم احد كبار المجاهدين الذين سبقوا الى نشر الدعوة الاسلامية في تلك الجزر القاصية . ووفاته وقعت في ١٢ ربيع الاول سنة ٨٢٢ الموافق ٩ ابريل سنة ١٤١٩ . وكذلك في بلدة « بازه » قبر (الامير محمد بن عبد القادر) من ذرية (الخليفة المستنصر العباسي) توفي في ٢٣ رجب سنة ٨٢٢ الموافق ١٥ اغسطس سنة ١٤١٩ . وما زال الاسلام يتغلب في هاتيك الاقطار حتى بلغ عدد المسلمين فيها ٣٥ مليوناً أي نحو نصف عدد مسلمي الهند وهم في الفقه على مذهب الامام الشافعي رضي الله عنه .

وهذا الاحصاء هو الاحصاء الرسمي الهولاندي منذ نحو ١٥ سنة ، فلا بد ان يكون عدد المسلمين ازداد اليوم على ما كان في ذلك التاريخ . ولقد نشرت (مجلة العالم الاسلامي) الفرنسوية في سنة ١٩١١ اربع محاضرات على سياسة هولانده الاسلامية للعلامة المستشرق الهولاندي (سنوك هورغرونجه) مستشار نظارة المستعمرات الهولاندية في المسائل الاسلامية والعربية وهو من الافذاذ الذين وقفوا على احوال الاسلام عموماً وبلاد الجاوى خصوصا واقام بتلك الديار ١٧ سنة فتمثل فيها امورها علما ، ويقال انه دخل مكة والمدينة في موسم الحج متنكراً فهو الذي يحقق في تلك المحاضرات ان عدد المسلمين الخاضعين في جزائر الاوقيانوس لسلطة هولانده هو ٣٥ مليون نسمة . وعليه فخطأ محض احصاء بعضهم مسلمي تلك الجزائر بعشرين مليونا كما رأيت مرة في احدى المجلات العربية المطبوعة بمصر

وكان لهؤلاء المسلمين هناك سلاطين وامراء مستقلون فمازالت هولانده تتغلب على واحد بعد واحد منهم حتى اخضعتهم لسلطانها تماماً ، وكان استصفاؤها بقية استقلالهم في اخضاع توانكو محمد داؤوت سلطان آتشه الذي دخل تحت حماية هولانده سنة ١٩٠٣

ولقد كان انتشار الاسلام في تلك الديار ـ بحسب تحقيقات العلامة هورغرونجه ـ بواسطة تجار مسلمين طرأوا عليها من الهند مقتفين آثار تجار الهندوس الذين كانوا يترددون الى تلك البلاد ويطبعون أهلها بطابع مدنيتهم البرهمية ، فجاء الاسلام واستمالهم اليه وما زال يتقدم فيهم حتى غلب على جميعهم تقريباً ، كل ذلك بطرق سلمية ، وبدون أدنى قهر ولا عنف منها الا ما حصل من اهالي شرقي جاوه الذين غلبوا بعض مجاوريهم بالقوة فمن جاوه امتد الاسلام الى سومطره والى قسم من بورنيو وسيليب والجزر التي الى الشرق . وابن بطوطة الرحالة الشهير امتدح ملك سومطره في القرن الرابع عشر بأنه جاهد في الكفار .

ولم يزل الاسلام ينتشر في البقايا الباقية على الوثنية حتى احتج كثير من الهولانديين على تساهل الحكومة الهولاندية في ذلك وكيف انها تسمح للاسلام باكتساب هذه البقايا . واكثر من صخب لذلك هي جمعيات التبشير المعهودة ، ولكن المستشرق هورغرونجه يفصل هذه المسئلة بالكلام الآتي مترجما عن محاضراته السابق ذكرها :

« يجب على الحكومة ان تحذر من وضع كثير من المأمورين الوطنيين الذين يدينون بالاسلام في البلدان التي اهلها وثنيون . لئلا تكون قد ساعدت على نشر الاسلام بدون قصد منها ـ

وهذا المحذور قد وقع فيه الالمان انفسهم في المستعمرات الالمانية بشرقي افريقية . ولكن الخطر عندنا اعظم لأن المامورين الوطنيين من أهل الجاوى هم في الغالب من المتعلمين والمطلعين على اصولنا الادراية ، وليس عندهم تعصب مفرط في الدين ، فلا يسهل الاستغناء عنهم ، وقد تميل الحكومة الى استخدامهم . فلا ينكر انه مع تمادي الزمن يؤثر وجود هؤلاء المأمورين المسلمين في مسئلة نشر عقيدتهم بين الوثنيين كما يؤثر جولان التجار المسلمين فيما بينهم . ولعمرى لا يمكن منع هؤلاء التجار ان يجولوا في تلك الديار بحجة انهم يدعون الى الاسلام اذ يكون ذلك عملا مخالفاً للعدل ، ولكن يجب تدبر الامر واستعمال الحكمة فيه بحيث لانكون نحن قد ساعدنا بانفسنا على اسلام غير المسلمين »

فانت ترى أيها القارىء ان العلامة هور غرونجه ـ الذى هو معدود في الاقلين تعصبا ، والذى من اول محاضراته الى آخرها ينبه حكومته الى خطر الانقياد الى طلب جمعيات التبشير المسيحية من جهة الضغط على حرية الاسلام الدينية ـ هو نفسه يحذر نفس تلك الحكومة من استكفاء المأمورين المسلمين مدة طويلة في بلاد الوثنيين ، ولو لم يكن عندهم تعصب مفرط ، لئلا يؤثر ذلك على عقائد الوثنيين فيشرح الله صدورهم للاسلام . وبعبارة اخرى ان مصلحة هولانده ـ واوربا كلها ـ تقضي بترجيح بقاء الاهالى وثنيين على ان يصيروا مسلمين . هذا ظاهر لايقبل ادنى جدال . فهل ياترى يجهل الاوربي ان نقل الانسان من عبادة الصنم الى عبادة الواحد الاحد هو اولى بالانسانية واجدر بان يكون هدف مساعى الامم المتمدنة ؟ كلا . لايجهل الاوربي ذلك ولكنه يعلم جيدا لاسيما المستشرق العظيم الذى هو مثل هور غرونجه ان الاسلام لايجتمع مع الذل في قلب واحد ، كما جاء في العروة الوثقى بقلم جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ، وان الشريعة القرآنية قد ضمنت لمتبعها كل شروط الحرية وانتظمت له جميع اسباب الاستقلال ، بحيث لايقدر ان يحكم في رقبته أجنبياً الا اذا مرق من أحكام تلك الشريعة . فلذلك لايجتمع حب الاستعمار الاوربي والميل الى الاسلام في قلب واحد لان المستعمرين يعلمون ماوراء الاكمة ولذلك أهم شيء تناصبه الدول المستعمرة الحرب هو نشر الدعوة الدينية وحفظ الشريعة الاسلامية والاخذ بزمام الاسلام . وان كان بعض عقلائهم مثل هور غرونجه ينصح باعطاء الحرية الدينية وينهى عن التعرض للمسلمين في عقائدهم فذلك انما هو من خوفهم الثورة والانتقاض ووقوع الدول المستعمرة في المقيم المقعد من جراء هذا الامر ، وترى مثل هذا النفر ينصحون بالاعتدال وعدم مصادمة المسلمين في عقائدهم من باب اختيار أخف الضررين لاغير ومع ذلك فلا يطاقون هذه الحرية على أرسالها بل يجعلون الحذر لها رقيباً والاحتياط رائداً . وبالجملة فيجتهدون بان تكون مقاومتهم للاسلام في الامور السياسية علنية لاضراء فيها ، واما فى الامور الدينية فيجعلونها خفية لامجاهرة فيها بحيث لاتدعو الى الاضطراب ولا تبعث على الانتقاض

هذه هي سياسة العقلاء من المستعمرين . فاما سياسة المتهورين فهي معلومة لاحاجة الى الكلام عليها لاتعرف لمسلم حقاً ولا حرية وقد اعترف العلامة هور غرونجه بأن حزباً في هولانده ممالئاً لجمعيات التبشير يحث الحكومة ان تحمل مسلمي الجاوى على النصرانية فبين الخطر العظيم من ممالأة جمعيات التبشير على مساعيها هذه في تنصير المسلمين وطعن في مزاعم بعض النواب

في النـدوة الهولاندية كون اسلام اكثر اهـل الجاوى والجزائر
بأس بمعاملتهم بغير مايعامل به المسلمون وقال : ان هذا القول هو ا
كل وطني هولاندي يهمه مستقبل وطنه أن يرده بتاتاً ويحذر
وهو ينبه الى كون الضغط يورث الانفجار . وان حكومة هولا
التنصير بالتسامح مع المسلمين فهي متهمة لدى المسلمين باضطهاد الا
حجة من يرمونها بذلك .

ومن رأي هذا العـلامة ان الحكومة الهولاندية تخطيء اذا
لا سيما أن مسلمي الجاوى وسومطره هم أشد المسلمين محافظة على
وان تصعيب الحج عليهم لا يأتي هولانده بغير اثارة الخواطر وقا
بعض النواب الهولانديين الذين يسترسلون الى الخيالات من أمر
أحسنوا صنعاً في حمل الحكومة على منع الحج أو تصعيب سبيله .
الهولاندية ان تسلك سبيلا وسطا فلا تحث على فريضة اسلامي
أحسنت صنعاً في الطريقة التي اتبعتها في فريضة الزكاة فقد أعلنت ا
الاختيارية فلا تحمل عليها احداً بالقوة ولا تمنعها بالقوة .

وأما من جهة القضاء فهو يذهب الى عدم سن قوانين مأخوذة
خطر ببال بعضهم بل ينبغي حمل المسلمين على القانون الهولاندي الا
كالنكاح والطلاق والميراث فهذه يجوز أن تفصل بحسب شريعتم
تقوية هذه الشريعة التي يحول تطبيقها باسرها دون الصبغة الاو
مجاهيد هولانده مصروفة الى نشرها تدريجاً . فان هور غورنجه ية
الهولاندية متوقفة على نشر المدنية الغربيـة والثقافة الهولاندية في
يصيروا في هذا الباب كالهولانديين أنفسهم فيكون هولانديون في
في الغرب ولا يرى ذلك مستحيلا ولا يجد الاتحاد في الدين شرطاً
انه كما لم يمنع اختـلاف الهولانديين البروتستانت مع الهولانديين
اليهود ثم مع الملاحدة والمعطلة من الهولانديين أن يكونوا جميعاً أمة
في الدين مع مسلمي الجاوي وسومطره أن يكون هؤلاء في يوم مر
وذلك بحمل هؤلاء المسلمين على الثقافة الهولاندية التي تتغلب في نا
يتمشى في جميع آرائه على هذه النظرية ؛ وكأنه يعلم ان مهاجمة المـ
أمر عقيم لا ياتي بأدنى فائدة ، ولا يعود على هولانده الا بالضر
قومه من سلوك ذلك المسلك الصعب ، ويشير الى صبغ الامة الج
طريق العلم والتربية .

اما حيث تجد هور غورنجه متشدداً الى الدرجة القصوى فهو
جهاراً بدون ادنى محاباة الى قطع كل علاقة سياسية بين الجاويين و
لأنه يقول ان الخلافة ليست عبارة عن بابوية لاشأن لها في السياسـ
اراد الاعتصام بها من المسلمين لم تمكنه طاعة حكومة مسيحية .

وهو يتأسف من كون مسلمي تلك الجزائر مقلدين في ديانتهم وعاداتهم وآدابهم مسلمي مصر وحضرموت وجزيرة العرب ، عاكفين على مطالعة التآليف التي تحرر في البلاد العربية ، وانه الى اليوم لم يوجد عاطفة جاوية قومية تناهض هذه النزعة الدينية العربية .

يظهر من هنا اتفاق الاوربيين على بث روح القومية بين امم الاسلام املا بتشظية عصا الجامعة الاسلامية . فاننا قد رأينا اثر هذه السياسة في مواضع كثيرة من بلاد الاسلام فكأن الاوربيين يرون خطر القومية اخف جدا من خطر تلك الجامعة — ولذلك هو يرى ان لاهوادة مع المسلمين الجاويين فيما لو أرادوا ان يتضامنوا في السياسة مع سائر مسلمي المعمور وانه يجب منع قناصل تركيا الذين يتمثلون هناك بصفة وكلاء دولة الخلافة من اية مداخلة كانت مع الاهالي . واغرب من هذا انه ينصح بمنع الاشتراك في الاعانات لسكة حديد الحجاز وعدم اباحة اية اعانة كانت لجرحى العساكر العثمانية أو لأرامل جنود الاتراك وايتامهم — يقيم النكير على ذلك بكل تصريح وينسى ما في ذلك من مخالفة مبادىء الانسانية ـ ويحث حكومته على منع ذكر السلطان العثماني في خطبة الجمعة وعلى مراقبة التعليم الديني حتى لايقع فيه شيء من الدعوة الى اتحاد الاسلام — وكانه يريد ان ينحصر في المواعظ وأحكام الصلاة وذكر نواقض الوضوء مثلا — ويطلب حذف باب الجهاد من الشريعة وبالاختصار فهو مع ما اتصف به من الاعتدال يريد ان يمحو اثر كل تضامن اسلامي مع المسلمين التابعين لهولانده ، وان ينسخ من التعليم الاسلامي كل مافيه رائحة الدفاع عن الامة ، وفي هاتين النقطتين لايرعى في المنام خليلا . . .

ثم ان هناك مسئلة مهمة يقال لها مسئلة الحضارمة ، وهذه تكرث الحكومة الهولاندية اكثر من كل مسئلة سواها في الجاوى لأنه معلوم كون اهل حضرموت من أقوم اهل الارض على الاسفار ، وان فقر بلادهم مع مضاء عزيمتهم يحملانهم على جوب الآفاق ، واكثر ماينتشرون في جزائر الجاوى والبحر المحيط ، فكانت الحكومة الهولاندية تحسب لهم حساباً كبيرا ولشدما يضيق صدرها بهجرتهم الى تلك البلاد خشية أن ينشروا الدعوة الاسلامية أو ينبهوا الاهالي السذج الى الامور التي لولا الحضارمة ربما لاينتبهون اليها ، فما زالت تضع الحواجز امام نزولهم في تلك الديار وتراقب حركاتهم وسكناتهم ، وهي تحتج لذلك بكونهم في الاكثر أفاقين لايأتون الى الجاوى بشيء من رءوس الاموال وانهم هم يمنعون غير المسلمين من دخول بلادهم حضرموت فلا يحق لهم اذاً ان يطالبوا بدخول بلاد هولانده ـ لأن جزائر الجاوى وسومطره وبورنيو وملحقاتها هي ملك هولانده وهي أولى من الاهالي ببلادهم . . . — وبناء على ذلك فقد ضويق الحضارمة وغيرهم من العرب في قضية المهاجرة الى المستعمرات الهولاندية أو النيرلاندية كما يقولون ولكن لم تخل الحال من كون كثيرين من الحضارمة تمكنوا من الدخول واوطنوا تلك الديار وصاروا من اهلها ، فترتب على ذلك ان الحكومة الهولاندية التي هي من الاصل غير مرتاحة الى وجودهم بين مسلمي الجاوى لكيلا تسطو حصافتهم على سذاجة هؤلاء ويوقظوهم من غفلتهم التي هي درة الحلب الاستعماري قد جعلت تضيق عليهم في غدواتهم وروحاتهم وتنغص عليهم عيشهم وتفعل ما شاءت لتحملهم على ترك تلك الديار

فالاستاذ هور غرونجه يتكلم على هذه المسئلة بما يلي تعريبه :

شأفة المجوسية (١) وعلى امتداد هذه الفتوحات واتساع آفاقها ، فلم يسمع قط ان شعباً قليلا كان أو كثيراً انتحل الاسلام ديناً ثم ارتد عنه . قد حدث أن أجلي المسلمون عن بعض البلاد التي كانوا قد فتحوها وشيدوا فيها ملكا ودولة كالاندلس غير ان اجلاءهم عن مثل هذه البلاد ليس بالسائغ اعتباره جعل بعض المسلمين يرتدون عن الاسلام (٢)

« ان عـدم قبولنا للحضارمة من الاصل لم يكن مخالفاً للعـدل وكانت له اسباب يمكن أن يبنى عليها ، فلم تنتبه له الحكومة ، وسمحت لهؤلاء بالدخول على شروط يسهل عليهم القيام بها . لكنها بعد ان سمحت لهم بالاقامة جعلت تراقب حركاتهم بصورة لا تطاق ، وربما كان لسياسة المأمورين الذين تختلف انظار بعضهم عن بعض في الشدة وعدمها مدخل في تشديد هذا الخناق على الحضارمة بحيث اصبح العربي هناك لا يملك شيئا من الامان على حاله واستقباله . فاضطر بعض ذوي الشأن من هؤلاء العرب الى رفع امرهم الى الخلافة (تركيا) وملأوا الجرائد الاسلامية بشكاويهم حتى يتمكنوا من تنفيس الخناق الذي هم فيه ويتعاطوا تجارتهم ومرفقهم بدون تلك القيود الثقيلة التي هي حجر عثرة في سبيلها ؛ ولكن مما لا ريب فيه ان تلك الشكايات فيها مبالغة كبيرة »

ومن شاء التوسع في هذا الموضوع ومعرفة ما هي عليه حالة اسلام الجاوى وما هي سياسة هولانده هناك وكيفية نظرها الى مستقبل تلك المستعمرات ؛ اذ كانت كل دولة مستعمرة لا يهمها شيء مثل الاستيثاق من مستعمراتها والأمان الأبدي عليها ؛ فعليه بمطالعة مجموع المحاضرات التي القاها هذا الاستاذ والتي تجد في آخرها جملة لا بأس بنقلها وهي :

« ان الاسلام والنصرانية يمكنهما الاجتماع واحتمال احدهما الاخرى في ممارسة الحياة الوطنية على شرط ان يمكن رفع فكرة الاتحاد الاسلامي . ولقـد رأينا مقدار مساعدة الاحوال لنا في تحقيق مشروع ادخال المسلمين الجاويين في الامة الهولاندية بدون اثارة المسئلة الدينية . ولعمري ان كثيرين منا يمكنهم أن يأخذوا دروساً من التساهل الديني عن اولئك الاهالى » وكفى بهذا شهادة (ش)

(١) مابرحت طائفة قليلة من عبدة النار في الهند ومركز استيطانها في بومباي . وهي البقية الباقية من ابناء الديانة المزدكية الذين فروا من فارس حين طموسيول الفتوح العربية في القرن السابع

(٢) كأن المؤلف يريد أن يقول ان المسلمين لا يرتدون عن دينهم من انفسهم وبمطلق اختيارهم والا فما ثبت تاريخاً ان مئات الوف من مسلمي الاندلس قد تنصروا وان كثيرين من الاسبانيول اليوم لاسيما سكان جنوبي اسبانية هم من سلالة العرب وتجدهم يحفظون انسابهم ومنهم من عندهم شجرات النسب ومنهم من يدلي بقربى الى بعض المسلمين في افريقية . وتحرير ذلك انه لما غلب فرديناند وايزابلا على آخر مملكة اسلامية في اسبانية وهي دولة بني الاحمر من سلالة الخزرج واستوليا على غرناطة سنة ١٤٩٢ عقدا مع المسلمين معاهدة ليس هنا محل

ان الوحدة الاسلامية انما هي قائمة على ركنين هما اساساها ولا ثالث لهما : الحج الى بيت الله الحرام في مكة المكرمة ، والخلافة . وقد غلب على رأي الكثيرين من رجال الغرب وهمٌ في هذا الموضوع ، فهم مابرحوا يخالون الخلافة ، لا الحج ، العامل الأكبر والأشد الذي بسببه يتشارك المسلمون ميولا وعواطف تشاركاً مؤدياً الى اعتزاز الوحدة وازدياد منعتها وامتدادها وانتشارها . على ان هذا لمن الوهم الصرف فالأمر حقاً على الضد منه . ان محمداً (ص) قدفرض الحج على من استطاعه فرضاً مقدساً ولذلك مازالت

ذكرها تتضمن لهم حقوقاً كثيرة ومن الجملة حريتهم الدينية التامة وفصل أمورهم الشخصية لدى قضاتهم وغير ذلك من الشروط التي أمضاها فرديناند وامرأته على أمل تسهيل الفتح وتقصير أجل المقاومة وهما ناويان باطناً نقضها منذ امضيا ها — كما جرى هذه المرة في معاهدات الحلفاء أثناء الحرب العامة مع ملك الحجاز أمضوها مؤقتاً على نية نقضها فيما بعد — فلم يمض على تسليم غرناطة عدة اشهر حتى ذهبت تلك المعاهدة كأن لم تكن أو كما قال صاحب نفح الطيب « نقضها الطاغية عروة عروة » وتأسس ديوان التفتيش الشهير مؤلفاً من الاساقفة وبأمر من البابا وصار يسيطر على عقائد الناس فحمل المسلمين واليهود على النصرانية أو يجلوا عن البلاد فجلا أكثر المسلمين الى مراكش وتونس والجزائر ووصل منهم أناس الى مصر والشرق وجلا أكثر اليهود الى مملكة ابن عثمان فأقاموا بالقسطنطينية وسلانيك وازمير وهم فيها الى يومنا هذا لغتهم الاسبانيولية وبقي عدد كبير عز عليهم فراق أوطانهم فتظاهروا بالنصرانية تخلصاً من الجلاء ولكنهم بقوا على عقائدهم سراً فصار ديوان التفتيش يعمل عمله فيهم وارتكب تلك الفظائع التي يحفظها له التاريخ وقتل وصلب وأحرق بالنار كما هو مشهور . ومع هذا فبقي أكثر المسلمين نحو ٢٠٠ سنة وهم يحفظون دياناتهم سراً ويتظاهرون بالكثلكة وقد يزداد عليهم الضغط فيلجأون الى الثورة ولا سيما في جبال البشرات التي اعتصموا بها لمنعتها فجرت بينهم وبين الاسبانيول وقائع عديدة الى ان انتهى امرهم في زمان فيليب الثاني في أوائل القرن السابع عشر بجلاء البقية الباقية منهم الى افريقية . على انه مما لاشك فيه ان كثيرين من الآباء أجبروا على تعليم أولادهم الديانة المسيحية منذ الحداثة فنشأ هؤلاء مسيحيين وبطول الزمن صاروا اسبانيولا وهؤلاء هم الذين اليوم ينتسبون الى العرب تدل على ذلك خلقتهم وسحنتهم وأسماؤهم وأماكنهم . وربما يقال ان مسلمي الاندلس أنفسهم لم يكن أصلهم كلهم عربا بل أسلم في الفتح العربي اسبانيول كثيرون وهذا جائز وهو ماكان يدعيه ديوان التفتيش ويجعله مبرراً لاعماله وان كان تاريخ المدنية انكرها ولقد اعتادت الدنيا هذا المد والجزر في الحكومات والديانات فحبذا لو خفت حدة هذا التباغض بين الناس من جراء الفوارق الدينية لاسيما بين ارباب المذاهب التي تدعو جميعها الى عبادة الخلاق ومكارم الاخلاق (ش)

مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعاً يجتمع فيه كل عام اكثر من مئة الف حاج وافدين من كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي ، وهناك امام الكعبة المقدسة في مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة والأجناس ، ويتبادلون العواطف الدينية ، ويتباحثون في الشؤون الاسلامية ، ثم ينقلبون الى أوطانهم نائلين لقب « الحاج » ، لقباً يعرف صاحبه بالتقوى فيجله اخوانه المسلمون ويعلون منزلته بينهم ما دام حياً .

فالمقاصد والأغراض السياسية التي ينالها المسلمون على يد الحج الممهد لها السبيل انما هي معلومة لا تحتاج الى كبير ايضاح . بل يكفي ان نقول ان الحج انما هو المؤتمر الاسلامي السنويّ العام ، فيه تتباحث الوفود الاسلامية والنواب المسلمون الطارئون من أقطار المعمور الاسلامي كافة في مصالح الاسلام ، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الاسلام والذب عن حياض المسلمين ، ونشر الدعوة في سبيل الرسالة . وفي هذا المؤتمر العظيم ، كانت قلوب قادة اليقظة الاسلامية وابطالها ، كعبد الوهاب ، ومحمد ابن السنوسي ، وجمال الدين الافغاني ، تشعر بجلالة الواجب الاسلامي المقدس ، وتتقد من خطورة المشهد وروع المحفل غيرة على الاسلام والمسلمين

أما الخلافة فقد كان لها حقاً شأن تاريخيّ عظيم ، ولا سيما فى أوائل عهدها . وقد بسطنا الكلام فى موضع سابق على ما كان ينتابها من الخطوب وما أفضت اليه في النهاية ، اذ اطفيء سراجها الوهاج فانقلبت الى صورة وهمية بعد أن نزل هول المغول ببغداد ، ثم مابرحت هكذا حتى جاء السلاطين الترك فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة ، فاعترف عالم السنة الاسلامي لهم بهذه الخلافة[1] الاسمية . بيد ان سلاطين الترك في القسطنطينية ، وما كانوا ليحرزوا من المكانة الدينية في العالم الاسلامي مثل ما أحرزه من قبلهم الخلفاء الراشدون وأكابر خلفاء بني العباس فى بغداد .

(١) لم يعترف الشيعة في فارس بخليفة من خلفاء السنة . واعتاد اهل البلاد المغربية في شمالي أفريقية ان يعترفوا لسلاطينهم الاشراف بالسيادة الروحانية .

اضف الى هذا أن العرب ما انفكوا ينظرون الى الخلفاء الترك شزراً ويعدونهم المغتصبين للخلافة اغتصاباً (١) وقد جهد السلطان عبد الحميد جهداً كبيراً لاحياء عظمة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لها من الجلالة والهيبة والخطورة في العالم الاسلامي ، فنال ما ناله ليس بسبب من أسباب الخلافة من حيث الاعتبار الديني ، بل بسبب الشعور العام الذي ظهر واشتعل في صدور المسلمين لانشاء الجامعة الاسلامية الكبرى . لهذا كان عظماء قادة الجامعة الاسلامية الحديثة على قسمين : فمنهم من اعترف بالسلطان عبد الحميد خليفة على المسلمين ، ومنهم من ناصبه العداء كالسنوسي (٢) . هذه حقيقة غابت عن عقول كثير من ساسة أوربة ، حتى وجلوا من عبد الحميد فحسبوه في الاسلام كالبابا في النصرانية . وما زلنا نرى حتى اليوم أكثر ساسة الغرب يهيمون

(١) ان الخلافة لم تستتم شروطها الصحيحة الا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن الا ملكا عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الامة الى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، الا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج . (ش)

(٢) كون السنوسي ناصب السلطان العداوة هو خبر من الاخبار تهافت على تصديقه كثير من الاوربيين من جملتهم مؤلف هذا الكتاب . والحقيقة ان سيدي محمد بن علي السنوسي وولده المهدي وجميع السادة السنوسية ، كانوا موالين للسلطان ومؤيدين للدولة العثمانية باعتبار انها ملجأ للاسلام ، وبأن السلطان هو أكبر ملوك المسلمين . ولابي النصر مقرب شاعر الحضرة السنوسية قصيدة يمدح بها سيدي المهدي من جملة ابياتها :ـ

ولا بد ان تأتي جيوش ببرقة فتغشى غواشيها العيون الغواشيا
قبائل من سام وحام تجمعت وما جمعت الا الاسود الضواريا
زوية اهل المجد من يأت حيهم ير العز في نادى زوية باديا

زوية هي القبيلة التي تقطن واحة الكفرة وهي بمثابة الحرس الخاص للسادة السنوسية . ثم يقول :

وكم بدوي في الملا حلف نوقه يبول على الاعقاب أشعث حافيا
تلافاه في وادى الضلالة هاوياً فاصبح نجماً في الهداية عاليا

ثم يقول :

ولولا انتظار الاذن من سيد الورى وسلطاننا الغازى لاصبح غازيا

أي لا يمنعه من أن يغزو ضعف في المنة ولا فتور في العزيمة وانما هو انتظار الاذن من السلطان الاعظم . (ش)

مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعاً يجتمع فيه كل عام اكثر من مئة الف حاج وافدين من كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي ، وهناك امام الكعبة المقدسة في مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة والأجناس ، ويتبادلون العواطف الدينية ، ويتباحثون في الشؤون الاسلامية ، ثم ينقلبون الى أوطانهم نائلين لقب « الحاج » ، لقباً يعرف صاحبه بالتقوى فيجله اخوانه المسلمون ويعلون منزلته بينهم ما دام حياً .

فالمقاصد والأغراض السياسية التي ينالها المسلمون على يد الحج الممهد لها السبيل انما هي معلومة لا تحتاج الى كبير ايضاح . بل يكفي ان نقول ان الحج انما هو المؤتمر الاسلامي السنوي العام ، فيه تتباحث الوفود الاسلامية والنواب المسلمون الطارئون من أقطار المعمور الاسلامي كافة في مصالح الاسلام ، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الاسلام والذب عن حياض المسلمين ، ونشر الدعوة في سبيل الرسالة . وفي هذا المؤتمر العظيم ، كانت قلوب قادة اليقظة الاسلامية وابطالها ، كعبد الوهاب ، ومحمد ابن السنوسي ، وجمال الدين الافغاني ، تشعر بجلالة الواجب الاسلامي المقدس ، وتتقد من خطورة المشهد وروع المحفل غيرة على الاسلام والمسلمين

أما الخلافة فقد كان لها حقاً شأن تاريخيّ عظيم ، ولا سيما فى أوائل عهدها . وقد بسطنا الكلام فى موضع سابق على ما كان ينتابها من الخطوب وما أفضت اليه في النهاية ، اذ اطفيء سراجها الوهاج فانقلبت الى صورة وهمية بعد أن نزل هول المغول ببغداد ، ثم مابرحت هكذا حتى جاء السلاطين الترك فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة ، فاعترف عالم السنة الاسلامي لهم بهذه الخلافة[1] الاسمية . بيد ان سلاطين الترك في القسطنطينية ، وما كانوا ليحرزوا من المكانة الدينية في العالم الاسلامي مثل ما أحرزه من قبلهم الخلفاء الراشدون وأكابر خلفاء بني العباس فى بغداد .

(١) لم يعترف الشيعة في فارس بخليفة من خلفاء السنة . واعتاد اهل البلاد المغربية في شمالي أفريقية ان يعترفوا لسلاطينهم الاشراف بالسيادة الروحانية .

اضف الى هذا أن العرب ما انفكوا ينظرون الى الخلفاء الترك شزراً ويعدونهم المغتصبين للخلافة اغتصاباً [١] وقد جهد السلطان عبد الحميد جهداً كبيراً لاحياء عظمة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لها من الجلالة والهيبة والخطورة في العالم الاسلامي" ، فنال ما ناله ليس بسبب من أسباب الخلافة من حيث الاعتبار الديني ، بل بسبب الشعور العام الذي ظهر واشتعل في صدور المسلمين لانشاء الجامعة الاسلامية الكبرى . لهذا كان عظماء قادة الجامعة الاسلامية الحديثة على قسمين : فمنهم من اعترف بالسلطان عبد الحميد خليفة على المسلمين ، ومنهم من ناصبه العداء كالسنوسي [٢] . هذه حقيقة غابت عن عقول كثير من ساسة أوربة ، حتى وجلوا من عبد الحميد فحسبوه في الاسلام كالبابا في النصرانية . وما زلنا نرى حتى اليوم أكثر ساسة الغرب يهيمون

(١) ان الخلافة لم تستتم شروطها الصحيحة الا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن الا ملكا عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الامة الى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، الا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج . (ش)

(٢) كون السنوسي ناصب السلطان العداوة هو خبر من الاخبار تهافت على تصديقه كثير من الاوربيين من جملتهم مؤلف هذا الكتاب . والحقيقة ان سيدي محمد بن علي السنوسي وولده المهدي وجميع السادة السنوسية ، كانوا موالين للسلطان ومؤيدين للدولة العثمانية باعتبار انها ملجأ للاسلام ، وبأن السلطان هو أكبر ملوك المسلمين . ولابي النصر مقرب شاعر الحضرة السنوسية قصيدة يمدح بها سيدي المهدي من جملة ابياتها :ـ

ولا بد ان تأتي جيوش ببرقة ... فتغشى غواشيها العيون الغواشيا
قبائل من سام وحام تجمعت ... وما جمعت الا الاسود الضواريا
زوية اهل المجد من يأت حيهم ... ير العز في نادى زوية باديا

زوية هي القبيلة التي تقطن واحة الكفرة وهي بمثابة الحرس الخاص للسادة السنوسية . ثم يقول :

وكم بدوي في الفلا خلف نوقه ... يبول على الاعقاب أشعث حافيا
تلافاه في وادى الضلالة هاوياً ... فاصبح نجماً في الهداية عاليا

ثم يقول :

ولولا انتظار الاذن من سيد الورى ... وسلطاننا الغازى لاصبح غازيا

أي لا يمنعه من أن يغزو ضعف في المنة ولا فتور في العزيمة وانما هو انتظار الاذن من السلطان الاعظم . (ش)

في ذلك فيخالون الجامعة الاسلامية انما كان مستقرها ومنبعثها الخلافة ، ونرى أيضاً غالب حملة الأقلام يفيضون في الكلام فيما اذا استبقيت الخلافة في السلطان التركي على ظلمه ، أو نقلت الى شريف مكة ؛ أو قضي عليها القضاء الأخير ، وأي هذه الوسائل تكون خيراً لهيض جناحي الجامعة الاسلامية . ان هذا وايم الحق لغاية ما يرتكب من الخطل . لا ينكر أن الخلافة ما برحت رفيعة المكانة في عيون المسلمين بلا ريب ؛ غير ان قادة الجامعة الاسلامية الحديثة ، ذوي العقول الثاقبة والذكاء المتوقد ؛ مافتئوا منذ عهد بعيد يجدّون في سبيل الجامعة الاسلامية في نطاق أوسع وأفق أبعد ، وقد أيقنوا كل الايقان ان القوة الكبرى التي تستمدها الجامعة الاسلامية اليوم ليست من مركز الخلافة ، ولكن من بيت الله الحرام ، حيث الحجيج اذ يأتمرون كل عام مؤتمراً عظيما ؛ ومن انشاء الطرق الدينية المؤدية الى الجامعة الاسلامية كالطريقة التي انشأها السنوسي ؛ ونحن شارعون في الكلام عليها (١) في موضع قريب .

من شأننا الآن أن نتتبع الأدوار المختلفة التي اجتازتها « الجامعة الاسلامية » الحديثة مبتدئين في الكلام على الدور الأول الذي ظهرت فيه للعالم ظهوراً بيناً ، وهو دور الدعوة الوهابية . انشأ عبدالوهاب حكومته على أساس الشورى كتلك الشورى التي اشتهرت في عهد الخلفاء الراشدين . ولما تم لسعود خليفة عبد الوهاب الاستيلاء على الأماكن المقدسة في الحجاز ، خال استيلاءه هذا الخطوة الأولى في سبيل فتح العالم الاسلامي قاطبة ، فتحاً اصلاحياً دينياً تتلوه الوحدة السياسية العامة بين جميع الممالك الاسلامية .

(٢) اقرأ السر و . موير - كتابه : « نشوء الخلافة وتداعيها وسقوطها » ايدنبرغ ١٩١٥
Sir W. Muir, "The Califate" Its Rise, Decline and Fall."
وهو خير ما كتب في شأن الخلافة .

والسر مارك سايكس - كتابه : « تراث الخليفة » لندن ١٩١٥
Sir Mark sykes, "The Caliph's Last Heritage"

و « وفد الخلافة الهندي » وهي رسالة نشرت ملحقاً لمجلة « الشؤون الاجنبية »
"The Indian Khilafat Deligation", "Foreign affairs" Special supplement

لكن لما سقطت الوهابية دون مبتغاها العظيم ، أخذ الاضطراب السياسي على أثر ذلك يشتد في العالم الاسلامي اشتداداً واسع المضطرب . وقد سبق لنا فتكلمنا على ماحدث في شمالي الهند وافغانستان ، مما كان في الواقع منبعثاً عن الروح الوهابية ، ويعد باعتبار الحقيقة والغاية نعياً على الممالك الاسلامية انحطاطها السياسي ، وعلى الحكام والأمراء المسلمين فقدانهم الهيبة والسلطان.

فلهذا لم يكن الوجل من الغرب أو العداء له الباعث كل الباعث على انتشار الاضطراب الاسلامي في أول عهده ، لأن اوربة لم تكن حتى ذلك العهد قد حاولت فتحاً كبيراً في العالم الاسلامي ، سوى استخلاصها بعض الاصقاع من تركية الأوربية وجزائر الهند ، وأما هول الفتوح العظمى فلم يكن قد ظهر بعد ، غير ان اشباحه كانت تقترب شيئاً فشيئاً . وما كاد ينتصف القرن التاسع عشر حتى تبدلت الحال تبدلاً تاماً ، ففتح الفرنسيس الجزائر ، واستولت روسية على عبر القوقاس ، و بسطت انكلترا نفوذها على الهند من أقصاها الى اقصاها ، جميع هذا مما جعل قادة المسلمين الحكماء في كل صقع يوقنون كل الايقان ان الاسلام انما يحيق به خطر عظيم ، وبلاء شامل ، من جراء انتشار سيطرة الغرب عليه ؛ وفي هذه الغضون أخذت الجامعة الاسلامية تسير في تيار غايته مقاومة الغرب وصده وعداؤه ، وهي ما برحت تسير هذا المسير حتى اليوم . وقد كانت المقاومة في بادىء الأمر في موضع موضع ، وغير منظمة تنظيماً مرتبط الوسائل كل الارتباط ، فهب أبطال من المسلمين مثل عبد القادر في الجزائر (١)

(١) ليس هنا محل سرد تاريخ المغرب الأوسط من أوله الى آخره ، وانما نذكر بمناسبة الامير عبد القادر الحسني الجزائري سبب استيلاء فرنسا على الجزائر، وأوليات ذلك ومصايره ، تمهيداً للدور الذي قام به هذا المجاهد الكبير في الديار المغربية فنقول :

لا يخفى انه عندما استولت فرنسا على الجزائر كان هذا القطر من جملة أجزاء السلطنة العثمانية التي افتتحته منذ سنة ١٥١٦ وأجلت الاسبانيول عن أكثر مدنه البحرية التي كانوا احتلوها وامتدوا الى ما وراءها . وكان القائم بهذا الفتح هو عروج الريس البحري التركي ، ثم اخوه خير الدين الملقب ببربروس ، أي ذي اللحية الحمراء ، الذي وصلت القوة البحرية الاسلامية في أيامه الى أوجها الاعلى بحيث أصبحت هي سيدة البحر المتوسط بلا مراء ، وتضاءلت أمامها

جميع أساطيل النصرانية . وكان مركز خيرالدين هو مدينة الجزائر ، وقد مد منها جناح سلطته باسم السلطان العثماني على سواحلها ودواخلها ، فصارت تلمسان وما يليها ، وقسطنطينة وما يتبعها ، داخلة تحت الحكم العثماني . وقد توالى بعد خير الدين الولاة من قبل الدولة على تلك البلاد يتولون أمورها على شكل ادارة داخلية مستقلة أشبه بادارة تونس ومصر . وكان هؤلاء الولاة في شغل دائم ونصب مقيم من مكافحة الدول المسيحية في البحر المتوسط ورد غاراتها المتوالية على سواحل المغرب . ولما كان اساس نزول خير الدين بهاتيك الديار هو القوة البحرية فقد بقيت تلك الايالة مركز قوة بحرية عظيمة مدة ثلاثة قرون ، استفحل فيه شأنها طيلة القرن السابع عشر وادرك امرها الهزال والضعف في القرن الذي بعده . وكانت الدولة العثمانية تتوكأ دائما في حروبها على اسطول الجزائر ، وتجعله ردءاً للاسطول العثماني في كل موقف خطير ، الى ان انقلب اسطول الجزائر من الجهاد الى اللصاص ، ومن الدفاع الشريف عن حوزة الاسلام الى الاعتداء على الناس والسبي والنهب والاسترقاق ، مما لم يزل يتمادى ولا تنجع فيه الوسائل حتى ضاق بذلك ذرع دول النصرانية ، وآل الأمر الى تولي احداهن (فرنسا) كبر اسقاط تلك القوة واستئصالها من شأفتها ، والاستيلاء على العش الذي درجت منه . فقد صارت لصوصية البحر ، أو القرصنة ، في أواخر القرن السادس عشر مورد رزق وواسطة كسب الحكومة الجزائر ولأهلها ، وأصبح هؤلاء يؤلفون الشركات ويبنون السفن ويجهزونها بالعدد اللازمة ، ويبثونها في البحر تغزو وتعيث ، فتأخذ السفن غصبا وتنهب البضائع التي فيها ، وتسطو على ركابها فتسوقهم أسارى من رجال ونساء واطفال وتبيع بعد ذلك الاموال والارواح في اسواق الجزائر ، فتأخذ الحكومة من ذلك نصيبا معلوما ويتقسم الباقي على اصحاب السفن والبحرية . واذا كان الاسير من اسرة ذات ثروة أو وجاهة فنعم الغنيمة اذ كان أقارب الاسرى وحكوماتهم المتجوعة وبعض رهبانيات النصارى يفكون الاسرى بمبالغ طائلة . واستمرت هذه الحال دهراً حتى عيل صبر الدول الاوربية لا سيما فرنسا وانكلترة وضربتا الجزائر بالمدافع سنة ١٦٥٩ وسنة ١٦٦٤ وتكرر ذلك سنة ١٦٨٢ و١٦٨٣ ثم سنة ١٦٨٦ الى أن تمكنت دولتا انكلترة وفرنسا من صيانة سفائنها من اعتداء قرصان الجزائر وصارت تجول في البحار بدون معارض . أما الدول التي من الدرجة الثانية مثل السويد وهولاندة والدانمرك ونابولي الخ ؛ فكانت مضطرة أن تدفع لحكومة الجزائر جزية سنوية تشتري بها حرية سير سفائنها ، وكانت دولة أوستريا والمجر معفاة بوصاة خاصة من الباب العالي . وما زال الأمر كذلك حتى أيام نابوليون ، فانتهز قرصان الجزائر فرصة الحروب التي اشتعلت يومئذ في كل أوربا وضاعفوا عيثهم في البحر المتوسط ، فارتفع العويل من كل جهة . ولما تقرر الصلح قررت الدول في (أكس لاشابل) منع الجزائريين بتاتاً من التعرض لأي سفينة ، فلم يسمعوا لأحد كلاما فأطلق الانجليز مدافعهم على الجزائر انتقاما

وفي سنة ١٨٢٧ حصلت منافرة بين حسين داى والى الجزائر ودفال قنصل فرنسا فمد يده الداي الى القنصل وضربه بالمروحة ، فحصرت فرنسا سواحل الجزائر واغتنمتها فرصة لفتح تلك البلاد ، فاحتلت الجزائر في ٥ ايلول سنة ١٨٣٠ وكان ذلك لعهد الملك كارلوس العاشر ، وكان مراد الفرنسيس في الاول الاحتفاظ ببعض المدن البحرية وتقرير نظام لادارة البلاد الداخلية

بالاتفاق مع الدول ، ثم انقلبت الافكار وتألفت لجنة اسمها « اللجنة الافريقية » للمذاكرة فيما اذا كان الاولى ترك الجزائر تحت شروط معلومة ، تفاديا من الكلف الباهظة التي يقتضيها فتح القطر الجزائري، أو الاستمرار على سياسة الفتح والاحتلال الى النهاية . مسئلة شبيهة جدا بمسئلة سورية اليوم بين الحزب الذي يرى تركها لاهلها خوف التورط في حروب مستقبلة اما مع العرب او مع الترك أو مع غيرهم ؛ والحزب الذي يرى التمسك بسورية والسيطرة عليها لاجل نفوذ كلمة فرنسا في المشرق مهما كلف ذلك من المشاق . وفي سنة ١٨٣٤ رجح رأي الاستيلاء ، وتعين حاكم عام للجزائر، ولكن بقي الفرنسيس مترددين في قضية الزحف الى الداخل، وجعلوا يدخلون المدن تدريجاً ، فاستولوا على وهران ومستغانم وعنابة وبجاية . وسنة ١٨٣٦ قصدوا قسطنطينة ' وكان فيها احمد بك فهزمهم . فاعدوا حملة ثانية في السنة التالية ففتحوها وامتدوا من هناك الى الصحراء . وفي سنه ١٨٤٤ كانوا في بيسكرة

اما في الجهة الغربية فان المقاومة كانت أطول أمداً ، وأصعب مراساً ؛ وذلك أن الاهالي اختاروا لهم اميراً قاتلوا تحت لوائه وهذا الامير كان رجلا من أعاظم الرجال وهو عبد القادر ابن محيي الدين الحسني . اصل سلفهم من المغرب الاقصى ومن آل البيت فيما يقال . هاجروا من هناك الى نواحي وهران ، واشتهر منهم رجال بالورع واقتدت بهم الناس ولا سيما السيد مصطفى بن محمد المختار ، والسيد محي الدين والد المترجم . وكانت ولادة المترجم سنة ١٢٢٣ الموافقة لسنة ١٨٠٨ ونشأ في مهد العلم والتقوى ، واعتنى بالتحصيل جد الاعتناء ؛ حتى تفوق بالادب والفقه والتوحيد والحكمة العقلية ؛ وكان مع ذلك لا يهمل المثاقفة بالسلاح وركوب الخيل بحيث نبغ من جهة عالما فاضلا ، ومن جهة ثانية ثقفاً فارساً ' فجمع بين السيف والقلم . وفي سنة ١٨٢٧ وقعت مشاحنة بين والده السيد محيي الدين وبين حسن بك حاكم وهران التركي ، فانتهى الامر بجلاء السيد محيي الدين عن وطنه ، فأزمع الرحلة الى المشرق وحج البيت الحرام وكان معه ولده عبد القادر . وبعد سنتين من غيابهما عادا الى وطنهما ، فكانت بعد ذلك الحرب بين اتراك الجزائر والفرنسيس فيقال ان عبد القادر منع والده من الانضمام الى حسن بك حاكم وهران فسلم الحاكم البلدة الى الفرنسيس ، ودارت رحى القتال بين الحامية الفرنسوية وبين الاهالي ؛ فتولى قيادة هؤلاء السيد محيي الدين ، وظهر في أثناء هذه الحرب من بسالة عبد القادر واقدامه ورباطة جأشه واصالة رأيه ، ما جمع له محاب القلوب وعقد به آمال الناس. ولما أراد أهالي تلك البلاد مبايعة السيد محيي الدين أميراً عليهم ؛ اعتذر بعلو سنه ، وأشار عليهم بولده عبد القادر في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٨٣٢ فبويع بالامارة ، وقيل بالسلطنة أولا ، فتحاشى لفظها مراعاة لسلطان فاس ، واكتفى بالامارة . ونص هذه المبايعة منشور في كتاب « عقد الاجياد في الصافنات الجياد » تأليف اكبر أولاده الامير محمد باشا .

فجعل عبد القادر عاصمته مدينة المعسكر ؛ ورتب جنوده وباشر القتال ' ولم يكن قتاله قاصرا على جهاد الفرنسيس فحسب ' بل اضطر ان يقاتل حساده ورقباءه من أهل البلاد أنفسهم ، فقام بجميع ذلك أحسن قيام ' حتى دانت له كل عمالة وهران تقريباً ، وفي ٢٦ شباط سنة ١٨٣٤ انعقدت بينه وبين الفرنسيس المعاهدة المعروفة « بمعاهدة دميشل » التي بها تعترف فرنسا لعبد القادر بجميع العمالة الوهرانية خلا مدينة وهران وآرزاو ومستغانم ' وكان له الحق

بموجب هذه المعاهدة ان يعين معتمدين (قناصل) في وهران والجزائر ومستغانم وغيرها ، وان يستورد الاسلحة من أى جهة أراد . فعظم شأن عبد القادر وتأثل سلطانه. وصار الامير الشرعي لجميع أهالى الجهات الغربية من المغرب الاوسط . ثم مد رواق ملكه على البلاد التي لم تكن داخلة في ضمن حدوده ، مثل ميدية ومليانة ، ورتب فيها المسالح بالرغم من احتجاج حاكم الجزائر العام . ولما كان الحسد والمنافسة هما اقتل امراض المسلمين . بحيث لاتثقل عليهم سلطة الغريب كما تثقل سلطة اخيهم ، ثار على الامير قبيلتا الدوائر والزمالة وانضمتا الى فرنسا فطلب تسليم رؤسائهم اليه فابى الجنرال « تريزل » ذلك فبرز عبد القادر الى القتال وانتصر على الفرنسيس في يوم المقطع (٢٦ تموز ١٨٣٥) فجردت فرنسا جيشاً كثيفاً استولى على عاصمته معسكر تحت قيادة المارشال « كاوزل ». وكانت بقية من الاتراك لاتزال في قلعة تلمسان فناوشوه من الوراء . فانهزم هزيمة ثانية في حرب مع الجنرال الفرنساوي « بوجو » ولكنه بقي ثابت العزم متوفر القوة . وتمكن بدهائه السياسي ان اصطلح مع الفرنسيس على شروط تضمن له احسن مما ضمنته معاهدة (دميشل) وذلك في معاهدة « التفنة » (٣٠ ايار ١٨٣٧) التي اعترفت فرنسا له فيها بجميع عمالة وهران وقسم كبير من عمالة الجزائر . فلما انتهى الخصام بينه وبين فرنسا شرع يقوي سلطته على البلاد التي ادخلت حديثا تحت حكمه . ورتب مسالح في لاغوات وميجانة وزيبان وخضع له أهل هاتيك الاطراف ، ما عدا المرابط محمد التجاني الذي أبى الاعتراف بامارته . فزحف عبد القادر بنفسه الي (قصر عين ماضى) وحصره وبعد حصار خمسة أشهر افتتحه مع أنه حصن منيع لم يتمكن الاتراك طول مدة حكمهم في الجزائر أن يدخلوه ثم رتب عبد القادر جيشاً منظماً على نمط جيوش الدول ، وقسمه الى مشاة وفرسان ومدفعية ، واستجاد لتعليمه وتدريبه ضباطاً من الجيش التونسى ومن الجند التركى الذي بطرابلس ومن الفارين من الجيش الفرنساوى . وسن لهذا الجيش نظاما يتعلق بمأكله وملبسه ورواتبه ومدة التعلم وشروط الترقي فيه ونيل الاوسمة وغير ذلك . وجعل دهاليز لادخار الحبوب وانابير للاقوات ومعامل للسلاح ، ورمم القلاع ، ولم يغفل عن شيء مما يلزم لتأسيس الحكومات الشرعية

ولما كانت معاهدات الدول الاستعمارية مع أهالى الاقطار التى تضع نصب اعينها الاستيلاء عليها هي في الغالب محاط استراحة بين الحملة والحملة . ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لاغير بحيث لدي توفر القوة لاتعدم عذراً في نقض تلك المعاهدات التي لم تبرمها منذ البداية الا على نية النقض ، وكانت في الواقع مصدقة لقوله تعالى في هؤلاء « وماوجدنا لاكثرهم من عهد » شرعت فرنسا بالتعلل من جهة تفسير بعض فقرات معاهدة التفنة ، وارادت التفصي منها ، حال كون الامير يتقاضى العمل بها فنشبت الحرب بين الفريقين . لأن فرنسا كانت اعدت عدتها والامير ابت نفسه النزول عما خولته اياه المعاهدة ، فزحف المارشال « فالى » و « الدوق دومال » من جهة ، واغارت عساكر الامير على متيجة من جهة اخرى . ونادى الامير بالجهاد وذلك في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ فاستمرت الحرب من ذلك التاريخ الى سنة ١٨٤٣ بدون انقطاع . وقام فيها الامير عبد القادر مقامه المحمود الذي طبق ذكره الآفاق . وان كان عدم تكافؤ القوتين المتقابلتين آل أخيراً الى سقوط اكثر حصونه ، واستيلاء العدو على اكثر مدنه ، مثل تاغدمت والمعسكر وتازة ووادي الشليف . فانكفأ الى الغرب ، فزحف العدو الى تلمسان ونواحي ندرومة واحتلها

فتحول الامير الى الجنوب وهناك ايضاً كبس (الدوق دومال) محلته (مايسميه الاتراك بالقراركاه) وغنم اكثرها ففت هذا الحادث في عضده وخذله اكثر انصاره . ففر الى المغرب وسعى في حمل سلطان المغرب على اصلاء الفرنسيس الحرب . فكانت بين جيش المغرب والجيش الفرنساوي « واقعة ايسلي » (١٢ اغسطس ١٨٤٤)

ولما كان المغاربة لا يملكون من آلات القتال ما يملكه الفرنسيس انتصر الجنرال « بوجو » على الجيش المغربي ؛ وكانت بوارج فرنسا ضربت بالمدافع ثغري طنجه ومغادور ، فضيقت فرنسا على سلطنة المغرب من البر والبحر . وأجبرت السلطان مولاي عبد الرحمن صاحب الغرب على عقد الصلح (١٠ ايلول ١٨٤٤) بالشروط التي تريدها . وأولها منع عبد القادر من تجاوز حدود الجزائر . فلبث هذا نحو سنتين متربصاً منتظرا غرة من العدو ليهتبلها . فلما لاحت له في ثورة سنة ١٨٤٦ انقض على بلاد الجزائر ثانية وأوجف في الغارة حتى بلغ بلاد البربر المسماة عند الفرنسيس (كابيلي) ، وأعاد الأمر كما بدأ . الا ان قوة عبد القادر كانت هذه النوبة قد تناقصت ، وقدم الفرنسيس في الجزائر قد رسخت ، فلم تستمر غارته وأحاطت به الجيوش من كل جهة . فاسرع الاوبة الى الحدود المراكشية فعادت فرنسا تتقاضى مولاى عبد الرحمن تسليمه . وما زالت تلح في ذلك حتى ساق عليه السلطان قوة عظيمة . فلما رأى نفسه بين نارين وان اخوانه المسلمين قد صاروا عليه الباً مع الفرنسيس ، اشتد به الغضب وسلم نفسه الى الفرنسيس على يد « الجنرال لا موريسيار » (٢٣ كانون الأول ١٨٤٧) . ووقع الاتفاق على أن يخرج بعائلته من الجزائر ذاهباً الى الاسكندرية أو عكا

وعلى رواية أخرى وهي التي مال اليها صاحب « تاريخ الاستقصا في أخبار المغرب الاقصى » لما يئس الأمير عبد القادر من الفوز على الفرنسيس بقوته الخاصة ، حدثته نفسه بقلب سلطنة المغرب ، والجلوس على عرش فاس ، فأوجس السلطان عبد الرحمن خيفة من دسائسه ، وأرسل تلك القوة لمطاردته وخضد شوكته ، قبل ان يستعصى أمره . ولذلك صاحب الاستقصا بعد ان أثنى أولا على جهاده وعلو همته ، عاد فرماه أخيراً بسوء النية والفساد في الأرض ، وهو في كلتا الحالتين لم يلقبه بالأمير بل « بالحاج عبد القادر بن محيي الدين »

وأخذ الأمير الى طولون حيث كان المراد تسفيره الى الشرق بحسب العهد الذي انعقد . الا انه في تلك الأيام حصلت في فرنسا ثورة سنة ١٨٤٨ وسقط الملك لويس فيليب فاعتقلت الحكومة الموقتة في اطلاق سراحه وأبقته في بلادها أسيرا الى سنة ١٨٥٢ اذ بشره لويس نابليون بنفسه انه تقرر اخلاء سبيله . فذهب الى الاستانة ثم أقام ببرصا . وسنة ١٨٥٥ استأذن في الذهاب الى الشام بمعرفة الحكومة الفرنسوية فأذنت الدولة العلية له بذلك . ولما حصلت في دمشق الحادثة المؤلمة المسماة بحادثة سنة الستين ، التي كان منشأها من رعاع القوم ، اهتم الأمير عبد القادر بوقاية المسيحيين وأنقذ منهم عدداً وافراً . وان لم يكن هو المنفرد بذلك بل شاركه في هذه المبرة كثير من أعيان دمشق مثل محمود أفندي حمزة ، وبني العابد ، وبني المهايني وغيرهم ، فاستحق بهذا الفعل الجميل ثناء الجميع وجاءته الأوسمة مع عبارات الشكر من فرنسا وأكثر الدول الأوروبية . وقضى بقية حياته في مثافنة العلماء واسداء الخيرات ، وكان كل يوم يقوم الفجر ويصلي الصبح في مسجد قريب من داره في محلة العمارة .

لا يتخلف عن ذلك الا لمرض . وكان يتهجد الليل ويمارس في رمضان الرياضة على طريقة الصوفية وما زال مثالا للبر والتقوى والأخلاق الفاضلة الى ان توفي رحمه الله سنة ١٨٨٣ فدفن بمقام الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي في الصالحية . وترك من الولد الامراء محمد باشا ، ومحيي الدين باشا ، والهاشمي ، وابراهيم ، وأحمد ، وعبد الله ، وعلي ، وعبد الرزاق ، وعبد المالك ، فالامير محمد باشا وشقيقه محيي الدين انتقلا الى الاستانة وجعلتهما الدولة في مجلس الأعيان الى ان توفيا وكان الثاني منهما شاعراً أديباً ، عالي الهمة ، وذهب سنة ١٨٧٠ بدون علم أبيه الى الجزائر ليترأس الثورة القبائلية التي اشتعلت يومئذ فلما بلغ الخبر أباه أعلن سخطه عليه لأن الأمير بعد أن أعطى عهده لفرنسا حافظ على قوله الى الممات . واما الهاشمي فمن ولده الأمير خالد الذي هو على رأس الحركة الوطنية الحاضرة في الجزائر وأما الأمير عبد الله فهو في قيد الحياة بدمشق ؛ وأما الأمير علي فقد كان مبعوثاً عن الشام منذ سنة ١٩١٤ في مجلس الأمة بالاستانة ، وكان محرر هذه السطور قد انتخب عن حوران أيضاً وسفرنا يومئذ الى دار السعادة معاً ؛ فلما افتتح المجلس وصارت المذاكرة في انتخاب الرئيس ونواب الرئيس وكانت العادة ان يكون الرئيس الاول تركيا والرئيس الثاني من ابناء العرب ، استشارني طلعت بك حينئذ ، وكنت العضو العربي الوحيد في القلم العمومي لمجلس الأمة ، وطلعت هو الرئيس ، فاتفقنا على دعوة المبعوثين لانتخاب الأمير علي رئيساً ثانياً ، وهكذا كان ، ولما شبت الحرب العامة أرسلته الدولة الى المانية حيث قابل الامبراطور غليوم وامضى مناشير القتها الطيارات الألمانية على العساكر المغربية ، تحثهم على ترك العسكر الفرنساوي ، والالتحاق بالألمان حلفاء الدولة العلية ، فأخذ الفرنسيس حذرهم من مفعول هذه المناشير ، وصاروا يؤخرون المغاربة الى الوراء بعد ان كانوا يضعونهم دائماً في الأمام وقوداً للنار . وبعد أن قضى الأمير علي مدة في المانية عاد الى الاستانه ومنها الى سورية اذ وجد أخاه الأمير عمر محبوساً مع من حبسهم جمال باشا قائد الجيوش في سورية اثناء الحرب لأوراق وجدت عليه في قنصلية فرنسا ، فتشفع الى جمال في اخيه فلم يقبل شفاعته ، ونفاه هو أيضاً مع أولاده وسائر اسرة الامير عبد القادر الى برصا ، ولم يرع حرمة جهاد والده ولا خدمة الامير علي في المانية ولا قبل ذلك في حرب طرابلس الغرب ، فاشتد عليه الغم ولم يلبث ان مرض ونقل الى الاستانة وتوفي بها رحمه الله . وأما الامير عمر فكان من جملة الاعيان المشنوقين . وطالما راجعنا في امرهم وطلبنا عنهم العفو أو تحويل جزاء القتل الى النفي فلأمر يريده الله ابى جمال باشا الا ازهاق الانفس ، فكانت من الاغلاط الكبرى التي ذاقت الدولة العلية مرارة مغبتها وسهلت طريق الاجانب . ومما اتذكره ان جمال باشا سألني عما اذا كنت انكر ممالأة الأمير عمر لفرنسا مع انه هو لم يقدر على الانكار . فاجبته لست ممن ينكر ذلك ولكن أرى وجوب الصفح عنه حرمة للمرحوم والده الذي لا يخفى ماله من المكانة في العالم الاسلامي فقال لي جمال بالتركية (بكا نه) أي وماذا يجيئني من ذلك . وأما الامير عبد الرزاق فذهب شاباً وكان نادراً في الذكاء وجمال الصورة والسيرة . وآخر أولاد الامير عبد القادر هو الامير عبد المالك قضى بضعة عشرة سنة مجاهداً في المغرب بين القبائل الثائرة على فرنسا وعلى اسبانية . ولم يزل في تلك الديار يتحرك تارة ويسكن اخرى الى هذه الساعة

وكان المرحوم الامير عبد القادر متضلعاً من العلم والادب ، سامي الفكر ، راسخ القدم

وشامل في القوقاس [1] وغيرهما ، يقاتلون الفاتحين الغربيين قتالاً شديداً ، فكان

في التصوف ، لا يكتفى به نظراً حتى يمارسه عملا ، ولا يحن اليه شوقاً حتى يعرفه ذوقاً . وله في التصوف كتاب سماه (المواقف) فهو فى هذا المشرب من الافراد الافذاذ وربما لايوجد نظيره في المتأخرين وله كتاب آخر ممتع اسمه (ذكرى الغافل وتنبيه الجاهل) في الحكمة والشريعة. وقد ذكر مؤرخو الافرنجة ان ملكته العلمية والدينية كانتا من أكبر أعوانه على تأسيس الحكومة التي أسسها وانه كان ينال باللسان ما قد يعجز عنه بالسنان . ولم ينكروا عليه محافظه للعهود لكنهم زعموا انه كان لا يتوقف ان يخفرها فيما لو رأى في ذلك مصلحته المندمجة في مصلحة الاسلام . قال في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسوية : «كان عادلا لكن على الطريقة الشرقية ، براً رؤوفا ، لكن يجوز ان ينقلب سفاكا للدماء جاسياً اذا رأى ضرورة ايقاع الرعب في قلوب الاعداء » فلنا يظهر ان الافرنج يريدون ان يحفظوا مزية خفور العهد لدى تبين المصلحة لانفسهم دون سواهم ، وكذلك سفك الدماء لاجل القاء الرعب عند الضرورة . وحبذا لو حصروها في دائرة الضرورة ، بل اعمالهم في غاراتهم الاستعمارية ثم في الحرب العامة الاوربية قد فضحت امورهم وأثبتت أنهم يسفكون الدماء في ضرورة وفي غير ضرورة . وليس مثلهم ممن يحق له ان ينتقد في هذا الباب رجلا شهدت له جميع اعماله بالوفاء كالامير عبد القادر . ولنختم هذه الترجمة بشيء من شعر الامير الذي يدل على علو نفسه :

تسائلني أم البنين وانها ... لأعلم من تحت السماء باحوالي
الا فاسألي جانس الفرنسيس تعلمي ... بأن منايام بسيفي وعسالي
ومن عادة السادات بالجيش تحتمي ... وبي يحتمي جيشي وتحمى أبطالي

(ش)

(١) على الضفة الغربية من بحر الخزر بين ٤٣ و ٤١ من العرض الشمالي بلاد يقال لها طاغستان مساحتها نحو ٦٣٠ ٢٩٧ كيلومتر مربع وعدد نفوسها سبعمائة الف ، أما اذا انضم اليها جميع بلاد القوقاس الشمالية فيقال ان أهلها يبلغون مليونين الى ثلاثة . وقد فتح العرب فى خلافة هشام بن عبد الملك الطاغستان سنة ١٠٥ للهجرة ووطد أخره مسلمة الحكم العربي في تلك الديار ، وكانوا يلقبونها بالدربند ، وكانت ثغرا من ثغور العرب ومنها انتشر الاسلام في تلك الاقطار ، وكان الاهالى من قبل وثنيين ونصارى ويهودا . وروى المؤرخون ان احد ملوك تلك الامة صاحب مملكة خيدان كان يقيم شعائر الملل الثلاث فيصلي يوم الجمعة مع المسلمين والسبت مع اليهود ، والاحد مع النصارى . وكان في تلك الاقطار عدة ملوك يلون عدة شعوب صغيرة معروفة باسم اللازقيين ، ولما اجتاح المغول بلادهم كان اكثر هؤلاء صاروا مسلمين ، ولما كانت غارة تمرلنك (سنة ١٣٩٥ مسيحية) كان أشهر شعوب الطاغستان قبيلتين احدهما القايتاق ، والآخر القومق ويقال لهم غازي قومق ، وكان حكم القايتاق الذي يلي الدربند في يد السلطان طوقتاميش شرف الدين اليزدي ، وكان ملك القومق يسمى بالشامكال أشبه بلقب كسرى لفارس وفرعون لمصر ، وكان هؤلاء من أشد انصار الاسلام واحمسهم في بث دعوته . وفي سنة ١٥٧٨ استولى على هاتيك البقاع الاتراك العثمانيون ولكن لم تطل

ذلك القتال على استمراره أشبه بمبضع يزيد العالم الاسلامي جروحاً فيزداد تألماً وصراخاً ، بيد ان قتالاً مثل هذا ماكانت الغلبة فيه لابطال المسلمين ،

فيها مدتهم . واكثر اشراف الطاغستان يدعون انهم من اصل عربي وان آباءهم قدموا مع مسلمة بن عبد الملك واحياناً يخلطون معه ابا مسلم ويجعلون قبره في مدينة غزاق ويقولون انه هو باني الجامع الاول في بلاد القمق . وقد صادفت في الروسية بعض اشراف الطاغستان فقالوا لي ان اصلهم من العرب يوم فتحوا الدربند وهم يفتخرون بذلك . واشتهر من ملوك القايتاق السلطان أحمد خان المتوفى سنة ٩٩٦ هجرية أي ١٥٨٧ مسيحية وهو الذي يقال انه بنى مدينة « المجالس » لأنه كان يجتمع فيها شيوخ الامة ويتفاوضون في الامور العامة . وفي سنة ١٦٤٠ انفصلت فرقة من القايتاق وانتجعت الاراضي الواقعة جنوبي الطاغستان وامرت عليها حسين خان ، فجعل مركز امارته ساليان وكوبا ، ومن هذا الفرع ظهر في القرن الثامن عشر فتح علي خان أمير كوبا والدربند

وقد طمع الروس في الاستيلاء على الطاغستان منذ أواخر القرن السادس للمسيح فلم يفلحوا وهزمهم أولاد الشامكال واخرجوهم من بلد سولاك التي كانوا احتلوها ، ثم سنة ١٦٠٤ كروا ثانية على الطاغستان وقصدوا بلدة طاركهو فلم يفوزوا بطائل

وكان الشامكال قد خضع لآل عثمان ، وتبعه أمير تابازاران ، والامير الآخر الملقب بالعصمي ، فلما زحف الشاه عباس سلطان العجم على هذه البلاد سنة ١٦٠٦ انحاز اليه العصمي رستم خان وبقي الشامكال متمسكا بالعثمانيين الا ان رستم خان انحاز اخيراً الى هؤلاء فخالفه الشامكال الى سلطان العجم ولما ضعف امر الدولة الصفوية في فارس ثارت اهالي الطاغستان ونبذت طاعة الفرس ، واستقل مركاي خان بامارة القوموق . ثم تحالف هو والامير الملقب بالعصمي ، والمدرس الحاج داود ، ممن كان مطاعا بين العامة واستولوا على شامكي ثم ارسلوا الى استانبول يطلبون من الدولة أن ترسل اليهم خلع الولاية وتعرفهم من رعاياها . فاحتج بطرس الاكبر صاحب الروسية بان ثلاثمائة تاجر روسي قد قتلوا يوم فتح شامكي وساق جيشاً استولى على الدربند وسائر سواحل الخزر الغربية (١٧٢٢) الا ان نادر شاه صاحب فارس غزا هذه البلاد واسترجع أكثرها من أيدي الروس (١٧٣٥) وزحف تتر القريم التابعون للدولة العثمانية على الطاغستان في تلك الاثناء ففشلوا ، وبقي الحكم هناك للعجم لكن المملكة الفارسية بعد نادر شاه تضعضع امرها ، فتقلص ظلها عن الطاغستان ، وزحف الروس ثانية فاجتاحوا البلاد سنة ١٧٧٥ وفي سنة ١٧٨٤ خضع لهم الشامكال مرتضى علي وبعد ذلك استولوا على القوقاس ، فتمكنت قدمهم في الطاغستان . ولما استولى آل قاجار (الاسرة المالكة الآن في ايران) على فارس أحبوا أن يستردوا حقوق فارس على الطاغستان فاشتعلت الحرب بينهم وبين الروس ولم تنته الا سنة ١٨٠٦ اذ فاز الروس بالاستيلاء على هذا القطر ، وسنة ١٨١٣ نزل لهم العجم عن كل حق لهم فيه

ولما تخلى الترك من جهة والفرس من جهة عن الطاغستان ، عقد امراء البلاد محالفة فيما بينهم على مناهضة الروس فاشتبك القتال بين الفريقين ، وتجشمت الروسية كلفاً عظيمة ، الى

وذلك لوهن قواهم بعد جهاد كبير طويل العهد ، ولعدم تناولهم مدداً ونصراً يستعينون بهما على المضي في القتال

ان تمكنت من تدويخ البلاد فالغت لقب المعصي من امراء قايتاق (١٨١٩) ولقب المعصوم امير تبازاران (١٨٢٨) وجعلت لدى الأمراء الباقين ضباطاً روسيين يأخذون على أيديهم ، فاستسلموا جميعاً للحكومة الروسية ، فثار الشعب على الروس وعلى الامراء ؛ وتولى كبر الثورة علماؤهم وشيوخ الطريقة النقشبندية المنتشرة هناك ؛ وكأنهم سبقوا سائر المسلمين الى معرفة كون ضررهم هو من امرائهم الذين أكثرهم يبيعون حقوق الامة بلقب ملك أوامير ، وتبوء كرسي أو سرير ، ورفع علم كاذب ؛ ولذة فارغة ، باعطاء اوسمة ومراتب ، فثاروا منذ ذلك الوقت على الامراء وعلى الروسية حاميتهم ، وطلبوا ان تكون المعاملات وفقا لاصول الشريعة لا للعادات القديمة الباقية من جاهلية اولئك الاقوام ؛ وكان زعيم تلك الحركة غازي محمد الذى يلقبه الروس بقاضى ملا ، وكان من العلماء المتبحرين في العلوم العربية ؛ وله تأليف في وجوب نبذ تلك العادات القديمة المخالفة للشرع اسمه « اقامة البرهان على ارتداد عرفاء طاغستان »

وفي ٢٩ تشرين الاول سنة ١٨٣٢ بعد جهاد طويل احيط بغازي محمد في قرية جيمري ، واستشهد في معمعة القتال رحمه الله ، فخلفه حمزة بك الذي استشهد أيضا رحمه الله بقرب غنزاق بعد ذلك بسنتين ، فتولى زعامة الثورة الشيخ شامل افندي المقصود بهذه الترجمة . وهو على نمط الامير عبد القادر الجزائري ، خرج من المشيخة الى الامارة ، وتناول السيف من طريق القلم ، ولم يكن الشيخ شامل في سعة علم سلفيه ولكنه كان احسن منهم ادارة للامور ، وبصيرة بالحروب ، فشمر عن ساق الجهاد والتف ذلك الشعب الأبي من حوله ، فذب عن حوض ملته بنحو ٣٥ سنة ظفر فيها بالروس في وقائع عديدة ، والقى الرعب في قلوبهم ، وجلاهم عن جميع البلاد الا بعض مواقع ثبتوا فيها في الناحية الجنوبية . وكانت اعظم الدبرات التي والاها عليهم هى في سنتي ١٨٤٣ و١٨٤٤ حيث افتتح جميع الحصون التى كانت لهم في الجبال ، وغنم منهم ٣٥ مدفعاً واعتاداً حربية ومؤناً وافرة ، واخذ عدداً كبيراً من الاسرى ، فجردت الروسية بعظمة ملكها وسلطانها جيوشاً جرارة ونادت هي بالجهاد في الطاغستان . ونظم شعراء الروس القصائد في وصف تلك الحروب ؛ وما زالت توالي الزحوف حتى تمكنت من البلاد ، ولكن بقي الشيخ شامل عشر سنوات يناوشها القتال في الجهات الغربية من الجبال ولم يسلم هذا المجاهد العظيم للروس الا في ٦ ايلول سنة ١٨٥٩ فعمد الروس على أثر تسليمه الى اعادة سلطة الامراء ليتمكنوا بهم من خضد شوكة العلماء الذين لم تكن المقاومة الا بهم ومنهم . ولكن لما استتب لهم الامر بواسطة هؤلاء الامراء عادوا فخلعوهم هم أيضا كما هي العادة بان هذه الدول تبدأ اولا باستعمال نفوذ الامير الوطني في اغراضها ، وتصريفه في حاجاتها ، حتى اذا قضتها كلها رمت اليه ونبذته نبذ الحصاة ، وذهب يقرع سن الندم على استرساله اليها واعتماده عليها ، ففي عام ١٨٦٢ استأصلت الحكومة الروسية جميع ما كان بقي من جراثيم الامارة الاهلية وانزلت اولئك الامراء حتى عن كراسيهم الوهمية . وبقي الامر كذلك الى سنة ١٨٧٧ اذ نشبت الحرب بين الروسية والعثمانية فثار الطاغستانيون وافتتحوا قلعة القوموق ، ورفع ابناء

وما انفكت روح العداء للغرب تهيج وتشتد ، حتى بات العالم الاسلامي قاطبة يغلي غليان المرجل على النار ، فشبت في الجزائر الثورة المعروفة بثورة

البيوتات التي كانت مالكة من قبل اعلام الثورة ، واستعادوا لقب العصمي ، ولقب المعصوم ، ولكن لما دارت الدائرة على الدولة العثمانيـة في تلك الحرب ، تمكن الروس من قمع الثورة بدون عناء كبير

ولما انحلت الحكومة الروسية القيصرية ، وقامت الحكومة البولشفيكية سنة ١٩١٧ محلها واعلنت استقلال الامم المهضومة ، وخيرت الشعوب التي كان القياصرة الروس قد اخضعوها بحد السيف بين ان تبقى منضمة الى الروسية الاصلية ، أوتنفصل عنها ، كان اهالي بلاد القوقاس اجمعين ممن أعلنوا استقلالهم التام ، فتألفت جمهورية في كرجستان ، واخرى في الطاغستان ، والثالثة في آذربيجان ، والرابعة في اريفان ، واوفدت كل من الجمهوريات الاربع وفودها الى الاستانة لمفاوضة الاتراك والالمان في الاعتراف بهذه الجمهوريات الاربع ، وصار الحديث في ارتباطها بعضها ببعض بشكل حلفي ، وكان الوفد الطاغستاني الجركسي مؤلفاً من عبد المجيد بك وعلي بك ، وحيدربك بامات الذي كان ناظر الخارجية الطاغستانية . ومامضت مدة قصيرة حتى داخل الكرج الدولة الالمانية وطلبوا حمايتها فاعترفت لهم بالاستقلال دون غيرهم واحدث ذلك خلافا بين الاتراك والالمان لان تركيا تقاضت حليفتها المانيا الاعتراف باستقلال الجمهوريات الثلاث الباقية حتى أن طلعت باشا الصدر الاعظم يومئذ سعى لدى المانيا في معرفة استقلال جمهورية اريفان الارمنية التي كانت تتقرب من الدولة العلية . وكان رجال الدولة يريدون بمساعدتها اصلاح ذات البين بينهم وبين الارمن فتقدم انور باشا الى هذا العاجز ان اذهب الى برلين وأتكلم في هذا الموضوع وأقنع نظارة الخارجية الالمانية بلزوم المساواة بين جمهوريات القوقاس كلها ، والا لم يكن مناص من الاختلاف . وكلفني الوفد الطاغسطاني أيضاً أن أهتم بقضيتهم نوعا لانهم حسبوا أن الترك قد يصرفون معظم عنايتهم في مصلحة جمهورية أذربيجان التركية فقط فبذلت في تلك الايام جهدي مع نظارة الخارجية في برلين في تمهيد الخلاف ، وكان أكثر الكلام مع فون روزنبرغ الذي كان مديراً للامور الشرقية ، وهو هو اليوم بينما أحرر هذه الاسطر ناظر الخارجية الالمانية . ولم يلبث أن حضر الى برلين طلعت باشا والكونت برنستورف سفير المانيا في الاستانة ، واشتركنا في حل هذه المسائل جميعا وتم الاتفاق لولا أن الحرب في الجبهة المقدونية جاءت بما لم يكن في الحساب . وطلبت بلغاريا الهدنة ، وابتدأت نهاية الحرب فوقف كل شيء من جهة المانيا وتركيا ، واحتل الانكليز القوقاس . وعلق القوقاسيون عامة آمالهم بانكلترة انها تعترف باستقلالهم وتوطد لهم حكوماتهم ، لا سيما أنها كانت تعطف على الطاغستانيين قديما اثناء مقاومتهم الطويلة للروس فكان الامر بالعكس اذ حصرت انكلترة جهودها في مناهضة البولشفيك واعادة الحكم الامبراطوري على اصله ، وامدت الجنرال دنيكين عدو هؤلاء بالمال والسلاح ، فما بدأ الجنرال بالحرب مع البولشفيك حتى غزا الطاغستان وحاول القضاء على استقلالهم فجرت بين الفريقين الوقائع الدامية ، وما زالت الى ان انقضى امر دنيكين ، واستتب الامر للبولشفيين انفسهم ، فجرد هؤلاء جيوشاً على جمهوريات القوقاس الاربع .

« السكابيل » (١) سنة ١٨٧١ ، وهب رجال الدين المعروفون بالأولياء في كل

فقبضوا على ازمتها والحقوها بحكومة موسكو خلافا لوعدهم الاول ، وثار اهالى الطاغستان عليهم فتغلبت الحكومة البولشفية على الثوار وقبضت على بعضهم والقتهم في السجون ، وشرد قسم من رؤساء الحكومة المستقلة ، ومنهم عبد المجيد بك وصديقنا حيدر بك بامات الى اوربا ، حيث يواصلون مساعيهم لاجل قضيتهم القومية الى يومنا هذا .

وبلاد الطاغستان متعددة اللغات فمنها لغة الآقار ، ولغة القومق ، ولغة القايتاق ، ولغة الدارغا ، ولغة تابازاران ومنهم من يتكلم بلغة فارسية ، وفي الدردبند والسواحل يتكلمون بالتركية الاذرية أي الجغطاى ، وهي أرقى جداً من اللغات السابقة الذكر ، ولكن لسان العلم فى جبال الطاغستان هو اللسان العربي ، وهو اللسان الذي يتكاتب به اعيان تلك الامة ، وقد صادفت سنة ١٩١٩ الوفد الطاغستاني الجركسي في « برن » قاعدة سويسرة ولزمتهم مكاتبات الى رؤساء بلادهم ، فكلفني حيدر بك بامات بتحريرها لهم بالعربية الفصحى . وكثير من علماء طاغستان معدودون من علماء العربية .

قد حرر تاريخ الطاغستان كثيرمن مؤرخى الالمان والروس والفرنسيس مذكورة اسماؤهم في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسوية ، ولصديقنا الاستاذ عزيز بك مكير ناموس السفارة التركية الحالية بموسكو واحد فضلاء الامة الجركسية ، رسالة باللغة الفرنسوية وافية باخبار تلك الامة . وللميرزا حسن افندى ابن الحاج عبد الله افندي الاقدري الطاغستاني تاريخ باللهجة الآذرية اسمه « كتاب آثار طاغستان » طبع في بطر سبرج سنة ١٨٩٥ ولم يسمح الروس بنشره الا سنة ١٩٠٢ بعد رفع المراقبة عن المطبوعات ، ومحرر هذا التاريخ كان ممن اشترك بثورة ١٨٧٧ ونفاه الروس مدة مديدة .

وقد عرفت في المدينة المنورة قبل الحرب العامة باشهر كامل باشا حفيدالمرحوم الشيخ شامل ، وانعقدت بيننا الصحبة لما رأيت من حسن اخلاقه ، ولما نشبت الحرب الكبرى استدعته الدولة الى الاستانة وكانت له مواقف فى خدمتها تليق بمن كان حفيدا لذلك الجد الامجد . (ش)

(١) بعد أخذ الامير عبدالقادر أسيراً وانعقاد معاهدة الصلح بين فرنسا والمغرب (١٨٤٥) تحددت الحدود بين الجزائر ومراكش ، وعلت كلمة فرنسا في القطر الجزائري ، وأخذت العساكرالفرنسوية تتقدم الى جهات الصحراء وتبنى فيها المخافر وتؤسس المسالح توطيداً لقدمها في البلاد ، فثار ثائر يقال له ابو زيان في واحات زيبان من الصحراء ، فكان نصيب ثورته الفشل فثار زعيم آخر اسمه الشريف محمد بن عبد الله فسيقت عليه العساكر الفرنسوية فافتتحت مدينة لغوات وزحفت الى ورغله (١٨٥٤) وفر الشريف شريداً

وكانت البلاد المسماة (كابيلي) أي القبائلية ، اشارة الى قبائل البربر التي تسكنها ، لا تزال مستعصية على الفرنسيس ، شامخة بانفها لا تعطي المقادة ، فوالى هؤلاء عليها الزحوف بقيادة « الجنرال بوجو » و « الجنرال سانت آرنو » و « الجنرال راندون » فما زالوا يغادونها القتال ويراوحونها من سنة ١٨٤٤ الى سنة ١٨٥٧ والدماء جارية من الفريقين حتى خضعت تلك القبائل في وادى الساحل ووادي سيباو ، وانهزم أو بغلة الذى اشتهر في تلك الحرب

وبقيت قبائل الجرجورة مدة حافظة استقلالها ، الى أن اذعنت هي ايضاً ولكن على شرط حفظ تشكيلاتها الادارية وعاداتها وعرفها ، فولت فرنسا على بلاد القبائل رؤساء مسلمين يراقب عليهم ضباط فرنسيس بجانبهم ، وجعلت اقلاماً عربية في تلك الادارات ، وسمحت للقبائل بالمحافظة على عاداتهم واوضاعهم مما هو سنة الدول الاستعمارية في الاقوام التي تبلو منها شدة البأس وصعوبة المراس ، الى ان تكون تمكنت منها بطول عهد الحكم وازالة ما بقي من أسباب المقاومة ، فتعدل حينئذ الى اجراء الاحكام الاستعمارية على وجهها الاكمل ، ولكن الثورات في الجزائر لم تكن انتهت لذلك العهد بل كان على فرنسا ان تخمد ثورات اخرى ، كلما انطفأت نار احداها اشتعلت اخرى . ففي عام ١٨٥٩ كانت ثورة بني سناسن على حدود المغرب الاقصى ، فكلفت فرنسا حملة عسكرية . وفي جنوبي وهران كانت ثورة اولاد سيدي الشيخ التي استمرت ثلاث سنوات متتابعة ، واضطر بها الجنرال « ويمفن » الى تعقب الثوار الى وادي الجير من عمل المغرب ، ولم تسكن هذه الفتنة الا سنة ١٨٦٧ . ولكن لما انكسرت فرنسا في الحرب مع المانيا سنة ١٨٧١ كانت الثورة الكبرى اذ لاحت الفرصة للجزائريين ورأوا الصيد سانحاً فثار المقراني قائد ميجانه ، وضافره على الحركة مرابط يقال له الشيخ الحداد مع ولده سي عزيز ومعهم اتباع الطريقة الرحمانية ، فاشتعلت الفتنة في جميع القبائل ، وامتدت الى بعض أعمال قسنطينة واتصلت ببعض عمل الجزائر ، ولكن العمالة الوهرانية في تلك الآونة بقيت ساكنة لم تشارك سائر اخواتها ، أما الثائرون فاحاطوا بجميع الحصون الفرنسوية التي في بلاد القبائل وخربوا قرية « بالسترو » وكادوا يستولون على متيجة ، فجردت فرنسا جيوشاً جرارة عقدت عليها للاميرال « غويدون » لشهرته بالصرامة والمضاء ، فدارت رحى القتال ونشبت هناك ٣٤٠ واقعة انتهت اخيرا بسبب التفوق الفرنساوي في فن الحرب ووفرة اعتاده بخمود نار الثورة ، وسقط المقراني قتيلا في وادي سفلات ، فخلفه في الزعامة اخوه ابو مزراق ، فما زال هذا يكافح حتى وقع اسيرا بمحل يقال له الرويسات في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٧٢ وكان ذلك ختام الثورة فاقتصت فرنسا من القبائل اولا بان الغت لهم استقلالهم الاداري ، ثانيا بان اغتصبت من اراضيهم ٤٥٣ الف هكتار (الهكتار ١٠ آلاف متر مربع) سلمتها الى المستعمرين الفرنسيس الذين يقال لهم « الكولون » ، ثالثا بان ضربت عليهم غرامة حربية فادحة تجعلهم دائماً رازحين تحت اوقار الديون ، ومن بعد هذه الثورة لم يحصل من مقاومات الجزائريين ما يستحق الذكر الا ثورة أبي عمامة سنة ١٨٨١ ، ومن ثمة ساد السكون في ذلك القطر وانقطع الامل من القيام بالسيف ، لاسيما بعد ان لحق القطر التونسي ثم القطر المراكشي بالقطر الجزائري وصارت كلها مستعمرة واحدة يلقبها الفرنسيس بافريقية الفرنسوية . الا ان الحرب العامة انشأت روحاً جديدة في ر الجزائر لم تكن موجودة من قبل ، وهي ان الجزائريين قدموا لفرنسا جزراً للسيوف ووقوداً للكرات النارية اكثر من ٢٠٠ الف مقاتل في الحرب العامة قتل منهم نحو ٦٢ الفا كانوا فداء لفرنسا بارواحهم ، وكان الفرنسيس يوم نشوب الحرب العامة واحتياجهم الى عضد المستعمرات قد بالغوا في التملق للاهالي ، وتبدلوا جلود النمور باصواف النعاج ، وطافوا على الجزائريين يقولون انما هو وطن واحد ندافع عنه جميعا حتى اذا فزنا بما نرجوه قسمنا حقوقه بالمساواة بدون تمييز لفرنساوي عن جزائري ، ولا لمسيحي عن مسلم ، وان ادارة الجزائر بعد

الحرب ستكون شكلا آخر لايشبه شيئاً مما كان الى ذلك الحين ، وان المسلمين سيتمتعون بجميع الحقوق التي تتمتع بها الامم المستقلة ، الى غير ذلك من المواعيد التي كانت فرنسا وسائر دول الحلفاء توزعها جزافا على الامم المهتضمة ، ترغيباً لها في القتال الى جانب الحلفاء ، ممايعرفه عرب آسية اكثر من سواهم ، كيف لا وهم الذين وعدهم الحلفاء بأنهم اذا انحازوا الى صفهم في الحرب العامة اعادوا لهم السلطنة العربية بحذافيرها ، والخلاصة مواعيد بدون حساب يبذلها أناس كانت تجول في محاجرهم دموع التماسيح ، وهم يقولون هلموا ايها الاقوام الى القتال في جانب الحلفاء لنصرة الحق على الباطل ، وانفروا خفافاً وثقالا لمكافحة هذه الامة الالمانية الغاشمة التي تريد استعباد الامم ، حال كون مقصد الحلفاء من هذه الحرب هو رفع سلطة القوي عن الضعيف ، وايتاء كل امة قسطها من حق الاستقلال . فما زالت هذه المواعيد تبذل ، وتلك الالفاظ تتكرر وتصقل ، حتى استوسق للحلفاء النصر وانتهت الحرب ، وقضى الامر ، فقلب الحلفاء لتلك الامم ظهر المجن ، وتناسوا جميع تلك الوعود ، ونكثوا بعامة هاتيك العهود ، وادرك اولئك الاقوام الذين بذلوا ارواحهم في سبيل نصرتهم ان هذه النصرة انما كانت عليهم لا لهم ، وانهم انما اعانوا على انفسهم ، وشاركوا في تخريب بيوتهم بأيديهم . ومن جملة هذه الامم اهل الجزائر ، فثارت خواطرهم وغلت قلوبهم وتنجزوا فرنسا ما سبق من وعودها ، وذكروها بالاثنين والستين الف قتيل الذين ذهبوا منهم في سبيلها ، فبعد اللتيا والتى اعطتهم فرنسا حق الانتخاب بمعنى أن تقبل اصواتهم في الانتخابات البلدية ، وكذلك حق الترقي في الدرجات العسكرية . بعد ان كانت لهم دائرة معينة لايتجاوزونها مهما بلغ من نصح خدمتهم . وكذلك تساووا مع المستعمرين في الاموال الاميرية ، بعد ان كان هؤلاء يدفعون مالا والجزائريون يدفعون أمثاله عن الارض الواحدة . وكل هذه الحقوق الجديدة ليست شيئا مما كان الفرنسيس يمنونهم اياه اثناء الحرب ، وما هي الا فك بعض حلقات من تلك السلسلة الطويلة التي هم راسفون بها منذ نحو قرن . فلذلك قاموا يناصبون الفرنسيس الحرب المعنوية التي بدأت تتجلى في الانتخابات والاجتماعات ، واخذت تمتد بينهم الحركة الفكرية النازعة الى الاستقلال ، وانتهز حزب الشيوعيين في فرنسا فرصة القنوط والغضب اللذين استوليا عليهم ، فبثوا فيهم الدعوة الاشتراكية الشيوعية : فتلقاها كثير من عملتهم وصعاليكهم وربما من المتمولين منهم ، لارغبة فيها بذاتها بل فيما يصاحبها من تخفيف السلطة الحاكمة والوطأة الاستعمارية .

ولقد كان الفرنسيس يظنون ان الواسطة الوحيدة لنزع فكرة الاستقلال من رؤوس الوطنيين ، واماتة روح المقاومة ، هى ملاشاة التعليم الاسلامي ، وطمس معالم الشريعة التي يظنونها هى وحدها موقداً للحمية الاهلية ، ومنزعا للتملص من الحكم الاجنبي ، فلهذا كانت سياستهم في الجزائر من الاول الى الآخر سياسة تساهل ديني في الظاهر ، مع التحامل في الباطن ، فانهم متعوا ليس الفرنساوي فقط ، بل الايطالى والاسبانيولى ، بل اليهودي والمالطي ، بحقوق لم يسمحوا بها للجزائري المسلم . وجعلوا المسلمين هم الطبقة الدنيا في السياسة والادارة والاجتماع وكل شيء . وقصروا امتاعهم بالحقوق - التي يتمتع بها كل الخلق من سواهم - على تجنسهم بالجنسية الفرنسوية ، وقبولهم القانون الفرنساوي الذي يصادم الشريعة في كثير من الاحوال

الشخصية ، بحيث لا يقدر المسلم ان يقبل العمل به الا بعد ان يتزل عن اسلامه . وجعلوا كثيراً من التمتع بالنعم والاعطية والمكافئات موقوفاً على التنصر . ولم يرق الجنرال يوسف رتبة جنرال الا على هذا الشرط . ومنذ سنتين طلب احد النواب الاحرار في البارلمان في باريز الغاء القانون الذي تمنح بموجبه في الجزائر الهبات العقارية للاوزبي ولليهودي والجزائري الذي يرضى ان يتنصر . وهو قانون سنته الحكومة الفرنسوية منذ نحو ثلاثين سنة لا غير ، أي على عهد الجمهورية التي تزعم ان الاديان عندها سواء ، وقد أجاب ممثل الحكومة يومئذ موافقاً على استهجان هذا القانون ، ومعلناً نية الحكومة الغاءه ، لا سيما بعد التفادي الذي تفاداه المسلمون في هذه الحرب ، ولكن لست على ثقة من كونهم قرنوا القول بالفعل اذ طالما قالوا ولم يفعلوا ، ولم يجتزيء الفرنسيس بهذه الوسائل الرسمية لتزهيد المسلمين في الاستمساك بعروة شريعتهم ، بل فسحوا المجال للبعثات الدينية ، وعضدوا « الكردينال لافيجري » في بث مرسليه الملقبين بالمرسلين البيض ، والتقطوا كثيراً من اطفال الفقراء من المسلمين وأيتامهم ، ونشأوهم في المدارس الدينية ، وقد جمعتني الاقدار في احدى مدن ايطالية بقائد الف في الجيش الايطالي كان يرغب الي أن أرسله الى احدى الحكومات الاسلامية لاجل الخدمة فيها ، فسألته عن سبب هذا الحنين ، فاجابني انه مسلم مغربي ، وكانت سحناؤه تدل على ذلك ، فقلت له وكيف صار ضابطاً في الجيش الايطالي ، فقال لي انه تربى في احدى تلك المدارس على أن يجحد الاسلام ، ويتجانس باحدى الجنسيات الثلاث الكاثوليكية : الفرنسوية ، والايطالية ، والاسبانيولية . فهو يومئذ اختار الايطالية ولكنه اليوم يبغي الرجوع الى أصله . وبالجملة فانه وان كانت الحكومة الفرنسوية غير دينية في بلادها الاصلية ، فهي في الخارج سائرة على قول غمبتا : « عداوة الدين ليست من بضائع التصدير » . وهذا مرجعه الى سببين أحدهما انها تعتقد ان الدعوة الدينية قد تكون عضداً للحركة الاستعمارية ، ومن هذا الباب كان جذب فرنسا بضبع الجزويت في سورية ، مع ان الجمهورية تناصب هؤلاء العداوة في فرنسا ، والثاني ان اكثر النفوذ في المستعمرات انما هو للقوة العسكرية ، واكثر أمراء الجيش تجدهم من الحزب الكاثوليكي . ومما لا ينبغي ان ننساه ان الفرنسيس قلبوا كثيراً من مساجد الاسلام في الجزائر كنائس . فجامع القشاوة في نفس مدينة الجزائر هدموه وبنوا محله كنيسة ، والمسجد المسمى بمسجد « ميزو مورتو » حولوه كنيسة ، وكثير من الجوامع حولوها ثكناً عسكرية وانباراً ، وكان في مدينة الجزائر يوم فتحوها ١٧٦ مسجداً وزاوية فلم يبق منها الا ٤٨ فقط . وأما الاوقاف وما استولوا عليه منها فذلك شرحه طويل ، لا يسعه هذا المكان ، وقد تقرأ في التآليف الرسمية عن حالة الجزائر ما يخيل لك انه وان كان لا أثر للمساواة بين الاوربيين والمسلمين في الادارة ، ولا في القضاء ، ولا في الهيئة الاجتماعية ، فهناك شيء من الاعتناء بحالة المسلمين ، ومن النظر في رفاهيتهم وسعادتهم ، ولكن اذا سألت هؤلاء أو قرأت مؤلفات الاحرار من الفرنسيس انفسهم ، تعلم من الحقائق ما يسوء كل ذي وجدان سليم ، وفي العام الماضي ذهب المسيو « فاليان كوتوريه » احد النواب الشيوعيين في البارلمان ، وساح مدة طويلة في الجزائر وتونس فنشر في جريدة « الاومانيته » مقالات متعددة عن درجة اهتضام أولئك الاهلين لا يبقى معها أدنى مجال للمكابرة . وحسبك ان ستمائة الف ولد من أولاد الجزائريين

لا يجدون مكتباً يتعلمون فيه القراءة ، من أصلهم ستة آلاف في نفس مدينة الجزائر ، فكيف يقال ان الحكومة تعتني بهم .

وقد لجأ الفرنسيس الى وسيلة أخرى لتمكين قدم استيلائهم في المغرب ، وهو زرع الخلاف بين العرب والبربر ، واقناع البربر بكون أصلهم من سلالة أوربية ، وان لغتهم غير عربية ، فلا ينبغي أن يتعلموا العربي . ومما لا يكتمه بعضهم ان على فرنسا قصر اللغة العربية ضمن حدود معلومة ، وحمل جميع من اصلهم بربر على اللغة البربرية ، وهذا ينافي دعواهم ، من كونهم انما يتوخون في الاستعمار نشر المدنية ، لأنه مما لامشاحه فيه أن البربرية لا تصلح للمدنية بخلاف اللغة العربية التي تعد في الدرجة الأولى من لغات الأرض شرقا وغرباً ، وانما هناك سبب آخر نأتيك منه بشاهد واحد :

قال« فيكتور بيكه» الفرنساوي في كتابه المسمى (مراكش) *Le Maroc, par Victor Piquet* الذي ظهر سنة ١٨١٨ ما يأتي تعريبه:

« ان البربر كان منهم مجوس ووثنيون ويهود ، وفي صدر النصرانية قبلوا الدين المسيحي لكنهم نسوه عند ما تمكنوا من الاستقلال . ثم دانوا بالاسلام الذي ببساطة قواعده يستميل العقل ويرسخ في جميع الأمم التي تدين به » .

ثم يقول : « ان البربر اسلموا اسلاماً لا يزال مشوباً بأحوال وأوضاع خاصة بهم »

ثم يقول : « ان العالم الاخصائي في أمور البربر المسيو (دوته) الذي جال بين قبائل البربر نوه بمحاسن سجايا هذا الشعب البربري . وقال ان به مناط الآمال في شمال افريقية » .

ثم يقول : « انه شعب يظهر عليه الميل من نفسه الى المدنية الفرنسية . لذلك يجب علينا قبل كل شيء أن لا نعرّبه أكثر مما هو . ولأجل بلوغ هذه الغاية يجب أن يحمل البربر على الثقافة الفرنسوية ، وان يتكلموا بالفرنساوي قبل وصول الثقافة العربية واللسان العربي اليهم . وعلى هذا الشكل يتحقق بلاريب ــ أكثر مما هو مظنون ــ خيالنا العظيم بمراكش فرنسوية » .

ثم يقول في صفحة ٣٠٢ من كتابه :

« وفي النية تأسيس مكاتب فرنسوية بربرية في الجهات التي لم تستعرب من بلاد البربر . و هذا تصور حسن جداً لكننا لسوء الحظ قد تأخرنا في انفاذه . فاذا كانت بلاد القبائل من الجزائر ليس فيها الا بعض أقوام من البربر : فان قسما عظيما من أهل المغرب الأقصى لا يعرفون العربية أو يتكلمون باللغتين البربرية والعربية ، وليس لنا أدنى مصلحة أن ننشر بينهم اللغة العربية ــ لغة الجامعة الاسلامية ــ بل بالعكس » .

ولسنا ممن يقول ان جميع المفكرين من الفرنسيس هم على هـذا الرأي من مناصبة اللغة العربية والشريعة الاسلامية بالوسائل الممكنة ، كلا فان فئة منهم تجنح الى الحرية التامة ، وتناضل دائما عن حقوق الاهالي ، وتعتقد عقم تلك الوسائل الاستعمارية ، ولكن مع الاسف لا تزال هذه الفئة هي الفئة القليلة ولا تزال الدولة لاولئك ، وانت ترى انه مع كل مساعي الفرنسيس في مناصبة العربية والشريعة لم يقدروا أن يمنعوا الحركة الوطنية التي تتقوى يوماً فيوماً في الجزائر ، مع ان أكثر القائمين بها هم ممن حصلوا جميع علومهم باللغة الفرنسوية . (ش)

بلاد من بلاد افريقية الشمالية [١] يستثيرون المسلمين ويستنفرونهم للحرب والجهاد ، ومن هذا النوع كانت ثورة المهدي في السودان المصري [٢] ،

(١) ورد في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسوية ان في بر الجزائر بحسب تحقيقات « دوبون » و « كوبولاني » *Depont et Coppolani* ٢٣ طريقة صوفية ، لها ١٨٩ ٢٩٥ مريداً ، وعليها ٥٧ شيخاً و ٦٠٠٠ مقدماً ووكيلا ونائبا ، وعندها ٩٤٩ زاوية ، وتجبي من الاخوان كل سنة مايقدر بسبعة ملايين . واعظم هذه الطرق هي الطريقة الرحمانية مؤسسها سيدي محمد بن عبد الرحمن بوكبران واتباعها ١٥٦ الف رجل و ١٣ الف امرأة ، وهي منتشرة في جميع قطر المغرب الاوسط . ثم التيجانية وشيخها يقيم بزاوية عين ماضي واتباعها ٢٦ الفاً وأكثرهم في جنوبي وهران ونواحي الصحراء . ثم القادرية وهم ٢٤ الفاً . ثم الطيبية وهم ٢٢ الفاً زعيمهم الشريف الوزاني بالمغرب الاقصى . ثم الشيخية أولاد سيدي الشيخ وهم ١٠ آلاف . ثم الدرقاوية وهم ٩ آلاف رجل مشهورة هذه الطريقة بالتعصب والشدة بحيث أنها اشتركت بجميع الثورات التي ثارت على الاتراك ثم على الفرنسيس . ثم العمارية وهم ستة آلاف ثم العيسوية وهم ٣٥٠٠ . ثم الحنظلية شعبة من الشاذلية نحو ٤٠٠٠ بجهات قسطنطينة . ثم الزيانية ثلاثة آلاف ثم الزرواقية ٣٧٠٠ . ثم السنوسية ولها الف تابع فقط . وهنالك طرق اخرى قليلة الاتباع . ولمشايخ الطرق والمرابطين نفوذ عظيم ومكانة لاتساويها مكانة في الجزائر عند جميع الاهالي لاسيما البربر . وان العلماء والمدرسين والمفتين والقضاة وائمة المساجد لايكادون يكونون شيئاً بالقياس الى المرابطين ومشيخة الطرق . (ش)

(٢) اتفقت الاديان السماوية الثلاثة على ظهور واحد في آخر الزمان . فاليهود لايزالون منتظرين المسيح الذي يجدد ملكهم قبيل انقراض الدنيا . والنصارى يرون في عيسى عليه السلام المسيح الذي بشرت به الانبياء ويقولون برجوعه في آخر الوقت لابادة الدجال الذي يأتي به يوحنا . والمسلمون أيضاً عندهم المهدي الذي يظهر قبل قيام الساعة ليملأ الارض قسطاً وعدلا كما ملئت جوراً وظلماً . ويروون عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال مامعناه لاتقوم الساعة حتى يخرج من ذريتي رجل اسمه كاسمي يملأ الارض عدلا كما ملئت جوراً ويظهر الاسلام على الدين كله . وبعضهم قال ان المهدي الذي سيظهر في آخر الزمان هو عيسى عليه السلام . وبعضهم قال بل هو علي بن أبي طالب . والشيعة الامامية يقولون انه محمد الحجة بن الحسن العسكري ، ابن علي النقي ، ابن محمد التقي ، ابن علي الرضا ، ابن موسى الكاظم ، ابن جعفر الصادق ، ابن محمد الباقر ، ابن علي السجاد زين العابدين ، ابن الامام الحسين السبط ، ابن سيدنا الامام علي رضي الله عنه وعنهم جميعاً ، وان محمد الحجة هذا دخل مع امه صغيراً سرداباً بالحلة من ارض العراق واختفى فهم ينتظرونه الى الآن . قال القلقشندي في صبح الاعشى : ويقال انهم في كل ليلة يقفون عند باب السرداب ببغلة مشدودة ملجمة من الغروب الى مغيب الشفق ، ينادون أيها الامام قد كثر الظلم ، وظهر الجور ، فاخرج الينا . وروى ياقوت انهم كانوا في قاشان من بلاد العجم يركبون كل صباح الى لقائه ، وذلك في اواخر القرن الخامس للهجرة . وروى ابن بطوطة انه لما مر بالحلة رأى مسجدا مسدولا على بابه ستر من الحرير ، وانه كان يأتي كل يوم مائة

وهي الثورة التي دامت طويلاً وفتت في عضد الانكليز فتاً كبيراً ، وأنزلت بهم خسائر فادحة ، وما خمدت نارها حتى قيض « لكتشنر » الاستيلاء على

رجل منه المدين السلاح فيصلون العصر ، ثم يذهبون الى قائد البلد ، فيعطيهم بغلة ملجمة مسروجة فيطوفون بها ، وهم يطبلون ويزمرون ، حتى اذا انتهوا الى باب ذلك المسجد نادوا : يا امام الزمان اخرج فان الظلم قد ظهر ، والفساد قد كثر .. الخ

والفرقه الكيسانية يجعلون المهدي محمداً بن الحنفية (أحد أولاد سيدنا علي) وينتظرونه ويقولون انه لم يمت وانه مختف في جبل رضوى ، بين المدينة وينبع . وكان عند ملوك الصفوية في العجم عادة ، وهي اسراج رأسين من الخيل معدين دائماً في القصر لاستقبال المهدي وعيسى المنتظر مجيئهما كل ساعة . وهذا يشبه عمل بعض المتهوسين من الافرنج الذين يقيمون بالقدس منتظرين مجيء السيد المسيح ويوم الدينونة . روى هوارت *Huart* الفرنساوي صاحب تاريخ العرب المطبوع سنة ١٩١٣ ان انكليزيا ورد بيت المقدس وأقام بالوادي الذي يقال انه ستكون به الدينونة ، وشرع كل صباح يقرع الطبل منتظراً الحشر . وسمعت ان امرأة « انكليزية فيما اظن » جاءت القدس وكانت تغلي الشاي كل يوم لاجل ان تقدمه للسيد المسيح ساعة وصوله وحدث لامرتين الشاعر الفرنسوي العظيم في رحلته بجبل لبنان انه زار في قرية جون السيدة استير ستانهوب ابنة اخي بيت *Pitt* الوزير الانكليزي الشهير فرأى عندها فرساً مسرجاً دائماً ليكون ركوبة للسيد المسيح المنتظر وصوله .

وقد استخدم قضية المهدي كثير من الدول الاسلامية لترويج دعواتها فالدولة الفاطمية عند ما ظهرت بتونس ادعت ان عبيد الله مؤسسها هو المهدي . ومحمد بن تومرت لما قام بدعوته في المغرب قام بالدعوة الى المهدي ، وبها تأسست دولة الموحدين بني عبد المؤمن . وقام في أيام الدولة المرينية بفاس رجل اسمه التويزري أصله من توزر من تونس وادعى انه المهدي واعتصم برباط حصين اسمه (ماسا) بالسوس الاقصى . واعصوصب حوله رؤساء صنهاجة فقتله الصامدة . وكذلك ظهر رجل آخر اسمه العباس بين سنة ٦٩٠ و ٧٠٠ للهجرة في نواحي الريف من الغرب وقال انه المهدي وثار معه جماعة فقتل وانتهى امره . وظهر في السنيغال سنة ١٨٢٨ ميلادية رجل ادعى انه المهدي واحدث ثورة ثم انكسر وذهبت ريحه . ولما احتل الفرنسيس مصراً في زمان بونابرت قاتلهم بين دمنهور ورشيد رجل مغربي من طرابلس ادعى انه المهدي وما زال يقاتلهم حتى قتل .

وبعد ثورة احمد عرابي بمصر ظهر في السودان رجل اسمه محمد احمد ادعى انه المهدي ويقال ان والده كان يسمى عبدالله وأمه كانت تسمى آمنة ، وكان له اخوان اكبر منه يصنعان السفن في النيل الابيض ، فارسلاه يحصل العلم في نواحي الخرطوم ، ولما بلغ الخامسة والعشرين من سنه انقطع الى العبادة في احد الكهوف ، وظهر من ورعه وزهده ما تحدث به الناس واتبعته قبيلة البقارة وهي قبيلة عظيمة عربية الاصل من جهينة مضرية وقالت انه هو المهدي ، وأعلن هو ذلك سنة ١٣٠٠ هجرية . وكان رؤوف باشا والي السودان المصري ارسل ٢٠٠ جندي

الخرطوم ، وذلك قبيل ختام القرن التاسع عشر . وانفجر في افغانستان بركان حقد وعداء للغرب عظيم [1] ، فتناولت حممه مسلمي الهند فألهبت

للقبض عليه ، فقتلهم جماعة محمد احمد جميعاً ، وانحاز هذا الى جبل هناك والتف حوله السودانيون فجردت الحكومة المصرية جيشاً تحت قيادة جيفلر باشا الباڤاري فهاجمه نحو ٥٠ الف سوداني وابادوه ، ولم ينج من المصريين سوى ١٢٠ رجلاً ، فدخل المهدي الابيض سنة ١٨٨٣ في ١٧ كانون الثاني وجعلها كرسي حكمه . فجردت الحكومة المصرية جيشاً آخر بقيادة هيكس باشا فاباده السودانيون أيضاً وأخيراً ابادوا قوة غوردون باشا في الخرطوم ، واستولوا على السودان كله . وبعد موت المهدي خلفه التعايشي أحد زعماء قبيلة البقارة ، واستفحل امره فاشار الانكليز على مصر « والاشارة هنا بمقام الامر » ان تتخلى عن السودان وتتركه وشأنه ، ولم يكن ذلك الا توطئة لفتوحهم هم للسودان ، فانهم مالبثوا ان جردوا جيشاً من المصريين يقوده ضباط انكليز رئيسهم الجنرال كتشنر فاستفتحوا السودان برجال مصر ومال مصر ، وعادوا يقولون للمصريين ان السودان مشترك بيننا وبينكم ، والحقيقة ان لاحق لهم بهذه الشركة ، لان السودان كله لمصر ولا تستغني عنه مصر طرفة عين فضلا عن كون هذه الشركة هي اسمية ، لان كل شيء في السودان هو في يد انكلترة ، ومن ولي امر السودان فقد أخذ بمخنق مصر ، لاتملك هذه معه ان تصعد نفساً ، ولذلك مسئلة السودان هذه هي العقدة الكبرى المعضلة الواقفة في وجه حل المسئلة المصرية بين انكلترة ومصر ، واذا تخلت مصر عن السودان فقد تخلت عن نفسها . (ش)

(١) هنا موقف عظيم من أعظم مواقف الاسلام في العالم ، ومعترك شهير من أجل مقاماته فيما حدث ، فضلا عما تقادم ، ولعمري لو لم يبق للاسلام في الدنيا عرق ينبض ، لرأيت عرقه بين سكان جبال الحملايا والهندكوش نابضاً ، وعزمه هنالك ناهضاً ، الا وانه من هناك غزا الفاتح العربي محمد بن القاسم في صدر الاسلام الهند ، وفتح السند (٧١٢ ميلادية) ووصل الى حدود الملتان ومن تلك الجبال انحدر ذلك المجاهد الكبير اسكندر الاسلام ، وحامي المعارف والعلوم في عصره ، السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي التركي ، في اوائل القرن الحادي عشر للميلاد ، ودوخ الهند من اقصاها الى اقصاها ، وتألب عليه رجاوات (ملوك) لاهور ، واناغبال ، ودهلي ، واجمير ، وقنوج ، وغفاليور ، وكالنجار ، واودجين ، حزمة واحدة ، ووقف العالم البراهمي بازاء العالم الاسلامي ، واصطفت الاقران ، وانتصب الميزان ، فادال الله للعالم الاسلامي من العالم البراهمي في واقعة « باتنداه » ، وتمزق شمل الراجاوات كل ممزق ، وفتح محمود كشمير ودهلي ، واقام ولاة من قبله في لاهور ، وجعل راجا قنوج من اتباعه ، واكمل توطيد ملكه في جميع البنجاب ، وغزا كالنجار تلك المدينة الموصوفة بمنعتها ، فانقاد له ملوك تلك الديار صاغرين وقصد كوجرات وحطم الصنم الاعظم المعروف بسومنات ، وفتح بهاطية ذلك الفتح الذي تحدثت به الركبان ، وكتب فيه تلك الرسالة الطنانة شيخ الكتاب ابو الفضل بديع الزمان ، فقال انه « الفتح الذي تضاءلت امامه الفتوح ، واثنت عليه الملائكة والروح » الخ وذكر عن الهند وعجائبها وعظمة الخلائق التي فيها ، ما عرّف بقدر تلك الفتوحات التي اتاحها الله للاسلام على يد

صدورهم الهابا ، فهبوا يشقون عصا الطاعة على الانكليز الذين ما استطاعوا

أمين الدولة ويمين الملة (هو لقب السلطان محمود الغزنوي) . قال المسيو رينه غروسه *René Groussel* صاحب تاريخ آسية الذي ظهر سنة ١٩٢٢ في ثلاثة مجلدات ممتحصا من روايات اكابر المحققين ، وذلك في بحث الهند لعهد الاسلام ، ما يأتي تعريبه :

« ان محمود أقام بصليبية اسلامية (يعنون بذلك سلسلة حروب اشبه بحرب الصليب) استمرت الى القرن الثامن عشر وكانت كسائر الصليبيات ، جامعة بين روح الدعوة الدينية ، وروح الطمع في السحت ، وان محموداً بقيت صورته العالية مشرفة على ثمانية قرون ملأى بالفتوحات ، لان الجهاد الذي كان هو اول ابطاله ، لم يبلغ حد النهاية الا في فجر العصر الحديث بعد ان عرفت ارض البراهمة من جبال حملايا الى سواحل كوروماندل ، اسم الله تعالى ودانت لسلاطين الترك المغوليين »

واقتفى اثر محمود بن سبكتكين التركي ، محمد الغوري الافغاني ، الذي استولى على سلطنة آل سبكتكين وغزا مثلهم الهند ، وشتت في واقعة « تانسوار » الثلاثمائة الف فارس ، والثلاثة آلاف فيل التي حشدها لقتاله ملوك الهند ، وافتتح دهلي ، وقنوج ، وميرات ، وآغرا ، وضمها الى ممالكه (١١٩٤ ميلادية) واتم عمله مملوكه آيبك التركي الذي فتح بنارس ، وضرب الجزية على ملوك كافالبور ، ومالقا ، وافتتح كوجرات ، وكالنجار ، وضم الى المملكة بوندلسكاند . ثم القائد بختيار الافغاني ، الذي افتتح مغدلا ، والبنغاله ، وازال الدولة البوذية من تلك الاقطار فكان عمل هؤلاء الفاتحين مقدمة لسلطنة اسلامية عظمى قاعدتها دهلي وقد بسطت جناحها على الهند بحذافيرها ، واستتبت من القرن العاشر للمسيح الى اوائل القرن التاسع عشر اذ هرمت وعجزت وانقرضت على ايدي الانكليز كما هو معلوم . وليس المراد هنا تاريخ الدول الاسلامية التي تعاقبت من ذلك الوقت على الهند ، ولكن المراد هو ذكر العلاقة الشديدة التي بين اسلام الهند وبلاد الافغان التي منها انحدر الفاتحون المسلمون سواء كانوا من العرب ، أو من العجم ، أو من الترك ، أو من الافغان ، واثبات ان تلك الجبال كانت ولم تزل على ما يعلوها من الثلوج مستوقد حماسة ، ومثار حمية ، وموطن فتوة ، ومعدن فروسة ، واليك ملخص تاريخ علاقاتها مع الانكليز منذ وضعوا ايديهم على الهند الى يومنا هذا :ـ

قال المسيو لومارشان *Le marchand* أحد ضباط الجيش الفرنساوي ومن اعضاء الاكادمية العسكرية في كتابه « حرب الانكليز مع الافغان » الذي ظهر سنة ١٨٧٩ ما يأتي تعريبه ملخصاً :

« ان مبدأ علاقة انكلترة مع افغانستان كان في القرن التاسع عشر ، وذلك عند ما ارسل نابليون الاول « الجنرال غاردان » لمفاوضة العجم في عقد محالفة بينها وبين فرنسا ، لاجل فتح الهند ، فلما بلغ الانكليز ذلك اسرعوا بارسال وفد الى كابول ليتخذوا من الافغان ردءاً ضد العجم ، وكان يومئذ في كابول امير عليه لقب شاه مثل شاه الفرس فحصلت عليه ثورة ، واستولى على الملك اخو الصدر الاعظم الذي كان عند ذلك الشاه وفر اخو الشاه الافغاني الى الهند ، ملتجئاً الى الانكليز مستمداً نصرتهم لاسترداد ملكه ، كما ان أمير الافغان الجديد ، وهو المسمى دوست محمد خان ، عقد حلفاً مع الروس فكان عمله هذا كافيا لتجريد حملة انكليزية على افغانستان ١٨٣٩ .

تسكين العاصفة الا بعد شق الانفس وركوب الهول . وحدث مثل هذا في

وكان قد سبق الحملة الى كابول السائح الانكليزي المشهور برنس *Burnes* ليقاوم فيها دسائس الضابط فيكوفتش الروسي فلما رجع برنس الى الهند اقنع « اللورد اوكلاند » بوجوب الزحف واعادة الشاه القديم شجاع الملك ، ولكن ما أعيد الشاه المذكور حتى وجد الانكليز حاجة ماسة الى تعزيزه بجيش عظيم ، لما كان قد انتشر في البلاد من الفوضى ، وظهر من عدوان الاهالي للانكليز . وفي سنة ١٨٤١ شبت نار الثورة في كابول ، وقتل فيها المعتمد البريطاني ، وعدد من ضباط الانكليز ، ثم اضطر القائد الانكليزي ، بالنظر الى تحرج موقعه ، الى طلب الامان على نفسه وعلى جنده ، على ان يخرج من البلاد بدون توقف لا يلوي على شيء ، وهكذا خرج في أشد زمهرير الشتاء ، وكان ما كان من الملحمة المشهورة التي استأصل فيها الافغانيون ١٦ الف أو ١٧ الف جندي انكليزي ليس منهم سوى ٤ الى ٥ الاف مقاتل ، وذلك في كمين نصبوه لهم في « خورد كابول » فلم ينج سوى الطبيب العسكري « بريدون *Brydon* » الذي فر الى جلال آباد ليخبر قومه بالفادحة العظمى . ثم ان الافغان تقدموا وحصروا جلال آباد التي كانت فيها حامية انكليزية ، فقاومتهم زهاء شهرين الى ان زحف « الجنرال بولوك » من الهند فانقذها . ثم بعد مدة زحف الانكليز بحملة عظيمة على كابول ونسفوا قلاعها ، ودار الملك وأخذوا بثأرهم عما سبق (قال) : وقد اردنا الاشارة الى هاتين الحملتين اللتين تقدمتا للانكليز في افغانستان لما لهما من العلاقة بالحرب الحاضرة (اي حرب سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٨٠) كما أنه لا يخلو من الفائدة معرفة ما يعترض جيشاً اوربيا يريد التوغل في تلك الديار من العقبات الصعاب وما يستجلب النظر من كون كتائب العساكر الافغانية التي كان الانكليز قد كتبوها واستخدموها وظنوها اصبحت من جملة جيشهم قد انقلبت عليهم وكانت اشد اعدائهم وطأة في تلك الحرب » انتهى .

نقول ما استأصل جيش اوربي قوة وطنية في آسية أو افريقية ، وخطر ببال مؤرخ اوربي ان يذكر ما هناك من الاعذار المشروعة ، والاسباب المعقولة ، التي قضت بالطائلة للاوربيين على الوطنيين ، مع ما بين الفريقين من التفاوت في الاعتاد الحربية ، والاختراعات الفنية ، والمعرفة بعلم التعبية ، واصول القتال ، فاذا اتاح الله واقعة بالعكس قضى فيها بغلبة الوطني على الاوربي اسرع المؤرخون الاوربيون الى تمويه تلك الدبرة بالتماس الاسباب المخففة ، وانتحال الاعذار المتنوعة ، التي لا تكاد تخلو منها هزيمة ، وذلك حرصا على الشرف الاوربي ان يمسه نقص ، وعلى المكانة الافرنجية ان تتزعزع في نظر الوطنيين . فالجيش الانكليزي في خورد كابول وهو ١٧ الفا قد أفني عن بكرة ابيه ، سواء كان كله مقاتلين ام كان بعضه مقاتلا والآخر حاملا للذخيرة . والانكليز قد تعلموا من تلك الواقعة ان ينظروا الى الافغان بغير العين التي ينظرون بها الى جيرانهم الهنود وعرفوا ان الافغاني لا ينام على الثار ، ولا يقبل ان يطأ الاجنبي وطنه ولا يواطىء العدو على استقلال بلاده ، كما حصل من كثير من امراء المسلمين الذين كان الواحد منهم يسعى بين يدي القوة الاجنبية ، ويذلل اما بها مناكب قومه ، طمعاً في ان تلبسه تاجاً موهوما ، أو تركبه عرشاً اسميا ، كلا . ان الافغان منذ اول احتكاكهم بالانكليز افهموا باعمالهم هؤلاء انهم ليسوا من طينة غيرهم من جيرانهم ، وان المنافسة فيما بين امرائهم على الملك

أواسط آسية حيث ظهرت « الطريقة النقشبندية الدينية » فأخذت تمتد

لاتصل الى حد الاجتزاف بالاستقلال ، والمباهجة بامور الملك ، وان الوفاء بالعهد عندهم لايبلغ درجة تواطؤ الرجل مع الاجنبي على قومه ، ومقاتلة الجندي الافغاني جنديا افغانياً آخر يذب عن حوض وطنه ، بسبب كون الاول يأخذ جراية من ذلك الاجنبي ، كما فعل كثير من سلاطين الاسلام ورؤسائه واجناده ، واغتروا بالنعمة الزائلة والجائزة الموقتة التي لم تلبث ان القحت بكاءهم دما ، وا كلهم اناملهم ندماً ، بعد انقضاء الوطر ، واستتباب الامر للفاتح الغريب ، مما لا تحصى ولا تعد أماثيله ، سواء في آسية أو في افريقية . ونقول مع الاسف ان الاسلام لما يبل تماماً من هذا المرض ، وانه وان كان ورد في أثره الشريف انه لايلدغ المؤمن من جحر مرتين فتراه اليوم يلدغ من جحر واحد مائة مرة ولا يتوب . وقد رأينا ان أكثر فتوحات اوربا في بلاد المسلمين والشرقيين عموما انما اتسقت لها على أيدي المسلمين والشرقيين ، فاوربا اعتادت ان تستعين عليهم بهم وان تضرب الاخ بالاخ وان تقرع النبع بالنبع ، وان تجرد على الاقطار التي تنوي استعمارها جنوداً من اهالي المستعمرات ، تخلطهم بنزر من جنود اوربية ، وتضع على رأسهم قواداً اوربيين ، وتنال بذلك مناها ، وفي حرب افغانستان هذه ، وفي التي تليها ، قد استعملت من اجناد الهند ورجالها وجمالها وافيالها ، ومن العساكر المتقدمة من ملوكها واقيالها ، حتى من نفس ملوك الاسلام في الهند ، ما لا حاجة الى احصائه هنا ، كما انه في ثورة الهند الكبرى سنة ١٨٥٧ وهي التي اشفت انكلترة فيها ان تخسر الهند باسرها ، يعترف المؤرخ المتقدم ذكره وغيره انه لم يكن بقي في جميع الهند سوى ١٠ آلاف جندي انكليزي لحفظ ١٩٠ مليونا (عدد سكان الهند في ذلك الوقت) يردفها لواء واحد من متطوعة البنجاب ، وانه في تلك الازمة ظهرت مهارة اللورد لورانس باستنفار بعض الزعماء لتكتيب جنود من الاهلين ، اجتمع منهم فيما بعد فيلق جرار ، كان هو السبب في حفظ انكلترة لا للبنجاب فقط بل لجميع الهند . فالهنود هم الذين في الحقيقة فتحوا انفسهم بانفسهم لحساب انكلترة أولاً وآخراً ، وقد حاولت هذه الدولة أن تجري على هذه الطريقة في افغانستان فلم تتسق لها لا أولا ولا آخراً ، ولو كان الافغان مثل الهنود أو البلوج أو غيرهم من الامم التي علقت في الحبائل الاوربية لكانت افغانستان اليوم ولاية من ولايات الهند ، أو امارة يليها بالاسم أمير من اهلها والحكم الحقيقي فيها للوزير المقيم أو للمعتمد أو للعميد كما يسمونه ، ولم يكن في عرض البلاد وطولها بندقية واحدة يتقى بها افغاني ذل العبودية ، بل الشعب كان يومئذ كله اعزل مقلم الاظفار ، والقوة العسكرية التي تكون عنده يومئذ عبارة عن حامية انكليزية مؤلفة من بريطانيين وهنود وافغان يخدمون في بلادهم على بلادهم ، بدراهم معدودات . هكذا كان شأن الافغان لو اتبعوا خطة غيرهم من الامم الشرقية الغافلة ، أو لو اقتدوا بنوابي « ايساكل » و « نانك » و « تاونا » وخان « خطا » السير خوجه محمود وغيرهم من امراء الهند الذين كانت لهم اليد الطولى في قمع الثورة الهندية الكبرى . بل تجد المسيو لومارشان يقول في الصفحة ٢٨٩ من المجلد الاول من تاريخه « ان القبيلة الدورانية التي هي ثلث الافغان ومنها الاسرة المالكة عندهم من الاعتزاز بنسبتهم وقومهم ما يجعلهم مؤثرين لاي أمير كان مهما كان سيء السيرة ، على الحكم الاجنبي ،

وتنتشر شرقاً حتى بلغت الاقطار الصينية فثار مسلمو الصين ثورتهم الكبرى

ولم يكونوا يأسفون على سقوط الامير وتشريده مع عترته على شرط ان يكون لهم الخيار فيما بعد في اختيار حكومتهم »

ثم نعود الى ذكر غزاة الانكليز في بلاد الافغان فنقول : ورد في دائرة المعارف الاسلامية المحررة بالفرنسوية بقلم المسيو هوتسمه *Houtsma* ورفاقه خلاصة تاريخ الافغان مستخلصة من نحو مائة مصنف بالعربية والفارسية والانكليزية والفرنسية والالمانية ومن جملة ما فيها ان الانكليز بعد ان دخلوا بلاد الافغان للاخذ بثار جيشهم سنة ١٨٤٢ وحاولوا اجلاس الشاه شجاع الملك على عرش تلك المملكة ، رأوا ما هناك من صعوبة المراس ، وتعذر البقاء ، وهجم على شجاع الملك من قتله ، فازمع الانكليز الخروج من تلك البلاد ، وأخذوا معهم فتح جنك ابن الشاه المقتول ، ثم عمدوا الى مصالحة دوست محمد خان الذي علموا انه هو الملك الوحيد الذي يمكنه أن يضبط زمام الافغان ، فانعقد الصلح بين الفريقين على شرط ان الانكليز يحترمون حدود الافغان ، وانصرف دوست محمد خان الى تحصين بلاده ، واسترد بلخ ، وكولم وقندز ، وبذخشان . ولما اشتعلت الثورة الهندية الكبرى سنة ١٨٥٧ التزم الحياد ، ولم يهتبل تلك الغرة لمقاتلة الانكليز . ومات دوست محمد سنة ١٨٦٣ فثار الخلاف بين اولاده وتقاتلوا مدة طويلة ، والانكليز ينظرون اليهم من بعيد معتزلين الخلاف كله لعلمهم انهم لو انشبوا اظفارهم فيه لتعرضوا لخسائر لا تحصى كالتي عرفوها من قبل ، ولكن آل الامر الى اتحاد الافغان كلهم يداً عليهم ، فلم يزالوا متربصين الى ان استوسق الامر لشير علي خان احد اولاد دوست محمد خان ، واطلق أحد ادباء الانكليز كلمة « عزلة رئيسية » على خطة الحكومة البريطانية يومئذ وسارت مثلا . فلما اجمع الافغان على طاعة شير علي اتفق معه اللورد لورانس أولا ثم خلفه اللورد مايو وأيد اتفاق سالفه على شروط معلومة ، أولها انه لا يدخل عسكري انكليزي واحد بلاد الافغان لاجل اطفاء ثورة أو تدويخ قبيلة عاصية (هذا خلاف طلب الذين تواثقوا مع الانكليز على ان يدخل هؤلاء بلادهم ويخمدوا لهم الثورات ويخضعون لهم العصاة ثم بعد استتباب الطاعة يجلون عن البلاد بزعمهم) وانه لا يرسل ضابط انكليزي معتمداً في مدينة من مدن الافغان ، وانه لا يكون للامير راتب معين من انكلترة مشاهرة ولا مسانهة . وقد توارث أولاد دوست محمد خان هذه الغيرة الشديدة من رؤية الاجنبي في بلادهم من والدهم الذي كان يقول للورد لورانس سنة ١٨٥٦ ما يأتي : « ان كنتم تريدون ان نبقى اصحاباً فلا تكرهوني على قبول ضباط انكليز في بلادي »

ويقول المؤرخ لومارشان السابق الذكر انه قد بقيت العلاقات بين الانكليز وشير علي سائرة على هذه الوتيرة ، الى ان دخل الروس خيوه سنة ١٨٧٢ فراع ذلك شير علي خان ، واوفد من قبله من يسبر غور الحكومة الهندية فيما لو وصل الروس في الاعتداء الى بلاده ، فورده الجواب بقبول رأي انجاده ان جرى عليه اعتداء بدون حق من جهة الروس . ولكن الشروط التي وضعت لاجل القيام بتلك النجدة لم تكن لترضيه . قلنا : ان صاحب تاريخ حرب الانكليز والافغان أغفل ذكر هذه الشروط عمداً لانه من أول هذا التاريخ الى آخره مؤيد

لسيرة انكلترة ، الا انه بالبداهة يدرك القارئ ان الشروط التي وضعها الانكليز ولم تجب شير علي في حال احتياجه اليهم لابد ان تكون مرة المذاق على أمير يهمه ان تبقى مملكته بكراً لا تطأها قدم أجنبي ، ولا شك ان أول شرط منها كان اقامة مسيطرين انكليز في افغانستان ، ووضع حاميات انكليزية في بعض المواقع الافغانية وربما يكونون اقترحوا عليه قبول الحماية البريطانية ، ليصبح كأحد نوابي الهند أو نظام حيدر آباد ، ظانين انهم يستفيدون من فرصة ازمته هذه لبسط حماية لا تزال تحدثهم أنفسهم بها . ولكن انتظر الآن ماذا فعل شير علي خان . يقول لومارشان انه لما ورده جواب الانكليز نفر وامتعض وصارت علاقاته مع الانكليز في فتور مستمر ، وابى السماح بالمرور لضابط انكليزي ارادوا انفاذه الى حدود شمالي افغانستان للفحص عن حالة الحدود ، وكذلك لم يأذن للسير دوغلاس فورسيت *Douglas Forsyth* العائد من كاشغر الى الهند . ورفض قبول مبلغ من النقود كان الانكليز بعثوا اليه به وبعكس ذلك كانت علاقته ودية مع الحاكم الروسي في تركستان . ووقع هذا الجفاء في اواخر أيام اللورد نورثبروك ، فلما جاء اللورد ليتون خلفا لنورثبروك بذل الجهد المستطاع لتأليف ذات البين مع شير علي ، واقترح عليه ارسال جرى من قبل انكلترة هو السير بلي *Pelly* ليفاوضه في كابول في رغائبه ومراضيه ، فابى شير علي قبول هذا المعتمد ، واقترح هو ارسال معتمد الى بشاور للمفاوضة في النقاط الواقع الخلاف عليها ، وهي تدخل انكلترة بينه وبين ابنه يعقوب خان (كان ثار عليه وأخذت انكلترة تحميه) وخطتها في مسئلة حدود سجستان ، بين افغانستان والعجم ، وارسال حاكم الهند هدايا رأساً الى أحد امراء الافغان ، مع انه تابع لمملكة شير علي ، ورفض انكلترة رأي التحالف معه والاعتراف بتولية عهده ابنه عبدالله خان الى غير ذلك . فرضيت انكلترة بهذه المفاوضة في بشاور ، لكنها لم تجب شير علي الى مطالبه واعتلت عن كل منها بسبب ، فلم يسفر ذلك المؤتمر عن ادنى طائل . ثم ان هناك مسئلة القبائل الافغانية العاتية المحادة للهند فان هذه القبائل باجمعها تعترف برئاسة الامير ، وليس منها واحدة خلا قبائل البلوج التي الى الجنوب تقر بسلطان انكلترة عليها أو ترضى باختيارها وطأة قدم انكليزي لارضها . وان جميع ما عند الانكليز من المعلومات عن هذه القبائل أو عن منازلها لم يتيسر لهم الا بواسطة الجغرافيين والمخططين الذين كانوا تابعين للجيش أثناء الحملات العديدة التي حملها الانكليز على تلك الديار ، ومن الغريب أنه مع شدة غيرة هذه الاقوام على بكارة بلادهم ، وحرصهم أن لا تطأها قدم انكليزي تجدهم يجولون من بلدة الى بلدة في الهند ويتجرون بما يريدون في أسواقها ، ويخدمون جنوداً في الجيش البريطاني ، وتجد منهم عند الانكليز عمالا ومأمورين يتقاضون الرواتب الجزيلة . فلا يبالغ الانسان اذا قال انه لا يكاد يخلو الاى في البنجاب من ضابط أو من ضباط متعددين من أبناء هذه القبائل ، وترى منهم ضباطا في مدراس وبمباي وحيدر آباد . وبالرغم من كل هذه الاسباب التي كان ينبغي ان تجعل اللحمة بينهم وبين الانكليز شديدة ، فلا بد من الاعتراف بأن هذه الحالة منذ استولى الانكليز على البنجاب وجاوروا تلك القبائل لم تتغير تقريبا . قلنا ان الوطنيين في أكثر البلدان ، الا من رحم ربك ، عودوا المستعمرين انهم متى قبلوا وظائفهم وانتقدوا رواتبهم جاروهم في جميع مقاصدهم وتبعوهم في كل مراميهم ، حتى فيما هو على الضد من مصلحة قومهم ، وفيما يمس استقلال

وطنهم ، وأكثرما سقطت البلدان المستعمرة تحت السلطة الاوربية انما كان على أيدي مأجورين من انفس الاهالي ، يبيعون أوطانهم بخسيس الحطام وقليل المتاع ، ولهذا يجد المؤرخين الاوربيين نظير لومارشان هذا يقضون العجب من صنيع هـذه القبائل الافغانية المحادة للهند كيف أنها مع شدة اختلاطها بالانكليز وارتفاقها بأموالهم ووظائفهم لم تواطىء الانكليزعلى بلادها ، ولم تمكن لها في أرضها كما صنع كثير من غيرها ، فهؤلاء قد خالفوا العادة الجارية من غيرهم ، وهذا الامر يدهش الاوربيين كثيراً . يقول هـذا المؤرخ ان القبائل البلوجية هي على خلاف ذلك فلهذا ادارة السند كانت دائماً أرفق واهنأ من ادارة البنجاب . أما القبائل التي بين جبال ماهابون وجبال بوزدار فانها نحو خمس عشرة قبيلة ، منها ثلاث عشرة سالت الدماء غزاراً بينها وبين الانكليز ، وساق عليها هؤلاء لا أقل من ٣٠ حملة (هـذا الى عام ١٨٧٩ فما ظنك بما جرى من الحملات منذ ٤٥ سنة الى اليوم) فمن هـذه القبائل قبيلة الجادون يسكنون المنحدر الجنوبي من جبل ماهابون وقوتها تقوم بنحو ٥٠٠٠ مقاتل ، وكانوا اذا شنوا الغارات على الاراضي الهندية اكتفى الانكليز بحصرهم ، وسنة ١٨٦٣ جردت عليهم حملة بقيادة السير فايلد فما عادت العساكر ادراجها الا عادوا هم الى الثورة . ثم قبيلة البونارفال وهم من اشجع اعداء الانكليز وقعت الحرب بينهم وبين الانكليز سنة ١٨٦٣ فخسر الانكليز في مصارعتهم ٩٠٠ رجل بما بلوه من كفاحهم . وبعدهم قبيلة السواتي الذين ساق عليهم الانكليز حملة سنة ١٨٤٩ ويقدر مجموع هاتين القبيلتين بنحو ٢٥ الف مقاتل . ثم قبيلة الرانيزاي وقد غزاهم الانكليز مرتين سنة ١٨٥٢ وعددهم ٣٠٠٠ مقاتل . ثم قبيلة عثمان كيل (معنى كيل فصيلة أو رهط) وعددها ١٠ آلاف رجـل اشتدت وطأتهم على الانكليز ، حتى جردوا عليهم ثلاث حملات الواحدة عام ١٨٤٩ بقيادة الكولونل برادفورد ، والثانية عام ١٨٥٢ بقيادة السير كولين كامبل ، والثالثة سنة ١٨٦٦ بقيادة الجنرال دونسفورد . ثم الى الجنوب من هؤلاء قبيلة الماهموند الكبيرة وهي تقدر ان تحشد ٢٠ الف مقاتل ، وقد ناجزها الانكليز سنة ١٨٥٠ و١٨٥٢ ثم بعـد ذلك بسنتين تجددت الفتنة بينهم وبين احد افخاذها وسنة ١٨٦٤ نشبت بين الفريقين معركة في سهل شوبكودور

وجميع هذه القبائل تنزل شمالي مضيق خيبر الشهير بالجبال التي تتاخم الهند الانكليزية ، ويوجد الى الجهة الغربية ، قبائل اخرى لاتقل عن هـذه شدة باس ، وصعوبة مراس ، مثل الباجوري والشانيفاري وغيرها . ولكن مرادنا الكلام على القبائل التي بجوارها لتخوم الهند كانت الحروب متواصلة بينها وبين الانكليز . فبين مضيق خيبر وكوروم منازل قبيلة الافريدي التي تعد ٢٥ الف محارب ، وهي على مايظن اهم قبائل التخوم وقد تبارزت مع الانكليز مراراً عديدة ، وساقوا عليها زحوفا سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٣ و ١٨٥٥ واخيراً سنه ١٨٧٧ بقيادة الجنرال كايس والجنرال روس

وكذلك قبيلة الميرانزاي التي تجهز نحو ٥٠٠٠ محارب تبارزت مع الانكليز سنة ١٨٥١ و ١٨٥٥ و ١٨٦٩ وقبيلة التوري وهي تعادل الاولى في العدد ، غزاها الانكليز عام ١٨٥٦

ثم الى الجنوب من هذه نجد قبيلة الأوراكزاي من ١٥ الى ٢٠ الف مقاتل حمل عليها الانكليز

سنة ١٨٥٥ و ١٨٦٨ و ١٨٦٩ بقيادة شامبرلين وجونس وكايس . وبين مضيق كوردم وغومول ، تسكن قبيلة الدافاري قاتلها الجنرال كايس عام ١٨٧٢ ، ثم قبيلة الوزيري الشهيرة التي زحف عليها الانكليز سنة ١٨٥٢ بقيادة نيكولسون وسنة ١٨٥٩ بقيادة السير نفيل شامبرلين ، وسنة ١٨٦٩ بقيادة كايس لردعها عن الغارات والعاديات على حدود الهند .

وعلى جانبي غومول تسكن قبيلة المحسود وزيري التي طالما اقلقت راحة التخوم الهندية ثم قبائل البوزدار، والكازراني، والشهوراني ، التي هي دائماً في جدال مع الجنود الانكليزية

ولكن الى الجنوب من هذه قبائل أخرى كانت دائماً في وئام تام مع الانكليز مثل الكتران ، والكوزاه ، واللاغاري ، والنورشاني ، والماري ، والبوغتي ، ويقول لومارشان ان سبب هذه المسالمة هو حب هذه القبائل للمال وايثاره على ما سواه ، فالانكليز عالجوهم بالدواء الذي رأوه الانجع فيهم . انتهى

ومما لا يجوز ان ننساه ان الاحصاآت التي أوردها هذا المؤرخ عن عدد هذه القبائل انما هي عن الوقت الذي كان فيه عدد سكان الهند ١٩٠ مليوناً بدلاً من ٣٢٠ مليوناً اليوم فلاجل صحة الحساب ينبغي اضافة ٣٥ في المائة على الاقل الى الاعداد التي أوردها ، كما انه قد وقعت منذ ٤٠ سنة معارك كثيرة بين البريطانيين وهذه القبائل من بعد الوقائع التي ذكرها ، واليك شاهداً ما جرى مع الافريدي :

ورد في دائرة المعارف الاسلامية الا نفة الذكر ان الافريدي هم عدة أفخاذ وهم الآدم كيل ، الذين منهم الجافاكي المجاورون لمضيق كوهات والقبيلة خاتاق ثم الآكاكل المتمدة منازلهم من آكور الى باراه ، ثم الكوكي كيل والكمبر كيل والزاكا كيل ، والمالكدين كيل ، والكامر كيل ، والسيباه . ويقال لهؤلاء الافريدي الخيبريون ، ينتجعون في الصيف الميدان في ناحية تيراه ، وينزلون في الشتاء الى السهول ، وهؤلاء الخيبريون معدودون في أشد القبائل عدواً وتوحشاً ، وأصعبهم مقادة ، ولا يزالون يشنون الغارات على السهول ولا سيما الزاكا كيل الذين هم أقبحهم سيرة . وكانوا الى تاريخ سنة ١٨٩٧ يتباهون دائماً بأن أرضهم لم تطأها قدم فاتح ، ولكنهم في تلك السنة نفسها رأوا العساكر الانكليزية الهندية تجوس خلال ديارهم كلها (ينبغي ان يعرف ان محرر هذا الفصل من دائرة المعارف هو انكليزي)

ثم يقول انهم كانوا ينتقدون مبالغ من المال لاجل ان يتركوا المضايق مفتوحة للسابلة ، وبعد ان استلحقت انكلترة بلاد بشاور لم تتعرض لاستقلالهم ، وبقيت تؤدي اليهم هذه الاعطيات لاجل حرية المرور ، ولكن مضيق كوهات كان اكثر الاحيان مسدوداً بسبب المنازعات التي بينهم بحيث ان الانكليز غزوا الجافاكي منهم في شرقي ممر كوهات سنة ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ولكن لم تطل مدة الاحتلال (لا بد ان يكونوا لقوا منهم عذاباً واصباً ، لان عدم اطالة الاحتلال لا سيما في نقطة كهذه لا تنطبق على عادة الانكليز) ثم انه في سنة ١٨٩٧ أعلن أحد المشايخ الجهاد في بلاد الشينفاري ، فاتصل الصريخ بالافريدي والماموند ، وهاجم الثائرون قلعة لاندي كوتال وافتتحوها ، وكذلك دخلوا عنوة المواقع العسكرية التي في جنوبي بلاد الاوراكزاي ، فجرد الانكليز جيشاً بقيادة السير لوكارت ، فاستطالت معارك حامية دامية ، وأصيب الجيش بخسائر ثقيلة ، ولكن جميع زوايا الديار قد جيست ، وجميع الفصائل العاصية

قد اقتبس منها . وبعد موقف طويل في ناحية الميدان ، عاد الجيش الى سهول بارا . ثم جردت حملة ثانية الى أودية خيبر وبازار ، وبعد ذلك أطاع الافريدي كافة وصاروا ينتظمون في جيش الحدود ، ولكن سنة ١٩٠٨ عاد الزاكاكيل الى عيثهم المعتاد فسيق عليهم جيش الى أودية بازار وبارا ونكل بهم

ثم ورد في دائرة المعارف انه بموجب المعاهدة المنعقدة سنة ١٨٩٣ بين انكلترة والامير عبد الرحمن خان ، تخلى الامير عن بلاد الافريدي وسنة ١٨٩٧ أرسل هؤلاء وفوداً الى كابول يستنصرونه على الانكليز فلم يلب نداءهم . انتهى

فيظهر ان حالة هذه القبائل ومرودها على العيث والاخلال براحة الحدود الانكليزية ، منذ استولى الانكليز على الهند ، ولا سيما على البنجاب وديار بشاور كانت تدعو الحكومة البريطانية الى التحرش بامير الافغان لتناجزه حرباً تكون عاقبتها اعترافه لها بالسلطة على منازل هذه القبائل لتتمكن بذلك من الاخذ بنواصيها . وهكذا حصل فان الانكليز حشدوا جيشاً عظيماً عام ١٨٧٨ وقاموا بتجهيزات لا يقدر عليها غيرهم ، وتطوّع معهم كثير من أمراء الهند ومن المرتزقة من القبائل التي في شمالي البنجاب ، ومن أمة السيك الهندية المشهورة بالبسالة والتي لا تقلّ في شدة الباس عن قبائل الباتان السابقة الذكر وزحفوا بعدد وعدد تضمن لهم نجاح الحركة ، فبعد وقائع عديدة دخلوا كابول بقيادة اللورد دوبرتس ، وفرّ شير علي خان الى مزار شريف في القسم التركى من مملكته حيث مات سنة ١٨٧٩ وكان شير علي قد غضب على ولده يعقوب خان لمقاومته له ، وحاربه في هراة ، فلم يقدر عليه ، فامهله ريثما صرف جنوده ، وأظهر له العفو عما سلف ، فاستدعاه الى حضرته وأمنه ، فلما قدم اليه القاه في السجن وبقي مسجونا الى ان دخل الجيش البريطاني الهندي كابول فاخرجوه من سجنه ، ونصبوه أميراً وعقدوا معه معاهدة غانداموق التي تخلى لهم فيها عن بعض الاراضي بجوار مضيق بولان ووادي كورام ، وتعهد بقبول بعثة بريطانية تقيم بعاصمة الافغان فلم تمض على هذه المعاهدة اشهر قلائل حتى جرت ثورة في هذه العاصمة ، وذبح الاهالي أعضاء هذه البعثة باجمعهم ، فعاد اللورد روبرتس بجيشه ودخل كابول ثانية ، الا ان الافغان جروا من خلفه وجاءوا يحصرونه في كابول ، فخلع الانكليز يعقوب خان واشخصوه الى الهند وداخلوا الامير عبد الرحمن خان بن افضل خان بن دوست محمد خان في قبول الامارة . وكان جيش انكليزي في قندهار ، فزحف الى كابول على أن يكون من هناك جلاء جميع الجيوش الانكليزية عن افغانستان ، فلاقاه في الطريق قبيلة احمدكيل واذاقوه علقم القتال فلم يخلص منها الا بشق الانفس ، ثم حشد ايوب خان بن شيرعلي جيشا في هراة وزحف به الى قندهار فالتقى بعسكر انكليزي فكسرهم ، فاسرع اللورد روبرتس الى قندهار واصطلت الحرب مع ايوب خان ، وادرك الانكليز بهذه التجربة الثانية انه ما كل حمراء تمرة وان الاولى اخلاء افغانستان باسرها فاتفقوا مع الامير عبد الرحمن على ان يكون هو الامير وجلوا سريعاً عن البلاد . فادار الامير عبد الرحمن الامور بحكمة سلم له بها اهالي الشرق والغرب ، ورمّ فتوق بلاده وأقام العدل وارهف الحد في المفسدين ، ووطد نفوذ الحكومة وأسس معملا للسلاح ، واصلح بقدر امكانه تدريب الجيش ، ووسع حدود البلاد من جهة الشرق ، واستولى على ولاية كافرستان

التي هدى الله اهلها على يده الى الاسلام فسماها نورستان ، وبالاجمال فقد ذاقت مملكة الافغان في زمانه طعم الراحة ، وعرفت معنى الوحدة . وما زال يسدد امورها الى ان قبضه الله اليه سنة ١٣١٩ هجرية وفق ١٩٠١ ميلادية . وهو معدود من أفضل ملوك هذا العصر في سداده وحكمه ومضاء عزمته والمتفق ان له تاريخاً مطولا بالفارسي ذكر فيه ما جريات حياته . وخلفه ولده الامير حبيب الله خان الذي خاطبته الحكومة البريطانية بلقب ملك ، وان كان لم يتمكن من تأسيس علاقات خارجية مع غيرها مما بقي معه استقلال افغانستان مشوباً بشيء من القصر لم ينفك قيده الا بهمة ولده الامير الحالي .

ولما نشبت الحرب العامة احب الاتراك والالمان ان يجتذبوا الامير حبيب الله خان الى حزبهم وسارت بعثة المانية الى كابول وخاطبته في ذلك فكان يعتقد انه لو خاض غمرات هذه الحرب لجنى على نفسه وعلى وطنه فلم يأت بادنى حركة تغيظ الانكليز ، وقد يعد عمله هذا مستحسناً لان حفظ العهود أمر محمود ، والنظر في العواقب من اجل المناقب . الا انه عفا الله عنه ، كان يقدر أن ينتهز تلك الفرصة لمطالبة انكلترة بكثير من حقوق الافغان التي التهمتها أثناء ما كانت افغانستان في الضيق وذلك نظير أخذ البلاد التي ابتزتها اياها بدون حق والحجر الذي وضعته عليها في الامور السياسة الخارجية وتمنعها من الحصول على ثغر بحري تكون حرة فيه بوارداتها وصادراتها . فاهمل الامير حبيب الله ذلك ، ومشى في سياسته على مقتضى مكارم الاخلاق الشرقية التي تأبى مهاجمة العدو في حالة ضيقه ، لا على مقتضى السياسة العملية الاوربية التي لا تعرف هذه المكارم بل تعدها من قبيل الخيالات الشعرية ، أو مبادىء الفطرة الاولى التي ليست في شيء من مبادىء المدنية الحاضرة المبنية على الحقائق الراهنة ؛ وذلك بخلاف مايدعي الاوربيون من كون الشرقيين لا يحترمون سوى القوة ولا يتأخرون عن نقض العهود اذا آنسوا من عدوهم الضعف . فيرمون الشرقيين بما هو في الحقيقة دأب الغربيين . ولقد ذهبت امانة حبيب الله خان مع انكلترة سدى اذ بعد ان وضعت الحرب العامة اوزارها لم ينل من الانكليز أدنى مكافأة على وفائه وكيف ينال وجميع الحلفاء صاروا بعد الحرب غير ما كانوا أثناء الحرب ونسوا عهودهم مع كثير من الامم التي نصرتهم في الحرب نصراً عزيزاً . وفي سنة ١٩١٩ وجد حبيب الله خان في مشتاه بجلال آباد مقتولا ولم يعرف قاتله ، ولاسبب قتله ، وتنوعت الاقوال ولم يزل سر هذه الغيلة مجهولا ، وسمعت ان مصطفى الصغير الجاسوس الهندي الانكليزي الذي افتضح أمره أخيراً في انقره بعد ان قدمها جاسوساً في ثياب صديق ، قد زعم أثناء محاكمته التي آلت الى قتله انه هو الذي دبر مؤامرة اغتيال حبيب الله خان باشارة من الانكليز ، ولا أعتقد بصحة ذلك اذ لا يمكن ان دولة عظيمة كدولة انكلترة تقدم على افعال كهذه ليس فيها شيء لا من حفظ الكرامة ولا من الحكمة ، والانكليز موصوفون بهذين الامرين . وفضلا عن هذا فالمرحوم حبيب الله خان كان للانكليز صديقا وفيا . ولبث بهم طول مدة ملكه براً حفيا ، فلايعقل ان تكون هذه الضربة منهم بل الاليق بالعقل ان يكون قتله وقع بمؤامرة اناس متحمسين نقموا عليه شدة محافظته على ولاء الانكليز ، واضاعته فرصة الحرب العامة التي كان يمكنه في أثنائها ان يسترد كثيراً من حقوق الافغان المغتصبة . وان الذين عرفناهم من رجال الدولة الافغانية يكذبون زعم مصطفى الصغير ، ويقولون ان هذا لم يكن

يومئذ هناك ولا الامير قتل في المكان الذي عينه من جوار كابول ، بل استشهد رحمه الله في جلال آباد . وقد ثبت ان مصطفى الصغير هذا افترى روايات كثيرة في تضاعيف استنطاقه في انقرة ، لا يعلم الانسان مقصده منها ، ومن جملتها اقحام نفسه في حديث هذه المؤامرة .

ثم ان الامة الافغانية بعد استشهاد الامير عولت على مبايعة جلالة ولده امان الله خان ، مع كون ولي العهد هو نصر الله خان أخاه الاكبر ، فمن حسن الحظ ان عدول الامة عن ولي العهد الى أخيه لم يحدث شيئاً من القلق ، ولا صحبه شيء من الكوارث مما يدل على تعقل كل من الاميرين الاخوين اللذين أحدهما لم ينهض الى الحسام ، ولا أسرع الى الفتنة لاجل الملك ، والثاني لم يعامل أخاه الا بالحسنى ، ولا حمله الحذر منه على التضييق عليه ، كما كان يفعل الملوك السابقون . فاستتب أمر الدولة الافغانية على أحسن ما يرام ، واتفقت الكلمة ، ولكن الامير الجديد لم يستو على عرش كابول حتى أرسل الى الانكليز بمطالب أمته التي منها اعادة الاراضي التي اغتصبوها من ضمن حدود افغانستان الجنوبية ، والتفرغ عن مرفا بحري تكون الدولة الافغانية فيه حرة ، وحق تأسيس العلاقات الخارجية رأساً مع سائر الدول مما كان الافغان لا يفتأون يطالبون به ، فأبى الانكليز التسليم بهذه الشروط وجرّ ذلك الى زحف الجيش الافغاني ومن ضافره من قبائل الوزيري السابقة الذكر ، واختراقهم حدود الهند ، ودارت رحى الحرب فكانت سجالاً ، وصادفت خروج بريطانيا العظمى من الحرب الكبرى وملل الشعب الانكليزي من سفك الدماء وبذل القناطير المقنطرة ، وعلم الانكليز ما امامهم من العقبات في حرب الافغان وانها ستكون أشد عليهم من الحروب السابقة فجنحوا الى السلم ، وعرضوا على الافغان الهدنة ، وذهب محمود ترزي خان ناظر الامور الخارجية في كابول الى الهند واتفق مع الانكليز على متاركة السلاح ، وأوفدت انكلترة وفداً الى عاصمة الافغان للتفاوض على شروط الصلح اثناء كون الجيوش من الطرفين مرابطة على الحدود ، فانعقد الصلح في سنة ١٩٢١ على شروط . أولها استقلال الافغان في الامور الخارجية كما كانت مستقلة في الامور الداخلية والثاني حق امرار السلاح من طريق الهند والثالث تحديد منطقة متحايدة من بلاد قبائل الوزيري لا تكون ملكاً لا للانكليز ولا للافغان . ولم ينتظر شاه افغانستان عقد المعاهدة لتأسيس سفاراته لدى الممالك الآسيوية والأوروبية بل قبل الصلح أرسل سفيراً الى طهران ثم سفيراً الى انقره ، وعقد مع الاتراك معاهدة متينة للسلم والحرب ، ثم معاهدة مع حكومة موسكو ، وأرسل اليها سفيراً هو أول سفرائه في أوروبا ، وهو الفاضل النبيل محمد خان .

ثم أوفد الوزير الجليل الجنرال محمد ولي خان ببعثة فوق العادة الى أوروبا لتأسيس سفاراته في عواصمها فبدأ بفارسوفيا عاصمة بولونيا ثم قدم برلين ، ثم ذهب الى رومة ، ثم الى باريز ، ثم الى أميركا ، واثناء مقامه بواشنطون دعاه سفير انكلترة فيها باسم حكومة بريطانيا العظمى أن يزور لندن فلبى الدعوة ، ولما جاء الى العاصمة استقبله رجال حكومتها براً وترحيباً ، الا انه رأى وزير المستعمرات يفاوضه في بعض المسائل ، فأبى محمد ولي خان الدخول في أدنى مفاوضة مع وزير المستعمرات ، كما سمعت ذلك من فمه ، وقال : لاشغل لنا الا مع نظارة الخارجية . فاعتذروا له من هذا الخطأ غير المقصود ، وشرعت الخارجية تفاوضه في عقد معاهدة الصلح فاجاب : انما ذلك هو عائد الى الحكومة الافغانية في كابول ، وهي في مذاكرة مستمرة

مع الوفد البريطاني الذي هناك . ولما تم عقد الصلح أرسلت الحكومة الافغانية عبد الهادي خان من أنبه نبهاء شبانها سفيراً الى لندن ، كما انها جعلت غلام صديق خان من أنجب نجبائها أيضاً سفيراً ببرلين ، والامير شير أحمد خان سفيراً في رومة ، ثم عند ما استقال الوزير الجليل الفاضل محمود ترزي خان من نظارة الخارجية التماساً لترويح النفس في أوروبا ، بعد ان التاث مزاجه لكثرة الاشغال التي عاناها عينه الامير سفيراً له في باريز ، وهو ممن قاموا بخدمات جلائل لا ينساها له تاريخ الافغان . فانتدب الامير لنظارة الخارجية محمد ولي خان السابق الذكر . ثم ان ممن قام بخدمة الحكومة الافغانية في أوروبا محمد أديب خان من أجل أدباء دمشق اذ كان هو الممثل للدولة الافغانية في برلين لاول تأسيس السفارة الى أن تعين مؤخراً معتمداً لها في وطنه الاصلي دمشق . وقد كان لمحرر هذه السطور حظ معرفة هؤلاء الاماثل باجمعهم ، وعند ما قدم الوفد الافغاني برلين ، احتفلنا بهم في النادي الشرقي الذي برئاسة هذا العاجز ورأينا من ذكائهم وشهامتهم وحميتهم ما صدّق لنا التواريخ المأثورة عن جنسهم ، أما الوزير محمود ترزي خان فقد سبقت لنا معرفته منذ مدة مديدة اذ كان وقع بين والده المرحوم غلام خان وبين المرحوم الامير عبد الرحمن خان نفور ادى الى هجرة غلام خان وطنه واقامته بالشام وهناك أسعد الحظ بمعرفته عرضاً فكان له يحوي عاطفة أبوية ، وأهداني مرة تذكاراً نفيساً وهو مديح نظمه بالفارسي في شمائل الحضرة النبوية ، عليها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، وكتبه مذهباً بخطه الانيق . وكان رحمه الله من صناديد الكتائب والكتاب ، وابطال الحرب والمحراب ، وذرّف على التسعين ، وهو يقوم الفجر ويصلي في الجامع الاموي ، لا يتخلف يوماً واحداً ، وكان معه ولده محمود ترزي خان الذي هو اليوم سفير افغانستان في باريز ، وهو الوطني الذي حرر مدة طويلة جريدة « سراج الاخبار » وجاهد في ترقية ادارة بلاده وتثقيف قومه بالفنون العصرية ، بقلمه البليغ ورأيه الاصيل ، ما لم يوفق الى مثله غيره .

ولقد باشر شاه الافغان الحالي تنظيم ادارة البلاد الملكية ، وتعليم الجيش وتسليحه على الطرق الحديثة وتوسيع معمل السلاح الذي في كابول ، وأرسل عدداً وافراً من الطلاب للتحصيل في أوروبا ، من جملتهم أولاده واخوته الصغار ، فجعل قسما منهم في برلين والقسم الآخر في باريز ، وانتدب عدداً من ضباط الاتراك لتدريب الجيش ، وعدداً من الاساتذة والمتخصصين الاوربيين لترقية التعليم والادارة ، واستدعى طائفة من المهندسين لتخطيط الطرق الحديدية ، واستخراج المعادن واستثمار خيرات البلاد ؛ فالمملكة الافغانية سائرة في أيام الامير امان الله خان الشاه الحالي سيراً حثيثاً الى الامام بحيث يحكم العارفون انه لا تمضي ٢٠ سنة على افغانستان ، حتى تصير اعز دولة في آسية الوسطى ، وتعود ركناً للشرق والشرقيين . وهي الآن تحتوي على نيف وتسعة ملايين من السكان . ولما انعقدت المعاهدة بين كابول وموسكو سنة ١٩٢١ كان من جملة شروطها تخيير ولاية كوشكه في الرجوع الى الافغان ، وهي ولاية على حدود تركستان كان الروس اغتصبوها منذ نحو اربعين سنة ، وصبر عبد الرحمن خان على ذلك خشية ان يتهور في حرب مع دولة عظيمة كالروسية لا طاقة له بها . فبعد استرداد افغانستان لهذه الولاية يناهز عددها ١٠ ملايين نسمة . وعلاقات الدولة الافغانية جيدة مع جميع الدول ، الا انها متضامنة مع تركيا تضامناً تاماً ، حمل الامير ان يصرح لسفير انكلترة عند ما

في « تركستان الصينية » و « ينان [1] » واشتعلت في جزائر الهند الشرقية الهولندية نار الثورات المتوالية ، وأشهرها ما عرف « بالحرب الاتشية » التي ما برح بعضها متقداً حتى اليوم .

فجميع هذه الثورات التي كانت تشب معاً في هـذا الدور في مواضع

عقد الصلح معه في كابول وان يخاطب نفس ملك الانكليز ، بأن افغانستان لا يمكنها ان تخاص الود لانكلترة ما دامت هذه تنصب العدوان لتركيا ملجأ الخلافة الاسلامية . ولعمري انه لايوجد في العالم الاسـلامي فرد فيه ذرة من العقل الا وهو يتمنى الوئام بين انكلـترة وبين تركيا ، وافغانستان ، ومصر ، وبلاد العرب ، وسائر بلاد الاسلام ، لما لانكلترة من المصالح الشابكة والعلاقات الـكثيرة في الشرق ، وما في الائتلاف بين هذين العنصرين من المنافع الجزيلة لهما معاً . ولـكن مادامت انكلترة سائرة على الطريقة التي اتبعتها منذ ٤٠ سنة ، وهي السعي في تفكيك اوصال الاسلام ، واباحة حماه من كل جهة ، استئصالاً لشأفة قوته السياسية ، وتقليما لجميع اظفاره ان تحدثه نفسه بادنى وقوف في وجه قوة استعمارية ، وما دامت هي آخذة على نفسها القيام بمعظم هذه العداوة ، فان امد الصراع بين هاتين القوتين لايزال طويلا ، وليس من المرجح ان الانكليز هم الذين سيربحون في هذه التجارة .

اما القبائل المار ذكرها فقد ازدادت الوقائع بينها وبين الانكليز بعد الحرب العامـة ، ولا يمضى شهر واحد حتى تأتي جوائب الاخبار بمعركة أو واقعة ، وقد عول الانكليز على قتال هذه القبائل بالطيارات القاذفة من عل بالـكرات المحشوة ديناميتاً ، وهي طريقة عمدت اليها اوربا بعد الحرب الكبرى التي ترقى فيها فن الطيران الى هذا الحد ، فصار لـكل دولة مستعمرة اسراب من هذه الطيارات مرصد اكثرها للتنكيل بالاقوام التي تثور على السلطة الاستعمارية أو تطالب بحق استقلالها ، أو لا تريد ان تطيع الاحكام الجائرة الجارية عليها . ولا ينحصر عمل هذه الطيارات بالفريق الثائر أو العصابة الخارجة ، بل الطريقة المتبعة هي انه عند ما تبدو من ناحية علامـة عصيان أو مقاومة ، ترسل الطيارات فوق القرى أو المدن فتقذف عليها احمالا من الديناميت تنسف الديار ، وتقتل النساء ، والاطفال ، ولو لم يكن لاحد من اهالى تلك المدن أو القرى ادنى صـلة مع الثائرين انما هو الارهاب ، والقاء الرعب في القلوب ، واجراء المثلات بهؤلاء ليخشى اولئك . وقد وجدت دول الاستعمار هذه الطريقة اقرب منالا واقل نفقة من تجريد العساكر وتعقب الثوار الى مكامنهم . ولانكلترة وزارة خاصة بالطيران تنفق سنويا خمسة ملايين جنيه انكليزي على طيارات الشرق التي هي مرصدة لقبائل البوتان واهل الهند واهل جزيرة العرب والعراق ومصر الخ . كما ان عند فرنسا الوفاً مؤلفة من هذه الطيارات تستخدمها في المغرب وسورية . ومع هذا فكل من هاتين الدولتين تدعي ان استخدام هـذه الوسائل الجهنمية وقتل النساء والاطفال انما هما لاجل المدنية . . . . (ش)

(١) سيأتي ذكر هذه الثورات في بحث الاسلام في الصين (ش)

مختلفة ، عداءً للغرب وسعياً وراء غاية واحدة ، انما كان ينقصها التنظيم والتمشية على خطط مقررة ، وربط حلقاتها المفردة المبعثرة سلسلةً واحدةً ، وفوق جميع هـذا كانت تعوزها القوة المركزية الثابتة للقيام بتدبير الأمور وانشاء الوسائل الدائمة .

وقد كانت الثورة المهدية من البواعث على شبوب هذه الثورات ، والمهدية هذه لم تكن معروفة في صدر الاسلام ، وما ورد لها ذكر في القرآن ، غير انه جاء في الأثر ان الرسول أنبأ ان رجلا يدعى المهديّ سيظهر للناس ليملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما مُلئت جوراً وظلماً (١) ومنذ عهد بعيد كان ينتظر ظهور هذا المهدي لينصر الاسلام ، ويقتل الكفار ، وينيل المسلمين السعادة خالدين فيها . على ان المتدبر المستقصي ليعلم انه قد كان لهذه العقيدة تأثير ظاهر في تاريخ الاسـلام ، فقد قام كثيرون في عصور مختلفة يدّعون المهدية فتبعهم عدد كبير ، فلهذا أمر المهدية في الاسـلام يشبه أمر « مسيا » في اليهودية . وقد كان من طبيعة الحال ان المسلمين ، وقد شُدّ على أعناقهم خناق السيطرة الغربية ، باتوا يملأون نفوسهم بظهور المهـدي ، فلما ظهر المهدي ، لم يأت ظهوره بالنتيجة التي تنيل المسلمين السعادة المنتظرة ، فكان مثلُ المهدي مثلَ النار هبت في الهشيم وسرعانَ ما خمدت .

ولما وصلت الحال في العالم الاسلامي الى هذا الحد ، أدرك قادة الجامعة الاسلامية الحكماءُ جميع هذا وباتوا يوقنون ان الثورات المحدودة المضطرب تشب في موضع تقوم بها أمة من المسلمين دون الاخرى في قطر من الأقطار لا يمكن ان توهن شيئاً من قوة الغرب ، تلك القوة الحربية المنظمة على أحدث الاصول والفنون . وأدركوا حق الادراك انه اذا رام العالم الاسلامي حقاً تحرير نفسه من النير الغربي ، وتحطيم هذه السلاسل الثقيلة التي يرسف

(١) أحسن خلاصة لحديث المهدي وماذا قيل فيه مما تراه في فصل خاص بذلك من مقدمة ابن خلدون (ش)

فيها منذ عهد بعيد ، وذلك هذه السيطرة المذلة دكا ، وجب عليه ان يعمل عملاً منظماً شاملاً ويسعى سعياً أكيداً ثابتاً ، جامعاً للوحدة العامة والرابطة الكبرى . وأيقن هؤلاء أيضاً انه لا بد للعالم الاسلامي اذا شاءَ هذا ، من دراسة علوم الغرب ، واكتناه عظمته وقوته وتقدمه ، ونهج مناهجه ، وسلوك سبله في جميع ما يؤدي الى النهضة الصحيحة القائمة على أسس العلم وأركانه ، فانما هذا هو السبيل الذي لا سبيل الا هو للافلات من ربقة استعمار الغرب والتحرر من حكم الفرنجة . وفوق جميع هذا أيقن قادة الجامعة الاسلامية ان استقلال العالم الاسلامي عن الغرب النصراني الاستقلال السياسي ، يجب على كل حال ان يسبقه التجدد الروحي العقلي العلمي الادبيّ ، والتربية النفسانية الصحيحة ، وانه متى صلحت نفوس المسلمين وزكت وطابتْ واعتزتْ وباتت تعاف الذل وتأبى الضيم ، سهل اذ ذاك كل عمل في سبيل التحرر والاستقلال .

وعند هذه النقطة من الدائرة ، التقت غاية دعاة الجامعة الاسلامية ، وغاية الاحرار ، اذ أدرك الفريقان كلاهما استفحالَ الخطب الجلل والشقاء الاكبر في العالم الاسلامي ، وما يعانيه المسلمون من الذل والهوان ، فابتغيا تجدده الروحاني واصلاحه النفساني ، غير انه نشأ الخلاف بينهم في وسائل هذا التجدد والاصلاح وكيفيتهما ، فقال الاحرار ان المسلمين لا مندوحة لهم عن الأخذ عن الغرب ، واقتباس الافكار منه ، واتباع طريقته في جميع ما هو لازم وضروري لبلوغ الغاية العلياء . وقال أرباب الجامعة الاسلامية ان الاسلام بذاته لصالح كل الصلاحية لكي يستمد منه جميع ما هو لازم لذلك ، فلهذا ينبغي ان يقصر أمر الاخذ عن الغرب على محاكاته في انتهاج مناهجه العملية ، والاستعانة بوسائله المادية فحسب .

وكان مبدأ سير الجامعة الاسلامية السير المنظم على الخطط المقررة ، حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، اذ كان للجامعة أسّان قامت عليهما ، هما

الطرق الدينية الحديثة النظام كالطريقة السنوسية ، والدعوة التي قامت بها فرقة من جلة العظماء وأكابر المفكرين الحكماء ، يرأسها السيد جمال الدين الافغاني ، واننا نبسط الكلام على هذين الأسين ، بادئين بالأول منهما :

ان الطرق الدينية في الاقطار الاسلامية هي بنت قرون . وجميعها على نوع واحد من حيث انشاء « الزوايا » على رأس كل منها وازع يعرف «بالمقدّم» ، ذي سلطة كبيرة على سائر اخوان الزاوية . وقد كانت هذه الطرق في عهدها الأول ، قبل انشاء نظام الطرق الحديثة ، منصرفة عن شؤون الدنيا ، الى شؤون الدين والانقطاع للعبادة ، فكان لكل حلقة من الاخوان رئيس يعرف « بالدرويش » . فلذلك لم يكن لهذه الطرق في دورها الأول شأن سياسي ، ولما كان التباغض والتعادي منتشراً بين كل طريقة وأختها ، فقد بات العمل المشترك لغاية واحدة متعذراً ، حتى ان طرقاً هذه صفاتها ما برحت حتى اليوم كثيرة ، ولكن ليس لها ولن يكون لها شأن سياسي يذكر ما دامت على نظامها القديم .

أما النظام الحديث للطرق الدينية فقد أنشيء حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، وأهم الطرق الحديثة هي الطريقة السنوسية بلا مشاحة ، تلك التي انشأها محمد ابن السنوسي . ولد السيد محمد في محل بالقرب من «مستغانم» حوالى سنة ١٨٠٠ في بيت عريق في المجد الاسلامي والشرف العربي ، وحسبه مجداً انه متحدر من السلالة النبوية الطاهرة . وقد عرف السيد محمد منذ حداثته بشغفه بالعلم وسلوكه مسالك التقوى ، فدرس العلوم الدينية في جامعة فاس (١) ، ثم أخذ يسيح في اقطار شمالي افريقية ، داعياً الناس الى الاصلاح الديني ، وبعد ذلك حج بيت الله الحرام في مكة المكرمة حيث قضى مدة يأخذ عن الاساتذة الوهابيين ، فزاد بذلك علمه فاتقدت روح الاصلاح فيه . فلم يزايل مكة حتى وضع خطة ورسم طريقة للقيام بالاصلاح الذي نواه واستعان

(١) يريد جامع القرويين الذي هو في العالم الاسلامي ثاني الازهر (ش)

الله عليه ، ثم عاد الى شمالي افريقية سنة ١٨٤٣ فأقام بطرابلس الغرب ، وابتنى له زاوية على جبل بالقرب من « درنا » عرفت « بالزاوية البيضاء [1] » .
وقد كان السيد محمد رجلا شديد الهيبة ، بعيد الهمة ، عظيم الاقتدار على التنظيم والاصلاح ، فقصده الناس أفواجاً من كل صقع من الاصقاع الافريقية الشمالية ، بيد انه لم يمض غير اليسير من الزمن ، حتى باتت الحكومة التركية في طرابلس تخشى أمره وتقوم وتقعد لشأنه ، فساءت العلاقات والشؤون بينه وبينها ، فنقل مقامه الى واحة « جغبوب » الواقعة للجنوب من صحراء ليبية ، وجعل مقره هناك . ولما توفي سنة ١٨٥٩ كانت الطريقة التي أنشأها قد انتشرت انتشاراً عاماً في معظم الرقعة الافريقية الشمالية .
وخلف « سنوسي المهدي » أباه السيد محمد السنوسي ، فأخذ يجاهد في سبيل اعزاز الرابطة وتقوية الاصلاح . وخير مثال تدرك به الروح السنوسية وتتجلى تجلياً بيناً في كيفية صيرورة سنوسي المهدي خليفة لأبيه : فقد كان للسيد محمد ولدان ، المهدي أصغرهما . ولما كانا لم يزالا غلامين أراد والدهما بلاءهما وعجم عودهما ليرى أيهما أوثق ايماناً وأشد اقداماً . فدعاهما اليه ذات يوم بحضور جميع أهل الزاوية ، ثم أمرهما بأن يتسلقا نخلة باسقة . فلما بلغا عاليها استحلفهما بالله ورسوله الكريم ان يهويا للحال بنفسيهما الى الارض ، فهوى المهدي بنفسه فأدرك الارض سالماً ، ولبث الآخر في عالي النخلة فقال السيد محمد لجميع من كان حوله : « الخلافة من بعدي انما هي لولدي هذا المهدي الذي لم يتردد في تسليم نفسه لمشيئة الله عز وجل » ، واقتفى السنوسي المهدي آثار والده جميع حياته ، فكان حاكما حكيما عادلا تقياً ، وعاملا كبيراً في سبيل الطريقة الدينية السنوسية ، وفي أواخر حياته نقل مقره الى واحة « الجوف » للجنوب من « جغبوب » في صحراء « ليبية » وتوفي سنة ١٩٠٢ فخلفه ابن أخيه أحمد الشريف ، وهو سيد الطريقة ورأسها الحالي وهو ذو اقتدار وكفاية .

(١) تقدم ذكر هذه الزاوية (ش)

وقد انقضت مدة اكثر من ثمانين سنة والطريقة السنوسية تزداد انتشاراً ووثاقة ، وما برح الجهاد في سبيلها على غير انقطاع ، حتى غدت اليوم عاملاً كبيراً في تيار الحركة الاسلامية ، وبات لها اتباع في كل قطر من اقطار العالم الاسلامي ، فالسنوسيون في بلاد العرب كثير عددهم ، وليس هذا جميع مافي الأمر بل ان الطريقة السنوسية قد كانت عاملا شديد التأثير في الحياة الدينية في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وما زالت اقطار شمالي أفريقية من اقصاها الى أقصاها مستقر السنوسية ومضطربها ، فمن مراكش حتى الصومال ، ترى البلاد مرصعة « بالزوايا » ، وهذه « الزوايا » تستمد قوتها من الزاوية المركزية الكبرى حيث مقام السيد السنوسي في « الجوف [1] » الواقعة في قلب صحراء « ليبية » . ولم يستطع أحد من الغربيين الوصول الى هذا المكان سوى رجل واحد[2] [3]. وتحيط بالجوف الصحراء ، وعلى بعد عدة فراسخ من الجوف آبار الماء ، وأما طرق الصحراء المؤدية الى مقر السنوسي ، تلك الطرق المضلة ، فلا يستطيع السير فيها الا كل خرّيت خبير من رجال السنوسي ، أمير البلاد وسيدها المطاع .

فسلطان السنوسي حقاً سلطان كبير . والسبب في ذلك ان لهذه « الزوايا » عظمة وشأناً اكبر مما يبدو للقارىء عند أول وهلة . فعلى رأس كل زاوية « مقدم » ، وفوق المقدم « وكيل » ووظيفته كوظيفة الحاكم المدني ، وكلا

(١) يريد بها زاوية التاج في واحة الكفره التي في قلب الصحراء الكبرى (ش)

(٢) هو المستكشف نختيغال Dr. Nechtigal

(٣) قامت الرحالة الانكليزية روزيتا فوربس Rosita Forbes برحلة كبيرة الى صحراء ليبية سنة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ وكان رفيقها السيد احمد بك حسنين المصري الرحالة المشهور الذي قام هو لوحده برحلة عظيمة هذه السنة (١٩٢٣) الى صحراء ليبية . ووضعت الرحالة فوربس كتاباً بالانكليزية وصفت فيه رحلتها مؤيدة بالبرهان ومشاهدة العيان ان القوة السنوسية في افريقية تقوم لها وتقعد كل دولة مستعمرة هناك ووسمت كتابها هذا بـ« اسرار الصحراء » The Secret of the Sahara وقد نشرت صحف مصر في الآونة الاخيرة ان احمد بك حسنين أخذ يضع كتاباً قيماً لرحلته الحديثة التي عاد منها منذ بضعة أسابيع (المعرب)

« المقـدم » و « الوكيل » ذو سلطة كبيرة على أهل الزاوية جميعاً والقبيلة كافة (١) . فالامر الذي يصدره أحدهما مقروناً باسم السيد السنوسي ، انما هو أمر واجب الطاعة على الجميع . وفي الواقع إذ وراء الحكومات الغربية الاستعمارية في شمالي أفريقية ، من انكليزية وفرنسية وايطاليـة ، حكومة سنوسية شديدة المراس قوية الشكيمة ، وهي من عزة الجانب بحيث لا تجسر احدى هذه الحـكومات الاستعمارية المذكورة على مس جانبها في أمر من الامور ، أو احراجها في شأن من الشؤون ، فلذلك سـياسة الحذر واللين

(١) الزاوية فيها مقدم هو القيم عليها ، وهو الذي يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات بينها ، ويبلغ الاوامر الصادرة من السيد السنوسي . ويليه وكيل الدخل والخرج واليه النظر في زراعة الاراضي وجميع الامور الاقتصادية . ومن عادتهم ان على كل فرد من افراد القبيلة ان يتبرع بحراثة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم في أرض الزاوية ، فلذلك يسهل عمران الزاوية بدون نفقة كبيرة . ثم هناك الشيخ الذي يقيم الصلاة في مسجد الزاوية ويعلم احداث القبيلة القراءة والكتابة ، ويعقد في القبيلة عقود النكاح ويصلي على الجنائز الخ . والزوايا السنوسية هي الملاجيء الوحيدة في الصحراء للمسافرين والتائهين والواردين والشاردين ولا يوجد هناك مساكن مبنية بالحجر غيرها . وقد سرنا ـ في طريقنا الى جهاد طرابلس ـ نحو شهر من ظاهر اسكندرية عند منتهى الخط الحديدي حيث زاوية سيدى هرون القناشى الى موطن الحرب بسهل الفيض امام مدينة بنغازى ، فكنا بعد كل مرحلة ثلاث ساعات أو اكثر نجد زاوية سنوسية ، هذا عدا زوايا كثيرة ليست مصاقبة للطريق السلطاني . فان لكل قبيلة زاوية هي مرجعها في الدين والدنيا . واذا تعددت فروع القبيلة كالعبيدات مثلاً ، فلكل فخذ منها زاوية ، فلعائلة منصور زاوية ، ولعائلة مريم زاوية ، ولعائلة جازية زاوية ، وللبنايين زاوية ، وللدوا كله زاوية وهلم جراً . وان الغريب أو السابل أو الفقير المعترّ لينزل بزاوية من هذه الزوايا فيقيم ما يشاء ويتضيف ما يشاء ولا يسأله أحد عن شيء . وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجمل البقاع وأخصب الارضين ، وفيها الآبار التي لا تنزح من كثرة مائها وفي الجبل الاخضر هي بجانب عيون جارية وأنهر صافيـة ، كزاوية ماره وزاوية مرطوبه وزاوية أم أرزم بقرب درنه وزاوية بشحات في مدينة سيرنا القديمة الخ . وأينما حل السنوسية عمروا وثمروا ، ووجدت الارض اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . وقلّ ان مررت بزاوية ليس لها بستان أو بساتين فيها من كل أنواع الفواكه والثمار ، وأصناف البقول والخضرة يزيد قيمتها مصادفة الانسان لها في تلك البقاع القاصية عن العمران المحفوفة بالفلوات . وقد قيدت في دفتر عندي يحتوي معلومات كثيرة على برقة اسماء نحو ١٢٠ زاوية سنوسية في تلك الديار وما جاورها الى السودان وليس ذلك العدد هو كل ما عندهم من الزوايا. (ش)

متبعة ازاءها على الدوام .

والحكومة السنوسية أيضاً على حذر من الاصطدام باحدى الدول الغربية ، على ان هذه السياسة سياسة التروي الشديد والاحتراز لتقضي بالعجب العجاب . فما برحت الطريقة السنوسية منذ نصف قرن تقوى وتعظم ، وتمتد وتنتشر ، غير انها ما ركبت يوماً مركباً خشناً ، أو سلكت مسلكا وعراً فيه شيء من الخطر على كيانها السياسي ، وفي جميع الثورات التي هبت في اقطار شمالي افريقية العديدة ، كان السنوسيون المقيمون بنواحي البلاد يشتركون في القتال ويشدون ازر الثائرين ، كما حدث في الحرب الايطالية في طرابلس الغرب وفي الحرب العالمية الكبرى ، ولكن الطريقة السنوسية نفسها كانت تجتنب الحرب جهدها ، اجتناباً رسمياً على أتم قدر .

بيد ان موقف السنوسية هذا الموقف من الاحتراز والاجتناب ، ليس متخذاً تجاه الدول النصرانية وحدها ، بل تجاه الدول الاسلامية أيضاً ، اذ ما انفك السنوسيون طيلة عهد الطريقة يذودون عن حريتهم التامة ، التي هي عندهم أعز شيء لديهم ، فيبذلون جميع مايستطاع بذله في سبيل صيانتها وحماية سياجها . وعلى ذلك لم تكن العلاقات بين السنوسيين والدولة العثمانية جارية مجرى الود والاخلاص ، بل كثيراً ما جهد السلطان عبد الحميد ، وهو في ابان مجده وسطوته ، والبطل الاكبر المجاهد في سبيل الجامعة الاسلامية ، لاستمالة السنوسي اليه وارضائه ، فما استطاع الى ذلك سبيلا ، بل جميع ما أجابه السنوسي على ذلك هو بعض عبارات تدل على شدة الدهاء . وقد يؤثر عن السنوسي قوله : « الترك والنصارى اني أقاتلهم معاً وأضربنهم ضربة واحدة [1] » . ولما قام محمد احمد زعيم المهدية ، يناهض الانكليز في السودان المصرية وينتصر عليهم ، أنفذ رسولا الى السنوسي يطلب منه نصراً في الحرب ، فرفض السنوسي ذلك وأجاب مستهزئاً : « من هو هذا الفقير

(١) هذه الرواية نرجح انها مدخولة (ش)

المسكين من « دنقلة » (يعني محمد احمد) ألا أستطيع ان أكون المهدي اذا شئت ذلك (١) ؟ »

فجميع هذا انما يبرهن على ان السنوسي لاينفخ في غير ضرم ، بل انه البرهان الذى لا يُرد على ان السنوسي جادّ جدا غير منقطع في اعداد مايستطيعه من الوسائل والذرائع الكفية للاصلاح الديني والتهذيب النفساني والخلقي . فخطته التي ينوى القيام بها بعد اكتمال المدة التي يجاهد في سبيلها الآن، انما هي افتتاح جميع البلاد الافريقية ، ثم سائر الاقطار الاسلامية ، ثم جعل العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه مملكة واحدة ، على رأسها خليفة واحد . وهذه المملكة العظمى يرتبط بعضها ببعض بالجامعة الاسلامية الكبرى ، على أن السنوسي لموقن حق الايقان ان تحرر المسلمين التحرر السياسي من ربقة السيطرة الغربية النصرانية ، يجب ان يسبقه انتشار التجدد الروحاني والدعوة الاخلاقية في المسلمين ، فلهذا هو لايفتأ يجاهد نحو ادراك هذه الغاية بتهذيب اخلاق رعيته وترقيتها ، وايتاء نفوسها التربية الصحيحة ، وتنشئتها على الفضائل الاسلامية العليا ، وهو لم يقصر الامر على هذا فحسب ، بل يجدّ ايضا جداً اقتصاديا في سبيل تحسين اسباب المعايش وتوفير وسائل الكسب فكثرت فالأخة الواحات الخصبة ، ونمت الزراعة ، واحتفرت الآبار الحديثة وابتنيت الأنزال على طريق القوافل ، وشرع في انشاء وسائل التجارة على نطاق رحب .

فجميع هذا يوضح لنا ان الطريقة السنوسية قد بلغت مبلغاً من الاعتزاز والمناعة لم يسبق له مثيل من قبل . وهذا هو السبب الذى اقتضى ان تسير السنوسية سير الاتئاد ، مزدادة القوة مشتدة البأس ، محترزة على الدوام المجازفة بشيء من قوتها الحربية قبل اكتمال المدة اللازمة وحينونة الأجل المرتقب . وبينما تسير السنوسية على هذا الجد الشديد ، تراها تنشر المدارس

(١) السنوسي أعان تكذيب المهدي السوداني (ش)

وتقيم المآوي والأكنان في جميع البلاد الافريقية الشمالية ، وتعلم الناس طاعة « الوكلاء » و « المقدمين » وفوق جميع هذا ، فانها قد اتجهت وتغلغلت جنوباً في القارة الافريقية ، مبشرة بالرسالة المحمدية ، حيث هنالك الملايين من الزنج الوثنيين طفقوا يقبلون ايما اقبال على الدخول في الاسلام افواجا[1][2]

(١) اقرأ الكتب الآتية في شأن السنوسية وغيرها من الطرق الدينية : —

« الطريقة الدينية الاسلامية لسيدي محمد بن علي السنوسي » ـ باريس ١٨٨٤

H. Duveyrier, " La Confrérie Musulmane de Sidi Mohammed Ben Es-Sénoussi ,,

و « الطرق الدينية الاسلامية في الحجاز » باريس ١٨٨٧

A. Le Chatelier, " Les Confréries Musulmanes du Hedjaz ,,

و « العصبية القومية الاسلامية » قسنطينة الجزائر ١٩١٣

A. Servier, " Le Nationalisme Musulman ,,

و « السنوسية » (وهو مقال بقلم احمد عبدالله وهو من اشياع السنوسية). مجلة ذا فورم مايو ١٩١٤

" The Senussiyeh " (The Forum)

و « السنوسي وجهاده المهدد » ـ مجلة (القرن التاسع عشر) عدد مارس (آذار) ١٩١٠

T. R. Threlfall, " Senussi and His Threatened Holy War ,,

و « الخطر الاسلامي » ـ مجلة (القرن التاسع عشر وما بعد) ايلول (سبتمبر) ١٩٠٧

H. A. Wilson, " The Moslem Menace ,,

(٢) سبق ذكر مجمل الدعوة الوهابية ، وانها اصلاح ديني وانابة الى عقيدة السلف الصالح لولا ما اصابها من الغلو والافراط . أما السنوسية فهي طريقة عمل بالسنة والشريعة بدون شرط ولا قصور . مؤسسها سيدي محمد بن علي السنوسي الخطابي من عيون اعيان القرن الثالث عشر للهجرة ، اصله من الجزائر من قبيلة مجاهر من جهات مستغانم ، جده سيدي عبدالله بن خطاب المجاهري . واطلاع لهم على نسب ينتهي الى علي بن ابي طالب وفاطمة الزهراء رضي الله عنهما ويقال ان عدد ابناء هذا الحي يبلغ ٧٠ ألف نسمة وانه ينتمي اليهم وينضوي حولهم نحو ٢٠٠ ألف اكثرهم في (عمالة) و (حران) بجوار نهر شلف . وقرأت ان رئيس هذه القبيلة اليوم هو سيدي احمد الشارف بن تاوك (ولا أعلم درجة قرباه من صديقي سيدي محمد الشارف ابن عم السادة السنوسية وشيخ احدى زوايا دفنا من جهات السلوم) وان سيدي احمد الشارف هو شيخ الطريقة السنوسية بالقطر الجزائري . والذي اعلمه ان الحكومة الفرنسية في المغرب لا تسمح بنشر الطريقة السنوسية التي تعدها خطراً عظيما على الاستعمار ، وانما تسمح لسائر الطرق مع المراقبة اللازمة لها لكنها لا تقبل صرفا ولا عدلا من جهة السنوسية التي تعلم من قوتها ومن مقدرتها العملية ما تعلم .

اما سيدي محمد بن علي السنوسي فقد كان عالما عاملا ، كبيراً مجتهداً ، خرج من الجزائر عند ما احتلها الفرنسيس . وطاف بالبلدان وحج البيت الحرام ولقي كبار الاشياخ من جملتهم والد الادريسي الحاكم بعسير . ويظهر انه رأى القطر الطرابلسي أكثر استعداداً من غيره لقبول دعوته فابتدأ بتأسيس طريقته في طرابلس وعاونه على ذلك سيدي ابوالقاسم العيساوي والد الشيخين الاجلين سيدي احمد العيساوي شيخ زاوية السنوسي ببنغازي ، وصديقنا سيدي عبد العزيز العيساوي الذي اوفده السادة السنوسية ثلاث مرات الى الاستانة فيما يعرض لهم من الاشغال لدى الدولة ، آخرها في اثناء الحرب العامة . وقد وفق الاستاذ السنوسي الاعظم الى نشر طريقته في أكثر بقاع طرابلس وبرقة ، ولا سيما برقة فان اهلها في الحواضر وقبائلها البادية باجمعهم سنوسية مجاهدون وفي كل بلدة زاوية وعند كل قبيلة زاوية . واذا تعددت افخاذ القبيلة فلكل فخذ منها زاوية ، وكذلك زوايا السنوسي ممتدة الى مصر ، فلهم زوايا عظيمة في سيوه والواحات الدواخل الى الفيوم ؛ وزواياهم متسلسلة مطردة من بنغازي الى اسكندرية وعندهم نحو ١٢ زاوية في نفس الحجاز لها تبع كثير من قبائل حرب وغيرها وزواياهم كثيرة في السودان وانما أشهر زواياهم زاوية جغبوب على مسافة يومين أو ثلاثة من الحدود المصرية الى الغرب وهي بلدة تامة في عظمها واتساعها وعدد سكانها . وكانت جغبوب واحة مالحة يأوي اليها الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل ان تمر بها من جراء العيث في انحائها فلما اختارها سيدي محمد بن علي السنوسي مقراً له وبنى بها زاويته الكبرى صارت مهد امان ، ومركز عبادة ومشرق انوار ومعلم هداية فغرس بها الاشجار ، ونسق الجنان واستنبط العيون ، وتوسع في البناء ، وأسس مدرسة لتخريج مريدي الطريقة ، اجلس للتدريس فيها جلة العلماء . وكان مركزه بادىء ذي بدء في الزاوية البيضاء من الجبل الاخضر على مقربة من شحات ، وهي قرية مبنية على خربة « سيرنا » عاصمة برقة أو « سيرنايك » فيها بقايا آثار من ايام يونان ومن قبلهم ومن بعدهم ، وموقع سيرنا هذه او شحات على جبل عال مشرف اشرافاً قائماً على علو ثلاثمائة الى اربعمائة متر ومن حذاء هذا الجبل الى البحر مسافة ساعتين وهناك مرسى اسمه سوسة ولا مبالغة اذا قيل ان هذا الموقع هو من أبدع ما خلق الله في أرضه ، لجة منظر ، وحسن هواء ، وطيب نجعة ، لا سيما وفي أعلاه مغارة تنبجس منها عين فياضة بمياه كذوب اللجين ، تنحدر من هناك في مثل شلال الى أسفل الجبل حيث تسق البساتين والغياض ، وأما الزاوية البيضاء فليست في شحات بل في هذه زاوية أخرى لقبيلة الحاسة (التي ينتسب اليها عقيلة الحاسي الشهير في مرج ابن عامر من ديار فلسطين) يديرها سيدي محمد الدردفي ولكن الزاوية البيضاء على مسافة ساعة من شحات الى الجنوب مبنية في وسط غابة من غاب الجبل الاخضر على مسافة خمس دقائق من مقام سيدي رافع الانصاري أحد الصحابة الذين فتحوا تلك البلاد ، وقد كان سيدي محمد السنوسي بناها وجعلها مقره ، وقد رأيتها رأى العين في اثناء جهادي بتلك الديار سنة ١٩١١ وبت مرة بتلك الزاوية فاذا هي عبارة عن مدرسة تحيط بصحنها الغرف لاقامة الطلبة و فيها جامع حسن ، وهي اليوم زاوية قبيلة البراعصة المشهورة بالشجاعة والنجدة ، وعهدي بمشيخة البراعصة ورئاسة هذه الزاوية لسيدي محمد العامي التماري من ذرية سيدي عبد السلام بن مشيش المدفون في جهات طنجة

من المغرب الأقصى ، ولكن هذه الزاوية فقدت كثيراً من رونقها بعد تحول السنوسي عنها الى جغبوب ، ويقولون انه كان قد شعر بدنو استيلاء الاجانب على تلك الديار فاختار الايغال الى الجنوب والاقامة بالصحراء فعمر زاوية جغبوب وتوفي بها رضي الله عنه وله فيها ضريح يزوره السنوسية من جميع الديار ، وولد له بالزاوية البيضاء سيدي المهدي والد سيدي ادريس أمير برقة الحالي وسيدي الشريف والد سيدي أحمد الشريف نزيل الاناضول لهذا العهد وامام الطريقة السنوسية كلها ، ولقد استخلف السنوسي ولده المهدي وأنبأ بانه سيكون له شأن عظيم. وصدقت فراسته فيه فانه اكمل عمل والده ، وبنى زوايا عديدة ، وذاع ذكره في الاقطار ، وحسبت له دول الاستعمار حساباً كبيراً وحاولت ان تتقرب اليه بانواع الوسائل ، واصناف الالطاف ، فاعرض عن كل هذه المداخلات ، وعكف على عمله الذي هو بث الدعوة وايقاظ الامة ، وتأسيس الزوايا وربط الاهالي بها ، حتى هال أمره السلطان عبد الحميد فاراد أن يكتشف حقيقته ويستطلع طلع حاله ، فارسل اليه بمقره في جغبوب وفداً كان فيه صديق المرحوم صادق بك المؤيد من آل العظم في دمشق وأحمد حجاب السلطان ، فحدثني رحمه الله عن تلك الرحلة وعما لقوه في جغبوب وان السيد السنوسي لم يكن الا داعياً مرشداً ، وانه دائماً يدعو الله بتأييد الدولة العثمانية وتوفيق الحضرة السلطانية . ثم ان سيدي المهدي السنوسي تحول من جغبوب الى الكفرة ، وهذه هي واحة كبيرة تسكنها قبيلة اسمها زوية في وسط الصحراء تبعد مسافة ٢٥ يوماً عن بنغازي الى الجنوب ، يمر السائر اليها في طريقه على بلدتي جالو وأوجلة اللتين هما في أول الصحراء على مسيرة ثمانية أيام من بنغازي فاختلفت الاقوال في أسباب ترك السيد السنوسي مركزه الذي فيه قبة المقدس والده ، والمدرسة التي شادها مبعثاً لاشعة أنوار الشريعة والطريقة ، واختياره الانزواء في الكفرة بمكانها من البعد عن العمران ، فقال بعضهم انه لما استقرت قدم الانكليز بمصر أجفل السنوسي ووضع نصب عينيه الايغال في الصحراء ، وانتجاع واحة تكون أقصى من جغبوب مكاناً وأعز منالاً ، وقال آخرون بل السنوسي منذ زمن مديد كان يتكهن بوقوع الحرب مع النابوليتان (الطليان) وان هؤلاء لابد في يوم من الايام ان يغزوا طرابلس وبرقة ، فشرع يهيء اتباع طريقته للمقاومة ، ويعلم فضائل الجهاد ، مما ظهر أثره في حرب ايطالية سنة ١٩١١ ظهوراً أدهش الشرق والغرب ، وأثبت أن الطريقة السنوسية هي عبارة عن دولة بل كثير من الدول لا تملك ما تملكه الطريقة السنوسية من الوسائل الحربية ، وذلك بكونها طريقة عملية لا تعرف سوى العمل بالكتاب والسنة ، والاقتداء بسلف هذه الامة ، ومن جملة ما فكر فيه ان يجعل مركزه بعيداً ما أمكن عن مطارح انظار الدول الاستعمارية ليخلو له الجو في تجهيز قومه وبث دعوته ، فانتبذ هذا المكان القصي من الصحراء في النقطة الوسطى بين ساحل البحر المتوسط والسودان . وقال آخرون بل ساءته معاملة بعض مأموري الاتراك في التحري والتنقيب عن السلاح وكبس زوايا السنوسية في الجبل الاخضر ، وشاع ان الدولة أخذت تشتبه في أمره ، وتتوجس خيفة ادعائه الخلافة فقصد أن يعتزلها الى الصحراء الكبرى ، ولعل هذه الاسباب جميعها متوفرة في قضية تحوله الى الكفرة يضاف اليها انه من الكفرة كان يقصد القرب من السودان وبث دعوته في تلك الاقطار ونشر الاسلام في أواسط افريقية من طريق واداي ، وبرنو ، وكانم ، وادامورا ، والداهومي ،

وغيرها من أواسط افريقية وغربيها مما كان ولا شك فيه للسنوسية اليد الطولى ، فضلاً عن كون اقامته بواحة الكفرة سببت عمران تلك الواحة وازدياد الغراس والفلاحة فيها وترقية عقول أهليها ، فبنى فيها زاوية عظيمة سماها التاج وجعلها مقرّه وبنى في أماكن أخرى من تلك الواحة ، وفي واحٍ قريبة منها زوايا أيضاً وأسس مثلها في واحات الوجنقات التي تقع وراء دارفور الى الشمال ، وأخرى في واحة ونّ وواحة قرو وزاوية في عين كلك التي وقعت فيها الحرب بين السنوسية والفرنسيس الذين قصدوها من واداي . وزوايا عديدة عمر بها واحات الصحراء الكبرى وآنس بها وحشتها ، ونضر غبرتها ، وأيقظ غفلتها ، وشغل أفكار الدول الاستعمارية من كل جهة ، فانكلترة تحسب حسابه من جهة السودان المصري ، وفرنسا من جهة واداي ومستعمراتها في أواسط افريقية وشماليها وغربيها . وايطالية كانت تتزلف اليه لعلها تنال سكوته فيما كانت تنويه من الغارة على طرابلس . ولم يخل الامر من كون السلطان عبد الحميد الذي كان لا يهدأ له بال قد أراد أيضاً معرفة مقاصد السنوسي من انتباذ ذلك المحل القاصي . فبلغني أنه أوفد اليه مرة ثانية المرحوم صادق بك المؤيد الى نفس الكفرة فأخذ منه الجواب بأنه لا يقصد سوى خدمة الاسلام ، وبث الدعوة لطاعة السلطان. هذا ولم يزل سيدي المهدي السنوسي يبث طريقته ويكمل أهبته ، الى أن مضى الى ربه منذ نحو ٢٠ سنة فخلفه سيدي احمد الشريف ابن أخيه الذي اشتهر أثناء الحرب الطرابلسية وقام فيها المقام المحمود الذي لم يقمه أحد ، ولولاه لم يمكن أنور ولا غيره من أبطال الدفاع عن بر طرابلس أن يعملوا شيئاً ، واتصل جهاده من الحرب الطرابلسية الى ما بعدها فلم تخمد له نار الى الحرب العامة ، الى أن دخل الانكليز والطليان في المفاوضات مع ابن عمه سيدي ادريس ابن سيدي المهدي وأقنعوه بالاتفاق معهم على أن يكون هو أميراً على داخل برقة ويكون الحكم للطليان في مدينتي بنغازي ودرنه ، ويكون لهم احتلال بعض المراسي فانعقد الاتفاق على شروط معلومة كانت خلاصتها ما تقدم . ولما رأى سيدي احمد الشريف ذلك وكان الوئام بين أبناء البيت السنوسي من القواعد المقدسة لم يستحسن في باطنه خطة ابن عمه ولكنه لم يشأ أن يجاذبه الحبل وصبر على المرّ ، وأرسل الى المرحوم أنور ناظر الحربية يومئذ وذلك سنة ١٩١٨ يطلب منه ارسال غواصة لنقله الى الاستانة فاستقلها بحاشيته الى تريستة ومنها ركب قطار الحديد الى فينا ومنها جاء الى الاستانة واستقبله أهلها استقبالاً فائقاً ، وأعظم السلطان محمد وحيد الدين قدومه وصادف ذلك بداية جلوس السلطان على عرش آل عثمان ، فاختار السيد المشار اليه لتقليده السيف في الحفلة المعتادة لذلك في جامع أبي أيوب الانصاري في الخليج وهو الذي يسميه الاتراك جامع سلطان أيوب . ولما دخل الحلفاء الاستانة أقام ببروسة ثم لما احتلها اليونان تحول منها الى قونية ثم ذهب الى حدود العراق العربي داعياً الى الوحدة الاسلامية . ولم احصل الى هذا اليوم على شرف معرفته شخصياً وان كنت أمتّ اليه بصداقة أكيدة وكانت المراسلة بيننا متصلة منذ سنين عديدة . أيده الله وأبقاه ونفع هذه الامة على يده . (ش)

بعد تحرير ما تقدم بشأن السادة السنوسية ، اسعف القدر ، ووفى الدهر ، بعد أن غدر ، بتحقيق الامنية التي طالما كنت اتمناها ، وادراك الغاية التي كنت من سنين عديدة أتوخاها ، وهي مشاهدة الحضرة السنوسية ، واجتلاء تلك الانوار الانسية ، بعد أن حال بيننا وبينها

طول السفار وتباعد الاقطار ، واحتلال الاعداء بعد الحرب الكونية أكثر الديار . فلما كنت في معسكر الجبل الاخضر ، بعين منصور في ظاهر درنة سنة ١٩١٢ كان الاستاذ الاكبر سيدي أحمد الشريف نجل سيدي محمد الشريف ، نجل سيدي محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية وخليفة عمه سيدي محمد المهدي رضي الله عنهم جميعاً ، لا يزال في واحة الكفرة الواقعة في وسط الصحراء على مسافة ٢٥ يوما الى الجنوب من مدينة بني غازي ، ترد منه الافادات والأوامر الى الادوار المرابطة في وجه الطليان (اهالي طرابلس الغرب يسمون المعسكر دورا ، واصل هذه التسمية والله أعلم أن قبائل العرب تأتي الى الحرب بالمناوبة ، كل قبيلة تفرض عليها خدمة كذا من الايام أو من الاسابيع ، أو من الاشهر ، فتقوم بها أو ترسل عدداً معيناً يقوم بها ، ثم تذهب الى مناجعها ويأتي الى محلها غيرها ، وهكذا بالتعاقب الى أن تكون نوبتها ثانية ، وهلم جرا ، فسمي المعسكر الذي تخيم به تلك القبائل دوراً) وهو بعدُ في زاوية التاج مركز السادة السنوسية ، ثم تقدم السيد من واحة الكفرة الى واحة الجغبوب ، ليكون اقرب الى ميدان الحرب ، ولتشتدّ به عزائم المجاهدين . فكان في ذلك الوقت قد وافق سفر هذا العاجز من الجبل الاخضر ، قاصدا الاستانة لمذاكرة رجال الوزارة الجديدة وهي وزارة مختار باشا وكامل باشا وحسين حلمي باشا ، في أمر طرابلس وثني عزمهم عن التساهل فيها مع الطليان كما كان شائعا . فلم يقسم لي القدر في تلك الآونة ملاقاة الاستاذ السنوسي المشار اليه ، وبقيت العلاقات فيما بيننا بالمراسلة ، الى أن شبت الحرب الكبرى ، فانقطعت قليلا ثم استؤنفت ببرد الغواصات التي كان المرحوم الشهيد أنور ينفذها الى سواحل طرابلس .

ولما قدم السيد الى الاستانة العلية بالغواصة سنة ١٩١٨ صادف وجودي بألمانية بمهمة التأليف بين العثمانيين والالمان ، فيما شجر بينهم في بلاد القافقاس . فلما وصل السيد الى العاصمة لم يكن انتهى شغلي في برلين ، وما انتهى شغلي هناك الا وقد طلب البلغار الهدنة وبدأ الانهيار في أجرف المانية وحلفائها . فابرق اليّ أنور ببرقية رقمية بواسطة سفارة الدولة ببرلين يترجاني سرعة الاوبة ، فذهبت قاصداً الاستانة من طريق رومانية ، وركبت الباخرة من مرسى برايلا على الطونة ، ومنها الى ميناء كوستنجه ، حيث تلقت الباخرة أمراً بعدم دخول البوسفور والانصياع الى اودسا . فذهبت مكرهاً وضاق صدري جداً بهذا التأخير ، والمسافر عليل دواؤه الوصول . ولكن قد يكون الخير فيما كره الانسان ، « ولو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع » . اذ لو اكملت الباخرة الشقة الى الاستانة ، لم يلبث الحلفاء ان قبضوا علي مع رفاقي ، وغربوني الى مالطة . فكان في نكوص الباخرة عن اكمال الجري الى دار السعادة ، وذهابها الى اودسا ، وملاقاتي ثمة الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش ، والمرحوم الاستاذ الشيخ صالح التونسي ، والاستاذ الشيخ خضر حسين التونسي ، ورفاقهم من مصريين وتوانسة ، وما علمته منهم من انسلال انور وطلعت وغيرهما من الاستانة ، ما غير وجهتي واعادني مغرّباً بعد ان كنت مشرقاً ، مما يبقى تحريره في موضع آخر .

فلهذا لم يتيسر لي وقتئذ لقاء سيدي احمد الشريف . وبقيت اكاتبه من اوربا الى الاستانة ، ثم الى الاناضول . فلما يسر الله الاجتماع في هذه الايام الاخيرة ، حدثني هو بنفسه عن امور

كثيرة وحوادث جرت معه ، آثرت ان الخصها لقراء هذا الكتاب ، لكوني سمعتها من فمه . واحسن التاريخ ما اخذه الانسان من فم صاحبه ، واروى الروايات ما استقاه المؤرخ من راس نبعه .

ذكر لي السيد ، حفظه الله ، خلاصة رحلته من طرابلس الى الاستانة ، الى الاناضول ، الى ان حصل في مرسين التي يقيم بها اليوم . وذلك ان انور كان انفذ اخاه نوري اثناء الحرب الكونية الى طرابلس الغرب قائداً عاماً ، وعززه ببعض ضباط واسلحة ونقود ، وأمره باقناع السادة السنوسية بمهادنة الطليان ، ومهاجمة الانكليز في مصر ، حال كون سيدي أحمد الشريف اعتقد عكس هذه السياسة ، وهو مهادنة الانكليز ومطاردة الطليان . فشرع نوري يغادي سيدي احمد ويراوحه في أمر الزحف صوب مصر ؛ والسيد ثابت في رفضه . حتى وقع الخلاف بينهما . وليس من المظنون أن يكون انور امل فتح مصر بتلك القوة الضئيلة . وانما يغلب انها كانت سياسة المانية ، المقصود منها تحميل انكلترة خسائر جديدة ، وتحويل جانب من قوتها الى جهة السنوسية ، اذ كل مايتحوّل من قوة الانكليز نحو الاقوام الاسلامية كان يخف عن الالمان . حتى ان كثيراً من اركان الحرب يذهبون الى ان حملة الترعة نفسها لم تكن على امل كبير بافتتاح الديار المصرية ، وانما كان هدف الالمان منها تحويل جانب كبير من قوة انكلترة لحماية الترعة ، التي هي مجرى نفس هذه الدولة . أما سيدي احمد الشريف ؛ فلم يكن يعتقد بصواب الهجوم على مصر ، اولاً : لأنه كان يريد حصر قوة العرب في مجاهدة الطليان ، وعدم الاشتغال بغيرهم . ثانياً : انه كان يخشى فيما لو هاجم مصراً ، ان يقع الفشل في صفوفه لما كان يعلمه من عظمة الاستعدادات الانكليزية . فاذا فشلت حملته على مصر ، فترت عزائم العرب ، وضعف فألهم . ثالثاً : انه كان يهمه بقاء الطريق مفتوحة بين مصر والجبل الاخضر ، خوفاً على العرب من الجوع ، ويعلم انه لو هاجم مصراً لسد الانكليز طريق مصر ، ووقع العرب في حيص بيص ؛ وكان الجنرال ماكسويل الانكليزي يصانع السيد كثيراً ، ويراسله دائماً ، ويتحفه ببعض الكتب ، ويتزلف اليه بكل الوسائل ، اتقاء غارة من جهة السنوسية على مصر ، كما ان السيد كان يصانع الجنرال ماكسويل ، ويؤمنه من جهة السنوسية ، ويستخدمه في قضاء اغراضه ، وكان يستصنع في مصر البسة لتوابير الجيش السنوسي ، وغير ذلك من لوازمه ، ولا يجد من جهة الانكليز حرجاً . فكل من الفريقين كان في الواقع يتقي الآخر ، ووقعت في يد السيد اسرى انكليز ، نجوا الى بر طرابلس من بارجة انكسرت عند مالطة ، فقيدوا من ساحل طرابلس الى السيد وهو في السلوم ، فالبسهم واكرمهم وبعثهم هدية الى الجنرال ماكسويل . وكان هذا ينفذ اليه من وقت الى آخر بعض كبار ضباطه ، ممن يعرفون سياسة العرب ؛ ويعرض على السيد محالفة انكلترة ، ويطمعه في مغانم كثيرة ، بشرط ان السيد يطرد نوري أخا انور من السلوم ، ويترك الاتراك . فكان السيد يصم اذنه عن هذه الاقتراحات ، ولا يعد الجنرال ماكسويل الا بالمسالمة فحسب . ولكن انور كان يصدر الامر تلو الامر الى اخيه ، بان يتحرش بالانكليز ، ويستقدح زناد الحرب بينهم وبين السنوسية ، ويكتب الى السيد ملحاً عليه بشد عضد نوري ، وانه لايقبل له عذرا في التباطوء . ولما تلكأ السيد عن غزو مصر وقع الخلاف بينه وبين نوري ، وشرع نوري يتحكك بالانكليز ، بدون معرفة السيد ، ويضرب بالقنابر سفائنهم التجارية ، التي كانت تأتي بالبضاعة والارزاق الى السلوم . فاغتاظ

السيد من عمله ، وبين له سوء مغبة ذلك ، فلم يأبه لكلامه وبقي على عمله ، بل كتب الى أخيه في الاستانة بأن سيدي احمد الشريف لايريد معاداة الانكليز ، بل انه ممالىء لهم سراً ، وغير ذلك من الاقاويل . ثم ارسل نوري سعاة الى مصر يقولون ان السيد يأبى الزحف الى مصر مداراة للانكليز ، مع انه هو حضر من الاستانة لاجل اعداد حملة على مصر ، وانقاذها من ايدي الانكليز. فصارت تتوارد من مصر الرسل الى السيد ، تعاتبه على موقفه هذا ، وتبين له ما يخالج المصريين بحقه من الظنون ، بسبب تخلفه عن الزحف . عند ذلك استدعى السيد نوري وقال له : هوذا انا حاضر للمسير ، فلا تقدر ان تقول ان العائق كان مني ؛ وانما اذا فشلت هذه الحملة فلا اكون انا المسؤول . وركب السيد وسار بالجيش ، ومعه نوري قائداً اول ، وجعفر العسكري قائداً ثانياً (هو جعفر باشا العراقي رئيس نظار بغداد اليوم ومن أعز أحباء الانكليز) وكان عدد كل ماجمعوه من الجند اربعة آلاف . ولما أحس الانكليز بالحركة أخلوا منطقة السلوم ثم بقبق ، وانكفأوا الى الوراء . ولكنهم بعثوا الى السيد ونوري انكم ان تجاوزتم سيدي برّاني الى الشرق ، فليس بيننا وبينكم الا الحرب . فتجاوز العرب سيدي براني ، وما زالوا حتى خيموا بزاوية ام الرخم غربي مرسى مطروح . وليلة ما كانوا هناك جاء اميرالاي انكليزي يحسن العربية متزيّياً بزي بدوي متجسساً فدخل على نوري وأركان حربه ، فلم يعرفوا حقيقة أمره ، ونظر في القوة التي معه ، فرآها ضئيلة ، وفي جوف الليل انسل من المخيم ، فأخبر قومه بالواقع . فكانت انكلترة جهزت ثلاثين الف مقاتل ، ومعها عدد كبير من المدافع ، وفيها كثير من كواكب الفرسان ، فصمدت الى القوة التي مع نوري ، فلم تقف هذه لها ، وتراجع المجاهدون الى الوراء واحتشد منهم الفان في محل يقال له بئر تونس ، فطمع الانكليز في اسرهم ، وساقوا عليهم ١٣ الف مقاتل ، فارادوا ان يحيطوا بهم ، فخابوا ، وثار في وجوههم العرب ودحروهم وألحقوا بهم خسائر جمة . وكان السيد أحمد الشريف بنفسه في هذه المعركة . فلما ارتد الانكليز الى الوراء ، رجع بمجاهديه هؤلاء الى السلوم . وأما الانكليز فقصدوا الباقي من القوة التي تحت قيادة نوري فهزموها ، واخذوا جعفر عسكري اسيراً ، وافلت نوري من ايديهم بأعجوبة. ثم سار السيد الى سيوه ، وتقدم الى الواحات الدواخل على مسيرة سبعة أيام من سيوه نحو الفيوم . فجهز الانكليز قوة عظيمة لقتاله ، فاضطر ان يرجع ادراجه الى سيوه ، فتعقبوه الى سيوه ، فدافع عن نفسه في سيوه دفاعا شديداً ، ودحرهم وخرب عددا من دباباتهم المصفحة والطرابلسيون يسمونها بالكهربات ، جمع كهربا ، لكونها تسير بالقوة الكهربائية . وبعد أن ارتد الانكليز الى الوراء اجاز السيد من سيوه الى الجغبوب ، وهي مسيرة ثلاثة أيام وتحصن بها . وكان الانكليز بعد ان قطعوا الامل من سيدي احمد ، شرعوا في مخاطبة ابن عمه سيدي ادريس بن سيدي المهدي في الصلح ، والاعتراف بامارته على برقة ، والجبل الاخضر بشرط ان يطرد نوري ومن معه من الاتراك ، ويشير الى ابن عمه سيدي احمد الشريف بالخروج من تلك المنطقة ، وابلغوه انه ان بقي سيدي احمد في الجغبوب فانهم يهاجمون الجغبوب ويستولون عليها . فارسل سيدي ادريس بالخبر الى سيدي احمد ، ففارق الجغبوب مغذّاً السير الى جالو ، واوجله ، وهي مسيرة ١٢ يوماً من الجغبوب ، في صحراء يباب تيهاء ، لاعشب ولاماء ، وصادف رحيلهم حمارة قيظ فكادوا يهلكون من العطش ، ولم يتوقف السيد احمد في جالو واوجله اتقاء

الخلاف مع ابن عمه سيدي ادريس ، وهو احرص الناس على الوفاق بين السنوسية ، لاسيما بيت الرئاسة ، الذي هو القدوة لجميعهم . فقصد السيد الغرب ، ونزل بسوكنه من بر طرابلس ومعه ثلاثة آلاف مقاتل ، واعصوصب حوله السنوسيون الذين بتلك الديار ، مثل بني سيف النصر وغيرهم ، أما سيدي ادريس فلما رأى الضيق الذي وقع فيه العرب بين الانكليز من جهة ، والطليان من جهة أخرى ، والمخمصة التي أصابتهم على أثر سد الطرق ، بين الجبل الاخضر ومصر ، جنح الى الصلح ، وعقد مع ايطالية وانكلترة الاتفاق الذي اعترفتا له فيه بامارة برقة والجبل الاخضر ، وتقلد بموجبه ادارة أمورها ، ما عدا مدينتي بنغازي ودرنه ، وتعهدت ايطاليا بدفع الرواتب لجنوده . وهو الاتفاق الذي نقضته ايطاليا منذ نحو سنة ، بعد حكم وزارة الفاشيستي ، وجدّت من بعده الحرب ولما كان شرط هذا الصلح الاصلي هو اخراج نوري والاتراك من هناك ، خرج هؤلاء من برقة الي الغرب لاحقين بمصراطة . وكان استبدّ بأمر مصراطة رجل اصله من غمار الناس اسمه رمضان شتيوي ، ساد بشجاعته وحزمه ومضائه ، وكان في خدمة ايطاليا اولاً ، ثم انقلب عليها ، واستخلص من يدها مصراطة وما جاورها ، بعد الواقعة الشهيرة المسماة بالقرضابية ، التي انهزم بها الطليان شرهزيمة سنة ١٩١٥ ، وكان مبدأها بين الطليان والسنوسية . فالطليان استنفروا لمعاونتهم رمضان شتيوى وقومه ، فزحف ببضعة آلاف من رجاله ، فلما وجد السنوسية وهم الف وخمسمائة مقاتل قد وقفوا في وجه ١٢ الف مقاتل من الطليان ، واذاقوهم مرّ الكفاح ، هجم هو على الطليان من الوراء ، وهم على غير انتظار ، فلم ينج من ذلك الجيش الايطالي كله سوى خمسمائة شارد فروا الى جهة البحر ، وغنم العرب جميع اثقال ذلك الجيش . واسترجع العرب بعد هذه الواقعة جميع بر طرابلس ، سوى مدينة طرابلس المحمية بالبوارج الحربية ، واستمر ذلك من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩٢٣ ، اذ جهزت وزارة الفاشيستي جيشاً جراراً استرجع مصراطه ، ومسلاته ، وترهونه ، وغريان ، وغيرها ، ثم كر العرب عليها واخذوها ، ثم زحف الطليان ثانيةً واسترجعوها ، والاحوال بين الفريقين لاتزال مدّاً وجزراً ، الى هذه الساعة . وقد مثل دوراً عظيماً في هذه الوقائع رمضان شتيوي هذا الملقب بالسواحلي ، وجاهد في الطليان حق الجهاد ، ولكنه كان صعب المقادة ، اشوس ، مر العداوة ، وكان يناصب السنوسية العداء . فلما قدم عليه نوري مغتاظاً مما اعله سيدي ادريس ، تلقاه براً وترحيباً ، وعزّز به مركزه ، مما كان يرد على نوري من نظارة الحربية بالاستانة من الاموال والاعتاد ، وعلت كلمته بانتسابه الى الدولة ، وقبوله نوري قائداً ووالياً ، وان كانت في الحقيقة الكلمة بقيت لرمضان في الامر والنهي . وقد وفق الله طرابلس في أمر ، وهو انه كان عبد الرحمن بك عزام ، من آل عزام بالجيزة ، ومن شبان مصر الناهضين ، (وهو اليوم من اعضاء مجلس النواب المصري) ذوي الحصافة والنجابة ، يجمع حنكة الشيوخ الي حماسة الشبان ، قد التحق بمجاهدي السلوم يوم زحفوا لقتال الانكليز ، شهد الوقائع ثم غرّب مع نوري الى طرابلس ، ولما دخل نوري مصراطه ، كان عبد الرحمن بعده اليمنى ، فعرف كيف يأخذ رمضان بالحسنى ، والين بقدر الامكان من شدته ، واصلح بينه وبين أهالى ترهونه ، وزليطن ، واورفله ، وغيرها ، وشكلوا حكومات متحالفة ، مركزها مصراطه ، وعلى رأسها نوري باشا . وكان القائم باعبائها عبد الرحمن عزام المومأ اليه . ثم لما

استدعى أنور اخاه نوري الى الاستانة ، وولاه قيادة جيش القافقاس ، استصحب معه الى الاستانة عبد الرحمن بك عزام ، وقال لي نوري مرة هذه الجملة ، واستدللت منها على عقله وانصافه : « لولا هذا الشاب ، ماكان يمكنني ان أوفق في طرابلس » .

ثم لما ارسلت الدولة الامير عثمان فؤاد ، ابن الامير صلاح الدين ، ابن السلطان مراد ، ابن السلطان عبد المجيد خان ، الى طرابلس اميراً وقائداً عاماً عليها ، مكان نوري باشا ارسلت معه عبد الرحمن عزام المصري مستشاراً ومدبراً ، فلما انتهت الحرب الكبرى وانعقدت المتاركة ومن جملة شروطها اخلاء الاتراك لطرابلس ، صدرت الارادة السلطانية الى الامير عثمان فؤاد بترك تلك البلاد . فذهب الى تونس ، وسلم نفسه الى الفرنسيس ، وهؤلاء سلموه الى الطليان الذين افرجوا عنه . ولكن بقيت الحكومة الوطنية في طرابلس على ما كانت عليه ، وهي حكومة حلفية ، مركزها مصراطه ، وعبد الرحمن عزام هو الذي يدبر أمورها ، ويرتق فتوقها ، ويؤلف بين الجهات المتنافرة ، حتى يتسنى لهم بالاتحاد حفظ استقلالهم . الا ان شرة رمضان السواحلي ، كانت غالبة عليه ، فقصد مرة قتال اورفله ، فعطل أهل اورفله في وجهه الآبار ، وألجؤوه الى معاطش هلك فيها اكثر رجاله ، وقبضوا عليه اسيراً . ولما ارادوا احضاره الى عبد النبي بالخير زعيم اورفله ، قال هذا لقومه : « لاتدعوه يصل اليّ خوفاً من أن يغلبني الحياء فاستحييه » . ففهموا منه انه يرجح قتله فقتلوه . وبعد رمضان المذكور جعل الطرابلسيون رئيساً على حكومتهم الوطنية الحلفية أحمد بك المريض (بتشديد الياء) وهو زعيم ترهونه ، ولا يزال رئيساً الى اليوم مقيماً بمعسكر المجاهدين جنوبي البلاد التي استرجعها الطليان .

ثم نعود الى سيدي أحمد الشريف . فنقول انه لما فارق برقة ، تفادياً للخلاف مع ابن عمه الذي صار أميراً على برقة ، قرّب الى سوكنه كما سبق ، فارسل اليه رمضان السواحلي قوة تقاتله ، عليها ضباط من الترك ممن كانوا مع نوري باشا أخي أنور . فالسيد هزم القوة التي جاءت تقاتله ، وقتل في تلك الواقعة الضابط المدعو برتوتوفيق . ولكن اشتدت الازمة بالسيد لانقطاع المدد عنه من كل الجهات ، فالانكليز أصبحوا أعداءه وضبطوا أملاكه ، وزواياه في سيوه والواحات الدواخل ، وذلك لانقياده الى الاتراك ومسيره مع نوري لمهاجمة مصر . والاتراك تركوه أيضاً ، لانحياز نوري باشا الى رمضان السواحلي في مصراطه ، واعتصامه به ، وهذا كان عدواً للسنوسية . فوصل الامر بالسيد وعساكره التي كانت نحو ثلاثة آلاف ، ان اخذوا يقتاتون الحشائش ، وان مات منهم خلق كثير جوعاً ، وهو صابر على هذه البلية صبر الكرام ، والازمة تزداد به وباجناده يوماً فيوماً ، وهو لايقدر ان يعود الى الجغبوب ، خوفاً من الخصام مع ابن عمه ، واتقاء التحرش بالانكليز . ولا يقدر أن يدخل مصراطه والبلاد التي حولها ، لكون رمضان السواحلي وغيره من أعداء السنوسية له بالمرصاد . قال لي السيد من فمه : « بلغ بي الضيق من هذه الحالة ، وأنا أرى رجالي أمام عيني تموت جوعاً ، ان وصلت الى درجة اليأس ، وقررت في نفسي الصلح مع الانكليز مستخيراً الله ، وفي تلك الليلة رأيت فيما يرى النائم ، استاذي سيدي احمد الريفي يقول لي : قد عرف الاخوان مرادك فلم يرضوا لك بما عزمت عليه ، فارجع الى ما كنت عليه واستأنف العمل . فلما استيقظت من النوم اقلعت عن تلك الفكرة وحررت الى أنور كتاباً ، بعثت به ضمن كتاب الى نوري قائلا

له : احذر أن تؤخر ارسال كتابي الى أخيك . فارسل بالكتاب الى الاستانة ، وجاءني من انور الجواب».

وكان السيد قبل ذلك ، بعث اليّ ، أنا محرر هذه السطور ، بكتاب يشكو لي به من معاملة نوري ، أيام كانا في السلوم ، ويبدي لي شيئاً من التعتب على انور ، ولكن لم تتح له فرصة لارساله ، وبقي محتفظاً بذلك الكتاب الى أن جاء الى الاستانة العلية ، وانتهت الحرب ، وشرعت اوراسله من اوربا الى مكانه ببروسه ؛ فارسل اليّ بذلك الكتاب بعينه ، بعد فوات وقته ، كأنه يريد أن يطلعني على تلك الماجريات الماضية ، ولولا كون هذا الرقيم في أوراقي التي تركتها في أوربا ؛ لكنت أكملت هذه القصة بنشره . ومن الغريب ، انني مع كون هذا الكتاب من السيد لم يصلني يومئذ ؛ فقد قمت تجاه السيد بما لم أكن لاعمل زيادة عليه فيما لو وصلني كتابه اذ كنت بدأت اشم من جهة أنور رائحة الوحشة من سيدي احمد الشريف ، وأسمع بعض رجال الدائرة المسماة بدائرة « التشكيلات » التابعة للحربية يلمزون السيد ، ويعزون اليه اموراً ، كنت على يقين انها بهتان محض . مثل كونه يريد الخلافة لنفسه ؛ ومثل أنه غير مخلص للدولة وما أشبه ذلك . وكان أنور دعاني مرة للافطار معه في رمضان فقلت له : « ان بعض بطانتك بدأوا يغمزون السيد أحمد الشريف ويشيعون عنه أراجيف يصعب تصديقها ، وهذا الامر يمس جانبك أنت ، ولا ينحصر في السنوسية ، لأن أكثر مظهرك كان بهؤلاء الجماعة. فان ظهر بعد ذلك انهم خائنون ، لاسمح الله ، فتكون أنت الملوم ، ويستدل الناس بذلك على كونك فائل الرأي . وان كان عندك شيء راهن بحقهم ، فصرح لي به لنعلم درجة الخبر من الصحة » . قال لي انور ، رحمه الله : « حاشا ، مايقدرأحد أن يتهم سيدي أحمد الشريف بالخيانة ولكن الانكليز كانوا يخدعونه أحيانا » . قلت له : « ان سيدي أحمد الشريف لم ينخدع للانكليز ، وانما كان يصانعهم كما يصانعونه ؛ وما تلكأ من محاربتهم الا خشية الفشل ، اذ كان يعلم أن القوة التي لديه غير كافية للدخول الى مصر ، أفلا ترى كيف أن الانكليز بمجرد زحف الاربعة الآلاف مجاهد الى مرسى مطروح ، رموهم بثلاثين الف مقاتل ، وبالمدافع ، والطيارات ، والدبابات ، ولولا لطف الله بهم لوقعوا جميعاً أسرى وأخوك من الجملة ... » قال لي أنور : « أنا أعطيتهم أوامر بأن يتجنبوا المعارك الفاصلة » . فقلت له : « ياسبحان الله ! أنت عسكري ، صنعتك الحرب وأدرى مني بهذه الامور ، أفاذا هاجم الانسان من هو أقوى منه مراراً ، أيبقى له الاختيار في الكرّ والفرّ ؟ . » وانتهت هذه المحاورة باقتناع أنور ، وتركه مؤاخذة السيد . ثم أخذت منه الاذن لسيدي عبد العزيز العيساوي ، الذي كان معتمداً للسادة السنوسية في استانبول ، وهو من الفضلاء الاجلاء ، أن يواجهه في نظارة الحربية ، بعد أن بقي محجوباً عنه عدة أشهر ، ثم أن يعود الى وطنه بالغواصة. فأذن له وأعاده معززاً مكرماً ، وكتبت معه كتاباً الى السيد . وما مضت مدة حتى جاء مكتوب السيد الى أنور ، حسبما تقدم . فانفذ أنور يوسف بك شتوان بالغواصة ، فتلاقى مع السيد ، وتقرر مجيء السيد الى الاستانة بالغواصة ، فركب من مرسى العقيلة من ساحل سرت ، قاصداً بحر الادرياتيك .

قال لي السيد : « قبل ركوبي الغواصة ، تحادثت مع الضباط الالمان الذين فيها ، وسألتهم

عيم خطر ركوبها فقالوا لي : لايخلو الامر من الخطر . ولكنني ما باليت بذلك لاني كنت رأيت استاذي سيدي أحمد الريفي في المنام فقال لي : الشيء الفلاني ستأخذه من « بولا » . في اليوم التالي سألت الضباط هل يوجد محل اسمه بولا ؟ فقالوا لي : نعم أن المرسى الذي سننزل فيه من بلاد النمسا اسمه « بولا » . فاعتقدت انا بالفوز هذا المكان ، بحول الله وقوته » . قال لي : « وقد عرضت لنا الهلكة ثلاث مرات ، ونحن في البحر : أول مرة صادفنا بوارج للعدو فغصنا تحت الماء ، ورأيت مراكب العدو بعيني ، بواسطة مرآة يرى الانسان بها من تحت البحر ماهو فوق البحر . وما زلنا متوارين عنهم حتى مضوا . ومرة ثانية اصاب الآلة المحركة تعطيل ، فكنت أرى ضباط الغواصة يجيئون ويذهبون ، وهم في حيرة عظيمة ، فلم يخبروني بالحقيقة الا بعد أن أصلحوا الآلة . ومرة ثالثة نام قيم الآلة ، فصادمت الغواصة صخرا وكادت تغرق ، ولكن كنا على مقربة من « بولا » . وقد فصل سيدي أحمد الشريف من مرسى العقيلة (بضم ففتح فسكون) بساحل سرت في ٧ ذي القعدة سنة ١٣٣٦ ، ووصل الى « بولا » من ساحل النمسا في بحر الادرياتيك بعد اسبوع من ركوبه وسافر من « بولا » الى فينا ومعه حاشيته ، ويوسف بك شتوان . ولما حصل في فينا أرسل الامبراطور يبغي مشاهدة السيد ، فاجاب شتوان معتذراً من امكان هذه الملاقاة قبل أن يذهب السيد الى الاستانة ويقابل السلطان . ولكن هذا الجواب وقع بدون اطلاع السيد ، ولما اطلع عليه فيما بعد لم يستحسنه اذ رأى أنه كان يليق مقابلة الامبراطور في عاصمته لاسيما انه طلب ذلك . ثم سافروا الى الاستانة ، فاستقبل في محطة « سركه جي » بمزيد الاجلال والاكرام ، وكان انور باشا في المحطة بنفسه . وأقبل علماء الترك عليه ، وهنأوه بالقدوم ، وتبركوا بمعرفته . وانزلته الدولة بسراي « طوب قبو » مقر السلاطين القديم . وصادف وقتئذ الاحتفال بتقليد السلطان محمد السادس السيف ، في مسجد ابي أيوب الانصاري رضي الله عنه ، الذي يقول له الاتراك : « سلطان أيوب » . وكانت العادة ان الذي يقلد السلطان السيف عند جلوسه ، هو الشلبي شيخ الطريقة المولوية وسلالة مولانا جلال الدين الرومي ، قدس الله سره . فاختار السلطان السابق محمد السادس ، الاستاذ السنوسي لتقليده سيف السلطنة في ذلك المحفل المشهود ، وأنعم عليه برتبة الوزارة السامية ، وبالنشان المرصع ؛ واحتفى به كثيراً ، هو وولي العهد الامير عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز خان ، الذي تولى الخلافة بدون سلطنة بعد انتصار الاتراك على اليونان ، وخروج محمد السادس من دار السعادة . ثم خلعته الجمهورية التركية اخيراً وأقصته هو وجميع آل عثمان عن المملكة ، والسلطنة واسقطتهم من التابعية التركية .

وكانت الحرب أوشكت أن تنتهي ، وأيقن الاتراك أن الدائرة ستدور عليهم وعلى الالمان فتكلم أنور مع السيد السنوسي ، في لزوم رجوعه بالسرعة الى طرابلس ، وقال له كلاماً يدل على كون آماله في مسلمي أفريقية صارت اكثر منها في سائر العالم الاسلامي . وصرح له أن السلطان نفسه ، يريد أن تعود الى بلدك لتقوى بك عزائم المجاهدين ، ونحن حاضرون أن نقويك بالمال والعتاد والسلاح . وقرر أنور اعطاء السيد (١٢) الف بندقية مع عدتها ، و (١٠) مدافع و (٣٠) رشاشاً و (٢٠٠) الف جنيه . فسأله السيد قائلاً : « بلغني من

بعض الضباط الطرابلسيين الذين في خدمة الدولة ، انكم تبغون أقال ابن عمي سيدي ادريس ، لكونه اتفق مع الانكليز والطليان » . فقال له أنور : « معاذ الله ان نبغي منك ذلك ، لاننا نعلم انه لم يبق للاسلام في أفريقية حصن أحصن من هذا البيت السنوسي الكريم ، وانه ان وقع لاسمح الله الشقاق في هذا البيت ، فسد الامر واضمحلت القوة السنوسية التي عليها معوّل الاسلام في أفريقية . فكن على ثقة بأننا نبغي اتحادكم قبل كل شيء ، نصحاً بالاسلام وضناً باستقلاله ، وان معاونتنا لكم انما هي محض حمية على الاسلام ، لأن تركيا من جهتها لم يبق لها أدنى أمل باسترداد طرابلس ، ولكننا لانحب أن نرى اخواننا مسلمي أفريقية تبعة للاجانب » . وكان أنور كما هو مشهور عنه ، متمسكاً بوحدة الاسلام ، يغار عليه في أيّ بقعة كانت ، ولا يفرق بين عربي وتركي وهندي الخ ، وطالما اختلف مع زملائه من أجل هذه السياسة .

وبعد أن أجمع السيد الاوبة الى طرابلس ، جاء من قال له ان الغواصة ستنزلك في ساحل مصراتة ، وهي بيد رمضان السواحلي اليوم ، فلا يجوز أن تأمن جانبه ، فاخذ السيد يفكر في كيفية النزول الى البر بحيث يطأ ساحلاً لايكون فيه عليه يد لا من الطليان ، ولا من رمضان شتيوى . واذ ذاك صارت تتابع الحوادث بسرعة البرق . فتغيرت الوزارة ، وسقط انور ، وندم السيد على تأخره عن السفر ، وحاول الانسلال من الاستانة الى النمسا ، حتى يركب منها الغواصة قافلاً الى وطنه . فلما أحس محمد السادس وحيد الدين بذلك ، أخذ يداوره عن عزيمته هذه ، ويقول له : « يعز علينا أن تفارقنا في هذه الآونة الحرجة » . والسيد يظن انه أثناء عقد الهدنة مع تركيا شدد الحلفاء على السلطان في ملاوصة السيد عن الابحار الى طرابلس ، حتى اذا دخلوا الاستانة كان السيد في قبضة يدهم . أما انور فكان السيد يختلف اليه بعد سقوطه فكان يداور السيد في السفر معه الى اوربا ويقول له : « لايجوز اصلاً بقاؤك في الاستانة والحلفاء على وشك دخولها . » واما الصدر الاعظم ، المشير احمد عزت باشا ، فلما كان السفر بالغواصة ممكناً من بحر الادرياتيك ، اشار على السيد بالسفر خفية ، واللحاق ببلاده ، وبان لا يبالي بكلام السلطان . فلما انعقدت المتاركة ، وصار السفر بالغواصة متعذرا اشار على السيد في الذهاب الى بروسه ، وكان هذا رأي وحيد الدين ايضاً . فتحول السيد من الاستانة الى بروسه ، وقامت الحكومة العثمانية بكل ما يلزم له . وكان السلطان يديم السؤال عنه ، وكلما تعين والٍ لبروسه يتلقى الامر بالذهاب الى السيد قبل كل شيء ، والوقوف عند خاطره ، والمبادرة الى مراضيه . فالسيد السنوسي من اول يوم قدم فيه الى تركيا ، الى هذه الساعة ، لقي من بر الاتراك وحفاوتهم واجلالهم ، سواء من حكومة الاستانة مع تقلب وزاراتها ، او من حكومة انقره في مختلف صفحاتها ، مالم يطرأ عليه أدنى تغيير ، ولا اوجب التبرم في قليل ولا كثير . حتى كأن جميع الايام التي قضاها بين اظهرهم يوم واحد . فكانت الامة التركية اينما حل وكيف ارتحل ، تهرع اليه على اختلاف الطبقات ، بدون تكلف ولا تصنع ، ولا انتظار اوامر حكومة ، بل بشعور عام اوجده فيها اتحاد الكلمة على نزاهة هذا الرجل ، وتجرده من المآرب الشخصية ، وعزوفه عن حظوظ الدنيا ، وانصراف همه كله الى الذب عن بيضة الاسلام ، بدون غرض سوى مرضاة الله ورسوله ، وحفظ استقلال المسلمين.

فكان كثير من الترك ، والكرد ، والجركس ، والارناؤوط ، يقصدون زيارته لمجرد التبرك بتقبيل يده ، والاقتداء بهديه وتلق وارداته الروحية ونفحاته القدسية ، وكثير منهم اخذوا عنه الطريقة السنوسية . وكانت مدة مقامه ببروسه مايقرب من سنتين تأسست خلالهما الحكومة الانقروية ، فارسل اليه رئيسها مصطفى كمال باشا يدعوه الى الانحياز الي انقرة ، شدا لعضد الاسلام ، وترجيحاً لكفة الجهاد على كفة القعود . وكانت القوى الملية التى مركزها انقرة ، هي في الحقيقة آخر مابقي من قوة الدولة الفعلية ، فاعمل السيد الروية في هذا الامر ، فرأى ان حكومة الاستانة ، لاسيما في ايام الداماد فريد ، اصبحت كالحلس الملق ، لاتملك ضرا ولا نفعا ، ولا تقدر ان تذود عن حق مسلم ، فضلاً عن كون بقائه في بروسه مع دنو اليونان منها ، يعرض شخصه الوقوع في ايدي الحلفاء . فازمع السيد التحول الي الاناضول ، واول بلدة نزل بها اسكيشهر ، حيث وافاه مصطفى كمال باشا ومعه رهطه باجمعهم ، وتلقوه برّا وتكريما ، واحتفلوا بمقدمه احتفالا عظيما . ثم ان بعض الترك ، ممن لاحاجة الى بيان اسمائهم ، واستطلعوا رأيه في امر الخلافة ، وارادوه عليها ، وابدوا واعادوا في اقناعه بها ، فاعتذر من ذلك ، وافهمهم ان لاسبيل الى قبوله هذا الامر ، لاسباب عددها . فتركوا مراجعته في هذا المشروع ، وخيروه في الاقامة بأي بلد يريده فاختار قونية ، واقام بها عدة اشهر . واثناء اقامته بقونية ثارت ثلة الثورة على الحكومة الانقروية ، لاسباب ليس هنا موضعها ، فبذل السيد كلمته في اخماد الثورة ، ونصح الاهالي بطاعة الحكومة الملية ، وصعد المنبر يوم الجمعة ، فحث الناس على اجتناب الفتنة ، وبصرهم عواقب الشقاق ، بينما العدو آخذ منهم بالخناق ، وبين لهم كيف ان انقره هى ثمال الاسلام ، وثمالة مابقي في حوضه في هذه الايام ، فلا يجوز لهم والحالة هذه الخروج عليها ، وتوهين قوتها ، حتى لقد عاتبه كثيرون من اهل قونية في تشيعه لانقره ، وغضب آخرون . ولولا احترامهم لمقامه العظيم ، ونسبه الكريم ، لمسه السوء يوم سالت الدماء في أسواق قونيه . ومازال في الوعظ والارشاد ، حتي وصلت العساكر الملية فبددت شمل الثائرين وقبضت على مئات منهم وحاكمتهم في ديوان حرب ، وصلبت كثيرا منهم ، وكادت تبطش بالشلبي شيخ المولوية وسلالة مولانا جلال الدين الرومي البكري الصديقي قدس الله سره . فكان السيد واسطة خير وشفيعاً له ولغيره . فانقذ كثيرين ولطف مصائب كثيرة بحسن شهادته ، ولطف مواعظه ، في هذه الفتنة التي كسائر الفتن لاتصيب الذين ظلموا خاصة . ثم انتدبته الحكومة الملية للذهاب الى بلاد الاكراد ، لاخماد بعض الفتن ، واعمال نفوذه الديني في نصيحة العشائر التي كانت غير راكنة . فذهب السيد الى ديار بكر ، واقام بها وبماردين وباورفا ، مدة وفدت فيها عليه زعماء القبائل العربية والكردية الضاربة في هاتيك الديار ، وراودوه على الاقامة بينهم ، واظهروا له من الطاعة لامره والانقياد لكلمته ، ماهو فوق الوصف ، ولكنه ابدى لهم استحالة ذلك عليه ، وكونه مقيدا ببلاده ، لابد له من الرجوع الى الغرب وانما نصح لهم في الاتفاق مع الحكومة الملية ومظاهرتها توحيداً لكلمة الاسلام ، واتقاء الفتنة التى انما يستفيد منها العدو أثناء حرب لاقح لايدرى ماتلد . وكان يشدد عزائم الناس ، ويحثهم على الجهاد . واحدى المرار بينما هو في ماردين ، قال : « ان هجوم الاعداء سيبدأ بهذين اليومين وسيكون نصيبهم الخذلان » فلم يمض يومان حتى ورد عليه برقية من الغازي مصطفى كمال باشا

قائلا له : « ان العدو بدأ بالهجوم لسألك الدعاء . فكان ذلك مدعاة لدهشة الضباط الاتراك، الذين سمعوا من السيد أن العدو سيهاجم بهذين اليومين وقيدوا ذلك بالورق يوم قاله لهم ، فكان الامر طبق ماقال . وكان الغازي في برقيته طلب أيضا من السيد قراءة البخاري الشريف تبركا واستنزالا للنصر على جيوش الاسلام ، فذهب الى المسجد الجامع بماردين ، وشرع بالقراءة، وداوموا عليها الى أن وردت البشائر بكون العدو ارتد خاسراً من وقعة سقاريا . ثم أقام السيد بطرسوس فراراً من برد الاناضول . وفي أثنائها تم الظفر الاخير بالعدو ، وأخرج من كل أقسام تركيا . وجاء مصطفى كمال باشا الى ولاية أطنه ، وزار السيد في منزله بطرسوس، فبالغ السيد في الاحتفال به ، وقدم بعض هدايا نفيسة للسيدة الخاتون حليلته . وبعد ذلك ذهب الى أنقره لتهنئة الحكومة بظفرها الاخير، واستتباب الامر وعقد الصلح . وكانت زيارات السيد لانقره ثلاث مرات : أولاها يوم توجه الى بلاد الاكراد بطلب من الحكومة الملية . والثانية أثناء الحرب بعد هزيمة العدو في سقاريا . والثالثة بعد نهاية الحرب وعقد الصلح . وفي هذه المرة الاخيرة كان معه عجيمي باشا السعدون ، أمير المنتفق الذي لم يفارق جيش الدولة وترك وطنه العراق حبا بها ، ومداومة على مبدائه . وقد كان السيد في جميع زياراته لانقره يلقى من الغازي ومن هيئة الحكومة جميع ماهو أهله من الاجلال والاكرام . وآخر مقامه كان بمرسين، التي آثرها على طرسوس ، فنزل بقرية « خريستيان كوى » التي كان يسكنها الاروام قبل المهاجرة ، وهي على مسافة نصف ساعة وهو مقيم بها بحاشيته الى هذا اليوم .

وكان كولونل ايطالي قد وافى أنقره آخر مرة من زياراته لها ، واستأذن السيد في ملاقاته، فأذن له ، فتكلم مع السيد في حقن الدماء في طرابلس ، والاتفاق على أساس للصلح . فاجابه السيد بأنه لايكره الصلح ، على شرط استقلال وطنه الحقيقي . وبعد الاخذ والرد ، أحال السيد أخذ خلاصة الاقتراحات الايطالية الى الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش . وكان السيد قبل أن رضي بالاخذ والرد مع هذا الكولونل سأله : « أعندك تفويض من حكومتك بالدخول معي في حديث الصلح ؟ » فقال له الكولونل : « كلا . وانما يمكنني الحصول على التفويض من اليوم الى شهر » . فقال له السيد : اذا ، بعد الحصول على الاذن من حكومتك ، تفيض بما تريد بيانه الى الاستاذ الشيخ جاويش » . وأوعز السيد الى الشيخ جاويش بان يعيد عليه الجواب . فبعد مدة جاءه الشيخ بخلاصة الشروط . فوجدها السيد غير موافقة وقال للشيخ جاويش : « قل لهم لانقبل أن تكون القوة العسكرية في أيديهم ، ولا أن تكون الشرطة منهم ، وكل مانتسامح معهم فيه هو الامتيازات الاقتصادية ، واستثمار البلاد حقا لهم دون غيرهم من الاجانب . فاما حقوق الملكية فلا ننزل عن شيء منها ، وسلاحنا لا بد أن يبقى في أيدينا ، وعلى غير هذه الشروط فلا سلام ولا كلام ، لأن طرابلس وبرقة ليستا ملكي لاجود به على الطليان ، بل هما ملك أهلهما » . فلما عاد الشيخ الى الطليان بالجواب علموا أن لا سبيل الى الصلح ، فاذاعوا في الجرائد أن خبر مفاوضتهم للسيد السنوسي بالصلح غير صحيحة . والحال أنه قبل هذه الاذاعة بقليل ، كان ورد الى السيد الخبر من الشيخ جاويش بان الكولونل الايطالي قادم الى مرسين لمواجهته ، كما أن هذا الكولونل لما واجه السيد وشافهه بأمر الصلح

في أنقره ، أخبر السيد الغازي مصطفى كمال بما جرى فاشار عليه بالصلح ان طاب له ووافقته شروطه .

عند ما قدمت الى الاستانة في أواخر سنة ١٩٢٣ ، وهي أول مرة دخلتها بعد الحرب قررت لأجل الاستجمام من عناء الأشغال وترويح النفس بعد طول النضال ان أسكن ببلد صغير تتهيأ لي فيه العزلة وتسهل الرياضة ، ويكون دانياً من وطني سورية لملاحظة شغلي الخاص ، وتعهد أملاكي فيها ، فاخترت مرسين ، والقيت مرساة غربتي فيها . وكان السيد السنوسي بلغه قدومي الى دار السعادة ، فكتب لي يرغب اليّ في سرعة المجيء ويرحب بي . فلما جئت الى مرسين ذهبت تواً لزيارته ، فأبى الا أن انزل عنده ، ريثما اكون استأجرت منزلا في البلدة ، وقد رأيت في هذا السيد السند بالعيان ، ما كنت اتخيله عنه بالسماع وحق لي والله أن أنشد : —

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذني بأحسن مما قد رأى بصري

رأيت في السيد حبراً جليلا ، وسيداً غطريفاً ، واستاذاً كبيراً ، من أنبل من وقع نظري عليهم مدة حياتي ، جلالة قدر ، وسراوة حال ورجاحة عقل ، وسجاحة خلق ، وكرم مهزة وسرعة فهم ، وسداد رأي ، وقوة حافظة ، مع الوقار الذي لا تغض من جانبه الوداعة ، والورع الشديد في غير رئاء ولا سمعة . سمعت أنه لا يرقد في الليل أكثر من ثلاث ساعات ، ويقضي سائر ليله في العبادة والتلاوة ، والتهجد ، ورأيته مراراً تنفتح بين يديه السفر الفاخرة اللائقة بالملوك ، فيأكل الضيوف والحاشية ، ويجتزيء هو بطعام واحد لا يصيب منه الا قليلا ، وهكذا هي عادته . وله مجلس كل يوم بين صلاتي الظهر والعصر ، لتناول الشاي الأخضر الذي يؤثره المغاربة . فيأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال المعية ، ويتناول كل منهم ثلاثة اقداح شاي ممزوجاً بالعنبر . فأما هو فيتحامى شرب الشاي لعدم ملائمته لصحته . وقد يتناول قدحاً من النعناع . ومن عادته أنه يوقد في مجالسه غالباً الطيب ، وينبسط السيد الى الحديث ، وأكثر احاديثه في قصص رجال الله وأحوالهم ووقائعهم ، وسير سلفه السيد محمد بن علي بن السنوسي ، والسيد المهدي ، وغيرهما من الأولياء والصالحين . واذا تكلم في العلوم قال قولاً سديداً ، سواء في علم الظاهر أو علم الباطن . وهو يذهب الى تعظيم الاولياء ، ويرى فيهم الوسائل بين الله والعبد . وينكر على القائلين أن لا وسيلة بين الخالق والمخلوق ، بل يقول ان الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، ان هم الا وسائل الى الله . ويقول اذا وقع خلاف في مسئلة بين علماء الشرع ، وبقيت غامضة ، فالقول فيها ما يقوله علماء الباطن أهل التصوف . وهو شديد الاعتقاد والاقتداء باثنين : الأول عمه سيدي محمد المهدي الذي لا يرى فوق طبقته أحداً الا سيد الكائنات ، صلى الله عليه وسلم . والثاني استاذه ومرشده سيدي احمد الريفي ، من أكابر السادة السنوسية ، وأركان هذه الطريقة ويقول انه كان علامة بحراً في جميع العلوم . قرأ في فاس وأتقن العلوم بأسرها حتى الفلك والاسطرلاب ، والهندسة ، والرياضيات . وهو يعتمد على كلامه له ، ومن جملة ذلك أنه قبل وفاته ، رحمه الله ، بأيام قال له : « أمامكم جهاد طويل عريض » فينبغي الك أن تجاهد ولا تقعد ، والا

الجهاد ينتهي بنصركم . وانما لا تجعل لنفسك مركزاً معيناً تلازمه ، ولا تكن مهاجماً للنقاط المحكمة . بل قف دائماً على قدم الدفاع . واياك والهاجم » فسأله السيد « أين يكون هذا الجهاد ؟ » وكان ظن أنه يعني حرباً تقع بين السنوسية والفرنسيس في جهة واداي ، لأنه كان القتال مستمراً بين الفريقين على دين كاك . فأجابه سيدي احمد الريفي : « كلا ! هذا جهاد ضد عدو يأتيكم من جهة البحر ، وهو الطليان » . قال له : « وستأتيكم النجدة من استانبول . » فما مضى على وصاة سيدي الريفي شهران ، حتى نشبت حرب طرابلس وتحقق كل ذلك . فالسيد متمسك بكلام استاذه لايحيد عنه . وقد لحظت منه صبراً قل أن يوجد في غيره من الرجال وعزماً شديداً تلوح سيماؤه على وجهه ، فبينا هو في تقواه من الابدال ، اذا هو في شجاعته من الأبطال . وقد بلغني أنه كان في حرب طرابلس يشهد كثيراً من الوقائع بنفسه ، ويمتطي جواده بضع عشرة ساعة على التوالي بدون كلال ، وكثيراً ما كان يغامر بنفسه ولا يقتدي بالأمراء وقواد الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية ، أن لا تصل اليهم يد العدو فيما لو وقعت هزيمة . وفي احدى المرار أوشك أن يقع في أيدي الطليان ، وشاع أنهم أخذوه اسيراً . وقد سألته عن تلك الواقعة فحكى لي خبرها بتفاصيله ، وهو أنه كان ببرقة فبلغ الطليان بواسطة الجواسيس أن السيد في قلة من المجاهدين ، وغير بعيد عن جيش الطليان ، فسرحوا اليه قوة عدة آلاف ومعها كهرباة (سيارة كهربائية) خاصة لركوبه . اذ كان اعتقادهم أنه لا يفلت من أيديهم تلك المرة . فبلغه خبر زحفهم ، وكان يمكنه أن يحجم عن اللقاء أو أن يتحرف بنفسه الى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر ، أو يترك الحرب للعرب تصادمهم فلم يفعل . وقال لي « خفت اني اذ طلبت النجاة بنفسي ، أصاب المجاهدين الوهل ، فدارت عليهم الدائرة ، فثبت للطليان وهم بضعة آلاف بثلثمائة مقاتل لاغير ، واستمات العرب ، وصدموا العدو ، فلما رأى هؤلاء وفرة من وقع من القتلى والجرحى ، ارتدوا على اعقابهم ، وخلصنا نحن الى جهة وافتنا فيها جموع المجاهدين . » قال لي : « وفي هذه الوقعة جرح الضابط نجيب الحوراني ، الذي كان من اشجع أبطال الحرب الطرابلسية ، كان قائداً ولكنه كان يغامس بنفسه في كل واقعة ، فجرح مرتين واستشهد في الثالثة رحمه الله . ولم يحزن السيد على أحد حزنه عليه ، لباهر شجاعته وشديد اخلاصه . وكان السيد يكتب لي من الجبل الاخضر وافر الثناء عليه ، وهو اليوم دائم الترحيم عليه . والشهيد المذكور هو نجيب بك بن الشيخ سعد العلي ، من مشايخ بلاد عجلون ، ترك في بلاد الغرب ذكراً خالداً .

والسيد أحمد الشريف سريع الخاطر ، سيال القلم ، لا يمل الكتابة أصلاً . وله عدة كتب منها كتاب كبير أطلعني عليه في تاريخ السادة السنوسية ، واخبار الاعيان من مريديهم والمتصلين بهم ، ينوي طبعه ونشره فيكون أحسن كتاب لمعرفة اخبار السنوسيين : وانما يفهم الانسان من مطالعة اخبار سيدي محمد السنوسي ، وولده سيدي المهدي ، ومحادثة سيدي أحمد الشريف ، ان طريقتهم طريقة عملية ، تعمل بالكتاب والسنة ، ولا تكتفي بالاذكار والاوراد ، دون القيام بعزائم الاسلام ، كما كان عليه الصدر الاول . ولذلك وقفوا للجهاد ووقفوا في وجه دولة عظيمة كدولة ايطالية ، منذ ثلاث عشرة سنة ، لولاهم كانت سيدة لطرابلس وبرقة منذ أول شهر من غارتها عليهما . ويذكر الناس ان الطليان قدروا لتدويخ

طرابلس وبرقة كلها مدة خمسة عشر يوماً ، من أول نزولهم . وان قواداً من الانكليز المحنكين في حروب المستعمرات والبوادي ، قالوا ان الطليان أفرطوا في التفاؤل بظنهم الاستيلاء على برطرابلس في ١٥ يوماً ، والحقيقة انه قد تأخذ هذه المسئلة معهم ثلاثة أشهر . . . فلينظر الانسان كيف أن المدة التي قدرها اركان الحرب في ايطالية ١٥ يوماً وقدرها اركان الحرب في انكلترة ثلاثة اشهر ، تطاولت ثلاث عشرة سنة كاملة ، والحرب اليوم هي كما كانت في بدايتها ، وكل هذا بفضل السادة السنوسية ، ولا سيما هذا السيد العظيم سيدي أحمد الشريف . وكان الاوربيون في عهد السلطان عبد الحميد يشكون الى السلطان حركة السنوسي ، ويتوجسون خيفة من تشكيلاته وحركاته ويرون فيه أعظم خصم للدعوة الاوربية في افريقية ، وطالما ضغطت دول اوربا على السلطان ، لاجل ان يستدعي سيدي المهدي الى الاستانة ، ويأمره بالاقامة بها ، ولا يأذن له بالعودة الى وطنه ، ليخلو للاوربيين الجو في تقسيم أواسط أفريقية ، وخضد الشوكة الاسلامية في تلك الديار . فكان السلطان يماطل هاتيك الدول ، ويعتذر لهم بصنوف الاعذار ، بل كان يلاطف السنوسي كثيرا بالهدايا والكتابات ، الى ان اشتد الضغط على السلطان في قضية السنوسي ، فارسل رجلاً اسمه عصمت بك الى بنغازي ، ومنها الى جغبوب ، بمأمورية سرية ، فبلغ المهدي ما هو عليه السلطان من الارتباك من جهة ضغط الدول عليه في أمر الدعاية السنوسية ، فاجابه السيد المهدي بحسب ما قرأت في التاريخ الذي تقدم ذكره ، بكلام لا يتضمن نفيا ولا ايجابا ، وانما تلا له آيات كريمة في معنى الاتكال على الله ولكن السيد المهدي لم يلبث بعدها ان فارق جغبوب الى واحة الكفرة ، وفي فيها زاوية التاج ، وعمر الكفرة عمارة جعلتها جنة في وسط الصحراء . والاغلب ان سبب تحوله من واحة الجغبوب ، القريبة من مصر وبرقة ، الى واحة الكفرة ، التي هي في أواسط الصحراء الكبرى ، ثم توغله من الكفرة الى ناحية قرو التي اختاره الله فيها ، وهي على أبواب السودان هما من ارتياحه الى العزلة ، وميله الى التنائي عن مراكز السلطة الرسمية ، والخروج من مناطق تأثير الدول الاستعمارية ، بحيث انتبذ مراكز محاطة بالفيافي والقفار ، مأهولة باقوام لا يزالون على الفطرة ، فاصبح حراً في بث دعوته لا تصل اليه يد بضغط ، ولا تعلو فوق كلمته كلمة ، وعكف على تهذيب تلك الاقوام ، ونشأهم في طاعة الله بعد ان كانوا يتسكعون في مهامه الجهل فبدلت به الارض غير الارض ، وانقلبت به اخلاق هاتيك الامم انقلاباً حير العقول . ولم يقف في الدعاية الروحية على واحات الصحراء ، واطراف السوادين ، بل بث دعاته في أواسط افريقية . فكان منهم مثل الشيخ محمد بن عبد الله السني ، والشيخ جوده القماوي ، والسيد طاهر الدعماري . ورجالات آخرون جابوا السوادين مبشرين وهادين ، فكان السيد المهدي هو المزاحم الاكبر لجمعيات المبشرين الاوربية ، المنبثة في قارة أفريقية كلها ، وعلى يده وبسبب دعايته الحثيثة اهتدى للاسلام ملايين من الزنوج ، فلهذا جمعيات المبشرين باسرها تشكو عزتها ، وبثها من نجاح الاسلام في أواسط أفريقية ، مثل بلاد النيجر ، والكونغو ، والكامرون ، وديار بحيرة تشاد ، وتوجهاً أكثر شكواها الى الطريقة السنوسية ، كما طالعنا ذلك في مؤلفات أوربية عديدة هذا من جهة القوة الروحية واما من جهة القوة المادية ، فقد كان السيد المهدي يهدي هدي الصحابة والتابعين ، لا يقتنع بالعبادة دون العمل ، ويعلم ان احكام القرآن محتاجة الى السلطان ،

فكان يحث اخوانه ومريديه دائماً على الفراسة ، والرماية ، ويبث فيهم روح الانفة والنشاط ، ويحملهم على الطراد والجلاد ، ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد ، وقد أمر غراس وعظه في مواقع كثيرة ، لاسيما في الحرب الطرابلسية التي أثبت بها السنوسية ان لديهم قوة مادية تضارع قوة الدول الكبرى وتصارع أعظمها جبروتاً وكبرا ، وليست الحرب الطرابلسية وحدها هي التي كانت مظهر بطش السنوسيين بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيس في مملكة كانم ومملكة واداي من السودان استمرت من سنة ١٣١٩ الى سنة ١٣٣٢ هجرية ، وحدثني السيد أحمد الشريف ان عمه المهدي ، كان عنده خمسون بندقية خاصة به ، وكان يتعاهدها بالمسح والتنظيف بيده ، لا يرضى ان يمسحها له أحد من اتباعه المعدودين بالمئات ، قصدا وعمدا ليقتدي به الناس ويحتفلوا بأمر الجهاد ، وعدته وعتاده . وكان نهار الجمعة يوما خاصا بالتمرينات الحربية ، من طراد ورماية ، وما أشبه ذلك . فكان يجلس السيد في مرقب عال ، والفرسان تنقسم صفين . ويبدأ الطراد ، فلا ينتهي الا في آخر النهار . واحياناً يضعون هدفاً ، ويأخذون بالرماية حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرساناً ورماة ، لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المران . وكان يجيز الذين يسبقون في الطراد أو يقرطسون في الرمي بجوائز ذات قيمة ، ترغيباً لهم في فضائل الحرب . كما انه كان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصاً عندهم للشغل بالايدي ، فيتركون في ذلك اليوم الدروس كلها ، ويشتغلون بانواع المهن من بناء ، ونجارة ، وحدادة ، ونساجة ، وصحافة ، وغير ذلك ، لا تجد منهم ذلك اليوم الا عاملا بيده . والسيد المهدي نفسه يعمل بيده لا يفتر حتى يلبه فيهم روح النشاط للعمل . وكان السيد المهدي ، وأبوه من قبله ، يهتمان جد الاهتمام بالزراعة ، والغرس . تستدل على ذلك من الزوايا التي شادوها ، والجنان التي أسقوها بجوارها ، فلا تجد زاوية الا لها بستان أو بساتين ، وكانوا يستجلبون أصناف الاشجار الغريبة الى بلادهم من أقاصي البلدان ، وقد أدخلوا في الكفرة وجغبوب زراعات وأغراساً لم يكن لأحد هناك عهد بها . وكان بعض الطلبة يلتمسون من السيد محمد السنوسي ان يعلمهم الكيمياء فيقول لهم : « الكيمياء تحت سكة المحراث » . واحياناً يقول لهم : « الكيمياء هي كد اليمين وعرق الجبين » . وكان يشوق الطلبة والمريدين الى القيام على الحرف والصناعات ، ويقول لهم جملاً تطيب خواطرهم ، وتزيد رغبتهم في حرفهم ، حتى لايزدروا بها أو يظنوا ان طبقتهم هي أدنى من طبقة العلماء ، فكان يقول لهم : « يكفيكم من الدين حسن النية ، والقيام بالفرائض الشرعية ، وليس غيركم بافضل منكم » . واحيانا يدمج نفسه بين أهل الحرف ، ويقول لهم وهو يشتغل معهم : « يظن أهل الاوريقات والسبيحات انهم يسبقوننا عند الله لا والله ما يسبقوننا » . يريد بأهل الاوريقات العلماء وبأهل السبيحات العابدين والقانتين . فكأنه يريد ان يقول للمحترفين والصناع لا تظنوا انكم دون العلماء والزهاد مقاما ، بمجرد كونكم صناعا وعملة ، وكونهم هم علماء وقراء . هذا ليزيدهم رغبة وشوقا ، ويعلم الناس حرمة الصناعة التي لا مدنية الا بها .

هذه الفرقة فرقة عملية لا تعتمد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل والسعي . فهي تجمع بين العمل الشرعي بحذافيره ، والتجرد الصوفي الى أقصى درجاته ، وتنظم بين الظاهر والباطن ، نظما لم يوفق اليه غيرها . ويظهر ان مؤسس هذه الطريقة السيد محمد بن علي بن السنوسي ،

ولا شيء أدل على هذه النهضة ، الاسلامية الحديثة الكبرى ، من هذه اليقظة الروحانية الدينية التبشيرية، الناشئة والمنتشرة خلال مئة السنة الاخيرة

وولديه السيد المهدي ، والسيد الشريف ، وكبار اعوانهم مثل سيدي أحمد الريفي ، وسيدي عمران بن بركة ، وسيدي أحمد التواتي ، وسيدي عبد الرحيم بن أحمد ، وسيدي عبد الله السني ، وسيدي أبي القاسم العيساوي ، وغيرهم كانوا على اخلاق عظيمة ، ومدارك سامية ، تدل عليها اقوالهم واعمالهم ، حدثني سيدي أحمد الشريف ان عمه الاستاذ المهدي كان يقول له : « لا تحقرن أحدا ، لا مسلما ولا نصرانيا ولا يهوديا ولا كافرا ، لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك. اذ أنت لا تدري ماذا تكون خاتمته . وبمثل هذه الآداب كانوا يأخذون اولادهم ومريديهم ، فكان من هؤلاء اقطاب وابطال ، يتجمل التاريخ بذكرهم . وواسطة عقدهم اليوم هو السيد أحمد الشريف الذي نحن في ترجمته .

وقد ذرف السيد المشار اليه على الخمسين ولكن هيئته لاتدل على وصوله الى هذه السن ، لندورة الشيب في شعره، وهو رائع المنظر ، بهي الطلعة ، عبل الجسم ، قوي البنية ، لا يمكن ان يراه أحد بدون ان يجله ويحترمه .]]

بقي علينا شيء لابد من الاشارة اليه وهو ان الذين يقرأون هذه السيرة من الناشئة الجديدة يرون فيها ما لا يوافق مشربهم ، من القول بالولايات والكرامات، والاعتقاد بالكشف، وبما فوق الطبيعة ، مما يرونه حديثا ماضيا ، لا يليق بالتربية العصرية التي ينبغي ان تكون مبنية على محض الحقائق الفنية . وقلما يعظم في أعين هذه الناشئة رجل ينطوي على هذه العقائد ، مهما كان عظيما ، بل قصارى ماهنالك انهم يحترمونه لحسن نيته وخلوص اعتقاده لاغير .

واني أحب أن أجاوب هذه الطبقة التي قد توجه مثل هذا الانتقاد الى هذا المقام بأن العالم المتمدن لا يزال حتى هذه الساعة منقسما الى فريقين : روحي ومادي ، وان الفريق الروحي هو أكبر جدا وأحصى عددا من الفريق المادي ، بل يوجد في أوروبا وأميركا واليابان عدد لا يحصى من فحول علماء الطبيعة ، يعتقدون بوجود العالم الروحي ، وآخرون يعترفون بأن مشكل الروح لم ينحل بعد ولا اكتنه سر الروح واتصالها بالجسد أحد ، واذا رأينا أناسا مثل فلاماريون الفلكي الشهير وفيكتور هوغو أكبر شعراء الفرنسيس ، وسواهما من عصابة العلماء ، يعتقدون باستحضار الارواح ويشهدون بوقوع المحاورات بينهم وبين الاموات، وعرفنا أن جمعيات لا تعد ولا تحصى في أوروبا مؤلفة خاصة للمباحث الروحية ، واثبات الحوادث التي لا تعلل الا بوجود شيء وراء المادة ، لم يحق لنا أن نعجب من اعتقاد بعض العظماء بالخوارق والكرامات والمناسبات الروحية . واذا علمنا أن رجالا مثل باستور بمكانه من العلم والاكتشافات الكيماوية التي لم يسبق اليها أحد ورجالا مثل غلادسطون في الشهرة وبتوقد الذهن كانوا من أشد الناس تمسكا بالدين ومن الموقنين بأن السيد المسيح اله وانسان معاً ، ظهر لنا أن الالحاد التام أو الرفض للاعتقاد بكل ما هو خارج عن المادة ، ليسا بشرط في علو درجة العقل ، ولا بدليل على التبحر في العلم . وما أوتيتم من العلم الا قليلا . (ش)

ولا غرابة في ذلك فقد كان الاسلام على الدوام دين هداية الناس واخراجهم من ظلمات الشرك الى نور التوحيد . هذا التاريخ شاهد حق على ما قام به المبشرون المسلمون في أول عهد الاسلام من الاعمال الجليلة التي لم يقم بمثلها غيرهم من المبشرين . ولا ننسى ان روح التبشير ونشر الدعوة في سبيل الرسالة لم تبرح حية على الدوام ، على انحطاط الممالك الاسلامية وتدليها . فلذلك ما انفك الاسلام طيلة القرون الوسطى ينتشر في الهند والصين[1] ، وبينما كانت الرسالة المحمدية تنتشر في نائي تلك الاصقاع ، كان الترك ينشرونها ويرفعون اعلامها في شبه جزيرة البلقان . وبين القرنين الرابع عشر والسادس عشر ، كان المبشرون المسلمون يفتحون بلاد غربي أفريقية[2] ، وجزائر الهند الهولندية ، وجزائر الفيلبين ، فتحاً دينياً مبيناً . غير انه في القرن الثامن عشر ، أمسى العالم الاسلامي مرتدياً رداء الخمول ، ففترت وبردت حرارة المبشرين المسلمين ، وسكنت تلك الروح الثائرة الجوابة .

ولبث الاسلام هكذا ، حتى تباشير اليقظة الحديثة ، فعادت تلك الشرارات الكامنة في الرماد تستطير ، وما هي الا فترة يسيرة حتى اشتعلت نار التبشير ثانياً ، فأخذ الاسلام يجوز حدوده ويبثّ في كل صقع من اصقاع العالم الاسلامي ما عدا أوروبة . وعند اعتبار شأن انتشار الاسلام هذا الانتشار ، يجب ان نعلم العلم اليقين ان كلّ مسلم هو بغريزته وفطرته مبشر بدينه ، ناشر له بين الشعوب غير المسلمة ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وعلى ذلك ان نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم ولا قصر الأمر عليهم دون سواهم ، هكذا ، بل شاركهم فيه جماعات ، عديد من السياح والتجار والحجاج ، على اختلاف الاجناس . ولا يؤخذن من هذا انه لم يقم في المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الحمام في سبيل الدعوة الاسلامية ، فعديد المبشرين الذين هم

(١) اقرأ التعليق الوارد في آخر هذا الفصل على الاسلام في الصين ـ « المعرب »
(٢) اقرأ التعليق الوارد في آخر هذا الفصل على الاسلام في افريقية ـ « المعرب »

على هذا الطراز كثير ، وذلك ظاهر بين في أمر الطرق الدينية ممالا يحتاج الى برهان ، بل أي دليل أقطع من المبشرين السنوسيين ، الحرس الغيُر ، الذين خرّجتهم زوايا الصحراء وهم يعدون بالالوف المؤلفه ، وما انفكوا يجوبون كل بلاد وثنية مبشرين بالوحدانية ، داعين الى الاسلام . وهذه الاعمال التي قام بها المبشرون المسلمون في غربي افريقية واوسطها خلال القرن التاسع عشر الى اليوم لعجيبة من العجائب الكبرى ، وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر ، فقد قال أحد الانكليز في هذا الصدد منذ عشرين سنة : « ان الاسلام ليفوز في أواسط أفريقية فوزاً عظيماً ، حيث الوثنية تختفي من امامه اختفاء الظلام من فلق الصباح ، وحيث الدعوة النصرانية باتت كانها خرافة من الخرافات » . وقال مبشر بروتستنتي فرنسي : « ما برح الاسلام يسير اليقدمية منذ نشوئه حتى اليوم ، فلم يعثر في سبيله الا القليل ، وما زال يسير في جهات الأرض حتى بلغ قلب أفريقية مذللا اشق المصاعب ومجتازاً أشد الصعاب ، غير واهن العزم . فالاسلام حقاً لايرهب في سبيله شيئاً ، وهو لاينظر الى النصرانية ، منازعته الشديدة ، نظرة المقت والازدراء ، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر ، اذ بينما كان النصارى يحلمون بفتح افريقية في نومهم ، فتح المسلمون جميع بقاع القارّة في يقظتهم (١) »

واما السبيل الذي يسير فيه الاسلام جنوباً في افريقية فهو من الرائع الغريب . منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الانكليزية ، على غير ما توقع ، على ان المبشرين المسلمين يخترقون « نياسلندة » دعاة الى الرسالة المحمدية ، وبعد البحث والاستقصاء واذكاء العيون ، وجدت تلك الحكومة ان المبشرين انما هم من عرب زنجبار ، قد بدأوا عملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠ ،

(١) الاطلاع على مجاهيد التبشير الاسلامي في افريقية اقرأ : —

ج . بونه موري — كتابه « الاسلام والنصرانية في افريقية (باريس ١٩٠٦)

G. Bonet Maury. " L' Islamisme et le christianisme en Afrique „

وانه بعد مضيّ عقد من السنين على شروعهم في جهاد التبشير ، كانت كل قرية في جنوب « نياسلندة » قد اسلمت وفيها مسجد ومدرسة اسلامية ومعلمون مسلمون . ومع ان هذه الدعوة كانت ، كما هو ظاهر من أمرها ، وسيلة شديدة لتضعضع سلطة المستعمرين وسيطرتهم ، فلم تجسر الحكومة الانكليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها في الاقطار الأخرى. ويقول بعض المفكرين الغربيين في هذا العصر ، انه لن يمضي مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الاسلام قد اجتاز « زمبازي » وانتشر في جنوب افريقيـة انتشاراً عاماً ، فيطبق القارة بأسرها .

وليس ظفر الاسلام في افريقية مقصوراً على الوثنيـة فحسبُ ، بل على النصرانية الافريقية كذلك ، اذ ترى الآن الذين تنصروا في غرب افريقية على يد المبشرين الفرنجة يتناقصون عدداً تناقصاً فاحشاً ، وذلك لارتداد غالبهم عن النصرانية ودخولهم في الاسلام . زد على ذلك ان النصرانية في الحبشة ، انما باتت في خطر شديد من جراء سيول الاسلام الطامية ، من بعد ما كانت فيما مضى سداً منيعاً في وجـه الاسلام . والغريب في هذا كل الغرابة ان الأحباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون في الاسلام افواجاً متلاحقة ، لا على يد فتوح حربية ، بل فتوح سلمية دينية . وقد قال أحد الثقات الغربيين حديثاً : « منذ خمسين الى ستين سنة خلت ، كنتَ ترى قبائل الأحباش العديدة ، لا يكاد يرى فيها مسلم واحـد ، أما اليوم فغالب هذه القبائل هم مسلمون مؤمنون بالرسالة المحمدية . »

وربما كان ظفر الاسلام في افريقية اليوم اعظم ظفر لاقاه المبشرون المسلمون حديثاً ، بيد ان هذا ليس جميع الظفر الاسلامي بل هناك غيره مثله في سائر انحاء العالم . وقـد أتينا في الفصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الاحرار السياسية في بلاد التتر الروسية ، بحيث بقي علينا الكلام على النهضة الدينية العجيبة التي رافقت تلك اليقظة التترية . كان التتر ما برحوا منذ عهد

بعيد في الحكم الروسيّ ، وقد جهدت الكنيسة الارثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتنصيرهم ، فادركت في بعض المواضع بعض النجاح الذي لا يذكر ، غير انه لما انتشرت اليقظة الاسلامية العامة ، ووصل ما وصل منها الى بلاد التتر في أوائل القرن التاسع عشر ، هب التتر للحال يستردون اخوانهم المتنصرين الى الاسلام ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فانتحلوا دين الرسالة ، على جميع ما بذلته الكنيسة الارثوذكسية من العناء الاشقّ ، ولجأت اليه من مختلف الذرائع والوسائل ، لتحول دون ذلك ، فلم تلق شيئاً من النجح ، بالرغم مما اتخذته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب ، ووسائل القهر والاكراه [١] . على ان المبشرين المسلمين التتر لم يقصروا أمرهم على هذا ، بل شرعوا في نشر الاسلام في القبائل التركية الفنلندية الأُمية ، المقيمة في الشمال من بلاد التتر ، غير مبالين بمقاومة حكام الروس لهم ولو لاقوا من وراء ذلك من الهول ما لاقوا .

وكانت النهضة الاسلامية في الصين عجيبة لا مثيل لها ، فيقتضي الحال ان نبسط كلمة في شأنها . كان بلوغ الاسلام الصين منذ عهد بعيد ، على يد التجار العرب وكتائب جنود عربيـة مرتزقة . فصار على توالي الايام يختلط العرب الغرباء بالصينيين تزاوجاً وتعاوناً في أمر المعايش وغير ذلك ، بيد انه على جميع هذه القرون التي كرّت حتى اليوم ، لم يبرح المسلمون الصينيون يتميزون عمن سواهم تميزاً حافظاً لأُناسهم العربية التي يختلفون بها ميولا واخلاقاً عن عامة الصينيين اختلافاً بعيداً ، وهم أبداً يدّعون لنفوسهم ميزة الشرف والعلوّ على غيرهم من السكان ، اما موطنهم ففي مقاطعات « يناني » الجنوبيـة وما يليها من المقاطعات الداخلية ، وهناك بلاد مسلمة في الصين غـير هذه ، هي بلاد تركستان الشرقيـة التي فتحتها الصين في القرن الثامن عشر ، وأهلها مسلمون

(١) اقرأ التعليق الوارد في آخر هـذا الفصل، على المسلمين في بلاد الروسية في عهد البلاشفة ــ « المعرب »

متسلسلون نسباً من العروق التركية القديمة. وقد ظلّ المسلمون الصينيون جميعاً على اختلاف اجناسهم يعاملون معاملة الحسنى والرفق ، حتى العهد الأخير ، اذ طفقوا يشمخون بانوفهم نخراً وكبرياء ، فأقلق ذلك الحكومة الصينية ، فانقلبت عن الاحسان الى الاساءة اليهم واضطهادهم . لكن لما أخذت اليقظة الاسلامية العامة تجوب آفاق العالم الاسلامي بانتشارها المطبق في القرن التاسع عشر ، فبلغت الصين كما بلغت غيرها ، هب المسلمون الصينيون هبة الذعر ، فهاجت فيهم النعرة الدينية الاسلامية ، فأخذوا يوقدون الثورة تلو الاخرى ، حتى كانت الثورة الكبرى المشبوبة نارها سنة ١٨٧٠ في « يناف » وتركستان الشرقية ، فأظهر هؤلاء المسلمون من شدة الاستبسال والمغامرة في القتال مالم يسمع بمثله من قبل. وقام في تركستان زعيم كبير ، وقائد مجرب ، هو يعقوب بك ، فاستطاع هذا الزعيم المقدام ان يجعل تركستان و « يناف » بلاداً مستقلة استقلالا محميّ السياج عدة سنوات ، فكان يخيل الى الكثير من رجال الذهن في الغرب عهدئذ ، ان الثوّار لمتحدون جميعاً اتحاداً منيعاً وثيقاً ، ومنشئون دولة اسلامية ثابتة الاركان في الصين الغربية ، ثم شارعون يفتحون المملكة الصينية رقعة رقعة . وقد اشتهر يعقوب بك اشتهاراً بعيداً ، فذاع اسمه وذكره في جميع العالم الاسلامي . وقد أعجب به السلطان العثماني وعظم بأسه وحنكته ، فانعم عليه بلقب « أمير المؤمنين » في تلك الديار . وبعد ان طال القتال شديداً عدة سنوات وكثر وقوع المذابح الهائلة ، استطاعت الحكومة الصينية ان تخضد شوكة الثائرين ، ولكن بعد أن جلت خسائر المسلمين في النفوس ، اذ ما برحوا حتى اليوم في قوتهم دون ما كانوا عليه من قبل . واما من حيث حالتهم الروحانية والأدبية فما زالوا يشتملون في نفوسهم على صفات ومزايا من اباء الضيم وعياف الذل ، قلما اشتمل على مثلها سواهم . واما عددهم اليوم فيبلغ أكثر من ١٠٠٠٠٠٠٠ . وعلى هذا يجب ألا يندّ عن البال ان المسلمين في الصين بالغون من الشأن في عالم اسلام الغد مبلغاً عظيما وصائرون

الى شأن كبير .

ولو شئنا التوسع في الكلام على النهضة الاسلامية العامة حتى يتناول جميع فروعها في القرن الماضي ، لاستغرق ذلك الاسفار الضخام ، ففي الهند ما برح الاسلام ينتشر انتشاراً متوالياً ، وكذلك في جزائر الهند الهولندية . اما الدول الغربية الاستعمارية فانها لا تستطيع غير ان تدع هذا الانتشار الاسلامي وشأنه ، دون ان تحاول الوقوف في وجهه أو صد تياره ، والسبب في ذلك ان المسلم اليوم قد ألف الانتفاع من المستحدثات الغربية كالقطر الحديدية والبرد والمطابع في سبيل نشر الدعوة الاسلامية ، وفي ذلك من المنافع الاقتصادية التي تجتنيها هذه الدول مما لا يخفى على أحد .

واذ بلغنا الى هذا الموضع في الكلام على الأس الاول للجامعة الاسلامية ، ننتقل للكلام على الأس الآخر ، وهو الدعوة الكبرى التي قام بها جمال الدين الافغاني وقد عرفت به من بعده .

ولد السيد جمال الدين الافغاني في مطلع القرن التاسع عشر في « أسعد آباد » بالقرب من همذان في بلاد فارس . وهو أفغاني الأرومة لا فارسي ، يتحدر نسباً ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من العترة النبوية الطاهرة ، ويجري في عروقه الدم العربي البحت الكريم .

كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الدهاة ، دامغ الحجة ، قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأن في ناسوته اسرار المغنطيسية . فلهذا كان المنهاج الذي نهجه عظيماً . وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المنزلة في المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواه . وكان سائحاً جوّاباً ، طاف العالم الاسلامي قطراً قطراً ، وجال غربي أوروبة بلداً بلداً ، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع في سير العالم والأمم ، علماً راسخاً ، واكتنه اسراراً خفية ، واستبطن غوامض كثيرة ، فأعانه ذلك عوناً كبيراً على القيام بجلائل

الأعمال التي قام بها . وكان جمال الدين بعامل سجيته وطبعه وخلقه ، داعياً مسلماً كبيراً ، فكأنه على وفور استعداده ومواهبه انما خلقه الله في المسلمين لنشر الدعوة فحسب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الاقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين الا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لا تخبو نارها ولا يتبدد أوارها . وكان يختلف عن السنوسي منهاجاً ، فجمال انكب على السياسية وشؤونها ، وذاك على علوم الدين وترقيتها . غير أن السيد جمال الدين الافغاني كان أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الاسلامي ، وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدها وامتدت حياتها ، ورسخت في تربة الشرق ، وأدرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى ، اذا لبث الشرق الاسلامي على حال مثل حاله التي كان عليها . فهب جمال يضحي نفسه ويفني حياته في سبيل ايقاظ العالم الاسلامي ، وإنذاره بسوء العقبى ، ويدعوه الى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير . فلما اشتهر شأن جمال خشيت الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له ألف حساب ، فنفته بحجة أنه هائج المسلمين ، ولم تخف دولة جمالا وتضطهده مثل ما خافته واضطهدته الدولة البريطانية ، فسجنته في الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه فجاء الى مصر حوالي سنة ١٨٨٠ وكانت له يد في الثورة العرابية التي أوقدت نارها في وجه الغربيين ، فلما احتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ نفوا جمالاً للحال ، فزايل مصر وأنشأ يسيح في مختلف البلدان حتى وصل الى القسطنطينية ، فتلقاه عبد الحميد بطل الجامعة الاسلامية بالمبرة والكرامه ، وقربه منه ورفع منزلته ، فسحر جمال السلطان الداهية بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة فقلده السلطان رياسه العمل في سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية . ويغلب أن ما ناله السلطان عبد الحميد من النجاح في سياسته في سبيل الجامعة الاسلامية ، انما كان على يد جمال الدين المتوقد الهمة المشتعل العزم . والتحق جمال الدين

بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخاً وعاملا كبيراً في سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الاخير من أنفاسه .

وهاك ملخص تعاليم جمال الدين : —

« العالم النصراني ، على اختلاف أممه وشعوبه عرقاً وجنسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللاسلام على الخصوص . فجميع الدول النصرانية متحدة معاً على دك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

« الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كمون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية مستلجة في قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها ، متغلغلا في أحشائها ، ومتمشياً في كل عرق من عروقها ، وهي أبداً ناظرة الى الاسلام نظرة العداء ، والحقد ، والتعصب الديني الممقوت [1] . وحقيقة هذا الامر ونتيجته واقعتان في كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الامم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية .

« تنتحل الدول النصرانية اعذاراً لها في كرّها وهجومها وعدوانها على الممالك الاسلامية واذلالها واكراهها ، بقولها ان الممالك الاسلامية هذه انما هي من الانحطاط والتدلي بحيث لا تستطيع أن تكون قوّامة على شؤون نفسها بنفسها . وفوق جميع هـذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية ، وتتذرع بألوف الذرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار ، للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الاصلاح والنهضة .

« جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداء الاسلام ، وروح هذا

(١) اقرأ التعليق الخطير الشأن ، الوارد في آخر هذا الفصل رداً على مقالة « الاسلام والجنود السوداء » لكاتبها روجر لوبون في « مجلة باريز » عدد ابريل ١٩٢٣ .. «المعرب»

العداء متمثلة بجهد جميع هـذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الاسلام سحقاً .

« تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم وآماله ورغباته التي تجول في صدره ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء . فان ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق تعصباً مذموماً محرماً ، هو عندهم في بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسـة ، والوطنية المعبودة ، وان ما يدعونه عندهم في الغرب اباءة النفس ، والشمم ، والشرف الوطني ، والعزة القومية ، يعدونه في الشرق غلواً مكروهاً ، وافراطاً في حب الوطن ضاراً ، ومقتاً وشنأة للاجنبي الغربي » .(١)

« جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامي يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الاطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول الى هذه الغاية الـكبرى انما يجب عليه اكتناه اسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته (٢) »

هذه دعوة جمال الدين على الايجاز ، التي أفنى حياته في سبيل نشرها بالبلاغة الساحرة والحجج الدامغة ، فـكانت كالغيث الجود أصاب التربة الجدباء . ولا عجب أن يكون جمال الدين ذلك الرجل الموقظ الـكبير ، وتكون كل نسمة

(١) منقول من مقال بتوقيع « X » موسوم ب « الجامعة الاسلامية والجامعة التركية » نشر في مجلة « العالم الاسـلامي » مارس ١٩١٣ ويقول كاتبه انه قد استقاه من مسـلم ثقة كبير المنزلة والشأن .

"X" " Le Pan - Islamisme et la pan - Turquisme" - Revue du Monde musulman.

ومن أراد التوسع في الاطلاع على أعمال جمال الدين فليقف على كتاب « العصبية الجنسية الاسلامية » لسرفيه .

(٢) اقرأ التعليق الوارد في آخر هـذا الفصل على السيد جمال الدين الافغاني حكيم الشرق . (المعرب)

تفخها في المسلمين عاصفة زعزعاً ، وقد بات اعتداء الدول الفرنجية وعدوانها وبغيها منتشراً في كل قطر من اقطار العالم الاسلامي ، فتفاقم الخطب واشتد البلاء . على أن جمالا ماكان يقوم بجميع هذا وحده ، بل كان غيره أيضاً من قادة المسلمين لم يبرحوا منذ منتصف القرن التاسع عشر يبثون الدعوة في سبيل الجامعة الاسلامية ، وأحد هؤلاء الدعاة العظماء هو عالي باشا التركي الكبير ، الذي يؤثر عنه قوله : « ما يحتاج اليه المسلمون الاحتياج الأشد انما هو ازدياد النعرة الدينية فيهم ، لا تناقصها فاضمحلالها » . وقد أثر هذا القول عنه ارمينيوس ڤامبيري ، المستشرق الهنغاري الكبير ، والعلامة المشهور ، وذلك بعيد حرب القريم ، وكان هو قد شهد بنفسه مجلساً من مجالس الجامعة الاسلامية في منزل عالي باشا ، حضره رسل ووفود ونواب من جميع أقطار العالم الاسلامي .

على مثل هذه الاسس بنى السلطان عبد الحميد بناء الجامعة الاسلامية وشيد أركانها ، وأضاف اليها كل مطمع بعيد وغاية جليلة . فعبد الحميد في الواقع داهية من أعاظم دهاة العصر الحديث ، وسياسي في منتهى الحصافة ، غير انه على كل هذا كان ذا أطوار خلقية عجيبة تقضي به وساوسه أحياناً الى حد اللمم .

فقد اختط الخطط الكبرى لتحقيق مشروعاته العظمى ، ثم طفق يسعى وراء ذلك بتنوع الوسائل سعياً وان كان قائماً معظمه على شدة الحذق والدهاء فانه لم يخل في بعض المواضع من ضروب العبث وكان سلطاناً مستبداً طبعاً وسجية ، ظنين السوء بما له ، مولعاً بأن تكون صغائر الشؤون وعظائمها معلقة على ارادته النافذة . وفوق جميع هذا ، فقد كثر من حوله الوشاة والمداهنون الذين وقفوا على سريرته وعرفوا مشربه ، فجعلوا يحسنون له اهواءه ويجارونه مع محض رغباته .

وكان ارتقاؤه الى العرش سنة ١٨٧٦ في آن شديد عصيب ، فقد كانت

الدولة على ابواب الحرب العثمانية الروسية ، وكانت الحكومة في ايدي عصبة من الساسة يسعون سعي المصلحين في تجديدها على الطراز الحديث ، والنهج بها على المناهج السياسية الدستورية الغربيـة . فلما أخذ عبد الحميد بأزمة الأمور نقض جميع ذلك نقضاً ، واهتبل سانحة تضعضع الدولة عند الخروج من الحرب الروسية ، فالغى مجلس النواب وجعل نفسه السلطان المطلق لا تعلو يدَه يد ، له الأمر والنهي وحده . ولما استوثق له الأمر ، شرع يقوم بسياسته الخاصة التي نحا بها منذ أول الأمر منحى الجامعة الاسلامية . [1] فعقد عزمه على أمر لم يعقد عزمه على مثله أحد من اسلافه الأقربين ، وهو التذرع بالخلافة لبلوغ اغراض سياسية عظيمة ، واذ أبان للملأ كافة ، انه فوق كونه سلطان الدولة العثمانية ورئيسها السياسي الوحيد ، فهو الخليفة الديني للمسلمين أجمعين ، أخذ يستصرخ الأمم الاسلامية في كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي لتمد يد العون اليه ، وتشد أزره بالالتفاف من حوله ، قاصداً بذلك قذف الرعب في روع الدول الغربية التي خالها ربما كانت تأتمر فيما بينها وتتشاور ، وتتخذ الوسائل وتقوم بالتدبيرات ، للانقضاض على المملكة العثمانية. وكان منذ عهد بعيد يدبر أمر نشر الدعوة للجامعة الاسلامية تدبيراً نائي المضطرب واسع النطاق ، غالبه بالوسائل الخفية الهائلة. فغدت القسطنطينية مكة ثانية ، يلوذ بها جميع ذادة الاسلام المشتهرين باعمال المقاومة للدول الغربية ، مثل جمال الدين وانداده [2] ، ومن القسطنطينية صارت توفد الوفود ...

(١) كان الكاتب الفرنسي المشهور غبريال شارم اول من استشف سياسة عبد الحميد وغايته ومقصده في الدعوة للجامعة الاسلامية ، بجمل نشر الفصول الممتعة في هذا الصدد منذ سنة ١٨٨١ ، وفي سنة ١٨٨٣ وضع كتابه « مستقبل تركية والجامعة الاسلامية » اودع فيه جميع مارجم بالغيب .

Gabriel Charmes "L'avenir de la Turquie – Le Pan Islamisme „

(٢) جمع السلطان اليه كثيرين من متنفذي العرب وزعمائهم ، ومشايخ الطرق فيهم ، من الحجاز ، والشام ، والعراق ، ونجد ، واليمن ، ومصر ، وطرابلس ، وتونس ، والمغرب ،

وتنفذ الرسل جماعات درا كا الى جميع الاقطار الاسلامية، حاملة رسالة الخليفة، الا وهي رسالة الامل المحقق في النجاة من خطر حكم الفرنجة الكافرين.

وظلت دعوة عبد الحميد للجامعة الاسلامية تسير سيراً متواليا مدة تقرب من ثلاثين سنة. غير انه لمن الصعب الشديد ان يستطاع تحديد المفعول الذي كان لهذه الدعوة الكبرى تحديداً بيناً، والسبب الاكبر في ذلك هو انه لما حدثت ثورة «تركية الفتاة» سنة ١٩٠٨، وخلع عبد الحميد توقف مجرى الدعوة للجامعة الاسلامية وفتر سيرها في المتجه الذي كانت تسير فيه. زد على ذلك ان تركية على عهد عبد الحميد لم تخض غمار حرب بينها وبين دولة غربية من الدول الكبرى، لهذا يتعذر الوقوف وقوفاً صحيحاً على مبلغ ما كانت عليه الامم الاسلامية من الاستعداد والاهبة لاجابة نفير الجهاد. على ان عبد الحميد قد أفلح حقاً في حمل امراء المسلمين وقادتهم على الاعتراف بسلطته الروحانية، فولوا وجوههم شطره وحسبوه قبلة آمال العالم الاسلامي، وقدسوا مقامه تقديساً، وغدا العظماء والكبراء يتقاطرون الى فروق من كل فج من افجاج العالم الاسلامي لمبايعة الخليفة الاعظم امير المؤمنين وحامي بيضة الاسلام، الذي مملكته مملكة حصن الاسلام والمسلمين. ولم يستطع عبد الحميد مع كل هذا أن يستميل اليه قائداً كبيراً من قادة العالم الاسلامي أعني به السيد السنوسي، الذي كان يخامر قلبه الريب في مقاصد السلطان واغراضه البعيدة،

وآخرين من زعماء الأكراد، وآخرين من زعماء الارناووط، لا لزوم لتسميتهم، وأقرهم في الاستانة، وأجرى عليهم الأرزاق كما هو معروف. قال لي أثناء الحرب كبير أولاده الامير محمد سليم افندي: «كان الارناووط في يد والدي يهدد بهم أوستريا وجميع دول البلقان. كما أنه كان يهدد بخيالة الأكراد الروسية بعظمتها كلها، فتحسب للآلايات الحميدية حساباً. وكان يهدد بالعرب الدول الغربية بأسرها، فتظن هذه الدول أنه بالعرب يخلق لها مشكلات لا تنتهي. فالآن أصبحنا، والارناووط قد خرجوا من السلطنة بعد قتال شديد منا. والأكراد بدل أن يجاهدوا أمام الدولة في الروس، صار يلزمنا أن نسوق العساكر لتأديبهم بينما نحن كنا في ملحمة كبرى مع الروس. وأما العرب فبعد أن كانوا عدتنا وسلاحنا لمقاومة الدول الغربية، انقلبوا عوناً للدول الغربية علينا.» انتهى. ومراده بذلك انتقاد سياسة تركيا في السنين الأخيرة. (ش)

وكذلك كان الاحرار في كل مكان يعرضون عن نصرة السلطان لاستبداده الشديد . وعلى الجملة فانه ليس باليسير أن يتيقن هل كانت الامم الاسلامية متأهبة لتلبية دعوة السلطان عبد الحميد للقيام بالجهاد الاسلامي المقدس ، فيما لو كان دعاها يوماً الى ذلك .

وفوق جميع هذا فقد استطاع عبد الحميد أن ينشر الدعوة في سبيل الجامعة الاسلامية الكبرى في اوسع آفاقها ، ويحيي الشعور بالوحدة العامة والتضامن المستمسك بعضه ببعض ، في جميع الامم الاسلامية ، إحياء نشيطاً. ولم يكن يساعده على ذلك كونه خليفة الاسلام فحسب ، بل ما كان يبسطه ويبينه من جميع ما تكنه وتظهره الدول الغربية من انواع العداء ، والمقت للمسلمين والتحامل عليهم . هذا هو السبب الاكبر في أن الدعوة التي انشأها ودبرها عبد الحميد في سبيل الجامعة الاسلامية كان لها من التأثير الشديد في نفوس المسلمين ما برح يزداد وينمو .

فلما حدثت ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ تبدلت الحال تبدلا كبيراً في العالم الاسلامي ، فتلت الثورة التركية ثورة ايران ، ثم أخذت شرارات الثورات تبدو فيعقبها الانفجار في كثير من الاقطار الشرقية : وعلى اثر ذلك شرع يتبدى في وقت قريب في كل قطر اسلامي تيار جديد هائل ، وظواهر اجتماعية لم تمهد من قبل ، كتطلب الحكومات النيابية ، واحياء روح الجنسية والقومية وما أشبه ذلك ، مما رافقه تطور اجتماعي كبير - تطور كانت عناصره منذ أمد بعيد تزداد اختماراً في العالم الاسلامي حتى حان أجل ظهوره فظهر رائماً . واننا سنفصل الكلام على هذا التطور بانواعه في الفصول التالية من هذا الكتاب ، غير أن ما يجب تدبره مجملا في هذا المقام هو ما كان لهذا التطور الكبير من التأثير في مجرى حركة الجامعة الاسلامية ، فونيت في سيرها بعض الونى مدة كان فيها الاضطراب السياسي والقلق الاجتماعي ينتشران انتشاراً عاماً في جميع بقاع العالم الاسلامي.

ولم تكن هذه الفترة طويلة . ففي سنة ١٩١٢ عادت الجامعة الاسلامية تستأنف سيرها ومجراها ، وكان الباعث على ذلك هو اشتداد اعتداء الدول الغربية . ففي سنة ١٩١١ أغارت ايطاليا معتدية على طرابلس الغرب الافريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ماعلة سوى الاستعمار . وفي سنة ١٩١٢ تألبت الدول البلقانية النصرانية وأوقدت نار الحرب على تركية ، فخسرت تركية في هذه الحرب جميع أملاكها الاوربية ؛ فلم يبق من جميع ما كان لها في أوروبة غير القسطنطينية معرضة لخطر الغارات عليها ، ومهددة شر تهديد [1] . وفي تلك الغضون اتفقت انكلترة وروسية على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسة على أثر معضلة « اغادير » تحرق الارّم ، فمضت على مراكش بالنواجذ وأنفذت فيها المخالب ، وهكذا في خلال سنتين توالت الحملات الاوروبية تترى على العالم الاسلامي ، حملات العدوان والاعتداء المحض ، فمزقت ما كان باقياً منه حتى ذلك العهد سليماً شر ممزق .

فنزل ذلك على الامم الاسلامية قاطبة نزول الصاعقة يصم الآذان دويّها . فأخذ العالم الاسلامي في المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتملا غضباً وحنقاً . فعادت الجامعة الاسلامية الى سابق حالها تجري مجرى سريعاً . وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان ينبيء به على غير انقطاع دُعاة الجامعة الاسلامية منذ خمسين سنة ـ الحرب الصليبية الجديدة لدك الممالك الاسلامية دكاً . وصدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين الافغاني ، الحكيم العظيم .

وأخذت نتائج الجامعة الاسلامية تتبدى ، ففي طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب يقاتلون جنباً الى جنب بروح عجيبة تبعثها فيهم دعوة الجامعة الاسلامية ، من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال من الازورار والتنافر شديدة فلقي المعتدون الطليان أمامهم مقاتلة مستبسلين ملء صدورهم ضرم من التعصب

(١) عند ما أعلنت الدول البلقانية الاربع الحرب على تركية ، نشرت بلاغا لم يشك قارئه أنه بلاغ ملوك الصليبيين في القرون الوسطى . . . أي اعلان حرب دينية ولم تجد من الاوربيين من انكر هذا الامر . (ش)

لا يطفأ ، ضرم يزيده العالم الاسلامي وقيداً (١) مما حمل ساسة الغرب على الجزع والارتباك شديداً ، فأخذوا يتساءلون في الخطب الكبير ، وفي الذي عساه أن ينفجر انفجاراً عاماً في مشرق العالم الاسلامي ومغربه . فقال « غبريال هانوتو » وهو وزير فرنسي من وزراء الخارجية السابقين : « بالله لماذا وجدت ايطاليا طرابلس غير المحصنة كوكر الزنابير اللساعة ؟ أفليس لأنها لا تحارب تركية وحدها بل العالم الاسلامي أجمع . فايطالية جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها » . ولم يكن خنق انكلترة وروسية لثورة ايران ، ومحق فرنسة لاستقلال مراكش بأقل استثارة للعالم الاسلامي من حرب طرابلس ، فزادت نار الغضب احتداماً .

غير انه لما نشبت الحرب البلقانية ، طفح الكيل وبلغت الروح التراقي ، فبات المسلمون من الصين حتى الكونغو ، يترقبون أنباء الحرب ونتيجتها ، وقلوبهم على أحر من جمر الغضا ، فلما طير البرق نبأ الكارثة التركية في البلقان أجفل العالم الاسلامي للخطب أيما اجفال ، وبلغت صرخاته عنان السماء . فقال أحد مسلمي الهند في نداء وجهه الى بني قومه : « يوقد ملك اليونان نار حرب صليبية جديدة ، ويستنصر وزراء بريطانية تعصب النصرانية على الاسلام ، ويأتمر وزراء الروسية في بطرسبرج لرفع الصليب وشكه على قبة مسجد « آجيا صوفيا » ، فاليوم هم يأتمرون ويتشاورون في هذا الخطب ، وغداً يفعلون مثل ذلك للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب ـ المسجد الاقصى في بيت المقدس .

(١) عندما كنا في معسكر أنور بين منصور بأعلى درنه ، كنا نجد مجاهدين لا من برقة ، ولا من طرابلس فحسب ، بل من تونس ، والجزائر ، والمغرب الاقصى ، ومن السودان ، ومن مصر ، ومن الشام ، ومن بلاد الترك ، وقدم علينا ٥٠ مجاهداً من بلاد الافغان . وذكر السنيور جيوليتي في خاطراته التي نشرها مؤخراً ، وكان أيام الحرب الايطالية رئيس نظار ايطالية ، ان انكلترة الحت عليه بالاتفاق فيما كان مع تركية ، انهاءً لهذه الحرب التي اثارت جميع العالم الاسلامي ، حتى وردت على انكلترة الاحتجاجات ليس من الهند فقط ، بل من كل بقاع العالم الاسلامي حتى الصين : (ش)

« أيها المؤمنون الاخوة ! اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . فان الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم الى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجاهد في سبيل الذود عن حياض الاسلام والمسلمين . »

وقال أحد زعماء المسلمين في الهند مخاطباً الدولة البريطانية : « اننا ننادي الحكومة البريطانية بملء أفواهنا أن تقلع عن سياستها العدائية لتركية ، اتقاء لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين ، انفجاراً يجر البلاء عظيما . »

وأعجب ما بدا ، أن أخذ المسلمون يوجهون النداء تلو النداء لغير المسلمين من شعوب آسية ، يدعونها الى التآزر والاتحاد ازاء الغرب المعتدي ، فكان هذا الامر وايم الحق غريباً في بابه لم يسبق له مثيل منذ نشوء الاسلام . فان محمداً ، وقد جاء بالقرآن مصدقا للتوراة والانجيل ، وقال انه هو خاتم الانبياء والمرسلين ، بعث الله من قبله موسى وعيسى ، أمر المرسلين باحترام النصارى واليهود وسماهم « اهل الكتاب » ، تمييزاً لهم عن عبدة الاوثان . وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الاخير ، فما كانوا قط يوماً مبغضين للنصارى بغضهم للوثنيين من البراهمة والبوذيين والكنفوشيوسيين أهل الشرق الاقصى[1].

(١) ان الاسلام ، هو كما هو معلوم من القرآن الكريم ، يرى النصارى اقرب الناس مودة الى الذين آمنوا ، وان القرآن جاء مؤيداً ، للانجيل والتوراة ، وكان ضلع المسلمين في صدر الاسلام هو مع النصارى بالتخصيص ، بدليل انه لما وقعت الحرب بين الروم والفرس وتغلب الفرس على الروم ، حزن الصحابة يومئذ حزناً شديداً ، فنزلت الآية الكريمة « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » فلما صدق قوله تعالى بتغلب الروم على الفرس بعد بضع سنين ، فرح الصحابة فرحا شديداً ولم يكن ذلك لكون الروم اقرب اليهم جنسا من الفرس ، بل الروم والفرس بالنسبة الى العرب على السواء ، بل لكون الروم اهل كتاب والفرس يومئذ عبدة نار لم يكن الله شرح صدرهم للاسلام . ولما غزا العرب الشام ، اوصى الخليفة ابو بكر الصديق بالنصاري ورهبانهم خيراً في خطبة مشهورة ، ولما حضر الخليفة عمر بن الخطاب الى بيت المقدس كان من حسن معاملته للنصارى ما هو مشهور ايضاً في التواريخ . وروى المؤرخون ان الامام عمر زار كنيسة القيامة وبينما هو

بيد ان هذه الحال شرعت تنقلب وتتحول منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ ، اذ ظفرت اليابان ، الدولة الشرقية الوثنية « الكافرة » ، على دولة غربية نصرانية ، ودقت عنقها دقاً ، فهب غالب المسلمين يبتهجون لانتصار اليابان هذا ، ابتهاجاً ملؤه الفخر الشرقي والحماسة الاسلامية ، وتمنى كثير من رجال الجامعة الاسلامية ودعاتها لو ينتحل ابطال اليابان الاسلام[1] وشرع في تحقيق هذا الامر العظيم ، والتمست وسائل التقرب من اليابان ، ثم أنشئت العلاقات معها ، وأنشئت الصحف المديدة لنشر الدعوة ، واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامي الكبير ، فاوفد السلطان وفداً الى اليابان على بارجة حربية ، وأخذ العالم الاسلامي بسبب ذلك يلهج بحديث اسلام اليابان ، ويتناقل الانباء في هذا الصدد ، ويتباحث فيه ويحبذه أشد التحبيذ . قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦ : « ان بريطانية العظمى ، وفي حكمها ستون مليوناً من المسلمين ، لتخشى كل الخشية أمر اسلام اليابان ، الامر العظيم الذي اذا كان ، تغير على الامر مجرى السياسة الاسلامية العامة

فيها ادركته الصلاة فاراد ان يخرج من الكنيسة يصلي فدعاه البطريرك صفرونيوس الى محل داخل الكنيسة يصلي فيه ، فأبى فالح عليه بالرجاء فاجابه : كلا . يأتي المسلمون بعدي فيقولون هنا صلى عمر فيجعلون هناك مسجداً في وسط كنيستكم . وهكذا كان الخليفة الاول والثاني يرعيان حرمات النصارى ، ومنسوب الى سيدنا عمر عهد عهده الى النصارى فيه من البر بهم ما ليس فوقه مزيد . ولكن سياسة اوربا من ايام الصليبيين الى هذه الساعة ، قد كدرت هذا الصفاء ، وما زالت تكدره حتى بلغ من حنق المسلمين اليوم ان صاروا الباً واحداً مع البراهمة في الهند ، والبوذيين في الصين ، لابل الفتيشيين في اواسط افريقية على الاوربيين . (ش)

(١) جاء احد امراء الاسرة المالكة في اليابان ، في أيام السلطان عبد الحميد الى الاستانة ، فبينما هو في الحديث مع السلطان ، اذ جاء ذكر الاديان فقال له السلطان : « بلغني انكم تبحثون عن دين ، فان كان الخبر صحيحاً ، فانا اوصيكم بالاسلام » . فقال له الامير الياباني : « ليس الخبر كما بلغ جلالتكم ، بل نحن متمسكون بديننا » . قد سمعت ذلك من فم العلامة المرحوم منيف باشا ، ناظر المعارف الشهير ، في أيام عبد الحميد ، وكان صدوقاً حراً ، ثقة في كل ما يرويه ، و مما كان عليه من شرف الطباع ، لم يكن متظاهراً بالتدين . فليسمع ذلك من يزعمون ان اليابان لم تترق في المدنية الا بعد ان خلعت الدين ، ونبذته ظهرياً . (ش)

تغييراً كلياً هائلا . » وقال شيخ من شيوخ مسلمي الصين : « اذا شاءت اليابان أن تدرك منزلة لم تدركها مثلها دولة فيما مضى ، وأرادت أن ترفع شأن آسية على شأن سائر القارات ، فلا يتم لها ذلك بتة الا بانتحالها الاسلام ديناً. »

فاستقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالا جليلا ، وأحلته محل الرعاية والاكرام ، بيد انها لم تكشف عن رغبة في الدخول في دين الرسالة . وكانت النتيجة أن وضع اساس للعلاقات الودية الحبية بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة في آسية . ومما زاد في ذلك التقرب ، فأخذت عرى الولاء تتوثق ، الحرب البلقانية وما تجلى فيها ومن حولها من المطامع الاستعمارية الهائلة . ويمكن العلم بحالة شعور المسلمين ومبلغ ما آلت اليه من الاضطراب والاهتياج يومئذ ، بالوقوف على الصرخات الندائية المتوالية التي أخذ المسلمون يوجهونها نحو الهندويين (الهندوس) . ومثال من ذلك نداء عظيم الخطر والشأن ، موسوم بـ « رسالة الشرق » . جاء فيه ما يأتي :—

« يا روح الشرق ! ! ألا هبي من مرقدك وادفعي عن الشرق هذا الطوفان الغربيّ ، طوفان عدوان الفرنجة وبغيهم واعتدائهم ! !

« ايه ابناء هندستان ! ! كونوا لنا عوناً ونصراً بحكمتكم ، شدوا أزرنا بحضارتكم وتهذيبكم ، كونوا لنا نصراء بخالد قوتكم ، قوة الهندويين آبائكم واجدادكم . دعوا قوة الارواح الكامنة في قمم جبال حملايا تنبثق فقد حان لها ، وحقّ من أوجدها ، الانبثاق ، املأوا الجو بصلواتكم الى اله الحرب لينصر الحق على القوة الغاشمة ، ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، وارفعوا اصوات دعواتكم في هياكل ربوات آلهتكم ان تهلك جيوش الاعداء المعتدين »

فمن تدبر هذا المآل الذي آلت اليه حالة المسلمين ، ولا سيما تقربهم من « الكفرة » ، وتوثيق عرى الولاء بينهم وبينهم ، لا يسعه الا تكبير هذا الامر وتعظيمه ، والتعجب والاستغراب ، ولم يكن هذا التبدل الهائل مقصوراً على مسلمي الهند وحدهم ، بل شمل أيضاً مسلمي الصين . فقد قالت صحيفة

اسلامية من صحف تركستان الصينية ، تدعو الى اتحاد الصينيين قاطبة اتحاداً وطنياً منيعاً للوقوف في وجه الغرب المعتدي ، ما يأتي : « ان اوروبة قد بلغت من الطغيان والجور مبلغاً لا حدّ له ، فهي لاتنفك تنازعنا على حريتنا التي هي اقدس شيء لدينا ، وأوروبة ثم أوروبة ضاربتنا الضربة القاضية اذا لم يستنصر بعضنا بعضاً ، ونهبّ معاً في يوم آن هبة المدافعين عن الاوطان دفاع الابطال » . وفي الدور الاول من أدوار الثورة الصينية ، نفض مسلمو الصين عنهم رداء العزلة ، واصطفوا الى جانب ابناء بلادهم البوذيين والكنفوشيوسيين يقاتلون معهم مستبسلين ، في سبيل الوطن ، وقد اثنى الدكتور « صن - يات - سن » الزعيم الجمهوري الكبير على مسلمي الصين بقوله : « ان الصينيين لن ينسوا أبداً نصر اخوانهم المسلمين لهم في سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحريتها (١) . »

فلما نشبت الحرب الكونية العظمى ، كان العالم الاسلامي أجمع ، مضطرباً اضطراباً عميقاً ، ومحتدماً حنقاً على الغرب المعتدي ، وشاعراً بضرورة اتحاده اتحاداً مكيناً ، وساعياً جد السعي لعقد المحالفات بينه وبين غيره من الدول الآسية ، ليتسنى له بذلك القيام بجهاده المنوي في سبيل التحرر من ربقة الغرب.

وربما يرى بعضهم من دواعي الاستغراب ، انه لما دخلت تركيا في معمعان الحرب العامة في أواخر سنة ١٩١٤ ، وأعلن السلطان دعوته للجهاد لم يهبّ على اثر ذلك العالم الاسلامي هبته الكبرى المتوقعة . فلا يجب أن يؤخذ من ذلك أن دعوة السلطان هذه للجهاد المقدس انما كانت صرخة في واد ، أو نفخة في رماد ، كما حملت انباء الحلفاء الغرب على هذا الاعتقاد في ذلك الحين . فالامر في الواقع كان على الضد مما شاع ، فقد كان الاضطراب هائجاً شديداً أيما شدة في كل بلاد اسلامية في حكم الحلفاء ، ونحن ذاكرون بعضاً من هذه

(١) كان المسلمون في حرب البوكسر يداً واحدة ، وظهرة واحدة مع ابناء وطنهم البوذيين وكان لهم عمل كبير في تلك الحرب ، حتى التمست الدول من السلطان عبدالحميد ارسال وفد من قبله ينصح مسلمي الصين باسم الخلافة ان يجنحوا الى السلم . (ش)

البلاد . فمصر باتت تغلي فيها عوامل الثورة غليان المرجل على النار ، وصارت على مقربة من الزوبعة الهائلة [1] ، فلو لم تملأ بريطانية بلاد النيل اجناداً لا عداد لها ، لحدثت في مصر الاهوال . وطرابلس ثارت ثورة عمياء ردت بها الطليان على اعقابهم حتى ساحل البحر ، وايران كانت على وشك الاتحاد مع تركية لو لم يحل دون ذلك تدخل روسية وبريطانية وهيضهما جناحها ، والهند الشمالية الغربية غدت ميدان قتال عنيف لم تقف رحاه حتى ساقت بريطانية اليه مئتين وخمسين الفاً من الجنود البريطانية الهندية . وقد اعترفت الحكومة البريطانية اعترافاً رسمياً بأن جميع البلاد في حكم الحلفاء في آسية وافريقية ، كانت خلال سنة ١٩١٥ قد وقفت من الثورة العامة والبركان الهائل على قيد خطوة .

حقاً لو نطق قادة المسلمين في سائر الاقطار الاسلامية بالكلمة الاخيرة ، لكان بركان العالم الاسلامي قد انفجر وملأ الجو حمماً . بيد أن تلك الكلمة لم ينطق بها ، وقام عدد عديد من زعماء المسلمين خارج البلاد العثمانية يستهجنون دخول تركية في الحرب كل الاستهجان ، ويعدونه خرقاً في السياسة الرشيدة ، ويبذلون غاية ما في طوقهم لتسكين النفوس الثائرة والخواطر الهائجة . وقد دل عمل هؤلاء القادة والزعماء على حصافة في الرأي كبيرة . فانهم ايقنوا ان هذه الآونة ليست بالتي توقد فيها نار الحرب العامة في العالم الاسلامي ، ولا بالسانحة التي تغتنم للدعاء حيّ على الجهاد الاكبر لتقويض سيطرة الغرب على الشرق . والسبب في ذلك أن الامم الاسلامية لم تكن قد استوفت جميع الاهب المادية اللازمة لها بعد . ولم تحكم عرى التفاهم التام بعضها مع بعض من ناحية ، ولا بينها وبين حليفاتها من الامم الكبرى غير المسلمة من ناحية أخرى . وكانت الصلات المعنوية الادبية في الامم الاسلامية

(١) ثورة دارفور التي قتل فيها علي بن دينار سلطان دارفور كانت من أثر اعلان الجهاد وثورة الصومال أيضاً . (ش)

على حال غير مستوفاة الشروط . زد على جميع هذا أن قادة المسلمين انفسهم ادركوا حق الادراك أن تركية باتت صفيحة طيعة بين يدي المانية تنزل على امرها اقبالا وادباراً ، وان « تركية الفتاة » غدت تدير دفة سفينتها عصبة من الجحدة الغربيين ، غالبهم ليس من المسلمين ، أو ليسوا مسلمين الا اسماً ، بل هم من زنادقة اليهود[1] . وعلى ذلك لم يكن من رأي عقلاء المسلمين الاصطلاء بنار المانية ، ولا الموافقة على مارسمته من الخطط وأبدته من المطامع البعيدة للاستيلاء على العالم ، اذ لا طائل للمسلمين في ذلك سوى ابدال أنيار بأنيار ، بل عولوا أن يترك الغرب وشأنه ، يقاتل بعضه بعضاً فيضعضع كيانه وتسلب منته ، ويهن عظمه ، وتنجلي مخبآت مقاصده ومكنوناته نحو المستقبل . بينما يهتبل العالم الاسلامي فرصة نزاع الغرب هذا النزاع الشديد ، فيستجمع من قواه ما كان مبعثراً ، ويشدد من بأسه وحوله وقوّته ، ويمد المدة ، حتى اذا ما حانت الساعة المرتقبة ، وثب وثبة الاسد الهصور ، فانتصف له من عدو عنيد .

وكان مؤتمر « فرسايل » كاشفاً عن مقاصد الدول الغربية ، تلك المقاصد التي كان يتوقع ظهورها دعاة الجامعة الاسلامية . فلما ظهرت واضحة طفقوا يجدّون في سبيل اعداد برنامج العمل اعداداً تاماً لا عيب فيه ، وتوثيق الروابط المعنوية ، واحكام الوحدة الادبية بين الامم الاسلامية ، وفي مؤتمر « فرسايل » حسرت الدول الغربية الظافرة اللثام عن جبينها ، وبينت غاية التبيين انها لا تنزل عن مطمع من مطامعها الاستعمارية ، ولا تروم الرفق ولو أقله بالامم الشرقية ، ولا التقليل من وطأة السيطرة الشديدة الضاربة في

(١) في سلانيك طائفة يقال لها « الدونمه » اي المائدون المتيبون ، اصلهم يهود من مهاجري اسبانية الذين خرجوا منها مع عرب الاندلس . وقد اسلموا منذ نحو اربعمائة سنة ، ولكن اسلاماً مشوباً ببعض عقائدهم الاصلية . ولما كانوا المثل البعيد في الحصافة والذكاء ، والقيام على الامور المالية بنوع خاص ، كان الدور الذي يمثلونه في الهيئة الاجتماعية التركية ، اعظم جداً مما يستحقه عددهم . وكان اثرهم في حركة الانقلاب الدستوري مهماً ، فكان منهم اناس يعدون اركاناً في جمعية الاتحاد والترقي . (ش)

الشرقين الادنى والاوسط . فقد قامت هـذه الدول المنصورة واقتسمت بعضها مع بعض المملكة العثمانية ، على مقتضى طائفة من المعاهدات السرية التي كانت قد ابرمتها فيما بينها خلال الحرب العـامة ، وكانت تلك المعاهدات السرية في الواقع اساساً بني عليه الصلح الذي عقد في مؤتمر فرسايل . زد على جميع ذلك ، فقد كانت بريطانية قد أعلنت في أوائل الحرب ان مصر صارت من البلاد البريطانية المحمية ، وقبيل انفضاض مؤتمر فرسايل ، ظهرت بغتة معاهدة جديدة بين بريطانية والعجم[1] ، من مقتضاها أن هذه البلاد الاخيرة

(١) من الغريب ان فارس عرضت على انكلترة المحالفة ، والدخول الى جانب الحلفاء في الحرب العامة ، فأبت انكلترة مساعدة فارس هذه . وهـذا امر صرحت به جريدة الطان ، لسان حال فرنسا اثناء مؤتمر الصلح بباريز . وان مصر عرضت نفسها اثناء الحرب العامة ان تقاتل في جانب الحلفاء ، بشرط الجلاء الانكليزي عن مصر بعد الحرب ، فأبت انكلترة أيضاً ذلك . وان الشريف حسيناً بن علي ، ملك الحجاز اليوم ، كان عرض نفسه لمحالفة انكلترة منذ بدأت الحرب العامة ، فأبت انكلترة محالفته يومئذ كما أبت محالفة مصر والعجم . وأغرب منه ان تركية نفسها بينما هي في أول الحرب العامة تتردد في الميل الى أيّ الفريقين المتصارعين ، ويتجاذبها عاملان أحدهما الى الحلفاء ، والآخر الى الالمان ، صرحت اسفراء الحلفاء في الاستانة انها تخشى اذا اعتزلت الحرب من أن يتفق الفريقان عليها ، ويعقدوا الصلح على ظهرها . فقالت لهم لابد لنا من محالفة . وعرضت على الحلفاء ان تكون معهم ، بشرط ان تأمن شرورهم في المستقبل . وأبى الحلفاء قبول محالفة تركيا لهم ، وكل ماطلبوه منها كان التزام الحياد التام ، وبمقابلة ذلك تتعهد الروسية بأن لاتهاجم تركية مدة ثلاثين سنة (تأمل) وتنال تركية بعض مساعدات أخرى ليس لها كبير طائل . وبديهي ان رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الاسلامي مبني على اساس واحد ، وهو ان الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الاسلامية اثناء الحرب العامة ، لما كان لائقاً ان يقتسموا فيما بعد الحرب بلاد الاسلام الباقية الاقتسام الاخير ، كما كانوا ينوون اثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحرب . فلو رضوا بدخول تركية معهم في الحلف وقبلوا عقدها لهم في ذلك الموقف ، لما كان يجوز بعد الحرب انفاذ برنامج التقسيم الذي كان مقرراً بين انكلترة وفرنسا منذ ١٩١٢ ومن جملته قسمة سورية وفلسطين . ولو رضوا بدخول العجم في الحلف وقبلوا معاونتها ، لما كان يحل ان يجهزوا عليها الاجهاز الأخير بعد الحرب كما كانت النية ، بل كان ديناً عليهم اخلاء العجم ، وهذا مالا يريدونه . ولو قبلوا اقتراح مصر في الدخول في الحرب الى جانبهم ، لتعين عليهم الجلاء عن مصر بعد الحرب على وجه المكافأة ، مع ان المراد بعد الظفر الأخير هو استلحاق مصر تماماً لا اعطاؤها حريتها . وكانوا يرون انهم قادرون ان يستخدموا رجال مصر ويرتفقوا بأموال مصر بالقوة والقسر ، بدون أدنى منة لاهل مصر ، وبدون تعهد بالجلاء عن مصر على حد ما قال أبو الطيب :

باتت في باطن الامر على الاقل ، ان لم يكن في باطنه وظاهره معاً ، معدودة من البلاد البريطانية المحمية أيضاً . فكان مؤدى هذه النتائج جميعها أن دول الحلفاء قد غلت الشرقين الادنى والاوسط بأغلال من السيطرة السياسية الثقيلة غير مسبوقة المثيل .

غير ان للأمر وجهاً آخر نقيضاً لما تقدم . ذلك ان قام ساسة الحلفاء خلال الحرب مئات المرات ينشرون التصريحات الرسمية ، ان الغاية الكبرى

من اطاق اقتنام شيء غلاباً واغتصابا لم يقتنمه سؤالا

ولقائل ان يقول : لكن ينقض نظريتك هذه ، ان الحلفاء حالفوا سنة ١٩١٥ الشريف حسيناً ، وهذا ملك من ملوك الاسلام . والجواب انهم ما قبلوا التحالف معه بادىء ذي بدء لظنهم أنهم يستغنون عنه، ولا يتقيدون معه بعهد يمنعهم بعد الظفر من أخذ بلاد العرب . فلما طالت الحرب ، وظهر من تركية ما ظهر من القوة التي لم تخطر لهم على بال ، ورأوا الحرب ستدوم اعواماً ، وتأتي على الحرث والنسل وان العالم الاسلامي كله في هيجان عليهم ، عادوا الى قبول محالفة الشريف حسين أملا بفصل العرب عن الترك ، وباستمالة جانب من المسلمين، وبتخفيف حملة كان الحلفاء بدأوا يشعرون بثقلها . ومع هذا كله فقد ملأوا عهودهم للشريف ابهاما وغموضا ، حتى يتفصوا منها في المستقبل ، فما وضعت الحرب اوزارها حتى ظهر للشريف ولسائر العرب ، انه مع كون قسم من العرب حالف الحلفاء محالفة فتت في عضد الاتراك ، وكانت من جملة أسباب انكسارهم لاسباب عديدة ، فقد عومل العرب بعد الحرب معاملة الاعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم ، والذي هو باق منها بدون احتلال فعلا ، فالنية وضع اليد عليه عند أول فرصة . وربما كابر بعض الناس في كون الشريف عرض التحالف من أول الحرب ولم يقبلوا ذلك منه ولا مجال هنا للمكابرة فالصحيح انهم لم يقبلوا التحالف معه حتى احتاجوا عضد العرب وطالت الحرب فأرسلوا اليه بعض معتمدين لمفاوضته فيه من جملتهم الجنرال حداد باشا ، وان حداد باشا صرح لنا بهذه الحقيقة التاريخية امام جماعة كثيرين من أعيان السوريين والفلسطينيين. وربما كابر آخرون في كون الحلفاء أبوا محالفة تركية وطلبوا منها الحياد لا غير في الحرب العامه ، والجواب هذا شيء يشهد به المستر مورغانتو سفير أميركا في تركية لاوله لشبوب الحرب . ذكره في خاطراته وقال ان أقصى ما طالب الحلفاء به تركيا هو لزوم الحياد فحسب والحاصل ان الحلفاء طلبوا اثناء الحرب العامة العون من كل دولة ، وعرضوا التحالف مع كل حكومة ، حتى أصغر حكومات أميركا ، ولم يكونوا ليقبلوا التحالف مع دولة من الدول الاسلامية علما بما ينوونه للاسلام وجميع حكوماته في المستقبل وفراراً من مكافاة دولة اسلامية بالابقاء عليها . فهذا من الحقائق الكلية التي ينبغي ان يتفطن لها المسلمون ولا يغيبوها عن نظرهم ، وليعلموا ان الدول المستعمرة لا تقبل من الاسلام حتى ولا الصداقة ، وانها لا ترضى من المسلمين في جانبهم بذل الارواح والاموال الا مجانا . (ش)

الوحيدة في هـذه الحرب الدموية المخوضة الغمار ، انما هو انشاء نظام عالمي حديث ، قائم البنيان على مكارم الاخـلاق ، والاسس الصحيحة والقواعد الشريفة . كرعاية حقوق الامم المستضعفة ، واطلاق الحرية لجميع الشعوب والامم في اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، وامتلاك مقدراتها . فذاعت هذه التصريحات في الشرق أيما ذيوع ، واختزنتها الامم الشرقية لا بل حفظتها عن ظهر قلبها وأخذت ترتلها ترتيلا . فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبن على شيء من تلك القواعد والاسس الصحيحة ، ولا على مقتضى مئات التصريحات المحفوظة ، بل على المعاهدات المقطوعة بين الدول بعضها مع بعض سراً وخفاء معاهدات الجشع الاستعماري والحكم والفتح ، لحدثان ما احتدم غضباً ، يكبر نوازل الجور والبغي ، ويعظم سوم هذا الخسف والذل ، فأخذت مراجل العداء تشتد غلياناً في كل صقع من أصقاع الشرق ، فاكفهرّ الجو وقصفت الرعود منذرة بأهول الصواعق . ولم يكن هـذا بالحادث المستغرب ، اذ قد سبق للـكثير من الخـبراء العقلاء الغربيين ، الراسخين علماً بالامور الشرقية ، فانذروا الدول الغربية المرة تلو المرة قبل انفضاض مؤتمر « فرسايل » بسوء العقبى الواقعة في الشرق ، وبانفجار عظيم لا بد منه ، من هؤلاء المنـذرين « ليون كايتاني دوق سرمونيته » وهو ثقة من ثقاة الطليان في شؤون العالم الاسلامي ، فقد قال في ربيع سـنة ١٩١٩ في جملة حديث له ذكر فيه نتيجة الحرب العامة في الشرق : « ان الحرب الـكونية العظمى ، قد هزت شجرة الحضارة الشرقية فاهتزت اهتزازاً بلغ أقصى الجذور في التربة ، وبعثت فيها روحاً عجيبة [1] . ان الشرق أجمع ، من الصين حتى أقصى سواحل البحر

(١) ونشر أخيراً العالم الاجتماعي الكبير غوغليلمو فريرو Guglielmo Ferrero مقالة في جريدة « الايللوستراسيون » عنوانها « أوربة وآسية » بين فيها ان الحرب العامة أحدثت انقلابات متناقضة ، فباعدت وقربت بين القارات وانه من العادة اذا خرجت سلطنة عظيمة ظافرة من حرب من الحروب ازدادت هيبتها وانبسط سلطانها ، من ذي قبل . والحال انه بعد ان خرجت انكلترة ظافرة من أكبر حرب في الدنيا ، ثارت في وجهها افغانستان ، والهند ، ثم مصر وبعد ان كانت تركية انهزمت سنة ١٩١٨ ، عادت فرجعت وردت انكلترة وحلفاءها

المتوسط ليميد ميدانا عنيفاً . ففي كل رقعة وبلد ترى نار العداء للغرب مشبوبة ففي مراكش الفتنة ، وفي الجزائر الثورة ، وفي طرابلس الغرب عواصف

على اعقابهن . وكذلك الصين بالرغم من الثورة التي تمزق احشاءها ، تطلب استرداد البلاد التي احتلت منها وعدم مس شيء من استقلالها . فآسية تقوم على أوربة على حين هي آخذة بمبادىء أوروبة ، وليست تأخذ من أوربا وأميركة أسلحة فحسب ، بل مبادىء وافكارا تقاتلها بها . قال : « ومسبب ذلك هو انهيار الدولة الروسية ، فان أوربا كانت عام ١٩١٤ كتلة متحدة ، متينة ، متماسكة ، بالرغم من جميع المناظرات والمناهضات التي كانت فيما بين أجزائها . فقد كانت السلطنة الروسية والسلطنة الانكليزية متناظرتين في آسية ، ولكن من جهة أخرى ، كانت تري كل واحدة منهما شادّة أزر الاخرى . وكانت أوربة بأجمعها تستفيد من الرعب الذي تلقيه الروسية في قلب آسية ، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدأ خلاص آسية » وقد أشارت جريدة الطان بتاريخ ٨ حزيران سنة ١٩٢٣ الى مقالة فريرو هذه وأيدت رأيه من جهة كون انهيار الروسية هو الذي كان مبدأ تحرير آسية ، وهذا عين ما ورد في مقالة روجرلابون التي عربناها من « مجلة باريز » . وكان أحد الروس اقترح علينا سنة ١٩١٩ نشر مقالة في جريدة روسية تصدر في برلين نحررنا في ذلك الوقت له مقالة نبين بها الاسباب الداعية الى الاتحاد بين الروس والشرقيين ، ونلوم سياسة الروسية الماضية التي كانت عبارة من قهر الشرق وملاشاة الدولة العثمانية ، لفائدة الدول الغربية ، فكان حمل الخسائر بالمال والرجال على الروسية ، ومعظم الفوائد لانكلترة وفرنسا ، لانه من المحقق لولا ثقل حمل الروسية على ظهر العثمانيين وكونهم أصبحوا من عداوة الروس بحالة لا يملكون معها قبضاً ولا بسطاً ، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر ، ولا على تونس ، ولا ايطالية دخول طرابلس ، ولا انكلترة احتلال مصر والسودان بل كانت الدولة العثمانية بأمنها ناحية الروسية تقدر على حماية هذه البلدان ، لا سيما في بداية الامر فالروسية هي التي كانت سبب سقوط الشرق وواسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية ، وتحوّل الحكومة القيصرية الى البالشفة هو الذي مكن اليوم الشرق من أن يتنفس . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض . فهذا الذي كنت أوضحته قبل أن ابتدأ الكتاب الاوربيون ينبهون اليه .

ثم ان هنالك جملة وردت في كلام العلامة فريرو فيها معنى كبير ينبغي أن ينعم النظر فيه جميع الشرقيين ألا وهي قوله : « ان الروسية وانكلترة مع تناظرهما وتنافسهما في الشرق كانت كل منهما شادّة أزر الاخرى » . ومعنى ذلك أن الروسية كانت تقلم أظفار الاتراك ، والفرس ، والصينيين ، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لا يقدرون على اغاثة الهنود ، والافغان ، والمصريين ، والعرب الذين مدت يدها اليهم انكلترة بالبطش والغصب . وكذلك انكلترة باستيلائها على هؤلاء قد عطلت منهم كل قوة حربية ، فأصبحوا لا يقدرون أن يؤيدوا الدولة العثمانية ، ولا الدولة الفارسية ، ولا تركستان ، ولا الصين بشيء ، فكانت كل من الروسية وانكلترة قد شدت احداهما أزر الاخرى بطبيعة الحال ، وكان بينهما تضامن ، وان لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهو جار بالفعل . ومن الامور التي تؤيد هذا وقوع هذا التضامن بدون تواطؤ

الاضطراب والهياج ، وفي مصر وبلاد العرب وليبية وسائر الاقطار الاسلامية الحركات الوطنية القومية الكبرى ، جميعها متماثلة الصفة العامة ، وموحدة الغاية : تماسك العالم الشرقي الاسلامي بعضه ببعض ، ومناهضته للحضارة الغربية ما استطاع الى ذلك سبيلا . »

فكانت هذه الكلمات كأنها رؤيا صادقة ، فأخذت تتحقق في العالم الاسلامي . غير انه لما كانت الوافعات الاخيرة التي تقوم بها الامم الاسلامية انما تغلب عليها صفات القومية الوطنية فاننا سنبسط الكلام عليها في فصل (العصبية الجنسية) من هذا الكتاب . وما يجب رعايته حق الرعاية في هذا المقام هو ان العصبيات الجنسية الاسلامية والجامعة الاسلامية ، ولو كان ما كان بين بعض وجوهها والبعض الآخر من الاختلافات ، فانها بجملتها

....

ليس بين أوربا والروسية القيصرية فحسب ، بل بين أوربا والروسيا البولشفيكية نفسها ، مع شدة العداوة التى بين الفريقين .

فان الدول الغربية أثارت على البولشفيك الاميرال كولتشاق ، والجنرال دنيكين ، والجنرال يودينيش ، والجنرال فرانجل ، والمملكة البولونية ، وحاولت اثارة الارمن ، والكرج ، وكل قوم ترجو فيهم النهضة ، لقتال الحكومة البولشفية ، التي ترى فيها الخطر الاعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الاوربية . وقد بدأت انكلترة وفرنسا في تسليح هذه الاقوام ، وسوقهم على الروسية مئات الملايين ، ولا تزالان الى هذه الساعة تترصدان الفرص وتتربصان بالبولشفيك الدوائر .

لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر ، من أن تحرك على البولشفيك قوة اسلامية . فعرض بعضهم الرأي بالاتفاق مع تركية وتسليحها وسوقها على الروسية من جهة القوقاس ، حيث ينضم الى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والتتر فلم يقبل الحلفاء هذا الرأي أصلا . ولا راق لهم تسليح العجم ، ولا الافغان ، ولا بخارى ، ولا خيوه ، ولا فرغانه ، ولا غيرها من تركستان . ولا رمي البولشفيك بهذه القوات كلها وما ذاك الا لانهم يرون الخطر الاسلامي أعظم من الخطر البولشفي مهما كان الخطر البولشفي عظيما . ومن الادلة البارزة على ذلك انه لما نفر المرحوم أنور من البولشفيكيين وبرح موسكو سنة ١٩٢١ الى باطوم ، ومنها انسل الى بخارى وأثار ثورة تركستان الهائلة التي حشد البولشفيكيون فيالق جرارة لقمعها لم يفكر أحد باوربا في امداد أنور على البولشفيك ، بل عند ما سقط أنور شهيداً في أوائل أغسطس سنة ١٩٢٢ فرح بذلك الحلفاء ، ولم تخف الجرائد الانكليزية سرورها . وفي هذا مقنع لمن يبقى عنده شيء من الريب في شدة تضامن أوربا بازاء الشرق . (ش)

متحدة متجهة نحو غرض عام واحد : هو القيام في وجه السيطرة الغربية المرهقة ، وتبديدها وتمزيقها ، وتحرير الامم الاسلامية من قيود السلطة الاوروبية السياسية . واذ وعينا هذه الحقائق وتدبرناها ، فاننا نأتي للكلام على حاضر الجامعة الاسلامية وواقعها المشهور :

قد هاج تيار الجامعة الاسلامية هياجاً هائلاً ، وثار ثوراناً عجيباً ، في هذه الآونة الاخيرة ، والباعث على هذا انما هو الارهاق الغربي ، المتوالي الشدة والزيادة منذ الزمن البعيد . ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الاسلامية مالم يستثر من قبل ، ثم ولي الصلح الحرب ، وهو الصلح الذي سبق لنا فأبنا قواعده وأركانه الفاسدة وما دهى العالم الاسلامي بسببه من النوازل والفواجع ،ولا يعزبن عن البال ان الجامعة الاسلامية على مختلف حالاتها وتطوراتها ، يجب ألا تعتبر انها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب رداً لاعتدائه ودفعاً لجوره فحسب ، بل ان منشأها الاصلي هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة ، في المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة التي قلنا فيها قبلا انها بين المسلم والمسلم لأقوى منها حقا بين النصراني والنصراني . فان عرى هذه الجامعة ليست دينية فقط ، بل انها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعية خلقية تهذيبية . وان القوانين والقواعد التي تتألف منها وتقوم عليها حياة الاسرة الاسلامية ، على مختلف العادات والاقاليم لا تتغير في موضع عنها في موضع آخر في جميع المعمور الاسلامي . قال(السر موريسون) : ــ « ان الحق الذي لا يمارى فيه ان الاسلام اكثر من معتقد ودين . انما هو نظام اجتماعي تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها . وقد انقضى ما انقضى من العهد الذي ما برح فيه الاسلام والنصرانية على نضال ونزاع ، فما عرى وهن جانباً من جوانب الاسلام قط ، بل ما انفك على الدوام يشد بعضه مع بعض متماسكا متعاضداً ، حتى صار وحدة جامعة ، نامية نمو الجسم العضوي ، سائراً سيره بفعل نشاطه الذاتي المستقر فيه . »

فالمسلمون ترابط بعضهم ببعض روابط هذه الحضارة ربطاً وثيقاً لا انفصام له. وباعتبار هذا المعنى، فانها الجامعة الاسلامية انما هي عامة، قائمة البناء في جميع العالم الاسلامي، حتى ان المسلمين الاحرار، على ما يحبذون من الآراء الغربية التي يردون شرعتها، من حيث لا يرتاحون الى دعوة الجامعة الاسلامية السياسية لتمشيها على الطرق الرجوعية، يعتقدون كل الاعتقاد في وجوب الوحدة الاسلامية الشاملة المبنية على أصول الحرية وقواعدها. قال امام حر من أئمة زعماء المسلمين في الهند، وهو أغا خان، ما يأتي: « ان هناك جامعة اسلامية حقة صريحة، ينضم الى لوائها الحر كل مسلم مؤمن مخلص، أعني بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الاسلامية. فهذه الوحدة، الاسلامية الروحانية التهذيبية، يجب أن تتعهد فتنمو أبداً، لانها عند أتباع النبي أس الحياة وجوهر النفس. »

فاذا كان هذا شعور المسلمين الاحرار الواقفين حق الوقوف على حضارة الغرب، وتقدمه، ورقيه، وعمرانه، والقائلين بوجوب الاقتباس منه والاخذ عنه، فما أشد شعور سواد المسلمين، وهم الجاهلون الرجوعيون المتعصبون؟ أضف الى هذا ما هو معروف في عامة المسلمين من الشنأة لاعتداء الغرب وحضارته، الشنأة التي ليس منشأها في كل موضع سيطرة الغرب السياسية، بل لمجرد الافراط والغلو في التعصب. وقد كان للحوادث السياسية في العالم الاسلامي خلال العقد الاخير تأثير كبير في هذا الافراط والغلو، فالتهب التعصب التهاباً بالغاً الحد تدفعه دوافع سياسية خلقية دينية وتجمعه صفة واحدة متماثلة متمكنة في نفس كل مسلم، فباتت السلم العامة في المعمور الانساني مهددة من ناحية العالم الاسلامي. هذا هو الواقع، الذي يجب علينا أن نعترف به، وألا نخدع نفوسنا فنستصغر شأن هذه الحالة العصبية اليوم وما يحتمل أن ينجم عنها من المخاطر الكبرى في الغد القريب.

وعلى ذلك ليس من اصابة الحقيقة في شيء أن يقال ان تركية قد سبق لها

فدعت المسلمين واستصرختهم الى حرب عامة ، وحاولت جهدها اقتداح زند الجهاد المقدس سنة ١٩١٤ ، نزولاً على أمر المانية ، فلم يكن هناك الايراء المراد فذهب الاقتداح باطلا، بل كان دليلا على ان الجهاد الحقيقي في العالم الاسلامي بات ضرباً من المحال . ان من حمله الوهم على هذا فهو على خطل شديد . اذ ان الجهاد لمكن أبداً كل الامكان . قال ضابط الماني كان من أركان الحرب في الجيش التركي خلال الحرب العامة قولا صريحاً وهو: « ان الجهاد الذي أعلنته تركية قد حبط حبوطاً لانه في الواقع لم يكن جهاداً بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين » . وقد سبق لنا فأبنا كيف هب قادة المسلمين خارج تركية فأخذوا يستهجنون دخولها في الحرب . وبسطنا ماذهب اليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال .

فسلسلة الاعتداءات الغربية الآخذ بعضها برقاب بعض منذ القديم حتى انتهاء الحرب العامة ، وتقرير الصلح على الاسس والاركان التي ذكرنا صفاتها الفاسدة ، تقريراً كان من شأنه أن بات العالم الاسلامي أجمع خاضعاً خضوع الذل والخنوع للسيطرة الغربية . جميع هذا أشعل قلوب المسلمين ، فهبوا هبوب العاصفة تقتلع كل شيء في سبيلها . أضف الى ما تقدم ان الاهب المادية ما برحت تزداد وتستوفى . وقد سبق للمستشرق الكبير العلامة ارمينيوس ڤمباري الخبير حق الخبرة بشؤون العالم الاسلامي ، فأنذر الغرب انذاراً منذ أكثر من عشرين سنة ، قال فيه ان السياسة الاستعمارية النهمة انما هي السبب في نشوء المخاطر العظمى في الشرق ، واليك بعض ما جاء في مقاله الذي نشره سنة ١٨٩٨ : « ان الخطر الباعث على حرب كونية عامة يزداد في الشرق ازدياداً عظيما على توالي الايام . ولا يغيب عن البال أن روح العداء والمقاومة قد اشتدت ، والصدور وغرت ، والحفائظ اتقدت ، أعني بذلك ان الشعور بالوحدة العامة والجامعة الرابطة قد صار شعوراً عاماً ، نامياً ، منتشراً في جميع الشعوب الاسلامية ، وقد كان من المساعد على ذلك الوسائل الحديثة للنقل

والتواصل ، فباتت الحالة اليوم غيرها منذ عشر سنين الى عشرين سنة .

« وليس من المستغرب أن نقـدم على تنبيه الصليبيين في أواخر القرن التاسع عشر الى المنزلة العالية التي أدركتها الصحافة الاسلامية اليوم من الخطورة والشأن ، والى عامّ انتشارها في آسية وأفريقية ، وما لعظاتها البليغات وانذاراتها الموقظات من التأثير الشديد في نفوس قارئيها المسلمين . فللصحف الوطنية ، السيارة والدورية ، في تركية والهند وفارس وأواسط آسية وجاوة ومصر والجزائر مفعول عظيم ، اذ كل ماتفتكر فيه أوروبة وتقرره وتقوم على انفاذه على ما ينافي المصلحة الاسلاميـة ، تنتشر انباؤه في جميع هـذه الاقطار بسرعة البرق ، وتحمل القوافل هذه الانباء الى كل جهة شاسعة وصوب سحيق في الرقاع الاسلاميـة ، حتى الى قلب الصين وخط الاستواء ، حيث يهب المسلمون لتلقي مثل هذه الانباء معظمين مكبرين. فالشرارة التي تستطير من مجمع من مجامعنا ، أو ناد من انديتنا ، أو وليمة من ولائمنا ، فما تزال في مستطارها ومسبحها في الفضاء ، حتى تجوب اقاصي العالم الاسلامي فتقع وقوع الرعد القاصف . وما تنشره صحيفة « ترجمان » في القريم مثلاً ، تردده صحيفة « اقدام » في القسطنطينية ، ويرن صداه عظيما في صحيفة « الحوادث الاسلامية » في كلكتا في الهند .

« فالجامعة الاسلامية اليوم مسترخيـة العرى بعض الاسترخاء ، غير ان اعتداء الغرب على غير انقطاع ، وعسفه المتوالي الذي يزداد اشتداداً على الدوام ، سيحملان على استجماع هذه العرى بعضها الى بعض فتتماسك وترتبط ، فتصير الجامعة الاسلامية كالبنيان المرصوص منيع الاركان ، فيتوقع حينئذ من وراء ذلك حرب عالمية مشبوبة في انحاء المعمور لا تبقي ولا تذر . »

منذ نشر ڤامباري انذاره هذا حتى اليوم ، ما برح الأمر يتفاقم والنعرة الاسلامية تثور في وجـه السيطرة الغربية ، وقد زاد في هـذا زيادة كبيرة النهضات القومية ، والحركات الوطنية الاسلامية التي كانت، تكاد لا تعرفه في

القرن الماضي ، وهي قد أصبحت اليوم على أتم ما يكون من النظام ، والكفاية من أسباب الذيوع والدعاية . ولنا مثال على هذا وهو صحف الدعوة للجامعة الاسلامية وهي التي أشار اليها ڤامبراي ، فقد تعاظمت تعاظماً غير مسبوق المثيل . ففي سنة ١٩٠٠ لم يكن في العالم الاسلامي أكثر من مئتي صحيفة دعوية ، فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٦ حد الخمسمائة صحيفة ، وأربى سنة ١٩١٤ على الالف صحيفة ؛ فالمسلمون يرحبون في بلادهم باسباب النقل والتواصل مثل البرد والبرق والقطر الحديدية ، وغير ذلك مما يساعد على تطيير الانباء ونقل الاخبار . وكل بلاد من بلاد المسلمين هي على اتصال دائم مع سائر البلدان الاسلامية ، اما توا على يد الرسل ، والسعاة ، والحجيج ، والسياح ، والتجار ، والبرد ؛ واما على يد الصحف الاسلامية والكتب والنشرات والمجلات . ففي القاهرة ترى صحف بغداد وطهران وبشاور ، وفي البصرة وبومباي ترى صحف القسطنطينية ، وفي المحمرة وكربلاء وبورت سعيد ترى صحف كلكتا . واما الوسائل الكبرى للدعاية في سبيل الجامعة الاسلامية فهي الطرق الدينية التي سبق لنا الكلام عليها وهي حقا كالسيل الطامي فانها ما أدركت أمة مسلمة الا استولت على مشاعرها وقلوبها ، وسيرتها سهلة الانقياد الى تعاليمها . وترى دعاة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة ، فهم يجوبون الاقطار بألوف الازياء المتنكرة تجاراً ووعاظاً ومرشدين وعلماء وطلبة واطباء وعملة ومتسولين وفقراء ومساكين ، حتى ومشعوذين ودجالين ، وحيثما وصلوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على الرحب والسعة ، واخفوهم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية . »

زد على جميع هذا ان ساد اليوم في العالم الاسلامي سيادة عامة ، الاعتقاد الذي يؤيده الاحرار والغلاة والمحافظون وسائر الاحزاب معاً ، أن المسلمين اليوم هم في دور النهضة ، والانتقال ، والتجدد ، يستردون مجدهم الاسلامي الفائت ويستعيدون عزم التليد . قال السر ثيودر موريسون : « ليس من مسلم

يعتقد ان الحضارة الاسلاميـة فانية أو غير متجددة مترقية ، انما يعتقد ان قد مرّتها قهقرى قصيرة فحسب فقصر المسلمون أمرهم على التطوح في الاشادة بمجد الجدود ، وتعصبوا في ذلك وغالوا شديداً ، ولكن أمرهم هذا ما كان ليختلف في صفته عن الحال التي كانت سائدة في أوروبة خلال القرون الوسطى ، يوم كان ديجور الجهل مطبقا جميع البلاد النصرانية يعتقد المسلم اليوم ان العالم الاسلامي سائر في طريق استئناف الارتقاء ، يأخـذ عن الغرب ما يزيد في استحثاثه ويبعث فيه عزماً واقداماً ، ونشاطاً ، فتطورت الحياة تطوراً تبدت دلائله في كل قطر اسلامي . » (١)

فاذا كان دعاة الجامعة الاسلامية يجهرون بمثل هـذه الآراء ويصرخون تلك الصرخات في مفتتح هـذا القرن ، وقد جاءت الحرب العامة مصداقاً لما جهروا به السنين الطوال ، فلا جرم ان قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتدت قوة واندفاعاً . أضف الى هذا ان الغرب قد انقلب بعد الحرب العظمى ضعيف المنة ، واهن القوة المادية وهنا كبيراً ، ثم جاء الصلح مبنياً على اركانه الباطلة ، وطفق الخلاف ينشب بين الغالبين بعضهم مع بعض نشوباً قوض مكانهم تقويضاً وقضى القضاء الأخير على منزلتهم في عيون الشرقيين . وقد كان من شأن النزاع والمشادة بين كل من بريطانية وفرنسة وايطالية في الشرق ، ان ساعد المسلمين مساعدة جليلة على زيادة تساندهم وتماسك بعضهم مع بعض ، فاشتد ايقانهم بادراك المبتغى ثم ان هذا التعادي الذي قام به الحلفاء في الشرق قد سبب اضطراباً سياسياً عظيما في الغرب ، فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف . قال أحد كتاب الفرنسيس في الآونة الحديثة ينذر أوروبة انذاراً شديداً : « ان العالم الاسلامي بات لا يعترف بحدود أملاكنا الاستعمارية ، والعاقل الذي يريد اعتبار الحقيقة لا يعجبن من ذلك أقل عجب

(١) ذكر المؤلف في هذا الموضع كلاما مقتبسا من كتاب (يقظة الشعوب الاسلامية في القرن الرابع عشر للهجرة) لمؤلفة يحيى صديق ، اضربنا عن ترجمته — (المعرب)

ما دامت الدعوة الكبرى التي نشرها ورفع علمها جمال الدين في المسلمين تسير سيراً دراكا . »

وأي شيء أدل على هياج الاسلام ، وغليان مراجل حقده من ذلك الثوران الهائل الذي يقوم به السبعون مليوناً من المسلمين في الهند ، احتجاجاً على تجزئة المملكة العثمانية ؟ والامر الاخطر ان هذا الثوران الاسلامي ليس مقصوراً على الهند فحسب ، بل انه شامل المعمور الاسلامي ، وعلى ذلك فلم يغال السر ثيودر موريسون بانذاره : « لقد حان وايم الحق للامة البريطانية ان تعتبر وتتدبر خطورة ما هو جار في الشرق ، فان العالم الاسلامي اجمع ليهيج غضباً ، ويحتدم حنقاً ، من جراء تجزئة تركية . وما هذه اللوامع النارية التي تبدو في كابل والقاهرة الا البرق الذي تتلوه الرعود القواصف فالصواعق المزلزلة . اني قد أقمت في الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت في خلالها المسلمين حق المعرفة ، واري من الواجب علي الآن ان أنذر أمتي البريطانية بشر عقبى هذا الثوران الاسلامي الناشيء عن تجزئة تركية التجزئة المنوية . فان ساسة مؤتمر فرسايل قد خالوا تركية في الاناضول منقطعة عن سائر العالم الاسلامي ، فليس من شعب يغضب لها ، ولا من أمة تغار عليها . فما أسوأ هذا الخيال الباطل والوهم القاتل ! ! فمن شاء البرهان فلينظر الى هـذه الوفود الاسلامية العديدة ، الحالة بين ظهرانينا في لندن كأنها اللهب لا يصطلى به . فالمسلمون قاطبة في الهند ، من « بشوار » حتى « أركوت » قائمون قاعدون لما يرونه قد حل بساحة تركية والمسلمين ، حتى باتت النساء المسلمات يعولن اعوالا شديداً ، ويبكين حالة الاسلام بكاء الامهات اطفالهن ، وترى التجار وهم أبعد طبقات الامة من مزاولة الشؤون السياسية يفرون من حوانيتهم ومتاجرهم خفافاً الى حيث ينظمون رفائع الاحتجاج ويطيرونها بالبرق الى انحاء العالم ، وترى الطوائف العديدة من رجال الدين المتقشفين ، المتشددين ، المضروب بهم المثل في شدة انقطاعهم عن جاري الحوادث في العالم ، يخرجون من المساجد

مواكب مواكب ليشتركوا في القيام بالتظاهرات والاحتجاجات . »

وأغرب مافي الحالة ان الاحرار قد أخذوا ينتظمون اكثر فأكثر في عداد رجال الجامعة الاسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوة والحول ، على اعتقادهم بوجوب الأخذ عن الغرب واقتباس الآراء والافكار منه ، وذهابهم مذهباً مخالفاً لغلاة الجامعة الاسلامية وارباب الطرق الرجوعية ، والحامل كل الحامل لهم على ذلك هو اشتداد الضغط والعسف الاوروبي ، فهم ازاء هذا الخطب الكبير يسعون في رده بموالاة الاحزاب الأخرى والتحالف معها ، ولو الى حين ، مع علمهم ان الاحزاب الوطنية المغالية واحزاب الجامعة الاسلامية اذا أثارت حرباً عامة باسم الجهاد ، فمن شأن هذه الحرب ان تفتح غوراً بعيد المهوى بين الشرق والغرب ، وتقضي على تلك العوامل والمؤثرات السارية من هذا الى ذاك ، وهي التي ترى اليوم دابة في كل عرق من عروق العالم الاسلامي باعثة فيه القوة والعزم ، ومع علمهم ايضاً ان حرباً كهذه تشعل نار التعصب الرجوعية في المعمور الاسلامي ذلك التعصب الذي اذا عاد فاتقد أوهن حركة الاصلاح الحديث في الاسلام ايهاناً شديداً فأخرها مدة مديدة .

ولعل الذي عرف حتى اليوم من ثوران الاسلام لايعد اكثر من مقدمة لما سيحدث في السنين المقبلة . ولنا دليل على هذا ظهور الدعوتين العظيمتين للاصلاح الديني في الاسلام اصلاحاً ضارباً الى التعصب ، أما الاولى فهي دعوة « الاخوان » التي نشأت منذ نحو عشر سنين في نجد قلب بلاد العرب ، وهي الوهابية عينها التي كانت نشأت منذ مئتي سنة خلت ، وهذه الوهابية الحديثة مابرحت تنتشر انتشاراً سريعاً حتى طبقت كل نجد ، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير اعني به ابن السعود ، خليفة سعود الذي كان رأس الدعوة الوهابية منذ مئة سنة . وأما « الاخوان » الجدد فعلى تعصب شديد منقطع النظير ، وخطتهم هي حلم الوهابية القديم من الاصلاح الديني العام في العالم الاسلامي . واما الاخرى فهي الدعوة « السلفية » التي نشأت في الهند

منشأ يشابه دعوة « الاخوان » في نجد ، غير انها قد انتشرت في هذه السنين الاخيرة انتشاراً عم كل رقعة اسلامية . وغرضها كغرض الوهابية من حيث الاصلاح المزيج بروح التعصب . وغالب اتباعها من حلقات « الدراويش » . هـذه هي الحالة التي مع ماتنطوي عليه من مختلف العوامل المبسوطة الذكر تنخر نخراً متغلغلاً في سلم الشرق .

واذ قـد بلغنا في الـكلام على الجامعة الاسـلامية من وجهتيها الدينيه والسياسية الى هذا الحد ، يجدر بنا ان نقول كلمة في الجامعة من حيث وجهتيها التجارية والصناعية ، وذلك مايعرف بالجامعة الاسلامية الاقتصادية :

ان السبب في انتشار الجامعة الاسلامية الاقتصادية ، هو عوامل الاستنزاف، واحتياز موارد الثروة في الشرق . فمن قبل خمسين سنة خلت كان العالم الاسلامي يتسكع في « اجياله الوسطي » ، فـكانت الشريعة الاسـلامية ، وما فيها من تحريم الربا ، مرعية حق الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الحالي ميسورة ، وماكان هناك من بعض التجارة والصناعة انما كان غالبه في ايدي النصارى واليهود من أهل البلاد . زد على هذا ان التزاحم الغربي جاء فانتشر فزلزل الحياة الاقتصادية الشرقيـة زلزالا هائلا ، اذ ان فتح اوروبة للعـالم الاسلامي الفتح السياسي كان عاشيه الفتح الاقتصادي جنباً الى جنب ، وربما كان هذا الاخير أتم نظاماً وأكمل عدة ، فبات كل صقع شرقي في طوفـان من البضاعات والحاج البخسة الاثمان ، المنقولة من اوروبة ، ووراء ذلك رؤوس الاموال الغربية متدفقة لاتحصى ، تتسرب في البلاد وتنتشر بأخدع الصور وأملق الاساليب ، كالقروض ، والامتيازات التي من شأنها متى ماعقدت ان تكون تمهيداً لاستقرار السيطرة السياسية الغربية .

فنصر اوروبة الذي نالته في فتحها هذا الفتح السياسي الاقتصادي التام كان باعثاً للشرقيين على العداء والمقاومة ، فاستيقظ العالم الاسـلامي غضبان فهاله مارآه في دياره من الاسـباب والادوات الغربية المـأتي بها لاستنزافه

واستنفاد خيراته الطبيعية ، فقدر حوله ازاء حول الغرب الجبار العاتي فأدرك شقة البعد ، فطفق للحال يجد في سبيل التحرر الاقتصادي جده في سبيل التحرر السياسي من ربق الذل والاستعباد . ثم انشأ حكماء المسلمين ، وأرباب الدراية فيهم والرأي السديد . يلتمسون الاسباب الغربية الفضلى ، التي من شأنها ان ترقى بالعالم الاسلامي رقياً اقتصادياً جليلا ، فنسخت الاساليب والمناهج الغربية . ونسج على منوالها ، وماكانت تحريمات الشريعة لتقف سداً في وجه النهضة ولا لتحول دون مجراها .

فنتج عن ذلك تطور عظيم في الحياة الاقتصادية اخذ ينمو ويزداد ، ناهجاً منهجاً اقتصادياً غربياً . ولكنه حتى اليوم مابرح يجتاز الدور الاول من ادواره ، وهو أظهر وأبين في البلاد التي هي أشد صلة ومساساً بالسيطرة الغربية كالهند ومصر والجزائر . أما متجهه فواحد في كل قطر اسلامي ، وسنفصل الكلام على هذا في فصل التطور الاقتصادي . فما يجب اعتباره في هذا المقام هو تدبر شأن هذا التطور من حيث صلته بالجامعة الاسلامية ومنزلته فيها . وهذا الشأن هو عظيم جداً . لأن أوثق وحدة ، وأمتن صلة ، ظهرت في المسلمين حتى اليوم انما هي الوحدة الاقتصادية بلا مراء . ولا يعزب عن البال ان الروابط الدينية والصلات الخلقية التهذيبية ، التي تجمع بين المسلم والمسلم ، ما انفكت تزيد في تواثق المسلمين وتآزرهم ، وتعاطفهم وتضامنهم ، كأنهم في المعمور الاسلامي أمة واحدة بعضها يغار على بعض وجانب يساند آخر . دع ماهو هناك من الاسباب الغربية للنقل والتواصل ، المسهلة على المسلمين القيام بالاسفار الى كل جهة أرادوا ، فازداد بذلك تعارفهم واستمسكت أواصرهم ، فنشأ فيهم نشء جديد ، ابناؤه مقاديم ، بعداء الهمة ، اشداء العزم ، فيهم التجار وأرباب السفن البحرية والاعمال التجارية ، والصيارفة ، والسماسرة حتى وأرباب المصانع والمعامل ، ممن لم ير امثالهم في المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا . وأبناء هذا النشء الجديد على غاية

من التفاهم والتواثق . تربط بعضهم ببعض الروابط الاسـلامية ، ويحملهم التزاحم الغربي المنتشر في بلادهم على شدة التضامن ، فلهم في الواقع من سعة المجال للعمل المنظم والاتحاد الوثيق ماليس مثله لساسة المسلمين ، اذ في الافق الاقتصادي يتلاقى الاحرار ودعاة الجامعة الاسلامية والغلاة وسائر الاحزاب الوطنيـة على أتم وئام . فلا خلاف بينهم في هذا الميدان يفضي بهم الى الانقسام لعلة اتباع احدى السياسات ، كسياسة الثورة أو الجهاد ، انقساماً يحملهم على تهديد أوروبة المسلحة ، أو يؤدي بهم الى المجازفة بالنفوس والدماء والاموال ، بل هم جميعاً في نطاق الجامعة الاقتصادية سواء ، متحدو الكلمة ، يجدّون في سبيل الحياة الاقتصادية الاسلاميـة ، متوخين في ذلك الطرق والاساليب التجارية التي لا يجرأ الغرب ان يحول دونهم ودونها ولا يقف في وجهها .

فما هي غاية الجامعة الاسلامية الاقتصادية ترى ؟ انما هي : ثروة المسلمين للمسلمين ، وثمرات التجارة والصناعـة في جميع المعمور الاسلامي هي لهم يتنعمون بها وليست لنصارى الغرب يستنزفونها . وهي نفض اليد من رؤوس المال الغربية والاستعاضة عنها برؤوس مال اسلامية . وفوق جميع هذا ، هي تحطيم نواجذ أوروبة تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ، وذلك بهـدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجمارك ، العقود التي مادامت خارجة من ايدي العالم الاسلامي فهو يظل عالة على الغرب .

هذه هي اغراض الجامعة الاسلامية الاقتصادية، وجميعها حديث المنشأ ، وسببه السيطرة الغربية الشديدة في العالم الاسلامي ـ السيطرة التي نتكلم عليها في الفصل التالي من هذا الـكتاب .

التعليق على مسلمي الصين

(راجع اشارة رقم(١) في (ص١٠٢)، واشارة رقم(١) في (ص١٣٠))

مسلمو الصين كانهم ليسوا من هذه الدنيا فالمعلومات عنهم قليلة والروايات بشانهم متناقضة والى هذه الساعة لم يعرف المؤرخون كيف كان وصول الاسلام الى الصين أوصل اليها بحراً من طريق الهند أم وصل براً بطريق تركستان وما وراء النهر كما ان الجغرافيين وعلماء الاحصاء الى اليوم لم يتفقوا على عدد المسلمين الصينيين فمنهم من يجعله عشرين مليوناً ومنهم من يجعله خمسة وعشرين مليوناً ومنهم من يقول ثلاثون ومنهم من يقول اربعون وكثيرون اكدوا القول بان في الصين ٦٠ مليون مسلم ومن هؤلاء بعض علماء من مسلمي الصين جاؤا الى الاستانة ومصر وأكدوا ان المسلمين هناك لايقلون عن ستين مليوناً وكذلك روى لي مستشار سفارة الصين في برن قاعدة سويسرة وبخلافه قال غيرهم فاكدوا أن مسلمي الصين لايزيدون على عشرة ملايين وان بعثة اولون Mission d'ollone التي ارسلت بمساعدة نظارة المعارف الفرنسية وجابت بعض اقطار الصين لاتجد المسلمين يزيدون على خمسة ملايين في جميع بلاد الصين وان كانت تقول انها لاتقدر ان تجزم بشيء.

وأما دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، فتقول انه لايمكن الاعتماد على قول وثيق من جهة العدد ولكن بروومهال Broumhall ارسل سؤالا الى نحو ثمانمائة شخص من اهل الصين فجاءه نحو ٢٠٠ جواب من أماكن مختلفة فأستخلص ماياتي :

ولاية كانسو اقل مايقدر فيها مليونان من المسلمين ومعظمه ثلاثة ملايين ونصف مليون. والمسلمون في كانسو كثيرون في غربي هذه الولاية ومواليدهم تزيد بالنسبة على مواليد الصينيين ويوجد نواح خلت من الاسلام بعد الثورات التي جرت ففي « ليانغ تشوفو » لم يبق سوي ٧٠ مسلماً . وفي «هسي نينغ فو» يوجد ٢٥٠ الفاً وفي « لان تشوفو » قاعدة الولاية ٢٥ الفاً ولهم جوامع عظيمة وربما منعوهم بسبب الثورات الاخيرة من السكنى في داخل المدن فسكنوا في الضواحي وكانت لهم جوامع فيها كما هو الحال في « نينغ هسيا » و« بينغ ليانغ » .

ولاية « شنسي » كان فيها قبل الثورات مليون مسلم ولا يظن انه باق فيها اليوم أكثر من خمسمائه الف. ويوجد في «سنغان فو» سبعة جوامع وفي (تشونغفو) ثلاثة.

ولاية شانسي يقال ان فيها ٢٥ الف مسلم

ولاية (تشيهلي) الاحصاآت تختلف كثيراً فمنها ما يجعل مسلمي هذه الولاية ٢٥٠ الفاً ومنها مايجعلهم مليونا وفي باكين من ٣٠ الى اربعين جامعاً ومنها المسجد الاعظم (نين شيه) الذي يدرس فيه علي رضا التركي . ويقدر عدد المسلمين فيها بعشرة آلاف . وفي ارباضها مسلمون كثيرون . كذلك في الشمال من جدار الصين الكبير عدد وافر من المسلمين.

ولاية (شانتونغ) هم فيها من ١٠٠ الى ٢٠٠ الف نسمة.

ولاية (هونان) هم فيها أكثر من ٢٠٠ الف نسمة ففي مدينة (هوي شينغ فو) اربعون الفاً والقرى المجاورة كلها مسلمة وفي (شنغ شو) عشرة آلاف واهالي « هوي تين شي » كلهم مسلمون ومساجدهم كثيرة .

ولاية (كيانغ سو) مظنون ان فيها ٢٥٠ الف مسلم . وفي « نانغ كينغ » عشرة آلاف لهم ٢٥ جامعاً .

ولاية « ستشوان » ليس عندنا معلومات راهنة الا عن قسم منها فيه ٥٠ الف مسلم والمظنون ان الولاية كلها تحوي ٢٥٠ الفاً . ومركز الاسلام هو في الشمال الغربي من البلاد مثل (سونغ بان تينغ) وينمو الاسلام كثيراً على حدود التيبت . وبلدة (كيو شياو) فيها ١٢ اماماً و١٠٠ اهونغ اي عالم .

ولاية (كوي تشو) لايوجد فيها أكثر من ١٠ آلاف مسلم ولهم اربعة مساجد .

ولاية (ينان) يختلف الاحصاء فيها من ١٦٠ الفا الى مليون . وقد نسفت الثورات من بلاد الاسلام فيها جانباً كبيراً وان مدناً كثيرة صارت قاعاً صفصفاً . ويقال ان مسلمي ينان يخفون عددهم الحقيقي اجتنابا لمخاوف الحكومة الصينية . ولا يختلف مسلمو ينان عن الصينيين لا في الزي ولا في الفكر ويظن دافيز Davies ان المسلمين في السهول هم اضعاف مضاعفة مما هم في الجبال وانهم ثلاثة في المائة أي ثلاثمائة الف نسمة لا غير . وأما سوليه Soulié ففي مجلة العالم الاسلامي سنة ١٩٠٩ حزرهم من ٨٠٠ ألف الى مليون وكذلك المبشر رود يقول ان في ينان مليونا من المسلمين وعلى كل حال فحساب تيرسان Thiersant صاحب كتاب (المحمدية في الصين Le Mahamétisme en Chine) بأن مسلمي ينان هم اربعة ملايين هو بعيد .

ولاية « هوبه » ليس فيها اكثر من عشرة الاف وفي (فوشانغ) ثلاثة مساجد وفي (هانكو) مسجدان .

ولاية (كيانغ سي) هم اكثر قليلا من ٢٠٠٠

ولاية (آن هوي) فيها اربعون الفا ويكثرون في شماليها وفي العاصمة (انكينغ) ستة الاف ومسجدان

ولاية « تشيكيانغ » فيها ٧٥٠٠ فقط . ومدينة (هانغ تشوفو) التي يذكرهـا جغرافيو العرب وشاهد فيها ابن بطوطة محلة اسلامية عظيمة غنية لم يبق فيها اليوم الا مئات من العائلات ونحو اربعة مساجد .

ولاية (كوانغ تونغ) فيها ٢٥ الفاً واما خانسو التي يسميها جغرافيو العرب الخنساء وابن بطوطة يقول لها (سيني كالان) فلم يبق فيها سوى ١٠ آلاف مسلم وخمسة جوامع .

ولاية (كوانغ سي) فيها من ١٥ الى عشرين الفا منهم ثمانية آلاف في العاصمة (كوي لين) وفي هذه المدينة وفي (فوتشو) ستة جوامع .

ولاية (فوكيين) فيها الف مسلم فقط ولهم مساجد في (آموي) وفي (فوتشو) وفي (تشانغ تشوفو) ولا يوجد في آموي راكثر من اربعين الى خمسين مسلما هم من طبقة مأموري الحكومة .

ولاية منشوريا فيها ٢٠٠ الف مسلم منهم في مدينة موكدن ١٧ الفا.
ولاية مونغوليا : المسلمون فيها هم في الجنوب واحصاؤهم متعذر.
اما التركستان الصيني وان لم يدخل هنا فالاحصائيون يجعلون فيه من مليون الى مليونين واربعمائة الف مسلم.

ونتيجة هذه الاحصاءات ان حدها الاصغر هو ثلاثة ملايين وسبعمائة الف وان حدها الاعظم هو سبعة ملايين واربعمائة الف ". ومن اغرب الغرائب ان المبشرين الاوربيين يناقض بعضهم بعضا في الشهادات في مثل ان بعضهم يذكر وسطا اسلاميا عظيما فيه المدارس والمساجد والآخرين يقولون اننا لم نشاهد من ذلك شيئا . انتهى بتصرف من الانسيكلوبيدية الاسلامية .

على ان تيرسان صاحب كتاب (المحمدية في الصين) الواقع في مجلدين يحصي المسلمين ٢٥ مليونا في الصين وكذلك الجغرافي الفرنسي الشهير اليزه ركاوس يقول في جغرافيته العامة ما يأتي :

ان المسلمين لهم بال كبير في المملكة الصينية وقد حزرهم سكاتشكوف بعشرين مليونا ولكن هذا العدد يظهر ضئيلا بالقياس الى اقوال مؤرخين آخرين من الصين ففي ولاية كانسو كان المسلمون هم الاكثرية كما انهم كانوا في كثير من نواحي شمالي الصين نحو ثلث السكان ويجب أن نحسب منهم الدونغان وسائر مسلمي دونغارية وكولجه وتركستان الشرقي لاجل ان نعلم اهميتهم ويراهم الانسان اعلى درجة من سائر ابناء وطنهم وأعز نفوسا وأصرح نظراً وفي ولايات غربي الصين يتقلدون السلاح وهم لايشربون المسكرات ولا التبغ ولا الافيون فتجدهم أصح اجساما من أبناء الملل الاخرى ويوجد بينهم تضامن يجعلهم اسعد حالا وأعظم ثروة من غيرهم ويفرضون على جماعاتهم ضريبة معلومة نظير العشر من الدخل لاجل انفاقه في مصالح الجماعة وهذا في ولايات كانسو وشنسي وفي بلاد يونان عندهم مدارس يتعلمون فيها العربية ويفهمون معاني القرآن كما ان الصلاة هي في كل مكان بالعربية وفي كانسو يوجد مئات من الجوامع ثم ان التجارة في الشمال تكاد تكون منحصرة في أيديهم لاسيما تجارة المواشي فتجدهم هم الذين يميرون باكين وسائر المدن الشمالية الساحلية الخ .

وقد همت مسألة اسلام الصين دول أوربا كثيراً لانها توجست ولا تزال تتوجس خيفة من انتشار الاسلام في الصين الى حد ان يصير هو الغالب على تلك المملكة التي عددها يزيد على اربعمائة مليون فاذا قدر الله دخول هذه المئات من الملايين في الاسلام حصل انقلاب في وجه العالم.

الاسلام في الصين

الاسلام قديم الهجرة في بلاد الصين يذكر الصينيون أن أول ظهوره بين ظهرانيهم كان لعهد السلطان (تايتسونغ) وذلك في القرن السابع للمسيح وان اول داخل من المسلمين الى تلك الديار رجل من عصبة النبي يقال له ابن حمزة جاء الى الصين بثلاثة آلاف مهاجر ونزلوا في (سنغان فو) وانه جاء على أثرهم مسلمون آخرون من طريق البحر وأقاموا بجهات يونان .

ويذكر مؤرخو الصين انه في نواحي سنة ٧٥٨ اقبل على بحر الصين متلصصة من العرب ياخذون كل سفينة غصباً فماثوا في تلك البحار وجاسوا خلال الديار واكتسحوا ضواحي كنتون واحتووا على مافي الاهراء السلطانية التي هناك . وهذه تباشير دخول العرب لتلك البلاد بحسب ماورد في تواريخ الصين.

ولم اجد الى الآن في الكتب التي طالعتها من كتب العرب أثراً لقصة ابن حوزة هذا ولا ما يوافقها وأنما روى المسعودي في تاريخه قصة نحكيها من بعض الوجوه نأثرها بالاختصار . وهي ان رجلا من قريش من ولد هبار بن الاسود خرج الى مدينة سيراف، وكان من ارباب البصيرة وذوي الاحوال الحسنة . ثم ركب منها في بعض مراكب بلاد الهند ، ولم يزل من مركب الى مركب ، ومن بلد الى بلد ، الى ان انتهى الى بلاد الصين الى مدينة (خانقو) ثم دعته همته الى ان سار الى ديار ملك الصين ، وكان الملك يومئذ بمدينة حمدان وهي من كبار مدنهم فاقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر انه من أهل بيت نبوة العرب ، فامر بعد هذه المدة الطويلة بانزاله في بعض المساكن وازاحة العلة بما يحتاج اليه . وكتب الى الملك المقيم بخانقو يامره بالبحث عنه ،ومسألة التجار وعما يدعيه من قرابة نبي العرب صلى الله عليه وسلم . فكتب صاحب خانقو بصحة نسبه ، فاذن له بالوصول اليه ووصله بمال واسع واعاده الى العراق .

ويظهر من كتب العرب ، ان اول صقع عرفوه من بلاد الصين هو كاشغر . وذلك منذ سنة ست وتسعين للهجرة اذ غزاها قتيبة بن مسلم الباهلي في خلافة الوليد بن عبد الملك الاموي . قال ابن الاثير الجزري في تاريخه انه سار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند فلما عبر النهر استعمل رجلا على معبر النهر ليمنع من يرجع الا بجواز منه ، ومضى الى فرغانة وأرسل الي شعب عصام من يسهل الطريق الى كاشغر، وهي ادنى مدائن الصين ، فغنم وسبى وأوغل حتى بلغ قرب الصين ،فكتب اليه ملك الصين أن ابعث الي رجلا شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم . فانتخب قتيبة عشرة رجال لهم جمال وألسن وباس وعقل وصلاح فامر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشي وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابي فقال لهم اذا دخلتم عليه فاعلموه أني قد حلفت أني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم . فساروا وعليهم هبيرة فقال لهم ملك الصين قولوا لصاحبكم ينصرف فاني قد عرفت قلة اصحابه والا بعثت اليكم من يهلككم . قالوا : كيف يكون قليل الاصحاب من اول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون . وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فاكرمها القتل لسنا نكرهه ولا نخافه . وقد حلف ان لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية . فقال فانا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطأه ونبعث اليه بعض ابنائنا فيختمهم ونبعث اليه بجزية يرضاها . ثم اجازهم وبعث بما ذكر الى قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطيء التراب . فقال سواد بن عبد الملك السلولي :

لاعيب في الوفد الذين بعثتهم	للصين ان سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الردى	حاشى الكريم هبيرة بن مشمرج
ادى رسالتك التي استدعيته	فاتاك من حنث اليمين بمخرج

ووصل الخبر الى قتيبة في هذه الغزاة بموت الوليد ثم قتل قتيبة في السنة نفسها ولا يبعد انه لو بقي حيا لاستأنف الكرة على الصين لما هو معهود من بعد همته في الجهاد . ولا شك ان الاسلام كان قد دخل في البلاد منذ ذلك الوقت وكثرت اتباعه وما زالوا على نمو وازدياد. يلحظ ذلك من تضاعيف الحوادث المذكورة في تواريخ العرب فقد ذكر ابن الاثير انه في سنة اربع وستين ومائتين ظهر ببلاد الصين انسان لايعرف جمع عماراً من العامة وأهل الشر وقصد بهم مدينة خانقو وحصرها . قال وهي حصينة ولها نهر عظيم وبها عالم كثير من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس وغيرهم من اهل الصين . هذا في القرن الثالث للهجرة واما بعد ذلك فترى الاخبار عن مسلمي الصين كثيرة : نقل الامام احمد القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ عن الشريف حسن بن الجلال السمرقندي وكان من السفار وممن جال الآفاق ودخل الصين وجاب آفاقه وجاس خلاله انه قال ان من عجائب مارأى في مملكة القان (أي الخان) انه مع كفره في رعاياه من المسلمين امم كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون ومتى قتل احد الكفار مسلماً قتل القاتل الكافر وأهل بيته ونهبت أموالهم وان قتل مسلم كافراً لايقتل به بل يطلب بديته ودية الكافر عندهم حمار لايطالب بغيره .

ولم يدخل الاسلام بيت الملك في تلك البلاد الا ما كان ببلاد المغول في ذرية جنكيز خان وفي كاشغر . قال ابن خلدون في الجزء الخامس من تاريخه عند ذكر الترك انه كانت لهم دولة ببلاد تركستان وكاشغر وان ملوكهم اسلموا بعد صدر من الملة على بلادهم وملكهم وكان بينهم وبين بني سامان القائمين فيما وراء النهر بدولة بني العباس حرب وسلم .

قال يحيي بن احمد بن علي النسابي كاتب جلال الدين خوارزم شاه في تاريخ دولته ان مملكة الصين منقسمة من قديم الزمان على تسعة اجزاء كل جزء منها مسيرة شهر ويتولى كل جزء منها ملك يسمى بلغتهم خان ويكون نائباً عن الخان الاعظم وكان جنكيز احد الخانات المذكورين فتغلب عليهم جميعا وصار الملك الاعظم . وفي كتاب ابن فضل الله محكيا عن الصاحب علاء الدين عطاء ان دينه ودين قومه كان المجوسية حتى ملكوا الارض واستفحلت دولتهم بالعراق والشمال وما وراء الهند فاسلم من ملوكهم من هداه الله للاسلام .

وذكر ابن خلدون في الكلام على ملوك بني جغطاي بتركستان وكاشغر وما وراء النهر انهم كانوا اولا كلهم على دين المجوسية يعضون عليها بالنواجذ فلما صار الملك الى ترماشين منهم أسلم سنة خمس وعشرين وسبعمائة وجاهد وأكرم التجار المترددين .

وذكر الملك المؤيد صاحب حماه في تاريخه في خبر الملوك بني دمرش خان وهو من أولاد جنكيز خان انه لما مات دوشي خان ولي مكانه ابنه ناظوخان ثم مات وولي بعده طرطو خان ثم مات فولي بعده ابن أخيه واسمه بركة فاسلم على يد شمس الدين الباخوري وكان مقيما ببخارى كتب اليه يدعوه الى الاسلام فاسلم وان بركة هذا اعمل الرحلة الى لقاء شمس الدين فلم يأذن له في الدخول حتى تطارح عليه اصحابه وسهلوا الاذن لبركة فدخل وجدد اسلامه وعاهد الشيخ على اظهار الاسلام وان يحمل عليه سائر قومه فحملهم واتخذ المساجد والمدارس في بلاده وقرب العلماء والفقهاء ثم ذكر المؤرخون اسلام أزبك بن طغرلجاي من سلالتهم واسلام تكدار بن هولاكو وخربندا بن ارغو ثم احمد بن هولاكو . وفي مختصر الدول لابي الفرج الملطي

صورة كتاب كتبه الى سلطان مصر في ذلك الوقت جاء فيه « بقوة الله باقبال قاآن فرمان أحمد . اما بعد فان الله تعالى بسابق عنايته وبنور هدايته قد كان ارشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة الى الاقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته والشهادة لمحمد عليه افضل الصلاة والسلام بصدق نبوته (الى ان يقول) وانفذنا اقضى القضاة قطب الدين والاتابك بهاء الدين وهما من ثقات هذه الدولة القاهرة ليعرفاهم طريقتنا ويتحقق عندهم ما ينطوي عليه لعموم المسلمين جميل سلتنا ويبينا لهم انا من الله على بصيرة وان الاسلام يجبّ ماقبله الخ » .

وقال القلقشندي (في صبح الاعشى) ان أول من أسلم من ملوك هـذه المملكة ترما شيرين فاسلم وأحسن اسلامه واخلص وأيد الاسلام وقام به حق القيام وأمر به أمراءه وعساكره وذكر ايضاً عن بكدار انه أسلم .

وقد بقي الاسلام في اعقاب الاويغور طائفة جنكيز خان الى يومنا هـذا . ففي جغرافية اليزه ركلوس ان الاويغور والطانغون سكان بلاد كانسو كانوا قديمـاً من عبـدة اللاما ومن النساطرة فاسلموا وأسلم بهم جميع سكان الشمال والغرب من مملكة جغطاي ثم ازداد عددهم بمهاجرة المهاجرين من اهالى التركستان الشرقي ومسلمي المغول الذين بقوا من عهد تمرلنك وبهذا صارت الاغلبية للاسلام في هذا القسم من مملكة الصين .

ولما دخل ابن بطوطة الصين على ماذكر في رحلته كان الاسلام فيها غضـا وافراً حسب ما يفهم من كتابه فهو يقول في الجزء الرابع من رحلته : وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون فيها بسـكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون .

ولما ذكر مدينة زيتون قال : وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والارض وداره في وسطها كمثل مافي بلدة سجلماسة في بلادنا وبهذا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة . ثم قال ممن تعرفه من صدور تلك البلاد وجاء اليّ قاضي المسلمين تاج الدين الاردويلي وهو من الافاضل الكرماء وشيخ الاسلام كمال الدين عبد الله الاصفهاني وهو من الصلحاء وجاء الي من كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزي أحـد التجار الذين استدنت منهم حين قدومي الى الهند وهؤلاء التجار لسكناهم في بلاد الكفار اذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الاسلام وله يعطون زكوات اموالهم فيعود غنيا كواحد منهم .

وقال عند ذكره مدينة صين كلان ان ببعض جهاتها بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض وشيخ ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضي بينهم وكان نزولي عند أوحد الدين السنجاري وهو أحد الفضلاء الاكابر وذوي الاموال الطائلة .

وذكر عند وصوله الى مدينة قنجنفو ان المسلمين فيها يسكنون داخل السور الثالث وانه نزل عند شيخهم ظهير الدين القرلاني وقال عن الخنسـاء انها ست مدن كبار وان بالمدينـة الثانية منها مسكن اليهود والنصارى والترك وبالثالثة مسكن المسلمين وبها المساجد ولاولاد

عثمان بن عفان المصري وهم كبراء المسلمين فيها زاوية تعرف بالعثمانية وبها طائفة من الصوفية والمسلمون كثيرون في هذه البلدة .

والظاهر أن الاسلام ما برح ينتشر في آفاق الصين حتى بلغ عدد أهله عشرات من الملايين . زعم سكاتشوف انهم عشرون مليوناً فقط وذهب الاكثرون الى أن عددهم فوق هذا بكثير وأحصاهم صاحب كتاب (Le Mahométisme en Chine المحمدية في الصين) بخمسة وعشرين مليوناً وزعم بعضهم انهم اربعون مليوناً وقال آخرون انهم يربون أيضاً على ذلك وأن السواد الاعظم في ولاية كانسو هو منهم وهناك مدينتا سالار وكنكيابو محطا رحال الطلاب والمتفقهين من جميع أقطار الاسلام الصينية . وقد أحصي عدد المساجد في بعض مدن كانسو فبلغ مئات وهو ما لم يعهد الا لعواصم الاسلام الكبرى مثل الاستانة العلية ودمشق والقاهرة وان كثيراً من ولايات الصين الشمالية ثلثها من المسلمين وهم أهل التجارة والكد والعمل ولذلك تجد حالتهم أجمل وأزين من حالة بقية الصينيين وكثيراً ما يأخذون أولاد الفقراء من الوثنيين ويربونهم في حجر الاسلام خصوصاً عند حصول المجاعات الشديدة . وقد شدد فقهاؤهم عليهم في أداء الزكوات فيجمعونها في صناديق لكل بلد ينفقون منها في شدائدهم ويسدون بها عوز محاويجهم فتجد المعدمين منهم قليلين وهم بعضهم على بعض حنان ورأفة وحفيظة فيما بينهم وعلى عدوهم لا توجد في الأمم التي تساكنهم كذلك بسبب تجافيهم الافيون وأنواع المسكرات تجد أجسامهم أحسن من اجسام غيرهم فهم يفوقون جيرانهم الصينيين صورة ومعنى ويسميهم الصينيون “ هواي هواي ” وهذا لقب طائفة الاويغور في الماضي وأما هم فيؤثرون أن يسموا “ كيا ومن ” أي أهل الدين عطفاً على “ ان الدين عند الله الاسلام ” . ومسلمو بلاد يونان الجنوبية يعرفون باسم “ بانطي ” وجميع المسلمين هناك يتميزون عن سائر الاهالي بملامحهم وشاراتهم ووحدة ملابسهم ويلوح عليهم من النعرة والانفة مالا يلوح على سواهم وكلهم من أهل السنة والجماعة ولكنهم في الفقه فئتان الحنفية والشافعية وهم يكرهون جداً الاختلاط بالوثنيين ولا يزوجونهم وانما يأخذون من بناتهم في الاحايين شراء بالدرهم .

وقد وقعت لمسلمي الصين في هذا القرن مع أهل تلك المملكة حروب تشيب لها الاطفال اذا استقصى خبرها المؤرخ لم تكفه فيها المجلدات وملخصها أن أول ثورة حصلت هناك هي في بلاد يونان بسبب عملة من الفريقين كانوا يعملون في احد المعادن فاسفر القتال عن الغلب للمسلمين وتكررت الحوادث والظهور لهم حتى بلغ الحنق من ولاة الصين مبلغه فاستنفروا اليهم الوثنيين قاطبة ونادوا باستئصال شأفتهم وتعفية آثارهم وذلك في يوم معين من شهر أيار (مايو) أحد شهور سنة ١٨٥٦ فاستشعر المسلمون ذلك قبل وقوعه وأخذوا له أهبتهم وبجروا واستلأموا فلما وقعت الواقعة توفرت الطائلة لجهتهم ولم تنل الحكومة منهم مأرباً الا في القرى التي مسلموها قليلون . وتكررت الوقائع وصمد الفريقان بعضهم لبعض من أكثر جهات البلاد والمسلمون في غلبة وظهور حتى افتتحوا عنوة مدينة “ طالي فو ” وهي منيعة حصينة من الطراز الاول في حصون الصين وفتحوا منها طريقاً الى برمانيا يسربون منه اليها الميرة والسلاح ثم استولوا على مدينة “ يونان فو ” حاضرة البلاد ومضي على دولتهم هذه وهبوب ريحهم بتلك الارض

ثلاث عشرة سنة والصين لا تزداد أمامهم الا انخذالا حتى أيقنت أن لا قبل لها بقهرهم بذباب السيف فالت الى اعمال الحيلة والدسائس وجاذبت زعماءهم حبال الرشوة ومنتهم الاماني وادرّت عليهم العطايا الوافرة سرا وولتهم الاعمال الخطيرة حتى فصمت عرى اتحادهم وحلت بنفثات سحرها عقدة جامعتهم بل استمالت بعض رؤسائهم الى أن وقفوا في صفها يقاتلون بني ملتهم فبديهي أن تنحل بعد ذلك عصبتهم وتفشل ريحهم وان يزرع الصينيون فيهم الانتقام حتى يهلك منهم ثلاثون ألفاً بحد السيف ويلحق أقوام منهم بمملكة برمانيا .

أما في شمالي الصين فاستطار شرر الفتنة سنة ١٨٦٠ وذلك في «هواتشيو» شرقي «سينغان فو» وكانت الدائرة على الصينيين وتأثرهم المسلمون في كل سهل وجبل يقتلون ويسبون ولكنهم عجزوا عن دخول سينغان فو لمناعة أسوارها ثم امتد لهيب الثورة في تلك البلاد ونادى منادي الاسلام ياللثارات فقاموا قيامة الرجل الواحد وفر الصينيون والمنول من أمامهم وانهال المسلمون في أثرهم يشلونهم شلا ويستقصونهم أسراً وقتلا وامتلأت ولايات شانسي وكانسو عيثاً ودمارا والتجأ الوثنيون الى الكهوف والمغاور وظنوا أنها مانعتهم فلم تكن بمانعتهم واشتمل الخراب على تلك البلاد حتى لم يبق قرية الا خوت على عروشها ولم يذر المسلمون الا على المسيحيين ولم يبق عامراً من تلك الجهات الا الامصار الكبيرة بما ادير عليها من سياج الاسوار . وقدّر عدد الذين هلكوا في هذه المعمعة بالملايين . وحدث بعض مؤرخي الافرنج ان من المسلمين من بلغ منه الحنق أن قتل أولاده وامرأته ليتوفر على الجهاد .

والحاصل ان هذه الفتنة كانت من اكبر الفتن واستمرت خمسة عشرة عاماً كاد ينقطع أمل الصين في خلالها من استرداد البلاد ولكن لم يلبث الشقاق ان دخل بين المسلمين فادخل عليهم الوهن وتشظت عصاهم قطعاً فنالت منهم عساكر الامبراطور واسترجعت الشانسي ثم الكانسو ثم معاقل تيان شان وبددت شمل الباقين من الثوار في دز ونغاريا ولكنهم لا يزالون الى الآن أهل صولة وشوكة وشأنهم على ازدياد وجدهم في صعود ومنهم كثير من الحكام وقواد الجيش . وكثير من المؤرخين الاوربيين يظنون أن لهم وحدهم مستقبل السلطان في الصين . وقد بعثت الدولة الروسية مرة بعثا علميا جال في الصين وجاب آفاقها واطلع على دخائل امورها فكان من جملة ما قرره تحذير الروسية من مستقبل الاسلام في تلك المملكة لأنه ينمو ويتقدم واذا أخذ يوما بزمام الدولة انقلبت هيئة الشرق الاقصى انقلابا عظيما لان الصين اسلامية ليست كالصين وثنية (وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين) (١)

*
* *

ولقد ذهبت بعثة اولون الفرنسوية فجالت فى كثير من بلاد الصين من سنة ١٩٠٦ الى

(١) كان محرر هذه السطور قد نشر مقالات متتابعة في مجلة المقتطف عن الصين وأحوالها في سنة ١٩٠١ وعقد فصلا خاصاً بالاسلام في الصين يغني اعادة نشره عن البحث والتنقيب في كتب ورحلات كثيرة لأنه محص تمحيصاً جيداً (وهو هذا الفصل المتقدم) فلذلك نقلناه بعينه عن مجلة المقتطف جزء تموز (يوليو) سنة ١٩٠١ . ونضيف اليه التحقيقات التي جدّت بعد هذا العهد مثل أقوال بعثة اولون وكلام الانسيكلوبيديه الاسلامية مع ملاحظاتنا عليها .

سنة ١٩٠٩ ونشرت من مشهوداتها وما اتصلت اليه من المعلومات كتاباً ذكرت في مقدمته ان اصل ارسالها كان من نظارة المعارف لاجل فحص عام عن أحوال الصين . ولكن بعض العلماء استجلبوا نظر النظارة المشار اليهـا الى موضوع اسلام الصين بنوع خاص . فلذلك وجهت همها الى التحقيق عن أحوال المسلمين في الصين ونشرت ذلك الكتاب الذي تضمن خلاصة تدقيقاتها .

وهي ان المسلمين لم يكونوا يؤلفون في كل ولاية وحدة مستقلة قائمة بذاتها وان بين مسلمي الصين مذاهب مختلفة خلافاً لما كان يظنه السياح من قبل وان الطرق الصوفية معروفة لديهم . وظهر لبعثة اولون هذه في آخر ايام سياحتها وجود علاقات سرية بين مسلمي الصين ومسلمي الشرق الادنى .

وبعد تحرير بعثة اولون ما حررته عن مسلمي الصين ظهر كتاب انكليزي اسمه (الاسلام في الصين) لسائح اسمه برومهال وذلك في ٢٥ يناير سنة ١٩١١ وهو كتاب قضى صاحبه ١٩ سنة في السياحة في الصين والبحث والتنقيب وأخذ عن نحو ٢٠٠ رجل أمدّوه بمعلوماتهم . فتهافت على قراءته رجال بعثة اولون لعلهم يجدون شيئاً لم يحصوه في كتابهم فاذا به بزعمهم لم يكشف شيئاً جديداً فاتهم واذا هو لا يخرج عن كتاب تيرسانت Thiersant الفرنسي .

وبحسب تحقيقات بعثة اولون كان ظهور الاسلام في ولاية ينان وربما في كل الصين على يد الرجل الملقب « بالسيد الاجل » وهو سيد شريف من آل البيت اسمه شمس الدين عمر دخل في خدمة دولة الصين ونصح لها وكان من أفراد الرجال في جميع المزايا فتقدم في الدولة وتولى المناصب العالية وانتهى الامر بان السلطنة عهدت اليـه بولاية ينان فافاض الخير ونشر الامان ووزع العدل وأتى من المآثر ما لا يزال الصينيون يلهجون به الى هـذا اليوم وكان دخول الاسلام الى ينان في عهده .

وجاء في تاريخ « كيوسين تانغ شو » انه في صدر الاسلام ورد الصين عسكر عربي عدته ثلاثة آلاف ومن ذلك الوقت دخل الاسـلام في الصين ويظن ان هذا الحادث وقع سنة ٧٥٦ مسيحية .

ويقال ان أصل مجيء المسلمين الى الصين هو لاجل معاضـدة سلطان خاوع من سلاطين الصين . ومن ذلك الوقت صاروا يخدمون قواداً واجناداً في بلاط السلاطين وبقيت هـذه العادة الى عصرنا الحاضر فيجد الانسان توابير تامة من المسلمين يقودها امراء من المسلمين في دولة الصين .

وأما السيد الاجل فقد اطلعوا في ينان على تاريخ محرر في سـنة ١٦٨٤ يقال فيه انه لما زحف جنكيز خان الى الغرب جاء السيد الاجل عمر بألف فارس وقدم له الطاعة فأكرمه وجعله من بطانته (١٢٠٦ ـ ١٢٢٩) ولما آل الامر الى السلطان اوغوتاي (١٢٣٠ ـ ١٢٤٢) ولاه ثلاث ولايات وهي « فونغ » و (تسينغ) و (يون ناي) ثم استقدمه الى باكين وعهد اليه بمنصب عال . ثم لما تولى السلطان نانغو (١٢٥١ ـ ١٢٥٩) عهد اليـه بادارة ست نظارات بالاشتراك مع (تا اول هوان) ثم جعله مديرا عاما لقاطعة (يان كينغ) فأحسن الادارة جـداً فعهد اليه بنظارة الاستخبارات . ثم لما زحف السلطان الى بلاد

(تسو تشوان) جعله ناظرا للميرة العسكرية فقام بها أحسن قيام فلما تولى السلطان قوبيلاي أعطاه رتبة الوزارة وجعله عضواً في مجلس أمانة السر الاعلى . وكان كلما تقلد عملا ظهرت فيه فضائله وحاز رضى السلطنة . وسنة ١٢٧٤ تقدم اليه السلطان في ان يقبل ولاية ينان وكانت أحوالها مختلفة وكان أهل ينان شديدي الغباوة والجهل فلما ذهب الى هناك وجد القيادة في يد أمير من بيت السلطنة فخاف هـذا منه واراد ان يجاذبه الحبل الا ان السيد الاجل بحكمته وحسن سياسته استماله اليه وصيره صديقا . وكانت تلك الولاية في غاية الانحطاط والبلاد خرابا فنشر السيد الاجل العلم وبنى المدارس واعتنى بتهذيب الاخلاق وكذلك وجه همته الى عمارة الارضين فمهد الطرق وبنى المعابر والجسور والسدود لاجل المياه مما تلافى به خطر القحط فكانت بعض الانهار تطغى على الاراضي فتذهب بها زروع الفلاحين فجعل لها حواجز تقي من ضرر الطغيان . وكانت أراضي اخرى تعطش في الصيف من قلة المياه فبنى خزانات وحياضا احتياطا من ورآء العطش . وأزال المغارم والمظالم وأبطل السخرة وشيد ملاجيء للأيتام والعجزة وخفف المكوس وأحدث انموذجات زراعية يحتذى على مثالها وحفر الابآر وأقام الاسواق وأدخل في طاعة الدولة ما لا يعد ولا يحصى من الاقوام . واثناء وجوده في تلك الولاية عمر مساجد للاسلام ولكنه شيد أيضا هياكل لكونفوشيوس ولبوذا . وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة فيحدها من الشرق سونغ ومن الغرب بيرمانيه ومن الشمال التبت ومن الجنوب آنام . وبحسن سياسة السيد الاجل خضع ملوك التونكين وآنام لسلطان الصين .

ومن نوادر حكمته ان ملك لوبان ثار على السلطنة ، فصدر الامر الى السيد الاجل بالزحف اليه فلما سار بالجيش رآه الناس حزينا كئيبا فسألوه عن سبب كآبته فأجاب : لست كئيبا لكوني ذاهبا الى الحرب بل لكوني أتصوّر منكم كثيراً سيهلكون في هذه الملحمة بدون ذنب اقترفوه وانهم سيقتلون وينهبون اناسا كثيرين موادعين لا ذنب لهم أيضا . ولما وصل الى مكان الثورة أرسل الى الثوار يعرض عليهم التسليم فلبثوا ثلاثة أيام لا يجاوبون فهاج العسكر وطلب القواد الاذن بالهجوم فلم يأذن لهم بل راجع رئيس الثوار في أمر التسليم فأظهر هـذا الطاعة لكنه لم يسلم البلدة فوثب رؤساء الجند على البلدة فغضب السيد الاجل واستدعاهم وقال لهم : ان ابن السماء امرني أن اتولى بلاد ينان وأحكم فيها بالعدل والامان لا بالقتل والعدوان فلا ارضى ان تهاجوا البلد ما دام الثائرون وعدوا بالطاعة فان أبيتم الا سفك الدماء فجزاؤكم القتل . ثم أوثق الضباط الذين أرادوا الهجوم خلافا لامره . فلما سمع الثوار بما حصل جاءوا وسلموا وسكنت البلاد واطاعت عن بكرة ابيها .

وكان سائر العمال يقتدون بسيرة السيد الاجل ويتباهون باعماله فأمنت السوابل واستراحت الرعية وساد العدل وفاضت الخيرات وعمرت البلاد وصار يقال هنيئاً لبلاد ينان . أما آثاره في الزراعة فلا تزال بقاياها الى الا ن وان كثيراً مما بناه من الجسور لا يزال قائما الى يومنا هذا.

وكانت بلاد « تشاوتيان » تطغى عليهـا الانهر فتتحول الى بحيرة ، فحفر السيد الاجل نهراً حدر اليه تلك المياه كلها فصرفها عن الاراضى التي كان الماء يغمرها من قبل . وحفر ترعا كثيرة وخلجا لسقيا البقاع المحتاجة الى الري . وجعل بريداً مؤلفا من ٣٦٠ فارسا وحراسا

بقدرهم يسهرون على السدود بحيث اذا حصل فتق في أحدها اسرعت البرد بأخبار الحكومة فجمعت الحكومة الاهالي ونهضوا لرتق الفتق .

ومات السيد الاجل رحمه الله سنة ١٢٧٩ (مسيحية) فكان له مأتم عم الصين باسرها وبكاه أهل ينان كما يبكى الاولاد أباهم . وعم الحداد البلاد المجاورة الى بلاد سونغ وتبت وغيرها وذبحت القرابين في البلاط السلطاني .

وخلف خمسة أولاد و ١٩ حفيدا فكان خلفه في الامارة ابنه ثم ابن ابنه وتداول أحفاده الامارة وكانوا جميعا اعضادا للسلطنة .

وفي أيام دولة « مينغ » راجع السلطان « تاي تسوكاو هوانغ تي » (١٣٦٨ - ١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة السابقة فلم يجد بينهم في الحكمة والعدل والرفق بالرعية ووفرة آثار العمران مثل السيد الاجل فأمر بتسجيل سيرته في كتاب خاص بقيد المآثر اسمه « ين تشه شو » وان يدرس هذا الكتاب للطلبة وينشر في المملكة وقد ثبت هذا السلطان لقب السيد الاجل وهو « الامير الامين المحسن » وأمر ببناء هياكل تذبح فيها القرابين عن روحه .

وسنة ١٤٠٥ صدر أمر الحكومة الصينية بتأليف سيرة للسيد الاجل بقلم « تشينغهو » ويوجد في بلاد ينان هيكل باسم الامير « هيان يانغ » وهو لقب السيد الاجل عند الصينيين . ولا تزال أعقاب السيد الاجل الى اليوم واسرته معروفة منذ ٨٥٠ سنة . وأما أولاده الخمسة فأولهم نصير الدين والصينيون يقولون له « ناسولا تينغ » صار وزيرا للدولة ثم واليا على شانسي ثم على ينان ومات سنة ١٢٩٢ والثاني حسن صار قائدا عاما لجيوش « كوانغ تونغ » والثالث حسين صار وزيراً للدولة ثم واليا على ولاية « كيانغ سي » ثم واليا وقائدا عاما لولاية ينان بعد أخيه نصير الدين والرابع شمس الدين عمر كان مديرا عاما لمقاطعة « كيين تشانغ » من ولاية كيانغ سي والخامس مسعود والصينيون يقولون له « ماسوهو » وصار وزيرا ثم واليا على ينان .

أما احفاده فاشهرهم « بايان فنتشان » من أولاد نصير الدين صار وزيرا للعدلية ثم والياً عاما على ينان بعد عمه الحسين وقد نال الداب جده كلها وأسرع لنجدة الامبراطور في باكين فنال لقب الأمير الأمين المجتهد . وهو الذي رمم المسجد الاعظم في سينغان فو ونال للدين الاسلامي من الدولة الصينية اسم « الدين الطاهر الحق » . ومن اولئك الاحفاد عمر والصينيون يقولون له « قوما أول » وكان من وزراء الدولة وصار واليا على « كيانغتشو » ومنهم جعفر كان قائدا عاما لعساكر « كينغ هو » ومنهم حسين صار وزيرا الدولة وخلف اخاه بايان تشيان على ولاية ينان . وشادي صار حاكما في احدى مقاطعات ينان . وأيوب والصينيون يقولون له « ايونغ » وكان مدير قلم التشريفات في دار الرابين . وبياتشار صار وزيرا للقلم الاعلى ولقبه الامبراطور بالجابي الأكبر . وبرهان وصار حاكما في « يونان سين » و « كولي » وكان قائدا عاما لعساكر هونان .

ومن احفاد احفاد السيد بعده بسبعة بطون رجل يقال له حاجي والصينيون يقولون له « سي هاتشي » ادى اليه سلطان الصين مبالغ من النقود بنى بها مساجد في نانكين وسينغانفو . ومن أعيان هذه الاسرة رجل اسمه يوسف بينه وبين السيد الأجل ١٤ بطنا ولد في

نحو سنة ١٦٠٠ والصينيون يسمونه ماشيكونغ وكان عالماً فاضلا ذهب الى باكين سنة ١٦٦٥ واستشاره الامبراطور في الامور الدينية والعسكرية وصار مدرسا في مدرسة « كووتسوكين » وسنة ١٦٨٥ نشر كتابا اسمه „ بوصلة الاسلام " (البوصلة ابرة المغنطيس التي يعتمد عليها البحارة) ومنهم في عصرنا هذا أمير ألاي كان في الجيش الصيني سنة ١٩٠٧ . ومنهم رئيس جماعة مسلمي « ينان فو » وناظر أوقافهم . ورأس هذه الاسرة اليوم هو « نافاتسينغ » امام جامع ماشوكيا .

ويوجد أسر أخرى هاشمية في الصين فان كتاباً اسمه « حياة محمد » الفه صيني اسمه « ليوتشيه » فيه مقدمة من قلم رجل يقال له سايو من ذرية الرسول (ص) وتاريخ هذا الكتاب سنة ١٧٧٥ .

وسنة ١٤٤٥ كان في مدينة سينفان فو اسرة شريفة نبوية منها حافظ بن كولي محمد بن الشريف بدر الدين بن شمس الدين. والذي يظهر أن الثورات التي قام بها المسلمون في القرن الماضي قد اضرت بهم واوقفت تقدمهم ولولاها كانت لهم الكلمة العليا في حكومة الصين . وقد ظهرت لبعثة أولون آثار الفتنة الأخيرة ورأت بعينها الخراب الذي أصاب الديار ولحظت النقص الذي لحق بالنفوس والثمرات وعرفت أن كثيرين من المسلمين لا يزالون تحت المراقبة . وقد سألت بعثة اولون أحد ادباء „ لان تشيو " واسمه „ فوق ين " قيل لها انه اعلم من يوجد باخبار هذه الثورة فقص لها ما يأتي :

سنة ١٨٦٤ ثارت فتنة في الشرق والغرب من الصين أصلها اثنان „ مياوباي لين " و „ ماهوا لونغ " فاخذا يعيثان فساداً في كانسو واتصل الثاني منهما بثوار كانوا عصوا في جنوبي شنسي وشماليها فأثار اهالى „ تينغ هيا " وأهالي „ شان هوا " وأهالي „ منينغ تياولينغ " وهذه هي مدينة في شمالي سور الصين فساقت الحكومة جيوشاً على تينغ هيا وحاصرتها وقتلت خلقا كثيرا ثم افتتحتها عام ١٨٦٥ بعد حروب طويلة . الا أنه سنة ١٨٦٨ عادت الثورة فاشتعلت فساقت الحكومة جيوشاً وسفكت دماء كثيرة واستردت كثيرا من المدن العاصية . وسنة ١٨٧١ أسرت ماهوالونغ وزعيما آخر اسمه ماباتسياو وصلبتهما وهاجمت مدن هوتشيو وسيلينغ وسوتشيو وأخمدت الثورة في جميع بلاد شنسي وكانسو . وسنة ١٨٧٤ زحف جيش „ ليوكين تانغ " وجيش „ كين شوان " قاصدين الزعيم الديني „ باي ين هو " وهاجما „ نغان تسي ين " أو كاشغر فانهزم الزعيم الى أرض الروس وقتل ملك كاشغر وتحددت حدود „ سين كيانغ " أي التركستان الصيني من الشمال والجنوب . ونصبت الصين ليوكين تانغ والياً عاما على كاشغر . انتهى

فظهر من هنا أن ماهو الونغ الثائر المسلم حمل كبر الثورة مدة ست سنوات ولولاه لم يتمكن يعقوب بك سلطان كاشغر ان يعمل شيئا وان سلطنة كاشغر لم تستمر ١٣ سنة الا بفضل ثورة ماهوالونغ المذكور وقد لعب الدور الاعظم في قتال المسلمين الجنرال « تونغ فوسيانغ » وهو هو الذى ترأس ثورة البوكسر الشهيرة على الاوربيين سنة ١٩٠٠ ولما طلبت دول اوروبا من الصين تسليمه فر الى كانسو وتخبأ بها وكانت له قصور شاهقة واراض واسعة ومات سنة ١٩٠٧ واعيدت اليه بعد الموت الألقاب التشريفية التي كانت دولة الصين نزعتها منه اجابة

لطلب الدول وكانوا يظنون في اوربا هذا الجنرال مسلما وذلك لوجود عساكر كثيرة من المسلمين يلبسون العمائم في جيشه فالتبس عليهم الأمر والحقيقة أن هذا الجنرال كان أعدى أعداء الاسلام وأنه من شدة خبثه ومكره ضرب بعضهم ببعض واوقع بأسهم بينهم لاسيما بواسطة القائد المسلم « مذان لينغ » الذي فتك كثيراً بأبناء ملته ·

وأما ثورة ينان فاستمرت من سنة ١٨٥٥ الى ١٨٧٣ وانتهت بالويل على المسلمين . وسبب انكسارهم اختلاف رؤسائهم وعدم تذكرهم قوله تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) فان الثائر ”توفنسيو“ نودي به سلطانا في ”تالي“ ولكن الزعيمين ”ماتوسين“ و«ماجولونغ» قاتلاه وانتصر الحكومة الصين . وكان للثائر ماهو الونغ شيعة يقولون أنه قطب الوقت وأن القطبانية انتقلت بعد وفاته الى خلفائه · وقد خلفه صهره ”ماتاهي“ وفي سنة ١٩٠٨ كان عمره ٥٥ سنة وحفيده ”ما اول هي“ وكان عمره ثلاثين سنة تبع كلا منهما حزب الا ان حزب الصهر اعظم . ومركز الصهر « شاكيو » ومركز الحفيد « تانغ كياوتشوان » وهذه هي ناحية عظيمة الشان فى اسلام الصين فيها مدرسة كلية لهم فى « بينغ لينغ » وهذه الفرقة تلقب سائر المسلمين بالظاهريه . ويقولون في كانسو ان الخلفاء الراشدين الاربعة اسسوا كل منهم طريقة فابو بكر طريقته الخفية يذكرون بصوت منخفض والثانية الجهورية يذكرون بصوت عال وهي طريقة عمر والثالثة الكبارية أو الكبروية وهى طريقة عثمان لانه كان كبيراً مسنا والرابعة القادرية وهي طريقة علي . والحاصل ان الانقسام الذي يراه السياح الاوربيون ورواد حكوماتهم بين مسلمي الصين ويؤلون له التأويلات بحسب عادتهم هو عبارة عن فرقة القائلين بالشريعة المحضة بدون نظر الى التصوف وفرقة القائلين بالتصوف والآخذين بالطرق على انها لا تنافي الشريعة . فالاوربيون مثل بعثة اولون يرون في ذلك ديانتين ·

ومن عادة مسلمي الصين ان يشتروا أولاد الوثنيين ويربوهم في الاسلام روى ذلك تيرسان صاحب « المحمدية فى الصين » وغرونارد Grenard وقالت بعثة اولون انها لما مرت من هنالك كانت في الصين مخمصة شديدة فكان الصينيون يبيعون أولادهم والمسلمون يشترونهم لان المسلمين بتماسكهم أيسر حالا من الصينيين · وفي ثورة البوكسر قتل الوف من المسيحيين ونهبت أموالهم وبيعت نساؤهم وأولادهم فاشترى مسلمو « نينغ هيا » عدداً منهم وهذا محقق لان مطران مغولية كان يسعى فى استردادهم·

وفى شمالي نينغ هيا عاد الاسلام ينمو ويزداد وجميع المسلمين يتجرون بالجلد والصوف وكل نواتية الانهر لا سيما النهر الاصفر هم منهم · والمدينة التى على هذا النهر المسماة « باوتاو » شغلها كله في أيديهم . والمدينة المسماة « كوكوكوتا » أي الزرقاء التي فيها من كل الاجناس يسكنها ٢٠٠٠ اسرة مسلمة · ويقول اولون انه صادف فيها رجلا مسلما يعرف وجود الخليفة فى الاستانة لانه كان ذهب الى باكين وتلاقى مع علي رضا وحسن حافظ ورجع ومعه صورها وصورة راية الخليفة . قال اولون · على انه اذا انبثت هذه الدعوة هناك دخل الاسلام الصيني في طور جديد . ولكن أولون لو انتظر الى هذه الايام لعرف أن كثيراً من حزب التجدد فى الاتراك يرون الخلافة ضرراً عليهم ولذلك قد ألغوها واخرجوها من الاستانة.

وكان السلطان عبد الحميد أرسل من الاستانة حسن حافظا وعلي رضا فأسسا مدرسة فى

مسجد نيوكياي كان فيها ١٢٠ طالبا وأقبل المسلمون عليهما لا لكونهما قادمين من قبل خليفة المسلمين لأن هؤلاء في الصين لم يكونوا يعرفون هذا الامر وانما احتفلوا بهما لأنهما آتيان من الافاق التي ظهر فيها النبي (ص) ولقد بث هذان الداعيان روح الانضمام الى الخلافة ورفعا العلم العثماني وزارا بلاد هونان ونفان هواي وكوانغ تونغ اعظم الحواضر الاسلامية ونشرا في الصين الجرائد الاسلامية منها عثمانية أو تركية ومصرية وروسية وبلغارية ويوجد اليوم جريدة اسلامية في باكين اسمها « تشنغ تسونغ نغاي كوباو » أي الجريدة الوطنية.

وفي باكين ٢٩ جامعا أكبرها « نيوكياي » ومنها جامع « سيتان باي ليو » كان هيكلا وثنيا الى سنة ١٩٠٠ فلما ثارت ثورة البوكسر جعلوه مركزا لهم فلما زحفت جيوش الدول الى باكين خاف الصينيون أن يحرقوه فعرض أحد علماء المسلمين أن يحوله جامعا ويرفع منه الاصنام حتى يظنه الاوربيون مسجدا للاسلام فلا يتعرضوا له فرضي الصينيون بذلك ولما انتهت الحرب أبقوه جامعا وهو من اعظم جوامع باكين.

أما بلاد كاشغر فبعد أن خمدت فيها الثورة أخذت الدولة الصينية ادارتها بيدها وجعلت في كل من مدنها الكبار مفوضاً امبرطورياً وقائداً عسكريا . فمدن غربي كاشغر هي كاشغر وباركند وياتغي حصار وقوطان . وأما مدن شرقي هذا القطر فهي أوش واكسو وكوتشار وبيدجان وهالي وطورفان وهار اشار . والجميع احدى عشر مدينة كل منها يتبعها مدن عديدة فعين لكل منها قاض لفصل قضايا المسلمين ولا بد لكل هؤلاء أن يذهبوا كل سنة مرة الى العاصمة كما انه يأتي كل سنة مفتشون من العاصمة للتفتيش عن أحوال المسلمين .

أما الانسيكلوبيدية الاسلامية فتذكر ما ملخصه ان أصل دخول الاسلام في الصين هو لأجل التجارة لأن المسلمين بعد أن تأثلت دولتهم في بغداد سارت سفنهم من خليج فارس الى الهند والصين وعرفوا ثغور الصين من صدر الاسلام كما أنهم من الجهة الاخرى دخلوا الى شمالي الصين بواسطة الترك من زمان جنكيز خان واعقابه فان جنكيز لم يكن يعبأ بالدين وكان يجمع حواليه من جميع الملل ودخل في جنده كثير من الترك والافغان والباتان واناس من الفرس وفي زمان قوبيلاي خان دخل جماعة من الفرس في خدمة دولة الصين وذكر منهم ابن بطوطة اناسا في رحلته وأشار اليهم السائح الايطالي ماركو بولو وكان كل هؤلاء مسلمين فنشروا الاسلام في الصين . وكان في زمن جنكيز اتصل بخدمة بلاطه رجل من بخارى يدعى انه من آل البيت اسمه السيد الاجل ولهذا الرجل تراجم عديدة ذكرتها الانسيكلوبيدية ونقلت منها نتفاً وقالت ان ماركو بولو تكلم على ابنه نصير الدين وروت كثيرا من أخباره عن رحلة أولون واليه والى ابنه هذا تعزو ظهور الاسلام في يونان .

أما حالة المسلمين الاجتماعية فهي كما هي في سائر بلاد الاسلام والعمل انما هو بالشرع الشريف . على أن تيرسان يروي أن مسلمي الصين مضطرون في أمر الزواج أن يتقيدوا بقانون المملكة الصينية ولو خالف الشرع ولا نعلم مبلغ ذلك من الصحة . ويقول أولون ان الحجاب غير معهود عند نساء المسلمين في الصين بل النساء يخرجن سافرات وهكذا يقول غرهنار الا أنه يستثني من ذلك نساء الاغنياء، وفي هوتشو يتنقب النساء المسلمات بنقاب أسود

تحت الاعين . وعادة وضع القدم في القالب لتصغيره معروفة عند المسلمين كما عند سائر الصينيين وفي كالسو يتنافس بها المسلمون اكثر من سواهم . ويتزوج المسلم بالصينية بل يستحب أن يأخذ غير مسلمة لعل الله يشرح صدرها للاسلام ولكن لايحل لمسلمة أن تتزوج بغير مسلم . ومع التشديد في منع ذلك يوجد حوادث مستثناة فان الامبراطور « شيسين لونغ » كان متزوجا باميرة تركية مسلمة . أما العفة وطهارة العرض فهما محفوظتان عند المسلمين اكثر مما هما عند سائر الصينيين .

واحترام الآباء والاجداد معروف عند مسلمي الصين ، وتراهم يحفظون شجرات الانساب كسائر أهل الصين . ولا يوجد عندهم تفاوت في الطبقات الاجتماعية الا ماكان من تعظيم آل البيت وتمييزهم ولكن مسئلة ادعاء النسب النبوي غير فاشية هناك كما في سائر بلاد الاسلام لذلك عدد أصحاب هذه الدعوى قليل وكان منهم الزعيم الثائر ماهو الونغ . أما سحنة مسلمي الصين فهي في الغالب كسائر أهل الصين وانما يجد فيهم الرائي كثيراً من السحنات العربية والتركية بسبب المهاجرة ومجيء الطرّاء . وعلى كل الاحوال فالسواد الاعظم من مسلمي الصين هم من السلالة الصينية ولغتهم هي لغة الصين وكتابتهم هي كتابة أهل الصين وان كان يوجد في لهجة نطقهم مالا يخلو منه مكان من الاختلاف بحيث يعرف الصيني المسلم من الصيني الوثني من لهجته . ولا شك ان اختلاف الدين أوجد بين الصيني المسلم والصيني الوثني تبايناً كبيراً فالمسلمون يرون انفسهم أعلى جداً من الصينيين وهؤلاء يلقبون المسلمين باسم « هوي هوي » والمسلمون يكرهون هذا اللقب ويحبون أن يقال لهم « باي شان » أي اصحاب العمائم البيض .

ويوجد في الصين جنس من الاسلام هم مباينون لسائر مسلمي الصين وللصينيين في اللغة والسحناء وهم قوم يقال لهم « السالار » يسكنون على الضفة اليمنى من « هوانغ هو » وما جاوره فهؤلاء يشبهون أتراك كاشغر في الخلقة ولغتهم من التركي المحرّف ومذهبهم حنفي ويعرفون الحروف العربية ولا يوقدون البخور ولا يضعون اسماء سلاطين الصين في جوامعهم وهم يجهرون في الصلاة وقد ظهر بينهم مرشد في نحو سنة ١٧٥٠ اسمه « مامينغ هسين » أو محمد امين وهو الذي يقلدونه الى الآن .

ويمتاز مسلمو الصين على سائر الصينيين بعلو الهمة وقوة الجسم فتجدهم من أجل ذلك مشغوفين بالخدمة العسكرية وتجد عدداً كبيراً من ضباط الجيش الصيني مسلمين ومنهم كثير في المناصب المدنية الا أنهم في المناصب العسكرية ارغب . وأما المهن فان بعضها يكاد ينحصر فيهم وذلك اظير المكاراة وقيادة المواشي ويقال لصاحبها « مافو » فان هذه المهنة هي فيهم خاصة وكذلك حرفة الخانات والاماكن المعدة للمسافرين فهي مما يختص بهم . وبالاجمال تجد الصينيين أقوم من المسلمين على الزراعة وتجد المسلمين أقوم من الصينيين على تربية المواشي .

وأهل الصين ينظرون الى المسلمين بعين الحذر ويعتقدون انهم يريدون تأسيس سلطنة ضمن السلطنة ولذلك تجد المسلمين يميلون الى الاوربيين بعض الميل ويحسبونهم اخواناً بازاء الصينيين . وان كنت تجد في قواد الجيش الصيني من المسلمين من اشتهروا ببغض الاجانب فالعامل فيه هو غطرسة الاجانب الاوربيين لا التعصب الديني . ومما لاينكر ان مسلمي الصين يلجأون الى جميع الوسائل لاجل زيادة عددهم فيشترون في المخامص مئات الوف من أولاد

الوثنيين ويربونهم في الاسلام ويجذبون الى دينهم كثيراً من الصينيات بواسطة الزواج . وضباط الجيش من المسلمين يرسدون الى الاسلام كثيراً من جنودهم . وقد أخبر أولون انه صادف جماً من الذين اسلموا حديثاً . ثم ان ثورات المسلمين الاخيرة وقفت سير الاسلام بعض الشيء ولكن مما لا نزاع فيه ومما اتفق عليه جميع سياح الاوربيين الذين سبروا غور الصين انه لايعد مستحيلا دخول الصين في الاسلام لاسيما بعد أن اعلن الصينيون المجددون سنة ١٩١٢ كون المانشو والمغول والمسلمين والتيبتيين والصينيين كلهم متساوين ويذهب بعض الاوربيين الى امكان حصول ديانة جديدة يمتزج فيها الاسلام بعقيدة كنفوشيوس لاسيما ان في العالم الاسلامي حركة دينية ظاهرة نحو التجدد .

أما الحركة الدينية الحاضرة في اسلام الصين فهي عبارة من أن « ما هو الونغ » الذي تقدم ذكره قام بطريقة خاصة من قواعدها الجهر في الصلاة وارخاء الايدي بدل القبض والاعتقاد بالاولياء وزيارة القبور وتزعم بعثة أولون ان المسلمين الصينيين انقسموا بذلك الى قسمين : اصحاب الديانة القديمة ويقال لها « لاوشياو » وأصحاب الديانة الجديدة وتسمى «سين شياو» وعقبت على ذلك الانسيكلوبيدية الاسلامية بقولها ان هذه الحالة هي في سائر بلاد الاسلام فان هناك من يتمسك بالاولياء والاقطاب ويعتقد بتصرفهم في الكون باذن الله ، ومنهم من لايعتقد بذلك ولا يخرج عن ظاهر الشرع .

ثم ذكرت الانسيكلوبيدية أن السلطان عبد الحميد فكر في الاستفادة من مسلمي الصين بايجاد علاقات معهم باسم الخلافة فارسل الى الصين سنة ١٩٠٠ احد القواد وهو انور باشا (غير انور باشا الشهيد ناظر الحربية) لهذه الغاية فأخفق اخفاقا تاما . ثم ان الاهونغ (الاهونغ عند أهل الصين هو العالم المسلم) وانغ هاوزان الياس عبد الرحمن مفتي با كين قدم الى الاستانة فالتمس من السلطان ارسال بعثة اسلامية الى الصين فارسل اثنين هما علي رضا وحافظا فأسسا مدرسة سنة ١٩٠٧ وجالا في بعض بلاد الاسلام « ولكن الحكومة الصينية قضت على الدسيسة التركية» فالتجأ ذانك التركيان الى سفارة المانية في با كين ووعدت سفارة المانية في الاستانة بان تحمل سفارة المانية في الصين على حمايتهما ولكن الحكومة الصينية لم ترد أن تسمع كلاما فلما رأى المرسلان المذكوران أن السلطان تركهما التجأا الى سفارة فرنسا لحمايتهما ثم عادا الى الاستانة ولا يزال في تركية الدستورية نية تأسيس سفارة في با كين وهي بعثة ليست على ما يظهر قريبة التحقيق (كذا) .

ثم أردفت ذلك بقولها : انه وان كان المستقبل لا يأذن بالتكهنات ، فيمكن مع ذلك ان يقال ان استيلاء الاسلام على الصين وظهوره على سائر اديانها هما شبح لا يفيد المسلمين سوى الخراب والخسار . ولكن اذا كان بتسلسل حوادث غير منتظرة تحققت آمالهم في هذا الامر ولو لمدة موقتة فتكون مصيبة على الصين لان الاسلام ليس بدين مدنية والاسلام هو قبل كل شيء عدو للمدنية الافرنجية حال كون استعداد الصين انما هو لاقتباس هذه . فان كان المسلمون يريدون الاشتراك في حركة التجديد الصيني فلا بد من احد امرين : اما أن ينقادوا الى الافكار الجديدة ويسيروا مع دعاة الاصلاح الصينيين الى تجديد مملكة صينية على قاعدة القومية الصينية وبذلك يكونون غير مجرمين . واما أن تبقى في قلوبهم نيات التسلط على سائر

الصيليين فبمجرد ظهور هـذه النيات يسحقهم الصينيون سحقا لان المسلمين عددهم قليل جدا في وسـط رؤساء الحركة الاصـلاحية وان الامة الصينية تحسن عملا في الحذر من العناصر الاسـلامية التي في داخلها وفي منع نمو الاسـلام في الصين بشراء أولاد الصينيين . انتهى بالحرف .

وقد يأخذ القاريء العجب كيف ان دائرة المعارف الاسلامية تصرح بمثل هذه الاقوال التي فيها من التحامل والبغضاء وسوء النية بحق المسلمين ما لا يمكن الدراء فيه . ولماذا ارسال السلطان عبد الحميد بعثة تهذيبية الى باكين يعد « دسيسة » وبعثات الدول الاوروبية التي هي مالئة الصين والشرق والغرب لا تعد «دسائس» ؟ ولماذا وجود سفارة تركية في باكين يعد جنة حال كون أولى الامم بأن تكون لهم سفارة عند الصين هم الترك نظرا لتجاور الترك مع الصينيين ولوحدة الاصل ثم لماذا يجب على الصين هـذا الحذر كله من الاسلام والاسلام دين قسم وافر من أهلها ولا يجب عليها الحذر من الافرنج الذين ما انشبوا أصابعهم في مكان الا انتهى الامر باستيلائهم عليه واستعبادهم لاهله ولماذا الدين الاسلامي عدو المدنية وقد شهد كثير من أعاظم أوربا ونخبة المستشرقين انه خدم المدنية ؟ وأخيرا لماذا يغار هذا الكاتب على الصينيين أكثر من غيرتهم على أنفسهم فانهم تسامحوا مع المسلمين في تركهم يأخذون اولادهم في المساغب ويربونهم في حجر الاسلام وهذا الكاتب لا يسامح في ذلك .

ولكن من علم أن محرر هـذا الفصل من الانسيكلوبيدية الاسلامية الفرنسية هو الاستاذ المستشرق مرتين هارتمان الالماني بطل عجبه . فان هذا الاستاذ قضى حياته في محاربة الاسلام والاجتهاد في اظهار معايبه والتحامل عليه في كل فرصـة وهو اشبه بلامنس اليسوعي يكون كل منهما استشرق في مدينة بيروت ووقف عمره على مجادلة الاسلام وأساس في هذه السبيل العنان لهواه واحنة صدره . عرفت هارتمان هذا وانا طالب في مدرسة الحكمة في بيروت لم أتجاوز الخامسة عشرة سنة من عمري ثم لقيته بعد ذلك باثنين وثلاثين سنة في برلين وهو يحرر في مجلة « الشرق الجديد » أثناء الحرب . وكان يتردد اليّ ولم أكن أعرف حقيقة مشربه ولا اطلعت على كتاباته اذ ذاك الا أنه قيل لي مرة ان الاستاذ هارتمان كان من ألدّ أعداء الاتراك لا يفتر من الطعن فيهم فما باله عاد الآن يحمد طريقتهم اترى ذلك من أجل كون الترك حالفوا الالمان ؟ فبحثت عن السبب فعلمت أنه رضي عن الاتراك بمجرد ما علم أن فئة منهم تسير في خطة غير اسلامية ولهذا كان معجبا بمبادىء ضيا كوك ألب وامثاله . وحدثني المرحوم الشيخ صالح التونسي أنه جرى اجتماع في برلين أثناء الحرب حضره كثير من المسلمين فقام هارتمان وعرّف الجهاد عند الاسـلام بكيفية تقشعر منها الأبدان فانبرى له الشيخ صالح وتكلم في حقيقة معنى الجهاد وفند دعوى هارتمان في الامور التي زعم أن الشرع يجيزها للمجاهد فأجاب هارتمان ان ما يقوله الشيخ صالح هو شيء جديد غير ما في الشريعة . فرد عليه الشيخ صالح بقوله بل هـذه هي أحـكام الشريعة وان هارتمان يجهل الشريعة وطالت المشاحة بينهما وفصل بينهما الاستاذ المستشرق ميتفوخ وقال ان حد الجهاد هو ما قاله الشيخ صالح لا ما قاله الشيخ هارتمان .

ومن أغرب شواهد التهور الذي كان عليه هارتمان هذا في احتقار الاسلام أنه في مقالته

من الصين هذه اشار الى الحديث النبوي الذي نقله المستشرق المجري غولدسيهر وهو : « اتركوا الترك ما تركوكم » فهزأ به وزعم أنه حديث موضوع يقصد به اضافة العلم الى النبي (ص) وتعظيم قدره والحال أنه قد يكون محمد لم يسمع بذكر الترك في حياته . ولو لا كون هارتمان قد مات بعد الحرب بقليل وقبل أن اطلعت على جملته هذه لكنت اظهرت له ما فيها من قلة المعرفة وعدم التمييز وفساد الاستشراق واثبت له أنه لا يصح أن يعد مستشرقا من يعتقد أن سيداً من سادات العرب — بصرف النظر عن النبوة — لا يعرف وجود الترك في الدنيا مع أن العرب في الجاهلية كانوا يعرفون الترك والروم كما يعرفون العجم . وكان اسم الترك معروفا لديهم وارداً في اشعارهم ولم يكن جهل العرب واصلا الى حد أنهم يجهلون وجود الترك . وانما القول بانهم كانوا بهذه الجهالة هو عين الجهالة وقلة العقل والظن بأن محمداً بن عبدالله بن عبد المطلب ربما لم يسمع في حياته بوجود امة اسمها الترك هو منتهى الصفارة والضعة ولا يشابهه الا أقوال لامنس اليسوعي التي يأسف من يقرأها على تصدر اناس اعماهم الغرض الى هذا الحد لدعوى الاستشراق وتصديهم للكتابة عن الشرق والاسلام . وقد صنف المسيو دينه Dinet وسليمان بن ابراهيم كتاباً بالفرنسية اسمه « انك في واد وانا في واد » اظهرا فيه ما في تآليف لامنس من السخافات والآراء الخيالية التي لا تشين الا صاحبها ولا تنقص الا كاتبها .

هذا ونعود الى موضوع الاسلام في الصين فنقول ان أحد ادباء الصين ورد مصراً في العام الماضي فنقلت جرائد مصر عنه أحاديث عن بلاده من جملتها ان في الحكومة الصينية الحاضرة أربعة وزراء مسلمين وهم الجنرال محمد كاشونغ ناظر الحربية ثم الجنرال محمد شيسانغ ناظر الطرق وناظرين آخرين احدهما وزير الزراعة والثاني وزير الامور الدينية الاسلامية الذي هو بمثابة شيخ الاسلام . وقال هذا السائح ان مسلمي الصين متفقون مع حكومة الصين في مبدأ تعزيز الرابطة الشرقية . وذكر ان عدد المسلمين في الجيش الصيني هو نحو نصف مليون منهم ٥٠٠ ضابط وأخبر عن وجود جريدة اسلامية في الصين اسمها « راية الاسلام » والله أعلم . (ش)

مسلمو الجاوى وما جاورها

(راجع ص ٦٤ وما يليها)

سبق لنا ذكر محاضرات المستشرق الهولاندي سنوك هورغرونجه على ادارة الامور في بلاد الجاوى وسائر المستعمرات النيرلاندية وكيف ينبغي أن تكون معاملة الدولة الهولاندية للمسلمين . ولكن البحث عن أحوال الاسلام في هاتيك المستعمرات لم يكن وافيا .

وقد اعتنى علماء هولانده جد الاعتناء بتمحيص تاريخ الجاوى وجغرافيتها نظراً لكونها من ابدع واغنى بلاد الله ولكونها من هولانده بمكان الهند من انكلترة فألفت على تلك الجزر مئات من الكتب والرسائل ونحن لاننقل هنا سوى ماتعلق بدخول الاسلام فيها وأحوال المسلمين على وجه الاجمال .

قالوا ان الذين ادخلوا الاسلام الى تلك الجزر هم العرب وذلك بواسطة التجارة والملاحة فانهم نزلوا أولاً بالثغور البحرية وبالمراسي الشهيرة وأخذوا ينتشرون منها شيئاً فشيئاً الى الداخل وكانوا لايلوون على شيء سوى الاخذ والعطاء ولم يظهر أصلاً انهم قصدوا باديء ذي بدء تأسيس ملك ولا فتح بلدان ولكن عندما صارت الامة المالزية تناظرهم وتسد عليهم طريقهم التجأ هؤلاء العرب الملاحون المرابحون الى القوة المسلحة حفظاً لحريتهم ووقاية لمرفقهم فكانت مملكة دماك Demak وهي أول فتح عربي في الجاوى .

وكان جغرافيو العرب قد عرفوا من زمن قديم بلاد ماليزيه وثبت انه في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر طاف كثير من سياح العرب في سواحل الهند والصين والجزر المالزية . قال المسيو بيارغونو Pierre Gonnaud صاحب كتاب « الاستعمار الهولاندي للجاوى » ان المدنية الاسلامية في القرن العاشر كانت تلمع بأسطع اشعتها وكان الخليفة يتولى سلطنة قوية سعيدة وكانت من جميع الجوانب تمتد طرق التجارة فتلاقى في وسط مملكة الخليفة الشرق والغرب وقد احصيت تلك الطرق بين الغرب والشرق فكانت خمسا الاولى من البحر الاحمر الى الحجاز وجدة الى السند والهند الى الصين والثانية من انطاكية الى بغداد الى الابلة الى الهند والثالثة من جهة بحر الخزر الى الشرق والرابعة كانت تبدأ من طنجة في الغرب فتخترق أفريقية الشمالية الى مصر الى الشام الى بغداد فالبصرة فالاهواز ففارس فكرمان الى السند فالهند فالصين والخامسة كانت شمالية تبدأ من المانيه فتمر بالروسية الى بلاد ماوراء النهر الى الصين . وكان انتشار قوة الاسلام اقتضى توسع المعلومات الجغرافية فوجه زعماء الاسلام عنايتهم الى جوب جميع البلدان التي دخلت في حوزتهم ولقد أصاب المسيو رينو Reinaud في قوله : ان فتوحات الاسلام الاولى تأتت بدون برنامج معين وعلى طريق الاتفاق ولكن كان المسلمون كلما فتحوا قطراً حددوا حدوده وخططوا مسالكه واجتهدوا في معرفة موارد حياته .

ثم قال ان المسعودي قد عرف الجاوه وذكر استيلاء الهند على الجانب الغربي منها وأشار الى وفرة الجبال النارية فيها . ومما قاله : انه لايمكن معرفة حدود سلطنة مهراج الزنج أو الجاوه وجيوشه لاتحصى وينبغي للانسان مسير سنتين حتى يأتي على جميع ممالكه . وفي بلاده

جميع انواع الافاويه والعطور مما لا يوجد عند ملك غيره ويصدر منها الكافور والطيب والقرنفل والصندل الخ وممالك المهراج يحدها بحر لا آخر له يتصل ببلاد الصين . انتهى . فكانت الجاوه يومئذ معدودة في ممالك الهند وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر ازدادت الفتوحات وازدادت معارف المسلمين الجغرافية وأصبح الارخبيل الماليزيّ معروفا ومنذ أوائل القرن الحادي عشر ظهرت روح الدعاية الدينية بشدة عظيمة في الحروب الصليبية واشتدت المصارعة بين جنود الخليفة والبارونية الافرنج . الى ان قال : انه في القرنين التاليين صارت الدولة ملوك طوائف وانفصلت بعضها عن بعض وتغيرت الطرق التي كانت بين المشرق والمغرب وساقت هذه الاحوال مهاجري العرب الى بحر الهند . وفي القرن الحادي عشر زار ابو الريحان محمد الهند وكتب عنها . وفي العصر الذي يتلوه كان الادريسي في بلاط روجر صاحب صقلية وكان يأخذ عن تجار العرب الذين يترددون على بلرم وهو أول من سمى باسم ماليزا احد الشعوب الساكنة في الجاوى . وذكر ما بين هذه الجزيرة وجزيرة مادافسكر من العلاقات ووحدة الجنس . ولكن لسوء الطالع كانت معلوماته في الاطلس الجغرافي لا تزال على ما كانت عليه معلومات بطليموس فكان يجعل قارة افريقية ممتدة جداً الى الشرق . على ان هذا الاطلس نفسه الذي انبأنا عنه المسيو رينو يدل على التبسط العظيم الذي تبسطه العرب في جميع اصقاع الاقيانوس الهندي ونقل ابن سعيد (ابو الحسن نور الدين علي) المولود سنة ١٢٧٤ اخباراً كثيرة عن رجل اسمه ابن فاطمة ساح في سواحل افريقية الغربية حتى بلغ الرأس الابيض وطاف في السواحل الشرقية حتى بلغ سوفاله . ونحن نعلم أن السواحل الشرقية هذه كانت دائماً محط رحال العرب وانه كان في اواخر القرن الخامس عشر في ساحل موزامبيق جالية اسلامية جليلة عاكفة على اشغال البحر بصيرة جيداً بهباب الرياح ومجاري الابحر المجاورة وبين ايديها خرط بحرية وآلات متنوعه متعلقة بصنعة الملاحة . واحسن من وصف بلاد الجاوى من هؤلاء الجغرافيين ابو الفدا فمع كون معلوماته ليست في نهاية التمحيص فلم يكن احد ليقدر على ما يقدر عليه في وقته من الاطلاع والتنقيب فقد حج الى مكة ثلاث مرات وعرف الشام والعراق وكان كثير الاختلاط بصاحب الديار المصرية فاطلع على احوال الجاوى والجزر المجاورة لها ونشر كل ما عنده من العلم في عصره من هذه الجزر العجيبة فقال ان الجاوى لها عدة اسماء . وذكر ابن سعيد ان جزائر الرانج اشتهرت بما روى عنها التجار والسياح . واكبرها جزيرة السريرة التي طولها اربعمائة ميل من الشمال الى الجنوب وعرضها مائة وستون ميلا الخ . ثم يقول ابو الفدا : في جنوبي الاقليم الاول جزيرة كبيرة في البحر الاخضر ذكر ابن سعيد ان سلطانها لا يوجد له نظير في ملوك الهند في كثرة الكنوز والذهب والافيال وقاعدة ملكه في الجزيرة الكبرى . وقال المهلبي ان جزيرة السريرة معدودة من الصين الخ .

وبالاختصار فالى عهد استيلاء الاوروبيين على هذه الديار كان العرب لهم معرفة تامة بها وبخيراتها وبمسالكها وبالبراكين التي فيها وكانوا يعلمون ان فيها ممالك عظاما مثل مملكة المهراج يصفها ابن خرداذبة وابو الفدا بسعة الملك والحول والطول . ولما وصل العرب الى تلك الجزائر لم يفكروا في فتحها بالسيف كما فتحوا آسية الصغرى وافريقية واسبانية لانه لم تكن بايديهم قوة كافية بازاء هاتيك الممالك وانما كانوا تجاراً ومسترزقين منتشرين هنا وهناك

ولكن كما قال فان دربرغ van der Berg صاحب كتاب « حضرموت والمستعمرات العربية في الارخبيل الهندي » : لما كانوا أعلى درجة في المدنية من أهل تلك الاقطار جعلوا لانفسهم مقاما ممتازاً حفظوه الى يومنا هذا فى وسط الشعوب الآسيوية التي انتجعوا بلادها . وهذا المقام العالي الخاص بهم الذي له أسباب خلقية وطبيعية انضمت اليها عوامل اخرى تجارية ومزايا كسبتهم اياها الاغتراب وطول السفار هي التى كانت الاصل الاصيل فى نجاح العرب وفلاحهم وتبسطهم من السواحل الى الداخل ونشر عاداتهم وعقائدهم حيث نشروا تجارتهم . اهـ .

قال المؤرخون الاوربيون : لم تكن العلاقات التجارية مهما كثرت وانتشرت لتكفى في نيل العرب هذه السيادة الاجتماعية والادبية على جزائر عظيمة كهذه فياضة الخيرات زاخرة العمران بل كانت معهم قوة أعظم من هذه وهي قوة العقيدة المحمدية التى هي من الجلاء والبساطة بحيث يفهمها الخاص والعام ومالا يشك فيه انها متضمنة فضائل لم تكن في دين من الأديان المعروفة في الجاوى فقد كانت البراهمية والبوذية هما الديانتين السائدتين هنالك وهما عبارة عن تمجيد متصل لقوى الكون ومجادلة دائمة بين مصدري الخير والشر فكان فى ذلك من التعقيد وصعوبة التفهيم ما فيه لان هذه العقائد تسلم بوجود الهين متساويين فى القوة بأيديهما ادارة المخلوقات احدهما للنفع والآخر للضرر فكانت تضل الافكار وتقسم قوى النفس البشرية وتساعد على تعدد النحل وتدفع بعضهم الى ناحية براهما والآخرين الى ناحية سيفا أو فشنو وتحمل المتقدين على اختيار الآلام وحب العذاب وعدا ذلك فان فى هذه الديانات من تفاوت الطبقات ووضع بعض الناس فى أعلى عليين وبعضهم فى أسفل سافلين ما يحرم المعتقدين من كل مساواة حتى فى الحضرة الالهية . فالدين الاسلامي أتى أهالي الجاوى بما كانوا يشعرون بالحاجة اليه من المساواة التامة فضلا عن كون عقيدته صافية واضحة مختصرة سهلة الشعائر تنحصر فى الايمان بالله واحد أوحى شريعته الى الخلق بواسطة واحد من رسله . فخلص الناس بذلك من هذه الثنائية التي تجعل قوتين خالقتين في صراع دائم وتحير الافكار وتفاق الخواطر . فالاله الاسلامي واحد لا شريك له مهيمن على الخلق وجميع الناس أمامه سواء ولديه صلاة الصعلوك كصلاة الملك فلا درجات ولا طبقات ولا فواصل غير قابلة للوصل بين العباد . وهو أكثر ملاءمة لوجود حكومات متحدة قوية ذات مركز واحد مما كان يحن اليه أهالي الجاوى من زمن طويل وحسبك أن الاسلام كله ينحصر في كتاب واحد هو القرآن فاذا كان البراهمي يعيش بين الامم الغريبة منفرداً لاهم له في التأثير عليهم ولا في حملهم على مشاطرته تلك السعادة التي يرى نفسه متمتعاً بها وكان البوذي لا يرى تحقيق نعيمه الا في التأمل والتبتل والرهبانية فان السائح المسلم في أي بلد وجد وقرآنه بيمينه يمكنه أن يعلم من اختلط بهم ديانة سهلة الفهم سهلة الدخول في العقل من شأنها بث الدعوة ومن فضائلها النشاط والعمل والاختلاط مع سائر البشر وزد على ذلك أن المدنية الاسلامية كانت أرقى جدا من مدنية أهل الجاوى وان العرب لما وطئوا هاتيك الشواطيء جاءوا بمعلومات قيمة كانت مجهولة عند الجاويين وأهل الشرق الاقصى مثل علم الهيئة والتقويم والجغرافية والعروض والاطوال لتحديد الاقاليم وكان فن الملاحة بالغاً عند العرب الدرجة العليا من الاتقان وكانوا قوامين على الاسفار خبيرين بأحوال الامم ويقال انهم

كانوا عرفوا ابرة المغنطيس وكانوا ينشئون الجواري كالاعلام ويقطعون البحار بمزيد الجرأة والاقدام وكانت لهم خبرة زائدة بالطرق البحرية والمراسي ونقاط الحط والاقلاع حتى كان السياح الاوربيون لاول عهد دخولهم الى آسية مفتقرين اليهم (مثل ابن ماجد الذي كان دليلا للبرتقال) وقد خلق العربي تاجراً بفطرته خبيرا بالعمليات المالية والحسابية وبأساليب الاخذ والعطاء فتعلم الماليزيون من العرب أصول التجارة وطرق البيع والمساومة وطريقة تحديد أثمان الحبوب والبضائع وتأسيس المستودعات التي هي الواسطة بين الزارع والصانع وبين التاجر والمشتري وطريقة السفتجة أو الحوالة التي كانت عند العرب كما هي عند الاوربيين اليوم .

فلهذه الاسباب انتشرت في الجاوي عقيدة الاسلام وحضارته ومع شدة تأثيرها كان سيرها بطيئاً في البداية وما عمت الجزيرة كلها حتى وحتى . كذلك لم يكن نجاحها متساوياً في جميع آفاق الجزيرة فيوجد فرق بين غربي الجاوى وشرقيها كما قال الدكتور شريبر schreiber لان الاسلام كان أسرع تقدما في الجهة الغربية بين الجنس المسمى بالسونداني منه بين الجنس الجاواني والى هذا اليوم تجد السوندانيين أشد تمسكا بدينهم وأعرف به من الجاوانيين الذين في الغالب لايعرفون القرآن وكذلك ترى النصرانية لم تجد من سهولة الانتشار بين السوندانيين ما وجدته بين الجاوانيين الا أن هذا الفرق نفسه قد بدأ يضمحل اليوم برسوخ الاسلام في شرقي الجاوى كما هو في غربيها .

ولم تتوفر عناية العرب في الجاوى على تشييد المباني الدينية الضخمة كما كان شأن البراهمة والبوذيين بل كان معظم همهم في الفتوحات الروحية فليس في الجاوى ما في سائر البلاد الاسلامية من المساجد التي تبهر الانظار ببديع الصنعة وفخامة البناء ولكن الجوامع كثيرة العدد ولا يخلو منها بلد وعدد الذين يحجون بيت الله الحرام كل سنة كثير جداً ولقب « حاجي » هو في نهاية الاعتبار .

يقدر المؤرخون تاريخ دخول الاسلام في الجاوي بخمسة قرون تبتديء من القرن الثاني عشر الى أن تنتهي باحتلال الهولانديين لبتافيا في القرن السابع عشر . وقد حقق المؤرخ فت vet ان المسلمين لم يقتصروا على فتح الجاوى الأدبي بل نشروا المدنية الجاوانية الى أقصى جزر الارخبيل .

وكانت أعظم سلطنة هناك مملكة « ماجاباهيت » كانت تنضوي تحتها امارات عديدة فلما جاءت الدعوة الاسلامية أخذ اولئك الامراء والمهراجات يولون وجوههم شطر الاسلام فكان كلما كسب بلداً انتقل الى الذي بجانبه فاستهوى مملكة ماجاباهيت ودخل الى المالانغ ثم الى بلاد السوند وأخذ يزداد عدد المسلمين يوماً فيوماً وكانت ثروتهم تنمو بنمو عددهم وهم دائماً في علاقات مع تجار العرب الذين كانوا أول ماينزلون في سواحل الجاوى الشمالية وما زالوا يتكاثرون هناك حتى اسسوا سلطنة دماك .

وكانت ماجاباهيت هذه أول سلطنة هندية سقطت بعلو الاسلام في تلك الديار وكانت واسعة الاطراف تشتمل على الاقسام الجنوبية والشرقية من الجاوى يحدها من الغرب بلاد جانقاله وغريس ومن الشرق بلاد تنغر ولكن نفوذها كان يمتد الى بلاد « ماتارام » والى حدود مملكة « باجاجاران » وكانت فيها حواضر عظام مثل مدينة ماجاباهيت ومدينتا « برانبانان »

و « مندويت » ولكن الاسلام تمكن منها بسهولة واشتهر فى نشره هناك حسين الدين خليف سلطان دماك فى سنة ١٤١٨ من التاريخ الجاواني الموافق ١٤٨٨ من التاريخ المسيحي دخلت سلطنة ماجاباهيت فى خبركان . وأعظم سلطنة تأسست الاسلام فى الجاوى كانت فى قطرماتارام وقد بقيت فى شوكتها الى القرن الثامن عشر فبدأت تتساقط تحت هجمات الهولانديين .

فالعرب لم يؤسسوا فى الحقيقة سلطنة اسلامية جامعة فى بلاد الجاوى لانه كان يحول دون اتحاد السلطنة هناك حوائل كثيرة وانما اسسوا هيئة اجتماعية اسلامية مانعة يمكنها أن تبقى ثابتة من فوق الممالك المتداعية الى السقوط فالآن يوجد امة ماليزية محمدية قد وحد الاسلام بين اجزائها واورثها قوة جعلتها تقف فى وجه الغرباء الذين حاولوا فك أوصالها ومكنتها تمكيناً فى تلك الارض فليس في الجاوى قوة سواها (عن بيار غونو ملخصاً) .

أما جزيرة الجاوى فهى ممدودة من ارخبيل السوند تنفصل شمالا عن جزيرة بورنيو ببحر الجاوى وغرباً عن سومطرة ببوغاز السوند وشرقاً عن بالي ببوغاز بالي وامامها من الجنوب الاوقيانوس الهندي وموقعها بين ٥ ر ٥٢ و ٨ ر ٤٦ من العرض الجنوبي و ١٢٠ ر ٤٠ و ١١٢ من الطول الشرقي طولها الف كيلو متر من الغرب الى الشرق وعرضها من ١٠٠ الى ١٥٠ كيلو متراً من الشمال الى الجنوب ومساحتها مع « مادوره » مئة وواحد وثلاثون الفا وخمسمائة كيلومتر . وفيها جبال كثيرة وبراكين متأججة وجبالها مغطاة بالاشجار وفيها معادن غير مستخرجة وسهولها خصيبة ترويها المياه السائلة من الجبال وهواؤها حار رطب وأهلها خمسة وعشرون مليوناً و ٦٧ الف نسمة منهم ٢٤ مليوناً و ٧٥ الف نسمة جاويون و ٥٠ الفاً اوربيون و ٢٥ الفا صينيون و ١٥ الفا عرب وجميع الاهالي الجاويين مسلمون : وتجارة الجاوى تقدر باكثر من ٥٠٠ مليون وفيها ١٨٠٠ كيلو متر من الخطوط الحديدية وهي مركز المستعمرات النيرلاندية وعاصمتها باتافيا وبها يقيم الحاكم العام من قبل هولانده ومن مدنها بويتنزورغ وهي كرسي الحكومة الصيفي ثم سامارانغ وسرابيه وسراكارته .

ومن جزر الارخبيل المالزي بورنيو وهي اكبر جزائره لا بل اكبر جزيرة في الارض بعد غينية الجديدة . مساحتها سبعمائة وستة وأربعون الف كيلو متر مربع وهي من بلاد خط الاستواء والاشجار تغطي جبالها الى أعلى القنن ومن رؤوس جبالها ما ارتفاعه ٤١٧٥ متراً وهو في المحل المسمى « كينابالو » في شمالي الجزيرة ومنها في وسط الجزيرة « فولونغريا » علوه ٢٢٧٨ متراً . وتكثر الامطار في هذه الجزيرة فتسيل فيها أنهار كبيرة منها نهر الكابواس والسامباس مما عرضه ١٥٠٠ متر في بعض الاماكن ومنها أنهر اخرى مثل الكاهاجان والباريتو فى الجنوب والماهاكام والكاجان في الشرق والبارام والباتانغ وجانغ والباتانغ لوبار في الشمال وجداول وانهار صغار لا تحصى . وفي هذه الجزيرة معادن كثيرة وجواهر كريمة ويستخرج منها زيت البترول بكثرة .

والجزيرة منقسمة بين انكلترا وهولاندة فلها مساحة ٥٥٣٣٠٠ كيلو متر مربع فى الشرق والجنوب والغرب لهولانده . ومنها ١٩٧٥٠٠ كيلو متر مربع في الشمال لانكلترة . فأما القسم الهولاندي فينقسم الى قسمين : جهة غربي البورنيو وقاعدته « بونتياناك » وجهة الجنوب الشرقي من بورنيو وقاعدته « بانجرماسين » وأما القسم الانكليزي فهو عبارة عن امارة

« سراواك » وأراضي الشركة الانكليزية في شمالي بورنيو وجزيرة لابوان ومدينة بروناي .

فأما البلاد التي تحت سلطة هولانده ففيها ممالك « سنامباس » و«مانباوه» و «بونتياناك» و «كوبو » و « سيمبانغ » و « ماتان » و « لانداك » و « تاجان مليو » و « سانتو » و « سيكادو » و « سلينانغ » و « سيلات » و « سوهيد » و « ساليبو » و « بياسه » و « جونغ كونغ » و « بونوت » وكل مملكة من هذه عليها رئيس يسمى سلطانا أو بانمباهان أو بانجران وهم باجمعهم تابعون لهولانده وعند كل منهم مجلس مؤلف من امراء الاسرة المالكة وأشراف البلاد .

وكان لبورنيو علاقات بالصين من جهة الشمال وبالهند وكثير من ملوك بورنيوهم من أصل هندي وفيها هياكل كثيرة للعبادات الهندية . ولم يدخل الاسلام الى بورنيو الا في أواسط القرن السادس عشر انتشر من بالنبانغ الى السوكادانه والماتان . وفي سنة ١٥٩٠ صعد أول سلطان مسلم وهو « غيري كوزوما » على عرش سوكادانه وفي ايامه بدأ الاوربيون يتطالون الى هاتيك الاقطار .

وحفظت ممالك بورنيو استقلالها مدة طويلة فتأخر استيلاء الاجانب عليها من جميع جزائر الارخبيل المالزي فلبث الاوربيون ثلاثة قرون من برتقاليين واسبانيول وهولانديين وانكليز يجوبون في تلك الديار متجرين ومفاوضين ولا يتعرضون للسياسة . وأول مملكة فقدت استقلالها هي بانجارماسين فان الهولانديين اعتدوا عليها في أواسط القرن الثامن عشر . أما سوكادانه فبقيت مدة تابعة لمملكة باتتام من الجاوى ثم انفصلت عنها سنة ١٧٢٥ بمعاونة اهالي جزيرة « سيلاب » وهم جنس يقال لهم البوغينيزيون انتشروا في السواحل الغربية من بورنيو وملك منهم عدة امراء في هذه الجزيرة . وبقيت سوكادانه مستقلة تمام الاستقلال الى سنة ١٧٨٦ اذ اسقطها الهولانديون بالاشتراك مع سلطان بونتياناك ولم يبق لها سوى بلاد الماتان . أما سلطنة بونتياناك فأصلها امارة رجل عربي اسمه الشريف عبد الرحمن بن الشريف حسين بن احمد القادري الذي قبره يزار في بلدة منباوه فيقال انه بدأ حياته بالغارات وغصب السفن الى ان غضب عليه ابوه الذي كان صالحاً ورعاً فرحل من منباوه وجاء بعصابته الى جهة لانداك وكابواس وبلباقته ونشاطه أسس مركزاً تجاريا لم يزل ينمو ويتقدم حتى صار مدينة هي مدينة بونتياناك الحاضرة . وسنة ١٧٧٩ نودي به سلطانا واعترفت بسلطنته الشركة الهولاندية للهند الشرقية وعاهدته ولم يزل الملك في أعقابه الى هذا اليوم ولكن هولانده أخذت على أيديهم ولم تبق لهم من الملك سوى الاسم .

وأما سلطنة سانباس التي قاعدتها سانباس فقد اسسها ماليزيو جوهور . وسنة ١٦٠٩ عقدت معاهدة مع الشركة الهولاندية للهند الشرقية . وفي النصف الاول من القرن السابع عشر غلب رادين سليمان بن الراجا تنغا أمير « بروناي » على ملك سانباس وطرده وكانت امه من بيت ملك سوكادانه مقيمة بسانباس . وملك رادين سليمان تحت اسم السلطان محمد صفيّ الدين وهو أول ملوك الاسرة المالكة الى زمننا هذا .

وأما امارة سراواك التي قاعدتها كوتشينغ فأصلها ان بحريا انكليزيا اسمه جيمس بروك وصل بسفينة تخصه الى بلدة بروناي فوجد الحالة فيها لا تطاق من الظلم والعسف وفقد الامن

وتبليص الناس من أموالهم . وكان هناك امير يقال له مودا حسن فاعتمد على الربان جيمس الانكليزي وفوض اليه الامور فأصلح الاحوال ووطد الامن وفي سنة اعترف سلطان بروناي هذا للضابط الانكليزي جيمس بالامارة على سراواك فصار جيمس أميراً واستخدم الوثنيين في مقاومة المسلمين (١٨٤٢) وأمدّته الحكومة الانكليزية ببعض النجدات في وقائعه مع العرب والماليزيين ولم يدخل في حكومته الا عددا قليلا من الاوربيين وسوّى في المعاملة بين الاوربيين والوطنيين (ياليت حكومته وسائر الحكومات الاوربية تقتدي به في هذه الخطة) فسعدت أهالي تلك الامارة واتسعت حدودها وعظم شأنها . وسنة ١٨٦٣ مات جيمس فخلفه ابن اخيه كارلس بروك وقد ورث ملكا عريضا يمتد الى حدود نهر ليلبانغ ودخلت هذه المملكة تحت حماية بريطانية العظمى .

واما سلطنة « كوتاي » على الساحل الشرقي من بورنيو فقاعدتها « تنغارون » ومينائها « سامارينده » فقد كانت تابعة سلطنة موجوباهيت الجاوية ثم صارت الى تبعية مملكة بنجارماسين . وفي اثناء القرن التاسع عشر اضطر سلاطين كوتاي الى الاتفاق مع هولاندة على شروط تخل باستقلالهم وتجعل لها هي السيطرة .

أما احصاء نفوس بورنيو فيبلغ مليونا وسبعمائة الف نسمة من هذا العدد نحو ستين الف صيني وبضعة آلاف عربي ونحو الفي اوربي فهي قليلة السكان بالقياس الى مساحتها اذ لا يصيب الكيلو متر المربع فيها اكثر من واحد الى ثلاثة من السكان . وهم من جنس يقال له الداياك يسكنون في الداخل ومن الماليزيين المسلمين الذين يسكنون في الساحل . والداياك هم من اصل ماليزي ولكنهم منحطون في المدنية منقطعون في البراري والجبال والسيادة دائماً للمسلمين عليهم . ومتى اسلم واحد من الداياك صار معدوداً من الماليزيين . وأما السواحل فهي مأهولة بالمسلمين الماليزيين بعضهم من السلالة الماليزية الخالصة وبعضهم مختلطون بالامة البوغنيزية . ومن جهة ارض كابواس يوجد ماليزيون كثيرون ممتدون الى الداخل وهم هناك يتزوجون من الداياك والغالب على هؤلاء الماليزيين حب التجارة وصيد البحر وقنص الوحوش وليس عندهم ميل الى الزراعة والصناعة ولكن تشكيلاتهم السياسية بسبب وحدة العقيدة الاسلامية هي امتن واقوى من غيرها فقد سادوا بها على سائر سكان بورنيو فتجدهم هم الساكنين بافواه الانهر التي هي طرق المواصلات قابضين على زمام التجارة من كل جهة . ومنهم من يتغلغلون في احشاء الجزيرة في طلب محصولات الاراضي الحرجية مثل الكاوتشوك وغيره فيصلون الى اقصى مساكن الداياك السابق الذكر ويطبعونهم بطابع الاسلام . وأما السواحل الجنوبية من بورنيو فيسكنها جيل يقال لهم البانجاريزيون وهم ماليزيون مختلطون بدم جاوي لهم في بلاد بنجارماسين هيئة اجتماعية جديرة بالذكر وهم اهل ذكاء واقدام. كذلك على السواحل الشرقية يكثر الجيل المسمى بالبوغينيزي وهم من اقوم الاقوام على التجارة والسعي وفيهم نشاط وهمة فائقة ولهم مكانة عظيمة سياسية واقتصادية في هاتيك الارجاء

وفي الارخبيل الماليزي جزيرة يقال لها سيلاب (Celebes) هي الجزيرة الثالثة في العظمة والبسطة مساحتها ٣٢٢٨ كيلو متر مربع وفيها جبال عالية جداً ارتفاع قممها يبلغ ٣٤٥٠ متراً وارضها كلها جبلية تقل فيها السهول وتكثر فيها البراكين وفيها بحيرات متعددة .

وسيلاب تابعة لدولة هولاندة باجمعها وانما ادارتها مقسومة الى قسمين احدهما ولاية « منادو » ويتبعها النصف الشمالي من الجزيرة مع شبه الجزيرة الشرقي والثاني ما بقي من الجزيرة . ولا يزال في اشباه الجزر الشمالية والجنوبية امارات وطنية مثل « غوفا » و « بونه » و « لوفو » طرد امراؤها سنة ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ولم ينتصر لهم احد من الاهالي . وامارات اخرى مثل « تانيت » و « سوبنغ » و « سيدنفرنغ » لا تزال مستقلة في داخلها الى اليوم

وكانت جزيرة سيلاب مجهولة اكثر من سائر جزر هذا الارخبيل نزل بها الماليزيون سنة ١٥١٢ والبرتقاليون سنة ١٥٣٢ وفي القرن السادس عشر تغلب ملوك الماكاسار اصحاب دواتي « غوفا » و« تلو » على جنوبي سيلاب وقسم من اوساطها وعلى الجزر الصغيرة من ارخبيل الصوند . وفي زمان الملك « تونيجالو » الذي تولى الامر من سنة ١٥٦٥ الى سنة ١٥٩٠ تقرب « باب الله » ملك « ترنات » وكان مسلماً الى مملكة غوفا وعقد معاهدة مع تونيجالو وأراد أن يحمله على الاسلام ولكن لم يوفق حينئذ الى ما أراد . فلما آل الامر الى ابن تونيجالو شرح الله صدره للاسلام على يد رجل ماليزي اسمه « داتوري باندانغ » من بلدة يقال لها « منانغ كابو » من جزيرة سومطرة فأسلم (سنة ١٦٠٣) وتلقب بالسلطان علاء الدين واسلم معه وزيره « كارانيغ ما توفيا » وتبعهما سائر الاهالي وانتشر الاسلام بين جميع الشعوب العديدة المسماة بالماكاسار والبوغنيز لا سيما ان مملكة غوفا في ذلك الوقت كانت قد وسعت حدودها وزادت بسطة عزها .

وكان الهولانديون والانكليز والدانمركيون منذ سنة ١٦٠٥ بدأوا يناظرون البرتقاليين في التجارة ويزاحمونهم على محاصيل البهارات والفلافل في عاصمة الماكاسار . وقد عقد الهولانديون معاهدات تجارية مع امراء تلك النواحي تضمن لهم امتيازات خاصة بهم ثم لم يخل الامر من وقوع بعض الخلل بهذه المعاهدات فاتخذت هولاندة هذا الخلل ذريعة لمناجزة تلك الحكومات الوطنية القتال وبالاتفاق مع مملكتي بون وترنات زحفت العساكر الهولاندية في سنة ١٦٦٧ ثم في سنة ١٦٦٩ وفتحت اوساط مملكة الماكاسار واجبرت امراءها على امضاء معاهدة « بانقاجا » التي حملت على امضائها فيما بعد جميع ملوك القطر الجنوبي من جزيرة سيلاب وبموجبها اطاعوا دولة هولاندة . وكانت بلاد « ميناهازه » من هذه الجزيرة ذات علاقات كثيرة مع الاسبانيول وكان لهؤلاء عندهم مراكز اسسوها منذ القرن السادس عشر فاستعان الميناهازيون بالشركة الهولاندية على الاسبانيول واخرجوهم .

اما عدد اهالي سيلاب فيبلغ مليونين وهم من العائلة المالزية البولينيزية وذهب بعضهم الى وجود جنس آخر في داخل الجزيرة اسمه « توالا » وأصفى جنس من هؤلاء السكان هم « التوراجا » وهم جيل وثنيون في داخل الجزيرة ومنهم اقوام في شبه الجزيرة الغربي اختلطوا بالماليزيين فتكون منهم الماكاسار والبوغينيز . اما جنس الميناهازه فيستدل من أشكالهم ولغتهم على كونهم ذوي قربى مع الماليزيين اهل الفيليبين وفورموز واليابان . واشهر المدن التجارية الماكاسار فيها ١٠٥٩ اوربيا و ١٤١ عربيا و٤٦٧٢ صينيا و٢٠١٧٨ من الاهالي اكثرهم بوغينيزيون . ثم منادو وفيها ٥٠٠ عربي و ٥٧٦ اوربيا و ٢٧٨٤ صينيا و ٦٦٦٩ من الاهالي . ثم غورونتالو وفيها ٣٢٧ عربيا و ١٤٥ اوربيا و ٦٠٦

صينيون و ٥٢٤٧ من الاهالي . ثم سينجه واهلها ٣٥٧٨ وفيها ٥١ اوربيا و ٢٣ عربيا و ١٠٨ صينيون . ثم بونتان وفيها ١٥٥ اوربيا و ١٩٧ صينيا و ٦٥٤٤ من الاهالي و ٣ عرب الخ وهلم جرا . وجلس التوراجا زراع ومنهم قناصون ويسكنون في قرى محصنة لكثرة مايقع بينهم من الحروب.

وفي البلاد التي تعاقب البلاد الساحلية حيث يكثر البوغينيزيون دخل التوراجا هؤلاء في الاسلام اما النصرانية فتنمو في الجهة الشمالية .

والشعبان التوأمان المسلمان في جزيرة سيلاب هما الماكاسار والبوغينيز . كانا يسكنان في الارجاء الجنوبية ولكنهما انتشرا اخيراً في جميع سواحل سيلاب وفي اكثر جزر الارخبيل من الشرق الى الغرب وذلك بكون ابناء هذين الشعبين هم من اجرأ الناس على البحر ومن اقدرهم على التجارة . والماكاسار هم اصحاب الناحية الغربية من شبه الجزيرة الجنوبي داخلة في ذلك مملكة غوفا Gouva واما البوغينيز فانهم اصحاب الجانب الشرقي من شبه الجزيرة . وللماكاسار عدا غوفا مملكة تانيت Tanette وارخبيل سالاير Saleyer الجنوبي . وللبوغينيزيين Buginais ممالك بون Bone وفاجو Vadjo ولوفو Louvu وسوبنغ Sopeng وما عدا هذه الممالك فيوجد حكومات صغار تابعة للحكومات التي هي اكبر منها . وعلى رأس كل من هذه الممالك ملك أو امير او ملكة أو اميرة يتقلد او تتقلد الملك بالارث ولكل من الملك أو الملكة وزير ثم مجلس مؤلف من اعضاء بيت الملك ، وامراء البلاد والاهالي قسمان منهم الاحرار ومنهم الارقاء . وللاهالي عادات ومنازع لا يزالون متمسكين بها بالرغم من انتشار الاسلام بينهم فالتوارث بحسب الشريعة الاسلامية غير جار الا في المدن . والزواج يجري وفقاً للشرع المحمدي لكن حفلات الافراح وثنية تقريبا . وأما المرأة المتزوجة فلها مقام ممتاز . وقد امتاز الماكاسار والبوغينيز بالنشاط والعمل وحب الكسب فتراهم ارقى امم تلك الجزر في الامور الاقتصادية وهم يتقنون التجارة والزراعة وتربية المواشي وعندهم صناعات يدوية من النساجة والحدادة وبناء السفن يبلغون بها حد المهارة وكذلك لايباريهم احد في حرفة الملاحة وصيد الاسماك . ومعدل كثافة السكان من هذين الجيلين بالنسبة الى مساحة الارض هو ٢٧ شخصا في كل كيلو متر مربع كما في غوفا وفي تانت و ٢٠ شخصا في بون . واما في الاماكن التي تديرها هولاندة رأسا فهو ٥١ شخصا في كل كيلو متر مربع . ولهذين الشعبين كتابة وحروف هجائية من أصل هندي . وعندهم كتب وتآليف وآداب لغوية غزيرة ونظم ونثر . ومن جملة الكتب المعروفة عندهم مجموع احكام حقوقية اسمه « رابانغ » بلغة الماكاسار و « لاتوها » بلغة البوغينيز . ويوجد مراكز تجارية عظيمة للبوغينيز في جميع الارخبيل كالسواحل الشرقية والغربية من بورنيو وفي ارخبيل ريوف Riau والجزر الصغار من ارخبيل الصوند وفي شرقي جزيرة لومبوك وشمالي سومطرة .

أما الميناهازيون فانهم اليوم نصارى وقد انتشر العلم والتمدن بينهم بواسطة المبشرين ونمت ثروتهم وصارت كثافة السكان منهم بالنسبة الى مساحة الارض بمعدل ٣٨ شخصا في الكيلو متر المربع ويوجد ناحية حول بحيرة توندانو كثافتهم فيها بمعدل ٨٣ في الكيلو متر .

وأما جزيرة سومطرة فانها من الجزر الماليزية أيضاً وتعد من أعظمها بل من أعظم جزر العالم يفصلها عن بلاد الهند الصينية بوغاز ملقا وعن الجاوى بوغاز الصوند وهي بين ٩٢ر٥٢ و ١٠٣ر٤٣ من الطول الشرقي و ٥ر٣٨ من العرض الشمالي و ٥ ر٥٨ من العرض الجنوبي وطولها ١٧٦٠ كيلو متراً بعرض يختلف من ١٦٠ الى ٤٠٠ كيلو متر ومساحتها ٤٣٠ر٠٠٠ كيلومتر مربع وفيها سلسلة جبال عالية ارتفاع قممها ٣٧٠٠ متر و٣٤٠٠ متر . وفيها أنهار كبيرة تسير فيها السفن وهواؤها حار رطب وفيها معادن الذهب والحديد والنحاس مثل جزيرة بورنيو . وفيها زراعة الارز والحبوب وتكثر فيها الحيوانات كالخيل والبقر والجواميس وعدد أهلها ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعون الفاً منهم من اجناس هندية كالباتا والآلا والكوبو ومنهم ماليزيون ومنهم ماليزيون مختلطون يقال لهم آتشينيون والماليزيون والاتشينيون هم مسلمون وهم أكثر أهالي الجزيرة . وسومطرة تابعة هولاندة منها ما يليه الهولانديون رأساً ومنها امارات تحت الحماية ومنها امارات مستقلة . وأعظم مدنها بالانبانغ وآتشين وبادانغ ومدان الخ .

والمسلمون في الجاوى وسومطرة وبورنيو وسيلاب وسائر المستعمرات الهولاندية هم ٣٥ مليونا وبعضهم يقول ٤٠ مليونا .

وننهي القول بجزائر الفيلبين وهي أرخبيل من الاوقيانوس الماليزي بين ٤ر٢١ ر٣٠ من العرض الشمالي و ١١٤ر٣٠ و ١٢٤ ر١٥ من الطول الشرقي بين بحر الصين غربا والاوقيانوس الباسيفيكي شرقا وبحر سيلاب وبحر جولو جنوبا . وهذا الارخبيل يحتوي ١٢٠٠ جزيرة أشهرها لوسون LUÇON في الشمال وجزر بابوان Babuyanes وجزر بيسايا Bissayas في الوسط وجزر كلاميان Calamiunes وبالاوان Palaouanes في الغرب وجزيرة مينداناو Mindanaw في الجنوب . وهذه الجزائر جبلية بركانية كثيرة الزلازل وهواؤها رطب حار وزراعتها الارز وقصب السكر والبن والقنب وفيها مواش كثيرة كالخيل والبقر والجاموس ومعادنها غير قليلة كالذهب والنحاس والقصدير وصادراتها تعدل بنحو ١٥٠ مليونا والداخل اليها بنحو ١٢٠ مليونا وفيها نحو ٢٠٠ كيلو متر من الخطوط الحديدية ومساحتها ٢٩٦ر١٨٢ كيلومترمربع . وعدد سكانها سبعة ملايين منهم الماليزيون الكاثوليكيون ويقال لهم التاغال والماليزيون المسلمون ويقال لهم المورو والبولينيزيون وهم وثنيون وفيها زنوج وفيها نصف مليون من الصينيين ومائتا الف اوربي . وأعظم حواضرها مانيل ثم ليبا ثم باتانغ ثم باتانغا الخ وقد سميت هذه الجزر بالفيلبين نسبة الى فيليب الثاني ملك اسبانية الذي في أيامه جرى اكتشافها ودان اكثر أهلها بالنصرانية وذلك سنة ١٥٦٨ وبعد ان بقيت هذه الجزر مئات من السنين تحت حكم اسبانية ثارت عليها فعضدت الجمهورية الاميركية الكبرى حركتهم فتملصوا من حكم اسبانية ولكنهم وقعوا تحت سلطة الولايات المتحدة فعادوا يثورون على هذه وأحوالهم لا تزال غير مستقرة .

ويظهر ان الاميركيين أرادوا استمالة المسلمين من أهل الفيلبين ليتقووا بهم على الكاثوليك فجاء منهم وال سابق للفيلبين الى الاستانة منذ ١٢ سنة والتمس من الحكومة العثمانية ارسال مرشدين يهذبون مسلمي الفيلبين وينورون أفكارهم نظرا لما هم عليه من الجهل

والغباوة ولما كانت الدولة العثمانية وتتئذ تعنى بأمور المسلمين بقدر امكانها ارسلت المشيخة الاسلامية أحد مأموريها وهو الفاضل المرحوم وجيه افندى زيد الكيلاني النابلسي وجعلته اشبه بشيخ اسلام في الفيلبين فذهب الى هناك واستقبله المسلمون بفرح يفوق الوصف وبدأ بمهمته وعاونه الاميركيون عليها الا انه مرض مرضا قضى عليه بالعودة الى الاستانة فلما جاء قطعت المشيخة راتبه وأبت ان تعتني بهذا الامر بعد ذلك فاضطر الى السفر ثانية على نفقته الخاصة وكان يتأوه كثيراً على حالة الاسلام في الفيلبين ويذكر ماهم عليه من التحمس في محبة ابناء ملتهم لو اتيح لهم حظ من التعليم وأخيراً جاءنا نعيه بسبب العلة التي كانت تمكنت منه مع تغير الهواء عليه فذهب في شرخ شبابه شهيد حميته وعلو همته وكان صديقا حميما لي فسألته رحمه الله عن أحوال المسلمين في تلك الجزائر النائية فاخبرني بان عددهم هو من مليون الى مليونين وان السواد الاعظم منهم في جهالة عمياء لا يعرفون من الاسلام سوى كونهم مسلمين ولا يكاد يعرف الصلاة منهم الا أفذاذ قلائل ممن حجوا بيت الله الحرام . فعسى ان يتيض الله من المسلمين جمعية تحذو حذو الافرنج في التهذيب والارشاد فترسل الى تلك الديار من يكمل مهمة وجيه افندي الكيلاني التي لم تكد تبدأ حتى انتهت لانقطاع الامل بذلك ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون .
(ش)

التعليق على مسلمي الروسية

في عهد البلاشفة

(راجع اشارة رقم (١) في ص ١٣٣)

عند ما ذهبت الى موسكو في حزيران أو يونيو عام ١٩٢١ ، لتفحص الاحوال ، عن قرب ومعرفة ما اذا كان ممكنا فعلا انتفاع الشرق من الروسية الحاضرة ، وما هي درجة هذا الانتفاع ، سألت عن احوال المسلمين في الروسية ، وتلاقيت مع بعض ادباء الطاغستانيين والقازانيين ، فاستقصيت منهم عما اريده وقيل لي : ان بموسكو بضعة عشر الف تتري لهم مسجدان جامعان ، وكذلك في بتروغراد كان نحو عشرة آلاف منهم ، ولهم جامع بديع البناء . وكنت في احدى الجمع اديت الصلاة في احد جامعي موسكو ، حيث يؤم في الجماعة الشيخ عبد الودود فتاح الدين قاضي المسلمين في موسكو وبتروغراد ، ويتبعه في القضاء المسلمون الذين في ولايات « ياراسلاوله » و « توير » و « يقالومنه » وبلدتي « ايفانو » و « جنيسنسكي » والاخيرة بلدة معامل ، فيها عملة مسلمون كثيرون . ويقولون له هناك « حضرة عبد الودود » ويسمونه المحتسب . ومعنى المحتسب عندهم ، هو الذي ينظر في الامور الدينية ، ويرجع اليه أئمة المساجد . فالاستاذ عبد الودود فتاح الدين هو المحتسب في جميع البلدان المار ذكرها . ومرجعه المجلس الاسلامي الاعلى الذي بمدينة اوفا . وقد رأيت منه عالما فاضلا ، مطلعا على الامور ، بصيراً بامور قومه ، وقبل ان تحادثت معه سمعت خطبته في صلاة الجامع ، فالعادة عندهم هي أن يبدأ الخطيب بخطبة بالتركية القازانية لسان القوم ، يعظهم فيها ويتكلم في أهم الامور التي تناسب الحال ، فاذا انتهى من هذه الخطبة صعد المنبر ، وخطب الخطبة الرسمية بالعربية . فحضرة عبد الودود وقف بحذاء المنبر وشرع يخطب بالتركية ، وبقي يتكلم اكثر من نصف ساعة ، ومع كون تركية التتر تختلف بعض الاختلاف في الالفاظ وتصريف الافعال عن تركية العثمانيين ، فقد كنت افهم كل ما يقوله تقريباً ، واعجبني جداً وعظه ونسق خطابه ، وعلمت انهم مدركون الاحتياجات العصرية ، متنبهون لما يجب أن يتنبهوا اليه . ولما انتهى من خطبته بالتركي صعد المنبر اخوه ، وهو مثله من العلماء فخطب بالعربية بالتسجيع على نمط خطباء بلادنا ، ولكن باعراب صحيح ولفظ فصيح لا تفرقه عن لفظ خطباء العرب في شيء ، مما حملني على الظن أن هذا الخطيب كان مجاوراً في مكة أو في المدينة مدة طويلة ، حتى امكنه أن يخرج الحروف العربية مخارجها كأحسن المجودين من العرب ، اذ لم أعرف في امة الترك من يقدر على ذلك الا من نشأ منذ صغره في بلاد العرب ، فانه قد يتقن القارىء التركي علم التجويد ، ولا يزال معروفا من لفظه انه تركي ، ولا يبرح عاجزاً عن اخراج الحاء والعين والواو ، مثلا ، مخارجها الصحيحة الا اذا ربا بين العرب . فاما خطيب جامع موسكو ، فسمعت منه لفظ خطيب عربي ، فدهشت

عند ما عرفت انه لا يعرف بلاد العرب ، وانه انما تعلم التجويد في قازان ، وقد ازددت دهشاً لما سمعت بعض القراء يقرأون كقراء العرب نغمة وترتيلا ، بدون ان يكون احد منهم جاور في الحرمين ، ولا عرف البلاد العربية . مع ان اخواننا الترك العثمانيين يتعلمون التجويد ويحفظون القرآن ، ويتقنون كل ذلك ، وتبقى نغمتهم على ما هي عليه.

سألت حضرة عبد الودود بعد الصلاة وقد دعاني الى الشاي في منزله المتاوح للمسجد ، عما هم عليه في عهد البولشفيك ، وما هو الفرق بين الادارة القيصرية السابقة والادارة الشيوعية الحاضرة ، فاخذ يقص لي المحاسن والمساويء الا انه قال : « اما من جهة الحرية الدينية فقد صرنا في بحبوحة عظيمة ، اذ ان البولشفيين لا يسألون الانسان عن عقيدته ، ولا يعرفون الا كلمة « روسي » اياً كان دينه ، وكان الدخول في الاسلام ممنوعا لعهد الحكومة السابقة اما الآن ، فالحكومة لا تعترض احدا ، وان كثيرين في هاتين السنتين اسلموا على يدي . بل كان اهالي مائة قرية من جوار قازان قد حملتهم الحكومة القيصرية على النصرانية قسراً منذ مائتي سنة وحولت مساجدهم كنائس وارسلت اليهم القسوس ، وكانوا لا يزالون في الباطن مسلمين ، لكن لم يقدروا ان يظهروا اسلامهم الا بعد أن سقطت القيصرية وجاء البولشفيك ، فعادوا الى الاسلام واعادوا مساجدهم الى اصلها » .

ثم سألته عن تشكيلاتهم الشرعية فقال : ان قازان وسيبيريا وبلاد الباشقرد والقرغيز ، والمدن التي فيها مسلمون من جوار موسكو ، هذه لها مجلس اسلامي أعلى مركزه بمدينة أوفا . وهذا المجلس مؤلف من اربعة قضاة ، يرأسهم المفتي الاعظم . والمفتي الاعظم اليوم هو العلامة جان بارودي بن محمد بارودي ، وهذا الرجل هو من فحول العلماء وله تصانيف ، وكان أصلح أصول التدريس الاسلامي في الروسية ، وأيقظ المسلمين ، فلهذا نفاه القيصر الى سيبيريا ، ولم يعد من منفاه الا بعد سقوط القيصرية ، فانتخب مفتيا أعظم في ايام البولشفيك . أما القضاة الاربعة اليوم فهم ، العلامة رضاء الدين بن فخر الدين من المشهورين في البلاغة والتاريخ ، وكشاف الدين ترجاني امام قازان سابقا ، وصابر جان الحسني امام اوفا . والسيدة مخلصة بوبيا ، وهي سيدة عالمة فاضلة قد اقترحت الحكومة البولشفية ادخالها في المجلس الاعلى بقولها : ان النساء هن نصف البشر ، وانه من العدل وجود امرأة فيه للمحافظة على حقوق المسلمات (روى الطبري ان كثيراً من الفقهاء اجازوا قضاء المرأة) . فهذا هو المجلس الاسلامي الاعلى ، وفيه تنحل جميع المسائل الشرعية . ويتبع هذا المجلس تسعون ناحية ، كل ناحية منها فيها محتسب مثل الاستاذ عبد الودود ، فالمحتسبون مرجعهم المجلس الاعلى ، والائمة في المساجد مراجعهم المحتسبون .

وأما تركستان فلها تشكيلات دينية ، ومفت أعظم مركزه طاشقند . وكذلك يوجد مفت أعظم لمسلمي القوقاس ، ومفت لمسلمي القريم .

سألت حضرة عبد الودود عما يقال من عدد مسلمي الروسية كلها فقال لي : « في ولايات قازان ، واورنبورغ ، واوفا وتوابعها ، مع الباشقرد ٥ ملايين . والقيرغيز ٥ ملايين . وتتر سيبيريا نصف مليون . وولايات تركستان ، طاشقند ، وسمرقند ، وخوقند الخ ١٢ مليوناً . وبخارى مليونان وخيوه مليون واحد . فهذه ٢٥ مليوناً ونصف مليون . » فقلت له ، وفي

القوقاس ثلاثة ملايين الى أربعة طاغستانيون ، وجركس . وثلاثة ملايين في اذربيجان وكرجستان . ونصف مليون أو أكثر في القريم ، فهذه نحو ٣٣ مليونا . فوافقني على هذا القول ، وسألت غيره حتى ممن كانوا من أعضاء مجلس الدوما الروسي ، فقالوا ان عدد مسلمي الروسية نحو ٣٥ مليون نسمة .

وفي بولونيه نحو ١٥ الف نسمة مسلمون ، يقطنون عدة قرى . وفي مملكة ليتوانيه ، من ممالك البلطيك المستقلة بعد الحرب نحو ١٠ آلاف نسمة ، لهم بعض قرى ، وعندهم مساجد ، ولكنهم لا يعرفون لا العربية ، ولا التركية ، وانما يتكلمون بالليتوانية والروسية . وكان يحسن ان يؤخذ منهم بعض طلبة الى الاستانة وآخرون الى مصر لاجل تعليمهم العربي والتركي . وكان منهم طالب أديب في برلين ، جعلناه عضواً في النادي الشرقي .

(ش)

السيد جمال الدين الافغاني

حكيم الشرق

(راجع الاشارة رقم ٢ في ص ١٣٨)

فيلسوف الاسلام ، وعلم الاعلام ، وكوكب الاصلاح ، الذي أطلعه الله في افق المشرق بعد ان اشتد به الظلام ، حجة الشرق الناهضة ، وآية الحق الباهرة ، الذي قال عنه ارنست رنان ، الفيلسوف الفرنسي المشهور بعد ان عرفه : « كنت أتمثل امامي عند ما كنت اخاطبه ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين » . قد بلغ من شهرته ، واللهجة بذكره ، والضراوة بعبقريته ولا سيما بمصر والشام ، وسائر البلاد العربية ، ان ترجمة حاله تكاد تكون احدوثة الجميع ، فلا حاجة الى الاطالة بجميع تفاصيلها ، ولا الى الاحاطة بغررها وحجولها ، قصارى ما في الامر ان هناك حوادث لم تكتب الى اليوم ، وان الروايات تضاربت في أمرين احدهما ، هل هو افغاني مولود في افغانستان ، أم فارسي مولود في همذان كما زعم بعضهم ، والثاني ، هل هو فيلسوف الهي أم مسلم ، أم فيلسوف مادي معطل . وعلى الامر الاول نقول : ان كل من عرفوا السيد جمال الدين علموا منه انه من افغانستان، وانه من سادات كنر الحسينية المشهورين في تلك الديار ، ووالده السيد صفتر وكان مولده في اسعد آباد بقرب كنر سنة ١٢٥٤ هجرية وفق ١٨٣٨ ميلادية وكذلك عرّف به كبير تلاميذه ، الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، مفتي الديار المصرية ، في صدر رسالة الدهريين تأليف السيد جمال الدين . ولقد لقيت في المدينة المنورة قبل الحرب العامة باشهر السيد حسيناً أحد ولاة افغانستان ، ومن سادات كنر المشار اليهم ، ومن أفاضلهم، وعلمت منه ان السيد جمال الدين رحمه الله هو منهم ، كما اني سمعت ذلك من جميع رجال الدولة الافغانية وسفرائها ، الذين جمعتنا بهم التقادير في اوربا بعد تأسيس سفاراتهم بها ، فلا أعلم كيف تتفق كل هذه الروايات من أهل تلك الديار ، على كون المترجم افغاني الدار علوياً حسينياً ، من اسرة نسبتهم كالشمس ، ومقامهم في بلاد الافغان أشهر من ان ينوه به ، ويكون في الحقيقة من همذان ومولوداً بها ؟ ونقول على الثاني : ان الاستاذ الشيخ محمد عبده تعرض الى ادحاض هذه التهمة اكثر من مرة وعرب من الفارسية بمساعدة عارف افندي أبي تراب الافغاني رسالة « النيتشريين » أي الطبيعيين التي يرد فيها السيد جمال الدين على الملاحدة والمعطلة ، ويقيم العقيدة الالهية على أساطين المنطق ، والحكمة العقلية ، ويثبت صحة الوحي ، وينتهي الى ايضاح البراهين المحمدية ، كل ذلك بملكة قلّ ان تتاح قوتها لفيلسوف غيره ، ولكن بعض الناس — ولا سيما العلماء الحشوية — أبوا أن يروا في الفلاسفة الا ملحدين ومعطلين ، ومن هذا جاء قولهم العامي : من تمنطق تزندق . وبمثل هذه المبادىء السخيفة والكلمات المحزنة ، أضلوا العوام ، ووضعوا عقائدهم في خصومة دائمة مع الحقائق العلمية ، وجنوا على الاسلام جناية كبرى ظهر أثرها في الانحطاط السياسي والاجتماعي ، الذي نراه

عليه الآن . واذا قام مصلح أو مجدّد يتكلم باسم الحكمة والعلوم العالية ، ويحث على النظر ، وينهى عن التقليد ، ويبين مضار الجمود ، كان أول ما يتسرعون اليه رميه بالزندقة ، واتهامه بوهن العقيدة . وقد يصادف ذلك هوى في افئدة من يميلون الى التعطيل فعلاً ، فيلقفون ما يسمعونه من هذا القبيل بدون تثبت ، ويسارعون الى اذاعته بين الناس ، لان من أحب شيئاً أحب ان يرى كبار الرجال شركاء له فيه ، ولهذا صدّر الاستاذ الشيخ محمد عبده رسالة الدهريين ، التي اسلفنا ذكرها ، بمقدمة في ترجمة حال استاذه السيد جمال الدين قال فيها تقريباً ما يأتي : « يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل ما نراه من اختلاف آراء الناس في امره ، وتضارب أقوالهم في حقيقة حاله ، حتى كأنه قوة روحية قامت في كل ذهن بما يلائمه ، أو حقيقة كلية نزلت في كل عقل بشكل يشاكله ، والرجل على صفاء جوهره ، وزكاء مخبره لم يتناوله وضع الوضاعين ، ولا حزر الخراصين الخ» . ثم شرع بترجمته على الوجه الصحيح ، الذي هو أدرى به من كل مترجم غيره ، بمكانه من خلطة السيد الاستاذ ، وما له به من تمام الخبرة ، ومعه من طول العشرة . فذكر نسبه ، وحسبه ، ومولده ، ومنشأه ، ورحلته ومذهبه في السياسة ، ومذهبه في الفقه ، وقال في هذا : « انه حنيفي حنفي مع ميل الى مشرب السادة الصوفية ، رضي الله عنهم » . وذكر عن مذهبه السياسي انه كان جل اجتهاده في أن يرى احدى الدول الاسلامية ، في صف كبريات الدول الاوربية . وأطال في وصف مواهبه العقلية ، وقدرته العلمية ، الى ان قال : « وبالجملة فلو قلنا ان ما أوتيه من الذكاء ، هو أقصى ما قدّر لغير الانبياء ، لكنا غير مبالغين » . ووصف شمائله الباهرة ، واخلاقه العظيمة ، وهممه العالية ، وشجاعته التي لا تعرف للموت معنى ، وعدم مبالاته بالدنيا ، وانتهى الى قوله فيما أتذكر : « وهو حليم يسع حلمه ماشاء الله ان يسع ، الى ان يدنو أحد ليمسّ دينه ، أو شرفه ، فينقلب الى غضب ، تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أواب ، اذا هو أسد وثاب» .

قلت وسترى عاقبة غضبه عند ما أهانه الشاه ناصر الدين ملك العجم ، والصورة الفجيعة التي انتهى بها ذلك الخلاف ، مما سنرويه لك في آخر هذه الترجمة . وقد اتفق أرباب النظر في هذا العصر ، على أن قدوم السيد جمال الدين الافغاني الى مصر كان مبدأ الحركة الفكرية ، التي بدأت في البلاد العربية وسائر الشرق الادنى ، ولم تزل تنمو الى الآن ، رامية الى تحقق الشرق بالمعارف التي ساد بها الغرب ، ورفع سيطرة هذا عن ذاك ، واعادة الشرق سيرته الاولى من الرقي .

ولم يقرأ السيد جمال الدين على أحد بالازهر ، ولكنه كانت له حلقة خاصة في منزله انتظم فيها عدداً من أدباء القطر ، يستفيضون بحر حكمته ويستمطرون صوب صوابه ، اشتهر منهم الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وابراهيم افندي اللقاني ، والسيد وفا القوني ، وسعد باشا زغلول ، الذي قيل لي أنه ادرك اخريات أيام السيد بمصر ، ولازمه ثلة من أدباء الشام ، النازلين بمصر مثل أديب اسحاق ، وسليم النقاش ، وسعيد البستاني ، وغيرهم واندفع مريدوه وحملة علمه ، يكتبون ويخطبون وينشرون الى الملأ ما التقطوه من فوائده ، وانتظموه من فرائده ، وكان ذلك اسلوباً عالياً لا عهد للناس بامثاله ، وأسلوباً راقياً انقطعت منذ قرون عديدة نسبة رجاله ، فأحدث في الأمة حركة أفكار لم تكن من قبله ، ونفخ فيها روحاً سرية ظهر عليها طابع عرفانه وفضله ، فنشطت همم واستجدت عزائم ، وهبت قوى

وفاضت قرائح . وقال الشيخ محمد عبده في وصف تلك الحركة ما يأتي تقريبا — لان نص كلامه ليس بيدي الان — فاستنارت الالباب ، واستضاءت البصائر ، وانحلت عقل الاوهام من قوائم العقول . الى أن قال انه لم يكن بمصر للكتابة قبل جمال الدين شأن يذكر ؛ ولم يكن يعرف من الكتاب سوى عبد الله باشا فكري ، وخيري باشا ، وفلان على ضعف فيه ، وفلان على اختصاص فيه ، وبقية من بقي فاما ساجعون في المراسلات الخاصة ؛ واما مؤلفون في بعض الكتب الادبية الخ . ولم تكن الثورة التي احدثها السيد جمال الدين في السياسة بأقل منها في المعارف ، ولعمري هاتان توأمان ، فقلما انتشر العلم في مكان الاهتف بالحرية . وأول أثر ظهر لجمال الدين في ميدان السياسة ، هو الحركة التي هبت في أواخر أيام الخديوي اسماعيل باشا وآلت الى خلعه من الخديوية ، وكان للسيد اليد الطولى فيها . ولما جلس توفيق باشا على كرسي مصر شكر لجمال الدين مساعيه ، لكن لم يطل الامر حتى دبت عقارب السعاية في حقه ، وجاء من دس الى الخديوي الجديد أن السيد لن يقف عند هذا الحد ، وقد تحدثه نفسه بثورة ثانية ، وباقامة حكم جمهوري وما أشبه ذلك ، مما لا يعي تنميقه السعاة والمتملقين ، فصدر الأمر فجأة بنفي جمال الدين واخرج الى السويس ، ومنها ذهب الى الهند ، ولم يدخل بعدها مصر . وجرت الحركة العرابية في غيابه ، واحتل الانكليز مصر . ومما لامراء فيه أن المبدأ الوطني ، الذي رأس تلك الحركة كان من زرعه هو ، وان كان هب على ذلك الزرع ، من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية ، ولفحه من الدسائس الاجنبية ماصوح نضرته ، واذهب ثمرته ، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث في الشرق أو حركة اصلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التي هي أصدق عوامل الاستعمار الا أن ذلك الزرع لم تذهب بزرته من الارض ، وعاد فأخرج شطأه ، وما زال ينمو حتى استوى على سوقه ، يعجب جمال الدين لو عاش الى اليوم ، ويغتاظ به الذين لايبرحون مماطلين في الجلاء عن مصر . .

وفي سنة ١٨٨٥ ذهب جمال الدين الى أوربا ، وأول مدينة صمد اليها لندرة ثم تحول منها الى باريز حيث وافاه الشيخ محمد عبده أكبر تلاميذه ، وأكمل وعاة علومه ، فاصدرا فيها « العروة الوثقى » التي بلغت من ايقاظ الشرق وهز اعصاب العالم الاسلامي ، ما لم تبلغه صحيفة سيارة قبلها ، ولا بعدها ، ولكن لم يسعفهما الوقت أن يصدرا منها الا بضعة عشر عدداً ، فعاد الشيخ محمد عبده الى بيروت حيث كان منفاه على أثر الحادثة العرابية ، وبقي جمال الدين في أوروبا يجول في مدنها ويثافن أهل العلم فيها الى أن تلاقى بالشاه ناصر الدين صاحب فارس باتفاق أنهما تصادفا في منيخ عاصمة بافاريه ، فدعاه الشاه أن يكون بمعيته لما شاهده من وفرة علمه وفضله ، وتقدم اليه في الذهاب معه الى طهران ، فلبى السيد دعوته ، وأكرم الشاه نزله في عاصمة فارس ، وما زال في علياء عنده ، حتى نفس عليه الحساد منزلته هذه لدى الشاه ، ولما كان السيد جمال الدين لا يكتم فكره ، ولا يحتاط من قوة نفسه ، أن يجهر بكل مايجيش به صدره . وكان يعد ذا وذا يجد في ادارة أحكام العجم ، ما لا يطيق عليه صبرا أقل منه بكثير ، في الهمة ، واباء الضيم ، وصحة الوجدان فما ظنك برجل نظيره . لم يصعب على اولئك المفسدين ، ان يحكموا الوشاية ، ويوقعوا العداوة بينه وبين الشاه حتى انتهى الأمر باعتقاله وحبسه ، ثم باخراجه مهاناً من فارس الى بغداد ، حيث خاطب المجتهد الكبير ، ميرزا محمد حسن

الشيرازي رأس الشيعة في وقته بكتاب شهير ، عدد فيه مساوىء الشاه ، واستيلاء العته على عقله ، وشرح فيه مضرة امتياز شركة التنباك ، الذي يقضي باستئثار الاجانب بأهم محصول بلاد العجم ، فكان هذا النداء ، من أعظم أسباب الفتوى التي افتاها ذلك الامام ببطلان هذا الامتياز ، واضطرت الحكومة الفارسية خوف انتقاض العامة الى الغائه . ولكن السيد جمال الدين لم يشف غليله بهذه الحركة وحدها ، وأخذ يماكس الشاه وحكومته بكل وسيلة ، وكان كلما تذكر اهانة الشاه له ، وبين جنبيه تلك النفس العظيمة ، التي لو قلنا ان أنفس الملوك في جنبها تعد أنفس سوقة ، لكنا غير مغالين . هاج به هائج الانتقام ، وتقصد الأخذ بالثار ، لا سيما أنه كان رأى بعينه في ايران ، من آثار الاستبداد والظلم وفجائع العسف والغشم وذهاب مصالح الأمة العامة في سبيل اهواء افراد ، وشهوات آحاد ، ما مكن في خلده فكرة العمل لقلع الشاه من مركزه . وصادف بعد ذلك أنه ذهب الى لندرة مرة ثانية ، فحرر في مجلة سماها « ضياء الخافقين » مقالات على احوال فارس تقيم وتقعد ، وكان السلطان عبد الحميد قد دعا السيد جمال الدين الى الاستانة وذلك في سنة ١٨٩٢ فجاءها وكانت هذه المرة الثانية لدخوله هذه العاصمة . اذ كان قد عرف الاستانة مرة قبلها في زمن السلطان عبد العزيز . هذا ولما كانت سبقت لمحرر هذه السطور معه مراسلات بواسطة استاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده ، كان أول من سألت عنهم عند سفري الاول الى اوربا سنة ١٨٩٢ المذكورة ، هو المرحوم السيد جمال الدين فقيل لي انه قصد الاستانة وأظهر لي التخوف على مصيره في الاستانة هنري روشفور ، الكاتب الفرنسي الشهير ، الذي عرفته وهو منفي بلندرة . وكان روشفور يحب السيد جمال الدين ويحترمه ، وقد وصفه في كتابه « ماجريات حياتي » بقوله هكذا على أسلوبه الخاص به في الكتابة : « السيد جمال الدين الافغاني من سلالة النبي ، والممدود هو أيضاً انه أشبه بنبي » ثم قال : « اني شعرت نحو هذا الرجل بعاطفة الحب التي أجدها تربطني بكل داع الى ثورة أو مقاوم لسلطة . »

ولما ورد السيد جمال الدين الاستانة انزله السلطان منزلا كريما ، في دار ضيافة خصه بها في نشان طاش ، واجرى عليه الارزاق الوفرة ، وكان يدخل على السلطان ويصلي صلاة الجمعة معه . ومضت مدة وجمال الدين حظيّ عند أمير المؤمنين ، لا خوف عليه ولا هو يحزن ، وكان الجو لم يسفر بينه وبين السيد ابي الهدى الصيادي فنشأ ذلك أجل القصص بحقه الى السلطان ، وانما كانت تلك فترة لا يعبأ بها ، اذ ما تمّ الاستاذ الصيادي ان وجه عليه حملاته عند مولاه ، واندفع يتهم جمال الدين بالكفر والزندقة ، كما هو ديدن هؤلاء في شأن كل من أرادوا تنقصه من الحكماء . وقد اطلعت على نشرة من جانب السيد أبي الهدى تتناول ثلاثة من اعدائه وهم السيد فضل العلوي الحضرمي امير ظفار ، والشيخ ظافر المدني الطرابلسي شيخ الطريقة الشاذلية ، والسيد جمال الدين الافغاني ، وثلاثتهم كانوا من المقربين الى السلطان ، وكان لكل منهم نصيب وافر من الشتم والوقيعة في هذه النشرة ، وحصة السيد جمال الدين كانت تهمة الالحاد وفساد الاعتقاد . ومن جملة الشواهد على ذلك كونه قال مرة : « أنا أطوف بأشجار البندلر طواف الحجيج بالكعبة » . والبندلر هي السدود بالتركية وذلك أنه يوجد محل نزهة بظاهر الاستانة قد سد السلاطين العظام فيه أودية بحيث تكونت منها بحيرات لسقيا العاصمة ،

وقد احاطت بتلك البرك غابات ملتفة بديعة ، فغاية ما يقال أن جمال الدين عبر عن نزاهة ذلك المكان بعبارة شعرية ، فاستخرج منها أبو الهدى الحاداً وكفراً . وكان جواسيس السلطان يحصون عليه جميع حركاته وسكناته ، ليقدموا ذلك الى السلطان . فما يروى أنه كان هو وعبد الله نديم الكاتب المصري المشهور في متنزه « الكاغد خانه » ، فصادفا الجناب الخديوي عباس حلمي ، وسلم بعضهم على بعض ، وتحادثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك . فيقال ان السيد أبا الهدى قدم تقريراً للسلطان بأن جمال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديوي على الاجتماع في الكاغدخانه . وهناك عند الاجتماع بايماء تحت الشجرة . لكن السلطان بحسب قول جمال الدين لم يحفل بهذه الوشاية . ولكن هذا الخلاف مع أبي الهدى لم يزعزع مكانة جمال الدين من السلطان وربما زاده لديه زلفى ، وانما أدى الى وحشة الخيفة منه ، استمراره في مجالسه التي كانت تنتابها الناس دائماً على القدح في شاه العجم مما حمل سفير ايران على رفع الشكوى الى السلطان ، فاستدعى السلطان اليه السيد جمال الدين وقال له : « ان سفير العجم ترجاني أن اتكلم معك في الكف عن الوقيعة في الشاه وانا بناء على أملي فيك وعدته بأنك تكف عنه » وقد روى لي السيد رحمه الله هذه القصة عند ما رجعت من اوربا الى الاستانة في أواخر سنة ١٨٩٢ ، فقال لي هكذا بالحرف : « فقلت للسلطان ما كنت ناويا أن اترك شاه العجم حتى أنزله في قبره ، ولكن بعد أن أمر أمير المؤمنين بالكف عنه ، فلابد من طاعته . » بمثل هذا كان المترجم يخاطب الملوك ولا يبالي من موقع مثل هذا الكلام منهم ، مع ان أشدهم حذراً ووسواسا كان السلطان عبد الحميد ، فلا عجب ان وقع في نفسه شيء منه . ولكن ليت السيد كف بالفعل عن أذى الشاه ، اذ لم يلبث أن عاوده الغضب الذي هو العيب الذي عوّذ الله به حسناته المديدة ، والذي جرّ عليه كثيراً من المصائب ، حتى قال الشيخ محمد عبده في وصفه : « وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطانة » . ففي احد الايام قدم على جمال الدين رجل من العجم ، بابي المذهب ، اسمه رضا آقا خان ، صادف انه وجدمع بجمال الدين في حبس واحد في قزوين عندما اعتقله الشاه ، فحصلت بينهما صحبة اكيدة ثم تفارقا عند ما أخرج جمال الدين من الحبس ونفي الى بغداد ثم اخلي سبيل رضا آقا هذا ، ولما بلغه مجيء السيد الى الاستانة جاء يزوره فيها ، فسر به السيد كثيراً . وكان دائما يحادثه ويتكلمان على شقاء الامة الايرانية بسوء ادارة سلطانها ناصر الدين . فقال رضا آقاخان يوماً انه هو حاضر أن يفدي نفسه لتخليص أمته فقال له جمال الدين : « ان كان كذلك فاذهب وافعل » فذهب رضا آقاخان ، وبعد أشهر بينما ناصر الدين شاه في جامع عبد العظيم في طهران اذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال له : « بدي از جمال الدين ، أي خذها من يد جمال الدين » ووردت الاخبار الى الاستانة وتحدث بها الناس كما لا يخفى ، فأبدى السيد جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « قد تحقق الآن ان الامة الفارسية لم تمت وانها امة لم تنقطع منها الآمال ، لأن الامة التي يقوم من ابنائها من يأخذ بثارها ويفتك بالطاغي الذي على رأسها ، لا تكون قد فقدت جراثيم الحياة » . وكلاماً من هذا القبيل كان يردده . ثم لما ورده عدد من مجلة « الايلوستراسيون » التصويرية الفرنسية ، وفيها صورة القاتل رضا اقاخان مصلوباً معلقا ، والناس ينظرون من حوله هتف : « علو في الحياة وفي الممات . وقال : انظروا كيف علقوه عاليا عليهم حتى يكون ذلك رمزاً

الى انهم كلهم كانوا من دونه » . وكان الجواسيس ينقلون الى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد ، فلم يشك عبد الحميد في كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين ، وانه ما زال وراء الشاه حتى « ازله في قبره » كما قال . ومن الغريب ان الشاه بعد ان خلى سراح جمال الدين ، وذهب هذا الى اوربا بلغ الشاه ان المترجم كان يسعى في تدبير مكيدة مع بعض الايرانيين ، لخلع الشاه أو لقتله ، فندم جداً على افلاته ، ويقال انه هو الذي بعث الى السلطان عبد الحميد يرجو منه استقدام جمال الدين اليه ، ووضعه تحت المراقبة أمانا من شر غوائله ، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبي الهدى . ولما ورد الاستانة أمر بالمبالغة في برّه واكرامه ، ايلاءه عن عداوة شاه العجم ، فكان مع ذلك ما كان ، ولا يغني حذر من قدر . فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضبا شديداً ، وامر بتشديد المراقبة على المترجم ، ومنع أيّ أحد من الاختلاط به الا بارادة سلطانية ، وأصبح السيد في قصره محبوسا . وكانت الحكومة الايرانية شرعت في تحقيق حادثة القتل فثبت لديها اغراء جمال الدين لرضا آقاخان بالاشتراك مع شخص فارسي آخر اسمه رضا آقاخان أيضا ، وشخص بغدادي اسمه الشيخ ابراهيم . فطلبت الدولة الايرانية من الباب العالي تسليمها هؤلاء الثلاثة ، فالسلطان عبد الحميد أبى تسليم جمال الدين ، ولكن الشخصين الآخرين بلغني انه جرى تسليمهما وقتلا في ايران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة . ثم ان التضييق بلغ حده على المترجم حتى ارسل الى فيس موريس مستشار سفارة انكلترة يلتمس منه ايصاله الى باخرة يخرج بها من الاستانة ، فحضر فيس موريس اليه وتعهد له بما طلب ، واذ ذاك بلغ السلطان الخبر ، فأرسل اليه أحد حجابه يستعطف خاطره باسم الاسلام ان لا يرضى بمس كرامة الخليفة الى هذا الحد ، ولا يلتمس حماية اجنبية . فثارت في انفه حمية الاسلام ، وبعد ان كان زمّ حقائبه للسفر قال لفيس موريس انه عدل عن السفر ، ومهما كان فليكن . ولكن المراقبة عليه كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد ان يشاهده فلا بد له من اذن خاص . وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر في حنكه مرض السرطان واشتد عليه ، فصدرت الارادة السنية باجراء عملية جراحية يتولاها قبور زاده اسكندرباشا ، كبير جراحي القصر السلطاني ، وكان هذا مقربا جداً الى الحضرة السلطانية ، فأجرى له العملية فلم تنجح ، وما لبث الا اياما قلائل حتى فاضت روحه رحمه الله وعفا عنه . وهنا تقوّل الناس أشكالا وألوانا في قضية هذا السرطان وهذه العملية الجراحية ، لقرب عهد المرض بحادثة قتل الشاه ، وما كان معروفا من وساوس عبد الحميد . فقيل ان العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمدا ، وقيل لم تلحق بالتطهيرات الواجبة فنا : بحيث انتهت بموت المريض . وحدثني صديقي الكونت لاون أوستروروغ ، المستشرق العلامة ، مترجم كتاب الاحكام السلطانية للماوردي ، وحديثه هذا كان لي في هذه الايام الاخيرة في لوزان (شهر يناير سنة ١٩٢٣) . ان المترجم كان صديقه فدعاه اليه بعد اجراء العملية الجراحية وقال له : ان السلطان أبى أن يتولى العملية الا جراحه الخاص ، وانه هو رأى حاله ازدادت شدة بعد العملية ، فيرجو منه ان يرسل اليه جراحا فرنسويا ، مستقل الفكر ، طاهر الذمة ، لينظر في عقب العملية . فأرسل اليه الدكتور لاردي ، وهو رجل لا يزال حيا واقامته بجنيف من سويسرة ، فوجد ان العملية لم تجر على وجهها ، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وان المريض

قد أشفي بسبب ذلك ، وعاد الى استروروغ ؛ وأنبأه بهذا الامر المحزن ؛ وما مضت أيام حتى فارق جمال الدين الحياة . وقال لي واحد ممن كانوا في خدمة عبد الحميد وقد رويت له هذه القصة : ان قبور زاده اسكندر باشا كان أطهر وأشرف من ان يرتكب مثل تلك الدناءة ، ولكن كان رجل عراقي اسمه جارح طبيب اسنان يتردد كثيراً على جمال الدين ويطبب له اسنانه ، وكانت نظارة الضابطة قد استمالت جارح هذا بالدراهم وجعلته جاسوساً على المترجم ، فصار له عدواً في ثياب صديق . قال لي صاحب هذه الرواية : فاردت مرة أن أمنع جارحاً من الاختلاط بجمال الدين فاشار الي ناظر الضابطة اشارة خفية بأن أتركه ، وفهمت من الاشارة انه يذهب الى هناك ويطبب اسنان السيد بعلم من النظارة ، والسيد لا يعلم بشيء من ذلك ، ويستخلص جارحاً وثق به ، قال فلا أعلم ماذا فعل جارح بواسطة طبه وثقة جمال الدين به ، فصارى ما أعلم انه لم تمض مدة أشهر على حادثة الشاه ، حتى ظهر السرطان في فك السيد من الداخل ، واجريت له عملية جراحية فلم تنجح ، وجارح هذا ملازم للمريض ، وبعد موته كنا نراه دائماً حزينا ، كئيباً ، كاسف البال ، واجم الوجه ، خزيان ، مما جعلنا نشتبه ان يكون ذا يد في افساد الجرح بعد العملية ، أو في توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل ، فلما مات السيد أخذ يعذبه وجدانه على خيانته هذا الرجل العظيم ، الذي كان وثق به ، قال ولا أجزم بكونه هكذا فعل ، ولكنني أجزم بأنه كان جاسوساً على السيد والله من وراء العلم . وكانت وفاته رحمه الله في ٩ آذار سنة ١٨٩٧ وصلي عليه في جامع التشويقية في نشان طاش ، ودفن في مقبرة على مقربة منه . ولي في جريدة الاهرام يومئذ مقالة بين يدي فقده ليست في يدي الآن لمراجعة تاريخها . وكنت لما عدت من اوربا الى الاستانة سنة ١٨٩٢ ، ذهبت اليه في نهار وصولي ، فاستقبلني براً وترحيباً ولزمته تلك المدة الى ان اضطررت الى السفر الى وطني سورية ، ففارقته آسفا وأنا امني نفسي بالعودة الى الاستانة ، لمشاهدته والاستفادة منه . وسألني مرة عما شاهدته في اوربا وأي نتيجة استخلصتها من حال اولئك القوم ، لانه كان فيلسوفا تاما لا يرى الجزئيات الا من خلال الكليات ، فلما أردت ان أبدي له ما يعن لي في هذا الباب ، وكنت يومئذ في أول شبابي لم اجاوز الثانية والعشرين من العمر ، غلبتني مهابة حكمته وخشيت ان لا أصيب المحز ، فتعوذت لكلامي بشيء من انكار النفس واستكبار ان يكون مثلي ممن يجوز ان يتكلم بحضرة مثله ، فما رأيته الا نهض وامسك بيدي وهتف قائلا : « أنا اهنيء أرض الاسلام التي أنبتتك » . فسمع الناس هذه الجملة وما زالوا يتناقلونها ، وما اخاله قصد بها الا الجذب بضبعي الى الامام ، وجبر ما نقص من قوتي المعنوية . وحكيت له مرة ان احدى جرائد اميركا بحثت في موضوع اكتشاف تلك القارة ، فقالت يروى ان العرب خاضوا الاوقيانوس الاطلانتيكي ناشدين البر الذي وراءه ، وسألت هل عند مؤلفي العرب شيء من هذا الخبر ، فعربت ذلك جريدة النشرة الاسبوعية في بيروت ، والقت السؤال نفسه على علماء العرب وكنت في باريز ، فلما اطلعت على القضية لبيت ذلك النداء وراجعت في المكتبة الوطنية كتب الشريف الادريسي الجغرافي العربي الشهير ، ونقلت من كتابه نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق ، خبر الاخوة المغرورين ، الذين ركبوا سفينة من اشبونة وحملوا فيها كل ما يلزمهم من الزاد والماء ، وخاضوا بها بحر الظلمات

الى الغرب حتى وصلوا بعد مسيرة شهر الى جزيرة خالية لم يجدوا بها الا الوحوش ، فركبوا البحر متجهين الى الجنوب ، وبعد نحو شهر أيضا نزلوا بجزيرة فيها اناسي وملك يحكم عليهم ، فقفلوا من عنده متجهين شرقا ، حتى نفذوا بعد مدة الى مرسى اسفي بالمغرب الاقصى . فلما اكملت له الرواية واني حررتها جوابا على النشرة الاسبوعية ، وقد اثرتها عنها جميع الجرائد العربية ، التفت الي قائلا : « لا اريد ان اسر المسلمين بكلمة . هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان : كونوا بني آدم . أجابوه : ان اباءنا قد كانوا كذا وكذا . وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة ، لا ينفي ما هم عليه اليوم من الخمول والضعة ، قال : ان الانسان اذا بنى قصرا مستوفيا جميع شروط البهاء والنيقة ، ولم يفته فيه شيء من الرفاهة والفراهة ، فهو يفكر حينئذ بأن يأتي الى قصره بالرياش الفلاني النادر من القطر الفلاني ، ويكمل زينة قصره بالآنية الفلانية التي لا يملكها الا القليلون ، وان يجعل في حديقة القصر هذه الزهرة البديعة وتلك الريحانة العجيبة . فأما وهو قصر متداع الى السقوط ، والجص نازل الى الارض ، والسقوف قد هوت من كل جانب ، وهو لا يقدر على ترميمها ، فهل يخطر بباله ان يأتي لاكمال زينة قصره بهذه الآنية ، وتلك الزهرة ، وهاتيك الديباجة ، كلا ، لعمري ان من أعوزته الضروريات ، لا حاجة به الى الكماليات » . قال لي : « وأنا لا أقول لك لماذا حققت عن قضية جد العرب لاكتشاف اميركا ، ولكنني أقول لك ان الشرقيين قد أصبحوا بهذه المثابة ، وهي كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر ، قالوا : أفلا ترون كيف كان اباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم انتم اولاء كما أنتم . فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم الا ان تفعلوا فعلهم » . وكأنه ينظر بهذا الى قول القائل :

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

وكان من شدة ما يجد من الالم لحال الاسلام ، تخطر له خواطر نادرة في هذا الموضوع ، فقال لي احدى المرار : « قد فسدت اخلاق المسلمين الى حد ان لا أمل بأن يصلحوا ، الا بأن ينشأوا خلقا جديداً ، وجيلا مستأنفا ، فحبذا لو لم يبق منهم ، الا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم في طريق السلامة » . وقال لي نوبة أخرى : « لم يبق في الاسلام أخلاق ، فهذا محمود سامي (البارودي الشاعر الكبير ، رئيس النظار أثناء حرب عرابي) عاهدني ثم نكث معي ، وهو أفضل من عرفت من المسلمين » . وقال لي أيضا : « ان المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم وهو شهواتهم » . وكان يندد هذا التنديد كله لما كان فيه من الوجد لاسترداد الاسلام مجده القديم ، ولما كان يراه من غفلة المسلمين عن الاخذ باسباب الرقي ومن السبات العميق الذي أمعنوا فيه ، على حين صاح صائح الجد بسائر الامم هيا على الفلاح . ومن قرأ مجموعة العروة الوثقى التي كانت ترجمان أفكاره ، بقلم تلميذه الشيخ محمد عبده رأى انه انبأ منذ أربعين سنة بما سيؤول اليه حال الاسلام ، وما ستكون معه سياسة الدول المستعمرة ، مما تحقق كله فيما بعد ، حتى كأنه كان ينظر الى الحوادث المستقبلة في مرآة . وكان في أطوار حياته ، فيلسوفا كاملا ، عالما عاملا ، فلا يقول ما لا يفعل ولا يكتفي من الحكمة بالنظر

دون العمل ، كما هو شأن كثير من العلماء الحفاظين الذين قلوبهم في واد وألسنتهم في واد ، فكان يفطم نفسه عن الشهوات ، ولا يرى من اللذات الا اللذة العقلية العالية . وقد حاول السلطان عبد الحميد ان يعلق قلبه بالمال والبنين ، ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزواج ، فأبى وأعرض ، وقال له : قضيت حياتي مثل الطير على الغصن ، فلا أريد في آخر أيامي أن أتعلق بعائلة . وكنت سامراً مرة عنده وعن هـذا الموضوع ، فقال له أحـد الدمشقيين : يا مولاي لماذا لا تتأهلون ويكون لكم الذرية الصالحة ؟ فلم يعجبه قوله ، ولما انصرف الرجل ، أقبل علي السيد وقال « لم تدخل روح الفلسفة في هـذه الامة » . وليس مراده بذلك التزهيد في الزواج ، وانما تقرير حقيقة وهي أن الفلسفة لا تبالي بالنسل والذرية ، وان الفلاسفة قلوبهم في شغل شاغل عن ذلك ، وكان ينظر الى المال نظره الى التراب فلا يدّخره ، ولا يعرف معنى تثميره ، ولا يتناول منه الا ما هو ضروري للحياة . ولما كان في الاستانة ، كان عنده قهرمان هو الذي بيده الحساب والقبض والصرف ، أما هو فلا يدري من ذلك شيئا . وحاول السلطان ان يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضي عسكر مثلا ، فأبى ان يقبل الرتبة ، وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب ، وكذلك رفض قبول الوسام مهما كان عاليا ، فسألته عن ذلك فقال : أكون كالبغل يحمل على صدره الجلاجل ؟ وبالجملة فلم يكن يؤخذ لا رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد كان راغبا عن الدنيا بحذافيرها عيوفا عن زينتها معرضا عن زخرفها ، كما مر بك وأما الرهبة فلم يكن يعرف الخوف الى قلبه سبيلا ، وفيما سردنا لك من قصصه ما فيه مقنع . وعرض حديث اجريت فيه ذكر الشيخ محمد عبده فقلت ، انه من الافراد بمصر ، فاجابني : « لا يوجد مثله بمصر » . وكان هـذا قبل ان صار الاستاذ في منصب افتاء الديار المصرية ، ونال تلك الشهرة العظمى .

تحرينا في ترجمة حال هذا الحكيم الكبير ، هذه الدقائق ، لانه مما لامشاحة فيه ، أنه هو الموقظ الاعظم للشرق ، وأن طريقته ستزداد انتشاراً ، ومبادئه ستطبق في يوم من الايام الشرق بأجمعه ، فيسأل الخلف عن أحوال حياته ، ويستقصون عن خواطره ، ويجدّون في جمع آثاره ، كما نرى الاوربيين اليوم يحرصون جد الحرص ، على اكتشاف أقل شيء يعزى الى عظيم من عظمائهم ، سواء من خبر أو أثر . ومن غريب غرائب البشر أنهم لا يحرصون على آثار عظمائهم في حياتهم ، معشار ما يحرصون عليها بعد ذهابهم ، وكنت أسأل مرة مارسل كاشين ، وجان لونغه ، وجماعة من رؤساء الاشتراكيين الفرنسيس ، عن جوريس نابغة السوسياليست في هـذا العصر ، فبعد أن حدثوني عنه ساعة قالوا لي : « لم نكن نقدره قدره في حياته كما نقدره قدره اليوم . » وأظن الحال كذلك مع رنان ، ومع فيكتور هوغو ، ومع سبنسر ، ومع بسمارك وجميع الاعاظم . فان أقدارهم تزداد بالوفاة ، والولع بآثارهم يتضاعف مع تقادم العهد . وهكذا شأننا مع جمال الدين ومحمد عبده ، وغيرهما من كبار المصلحين ، كلما تقادم عليهم العهد ، حرص الناس من آثارهم على اللفظة الشاردة ، والكلمة الفاردة ، ليكتبوها منهم بماء الذهب . ولجمال الدين تاريخ للافغان ، ومقالات متفرقة كان عندي منها مجموعة ، سطا عليها لص علم ، وآخر ما نشر له ، رسالة الدهريين التي سبق ذكرها . وبالجملة فلم يكن يحفل بوفرة التصانيف ، وانما كان مؤلف أمم ومصنف ممالك . (ش)

ومن ترجم السيد جمال الدين ، العلامة غولد سيهر المستشرق المجري المشهور ، شيخ المستشرقين في العلوم الشرعية ، وصاحب التصانيف العديدة . فقد رأينا له في دائرة المعارف الاسلامية ، المحررة باللغة الفرنسوية ترجمة خاصة بالمرحوم السيد جمال الدين ، جاء فيها ما تعريبه :

« السيد محمد بن صفدر ، من أعاظم رجال الاسلام في القرن التاسع عشر ، كان بحسب رأي براون فيلسوفاً ، كاتباً ، خطيباً ، صحفياً . وقبل كل شيء ، كان رجلا سياسياً يرى فيه مريدوه وطنياً كبيراً ، وأعداؤه مهيجا خطيراً . وقد كان له تأثير عظيم في حركات الحرية ، والمنازع الشوروية ، التي جدت في العشرات الأخيرة من هذه السنين ، في الحكومات الاسلامية وكانت حركته ترمي الى تحرير هذه الممالك من السيطرة الاوربية ، وانقاذها من الاستغلال الاجنبي ، والى ترقية شؤونها الداخلية بتأسيس ادارات حرة . وكذلك كان يفكر في جمع هذه الحكومات بأجمعها ومن جملتها ايران الشيعية ، حول الخلافة الاسلامية ، لتتمكن بذلك الاتحاد من منع التدخل الاوربي في أمورها . فجمال الدين بقلمه ولسانه ، كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة الاسلامية . وأسرته الشريفة تنتمي الى الحسين بن علي بن أبي طالب بواسطة المحدث الشهير الترمذي ، فهو من أجل ذلك يلقب بالسيد . »

ثم يقول انه بعد اكمال تحصيله بكابل ، ذهب الى الهند ، ثم حج البيت سنة ١٢٧٣ ، أو ١٨٥٧ وبعد اوبته من الحج ، دخل في خدمة دوست محمد خان أمير الافغان ، ورافقه في حصار هراة ، ولما توفي دوست محمد خان ، دخل في خدمة محمد أعظم الذي استوزره الى أن كان سقوطه واستيلاء شير علي خان على المملكة . فرحل السيد جمال الدين الى الهند (١٨٦٩) ومنها قدم القاهرة حيث أقام اربعين يوما ، ومنها قصد الاستانة ، فأقبل عليه وزراؤها وعلماؤها ، وأجلوا قدره ، وعرفوا فضله ، وعينته الدولة عضواً بمجلس المعارف ، وصار يلقي بعض الدروس في اياصوفيا والسلطان احمد ، ودعي مرة الى القاء خطبة في دار الفنون على فوائد الصناعة ، فذكر النبوة من جملة الوظائف الاجتماعية (حقيقة هذه القصة أن السيد يومئذ شبه الاجتماع الانساني بجسم أعضاؤه الصناعات المختلفة ، فشبه الصنعة الفلانية باليد ، والفلانية بالرجل ، وهذه بالعين ، وتلك بالأذن ؛ ثم قال وأما الرأس المدبر لهذا الجسم ، فهو اما النبوة أو الحكمة ، والفرق بينهما أن النبوة وحي الهي معصوم من الخطأ ، وأن الحكمة وضع بشري قد يخطيء وقد يصيب . وكان حسن فهمي افندي شيخ الاسلام يومئذ ناقماً على الافغاني قراراً سابقا في مجلس المعارف ينال من رزقه ، فانتهز فرصة هذا الخطاب ليقول ، ان الافغاني جعل النبوة من جملة الصناعات) فأدى ذلك الى أن حسن افندي فهمي شيخ الاسلام رماه بالزندقة ، واضطر الى مغادرة الاستانة قاصداً مصر . فأجرت الحكومة المصرية عليه معاشا شهريا ١٢ ألف قرش بدون أن تكلفه القاء درس خاص ، وانما كان يقرأ على حلقة من الطلاب في منزله ، واجتمع حوله كثير من العطاش الى مناهل العلوم العالية الخ .

وذكر غولد سيهر سائر ما يعرف من أحواله مما حرره الشيخ محمد عبده ، في صدر رسالة الرد على الدهريين ، وما هو بمعنى ترجمتنا له في هذا الهامش ، الا أنه يقول انه لما نفي من مصر الى الهند جعلوا اقامته بحيدر آباد الدكن ، وهناك كتب رده على الدهريين وانه قد زعم

وبالفريد سكاون بلونت وهو مما لم يذكره غيره من مترجميه ، أن جمال الدين ذهب من الهند الى أميركا ، وأنه منها جاء الى لندرة سنة ١٨٨٣ .

وذكر غولدسيهر مناقشة جمال الدين مع رنان ، في أمر قابلية الاسلام للعلم ، فقال ما يأتي بالحرف :

« وقد فتحت له أشهر الجرائد وأعظمها نفوذا ابواب المراسلة ، فنشر فيها مقالات ممتعة ، عظيمة القيمة على السياسة الشرقية ، التي كانت تتنازعها انكلترة والروسية ، وعلى أحوال تركيا ومصر ، وعلى معنى حركة المهدي السوداني . وفي ذلك الوقت جرت بينه وبين ارنست رنان ، المناظرة التي أساسها محاضرة ألقاها رنان في السوربون على الاسلام والعلم . فجمال الدين أراد تفنيد مزاعم رنان بعدم قابلية الاسلام للتوليد العلمي ، وذلك في مقالة بجريدة « الدبا » ترجمت أيضا الى الالمانية . ثم بعد ذلك بقليل ، عربت محاضرة رنان ، مصحوبة برد من قلم حسن افندي عاصم الخ » .

ثم ذكر غولدسيهر العروة الوثقى ، وكيف شددت الحكومة الانكليزية بمنعها من أول عدد صدر منها من الدخول الى مصر والهند . وقال انه سنة ١٨٨٥ ، بالرغم مما اشتهر به المترجم من عداوة انكلترة ، داخله الانكليز باشارة المستر بلونت في أمر ايجاد حل لمسألة المهدي السوداني ، ولكن لم يقترن شيء من ذلك بالعمل . ثم زعم أن الشاه ناصر الدين دعاه بالبرق سنة ١٨٨٦ الى حاضرة ملكه طهران ، وأكرم مثواه وبالغ في الاحتفاء به ، ولكن خشية الرقباء حملت جمال الدين على الاستئذان من الشاه والذهاب الى الروسية ، حيث أقام مدة وصارت له علاقات كثيرة . وان لقاءه للشاه في منيخ كان في المرة الثانية ودعاه هنا الى الرجوع الى طهران ، وذلك سنة مجيء الشاه الى معرض باريز (١٨٨٩) وذكر غولدسيهر أن سبب الفتنة بين جمال الدين والشاه كان الصدر الاعظم ميرزا علي أصغر خان الملقب بأمين السلطان ، نفاسة على جمال الدين بالمكانة التي أحرزها في ايران ، وأن جمال الدين التجأ الى مقام عبد العظيم الذي هو أشبه بحرم من دخله فهو آمن ، وأقام به سبعة أشهر والناس تتردد عليه ، الى ان أرسل الشاه كتيبة ٥٠٠ فارس ، اخترقوا حرمة الحرم وأخذوا السيد منه عنوة ، وساقوه مكبلا بالحديد الى خانقين (على حدود العراق) .

ثم استوفى بقية خبره ، وكيفية مماكساته لحكومة الشاه ، ثم مجيئه الى الاستانة ، ووفاته فيها على الوجه الذي حررناه . (ش)

الاسلام والجنود السوداء

لروجر لابون والتعليق عليها

(راجع الاشارة رقم ١ ص ١٣٧ في هذا الجزء واشارة رقم ١ ص ٢٦٦ من الجزء الثاني)

انه مما يجدر بأن يطلع عليه الشرقيون عامة والمسلمون خاصة ، ما يصدر في أوروبا في الاحايين من الكتابات المتعلقة بهم ، والتصانيف الباحثة عن مصيرهم ، والمقالات المصورة لأحوالهم وشؤونهم بلون تخيلات الكتاب الذين حرروها ، الناطقة عن هوى الاحزاب التي ينتمي هؤلاء الكتاب اليها ، بحيث يعرف منها الشرقي أو المسلم أو المستضعف المغلوب على أمره كائنا من كان ، ماذا يطبخ له في الخفاء ، وماذا يدس بحقه تحت الستار ، وماذا يدبر عليه بدون علمه مما لا يطلع عليه الا في الندرى ؛ ومما هو رام الى ادامة استغلاله ، والاحتياط من وراء اساره ، وتأمين رسفانه الابدي في سلاسل العبودية . فمن هذا القبيل ومما نورده مثالا ، مقالة مشبعة ظهرت مؤخراً في مجلة من أشهر المجلات الفرنسية هي مجلة باريز Revue de Paris في عدد أول ابريل سنة ١٩٢٣ ، لكاتب فرنساوي اسمه روجر لابون Roger Labonne عنوانها « الاسلام والجنود السوداء » كشف فيها النقاب عن جميع ما ينوي بعضهم في حق المسلمين ، الذين تحت نير الافرنجة عامة ونير الفرنسيس خاصة ، وتوخى عدم حصر ذلك في الميدان السياسي والاداري ، بل تجاوزه الى الميدان الديني والاجتماعي ، مما لا يجوز التهاون به ولا الاغضاء عنه ولو لأجل العلم به على الاقل . وقد جرت عادة المضللين والماحكين ومخدري الاعصاب من الاوربيين ، عند ما يحدثهم انسان بشأن مقالة كهذه أو مصنف من بابها ، أن يكون جوابهم أبداً بأن هذه هي آراء أفراد ، لا يؤبه لها ولا يلتفت اليها ، وليست الحكومات المستعمرة لتقيم لها وزناً ، وكلمات كلها من هذا النمط ، فليحذر الشرقيون وجميع المسلمين من قبول هذه الاقاويل ، والاسترسال الى هذه التمويهات ، لئلا يندبوا عاقبة سذاجتهم وحسن ظنهم . ان المباديء والآراء التي في المقالة الآتي تعريبها ، وفي مئات بل في ألوف من أمثالها الصادرة تباعا في العالم الاوربي هي عقيدة حزب كبير جدا في أوروبا ، بل يمكننا أن نقول هي عقيدة السواد الاعظم من أهالي الممالك الاستعمارية ، لا يخرج عن هذه العقيدة سوى الاحزاب الاشتراكية ، والشيوعية ، وغلاة الراديكال ، ومن ند لملة من العمال من جمهور الاحزاب الاخرى المتوسطة والمتيامنة ومن يليها ؛ وذلك كعالم كبير طاهر الوجدان ، أو فيلسوف عامل واسع الفكر صادق الانسانية ، أو سياسي محنك راجح العقل يغلب ادراكه هواه ، ويعلم ما في هذه الافكار من التهور وما يترتب عليها من الاخطار ، وما يكون لاجرائها بالفعل من سوء العاقبة . وماعدا من ذكرناهم ، فالغالب من القوم هو على هذه العقيدة فلا ينبغي أن نخادع أنفسنا ، وأن نتغابى عن الحقيقة لذة بالتغابي كمن يكتم مرضه ، فانه اذا كان قبيحا بالمرء أن يغش غيره ، فأقبح منه أن يغش نفسه . فمن الأمور

التي لا يجوز أن نغش أنفسنا بها ، الذهاب الى كون هذه المبادىء الضارة بالشرق وبالعالم الاسلامي هي مبادىء الفئة القليلة ، وان تلك الحكومات غير ماشية بموجبها . والحقيقة ان ليس هناك الا الفرق بين عدو عاقل يمنعه عقله ، وتربأ به رويته ، عن المجاهرة بمكنون فكره ، واقلاق خواطر الأمم المستضعفة بصراحة نيته ، وعدو متهور غلبت عليه حرارة صدره وشدة طمعه ، حتى باح بكل ما ينويه لتأبيد عبودية تلك الامم المقهورة ، لاسيما المسلمين ، الذين يرونهم أشد خطرا من الجميع بما ينفث القرآن في روعهم ، من روح العزة وتهوين الموت ابتغاء الحياة الكريمة . وهذا القسم الثاني هو نظير روجر لابون هذا الذي نأتيك بمقاله معربا بالحرف . قال :

١

لمحة على حالة الاسلام الحاضرة

« نجد الناس في فرنسا ينظرون بدون قلق ، الى القلاقل والى حركات العصيان البادية في العالم الاسلامي . بل ربما ينظرون اليها مع شيء من الشماتة أو السخرية ببعض جيراننا ، الذين لا يوصفون بخلوص النية ، ولا يكرهون أن تشتد وتمتد عندهم هذه الحركات ، ويعتقدون أن مجرد التزلف الى الشعوب الاسلامية ، وادعاء المحافظة على حقوقهم ، هما مما يزحزح عنا نحن هذا الخطر الذي يتهدد غيرنا . ثم انهم لا يريدون أن يسمعوا كلام المتشائمين ، الذين تهجس في صدورهم علاقات الاناضول مع التونسيين والجزائريين والمراكشيين ، والدسائس الجارية على الحدود الشرقية من سلطنتنا الافريقية . بل يقابلون مخاوفهم هذه بتصريحات الاتراك ، الداعية الى الركون والطمأنينة . ويعتمدون على الفشل الذي لقيه اعلان تركيا الجهاد في الحرب العامة بمعاونة المانية . ثم بسليهم الفرح ، الذي يبديه لنا المسلمون من جراء خطتنا الحاضرة ، وينخدعون بكل سهولة بظاهر الشرقي ، الذي من شأنه كتمان سريرته تحت ستار الادب الغض ، والكياسة الزائدة . وينسون ان الاسلام المبني على قاعدة الخضوع للقوة الغالبة ، تصلح له الصراحة وسياسة الحزم ، أكثر من سياسة التودد والمراماة عن حقوقه .

نعم ان السكون الذي نرى رواقه الآن ممتدا على ممالكنا الاسلامية ، قد يصوب الخطة المتبعة عندنا . لانه على ضد ما هي الحالة في الريف الاسبانيولي ، وبرقة الايطالية ، ومصر الانكليزية . ولكن النار توشك ان تصل الينا ان كنا لا نريد ان نلتفت جهة الشرق الذي منه انبعثت الحرب ، والذي حوادثه الحاضرة ليست الا مقدمات لما هو أهم وأطم .

سنة ١٨٩٧ أثبت كوبولاني ودبونت Coppolani et Depont في كتابهما على الطرق الدينية الاسلامية ما كان من التأثير لانتصار الترك في تساليا ، فقالا ان الامم الاسلامية كلها مادت طربا لبشائر النصر الذي أحرزه ابناء ملتهم . ولكن هذا الغليان لم يكن يومئذ ذا بال . لان اوربا كانت يومئذ قوية ثابتة متحدة ، وكان المارد الروسي ملقيا بكلكله الثقيل على جميع العالم الشرقي والاسلامي ، فلم يكن ليجرأ أحد من المسلمين على أقل حركة بالرغم من دسائس عبد الحميد ، ومن مظاهرات غليوم الثاني الولائية للاسلام في الارض المقدسة . أما الآن فقد تغير كل هذا ، فان أوربا قد ضعفت ، وجرأة المقلقين قد تضاعفت ، والحركة

القومية تعمل عملها في الشعوب ، وموسكو بدلا من ان تكون هي ذات اليد الضاغطة على المسلمين اذا هي التي تعضد هذه الحركة وتظاهر أصحابها على التملص من النير الاجنبي .

ان الاهتمام الذي يراقب به العالم الاسلامي حركات الثائرين من مسلمي آسية ، لاجل التخلص من ربقة الغرب ، هو ارهاص لا يجوز الاستخفاف به . فان فوز شعب اسلامي على حكومة اوربية لا يخلو أبداً من رد فعل يمتد الى أقصى البلدان عن مرزح المعركة ، فلو رأيت جرائد الاستانة ايام انكسار الاسبانيول في الريف كيف كانت تهلل وتكبر ، وتنشر في صفحاتها الاولى بشائر نصر المراكشيين المسلمين ، وخرائط ميادين الحرب ؛ لقضيت العجب ، وانك لترى أقل اضطراب يقع في برقه أو تونس أو سورية أو الهند مبالغا فيه أشد المبالغة في الصحف التركية .

مع ذلك سياسة محاسنة الاسلام لا تزال ماشية ، على ما فيها من تضليل الافهام ، ونبذ النصائح المبنية على التجارب ، ولا يبرح بعضهم معتقدين ان لا خطر من هذه السياسة ، وان كان ثمة من خطر فيكون على جيراننا فقط . ولقد اشتدت مجاري الحب والبغض بعد الحرب ، الى حد ان أصبح الانسان يرى الصواب في عدم اقتحام غمرتها ، وبدلا من ان يبين الخطأ العظيم الذي دل عليه الاختبار الطويل ، تجده يجتزيء بالتعديل الخفيف ، منتظرا ان تأتي الحوادث بما يبرّد حرارة تلك الاهواء .

وانا في هذه الدسائس التي يوشك أن يصل الينا اذاها ، نحس بتأثير برلين ، فهناك النادي الشرقي المؤسس سنة ١٩٢٠ ، تحت حماية مجلس برلين البلدي والجنرال لودندورف ، يصدر جريدة لواء الاسلام بالعربي والتركي والفارسي ، التي الغاية منها بث الدعوة ، وتفسير حوادث اوربا وآسية بالشكل المناسب . ويضاف الى هذه العوامل الناشئة عن حالة الحرب ، عوامل أخرى للهيجان ، هي غير واردة تواً ، بل هي من فطرة الاسلام نفسه . فقد تكرر مرارا ان ديانة النبي تحتم على اتباعها الاستسلام للقوة ، وانما تجعل القوة خاصة الهية تجب طاعتها ولو كان صاحبها كافراً ، فالقوة من الله ومن ذا الذي يقدر ان يناهض قوة الله .

وان هذا المشرب المخالف لديدن الاوربيين ، الذين يندفعون بعامل العاطفة ، هو السبب الوحيد فيما نجده من انقياد أشد الأمم الاسلامية للفاتح الاجنبي . وما أكثر ما يحدث من الاغلاط في سياسة هذه الامم ناشيء عن الجهل بهذه الحقيقة ، (أي كون الاسلام مبدأ للقوة) ، فالاسلام لا يخضع بفطرته الا للسلطة القاهرة . والسلطة والعلاء عنده توأمان . وعند ما كانت أوروبا متحدة وكان هنالك ما يسمونه بالمجتمع الدولي ، كانت مكانة أوروبا فوق أن تنازع ، وكانت الشعوب الاسلامية واحدا بعد واحد تلقي السلاح ، ولم يكن ثمة منها الا بعض حركات عارضة ، وثورات منحصرة ، فكانت قوة الثائرين ، من مهدي أوزعيم لا تنبسط ولا على جميع القبائل المجاورة . ولما جاءت الحرب الكبرى ، كنت ترى بنجابيي لاهور ، وهنود البنغاله ، وكافنبور ، ومصريي وادي النيل ، والاعراب ، والبرابر ، والمراكشيين ، والبامباره (جيل من أوائل بلاد السودان ينزلون بين صحراء افريقية من الشمال وأعالي السنيغال من الجنوب) يتجندون تحت رايات دول الحلفاء ، وان مليونا ونصف مليون مقاتل من المسلمين ، قاتلوا بمزيد البسالة عساكر خليفة استانبول وقيصر برلين . وهذا النفوذ التركي الذي يمدونه

الآن عنصراً ضرورياً للنظام والسكون في العالم الاسلامي ، لم نجد له أدنى دور يذكر في الحرب العامة ، ولا استجاب للالمان أدنى حليف من المسلمين ، ولا أحدث أدنى مشاقة للحلفاء . بل تبارى المشايخ في مراكش والمغرب ، على نشر الفتاوى المضادة لابناء ملتهم من الاتراك . فلما أمضيت متاركة مودروس ، ووقف جيش الحلفاء الظافر عند الدانوب ، وجيش الانكليز عند الفرات . كانت ديار آل عثمان تموج بالعساكر الاسلامية المقاتلة تحت الوية الحلفاء ، وفتوى شيخ الاسلام ودعوة الجون ترك لم يسمعهما أحد . وكان الشرق كله يتوقع احكام أوربا التي ابطأ صدورها ، وكان موطناً نفسه على الطاعة ، لكن لم يطل الامر حتى انصرفت الجيوش ، وظهر الضعف والتردد في عزائم الحلفاء . فعادت الحركة الى الشرق وعاشت آمال أهله ، وعرّفت ذلك احدى جرائد انقرة بقولها : « ان أوربا حل بها الوهن بسبب التنازع ، ويد الله أخذت على ايدي الصليبيين الغالبين ، بينما كانوا على وشك العراك المؤمنين بسيلهم » فنشط الاسلام ، ونزعت تركيا ومصر والعراق وافغانستان والهند الى الثورة ، وعجل في ذلك التحالف مع البولشفيك ، وشعرت الدول الغربية على أثر الخسائر التي أولتها الحرب بخور القوى ، وبالحاجة الى مداخلتها الثائرين في أمر الصلح ، وجنح الجميع الى الهوادة . فانكلترة مالت الى الرفق بافغانستان وفارس والعراق . وفرنسا أبدت التساهل في كيليكيا . وايطاليه سلكت مسلك التؤدة في طرابلس الغرب والبانية . فسكنت الأمور وهدأت الاحوال ، ولكن سقط جاه أوربا في نظر الاسلام ، وتشجع الثائرون . ورأيت هذه الثورات باجمعها مطبوعة على غرار واحد ، فانه يوجد على رأسها دائماً بعض مفكرين ، ينعون بزعمهم المناحي الغربية ، آخذين ببعض معلومات قرأوها ، واساءت هضمها عقولهم مع قلة الخبر وشدة الكبر ، ثم من تحتهم أمة جاهلة ليست على سوية واحدة ، ذات اخلاق حسنة ، لكنها لا تحسن شيئاً غير اظهار احتياجها الى النظام والسلام . على ان لها من يثير ثائر عصبيتها ، من المشايخ والمرابطين المستولين على العقول والافئدة .

وفي مصر ازداد عدد المتعلمين من اطباء ومحامين ومهندسين وصحفيين ، ممن يريد تحرير بلاده ، وينتظر ان يحل محل الانكليز الموظفين ، متحرج بذلك مركز انكلترة . ومما لاشك فيه ، ان مبادىء الوطنيين جديرة بالاحترام ، لكننا نراهم لايريدون ان يعترفوا بفضل الاحتلال الانكليزي ، ونجدهم متمسكين بكلمات فارغة غير متوقفين من انتقاد الاحوال الضرورية التي هي بنات التجربة ، ولا متجنبين اخطار التعصب وعداوة الاجانب ، بل مجتهدين في تلقين مبادئهم هذه ذلك الفلاح الذي أثرى ببيع قطنه ، ودائبين في اثارته ، على ادارة ذاق بها طعم الراحة والسعادة .

هذا هو تاريخ الحركة المصرية ، وهذا ما يمكن ان يكون غداً سير حركة الاستقلال ، في بلدان تهمنا أكثر من مصر . فان المسئلة الوطنية القومية قد بدأت تنمو وتتقوى عند جميع شعوب الشرق ، لاسيما العرب . ومن العبث ان نتجاهل ذلك ، ونحن الآن بعد مضي مائة سنة على فتحنا افريقية ، أخذنا ندرك الخطأ الذي ركبناه ، في طريقة ضمنت لنا الفتح الحربي والفوز السياسي ، لكنها اهملت الفتح المعنوي الذي كنا نراه من القسم المستحيل . ومن اهمال هذا الفتح المعنوي ، تأتي المتاعب كلما اشتد الهيجان في العالم الاسلامي . ففي الجزائر بالرغم

من الصداقة والامانة اللتين أظهرهما الجيش الوطني اثناء الحرب ، كانت نتيجة انتخابات ١٩١٩ مما يوجب قلق الفكر فان الستمائة ألف وطني ، الذين آتيناهم حق الانتخاب بموجب أمر ٤ شباط ، رشحوا بأجمعهم كل من عرف ببغض فرنسا ، وكان من جماعة الأمير خالد (ابن الأمير الهاشمي ابن الأمير عبد القادر) ، وكذلك الشبان ، الذين حصلوا العلم في مدارسنا وتلقوا تربية أوربية ، كانوا أشد الناس مناهضة لقضية تجنيد الوطنيين . فاما العامة ، فهي باقية بعيدة عنا جداً من الجهة المعنوية ، ومنذ خفق العلم الفرنساوي فوق مرسى الجزائر ، تكوّن بين هذه الأمة وئام لم تعرفه من قبل .

لقد عظمت الاغلاط التي ارتكبها ولاة الامور الذين استلموا مقاليد الجزائر ، بالغائهم العمل بعادات البربر وعرفهم القديم ، وحملهم طراً على شريعة القرآن . ومن المسموع ، انه كان في ذلك الوقت ٨٠٠ ألف بربري غير مسلمين ولا مستعربين . فالولاة من الفرنسيس مراعاة للشرط الذي وقع عند تسليم الجزائر ، من عدم مس الشعائر الاسلامية ، تجنبوا الى حد المبالغة ، الاخلال بكل ما يخالف هـذا الشرط ، وظنوا انه صار من واجباتهم حمل البربر على احكام مخالفة لعاداتهم وعرفهم . وبدلا من ان يجعلوا هذه العادات القديمة الباقيـة للبربر من عهد الرومان قوانين مرعية نافذة ، عدلوا بهم عنها الى احكام الشرع التي بايدي القضاة والمرابطين ، وهكذا أوجدوا وحدة دينية قومية ، عجز فاتحو شمالي افريقية منذ ١٢ قرناً (أي الفاتحون المسلمون) عن ايجادها . ولقد دخلت الاهواء والعواطف في هذه المسئلة ، فلم يبدأ احتكاكنا بالاسلام ، حتى جعل الاسلام يستفيد من أصحاب العقول الشاذة عندنا ، ومن دعاة البدع والأمور الغريبة ، الذين أخذ بعقولهم ما في حياة اتباع محمد من الكرامة والرصانة ، وما في الصلاة فوق ركام الرمل ، من السذاجة المقرونة بزعمهم بالوقار والهيبة . وكانوا يستحلون تلك الحركات البسيطة الجليلة ، التي تزيدها جمالا وجلالا في نظرهم ، هيئـة برانس المسلمين اثناء صلاتهم . نعم اشتغل هؤلاء المفتونون بحب العرب بالامور الصورية عن الأمور المعنوية ، وتناسوا حالة العربي النفسية ، وما عنده من الكراهة لكل مخلوق غير مسلم ، وما هناك من عقيدة القضاء والقدر التي هي عقيدة الجمود ، والتي لا تمتزج مع الاحتياجات العصرية .

ان هؤلاء المفتونين بالاسلام ، الذين يرون باقطاره سراباً ، يذكرون دين الرسول بمزيد الاطراء (وذكر الكاتب هنا اسم رجل من هذا النفر اسمه دوكاستري (De Casteries له مؤلف في الاسلام) وسنة ١٨٣٨ نهت جريدة « الدبا » عن تنصير المسلمين بحجة ان ذلك يفقدهم صبغتهم المحلية ، وان ذلك مخالف للمصلحة . وفي ايامنا هذه كاتب شهير (ذكر اسمه وهو المسيو آدم P. Adam ، في كتاب اسمه قرطاجنة Cartage) يلوم على تنصير البنات المسلمات في سان لويس (في السنيغال) ، بحجة ان الراهبات يغيرن لهن ملابسهن الوطنية التي هي ألبق بهن . فاحكام كهذه مستعجلة ، لا تزال تقوي عاطفة الميل عند الأمة الفرنسية الى المسلمين ، الذين منهم عدد عظيم في تبعية فرنسا ، وتحول دون رؤية عيوب الدين الاسلامي ، المستورة بظواهره الشعرية ، فلفظة اسلام ومغرب وحجاز وما أشبه ذلك ، كادت تكون الفاظاً صوفية تأخذ بلب بعض الناس .

على اننا لا نكون هجمنا على الاسلام ، ولا تعرضنا لهذه الشعوب الاسلامية في عقائدها

المحترمة اذا كنا ننبه الناس الى اخطار ديانة ، من جملة برنامجها الحرب المقدسة ، وعداوة غير المسلم ، والتوحيد بين الشرع الديني والقانون المدني ، مما يجعل الامتزاج صعباً . وناهيك ان الشرع الاسلامي بمنعه الزواج بين المستعمرين الاوربيين والنساء المسلمات ، قد وقف سداً دون كل اختلاط بين الفريقين ، مع ان الجنس اللاتيني هو غير الجنس الانكلو ساكسوني ، فان الجنس الساكسوني حينما حل بأمريكا وزيلانده الجديدة واوستراليه لاشى العنصر الاصلي هناك ، اما اللاتيني فهو يهوى الامتزاج مع العناصر التي يجدها امامه ، فجيوش تراجانوس اللاتيني امتزجت بأقوام الدانوب وتكونت منها أهالي رومانيا الحاضرة ، واما بربر شمالي افريقية الذين هم ذوو قربى مع اللاتين ، فلم يكن بينهم وبين هؤلاء امتزاج أصلا ، بل تجد الفروق تتسع يوماً فيوماً بين الفريقين . كذلك ترى التقدم بطيئاً جداً ، في الأمم الاسلامية التي في شرقي أوربا وآسية ، لأن فقد حرية البحث يقضي على روح الانتقاد ، ويعزز عقيدة الاستسلام والرضى بأي شيء كان . لا نكون أخطأنا اذا نسبنا الى الدين الاسلامي حالة التأخر التي عليها الأمم التي دانت به ، لاسيما اذا تركت وشأنها . فان الاسلام يعارض التقدم العصري بحواجز قوانينه المدنية والدينية ، وحصون شرائعه الاجتماعية ، وما هنالك من الأوامر والنواهي . فلو كان بربر أفريقية يتبعون غير دين الاسلام لكان مركزنا هناك أقوى مما هو اليوم ، واذا قررنا هذه الحقيقة فلا يكون مرادنا منها الاقتداء بروما في حملها الأمم المغلوبة على قبول ديانة الفاتحين .

ان تلك الآراء الفاسدة المتعلقة بالاسلام ، هي عبارة عن استنتاجات غير صحيحة ، من مقدمات واهية صارت عند البعض حقائق كلية . ومن جملة هذه النتائج الباطلة ، كون المسلم لا يصبأ عن دينه . فهذه الفكرة مع خشية فوران التعصب مما هو وهم بحت ، حمل رجال الحكومة الفرنسوية في الجزائر منذ بداية فتح فرنسا لهذا القطر ، على معارضة مساعي جمعيات التبشير الفرنسوية ، الرامية الى تنصير المسلمين . حتى انهم كانوا يجعلون حراساً على ابواب الكنائس لمنع المسلمين من غشيانها . وكان قسيس عربي من سورية دخل الجزائر وصار له نفاذ عظيم بين ابناء جلدته (أي عرب الجزائر) فطردته السلطة الفرنسوية من هناك . وبالجملة فقد حملوا الأهالي على الخضوع لاحكام القضاة القرآنية ، وتوقف بذلك سير حركة التنصير ، التي كانت قد بدأت بين البربر غير المتدينين . ثم لقيت مجاهدة الراعي جالابرت (Le Pasteur Galabert) في مدينتي القصور وبجاية ، ومساعي الكردينال لافيجري في افريقية لاجل التقريب بين الوطنيين والأمة الفاتحة حذراً شديداً وأصبحت تلك المشروعات على شفا السقوط ، ولم يفهم بعضهم فوائدها ولا غاياتها الانسانية ، بل كانوا من شدة خوفهم ان تكون حركة دينية ، يضعون العراقيل في وجه هؤلاء المبشرين ، ويطعنون في المتنصرين ، ويصمونهم بجميع عيوب قومهم ، مضافة اليها عيوب الأمة التي دخلوا في دينها فزعموا ان الرجال من المتنصرين هم من طبقة السكيرين المدمنين ، وان النساء المتنصرات هن من الغانيات المتهتكات ، وغاب عنهم ان الهيئة الاجتماعية الاسلامية مع ما هي عليه من شدة التستر فيها عيوبها ، وان عيوب المتنصرين كانت تخفت جداً لو كثر سوادهم وصاروا جماعات .

بعد ان مضى قرن على فتح فرنسا للجزائر ، تضاعف عدد الوطنيين فيها واضمحلت العداوة التي كانت بين العرب والبربر . وترانا لانقدر ان نعتمد على اقلية غير مسلمة كما يعتمد

الانكليز على القبط بمصر . ولهذا مثيل في مستعمرات هولانده التي صار فيها مركز هذه الدولة حرجا ، فقد كان مسلمو الجاوى وبورنيو وسومطره لاول فتح هولانده تلك الجزائر ، خمسة ملايين ، فصاروا اليوم ٣٠ مليوناً ، ولم يكن الاسلام ثمة باديء ذي بدء الا تبع قليل ، فصار الاسلام في هذا الزمان سيد تلك البلاد . ونجد المسلمين هناك تحت ادارة فئة قليلة مستأثرة من ذوي الاطماع ، متحفزين لرفض وصاية هولانده الابوية . فاما ارخبيل الفيلبين الذي أهله تحرروا امهد الاسبانيول ، فان مطالبهم الاستقلالية بادية بشكل معقول بخلاف بلاد الاسلام التي تلاقي حركة الرقيّ فيهـا ، روح الفوضى والاختلاط التي هي من خاصيات الجماعات الاسلامية اذا تركت وشأنها . ان شبان الاسلام في آسية الغربية ، يريدون ان يشبهوا قابليتهم للترقي بقابلية اليابان ، ويدّعون انهم يقدرون على ما قدر عليـه اليابان في الأمور الاجتماعية والاقتصادية ، وينسون ان اليابان لم تكن لترق هذا الرقيّ العجيب لو بقيت مقيدة باثقال العقائد القدرية ، ويغفلون عن ان التجدد السياسي لابد ان يسبقه التجدد الاجتماعي .

ما عدا مدة قصيرة للاموين في اسبانية وللعباسيين في بغداد ، لم يوفق الاسلام في وقت من الاوقات الى تأسيس مدنية خاصة به ، بل جميع أجيال امة محمد لم تلاحق مجهوداً يأذن لها بتوليد عقول كبيرة . بل ان الخصائص التي اشتهرت بها هي خصائص التدمير ، سواء للمدنيات التي وجدتها امامها ، أو التي حصلت في داخلها . وما دام السيف في يد الاسلام كان الاسلام قادراً أن يجري احكامه ، فلما قضت الايام بان تصحب قوة السيف قوة اخرى هي قوة العلم ، سقط الاسلام . واليوم لاجل ان يزحزح نير الغرب عن عنقه ، نراه يدرك قيمة العلم ويقدر قدر الثقافة الاوربية ، ولـكن أكثر مايريد أن يأخذ من أوربا هو صنعة السلاح . ثم اذ علم أن صناعة الادوات الحربية لا تكفي ، عاد يطلب الاسلحة المعنوية ، فصارت المطبوعات للمسلم سيفاً ذا طبع آخر يسله فوق رؤوس غـير المؤمنين . وتجد الجرائد الاسلامية تتكاثر بمصر ، وتركيا ، والهند ، والجاوى ، والمستعمرات الانـكليزية والفرنسوية . وكذلك جرائد اخرى تصدر في الولايات المتحدة ، والبرازيل ، والارجنتين ، عربية سورية وارثاؤوطية . وفي برلين يظهر لواء الاسلام ، وفي باريز ولندن ورومة تصدر جرائد اسلامية جديدة أيضاً ، تبحث في الشؤون الاسلامية . ومنازع هذه الصحف تختلف باختلاف المراكز التي تصدر فيهـا ، بجرائد الشرق وجرائد اميركا وبرلين تمتاز بشدة اللهجة وفرط العداء ، وأما جرائد العواصم الاخرى فزيتها ، لطف اللهجة وبراعة الطلب والـكلام المعقول ، ولـكن الهدف واحد ولو تنوعت الاساليب ، وهـذا الهدف هو تقوية روح التكافل بين الامم الاسلامية ، ونشر الاسلام وتحرير أبنائه وزرع بذور الشقاق بين الدول الغربية لاجل تيسير فوز المشرق . »

٣

الاسلام الاسود

قال بنجر Binger : ان درجةُ حرارة المسلم الاسود هي على قدر ظاهر لونه ، فالعصبية الدينية العميقة التي تجدها عند المغاربة والاقوام السامية الاصل ، الساكنة في جهات نهر النيجر

وبحيرة تشاد ، لا تجدها عند المسلمين من ابناء اللون الاسود ، مثل البامباره Bambara والسيره Serès والبورو Boros ، الذين عندهم تساهل عجيب في ممارسة شعائر دينهم . وما عدا حركات محدودة من آثار دعوة المرابطين ، ومن اجتهادات الحاج عمر واحد ، وبين السليغاليين والفولاي Fulbès ، والسونينكه Saminké ، الذين فيهم شيء من الدم البربري ، لم نصادف في افريقية السوداء حربا دينية ، ولا مقاومة أصلها عقيدة القضاء والقدر .

وان عقيدة السنة والجماعه في افريقية الغربية ، مختلطة عند الاهالي مع عاداتهم القديمة ، ومع الاوضاع الفتيشية كالطلاسم والرق . وقد أورد بينغر مثلا على ضعف حرارة المسلم الاسود قضية ساموري ، الذي بالرغم من كونه مسلما دينا ، أكل بدون تحرج من لحم ثور ذبحة العسكر السليغالي ، على شكل يخالف الاوامر القرآنية ، فمثل هذه المخالفة تعد اثماً كبيراً عند مسلمي الشمال . ثم ذكر بينغر مثلا آخر وهو أنه كان اسود مسيحي يظهر الاسلام احيانا ليستفيد من الرخص المعطاة للمسلمين في عيد المولد النبوي أو العيد الكبير .

فهذا الفتور في تمسك الزنجي بديانة يتمسك بها باقصى الشدة ، الساميون والتورانيون ، يعده بعضهم دليلا على انحطاط عقل الزنجي وفقد قوة التمييز عنده ، والصحيح هو غير ذلك . بل الزنجي رجل حليم ، واسع المشرب ، سهل القياد ، قريب المأخذ ، مع حس صادق ونزوع عملي ، وميل الى الخير يجدر بابناء ملته من البيض والصفر ان يقتدوا فيه به . وهو يمتاز بعدم التشدد في اقامة شعائر دينه ، وبالتساهل مع ابناء الاديان الاخرى . وفطرته السليمة تمنعه ان ينظر الى الابيض نظره الى رجل ذاهب الى النار ، بل هل يرى الاوربي من الرقي والتفوق ، بحيث لا يصدق أبداً ان مثل هذا الابيض يمكنه أن يخطيء . ولا شك في انه بحسب ميله للانقياد والانطباع لو صار به قليل عناء ، لكان يتقبل دين سيده الابيض ، الفاتح لبلاده ، بشرط أن هذا الفاتح يدعوه لذلك (!) وان كنت تراه يدين بالاسلام فهذا لظنه انه ينال بذلك رفعة ، مع انه أولى به أن يتنصر اذ الاوربي عنده أعلى من المسلم ، ومهما كان يرى من عزة المسلم ، فهو يعلم انها ليست شيئا بالقياس الى عزة أوربا .

وعليه فينبغي أن نعلم ان اسلام السودان هو سطحي قائم بصور ظاهرة فقط ، ولاجل تعليل هذه القضية التي لا توجد الا ثمة ، زعموا وجود علل اخرى غير ذهنية الزنجي نفسه ، فذكروا تأثير الاقليم والعادات والبيئات ، وقالوا ان البلاد الشمالية من الكرة هي غير مساعدة على انتشار الاسلام ، لان طول النهار المفرط وقصر النهار المفرط يحدثان اختلاطاً عظيما بعلم الميقات القرآني ، فصلاة الظهر وصلاة العصر تختلطان مع صلاة المغرب وصلاة العشاء هناك ، فيتطرق الشك الى قلب المؤمن . ففي أواسط أفريقية الحالة أيضا هي مشابهة لتلك الحالة ، فالانهار والشجر الكبار التي يعد بها القرآن المؤمنين ، هي في هذه الاصقاع من الكثرة بحيث يصبح هذا الثواب لا قيمة له . فالاسلام لاجل نجاح دعوته محتاج الى صحارى واسعة تتجلى بها عظمة الله تعالى كصحارى آسية الوسطى ، أما في خط الاستواء فالاسلام مركزه قلق ، لأنه ينحصر ثمة في الآفاق الضيقة بين الغابات الملتفة ، حيث يصعب على المؤمنين معرفة القبلة ، فيعدلون عن شعائر الدين . على أنه مهما فرضنا كون شعائر الاسلام سليمة في الظاهر نتساءل ، هل يوجد لنا مصلحة في تمكينه عند وينتشر بين هذه الاقوام ، لا ل ن ان نعترف

به ديناً رسمياً لمن دان به منهم ، سيحصل لعمري في غربي افريقية ما قد حصل في الجزائر ، ويمتد الاسلام وينتشر بسببنا (!) وتحت حماية أسلحتنا عند اقوام اشداء لم يزالوا منذ قرون يرفضون الاسلام ، الذي يأتيهم به تجار الرقيق من العرب ويحبطون فتوحاتهم الدينية والعسكرية . ونحن كلما أوغلنا في تلك الديار ازداد الاسلام بسطة . وقد أرادوا تأويل ذلك بأسباب عديدة منها ، كون العربية لسان الرسول القرشي هي لسان التجار الجائلين بتلك الاقطار ، ومنها ان مبادىء الاسلام تطابق عقيدة الاستسلام للقدر التي عليها الزنجي ، ومنها أن هذا يميل الى بساطة الاعتقاد وتجذبه سذاجة الشعائر ، وقالوا ان ممارسة هذه الشعائر ، سهلة طبيعية ، ثم هناك لذات النعيم التي يحبها هؤلاء الهمج عامل آخر ، ومعلوم انه لاجل ان يكتب المرء مع السعداء يكفيه لفظ كلمة لا اله الا الله ، فانه بها يصير مسلما بدون أن يشعر . وعززوا هذه الاقوال بأن عقائد الاوربيين تنافي البساطة ، وان شعائرها صعبة ، وان آدابهم كثيرة التجريد ، وفيها تحريج كثير على اللذات الحسية ومنع لتعدد الازواج ، وبالجملة فقالوا ان الاسلام وجد دينا موافقا للزنجي كما وجد موافقا للعربي ، ومن العبث الاجتهاد في وضع دين آخر محله في تلك الاصقاع . فهذه الظنون التي صارت قضايا مسلمة لم توضع موضع الحك والنقد ، ولو محصت لثبت أن ليس بصحيح كون الاسلام هو العقيدة التي تلائم الاسود الخالص اكثر من سواها ، فان اقلية مهمة من السنيغاليين قد أمكن تنصيرها . وبلاد الاوغانده صار أهلها كلهم نصارى . أما كون العرب والبربر يأبون كل دين غير الاسلام ، فلنا من القبط والحبشه مثال كاف لاثبات كون الاسلام ليس ذا تأثير عليهم الى ذلك الحد .

فثلاثة أرباع الحبشة وهم جنس آمهاره Ambaras ومعهم أقلية بربرية وزنوج ، لبثوا متمسكين بالنصرانية بالرغم من تلاطم أمواج الاسلام في جوانبهم . وأحسن من ذلك ان بلاداً بأسرها مثل هرر كانت أسلمت بعد ثورة الدراويش ، فعادت الى النصرانية بعد ظفر النجاشي منليك بالامير عبد الله سنة ١٨٨٤ . ولقد بقيت الديانة المسيحية والقومية الحبشية متحدتين كما هو الشأن في الشرق ، بان الديانة والقومية تسيران معا ، وحفظتا استقلالهما اكثر من الف سنة . وبينما قبائل بربرنا في الجزائر وامم البول Peuls والفولي Feulbés ، الذين هم من جنس بربر الحبشة مشتتون هباء منثورا بسبب عقيدتهم الدينية ، الداعية الى الكسل والخمول ، رأيت الحبشة بامانتها لدينها ، واقفة في وجه الفتح العربي . وتمكنت المسيحية ان تعيش في وسط هذه الامم الزنجية والبربرية ، وان كانت شعائرها هناك لا تزال معقدة ، لأنها ممتزجة بعقائد يهودية ، وعادات بيزنطية ، فالاكليروس (طبقة القسيسين) له في الحبشة نظام صارم ، وهو تابع للكنيسة الارثوذكسية في الزواج ، وعزوبة الكهنة ، ويخرج القسيس في المراسم الدينية بالاثواب المزركشة بالقصب بين قرع الطبول ونقر الدفوف . فالحبشي بهذه العادات هو بعيد اذاً عن سهولة الشعائر الاسلامية ، وهو يصوم صوم المسلمين الشاق ، واذا بلغ الكبر يترهب في دير . فمن هنا يظهر بطلان قول البعض « ان النصرانية شديدة التعقيد ، شاقة التكليف ، كثيرة المعاني المجردة بالنسبة الى مدارك الزنجي الساذج ، فهي تخالف ظروف حياته وتبطل نظام اجتماعه ، ولذلك فالاسود المتنصر هو اسود مقلوع من أصله ، حال كون الاسود المسلم هو مسلما بطبعه . »

فانت ترى أن النصرانية قد رسخت عند الامهاره ، الذين هم من قبيل السليفاليين والبربر والبويل بدون ان يكونوا مغلوبين من أصلهم ، وتجدها تنمو هناك كما ينمو الاسلام ، وعقيدة أوتوخيوس (عاش في القرن الخامس للمسيح وكان يقول ان ليس في المسيح سوى طبيعة الهية ، خلافاً لقول نسطور ، الذي كان يقول ان ليس فيه الا طبيعة بشرية وكما حرمت المجامع قول نسطور ، حرم المجمع الخلقيدوني قول اوتوخيوس وقرر الطبيعتين ، ولكن القبط والحبشة تابعون لمذهبه) تتلوّى هناك مع الزمان والمكان كالاسلام الذي يناسب الامم الفطرية مثل الامم السوداء . واذا كان عمل المبشرين شاقا في البلاد السودانية والاسلامية ، فانما هو لكونهم يريدون وضع عقيدة امم راقية جدا محل عقائد أقوام هم في أدنى الدركات (تأمل) ، أما النصرانية ، كما كانت في القرون الاولى ونصرانية الحبشه الحاضرة ، فلشرهما ممكن بسهوله نشر الاسلام ، الذي كان نجاحه بسبب المستوى العقلي الذى عند ناشريه ، لا لسبب معالي عقائدهم (تأمل أيضا) .

لاشك ان الزنجي عنـد ما يدين بالاسلام يتقدم تقدماً محسوسا ، فبعض ارباب الخيالات الذين لا يحبون ان يروا الا المحاسن ، يجدون في الاسلام الامتناع من السكرات ، وتهذيب الاخلاق ، وترقيـة سويّ الحياة ، واعلاء حال المرأة في الاجتماع ، فيشيرون بالسعي في نشر الاسلام بين أمم الفتيش في مناطق خط الاستواء ، وكأن من طبيعة هذا العصر ، ان الناس يقدرون قدر المذهب بنسبة درجة نجاحه بدون تأمل فيما يجر اليه من العواقب ، فحمل الزنجي على الاسلام هو من باب الرفع الى أسفل ، وهو من قبيل المداواة بالطلاسم والرقى ، مما هو وخيم العاقبة (تأمل) . ان اساس الدين الذي يدين به المسلم وتصطبغ به نفسه مهما كان حليما ، والذي لا يعرفه الا ذوو الخلطة والخبرة الطويلة ، ان هو الا عامل ثورات مستقبلة ، من مصلحتنا ان لا نتركها تفعل مفعولها . حتى ان هؤلاء المتهوسين بالاسلام أنفسهم ، يقفون حيارى احيانا عند ما يرون من الجماعات الاسلاميـة ، تلك المطامح التي لا تقف عند حد ، وهاتيك الاحقاد المتأصلة في نفوسهم .

اما البعض الآخر فقد هالهم هذا النزوع الاسلامي الى الثورة ، فانتقدوا طريقتنا في بناء المدارس والمؤسسات الاسلامية والترغيب في لغة القرآن ، وأوضحوا عظيم الخطر الناشيء من تضامن الشعوب الاسلامية ، ودهشوا من قضية ارسال معلمين جزائريين لتعليم العقائد الدينية في جنة وتمبكتو (تمبكتو في أول السودان الغربي مشهورة ، اما جنة فهي مدينة بالسودان على مسافة ٣٠٠ كيلو متر الى الجنوب الغربي من تمبكتو ، وعلى ١٦٠ كيلو متراً الى الشمال الشرقي من سيغو وسيكورو ، وأول أوربي دخل جنة هو رجل فرنساوي اسمه رينيه كايه سنه ١٨٢٨) وهؤلاء النفر يقولون انه لا يكون من باب مس كرامة الاسلام ، ولا من السعي في نقض مبانيه ، ولا من حجز الحرية الدينية اذا اتخذنا التحوطات اللازمة بازاء اخطار الحالة الحاضرة ، لاسيما ان هذه المساعدات التي لا يجبرنا عليها أحد لا تقربنا زلفى الى الأمم الاسلامية ، وانه ليس للحكومة ان تدخل في حياة رعاياها الخاصة ، بل عليها ان تأخذ حذرها من ديانة ، هي فيما عدا بعض مباديء نادرة فيها شيء من السماحة ، يمكنك ان تختصرها بهذه الجملة « قاتلوا الكفار واستعبدوهم واطردوهم في الارض » (اين وجد هذا ؟) .

فبين آراء المقاومين المتشددين وآراء المتهوسين الميالين الى الاسلام ، يوجد مكان لعمل معتدل حازم ، وهو انه لا ينبغي ان يسار على سياسة اسلامية واحدة ، بل على سياسة متعلقة بالظروف وبالبلدان وبدرجة حرارة الاهلين ، فيمكن تنكب طريق قهر الاسلام بدون السعي في تأييده ، واذا ايدنا في مستعمراتنا سلطة ادارتنا الملكية ، وجعلناها فوق الشريعة الاسلامية ، كان ذلك خطوة أولى في منع انتشار الاسلام بين الاقوام ، التي لم ترسخ قدمه بينهم . ولكن مادام القاضي الاوربي يرسل القضايا المعضلة ، التي يعجز عن حلها الى القاضي المسلم ، وفي المسائل التي يتناكر فيها الخصمان ولا تمكن معرفة الصحيح بينهما ، يحيل القضية على اليمين كما في القرآن ، وهي طريقة بسيطة تكفي أولئك القضاة مؤونة التدقيق لتهيئة الحكم ، فنكون قد جعلنا للقضاء الشرعي نفوذاً ليس من الحكمة في شيء ولا سيما في هذا الوقت . كذلك تتحتم المراقبة الخفية للمشايخ والمرابطين ، الذين بين الزنوج المستعدين لقبول الدعوة الى الثورة ، فانه كما قال سنة ١٩٠٥ الحاكم العام بونتي Ponty : زيارات الغرباء القادمين من المشرق بحجة الصدقات مضرة ، اذ هؤلاء يجوبون بلاد السنيغال والبول والسونينكه ، دعاة كثيراً أو قليلا الى الجامعة الاسلامية ، ويدعون انهم شرفاء ، ويلبسون عمائم خضر ، وكلما حدث هيجان اسلامي كانوا هم المشحذين لاواره ، والمذيعين للاراجيف . ولا نلمس حج مكة فانه في الآونة الحاضرة ، يؤثر تأثيراً مضراً بنا بين رعايانا المسلمين ، ومع هذا ، فالبعض غافلون عن منع حج رعايانا الى مكة وعما يحدثه هذا السفر من اسباب تشويش اذهانهم ، لما يستمعون فيه من الأخبار الملفقة عن وقائع البلاد الاسلامية ، فمتى آبوا الى ديارهم عادوا أقل ميلا الينا . فان الحاج يسمع في الحجاز انباء عن جميع العالم لم تطبع في صحيفة والاوربي مصور فيها بشكل ظالم غاصب (استغفر الله . . .) لا تحصى سيآته والمسلم مصور بشكل غالب ظافر لابد ان يأخذ بثاره . كما ان الطوائف التي أحرزها بعض الشرقيين تروى هناك بالمبالغة والغلو ، ويتفاءلون فيها بعودة الايام ، التي كان فيها العلم الاخضر منصوراً خفاقاً فوق رؤوس الامم المغلوبة . وهناك المشعوذون الترعون بنصرات الغازي (أي مصطفى كمال) واهلاكه الكفار كما أهلك المسلمون قريشاً يوم بدر . وكل هذه الوقائع تبرز فيها قوتها المخيلة الشرقية بشكل رائق رائع ، فيذهب الحاج من مستعمراتنا أميناً لنا ويعود غير ما ذهب ، بل تتبدل نفسه ويصير مبتهجاً بنصرة ابناء ملته ، وتقوى فيه روح التضامن الاسلامي ، فيفرح بفوز اتباع محمد ، ويتمنى لهم الظفر النهائي . وبعد ايابه الى وطنه يستحيل ان لا يلقي الى بعض اهل بلده ولو نجياً ما سمعه في مكة ، وحيث يكون نال لقب حاج فلا بد له من الاجتهاد في اثبات أهليته لهذا اللقب ، هذا عدا مايحمله معه من القصائد والجرائد والحماسيات التي يوزعها على ابناء وطنه ، وان كان ممن يعرف الكتابة راسل من تعرف بهم من الحجاج مكرراً لهم آيات الكتاب المقدس حول الحجر الاسعد .

وينضم الى هذه التأثيرات السيئة نفوذ الطرق الصوفية فان دورها مهم . وربما كان لها القول الفصل فيما لو هبت العاصفة المتهيئة دائماً للهبوب في جو الاسلام . فان اتباع عبد القادر الجيلاني ولي بغداد مالئون افريقيتنا ، وهم هؤلاء التيجانية ، الذين كانت لهم اليد الطولى في ثورة السينيغامبيا عند ما قام بها الحاج عمر . ولهم زوايا في باماكو ، و بافولاب ، وسيغو ، وجنه ،

وتمبكتو ، ولهم وسيلة مع السنوسي في طرابلس ، فكل هؤلاء المتحمسين دعاة ثورة وعداوة للاوروبيين . لا ينكر أن بعض الطرق قد أفادتنا في الجزائر ومراكش وغربي افريقية ، وكان نفوذ رجالها السلمي موافقاً لنا ، وهؤلاء مثل الشيخ سيديا ، والشيخ سعدبو ، والمختار الكنتي ، الذين هم في موريتانيا (غربي مراكش) وبلاد النيجر . فقد كانوا معنا في فتح تلك البلاد ، ولكن مساعداتهم هذه هي نوع من الأعمال التجارية ، التي يريد أصحابها دائماً بقاء التوازن لأجل استدرار فائدته . وأما الخطر الأعظم ، فهو خطر الطرق الاسلامية التي مراكزها الأصلية في غير مستعمراتنا ، كبلاد العرب والعراق وطرابلس لأنها خارجة من يد نفوذنا .

هذه على وجه الاجمال العوامل المضرة التي سلطنتنا الافريقية معرضة لها . ولاتقاء ضررها وصف الناس أدوية كثيرة ، منها ، علاج جمع كل الآراء وهو نشر اللغة الفرنسوية ، فهو أمرضروري وهو رأي لوشاتليه Le Chatelier الذي يقول : « يوم لا يبقى اللسان العربي هو لغة التجارة في افريقية ، لا يبقى خطر من جهة الاسلام لأن مدارسه تصير قفرة » . وهذا هو رأي پول برت Paul Bert الفسيولوجي المعروف القائل : « حل المسألة العربية هو في الكتاب ، وأتمنى أن أرى في كل قرية مغربية معلماً عربياً ومعلماً فرنسياً » . وهو أيضاً رأي الرحالة قاتل أمور افريقية عاماً بينغر . وهو كذلك مشرب الكردينال لافيجري مؤسس جمعيات التبشير الذي قال : « لا حاجة بنا الى الدعوة لنفس الدين ، بل الحاجة هي الى التعليم والتمريض »

واذا نظرنا الى درجة انتشار لغتنا في الشرق بين اولئك الأقوام والأمم المختلفة ، نأسف كيف لم نقدر أن ننشرها في مستعمراتنا كما هي منتشرة في الشرق ، وأغرب منه أنه لو كان علمنا انتشر في مستعمراتنا بالسهولة التي انتشر بها في السلطنة العثمانية ، لربما كان أناس يحتجون على ذلك قائلين ، يجب على حكومتنا أن تبقى متحايدة . مع أنهم يرون أن البعثات الفرنسية في البلاد الاسلامية ، التي كالاناضول وكردستان والعراق وفلسطين قد نجحت نجاحاً تاما بدون ايراث أقل قلق في سلطنة آل عثمان الكريمة ، الرحبة الصدر ، وقد حصرت همها في تعليم لغتنا للروم والأرمن والكرج واليهود والمسلمين والكاثوليك ، وجميع هذه الاجناس التي جمعتها في عالم ثقافتنا . ولم يثر ذلك في البلاد التركية ، ولا العربية ، ولا الفارسية شيئاً من العصبية التي خيف من آثارها في الجزائر . ثم هذه مصر التي هي تحت الحكم البريطاني ، تعرف لغتنا كما تعرف لغتها العربية . أما الجزائر فانها تجهل لغتنا تقريبا . ليس مقصدنا بهذا أن توجد في مستعمراتنا نخبة علماء ومفكرين ، اذ يجوز أن ينبغ فيها أدباء راسخون ، وأرباب عقول سامية ، لكن يخشى أن يظهر من هم متعلمون لصفة تعلم تكون لهم مطامع ومآرب (تأمل) انما المقصد هو وضع لغتنا التي هي عامل مدنيتنا موضع لغة أخرى ، (أي العربية) هي قاعدة ثقافة أخرى وفكرة أخرى . ان فرض معرفة العربي على عمالنا في المستعمرات هو حسن ، لكن اغناؤهم عن العربي بتعميم اللغة الفرنسية كما في الشرق هو أحسن .

* * *

٣

الاسلام عند السنيغاليين

تجد السنيغالي في بيته كما هو في تابوره ، مرن الافكار بعيداً عن التدين المشهود عند الجزائري والمراكشي ، اعتقاده بالخرافات أكثر من اعتقاده بالدين ، مهتم الا ما ندر بأمور معيشته اكثر من اهتمامه بالمذهب الديني . وترى أنه في جميع مواطن الحرب لم تفلح لدى السنيغاليين دعوة الجامعة الاسلامية ، وقد احتك هؤلاء بالاسلام في البلاد العربية (اي في سورية) والاناضول والاستانة ولم يحدث بذلك عندهم أقل انحراف ، بل بقي السنيغالي بسيطا ، طيب السريرة أمينا لرؤسائه ، ولم تؤثر به تحريكات شيوخ الدين ، الذين طالما أثروا بعساكر الهندالانكليزية ، وفر هؤلاء على أثرها ، فالسنيغاليون لم يفر منهم ولا واحد الى العدو لا في سورية ، ولا في كيليكيا ، ولا في جميع الشرق الأدنى .

ان العرب والتورانيين يزدرون بالاسود ، وهذا الاسود يقابلهم على ذلك بالانفصال عن ديانتهم عند ما يختلط بهم ، وهذا أمر واقع سواء في الشرق أو في شمالي افريقية . وترى السنيغاليين في الاستانة والأناضول لا يدخلون الجوامع ، ولا يخالطون المشايخ ، ولاالمفتين ، ولا يحملون في حقائبهم أوراقا مضرة ، ولا بطائق من وارد بلاد الاسلام متضمنة مدائح النازي غالب الكفار . وان العداوة بين الاهالي والسود في شمالي افريقية وان لم تأخذ شكلا حاداً ، هي السبب الكافي عدم امتداد دعوة سياسية بينهم . وفي نفس السنيغال لا في الجيش فقط ، لم يمكن التعصب الاسلامي احداث أقل عدوان لفرنسا ، بل بالعكس ، الاسلام في تلك البلادالى الوراء لا الى الامام .

على انه اذا كانت سذاجة هذا الجنس وسلامة عقولهم ، لاتجعلان في جيشنا خوفا من دعوة الجامعة الاسلامية ، فلا يجوز أن نهمل التحوطات اللازمة لاتقاء روح سارية في أماكن اخرى . فالاطباء يعلمون أن أحسن واق من أمراض المستعمرات ، هو تعاطي الاسباب المانعة لظهورها ، فكما أن العمال في بلادنا الاسلامية يجب أن يعلموا منازع ديانة الاقوام الذين يولون عليهم ، كذلك القواد الذين دأبهم تعليم الجنود المسلمين يجب أن يعرفوا القواعد المبني عليها الاسلام ، وماذا يوجد في أدمغة أتباعه . وعلى القائد أوالضابط أن يميز جيداً بين الاسود الذي هومسلم حقاً ، من الاسود الذي اسلامه سطحي . فينبغي أن نعرف عناصر الاسلام المختلفة في ممالكنا الافريقية ، للتمييز بين العناصر القابلة منها للاثارة ، والتي هي غير قابلة لها . ثم أن نعمل في السنيغال احصاء نجدده كل مدة للاجناس والاديان ، لنعلم تطورات الاسلام هناك ، والميول الروحية التي عند عساكرنا السنيغالية . ومن المهم أن نعرف ماهو اعتقاد الجزائريين بالسنيغاليين ، لان هؤلاء في نظر اولئك ، هم القوة التي وكل اليها توطيد السكينة في شمالي أفريقية ، ولا ترى ذلك محدثا عندهم أدنى غضب ، لأن من طبيعة المسلم أن يطيع دائماً القوة القاهرة ولا يحنق من التدابير المتخذة بحقه ، والجزائري ولو كان يحتقر الاسود ، ينظر بدون حقد ، بل بعين الرضى الى ترتيب توابير السنيغاليين . وبالاجمال المسلم السنيغالي في سلك الجندية لايمارس

فرائض دينه . وقد جرت العادة الى اليوم بأن لا يعارض في أمر دينه كصوم رمضان ، والاحتفال بالاعياد ، واقامة الصلوات ، وأن يترك هذا كله لارادته . وكلما قل التعرض له في هذه الامور كان خيراً . وكذلك لحظ انه من العبث حمله على مراعاة فروض دينه ، أملا باستمالة المسلمين بهذه الواسطة ، فالمسلم أثناء الخدمة يفهم الضرورات التي تمنعه من اداء تلك الفرائض ، وهو يتعجب من اهتمام الاوربي بديانة المسلم اكثر من اهتمامه بديانة نفسه . انه من الواجب اذاً ان يراقب من العساكر السينغالية من يفرطون في مراعاة شعائر دينهم (انظر الى هذه الدناءة . . .) ولعمري ، أي فرصة أحسن من وجودهم في الخدمة العسكرية لتعلم لغتنا ، انها أحسن من كل المعلمين الذين يريد بيتفر ارسالهم الى غربي أفريقية . والذي حصل الى اليوم من النجاح في هذا الباب ليس بقليل فاذا كان الضباط في الجزائر مضطرين أن يتعلموا لغة جنودهم ، ففي السودان الضباط يجهلون لغة جنودهم ، فهؤلاء مضطرون أن يتعلموا لغة الضباط ثم هناك ضرورة أخرى لتعلم الفرنساوي ، وهي جهل الجنود أنفسهم بعضهم لغات بعض لانهم من أصناف وألسن مختلفة ، فلا حيلة لهم أن يتفاهموا الا باللغة الفرنسية .

ومما جرت عليه القيادة ، اجتناب تكتيب الكتائب ، على صورة يكون فيها العنصر الاسلامي غالبا ، فتجد السنيغاليين مشتتين بين الجماعات الفتيشية والمسيحية . وهاك على ذلك مثالا : في مدينة فيليفيل بالجزائر يرابط الالاى الخامس عشر السنيغالي ، الذي عدده ١٧٠٩ جنود ، فتجد فيه ٥٤٢ مسلما و ١٣٢ مسيحيا و ١٠٣٣ فتيشيا أو غير تابع لمذهب خاص . والتابور ١٣٦ الذي بمدينة الجزائر ، الذي عدده ٤٨٩ جنديا فيه ١٤٥ مسلما و١٨٢ مسيحيا و١٦٤ فتيشيا ، فازدياد عدد المسيحيين من يوم الى آخر هو ثمرة مساعي المبشرين والمؤسسات الخيرية . وتجد في بيسكرة (بالجزائر) راهبات مستشفى لافيجري يربين صغار السنيغاليين . انه الى يومنا هذا لم تدخل حكومتنا بصورة رسمية في قضية تنصير السنيغاليين ، ولا تزال مظهرة الحياد في هذا الموضوع ، لكن مع ملاحظتنا الوجهة السياسية فقط ، يحق لنا أن نتساءل هل من مصلحة مستقبلنا سوق الجماعات الفتيشية الى الاسلام أم الى النصرانية . وعلى كل حال ، فقد دلت التجربة في الجزائر ، على ان المجرى الديني الاسلامي دخل في حكم هذه القواعد البدهية التاريخية التي يتلقاها الخلف عن السلف بدون أدنى تحريف ولا تبديل ، فعساكرنا السنيغاليون ، مع كونهم غرقى في بحر جماعات كلهم مسلمون ، لم يبدوا حتى اليوم أقل انجذاب الى المحمدية . ولقد شهدوا مواطن حربية عديدة كان الهياج الاسلامي فيها شديداً ولم تتزعزع صداقتهم ، مما هو جدير بكل تقدير ، وهو مما يحثنا على الاكثار من تجنيدهم ، وعلى تأمين طرق مكافآتهم المالية ، واعطائهم رواتبهم في أوقاتها .

انه عندما انتصر الترك في ازمير ، أشار الدكتور اسماعيل صدقي بك أحد كبار الوطنيين المصريين الى الحفلات التي اجريت يومئذ بمصر ، والاجتماعات التي تداعت اليها الاهالي على صوت الطبل فقال : «هذا الطبل ، يؤذن بأن أبناء مصر يعدون أن يحرروا مصراً ، مثلما حرر اخوانهم الترك بلادهم » .

فنحن لنا الثقة التامة في شعوبنا العربية الكريمة ، ولا نعتقد انها تتحرك بما يسوله لها المهيجون في يوم من الايام ، ولكن لا شك بأن أماناتهم تكون أمتن ، اذا صارت مبنية على قوة ، لايمكن الدعوة ، ولا الديانة أن تزعزعها .

الخلاصة

ان أحد المؤلفين البلجيكيين المدعو المسيو كوله Collet ، بعد أن أتيح له أن يدقق تدقيقاً عميقاً في حالة تطور الاسلام ، في الهند النيرلاندية (مستعمرات هولانده) . ألف كتاباً قال فيه : « ان التفاؤل الى حد التأميل بأنه يمكن احتكار قوة الاسلام الحيوية في سبيل منفعة دولة اوربية هو حلم لذيذ ، لكنه غير مبني الا على مطالعات كثيرة من ذوي العقول السطحية » .

فهذه الكلمات هي ذات أهمية في هذا الزمن ، الذي يظن فيه بعضهم ان التودد الى الاسلام هو العلاج الأفضل . ولقد سبقت المانيا الى هذه الفكرة ، لكن لا تصريحات غليوم الثاني في الارض المقدسة بصداقته للثلاثمائة مليون مسلم ، ولا سياسة برلين التركية ، لم تحدثا أقل اضطراب في مستعمرات الحلفاء الاسلامية ، ولا انضم شعب اسلامي واحد عدا تركيا الى ألمانيا ، بل جميع البلاد العربية انضمت الى الحلفاء . ثم بعد المتاركة حاولت ايطاليا أن تعلن صداقتها الاسلام ، ووضع الدكتور انريكو انسباتو Enrico Insabato مصنفاً في ذلك قائلا : « ان دولة غير مسلمة ، اذا عرفت أن تنهج خطة ولاء للمسلمين وتعطف عليهم ، أمكنها أن تصير صديقة لكل البلاد الاسلامية » فلم تلبث نتيجة هذا التأميل أن ظهرت بالعكس ، اذ بعد أشهر قلائل فسر زعماء طرابلس الغرب بحسب أهوائهم القانون السمح ، الذي جادت به عليهم ايطالية ، وطالبوا بالاستقلال التام ، فعدلت عندئذ ايطالية الى طرق اخرى عبر عنها المسيو اماندولا وزير المستعمرات الايطالية بقوله : « ارجو أن يعمد العصاة الى المقاومة ليكون ذلك واسطة لتدويخ القطر ، ولكن الحكومة لن تعاملهم كذي قبل » .

وقد سارت في البانية الحوادث سيراً مشابها لهذا . ولا ننكر أن مباديء المسيو انساباتو ، يمكنها أن توجد بين أمة أوربية والاسلام ، علاقات حسنة مبنية على حرمة متبادلة ، وعاطفة متقابلة ، لكن هذا يجب أن يكون مبنيا على فكرة نظام ثابت ، وراحة موطدة . وهذا هو رأي المستشرقين الحقيقيين ، الذين سبروا غور أفكار المسلمين باقامتهم سنين طوالا في بلاد هؤلاء ، نابذين الأغراض الشخصية والخيالات المرسلة بدون تحقيق ، فقد قال أحد هؤلاء : « ان القوة هي وحدها علة بقائنا ، واذا أتينا بأقل علامة على نقص قوتنا ، فتحنا على أنفسنا باب الثورات » . وقال آخر : « نحن المال ، والسلاح ، والعقل ، والعدل ، فاذا خسرنا هذه المستعمرات نكون خسرناها برضانا » . فهؤلاء المحققون الذين استبطنوا ثنايا دخائل النفس المحمدية في غير الكتب والحكايات ، لا يستحسنون فرح الاسلام الفرنساوي بانتصارات الأتراك الأخيرة . فان جداول التبرعات التي جرى الاكتتاب بها في الجزائر وفاس وداكار (أحد موانئ السنيغال) وتاماتاف (مدينة بحرية في مادغسكر) لاعانة الترك الغالبين والأدعية في المساجد بفوزهم ، والتهاني التي وردت على أنقره من ٣٠٠ مليون مسلم ، هذه كلها مقدمات لحوادث تالية . وكذلك قال هؤلاء المدققين ، ماشاهدوه من تأثير الوقائع التركية في تونس ، وصفاقس ، والقيروان ، وسوسه ، فقد وردت برقية من المهدية تفيد أن الشعور الذي كان يحصل من تلك المظاهر الحفلية ، هو أن الشعب التونسي معجب جداً بشعب كالشعب التركي يأخذ حقه عنوة بقوة المدفع . أي أن التونسيين يطمعون ، بان يأخذوا هذا الحق قريباً

بالواسطة نفسها . ليس عامة الوطنيين هؤلاء الساذجون طيبو السرائر ، المقدرون قدر السعادة التي هم راتعون في بحبوحتها ، والعارفون فضل الأمان والاطمئنان ، هم الذين نحن منهم على حذر . بل ليس الاسلام نفسه ، الذي عرف أثناء الحرب العامة أن يعلي نفوس رعايانا هؤلاء ، الى أن تحملوا ما تحملوه من الرزايا الفادحة بصبر الأبطال ، هو موجب عدم ركوننا . بل حذرنا انما هو من تلك الفئة القليلة ، التي عليها مسحة التربية الاوربية ، والتنشئة الغربية ، الذين قرأوا ما هضمته عقولهم هضما سيئا ، غلبت عليهم المآرب ، واستغواهم التعصب ، وأحبوا وطنهم ، ولكن أحبوا أكثر منه منافعهم الشخصية . فهؤلاء الشبان المسلمون لا يقلعون عن غيهم مهما جرى ، ومهما أعطوا من الحقوق . ومهما أجري معهم من التسامح ، فلا يكون ذلك الا طريقا لتوقيف الاوربي عند حده ، وأخذهم مكانه .

في وجه التضامن الاسلامي ، الذي يزداد كل يوم كلما ازداد نجاح اتباع الاسلام ، نجد الحصن الذي كان الغرب يمتنع به بدأ ينهار ، وعلاقات اوربا بعضها مع بعض تسوء . فاذا كنا لا نقدر على تلافي هذا النزاع الغربي ، فعلى الأقل يجب علينا في وسط مستعمراتنا أن نوحد الجبهة بازاء المهيجين والقلقين (أي طلاب الحرية ...) بتدابير عامة شاملة ، ويلزم أن نمنع سريان العدوى الى الجيش ، فان السكون الحاضر في مملكتنا الافريقية ، لا يجوز أن يصرف أنظارنا عن مشاهدة الغيوم المتلبدة في الشرق .

ان صور ابطال الاسلام مالئة أسواق مصر وبيوت فلاحي الأرياف ، فهذه حالة روحية ، قد تسري الى مستعمراتنا لا سيما تونس شمالا ، وممالك بحيرة تشاد جنوبا ، واذا نالت مصر استقلالها صارت مركزاً لتحرير الاسلام .

لا أحد يمكنه أن يتكهن على درجة هذه الحركة ، لكن من راقب الحوادث الجارية تهيأ له الاستنتاج بأنه لا يجوز التفاؤل المفرط ، كما لا يجوز التشاؤم بدون سبب . فالحالة تستدعي الاكتراث وان لم تكن التهلكة محققة الوقوع ، فعلى أيّ الاحوال يتعين حفظ القوة العسكرية التي لا يعتبر المسلم شيئا غيرها ، هذا مع الحزم والعدل ، وبسط الأمان ، وتيسير المنافع المادية . » . انتهى

اعتنينا بتعريب هذه المقالة بحرفها حتى لا نترك مجالا للمكابرة ، ولا محلا للمناكرة . وكنا نود لو تركناها كما هي تكتفي بنفسها مؤونة الرد عليها ، لولا أن يكون في الشرق لسوء الحظ ، من يتلقى كلام كل أوربي تقريبا حقيقة رياضية ، أو قضية مسلمة ، ولولا أنه لا يزال عندنا من حسن الظن في هؤلاء القوم ، ما يجعل التنبيه فرضا ، والتمحيص حتما . نعم ان افتتان الناشئة من الشرقيين بعدل اوربا ، وانصافها ، ومعالي نزعاتها ، قد خف كثيراً بعد الحرب العامة عندما تجلت عرائس الحقائق على منابر المذابح ، وقشعت رياح الحوادث غيوم الأوهام ، التي كانت متلبدة في الشرق ، من جهة تلك الفضائل وهاتيك المعالي ، ولكن مع الأسف نقول ، انه لم تبرح لهذا المرض عندنا عقابيل كافية للضرر ، وبقايا جازية الارتكاس في الخطأ ، والانتكاس في المرض ، فلم نر مندوحة من ادحاض ما في هذه المقالة من الأباطيل ، واظهار ما فيها من التناقضات ، لا اكتراثا بنفس محررها ، بل بكونها نظرية الآخذين في قومه وأمثال قومه ، ولو كان بعضهم يكتمها والبعض الآخر يعلنها .

بدأ الكاتب بتخطئة الاوربيين ، الذين يشمت بعضهم ببعض عندما تقوم على فئة منهم ثورة اسلامية ، قائلا ما معناه : ان كل ثورة اسلامية هي خطر على جميع دول أوربا ، فالتي لم تصل اليها النار حالا تصلها فيما بعد . فهو من أنصار توحيد الجبهة الاوربية في وجه الاسلام والشرق أجمع . والحال أن هذه المسئلة غير محتاجة في أوربا الى تنبيه من حضرته ، بل هي قاعدة أساسية ماشية عليها الدول الاستعمارية ، منذ وجد الاستعمار ، وانبسطت يد الغرب الى الشرق . فانها مهما اختلفت هذه الدول وتنابذت في أوربا ، تقف صفا كالبنيان المرصوص في وجه الشرقيين ، لاسيما المسلمين منهم . ولو شئنا استقصاء الشواهد والأدلة على ذلك لم تكفنا المجلدات ، فلا نعني أنفسنا بالاستشهاد بتواريخ لاتنتهي وانما نقول اذا طرأ بعض الاوقات عوارض بسيطة تخالف هذه القاعدة الاستعمارية الكلية ، فتكون عوارض جزئية محدودة لأسباب مجبرة لا مناص منها ، وضمن الدائرة التي لا تخل بالتضامن الأوربي العام في وجه الشرق ، وهو التضامن الذي لايزال دستور الاستعمار الأعظم . مثلا : لما اسقطت فرنسا الحكومة العربية في الشام وطردت الملك فيصلا خلافاً للمعاهدات التي كانت بين فرنسا وانكلترة وبين هاتين الدولتين والعرب ، ارتفع عويل العرب الى السماء ، واشتدت مشاحنتهم لانكلترة ومطالبتهم لها بمنطوق المعاهدات ، وصادف أثناء ذلك ، أن مسئلة العراق أعضلت وعز حلها ، فأرسلت انكلترة فيصلا الى العراق قياما بجزء مما تعهدت به للعرب ، وتوفيراً للمال والرجال على نفسها ، لأنها بقيت تقاتل في العراق مدة سنتين بمائة وعشرين ألف جندي والنار لا تزداد الا اشتعالا . فكان نصبها لفيصل ملكا على العراق مخالفا لهوى فرنسا ، التي قابلت هذا العمل بعقد اتفاق مع الأتراك بشأن كيليكيا ، وأعادت تلك الولاية الى تركيا بدون أن تستشير في هذا الوفاق حليفتها انكلترة . فعد بعضهم هذه السياسة من الحليفتين مخالفة لقاعدة التضامن الأوربي الاستعماري ، وليس الأمر كذلك ، فان انكلترة لم يكن ليمكنها أن تستخف تماما بالعهود التي قطعتها للامة العربية ، والى حد أنها لا تفكر أن ترضي هذه الأمة بشيء ، مع استمرار الحرب في العراق وامكان نشوبها في أماكن أخرى ، ومع ما كان يبدو لها من علامات تقرب العرب الى الترك لا سيما بعد أن خذلت العرب في الشام ، ولم تبد على اسقاط فرنسا للحكومة العربية بدمشق ادنى اعتراض ، فكان ارسالها فيصلا الى العراق نوعا من الكفارة لبعض تلك السيئات . وكذلك فرنسا أنفقت على كيليكيا نحو مليارين ، وخسرت فيها بضعة عشر ألف جندي ورأت نفسها مع حرج الحالة المالية وانصرافها الى تقاضي ألمانية التعويضات التي ليس استيفاؤها بالامر السهل ، عاجزة عن متابعة الاعمال الحربية في كيليكيا . ولحظت من جهة اخرى ان انكلترة تستثمر لحساب نفوذها في الشرق مجاهيد فرنسا في قتال الاتراك . فعدلت عن تلك الخطة الاولى وجنحت الى مسالمة الترك ، وتركت لهم ولاية هي في الواقع تركية ، وكان من اصعب الامور على فرنسا ان تقدر على حفظها بدون جيش جرار ، وبذل المليار بعد المليار . فلا الانكليز حاولوا ارضاء العرب في العراق حباً بالعرب ، ولا الفرنسيس حاولوا ارضاء الترك حبا بالترك ، بل التزاما من كل من الفريقين لمصلحته تحت ضغط الحوادث . ومع هذا ، فلم يحدث انفراد كل منهما بسياسته هذه ادنى ثلمة في جدار التضامن العام بازاء الشرق ، لانه لا الانكليز عضدوا العرب على فرنسا مع كثرة ماناداهم

العرب للمحافظة على عهودهم المقطوعة للعرب . ولا الفرنسيس أعانوا الاتراك على الانكليز في شيء يذكر مما ظهر في مؤتمر لوزان ، المنعقد اثناء تحرير هذه السطور ، اذ جبهة الحلفاء كانت فيه واحدة من الاول الى الآخر في وجه الترك والعرب والمصريين الخ . وكل ماجرى في اثناء هذا المؤتمر من الاختلافات الاوربية واولها مسئلة الرور ، لم يزعزع في شيء بناء التضامن الغربي بازاء الشرق . وبالاختصار فكل مايقع من اختلاف النظر بين الدول الغربية بشأن المسائل الشرقية ، يبقى محصوراً في دائرة ضيقة ، لايمكن ان يكسب صفة عامة ، وتبقى القاعدة عندهم ، هي ، ان نجاح اي غربي في اي بقعة كانت من الشرق هو نجاح للجميع والعكس بالعكس .

اما الذين يشير اليهم روجر لابون من كونهم يشمتون بجيرانهم ، اى الفئة التي من الفرنسيس تفرح بمشكلات انكلترة في مستعمراتها الاسلامية ، فهؤلاء اكثرهم من الشيوعيين والاشتراكيين وهؤلاء كما تقدم اضداد الاستعمار ، لانهم يقولون ان الاستعمار قضية عائدة على الطبقة المتمولة ، وهم لايريدون ان يسفكوا دماءهم في افريقية وآسية ، ويموتوا بحميات هاتيك الاصقاع النائية لاجل زيادة ثروة المتمولين في بلادهم ، ناهيك ان طبقة العملة تشبه أهالي المستعمرات بكون الفريقين مستضعفين هؤلاء من الخارج ، واولئك من الداخل ، فبين الفريقين جاذب التضامن الذي بين الضعفاء والمظلومين ، وما عدا هؤلاء ، فيوجد فلاة الحزب الشمالي الذين يحبون الحرية كما لا يخفى ، وجميع هؤلاء لا يكونون الا فئة قليلة بالقياس الى بقية الاحزاب ، وان وجد من غيرهم من الفرنسيس من يشمت بالانكليز في مشكلاتهم الاستعمارية اما حسداً أو نفاسةً ، أو على أثر اختلاف دولي اشتد بين الامتين ، فلا يتعدى ذلك بعض كلمات فارغة ، ولاينشأ عنه شيء بالفعل أبدا ، ولايدخل أصلا في برنامج الحكومات السياسي .

.. فبعد أن تقرر وجود هذا التضامن المتين بين جميع الاوربيين في وجه الاسلام والشرق بأسره ، لا عجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصا لا سيما أن بين هؤلاء رابطة دينية ، لا يمكن زوالها غضب روجر لابون أم رضي . وقد كان يمكن أن تتراخى هذه الرابطة الاسلامية بالعدل والاحسان من قبل الدول المستعمرة ، اذ كان لا يوجد شيء تستصلح به قلوب الأعداء مثل العدل ، وكان الانسان كما يقولون اسير الاحسان من أي جهة أتى . فالدول المستعمرة بدل العدل والاحسان ، لم تعرف في مستعمراتها سوى الضغط والظلم ، وامتهان الوطنيين والكيل لهم بمكيال ، والاوربيين بمكيال آخر ، والحجر على حريتهم ، والتصرف بحقوقهم ودمائهم ومرافقهم ، وابتزازهم أراضيهم ، وهذا ما امتازت به فرنسا اكثر من غيرها بدليل نسق استعمارها بالجزائر وتونس مما لا يحتاج الى بيان ، ومن شاء زيادة الوقوف فليقرأ كتاب «تونس الشهيدة» ليعلم ماذا يجري هناك أو فليقرأ بعض كتابات الفرنسيس أنفسهم ومن جملتها ما كتبه المسيو فاليان كوتوريه Vaillant Couturier أحد أعضاء البرلمان الفرنسوي من الحزب الشيوعي ، على أثر سياحة طويلة في الجزائر وتونس أجراها في العام الماضي ونشر خلاصة مشاهداته في جريدة الاومانيته ، بل فلينعم النظر في المبادىء التي يوصي بها لابون نفسه والمرء مؤاخذ باقراره فيعلم درجة الضغط الواقع على اولئك

المساكين ، وبأي نظر تنظر الامة المستعمرة اليهم ؟ فليست اذاً الرابطة الاسلامية وحدها هي التي تجمع قلوب الجزائريين والتوانسة والمراكشيين وغيرهم الى قلوب اهالي الاناضول ، هل هناك رابطة المستضعفين بعضهم مع بعض ، ورابطة الاخ الذي تحت نير العبودية مع أخيه الذي تمكن من رفع ذلك النير عن عنقه . هذه لعمري روابط طبعية لا تزول ولا تخف ، لا بالسهر ، ولا بالمراقبه ولا بالحجر ، ولا بالحجز ، ولا بمنع القضاء بالاحكام القرآنية كما يشير به لابون ، ولا بالتعب في تنصير المسلمين كما يريد ، اذ كل هذه التدابير لا يكون لها نتيجة سوى أن تزيد النار اضطراما . بل الواسطة الوحيدة لا لازالة تلك الرابطة لأنها لا تزول أبداً ، بل لحصرها ضمن حدود لا تضر فيها بمصلحة فرنسا ، هي معرفة فرنسا حقوق الوطنيين المسلمين ، ومعاملتهم على سوي واحد مع الاوربيين وعدم التذرع بأيّ الوسائل لوضع اليد على أملاكهم ، وتجنب استغلالهم كما يستغل الانسان حرثه ، وعدم القذف بهم في الثغور والمهالك ، ليكونوا فداء عن ابناء فرنسا وهم غير متمتعين بشيء من حقوق المساواة مع ابناء فرنسا ، الى غير ذلك من الشروط التي لو توفرت لعاش الوطنيون المسلمون في دعة وراحة مع الفرنسيس ولم يضمروا لهم الحقد ، ولكانوا ارتبطوا معهم برابطة محبة أكيدة بخلاف ما هي الحالة الآن ، اذ الرابطة الوحيدة التي تربط شمالي افريقية بفرنسا هي قوة السلاح ، وهذه كما لا يخفى مهما طال وجودها ، فقد يأتي يوم يخونها الدهر فيه ، فتذهب وتحل محلها قوة اخرى ، والدهر لا يدوم لاحد .

ثم يقول « يتسلون بالفرح الذي يبديه لنا المسلمون من جراء خطتنا الحاضرة » فلم نفهم ما هي خطتهم الحاضرة التي تستوجب كل هذا المنّ على المسلمين ؟ هل هي اعادتهم كيليكيا الى تركيا ؟ فهذا قد بينا أسبابه ، وان فرنسا لم يمكنها أن تعمل غير ذلك في الآونة الحاضرة . أم اعطاءها حق الانتخابات لمسلمي الجزائر ، وهو ادنى ما يمكن أن يكافأ به قوم قدموا لها نحو ٣٠٠ ألف مقاتل في الحرب العامة ، تلف منهم ٦٢ ألفا . فبدلا من أن تسويهم باليهود أو المالطيين على الاقل ، كان أقصى ما منحتهم من الحقوق ان يكونوا ناخبين لاعضاء المجالس البلدية . أم سماحها بزيادة عدد الوطنيين في الندوة التونسية ، لكن بشرط ان لا يكونوا الاغلبية وان لا يكون لهم الحق في التعرض للامور السياسية أبدا ، وان لا يمسوا بشيء المبادىء الاستعمارية الماشية عليها حكومة تونس ؟ أم أخذها لسورية التي ثلاثة ارباعها مسلمون نقضا لكل عهد وميثاق ، وتعديا على حقوق الامم وخلافا لتصريحاتها اثناء الحرب ، ثم معاملة سورية بصفة مستعمرة ، واستنزاف أموالها ، والاخلال بوحدتها ، واثارة الاحقاد الدينية التي كانت ساكنة فيها منذ زمن طويل ، وحبس مفكريها ونبهائها لمطالبتهم اياها باستقلال بلادهم ، واعتبار سورية أرضا فرنسوية مع الهزؤ بأهلها بأنهم هم مستقلون ، وانما هي انما انتدبتها جمعية الأمم للوصاية عليهم لترشدهم وتعلمهم كيف يديرون فيها بعد أنفسهم بانفسهم ... أم الحرب القائمة بينها وبين أهالي مراكش والتي لولا حسن ادارة المارشال ليوتي بنفسه لكانت غير منحصرة في بعض جهات تلك السلطنة بل كانت عامة لجميعها ؟ ماهي خطتهم الحاضرة اذاً ، وماذا فيها من هذه الأيادي البيضاء على المسلمين ؟ لما انتصر الاتراك على اليونان لم ترد فرنسا أن تنتصر لليونان كما أراد لويد جورج لكونها من النزاع مع المانية في شغل

يستغرق كل قوتها ، فالت الى الصلح ولم تكن في ذلك وحدها ، بل كان رأي الجميع والانكليز أنفسهم الذين اسقطوا لويد جورج وضع حد لهذه الحرب في المشرق ، ومع هذا فقد احمد الناس كلهم – الا اليونان فقط – سياسة الدول السلمية وسياسة فرنسا من الجملة ، وأظهر لها مسلمو المغرب الشكر على سداد هذه السياسة ، التي هي كلها في مصلحة نفسها في الواقع ولكن لم تلبث ان تقاضت بدل مسالمتها هذه التي لم تكن فيها بالمنفردة مطالب اقتصادية ثقيلة على الاتراك ودعاوي خارجة عن العدل والنصفة ، ومن جملتها التحريج على الترك في النزول لها من حق سيادة الدولة العثمانية على سورية .

اذاً بماذا تمن فرنسا وتمتد على المسلمين ؟ حتى يقرّع لابون بعض عقلاء قومه بأنهم كانوا مسرورين من مظاهر الرضى التي أبداها مسلمو المغرب .

ثم يحذر أبناء جنسه من الاغترار بظاهر الشرقي الذي يخفي الحقد ويبدي الولاء . ولا ننكر أن هذا من الأمور التي يتجاوز بها الشرقيون الحد المعقول ، والتي كانت السبب في كثير من المضار ، لأن الافرنجي من شأنه أن لا يحمل الافراط في الكياسة الا محمل الضعف ، وانه كلما تواضع الانسان أمامه احتقره واستصغر شأنه ، هذا مجرب فيهم الا ماندر . ولكن الشرقيين مفطورون على المجاملة ، فتراهم يظهرون التودد الى أقوام استولوا على بلدانهم واستعبدوهم ، فهؤلاء الذين عرفوا جيداً ماذا فعلوا بهم ويعرفون أن سياستهم معهم لا توجب أدنى مودة ، يعتقدون أن هذه الظواهر هي كلها كذب وملق ورئاء ، وانه كامن وراءها الحقد والبغضاء اذ لا يعقل أن الانسان يحب من أساء اليه . فليحذر الشرقيون والمسلمون من أن يأتوا بمصداق كلام هذا الرجل ، وليجعلوا للمجاملة حداً لئلا يتهموا بالرئاء والخداع . فلقد كان من الافراط بهذه المجاملة من النتيجة السيئة في احتلال سورية ، وادعاء أن أهلها هم الذين طلبوا ذلك ما ليس هنا محل بيانه وما طالما نبهنا اليه . أما دعواه بأن الاسلام مبني على الخضوع للقوة القاهرة فكذب محض ، واختلاق منه ، فان الاسلام أمر بأوامر ونهى عن نواه لابد للمسلم أن يجري عليها اذا أراد أن يبقى مسلماً ، مهما وقف في طريقه ولو ذهبت بذلك نفسه . وهذا مبسوط في كتب الشريعة التي يفتري عليها لابون بدون علم ولا حياء ، وليس للمسلم أن يتقي في دينه الا في بعض نقاط لا يكون فيها خطر على وجود الاسلام ، ولو كان المسلم مأموراً بالاستسلام للقوة الغالبة ، لما قاوم الرسول صلى الله عليه وسلم قريشاً وهي أقوى منه ، ولا قاوم الخلفاء الراشدون تلك الامم كلها ودوّخوها وهم لم يكونوا شيئاً بالقياس الى ما كانت عليه تلك الأمم . كلا ، فالاسلام مبني على العزة وعدم المبالاة بالحياة ولا بالمال في الذب عن شريعة الاسلام ، وان القرآن ملآن بذلك والحديث الشريف مستفيض به ، وما سقط الاسلام الا بعد أن فتر عمل أهله بتلك الآي ، وغلبت عليهم « كراهية الموت وحب الدنيا » وفقاً للحديث النبوي الذي أنبأهم بالحالة التي وصلوا اليها وبالاسباب الداعية الى حصولها ، وهو حديث « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل جانب تداعي الأكلة على القصاع الخ » .

ثم يقول ان ابتهاج الاسلام بعضه بفوز بعض لم يكن من قبل ذا بال ، نظراً لقوة أوربا واتحادها في وجهه بخلاف ما هي اليوم ، والروسية التي كانت أعظم ضاغط على الاسلام صارت

في هذه الاونة تناصره وتشد أزره . والجواب أن تضامن أوربا كلها على الاسلام ، كاف بدون الروسية ، ولا شك أن الحرب العامة قد استنزفت قوى أوربا والروسية ، وكرهت الحرب الى السواد الأعظم من العالم فاستفاد الشرقيون كلهم من هذا الضعف بدون نزاع وهبوا للمطالبة باستقلالهم ورفع الانيار عن اعناقهم ، ومن يلومهم على ذلك الا الذين لا وجدان لهم مثل هذا الكاتب والحزب الذي هو منه ، على أنه لو فرض أنها لم تحصل الحرب العامة لما كان الشرقيون راضين بأن يبقوا عبيداً الى الأبد .

أما ابتهاج الاتراك بل المسلمين أجمع بنصرة الراكشيين على الاسبانيول فليس فيه شيء من العجب ، فقد كان الاوربيون كلهم مبتهجين بانتصار البلقانيين على الاتراك ابتهاجاً ، أنساهم كل ما ارتكبه البلغار واليونان والصرب من الفظائع في تلك الحرب ، وكان أحلى ما يروق للانكليز يومئذ وقائع الجبل الاسود التي تجلت فيها بسالة ذلك الشعب الصغير الأبي ، أفلا يحق للمسلمين أن يبتهجوا بنصر فئة قليلة من المغاربة ، كلهم قبائل متطوعة ، على دولة عظيمة ساقت عليهم ٢٠٠ ألف مقاتل ، فاستأصلوا منهم نحو ٣٠ ألفا وغنموا ١٧٠ مدفعا و ٧٠ ألف بندقية وانتهى الامر بأن عاد الاسبانيول كما جاءوا لم يفوزوا بطائل . ان فرنسا وقتئذ مع بغضها لاسبانية والمنافسة بينهما على طنجة وغيرها ، لم يسرها فوز الريفيين ، بل أوجست منه خيفة وعاونت اسبانية بما أمكنها . وان الامير محمد عبد الكريم أرسل وفداً الى لندن يلتمس وساطة انكلترة في الصلح ، فلم تقبل انكلترة هذه الوساطة ، مع شدة ادعائها محبة السلام . فلماذا لعمري ؟ الجواب بسيط ، وهو لاجل التكافل الاوربي في وجه الاسلام . وكذلك المسلمون يفرحون بظفر الريفيين ، أولاً ، لكونهم اخوانهم في الدين ، ثانيا ، لكونهم فئة قليلة مظلومة ، غلبت فئة كثيرة قوية ظالمة ، طامحة الى استعباد تلك الفئة القليلة العدد الأبية للضيم .

أما ما ادعاه من كون النادي الشرقي ببرلين هو من مراكز دعوة الجامعة الاسلامية ، وانه يصدر جريدة لواء الاسلام لبث هذه الدعوة ، فلما كان محرر هذه السطور هو رئيس النادي الشرقي ببرلين قد نشرنا في بعض الجرائد تكذيبا لدعواه هذه ، ولكون النادي هو تحت حماية مجلس برلين البلدي والجنرال لوندوروف ، كما افترى علينا كذبا وبهتا ، وبينا أن النادي هو محفل اجتماعي ليس له شغل بالسياسة ، تأسس مجتمعا للشرقيين من كل الاجناس والأديان ، ففيه أتراك ، وعرب ، وجركس ، وتتر ، وافغان وفرس ، ومصريون وهنود ، ومغاربة ، وفيه مسلمون ، ونصارى ، ويهود ، وبراهمة الخ . وأن جريدة لواء الاسلام ليس لها أدنى علاقة بالنادي الشرقي . فاذا كانت كل معلومات لابون هي من قبيل هذا الخبر فيكون مقصده التهييج فقط ، لايهام أبناء جلدته وجود حركة اسلامية المانية ، يتوسل بها الى زيادة الضغط على المسلمين .

ثم زعم ان ليست نتائج الحرب العامة هي العاملة فقط في هياج المسلمين ، بل هناك عوامل من طبيعة الاسلام نفسه ، لأن الاسلام لايخضع بزعمه الا للقوة . فكرر هذيانه الاول الذي لم نعلم على أي شيء بناه ، اذ سنة الامم كلها انها تخضع للقوة وتنشز عند فقدها ، لم يختص الاسلام وحده بذلك . بل الاسلام والشرق فيهما بقايا من كرم الاخلاق ، و العفو عند المقدرة

والسماحة ، وترك الانسان حقه لمجرد علو الهمة ، والميل الى المساكين وهذه كلها مناقب يهزأ بها الغرب ولا يفهم لها معنى ، بل يسمعون ويقرأون نوادر كثيرة عن الشرقيين لاسيما العرب منهم ، وينقلونها في كتبهم من باب الكرم العريض والايثار على النفس وعفو الموتور عن الواتر بمجرد دخوله بيته ولو كان قاتلاً ابنه فلذة كبده ، وكم من والد سامح بقتل ولده ووالدة سمحت بقتل ولدها لمجيء القاتل الى بيتهم مستصفحاً ، وكم من تجاوز عن القود وعن الدية معاً ، فهل سمعنا أو قرأنا ان فذّاً اوربيا فعل مثل ذلك مما يقع عند العرب كل يوم تقريبا ؟ وكم في التاريخ الاسلام من نوادر عفو عند القدرة ، قد عرف منها الافرنج شيئا كثيراً باحتكاكهم مع عرب الاندلس ، وفي أثناء الحرب الصليبية مع صلاح الدين الايوبي الذي كانت سيرته بهم بعد سيرتهم بالاسلام عند دخولهم القدس سبب عار لايمحى للصليبيين ، (قتلوا ٧٠ الفا في المسجد الاقصى ولم يعفوا عن النساء ولا الاطفال ، فلما استرد صلاح الدين القدس لم يقتل منهم احداً) كما أقر بذلك المؤرخون المنصفون من الافرنجة ، لانها أظهرت ماهنالك من سعة الفرق في علو النفس ، ورقة الاحساس ، بين الامم الاسلامية والامم الاوربية . إفيقال بعد هذا ان المسلمين لايخضعون الا للقوة القاهرة ، وانهم لايؤثر بهم حسن المعاملة ولا العدل ، بل العامل الوحيد الذي يؤثر بهم ويكفل طاعتهم هو ارهاف الحد ؟ كبرت كلمة تخرج من أفواه هذا الكاتب وأمثاله ، ان يقولون الا كذبا .

والحقيقة هي ان القوة الساطعة هي العامل الوحيد الذي يؤثر بالافرنج ، وأقرب شاهد على ذلك مثل الترك الذي لاحاجة لبيانه اذ كل أحد يعرفه ، فقد أصمت اوربا آذانها عن جميع مانادوها به من العهود والمواثيق والمتاركات والحقوق الدولية ، الى أن أثبتوا قوتهم بالغلبة على اليونان وغيرهم ، فعرفتهم حينئذ بشراً ، ورضيت أن تجالسهم في مؤتمر لوزان ، وأخذت تصالحهم وتداريهم . وهناك مثل اليابان التي لم تعتبر عندهم دولة متمدنة الا بعد أن قهرت الروس ، وأثبتت قوتها العسكرية . كان أحد كبار الوزراء اليابانيين يحادث علي انظامي باشا سفير تركيا في رومة مؤخراً فقال له : « ان شئتم أنتم الاتراك أن تكونوا متمدنين في نظر اوربا ، فاجتهدوا أن تكونوا أقوياء لاغير . فانا نحن اليابانيين كنا بلغنا مبلغهم ، وتجاوزنا أمدهم في العلم والصناعة ، وصرنا نصنع من الامتعة مايضاهي الذي يصنعونه ، ونبيعه بأثمان أرخص من أثمانهم ، ولبثوا يعدوننا مع البرابرة . الى أن هجمنا في يوم من الايام على الروسية ، ونسفنا لها بوارج بدون اعلان حرب منا مخالفين بذلك الحقوق الحربية الدولية ، ثم تابعنا الحرب الى أن انتصرنا على الروس نهائيا ، وعرفوا اننا نعرف أن نقتل ونهلك وندمر مثلما يقتل الاوربيون ويدمرون ، صرنا عندهم دولة عظيمة وصاروا يعدوننا متمدنين » . هذا كلام وزير ياباني كان تولى الصدارة في اليابان ، وان شاء الشرقي أن يفهم جيداً ماهي اوربا فليستظهر دائما هذه الاحدوثة . ويعلم الله اننا لم نكن لنوضح كل هذا من شأنهم في تقديس القوة المادية والتنمر على الضعيف والتجسس للقوي ، لو لم يكونوا دائما يقذفوننا بهذه التهمة عينها ، فقد تكررت منهم هذه الكلمات بحق الشرقيين الوفا من المرار . وعند كل مناسبة ، تجدهم يقولون : الشرقيون لايعرفون الا القوة ، الشرقيون لايفهمون الا لغة السيف . الشرقي لايأتي الا بالارهاب . لاتنس انك تخاطب امة شرقية . اعلم انك في الشرق ، وما أشبه ذلك ، والحق ان القوة

المادية هي معبود الغربيين قبل الشرقيين . ثم ذكر انه في الحرب العامة ، انقادت اكثر الامم الاسلامية الى الحلفاء ، وقاتل منها مليون ونصف مليون مقاتل تحت راياتهم ، ولم يعبأوا باعلان الخليفة الجهاد ، وتبارى علماء المغرب في الفتيا بعدم وجوب الحرب في جانب الاتراك والالمان الى غير ذلك .

١

والجواب عليه ان كان يعني بالامم الاسلامية البامباره والسليغاليين وأمثالهم فهؤلاء مساكين لايقدرون على شيء ، ولا يعرفون شيئا ، بل تراهم كالانعام يساقون الى المجزرة ، ولا يشعرون حتى يصل السكين الى أعناقهم ، ولم تترك فرنسا في سبيل ابقائهم في أدنى دركات الجهل والحيلولة بينهم وبين الشريعة الاسلامية واللغة العربية واسطة الا استخدمتها ، لاجل أن تلعب بهم بالكرة ، وتقتلع منهم كل شيء اسمه ارادة ، فهؤلاء لا كلام فيهم . أما الجزائريون والتونسيون والمراكشيون ، فمع كون الجهل أيضا مخيما على عامتهم ان لم يكن في نسبة السليغاليين فقريبا منها ، ومع كونه لايصعب على فرنسا شراء ضمائر كثيرين منهم ، فقد طاف عمال الفرنسيس عليهم يخطبون ويعظون ويعقدون المجامع ويحادثون العلماء والزعماء أثناء الحرب ، وفي كل أحاديثهم وخطبهم ، يصرحون بأن هذه الحرب هي حرب تحرير الامم ، فكل من قاتل فيها وبذل دمه نال بعد الحرب استقلاله ، وكل من تخلف عنها لاحظ له من الحرية ، وان هذه النوبة هي نوبة الجزائر وتونس لنيل الحكم الذاتي بحيث لايبقى بينهما وبين فرنسا الا صلة حلف فقط . وان الالمان الذين هم أشد اعداء الاسلام ، قد خدعوا تركيا ، بل استمالوا فرقة الجون ترك فقط ، وهي الغالبة على الأمر والاخذة على يد السلطان الخليفة ، فأعلنت هذه الفرقة الحرب بدون علم الخليفة وبلا علم الامة ، وكذلك الفتوى بالجهاد هي تزوير من فرقة جون ترك ، هذه التي هي مارقة من الاسلام تهين الدين وتجاهر بعداوته (واستشهدوا على ذلك بأشياء) ، وسيكون نصيب تركيا فيما لو انتصرت المانية ، السقوط بين ايدي الألمان الذين سيقضون على الاسلام القضاء المبرم بعكس الحلفاء الذين هم أحباء الاسلام ، ولا يريدون بأهله الا خيرا (١) فبعد أن يتسق النصر للحلفاء ستمنح فرنسا الحكم الذاتي الى جميع مستعمراتها الاسلامية ، وستعطي انكلترة مصرا استقلالها التام وسيساعد الحلفاء العرب على تأسيس سلطنة عربية ، تتألف من سورية وفلسطين والعراق وجزيرة العرب ، ، وعلى استئناف مجد الخلافة العباسية . وقالوا لاهل الهند انهم سينالون الحكم الذاتي بأجمعهم ، وأقسموا لهم جهد أيمانهم انهم ولو انتصروا على تركيا ، فلا ينال تركيا من الحلفاء أدنى سوء ، بل كل ما يريدونه من تركيا هو الانفصال عن هذه الدولة الالمانية التي تنوي وضع اليد على تركيا . هذه التصريحات والتأكيدات كررها الحلفاء الوفاً من المرار على اهالي مستعمراتهم الاسلامية ، لا سيما الجزائر وتونس ومراكش ومصر والهند، وعلى الامة العربية ، ولبثوا يكررونها الى السنة الرابعة من الحرب العامة ، اذ قوي أملهم بالنصر النهائي فعند ذلك تغيرت نغمتهم ، وبدأت تلك الامم التي انقادت لوساوسهم تلحظ انها انما وقعت في شرك ، وانها كانت من تمويهاتهم في غرور مبين . ولقد أصابت احدى الجمعيات السورية في أمريكا بوصفها الحلفاء أثناء الحرب العامة وهم يبثون الدعوة لقضية تحرير الشعوب بزعمهم . فقالت في منشور اذاعته بعد الحرب : « فلو رأيت الحلفاء ودموعهم تسيل ، وهم يستنهضون الامم لنصرتهم في هذه الحرب التي لم يتابعوها بزعمهم الا

لاجل تحرير الامم كافة ، وقهر التسلط الالماني الخ » لم يبق الحلفاء يبثون هذه الدعوة ودموعهم تسيل رقة وحنانا (ا) الى أن قضوا وطرهم ، فقلبوا ظهر المجن لكل من عاونهم وقاتل في صفوفهم ، وجفت دموعهم اذ ذاك ، وعادوا ذئاباً بعد أن كانوا حملانا ، وتناسوا كل ما تعهدوا به أثناء الحرب بدون أدنى خجل ولا وجل ، فلذلك هاجت أحقاد تلك الامم التي خدعوها بزخرف القول وختلوها بمواعيد ، لم تعد مواعيد عرقوب عندها شيئاً ، وقاموا عليهم من كل جهة ، فنهضت مصر تطالب باستقلالها التام ولم تزل ناهضة ، وحنق أهل الجزائر من خلف المواعيد الفرنسوية حنقا دل عليه صنيعهم في انتخابات ١٩١٩ ، التي لم يرشحوا فيها واحداً موالياً لفرنسا · ولاتزال الحركة الوطنية تقوى فيما بينهم بفضل سوء السياسة الاستعمارية لا بدسائس الاناضول ولا بتحريكات الجامعة الاسلامية ، وازدادت ثورة المراكشيين اشتعالا ، وهي منذ خمس سنين مضت من بعد الحرب العامة لم تسكن يوما واحداً . وثارت الهند ثورات مختلفة الانواع ، منها بالسلاح كما في شمالي الهند وكثورة الموبلاه في المليبار وغيرها ، ومنها بالسياسة كالمؤتمر الوطني الذي انعقد ممثلا من جميع شعوب الهند واديانها ، وكاتحاد المسلمين والهندوس ، وكقيام جمعية الخلافة ، وكمقاطعة المتاجر البريطانية بحيث نقصت في الهند نحو ٣٠ في المائة . ثم قام اهل العراق في وجه الانكليز ، الذين كانوا أعلنوا لهم يوم دخولهم بغداد سنة ١٩١٧ أنهم لم يأتوا ليملكوا بلادهم ، بل ليعيدوا اليها الحكم العربي كما كان ، فلما استوسق الظفر لانكلترة حاولت الاستيلاء على العراق والحاقها بالهند ، فثار العراقيون بها مدة سنتين اذاقوها فيها عرق القربة ، ولم يضعوا السلاح حتى مكنتهم من تأسيس حكومة عربية ، اشترطوا أن تكون مستقلة استقلالا تاما ، ولن يبرحوا حتى يروا استقلالها تاما . وأما أهل تونس فنترك القول لهم ، فقد ورد في كتاب « تونس الشهيدة » المطبوع في باريز سنة ١٩٢٠ في خلاصة الكتاب ما يأتي :

« كانت مفاداة الشعب التونسي بجانب فرنسا ، في الحرب التي اكتسحت العالم المتمدن ٦٥ الف مقاتل و ٣٠ الف عامل من أمة لا تزيد على مليونين من النفوس ، وقد قتل وجرح من الخمسة والستين الف مقاتل ٤٥ الفا ، وكانت لنا ثقة تامة في الحصول على أمانينا القومية على أثر ظفر الحق (ا) والعدل بين الامم ، وتنفيذ مبدأ تعيين الشعوب لمصيرها ، الذي كان أعظم رجال الدول نادوا به ووعدوا به هذه الشعوب أمام الله والناس . فهذه الثقة هي التي حاتتنا على القيام بواجب المشاطرة الوجيمة بدون قيد ولا شرط في الحرب العظمى العائدة لخلاصنا فكان دينا على فرنسا اعطاؤنا حريتنا من وجهين الأول ، الخسائر التي تحملناها من أجلها والثاني ، المواعيد الشهيرة التي قطعتها لنا ، فقد نالت الشعوب الصغيرة حتى من التي كانت في صفوف الاعداء حريتها ، أما نحن فقد ادخرت لنا فرنسا لاجل المكافأة على خسائرنا طريقة من أغرب ما يتصوره العقل ، وذلك بتهيئة برنامج استعمار جديد زيادة على القديم ، تتمكن به من غصب أملاكنا وهضم حقوقنا ، فقد اعتزمت ايطان ائة من صعاليك الفرنسيس ومعتريهم ومحاويجهم في بلادنا ، وتيسير أسباب معايشهم من مالنا ، وتقديم الاراضي اللازمة لهم من أرضنا . فما هي فائدة فرنسا لعمري من متابعة خطة هي من سنة ١٨٨١ ، وعلى الخصوص من سنة ١٨٩٢ حتى اليوم مصدر كل عمل تأتيه في تونس ، وبدلا من أن تعدل عنها ولو

على وجه المكافأة لرزايانا من أجلها ، تكون النتيجة ، انها بعد انتهاء حرب الحق والعدل (1) تزداد فيها توسعا وتفننا الخ » .

لا نطمع أن ننقل هنا كل ما ورد في « تونس الشهيدة » من الحقائق الرسمية ، التي تثبت الى أيّ حد وصل الفرنسيس من استعمار تلك البلاد ، واستعباد أولئك العباد ، وكما تقدم كانت مكافأتهم على الخمسة والاربعين الف رجل الذين قدموهم فداءً لفرنسا ، أن قررت الحكومة الفرنسوية ارسال كل المحاويج والسفلة والافاقين الذين في بلادها الى تونس ، واعطائهم أراضي فيها من أملاك الحكومة التونسية وأوقاف التونسيين ، والانفاق عليهم لعمارة تلك الاراضي بواسطة قرض يعقد باسم تونس ، ويدفع فائضه أهل تونس .

وبالجملة فاذا شاهد المسيو روجر لابون ومن على شاكلته هيجانا في العالم الاسلامي ، فليبحث عن أسبابه في مظالم الحكومات الاستعمارية ، ونكثها بمواعيدها ، وخبطها هذه الشعوب بعصا العسف ، واستئثارها بأراضيهم ، وأموالهم ، ووضعهم تحت أقدام المستعمرين حقارة واهانة ، فالشعوب الاسلامية والشرقية مهما بلغ بها الضعف فلن تقر في يوم من الايام على العبودية للاوربيين ، يلزم أن يرفع الاوربيون خيال تأبيد هذه العبودية من رؤوسهم . وأما زعمه أنه بعد معاهدة مودروس كان الاسلام باسره قد استخذى ، وصار منتظرا أي حكم يصدر من أوربا ليطيعه ، وان السبب في كونه رفع رأسه فيما بعد ، واستأنف آماله ، وعاد الى المخاصمة ، هو ما رآه من انصراف الجيوش من الشرق ووقوع المنازعات بين الحلفاء ، فهذا كذب محض ، وبهتان بحت ، ينقضه التاريخ وتكذبه القيود الرسمية ، فقد وضعت الحرب أوزارها ، ومصر والاستانة والعراق والاناضول والقوقاس وسورية ملأى بجيوش الحلفاء التي لبثت مرابطة في هذه البلدان مدة طويلة . وعندما أهالي مصر نهضوا لطلب استقلالهم كانت مصر تموج بالجيش الانكليزي . وان أهل العراق هبوا لمقاومة انكلترة غير هائبين المائة والعشرين الف جندي ، التي ساقتها عليهم ، كما انه لما نهض مصطفى كمال في الاناضول كانت الجيوش الانكليزية في الاستانة والاناضول والقوقاس بعشرات الالوف ، وكان جيش فرنساوي نحو ٤٥ الفاً في كيليكيا ، وجيش آخر في الاستانة وجوارها ، وكان جيش للارمن في حدود ارضروم ، وبعد ذلك زحف ١٥٠ الف يوناني ، فاطبق الاعداء على الاناضول من كل جهة ، ومع هذا فلم يزد الترك ذلك الا ثباتا . فكيف يقال انهم تشجعوا بانصراف الجيوش عنهم . وأما في سورية فبلغ عدد الجيش الفرنساوي ٧٠ الف مقاتل ولم يمنع ذلك أهلها من مقاتلة الفرنسيس ، ولا صرفهم الخوف من كثافة الجيوش عن طلب حقهم الذي لا يزالون يطالبون به ، وأما شمالي الهند فلما زحفت عليه القبائل الافغانية وجيش كابول ، أرصد الانكليز لمقابلتهم ٣٠٠ الف مقاتل ، فكيف يكون المسلمون قد طمعوا وتجرأوا بانصراف الجيوش عن بلدانهم . وكذلك فارس اجبرت الانكليز على الجلاء عن بلادها ، والجيش البريطاني منتشر في أكثر البلاد .

ثم يقول كان أكثر الناس مناهضة لقضية تجنيد الوطنيين ، هم الذين حصلوا العلم في مدارس فرنسا . اذاً فالفريق الذي تلقى تربية اسلامية والفريق الذي تلقى تربية أوربية كلاهما واحد في طلب الحرية ، وهذا أمر بدهي ، اذ لا الاسلام يرضى لابنائه بهذا الاهتضام ،

ولا أوربا تجيزه على* أمة من ابنائها ، وكلا التعليمين ملتقيان في نقطة الاستقلال وان السفسطة التي معناها ان المسلم لا بد أن يكون تحت حكم أوربي لاجل انتظام سير المدنية التي ديانته تمنعه منها ، هذه لا يقبلها المسلم العتيق ولا الجديد ، بل لا يقبلها أوربي عنده وجدان سليم ، وما هي الا أكذوبة خلقت لتسويغ الاستعمار واقناع الاحرار من الاوربيين ، الذين يقولون : « ما لنا ولهؤلاء القوم نهضم حقوقهم ، ونتحكم فيهم ، ونذهب فنقاتلهم في عقر دورهم » فيريهم حزب الغزو والاستعمار ان يحاورهم : « ان هذا ليس في شيء من الظلم ، لأن هؤلاء القوم لا يزالون عصاة على المدنية ما داموا مسلمين » . ثم يقول وهو من أغرب ما سمع في باب القحة انه « منذ خفق العلم الفرنساوي فوق مرسى الجزائر تكوّن بين هذه الامة وئام لم تعرفه من قبل » . وفي محل آخر يندب قصور عمال فرنسا في تأريث نار الشقاق بين العرب والبربر كما كان من قبل. وقلما سمعنا ان قوما يدّعون أنهم في أرقى طبقات المدنية يأسفون من كونهم لم يحسنوا التفرقة ، ولم يحكموا العداوة بين الامم التي ساء بختها بسقوطها تحت أيديهم ، ويعلنون أسفهم وندمهم من جراء هذا الاهمال : على ان كلامه هذا هو كذب محض ، فان عمال فرنسا في الجزائر لم يهملوا وسيلة لشحذ العداوة بين العرب والبربر الا توسلوا بها ، ولكن الذي جمع بين العرب والبربر هو رابطة الاسلام ، ورابطة الظلم المحيط بالفريقين . واذا كان عمال فرنسا منذ أول احتلالهم لسورية أي منذ سنة ١٩١٨ الى ساعة تحرير هذه السطور ، لم يفتروا يوما واحدا عن تأريث الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى في سورية وبين النصارى والدروز في لبنان ، بعد ان كانت هذه الضغائن والذحول قد سكنت وتلاشت تقريبا ، فتجد سورية ولبنان اليوم في أسوأ حال من هذه الجهة مما بذرته يد الاحتلال ، التي ظنت انها لا تمتد الا على بساط شقاق ، ولا تتمكن الا من خلال فتنة . فما ظنك بما كان يفعله عمال فرنسا في الجزائر من تحريك الاحن بين العرب والبربر الذين ليسوا في مستوى أهل سورية ، لكن فرنسا لا تسكام يدها الا وتاسو باخرى ، فكل ما زرعه عمالها من الشقاق بين ذينك الجيلين في المغرب ذهب بفضل الظلم والغصب والامتهان وسوء الادارة ، التي وحدتهما . وهذا شأن كل من حاق بهم خطر عام . وليس بصحيح انه لما دخل الفرنسيس الجزائر كان فيها ٨٠٠ الف بربري غير مسلمين ، فالاسلام دين البربر قاطبة منذ أكثر من الف سنة ، واللسان العربي هم يعرفونه جميعا الا ما ندر من جهلائهم . وقد اجتهد عمال فرنسا كثيرا في فتنتهم في دينهم ، ووفقوا الى بعض ما قصدوه وذلك بان ادخلوا عليهم الشكوك في عقائدهم ، فاصبح بعضهم مضللين أو ملحدين ، ولكن لم يتمكنوا من نقلهم من الاسلام الى النصرانية . ولا ينكر أن كثيرا من الفرنسيس ومن عمالهم ايضا ، هم من ذوي الوجدان والاستقامة وارباب العقل والحكمة فنهم من استقامة طبع وطهارة وجدان " تأبوا ان يزعجوا مسلمي الجزائر في دينهم وان ينكثوا بعهد المحافظة على حرية الدين الاسلامي ، ومنهم من حسن تدبير ، وبعد ادراك تجنبوا ان يتعرضوا للجزائريين في عقائدهم وشريعتهم خوفا من انتقاضهم ، وتفاديا من زيادة نفورهم " فهؤلاء هم الذين روجر لابون لا يزالون يندد بهم ، ويقبح عملهم ، ويزعم انهم كانوا يعززون الاسلام ، ويعاونون على تأييده ، وليس الامر كذلك فما من

فرنسوي على وجه الارض عزز الاسلام أو سعى في نشره ، وانما هناك فئتان احداهما ، ترى التعرض للمسلمين في كل شيء حتى في دينهم وأخرى ، ترى ذلك من قبيل اللعب بالنار وتتوجس من ورائه الثورات والفتن ، فلا تحب ان تتعرض للدعوة الدينية ، ولا ان تثير هذا الساكن ، وان رضيت بشيء من ذلك تنكبت فيه الطرق الرسمية . على ان تمييز غير المسلم على المسلم في شرقي افريقية وسائر مستعمرات فرنسا ، ليس مما تمشي فيه فرنسا الضراء ، وناهيك أنه من نحو عامين فقط ، اقترح أحد نواب السوسياليست في البرلمان الفرنساوي الغاء قانون ، بمقتضاه لا تعطى مكافئات عقارية لذوي الخدمة النصوح الا للمسيحيين واليهود ، ومن يتنصر من المسلمين . وهذا قانون ليس بقديم العهد ، بل وضعه مجلس نواب فرنسا منذ ثلاثين سنة ، وقد اجابت الحكومة على اقتراح النائب الاشتراكي بأنه يليق الغاء هذا القانون بعد الخسائر الجليلة التي تحملها الجزائريون فداء لفرنسا . فانت ترى كذب دعوى هؤلاء ، الذين يزعمون ان الحكومة الفرنسوية قصرت في احتقار الاسلام واهتضامه في الجزائر . نعم هنالك فئة قليلة من الفرنسيين ترى هذا الضغط بئس التدبير ، ولعمري كل عاقل في الدنيا يحكم لهذه الفئة بالصواب في رأيها .

ثم يفتري على الاسلام بقوله انه ما دان به شعب الا تأخر وتقهقر ، وانه مانع ، بقوانينه الدينية من الترقي الاجتماعي . والحال ان الاسلام ليس فيه شيء يمنع الترقي ، ولا يوجد شريعة في الدنيا تقدس العلم وتعلي شأن العرفان وتجعل العلماء تلو الانبياء كشريعة الاسلام ، واذا كانت الامم الاسلامية قد انحط شأنها في القرون الاخيرة لاسباب عديدة من جملتها ، تكالب اوربا على بلادها ، وتظاهرها على استئصال قوتها فلم يكن نفس الاسلام هو باعث التقهقر بل كانت لذلك بواعث اخرى لم تخل منها امة ومثال ذلك أن أوربا بقيت منحطة جاهلة ، متنشمرة ، ملفوفة في حنادس الهمجية ، من بعد ما تنصرت بالف سنة . وبلغ من جهلها وانحطاطها ان مائة عربي افتتحوا قسما من ايطاليه وقسما من سويسرة في اوائل القرن العاشر ، واستولوا على أكثر الجبال والمضايق ، وبنوا القلاع والابراج ، وجاذبوا الحبل جميع ملوك تلك الاطراف ولبثوا مالكين هاتيك الحصون والقلاع ، ضاربين على أهالي تلك البلاد الذلة والمسكنة نحو قرن تام ، ولم يكن عددهم انمى ما نموا وأكثر ما كثروا ليزيد على الف رجل ، نجتزيء بهذا الفتح العجيب عن ذكر فتوحات العرب للاندلس وجنوبي فرنسا وجنوبي ايطالية الخ وتهذيبهم أهالي جميع الممالك التي احتلوها وغلبوا عليها . فكما ان همجية أوربا لذلك العهد لم يكن السبب فيها الدين المسيحي ، فانحطاط الاسلام اليوم ليس السبب فيه الشرع المحمدي . وانما هي أدوار تتعاقب ، وتارات تتناوب ، وكل مملكة أوكل مدينة تطرأ عليها أحوال من داخلها ومن خارجها ، فتشقى وتسعد ، ثم تعود فتشقى ثانية ، ثم تعود فتسعد ثانية وهلم جرا . ولقد سعدت قرطاجنة ثم شقيت وكان دينها واحدا ، ولقد علت رومة في ايام الوثنية ثم سقطت في ايام النصرانية ، فهل كان الدين المسيحي هو السبب في سقوطها ؟كلا . ثم هذه اسبانية منذ اربعمائة سنة ، كانت اقوى مملكة وازهر مملكة ، وكانت اكتشفت اميركا وسارت في بسطة مستعمراتها نظير انكلترة الحاضرة ، ثم لم تزل ترجع الى الوراء حتى عادت كالعرجون القديم ، وصارت تعجز عن قبائل الريف ، ولما كانت في عنجهية عزها كانت نصرانية

ولما وصلت الى حالتها بقيت نصرانية . وكان التتر غالبين على الروس وملوك الروس يؤدون الجزية الى أعقاب تمرلنك احقابا متطاولة ، ثم أصبح التتر كلهم رعايا الروس ، وصارت الملوك الباقية لهم اتباعا وخولا لقيصر الروسيا ، ولما علا التتر كانوا مسلمين ولما انحط الروس كانوا نصارى ، والآن تغيرت الاحوال ، وكل باق على دينه . والدولة العثمانية الاسلامية وصلت الى بولونيه ، واستولت على المجر ، وحاصرت فينا ، وصارت ملاذاً لفرنسا وناهضت أوروبا باجمعها قروناً عديدة ، وكانت هي مسلمة ، وكانت أوربا نصرانية أكثر مما هي اليوم . فمن العبث ان نقول ان الدين المسيحي أو الدين الاسلامي ، هو سبب تأخر هذه المملكة أو تقدمها وانما التأخر أو التقدم تكون له مقدمات وأسباب تتراكم فتعمل عملها ، وناهيك ان اليابان امة شرقية وثنية ، بلغت باجتهادها وصدق عزيمتها ان ضارعت أقوى دولة أوربية لا بل ، قهرت اقوى سلطنة مسيحية وهي الروسية ، فلما كانت لم تزل في دور الانحطاط جاهلة مجهولة ، عللوا ذلك في أوربا بكونها أمة غيرأوربية ، وغيرمسيحية ، كايعللون اليوم أسباب تأخرممالك الاسلام فلما نهضت اليابان نهضتها هذه ، وكذبت فلسفتهم المبنية على الاهواء والمآرب ، لم يقدروا ان يدعوا ان اليابانيين تنصروا حتى أمكنهم ان يتقدموا ، ولولا تنصرهم لما بلغوا هذه الدرجة فزعموا ان اليابانيين وان لم يتنصروا فقد تفرنجوا ، ولولم يتفرنجوا لم يصيروا الى هذه الرتبة . وبعضهم لم يجرأ ان يقول ان اليابانيين تفرنجوا فقالوا ، ان اليابانيين قاموا بانقلاب اجتماعي في داخل بلادهم حتى رقوا هذا الرقي . ان هذا لعمري كلام فارغ ، فان كل أمة تعتمد على العلم والعرفان ، وتعمم المدارس في بلادها ، وتنشدالانوار من حيث أتت ، يحصل بها انقلاب اجتماعي بطبيعة الحال ، فاليابان نشدت العلم وأخذت ما عند الاوربيين من المعارف والفنون ولكنها بقيت شرقية في كل شيء ، بل بقيت على دينها مذهب سينتو مع مذهب بوذا ، لم تحد عنهما ، ويخطيء من يظن ان اليابان بعد ان تعلمت وترقت ، أصبحت بلا دين أو استخفت بالدين . فان كان من أهلها دهريون ، أو قائلون بالطبيعة ، أو بوجود قوة مبدعة فحسب ، فهؤلاء يوجد منهم في كل أمة . وبالاختصار فيمكن الاسلام ان يرقى رقي اليابان ورقي أوربا ويبقى مسلماً ولكن الفئة المستعمرة من الافرنج يريدون ان يلبثوا متسلطين على بلاد الاسلام ، فلايزالون يتمحلون لديمومة سلطتهم عليها أطاليل ومعاذير ، من جملتها ان الاسلام دين جمود أو مثار فوضى وخلل ، فلا يترك وشأنه ، كما كرر ذلك هذا الرجل عدة مرار كذباً ومينا .

ومن غريب ما رواه ان قسيسا عربيا من سورية جاء بلاد الجزائر وصارت له مكانة عند أبناء جلدته عرب الجزائر ، فأولو الامر من الفرنسيس هناك حرصا على عدم تنصير المسلمين طردوه من الجزائر ، والذي يظهر لنا ان كانت هذه الحكاية صحيحة ان هذا القسيس بسبب كون لغته هي العربية ، اراد ان يدخل مع المسلمين في مباحثات ومناظرات دينية ، وربما يكون تجاوز الجدل الى النيل من الاسلام مما أدى الى هيجان الافكار ، ورفع بعض المسلمين القضية الى أولى الامر ، فخافوا الفتنة وطردوا الكاهن المذكور وبرهنوا بطردهم اياه على عقل وحكمة . ولو أن داعيا مسلما دخل بين جماعة من النصارى الذين تحت حكم الاسلام ، وطفق يجادلهم في دينهم ويثير خواطرهم ، وكنت واليا في ذلك المكان لطردته ، وكان في ذلك عين المصلحة . اما قول هذا الفرنسوي ان الكاهن السوري كان عند ابناء جلدته عرب الجزائر

فهو غريب . فان الفرنسيس بعد دخولهم سورية جعلوا العرب غير السوريين والسوريين غير العرب ، واجتهدوا في اثبات كون السوريين هم من سلائل الآراميين والفينيقيين وانهم ليسوا من العرب ، حال كون السوريين هم في الاغلب من العرب الذين أوطنوا سورية قبل الاسلام وبعده ، والذين هم من أصل فينيقي هم عرب أيضا لثبوت هجرة الفينيقيين من جزيرة العرب والذين هم من سلائل الا راميين عدا كونهم ساميين ابناء عم العرب قد ذهب الاكثرون من محققي علم التاريخ في أوربا : ان آباءهم الآراميين جاءوا أيضا من جزيرة العرب مهد الامم السامية باسرها .

ثم ادعى انه لم تتسق للاسلام مدنية تذكر الا مدة قصيرة ايام الامويين بالاندلس والعباسيين في بغداد أي نحو ثمانمائة سنة في الاندلس ، ونحو خمسمائة سنة في بغداد .... فهذه الادوار رآها قصيرة لتعزيز برهانه الساقط ، مع انها أطول على كل حال من مدنية أوربا ، التي لم تبدأ الا منذ اربعمائة سنة وفي القرون الوسطى كانت كمدنية أوربا اليوم . وبعد ان اتهم الاسلام بالجمود والخمول ، وعدم القابلية للنباهة ، زعم انه أخذ اليوم يتوسل الى العلم ، ويجتهد في صنعة السلاح ، ولم يقف عند السلاح المادي بل تجاوزه الى السلاح المعنوي ، الذي هو الطبع والنشر وصارت له جرائد كثيرة في الشرق والغرب قائمة بدعوة اتحاد الاسلام . اذن الاسلام لم يكن جامدا كما يدعي هؤلاء الناس . ثم يتكلم على اسلام السودان وانه مشوب بخرافات فتيشية ويتفاءل بذلك خيرا ، واكثر هؤلاء على هذا النمط من التفاؤل بعدم تحقق السودان بالاسلام الحقيقي ، فلا أكاد أقرأ لكاتب أوسائح أوربي كلاما على اسلام الزنوج أو الجاوى أو الصينيين أو غيرهم ممن اسلموا حديثا الا رأيته يجتهد في اثبات كون اسلامهم ليس تاما ، وانه لا تزال عندهم عقائد وثنية أو عادات وثنية . وكأن هؤلاء الاوربيين يسلون انفسهم بذلك من قبيل ، اللهم اننا لانسألك دفع القضاء ولكن نسألك اللطف فيه . فعداوتهم لمذهب بوذا ومذهب سينتو ودين براهما ، بل لعبادة الصنم نفسه ، ليست بدرجة عداوتهم الاسلام ، الذي كله توحيد وتنزيه . واما قوله ان الزنجي لم يسلم الا لينال رفعة ، ولما كان يرى الاوربي اعلى من المسلم كان الاولى ان يتخذ دين الاوربي لنفسه . فنحن لا يسوؤنا أن الاسود الفتيشي يصير نصرانيا كما يسوء أكثر الاوربيين صيرورة الفتيشي مسلما ، لاننا نعلم ان النصرانيــة ترقي عقله وخلقه ، وترفع سويته الاجتماعية عما كان . ولكن الزنوج الفتيشيين بالرغم من جمعيات التبشير التي لا تعد ولا تحصى ومن نفوذ أوروبا الذي يكنفها سواء من الدول الكاثوليكيـة او البروتستانتية ، ومن « كون الاوربي هو أعلى وأقوى من المسلم » في نظر الزنوج ، فلا يزال هؤلاء يرجحون الاسلام ، ونحو ٤٠ مليونا من هؤلاء دانوا به في القرن الماضي ، وفي هــذه المدة ، بدون بعثات ، ولا جمعيات ، ولا دول تعضد الجمعيات . ولا ننكر ان كثيرين من هؤلاء الزنوج الفتيشيين تنصروا ، وقد احسنوا بذلك صنعا ، لكن هؤلاء فئة قليـلة في جانب الذين اسلموا كما يعترف بذلك سـياح الاوربيين ، الذين جالوا في افريقية وكتبوا عنها ، وانفس المبشرين والرهبان الملقبين بالرهبان البيض وغيرهم ، ممن كتاباتهم ملأت الدنيا بهذه القضية .

ثم قال : ان البلاد الضاربة في الشمال هي غير مساعدة على انتشار الاسلام فيها ، لأن طول النهار المفرط وقصره المفرط ، يحدثان خللا بمواقيت الصلاة ، فيتطارق الشك الى قلب المؤمن .

الى غير ذلك من التهكم والرقاعة مما كنا نحب ان لا نجاريه عليه لسخفه ، ولكن قلنا حيث اننا خضنا في هذا الموضوع فلنتناوله باطرافه فنقول :

ان أحكام الصلاة والصوم جعلت لأغلبية البلاد التي فيها النهار نهار والليل ليل ، ولا يضر تلك الاحكام بعض أقسام من الكرة هي من النادر الذي لا يعتد به . على ان الفقهاء قرروا أنه في مثل هذه الاصقاع النادرة ، التي يطول فيها النهار هذا الطول المفرط أو يقصر هذا القصر المفرط ، يكون العمل في الصلاة والصوم مقيساً عليه في أقرب بلد من تلك الجهات ، وانحل بذلك الاشكال ، وليس في الاسلام حرج بل هو أوسع واسمح مما يتخيله هؤلاء القوم أو مما يريدون ان يخيلوه لابناء جلدتهم . وان القرآن الكريم ليس بكتاب جغرافية ولا قوسموغرافية ، بل كتاب توحيد وتنزيه ، وتهذيب نفوس ، وتطهير اخلاق ، ومع هذا فلم يرد فيه شيء يخالف قواعد العلم بل وجدت فيه آيات بينات يحار غير المؤمن بالوحي من شدة مطابقتها للتحقيقات الحديثة سواء في علم الفلك ، أو في علم تكوين الارض ، مما كان في عهد نزول القرآن مجهولا ، وذلك مثل آية « أو لم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، تأمل ما في هذه الآية من الانطباق على جميع النظريات العلمية الحديثة التي معناها ان الارض والاجرام الفلكية كلها كانت كتلة واحدة فانفصل بعضها عن بعض ، وكذلك ان الحياة بدأت في المياه . ثم تأمل هذه الآية « وكل في فلك يسبحون » التي تثبت انه لا يوجد في الفلك جرم غير متحرك على الاطلاق مع أن الفلكيين في عصر القرآن كانوا يقولون بالسيارات والثوابت حتى التجأوا يومئذ عند تفسير هذه الآية الى التاويلات والاحتمالات البعيدة ، الى ان تقرر في علم الهيئة الجديد كون الاجرام الفلكية باجمعها متحركة ، وصدقت الآية بدون أدنى تأويل . وانظر الى قوله تعالى « من كل زوج بهيج » وكيف كرر ذلك مراراً حتى يفهم الانسان ان الخلق كله من حيوان ونبات وجماد ، مبني على الازدواج حتى النبات فيه ذلك ، والجماد فيه القوتان السلبية والايجابية مما لم يكن شيء منه معلوما في زمن البعثة ، فلم يفهم العلماء بعد مرماه الى أن تكفلت به التحقيقات العصرية ، وأمعن النظر في قوله « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب » مما هو المثل اللازم لكيفية دوران الأرض مع سكونها الظاهر وتدبر قوله « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » الآية التي يشير فيها الى القوة الكهربائية وغير ذلك من الآيات التي تدهش القاريء المتعلم ، بما فيها من الحقائق العلمية بشرط أن يكون ذا ملكة عربية ، يقدر بها أن يتدبر عمق غور تلك الايات لا أن يكون أجنبياً عن أدب العربية . وقد الف العلامة الفلكي العظيم ، المنقطع النظير في علم الفلك والطبيعة والتقويم المرحوم الغازي احمد مختار باشا كتاباً في تطبيق الآي القرآنية على العلوم العصرية ، جمع فيه نحو تسعين آية كريمة ، وأوضح ماجمعت من القواعد العلمية باوجز لفظ وأقصر تعبير يعجز عن مثله البشر ، كما أنه شرح هذه النظريات كلها حسبما اتفق عليه علماء العصر الحاضر ، وأخرج منها وجوه المطابقة طالعة كالشمس ، وبلغني ان أحد الضباط الاتراك ممن نبغ في علم الفلك والهيئة ، نبوغا باهراً قد الف كتابا ممتعا جليلا أجاد فيه الى الدرجة القصوى تطبيق قواعد هذا العلم على القرآن ، فعلمت بكتابه هذا بعض جمعيات التبشير المعروفة ، فأخذوا يراودونه في أن يبيعهم اياه بثمن

جبريل لاجل أن يحرقوه ، ويخفوا من الارض كتاباً فنياً يستدل به على فضل القرآن المجيد ، وانطباقه على العلم . وليس هذا ببعيد عن هذه الجمعيات المتهوسة . ولولا كوننا نتجانف عن المناقشات الدينية ، ونكرهها ونعتقد ضررها ، ونوجب حرمة الكتب السماوية التي تتمسك بها أديان محترمة كالدين المسيحي وشريعة موسى ، لأوردنا في مقابلة تهكم هذا الرجل بالقرآن أقوال العلماء المحققين من أبناء جلدته الفرنسيس ، في ابطال نظريات التوراة من جهة تكوين الارض وبدء الخلق ولكننا نؤثر اجتناب كل قول يمس عواطف هذه الملل الكريمة التي نرى أعظم خدمة للانسانية ايجاد الوئام بينها وبين الاسلام ، ولكن ان أبى الا المراء نحيله على كلام أكبر فلكي فرنساوي المسيو فلاماريون الشهير ، في خاطراته من صفحة ١٧٠ الى صفحة ١٧٨ حيث يذكر أنه كان مؤمناً معتقداً ناشئاً نشأة دينية ، وبقي كذلك الى الثامنة عشرة من عمره ، اذ بدأت تخالجه الشكوك وذكر أسباب هذه الشكوك وأظهر أن أصلها هو عدم الانطباق بين الفن والدين ، وأتى هناك على قصة كوبرنيك ، ثم غاليله الفلكيين العظيمين ، والحرم الذي صدر بحق الاول ثم الثاني . وان شاء التوسع في ذلك فليقرأ كتاب « اختلاف العلم والدين » للعلامة درابر الأميركاني وغيره مما لاشأن لنا فيه ، لأننا نحن هنا في مقام سياسي لانحب أن نخرج منه ولأننا نكره المناقضات الدينية ، ولسنا على رأي التهافت على الكتب السماوية بالانتقاد والتخطئة كلما وردت فيها عبارة تخالف قاعدة علمية أو حقيقة فلكية قمنا نفندها ، فأن هذه الكتب انما هي لغرض آخر أخروي ، ولابد من أن ينظر فيها الى طاقة العوام في الفهم والآفات الغرض المقصود منها ، فضلا عما في آيات هاتيك الكتب المقدسة من الكنايات والمجازات المألوفة في اللغات التي جاءت بها ، فلا بد لقارئها من أن يلحظ هذا الامر .

ثم قال ان الاسلام لم يوجد ليمتد الا في صحاري آسية الواسعة التي تتجلى فيها عظمة الله ، ولايصلح بين الأنهار والشجر الكبار التي تجد الافق بينها ضيقا كما في بلاد خط الاستواء حيث تصعب معرفة القبلة . وأيم الله قد وصل هذا الكاتب من الرقاعة ، الى حد أن صار الانسان لايتنزل الى الجواب على كلامه أصلا ولقد ثبت أن الاسلام منتشر في خط الاستواء أكثر من كل مذهب آخر ، ولكن قد ظهرت نيته من هذه المماحكات ، وهي أن يحمل الحكومة الفرنسوية على عدم الاعتراف باسلام السود ، ومعاملتهم كزنوج فتيشيين تتصرف الحكومة بهم كما تشاء في العقيدة كما أنه يوجد في جزيرة مادغسكر قبائل كثيرة أسلمت بواسطة الطارئين على تلك الجزيرة من عرب زنجبار وجزر القمر ، فلم تشأ الحكومة الفرنسوية المسيطرة على الجزيرة أن تعرفهم بصفة مسلمين ، بل بقيت تعدهم وثنيين ولاتعتبر مسلمين الا المسلمين الغرباء النازلين بالمواني ، وما المقصود من انكارها اسلامهم الا التعرض لهم في عقائدهم وردهم عن الاسلام قسرا .

ثم لأجل ترغيب الحكومات الاوربية في تنصير الزنوج ومنع انتشار الاسلام قال ، ان اقلية ذات بال من السنيغال صارت مسيحية ، وان أهالي الاوغانده صاروا كلهم نصارى ، فليس الاسلام هو الدين الطبعي للسود كما يقال دائما . ونحن نجاوبه انهم ان كانوا نصارى ، فهو أفضل جدا عند الاسلام من أن يبقوا فتيشيين يعبدون الوثن أو النار أو مظهرا من مظاهر الطبيعة فان النصرانية تزلفهم من الانسانية وتبعث فيهم روح الفضيلة ، وتنتاشهم من ذلك

التوحش الذي كانوا فيه . وذلك بخلاف مايتمنى كثير من الاوربيين ، الذين أعمى الغرض قلوبهم من أن يبقى الزنوج على الفتيشية ولايصيروا مسلمين ، مع أنهم في دخائل ضمائرهم يعلمون مزايا الاسلام العالية ورغبة أهالي افريقية فيه أكثر من غيره . أماقوله انجميع أهالي الاوغانده صاروا نصارى ففيه مبالغة وهو مثل قوله ان بلادا باسرها مثل هرر صار أهلها نصارى . وهاك ماورد عن الاوغانده في السيكلوبيدية المسيو موريس فال Maurice wale التاريخية الجغرافيسة ومؤلفها من فحول علماء فرنسا ، وهو مفتش المعارف العمومية في المستعمرات أي خبير باحوالها فهو يقول عن الاوغانده : « انها قطر في الشمال الغربي من بحيرة فيكتوريا نيانزا ، مساحتها ١٥٠ الف كيلو متر مربع وأهلها مليون نسمة ، قد حصلت فيها قلاقل على أثر موت الملك متيزا بسبب المناظرات الدينية بين المسلمين والكاثوليك والبروتستانت ، وقد تغلب البروتستانت على الآخرين بعضد ضباط الانكليز لهم ' والاوغانده هي تحت حماية انكلترة » انتهى . قلنا ان الانكليز اقتطعوا الاوغانده من أصل السودان المصري استبدادا من عند أنفسهم وضموها الى مستعمراتهم ، ولم يرضوا ان يبقوها من جملة السودان المصري ، لان السودان المصري هو بزعمهم تحت حكم مشترك بين انكلترة ومصر فالانكليز مضطرون ان يقبلوا ولو بالاسم بقاء حصة لمصر في حكم السودان المصري ، لكنهم يريدون ان ينفردوا وحدهم بملك الاوغانده ، وقد عززوا البعثات البروتستانية هناك بكل قوتهم ، ولكنهم لم يقدروا أن يستاصلوا الاسلام من تلك الارض . واما عن هرر فيقول المسيو فال انه قد افتتحها منليك نجاشي الحبشة سنة ١٨٨٧ ' وكانت من سنة ١٨٧٥ تابعة لمصر ، وان أهلها ٣٥ الف نسمة مسلمون شيعة . اما في دائرة المعارف الاسلامية فيقول ان اهلها ٥٠ الف نسمة ، منهم الثلث من أهل البلاد الاصليين ، والباقون بين سوماليين واحباش وهنود وسوريين وارمن وروم واوربيين . الى ان يقول ان الاسلام دخل هرر منذ سنة ١٠٠٠ للمسيح ' فهو فيها قديم جدا ، ولايزال يطرأ عليها الناس من جزيرة العرب ومصر ويبثون دعوة الاسلام من هرر في بلاد غالا Galla الوثنية ' وقد نقصت هذه الدعوة قليلا بعد مجيء الحبش المسيحيين ، لكن مسلمي هرر لايزالون معدودين من المتشددين في دينهم » وقد ذكر المسيو موريه Morié الفرنساوي في كتابه تاريخ الحبشة المطبوع سنة ١٩٠٤ ' ان الامبراطور منليك بعد أن فتح هرر وبدد جمع الأمير عبد الله علي عبد الشكور ، هدم الجامع الأعظم في هرر وأقام محله كنيسة . ولم يقل ان أهل هرر تركوا الاسلام ، ولا أحد قال انهم تركوه .

ثم قال انه كان عمل المبشرين شاقا في البلاد الاسلامية ، فهذا من أجل كونهم يحاولون وضع عقيدة امم راقية جداً محل عقائد أقوام هم في أدنى الدركات . فنحن نمسك القلم عن الرد على هذه الفقرة التي لاتدل على شيء سوى قحة كاتبها على حب ان الاسلام يهزأ بهذه المطاعن . على ان لابون يجعل نصرانية القرون الاولى (أي النصرانية التي هي قريبة العهد من السيد المسيح والحواريين) ايضا من قبيل الاسلام في ملاءمته للمستوى العقلي المنخفض ، فليتأمل الانسان وليتدبر في قحة هؤلاء الناس حتى على الدين الذي ينتمون اليه ، ويريدون بث دعوته بزعمهم .

وبعد ان أشار بالتضييق على التعليم الاسلامي ، ومراقبة من يواظب على صلاته من مسلمي

السينغال ، وبين مضار الحج ، وحرض على جميع هذه التدابير ، التي يعلم منها مبلغ احترام هؤلاء القوم للحرية الدينية ، عاد فأشار بالطرق الآيلة الى قلع اللغة العربية من شمالي افريقية ، وجعل الفرنساوية لغة الأهالي .

ومن الغريب انه استشهد على وجوب هذه الطريقة ، بكلام بول برت الذي يقول ، ان حل المسئلة العربية هو بالكتاتيب ، وأتمنى أن أرى في كل قرية من قرى المغرب معلما عربياً ومعلما فرنسويا · فكلام بول برت كلام رجل عاقل مجرب لاغبار عليه ، وليس منا من يكره أن يتعلم مسلمو المغرب وافريقية اللغة الفرنسوية ، بل نود ذلك من صميم أفئدتنا . وانما الذي يعارضه المسلمون بكل قوتهم هو ان تحل اللغة الفرنسوية محل اللغة العربية وتصير هي لغتهم القومية ، اذ لايوجد في الدنيا قوم يرضون بسلب لغتهم مهما كانت ، فما ظنك بالناطقين بالعربية التي يفتخر بها كل منسوب اليها ، ويجل قدرها حتى الغرباء عنها . وأما استشهاده بانتشار اللغة الفرنسوية في الشرق وزعمه أنه قد تعلمها الأكراد والترك والعرب والارمن والكرج الخ ، فمع كونه بالغ في دعواه هذه مبالغة عظيمة ، اذ ليس الأمر كما يقول ، وان تعلم الفرنسوية منحصر في الطبقة الراقية فقط ، فانه لاينطبق على الغرض الذي يتوخاه ، لأن مقصود هذه الفئة المستعمرة أن تمحو اللغة العربية تدريجا من المغرب ، وتحمل الناشئة الاسلامية منذ الصغر على اللغة الفرنسوية توسلا بذلك الى محو الاسلام ، القائم هناك باللغة العربية . مع ان الامم الشرقية التي يذكر أنها كلها تعلمت اللغة الفرنسوية لم تجعل هذه اللغة لسانها القومي ، بل جعلتها في مقدمة اللغات الاجنبية التي يناسب تعلمها لاغير ، فلذلك لم يحدث من تعلم الفرنسوي أدنى محذور مادام تعلماً اختيارياً لايضر باللغات القومية ، بل يزيدها علماً . ولكن متى حاولت فرنسا عمداً وقصداً قلع اللغة العربية رأسا أو تدريجا ، وقصر المغاربة على الفرنساوي ، قامت عليها القيامة في جميع تلك الاقطار وفي غيرها ، وأظن أن العقلاء في فرنسا يدركون استحالة ذلك .

ولقد تقدم في هذه المجالة مايكفينا مؤونة الرد على سائر كلامه ، الذي تجده كثيراً ماينقض بعضه بعضا ، ومن جملة تناقضاته انه بعد كل حملاته الشديدة على الاسلام يقول انهم لايحذرون في تونس من عامة الأهالي الراتعين في السعادة والامان (كما هم راتعون أهل سورية الآن . بل أهل سورية لايزالون أسعد حالا ، لأن اليد لما تمتد الى غصب أراضيهم وأوقافهم) ولايحذرون من الاسلام نفسه ، الذي أعلى نفوس هذه الاقوام ، حتى تحملت ماتحملته من الخسائر الفادحة . فعرف هنا ان الاسلام يعلي النفوس ، وينهض بالهمم . قال ولكنهم يحذرون من تلك الطبقة المتعلمة الذين قرأوا أشياء فساءت هضمها عقولهم . ولعمري ما من امة في الارض قام بتحريرها الا نبهاؤها والطبقة المتعلمة منها فلماذا اذا قام الأروام أو البلغار أو الصرب أو الارمن أو الكرج الخ ، بطلب استقلالهم كانت الطبقة الناهضة منهم محل اعجاب اوربا وثنائها ، وعطفت جميع تلك الدول المتمدنة عليها ، فاذا جاء الدور الى امة مسلمة تطلب تحريرها ، قامت اوربا سداً في وجه مطالبها ولو كانت هي اليوم أرقى من هاتيك الامم عند ما نهضت للاستقلال ؟ لماذا كل ماهب قوم من الشرقيين والمسلمين لطرح نير العبودية عن أعناقهم رموا بالتعصب والتعنت ، وكراهية الاوربيين ، وقيل ان ذلك هو من عمل القرآن في قلوبهم ، ومن تحريض رجال الدين . وان كان المطالبون منهم هم من الفئة التي طلبت العلم في اوربا ،

واتصفت بعدم التدين ، قيل انهم طبقة قد قرأت أشياء لم تحسن هضمها ، هذه الجملة التي لانزال نجدها في كلامهم بكرة وأصيلا ، كلما تكلموا عن امة اسلامية أو شرقية يطالب نبهاؤها بتحريرها قالوا عنهم هذه الجملة : قرأوا أشياء أساءوا هضمها .

اجمال الكلام انهم غلبوا على هذه المستعمرات واستعبدوا هذه الامم ، فيريدون ان يحتاطوا لأجل تأبيد سلطانهم عليها بجميع الوسائل ، ولايقفون عن شيء في سبيل احكام سلاسل هذه العبودية ، ظانين أنهم يحفظونها راسخة في هذه الاصفاد الى الأبد ، فتراهم يفكرون في تهيئة الأسباب لاستئصال كل ما يخشون وقوفه في وجه ما ربهم السيئة ، من دين ، ولسان ، وقومية ووطنية وماهم بقادرين على شيء من هذه المكايد الشيطانية ، التي لايزيدهم استعمالها الا خبالا . وان كان ثمة أمل بحسن العلاقات وتمكن الالفة بينهم و بين تلك الامم ، فلا يكون الا بسياسة العدل والمساواة ، واحترام دياناتهم ولغتهم ، والعدول عن تلك الاساليب الاستعمارية الخبيثة مماهو برنامج أحزاب الشمال منهم .

وان كان ظن هؤلاء الجماعة ان تنصير السودانيين أو المغاربة ، يؤمنهم أبديا على تلك المستعمرات ، ويكفيهم شر استقلالها مما صرح به بقوله : « لسنا في الجزائر كالانكليز بمصر ، اذهم يعتمدون فيها على اقلية قبطية » . فهذا وهم عريق في البطلان ، لان هؤلاء الامم سواء كانت مسلمة أو نصرانية ستطلب استقلالها وتأخذه وأنت ترى ان امما كثيرة ثارت على امم كانت تسودها ، ولم يمنع من ذلك اشتراك السائد والمسود في الدين ، ولديك امبراطورية النمسا أعظم شاهد ، وان قيل ان ذلك يكون في اوربا المتمدنة لافي افريقية ، أتينا لك بمثل الحبشة مع انكلترة ، ثم مع ايطاليه ، أفتحمات الحبشة حكم الطليان لكونهم نصارى وكونها هي نصرانية ؟ كلا . ثم يقول لسنا كالانكليز الذين يتوكأون بمصر على اقلية قبطية . فهذه لعمري مكابرة في المحسوس ، اذ يكاد أن يكون الاقباط بمصر أشد تمسكا باستقلال مصر وجلاء الانكليز عنها من أنفس المسلمين ، فأي توكؤ توكأته انكلترة عليهم ؟ وأعجب من هذا أن الزنوج الذين تنصروا في غربي افريقية يكرهون الاوربيين كما يكرههم الزنوج المسلمون وتجد الفريقين متحابين يود بعضهم نجاح بعض ، وقد تلاق بعض المسلمين مع بعض كبار السودانيين النصارى في لندن ممن هم حكام في بلادهم تحت سيطرة الاوربيين ، فوجدهم يتمنون فوز المسلمين كما يتمنون فوز أنفسهم . وفي العام الماضي تقابلنا في جنيف باثنين من رجال جمهورية ليبريا في غينية (افريقية الغربية) وكانا من الاوربيين يمثلان ليبيريا في جمعية الامم ، فأخبرانا ان هذه الجمهورية التي تأسست سنة ١٨٢٢ للعبيد الذين تحرروا في أميركا ، واعترفت الدول باستقلالها سنة ١٨٤٧ ، يسكنها اليوم مليون ونصف مليون نسمة ، منهم مليون ومائتا الف مسلم ، وثلاثمائة الف مسيحي وبينهم ٥٠٠ اوربي فقط . والمسلمون والمسيحيون هناك يعيشون كالاخوة ، ويغارون جميعا على وطنهم . فهذا سيكون مصير افريقيه في يوم من الأيام بازاء المستعمرين ، ولاينفع الاهالي كون أهل افريقيه من هذا الدين أو ذاك الدين .

ولنأت بشاهد آخر على نيات الفرنسيس بحق مسلمي مستعمراتهم ، وهو كتاب للمسيو ريفيه J. Brévié والي بلاد النيجر الفرنساوي ، الذي عليه صفة رسمية ولا يمكن احداً ان يماري بقوله انه كاتب منفرد برأيه الخاص ولا انه خال من الصبغة الحكومية ، فانظر ماذا

تقول جريدة الاوفر L'œuvre ، المعروفة أنها من الجرائد الحرة ومن حزب الراديكال في عددها المؤرخ في ٢٢ يونيه سنة ١٩٢٣ . تحت عنوان :

الجنس الاسود والاسلامية

قد نشر المسيو بريفيه حاكم مقاطعة النيجر كتاباً ممتعاً ، يشرح فيه المقاومة الناجعة التي تبديها الامم السوداء للاسلام في السنين الاخيرة ، حال كونه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، غلب الاعتقاد بأن جميع الاجناس الزنجية صائرة الى الاسلام لا محالة ، فالآن مشهودة حركة بالعكس ، وبالرغم من الوعظ والارشاد اللذين يقوم بهما المبشرون المسلمون ، تجد الزنوج متمسكين بعقائد آبائهم وعادات اسلافهم .

فالمسيو بريفيه في كتابه المسمى « الاسلامية ضد الطبيعية . في السودان الفرنساوي » Islamisme contre Naturalisme au Soudan Français يعترف انه مهما كان من تدني الفتيشيين في درجات الحضارة فليس من المستحيل عليهم الترقي والتمدن ضمن دائرة قوميتهم وخارجا عن الاسلام . ففي السنين الاوائل من استيلاء فرنسا على غربي افريقية كان عمالنا بسبب معرفتهم المدنية الاسلامية يميلون الى دعاة الاسلام الذين امكنهم هكذا ان يبثوا بكل امان تعاليم هي في الظاهر ارقى من عقائد الفتيشيين (تأمل) اما الآن فتقهقر الدعوة الاسلامية ، امر لم يبق فيه شك . وان احصاء عدد الناشئة المتعلمة من المسلمين يتناقص في بلاد النيجر ، كما انه لم يتقدم الى الامام في سائر البلدان التي امتد اليها الاسلام من قبل . وقد عزا المسيو بريفيه هذا التقهقر الاسلامي الى تناقص عدد الزعماء ، والى تزايد عدد مدارسنا التي زاحمت مدارس المشايخ المرابطين ، والى الغاء تجارة الرقيق التي هي من الاركان الاقتصادية عند تجار المسلمين ، والى الامر بعدم مراجعة قضاة الشرع .

فالآن سياستنا عاملة بهذه المبادىء ، وقد توزع بلاغ على مأموري الادارة مصرح فيه بما يأتي : « يجب التزام الحياد مع الانتباه التام بحيث ان كلا من فريقي الاسلام والفتيشية يمكنه ان يترقى وينمو في وسطه بدون تسلط هذا على عقيدة هذا » .

وقد وجد الانسب حفظ تلك الهيئة الاجتماعية ، التي كان لها في الماضي زعماء تمثل عاداتها ، والتي هي الصورة الحقيقية لمنزع ذلك العرق الاسود وابقاء تشكيلاتها البلدية المبنية على مبدأ المشيخة ، والعمل بأحكام قضاتها ، الذين كان يضرب بعدلهم المثل حتى يقال في الحكم الذي قد استوفى شروطه : « هذا حكم من أحكام البامبارة القدماء » .

والحقيقة ان الغرض هو احياء عادات الزنوج القديمة وتقاليدهم الموروثة التي نشأوا عليها ويقول المسيو بريفيه : « انه يوجد من ذلك قواعد قضائية كافية لاجل حل المشكلات الاجتماعيه وفصل الخصومات الفردية ، وهي من وجوه كثيرة لا تقل متانة عن الشرع الاسلامي . وانه يجب علينا ان نجمع تلك الهيئة الاجتماعيه ، التي توشك ان تنحل ، والتي هي متفرقة اشتاتا حول تلك الاصول القديمة . انتهى .

فليسمح لنا القارىء ان نأخذ من هذا الكلام النتائج الآتية :

أولا ، ان كتاب حاكم مقاطعة النيجر الفرنساوي ، والمنشور الرسمي الذي أشار بصدوره

الى مأموري الادارة يدلان دلالة واضحة على كون فرنسا قد بدأت تقاوم انتشار الاسلام بنفوذ الحكومة ، وان عبارة وجوب الحياد مع الانتباه لمنع تسلط عقيدة أمة على أخرى ، هو من قبيل التمويه ، فانه ولا في وقت من الاوقات تسلط الاسلام بالقوة في المستعمرات الفرنسوية على عقائد الفتيشيين ، كما انه ولا في وقت من الاوقات روج عمال الحكومة الفرنسوية في المستعمرات الدعوة الاسلامية ، بل غاية ما هنالك ان عمال الادارة الفرنسوية لم يكونوا يناصبون الدعوة الاسلامية العداء ظاهراً ولم يجتهدوا في منع انتشارها كما هم مجتهدون اليوم ، وذلك كان منهم عملا بمبدأ الحرية الدينية المشهور ، فالآن لما هالهم تقدم الاسلام بين الزنوج قرروا توقيف نموه فعلا ، بحجة أنهم لا يسمحون بتسلطه على عقائد الفتيشيين . وتحت هذه الجملة « منع تسلط عقيدة على اخرى » ، يعملون ما يشاءون لمنع المشايخ المرابطين من بث دعوة الاسلام بين السودانيين ، واقفال المدارس التي يمكن ان يفتحها المسلمون في قرى الوثنيين ، وغير ذلك من التدابير التي ليس على الفرنسيس فيها من رقيب ولا حسيب هناك ، ولا ينتظر القارىء أن يجدها مكتوبة على الورق وان كانت جارية بالعمل . ولا شك ان اغتباط حاكم النيجر بعدم تقدم الاسلام ، في هذه السنوات الاخيرة فيما بين الزنوج ، وتفاؤله بحسن المستقبل ، هما من آثار التدابير الحكومية التي اتخذتها فرنسا لمنع انتشار الاسلام ، والتي يشير بها روجر لابوف وأمثاله ، لوقف الدعوة الاسلامية في غربي افريقية وأواسطها . ولقد ظهر هنا اننا كنا على صواب في قولنا ان آراء روجر لابوف لم تكن آراء فرد مستقل بفكره ، بل هي آراء الحزب الاغلب بفرنسا بدليل كتاب المسيو بريفيه هذا ، والاوامر الرسمية الصادرة في هذا المعنى .

ثانياً ، يظهر جيدا من قول الحاكم المذكور ، وكلام جريدة الاوفر ، أن الفرنسيس عولوا على احياء عادات الفتيشيين وعقائدهم ، واجراء الاحكام بموجبها ، ومعلوم انه لم يكن ذلك اعجابا بها ولا اعتقادا بانها تشبه الشريعة الاسلامية في شيء ، بل من باب اختيار أهون الشرين عليهم ، فانهم لما رأوا دعوة التبشير الاوربي غير ناجحة بين الزنوج كما يرومون ، وانه لا نسبة بين ما يكسبه الاسلام وما تكسبه النصرانية في افريقية ، بسبب كون الاسود يكره الاوربي فطرة وينفر من تقليده في دينه ، عادوا فرأوا ان بقاء الفتيشيين على عقائدهم الوثنية هو أوفق لمصلحة فرنسا من تدينهم بالاسلام ، فوجدوا الاحزم ان يعملوا لتأييد الفتيشية ، ويجعلوا عاداتها وعرفها قوانين جارية معمولا بها ، ويعترفوا باقضية الفتيشيين ، وبالجملة فكل شيء يهون عند الاوربي — الا النادر الاندر — بالنسبة الى فوز الاسلام ونجاح دعوته .

ثالثاً ، من كلام المسيو بريفيه يتبين انهم بدأوا بقصر القضاء الشرعي الاسلامي ، لقوله ان من جملة أسباب تناقص النشء الاسلامي ، هو « الامر بعدم مراجعة قضاء الشرع » فانت ترى ما في ذلك من الاخلال بمبدأ الحرية الدينية ، ومن معارضة المسلمين رأسا بامور دينهم ، على حين ان الفرنسيس في الوقت نفسه يريدون احياء أقضية الوثنيين ، ويجعلون اصطلاحاتهم القديمة قوانين واصولا يرجع اليها في الاحكام . ولا يبعد ان يكونوا قد اجبروا أنفس المسلمين على مراجعة قضاة الوثنيين توهينا لنفوذ الشريعة الاسلامية ، الذي هو هدفهم المرمي المتجلي وراء كل حركة من حركاتهم وتدبير من تدابيرهم . وان لم يكونوا اجبروا جميع

المسلمين على ذلك ، فلا بد أن يكونوا ساقوا الى ذلك الزنوج ، الذين أسلموا حديثا ، لانه ظهر ان الحكومة الفرنسوية عولت على ان لاتعترف باسلام من يريد أن يدخل في الاسلام من الان فصاعداً من الامم السوداء ، وقد اسلمت قبائل كثيرة في مادافسكر ، فلم ترض السلطة الفرنسوية في تلك الجزيرة ان تحصيها في المسلمين ، ولا أن تعتدّها مسلمة بوجه من الوجوه ، واحتجت لعملها هـذا المخالف لكل حرية دينية ، بأن اسلام تلك القبائل هو خليط بعقائد وثنية . وربما يكونون اجبروا على التقاضي عند قضاة القبائل الوثنية من كان قد أسلم من هاتيك القبائل بحجة انهم كلهم من أصل واحـد ، فأمة « البامباره » هذه المنتشرة في السودان الفرنساوي ليست باجمعها وثنية ، بل منها قسم كبير لا سيما أهل كارتا Kaarta مسلمون . والا فما معنى قول المسيو بريفيه أن من جملة أسباب تناقص الناشئة الاسلامية ، الامر بعدم مراجعة قضاة الشرع الاسلامي ؟

رابعا ، قد نوه المسيو بريفيه حاكم النيجر وتابعته جريدة الاوفر بمحاسن قضاء البامباره ، ومتانة اصولهم وأوضاعهم ، وظهر أن الفرنسيس يريدون ان يجعلوها دساتير للاحكام وصرح الحاكم المذكور انهـا لا تقل عن الشرع الاسلامي متانة ، وغير ذلك من المزاعم التي حملهم عليها مجرد رغبتهم في منع العمل بالشريعة الاسلامية . والحقيقة انه ليس عند البامباره شيء من هـذا ، فالبامباره جيل من السودان الفرنساوي يحد بلادهم شمالا السودان الذي يسكنه المغاربة من كرلودوغو Kulodugu الى تامباكاره Tambakara وجنوبا السنيغال الاعلى من مدين Medine الى بافولابه Bafoulabe أي بين ١٢ الى ١٤ من العرض الشمالي و ٦ الى ١٠ من الطول الغربي (من باريز) وهم أهم أجيال الجنس الماندي . وقد وصفهم السياح الاوربيون بالعمل والحرص ، والاقتصاد ، أما عاداتهم وأوضاعهم ففطرية ، اذ الاب هو رئيس العترة والمتصرف بها كما يريد ، والاولاد الى سن الرشد ارقاء له ، وهو يزوج بنته بدون علمها كما ان البنت متى تزوجت صارت أمة لبعلها ، والطلاق عندهم مباح ، كذلك تعدد الزوجات ، والارث ينتقل من الاخ الى الاخ . وكانوا ينقسمون الى طبقات ثلاث ، الاشراف وهم المحاربون ويقال لهم تونتيغي ومعنى تونتيغي قوّاس ، ثم الفلاحون ، ثم العبيد ، أما الان فيرأسهم الأسر الملوكية القديمة مثل بني « كاروبالي » و « دياره » و « ماساسي » ويأتي بعدهم طبقة يقال لها « نومو » أي الحدادون ، ثم طبقة يقال لها « غارانغوي » أي صناع الجلد ، ثم طبقة السحرة ، ثم الارقاء . وكل قرية من قراهم ، لها زعيم يفصل فيها الخصومات بموجب اصول يتوارثها الخلف عن السلف . وهـذه القرى المرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً واهياً لا تشتد أواخيه فيما بين البامباره الا عند قتال عدو عام ، كما حصل في حروبهم مع الاسلام . وللبامباره لغة اسمها « البامانا كا » هي من جملة لغات امة الماندي ، وهي في منتهى الاختصار ، فليس من حالات للاسماء ولا للافعال ، بل هي تلزم حالا واحدة في المفرد والجمع والمذكر والمؤنث والحاضر والماضي والمستقبل . والكتابة عندهم قليلة وانما يستعملون لها الحروف العربية ، وليس للغتهم آداب ، وانما هي أخبار وقصص لا تنتهي الى أبعد من القرنين الاخيرين ، وبعض اغاني يرقصون عليها . وأما ديانتهم فهي وثنية محضة ، وكل عائلة عندهم لها حيوان معبود اسمه تنه Tenne لا يقدرون ان يقتلوه ، ولا أن يأكلوه ، ولا أن

ينظروا اليه اجلالا له . ويعتقدون أن الاسلاف ، هم حافظون للاخلاف ، لذلك يدفنون موتاهم في دهاليز بيوتهم ، ويضعون اشارات على مدافنهم كصور وجوه أو أيد ، ويقدمون عليها القرابين ، ومن قبل كانوا يذبحون الاسرى . وكثيراً ما يعبدون أشجاراً يذبحون أمامها الحيوانات قربانا ، من غنم وكلاب وديكة ، وربما قدموا لها الفواكه والحبوب . وهم يسيجون مثل هذه الاشجار المقدسة بالعليق . وأما السحرة ، فهم عندهم بمثابة الكهنة يخرجون من طبقة الحدادين . ولهم جمعيات سرية ، ويتكهنون بالمغيبات ويفحصون احشاء الحيوانات التي تقرب بذبحها ، ويطوفون في الليالي بين القرى مرتدين البسة مخيفة يقصدون بها القاء الرعب . وليس للبامبارة تاريخ معروف سوى انهم كانوا من جملة الاجيال التابعة لسلطنة مالي الاسلامية ، فلما سقطت هذه السلطنة أصبحوا مستقلين بانفسهم ، وأسس أحد زعمائهم المسمى « كالاديان كوروباري » على البلاد الواقعة على ضفتي النيجر مملكة واسعة ، وقام من بعده أولاده فتنازعوا فيما بينهم حتى آل الملك الى أحد احفاده المسمى « بيتو » ، فجمع تحت حكمه جميع بلاد البامباره وملك مدة ٣٠ سنة ، وخلفه ابنه فوسع ملكه ، ثم جاء ملك اسمه « نغولو » فبسط ملكه حتى حدود تمبكتو . وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر كان منهم ملوك اعزة في « سيغو » و « مانسونغ » و « دودياره » تغلبوا على بومبارية « كاآرتا » وضربوا الجزية على أهل « ماسينا » و « فوتا » (١٨٣٠) ، وكان لهم امارة أخرى في « السكاآرتا » اسسها في أواسط القرن السابع عشر « ساكابا » بن كالاديان كاروباري ، ثم انتقل الملك من أعقابه الى امارة اخرى صاحبها « سيه ماسا » استمرت في أعقابه الى أواسط القرن التاسع عشر في « نيورو » هذا هو ملخص تاريخ البامباره .

وفي أواسط القرن التاسع عشر ، ظهر الحاج عمر الشهير ملك « التيكولور » ، فاستولى على السكاآرتا وأزال ملكها ، وزحف الى مملكة سيغو ، وكان ملكها قد تحالف مع ملك ماسينا لصد الاسلام ، فسقط كلاهما ودخل الحاج عمر الى سيغو في ١٠ مارس سنة ١٨٦١ وأقام بكر أولاده ملكا عليها . ولكن البومباره انتفضوا عدة مرار على المسلمين ، وفاز منهم قوم « البليديغو » بالاستقلال ، وقطعوا ما بين سلطنة التيكولور ومملكة سيغو ، ودام ذلك النزاع الى سنة ١٨٩١ ، اذ وصلت الجيوش الفرنسوية واحتلت البلاد وازالت سلطنة التيكولور الاسلامية . وجاء في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسوية ، أن البومباره يمثلون في السودان الفرنساوي ، العنصر المخاصم للاسلام . وقد أيد هذا القول كلام حاكم النيجر في كتابه السابق الذكر ، وسياسة الحكومة الفرنسوية التي يظهر انها تريد انعاش العداوة التي كانت عند هذه الامة للاسلام . وتجعل البامباره سداً في وجه المسلمين . فأما الاصول والعادات التي أشار المسيو بريفيه الى متانتها من تقاليد البومباره ، فقد مر بك من جمالها ما تعلم به انحطاطها وانحطاط عقائد أولئك القوم ، الذين يعبدون الحيوان والشجر وما أشبه ذلك ، ولا يخجل المسيو بريفيه من أن يقول : « انها لا تقل عن الاسلام متانة وان تعاليم الاسلام هي — في الظاهر — أرقى من تعاليم الفتيشيين » . ومتى كان الوالي من ولاة الفرانسيس على تلك الديار ، يبلغ به التعصب وموت الضمير حد أن يقول مثل هذا القول ، فماذا تأمل من عدله وانصافه بين هاتيك الرعية . . . .

خامساً ، تحقق هنا بالرغم من تمويه الامر الرسمي الذي يوحي بالمساواة ، أن فرنسا تحاول ه الث

المسلمين على ذلك ، فلا بد أن يكونوا ساقوا الى ذلك الزنوج ، الذين أسلموا حديثا ، لانه ظهر ان الحكومة الفرنسوية عولت على ان لا تعترف باسلام من يريد أن يدخل في الاسلام من الان فصاعداً من الامم السوداء ، وقد اسلمت قبائل كثيرة في مادغسكر ، فلم ترض السلطة الفرنسوية في تلك الجزيرة ان تحصيها في المسلمين ، ولا أن تعتدّها مسلمة بوجه من الوجوه ، واحتجت لعملها هذا المخالف لكل حرية دينية ، بأن اسلام تلك القبائل هو خليط بعقائد وثنية . وربما يكونون اجبروا على التقاضي عند قضاة القبائل الوثنية من كان قد أسلم من هاتيك القبائل بحجة انهم كلهم من أصل واحد ، فأمة « البامباره » هذه المنتشرة في السودان الفرنساوي ليست بأجمعها وثنية ، بل منها قسم كبير لا سيما أهل كارتا Kaarta مسلمون . والا فما معنى قول المسيو بريفيه أن من جملة أسباب تناقص الناشئة الاسلامية ، الامر بعدم مراجعة قضاة الشرع الاسلامي ؟

رابعا : قد نوه المسيو بريفيه حاكم النيجر وتابعته جريدة الاوفر بمحاسن قضاء البامباره ، ومتانة اصولهم وأوضاعهم ، وظهر أن الفرنسيس يريدون ان يجعلوها دساتير الاحكام وصرح الحاكم المذكور انها لا تقل عن الشرع الاسلامي متانة ، وغير ذلك من المزاعم التي حملهم عليها مجرد رغبتهم في منع العمل بالشريعة الاسلامية . والحقيقة انه ليس عند البامباره شيء من هذا ، فالبامباره جيل من السودان الفرنساوي يحد بلادهم شمالا السودان الذي يسكنه المغاربة من كرلودوغو Kulodugu الى تامباكاره Tambakara وجنوبا السنيغال الاعلى من مدين Medine الى بافولابه Bafoulabe أي بين ١٢ الى ١٤ من العرض الشمالي و ٦ الى ١٠ من الطول الغربي (من باريز) وهم أهم أجيال الجنس الماندي . وقد وصفهم السياح الاوربيون بالعمل والحرص ، والاقتصاد ، أما عاداتهم وأوضاعهم ففطرية ، اذ الاب هو رئيس العترة والمتصرف بها كما يريد ، والاولاد الى سن الرشد ارقاء له ، وهو يزوج بنته بدون علمها كما ان البنت متى تزوجت صارت أمة لبعلها ، والطلاق عندهم مباح ، كذلك تعدد الزوجات ، والارث ينتقل من الاخ الى الاخ . وكانوا ينقسمون الى طبقات ثلاث ، الاشراف وهم المحاربون ويقال لهم تونتيغي ومعنى تونتيغي قوّاس ، ثم الفلاحون ، ثم العبيد ، أما الان فيرأسهم الأسر الملوكية القديمة مثل بني « كاروبالي » و « دياره » و « ماساسي » ويأتي بعدهم طبقة يقال لها « نومو » أي الحدادون ، ثم طبقة يقال لها « غارانغوي » أي صناع الجلد ، ثم طبقة السحرة ، ثم الارقاء . وكل قرية من قراهم ، لها زعيم يفصل فيها الخصومات بموجب اصول يتوارثها الخلف عن السلف . وهذه القرى المرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً واهياً لا تشتد أواخيه فيما بين البامباره الا عند قتال عدو عام ، كما حصل في حروبهم مع الاسلام . وللبامباره لغة اسمها « البامانا كا » هي من جملة لغات امة الماندي ، وهي في منتهى الاختصار ، فليس من حالات للاسماء ولا للافعال ، بل هي تلزم حالا واحدة في المفرد والجمع والمذكر والمؤنث والحاضر والماضي والمستقبل . والكتابة عندهم قليلة وانما يستعملون لها الحروف العربية ، وليس للغتهم آداب ، وانما هي أخبار وقصص لا تنتهي الى أبعد من القرنين الاخيرين ، وبعض اغاني يرقصون عليها . وأما ديانتهم فهي وثنية محضة ، وكل عائلة عندهم لها حيوان معبود اسمه تنه Tenne لا يقدرون ان يقتلوه ، ولا أن يأكلوه ، ولا أن

ينظروا اليه اجلالا له . ويعتقدون ان الاسلاف ، هم حافظون للاخلاف ، لذلك يدفنون موتاهم في دهاليز بيوتهم ، ويضعون اشارات على مدافنهم كصور وجوه أو أيد ، ويقدمون عليها القرابين ، ومن قبل كانوا يذبحون الاسرى . وكثيراً ما يعبدون أشجاراً يذبحون أمامها الحيوانات قربانا ، من غنم وكلاب وديكة ، وربما قدموا لها الفواكه والحبوب . وهم يسيجون مثل هذه الاشجار المقدسة بالعليق . وأما السحرة ، فهم عندهم بمثابة الكهنة يخرجون من طبقة الحدادين . ولهم جمعيات سرية ، ويتكهنون بالمغيبات ويفحصون احشاء الحيوانات التي تقرب بذبحها ، ويطوفون في الليالي بين القرى مرتدين البسة مخيفة يقصدون بها القاء الرعب . وليس للبامبارة تاريخ معروف سوى انهم كانوا من جملة الاجيال التابعة لسلطنة مالي الاسلامية ، فلما سقطت هذه السلطنة أصبحوا مستقلين بانفسهم ، وأسس أحد زعمائهم المسمى « كالاديان كوروباري » على البلاد الواقعة على ضفتي النيجر مملكة واسعة ، وقام من بعده أولاده فتنازعوا فيما بينهم حتى آل الملك الى أحد احفاده المسمى « بيتو » ، فجمع تحت حكمه جميع بلاد البامباره وملك مدة ٣٠ سنة ، وخلفه ابنه فوسع ملكه ، ثم جاء ملك اسمه « نغولو » فبسط ملكه حتى حدود تمبكتو . وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر كان منهم ملوك امرة في « سيغو » و « مانسونغ » و « دوديارة » تغلبوا على بومبارية « كاآرتا » وضربوا الجزية على أهل « ماسينا » و « فوتا » (١٨٣٠) ، وكان لهم امارة أخرى في « الكاآرتا » اسسها في أواسط القرن السابع عشر « ساكابا » بن كالاديان كاروباري ، ثم انتقل الملك من أعقابه الى امارة اخرى صاحبها « سيه ماسا » استمرت في أعقابه الى أواسط القرن التاسع عشر في « نيورو » هذا هو ملخص تاريخ البامباره .

وفي أواسط القرن التاسع عشر ، ظهر الحاج عمر الشهير ملك « التيكولور » ، فاستولى على الكاآرتا وأزال ملكها ، وزحف الى مملكة سيغو ، وكان ملكها قد تحالف مع ملك ماسينا لصد الاسلام ، فسقط كلاهما ودخل الحاج عمر الى سيغو في ١٠ مارس سنة ١٨٦١ وأقام بكر أولاده ملكا عليها . ولكن البومباره انتقضوا عدة مرار على المسلمين ، وفاز منهم قوم « البليديغو » بالاستقلال ، وقطعوا ما بين سلطنة التيكولور ومملكة سيغو ، ودام ذلك النزاع الى سنة ١٨٩١ ، اذ وصلت الجيوش الفرنسوية واحتلت البلاد وازالت سلطة التيكولور الاسلامية . وجاء في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسوية ، ان البومباره يمثلون في السودان الفرنساوي ، العنصر المخاصم للاسلام . وقد أيد هذا القول كلام حاكم النيجر في كتابه السابق الذكر ، وسياسة الحكومة الفرنسوية التي يظهر انها تريد لتحيي العداوة التي كانت عند هذه الامة للاسلام . وتجعل البامباره سداً في وجه المسلمين . فأما الاصول والعادات التي أشار المسيو بريفيه الى متانتها من تقاليد البومباره ، فقد مر بك من مجملها ما تعلم به انحطاطها وانحطاط عقائد أولئك القوم ، الذين يعبدون الحيوان والشجر وما أشبه ذلك ، ولا يخجل المسيو بريفيه من أن يقول : « انها لا تقل عن الاسلام متانة وان تعاليم الاسلام هي — في الظاهر — أرقى من تعاليم الفتيشيين » . ومتى كان الوالي من ولاة الفرنسيس على تلك الديار ، يبلغ به التعصب وموت الضمير حد أن يقول مثل هذا القول ، فماذا تأمل من عدله وانصافه بين هاتيك الرعية . . . ،

خامساً ، تحقق هنا بالرغم من تمويه الامر الرسمي الذي يوحي بالمساواة ، أن فرنسا تحاول هناك

بنفوذها وقوتها ، وكل وسيلة لديها ، أن تمنع انتشار الدعوة الاسلامية ، وتفضل ، أن يبقى الزنوج على عبادة الحجر والشجر والكلاب والهر وغير ذلك ، على أن يدينوا بهذه الديانة السامية النقية ، التي هي الاسلام . وهذا لعمري منتهى الغلو في العدوان ، اذ لا يشك أحد في كون المسلمين يريدون ان كان هؤلاء الزنوج لم يشرح الله صدرهم للاسلام ، أن يدين هؤلاء بالنصرانية ، ويردوا شرعة تهذيبها ، ولا يستمروا على تلك العقائد التي لا تليق بالانسانية . ولقد تذكرنا بهذه القضية قصة رواها المؤرخون ، ونقلها المستشرق الفرنساوي العلامة البارون «كارادوفو» Kara de Vaux في كتابه « ابن سينا » وهو أن الخليفة المأمون العباسي بينما كان مرة غازياً بلاد الروم ، مر ببلدة حران ، فالتقاه أناس بزيٍّ غريب وأثواب ضيقة يرخون ذوائبهم فسألهم : من انتم ؟ فقالوا : حرانيون . فقال ، أأنتم نصارى ؟ قالوا ، لا . قال أفيهود أنتم ؟ قالوا لا . قال أعندكم كتاب الهي أو لكم رسول ؟ قالوا لا . قال لهم ، ان كنتم لا ترغبون في الاسلام ، فتنصروا ، أو تهودوا ، واتخذوا ديناً يعرفه الاسلام . فأنت ترى أن المسلمين لا يضيق صدرهم بنصرانية الوثنيين ، ولكن الاوربيين يفضلون كل انحطاط فتيشي على كل معالي الاسلام ، وهم مع هذا يدعون خدمة الانسانية والمدنية .

ونختم هذا المقال بكلام قاله الحاج عبد الله الجزائري نزيل برلين ، في مقالة نشرها في مجلة العالم الاسلامي الالمانية (التي كان يصدرها أثناء الحرب الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش والاستاذ عبد الملك بك حمزة) وذلك على « الآباء البيض » الذين أسس رهبانيتهم الكردينال لافيجري ، وأرسلهم يطوفون في بلاد الاسلام بافريقية بزيّ المسلمين ، ويدخلون في كل ناد ويتحككون بكل عائلة ، ويتوسلون بكل وسيلة لأجل بث دعوتهم بين الناشئة الاسلامية ، متسلحين لذلك بنفوذ الحكومة الفرنسوية ، التي هي عضدهم أينما ذهبوا وكيفما انقلبوا . فبعد أن أفاض الحاج عبد الله المومأ اليه ، وهو من خيرة رجال العلم والأدب ، والمتمكنين من اللغة الفرنسوية في ذكر الفتن التي أحدثها هؤلاء الآباء البيض في وسط الأسر الاسلامية بالمغرب ، والعقائد التي تخلخلت على أيديهم ، والبثوق التي انفتقت بواسطتهم ، وكيف أن الحكومة الفرنسوية ــ التي يقولون انها لا تقوم بدعوة دينية ــ كانت تميز المتنصرين على غيرهم ، وتعفيهم أحياناً من العقوبات ، وتستثنيهم مما لا تستثني منه غيرهم ترغيبا لهم ، في أن يصبأوا عن دينهم قال ما يأتي : « نحن لا نريد أصلا بهذا أن نوجه أدنى طعن على الدين الكاثوليكي ، ونحن نعلم أن جميع الأديان جيدة ، وأن كلا منها يدعو المتمسكين الى الفضيلة وحسن التربية ، ولا اعتراض فيما لو كان المسلم يصبأ من دينه باقتناع وجدانه ، وانما دعوة الآباء البيض لها شكل آخر ، فانهم يهجمون على الاسلام في كل مكان ويحولون بين الاب وابنه ، والأخ واخيه ، ويخربون نظام العائلات فيضطر الأب أن ينكر ولده ، والأخ أن يهجر أخاه ، والعشيرة أن تبرأ من بعض أبنائها . وغالبا يخرج مثل هؤلاء الذين اجتذبهم الآباء البيض مفسدين لا هم من الجياد لا في الاسلام ولا في النصرانية . »

ونحن نرى أن ارخاء العنان للآباء البيض في بث الدعوة الدينية بين مسلمي افريقية ، وتحرش فرنسا بهذه المسائل ولو من تحت ستار مما يضرها في سياستها ، ويجر عليها من المتاعب أضعاف ما تتوخى ربحه ، فانه لا يهيج الاحقاد ولا يورث الضغائن شيء ، مثل المنازعات الدينية ، التي لا يفلح قوم جعلوها قطب رحى سياستهم . (ش)

الاسلام في افريقية

(راجع اشارة رقم (٢) في ص ١٣٠ واشارة رقم ١ في ص ١٣١)

من أعظم الكتب المؤلفة في هذا الموضوع كتاب « الاسلام والنصرانية في افريقية » تأليف المسيو بونه موري L'Islamisme et le Christianisme en Afrique G.Bonet Maury

وقد نقل عنه المستر ستودارد بعض أشياء ، ونحن نلخص منه ما يأتي ، لأنه جمع فأوعى في تاريخ مسابقة الاسلام والنصرانية في القارة الافريقية . قال :

« ان الاسلام انبسط على افريقية الشمالية الغربية ، فتحولت هذه الاقطار دار اسلام رغبة أو كرهاً ، لكنه افتتح افريقيه الشرقية سلماً . وكان مبدأ ذلك بواسطة تجار العرب والهنود الذين كانوا يفدون على تلك الديار زرافات ، فوصلوا الى رأس Guardafui والى جنوبي Capricorne . ولقد وجد منذ القرن الألف بعد المسيح مسلمون في كيلوان ، على أكثر من ٢٠ من العرض الجنوبي أدنى من زامبازه Zambéze » الى أن يقول : « في أواخر القرن الحادي عشر (للمسيح) طمست أكثر الكنائس الارثوذكسية التي كانت ممتدة على ساحل افريقية الشرقية ، ومن مصر الى المغرب الا بعض جماعات لبثت أشبه بجزر صغيرة مجهولة في وسط الاقيانوس الاسلامي . ولكن هناك كنيسة بقيت قائمة على صخرة المتانة معتصمة بجبالها ، وهي الكنيسة الحبشية التي بمركزها وشجاعة أبنائها الجبليين ، صدت جميع غارات الاسلام . وقد كان هؤلاء الاحباش من اتباع الكنيسة المنشقة ، لا يعرفهم الكاثوليك الرومانيون ، ولا الارثوذكس البيزنطيون » .

ثم قال :

« بعد أن وطد دعاة الاسلام دعائم هذا الدين في جميع سواحل افريقية الشمالية ، قصدوا داخل البلاد ضاربين الى الصحراء التي يسكنها البربر ، وفاقوا في ذلك اساقفة افريقية اللاتينية الذين في أوج عزهم وسلطانهم لم يفكروا في نشر الدين المسيحي في تلك الجهات . فزنوج السودان تلقوا القرآن من جهتين احداها البربر المسلمون ، والثانية قوافل العرب ، التي كانت تخترق فزان والواحات الى تمبكتو . فسلاطين دولة المرابطين وكانوا متحمسين جداً في الاسلام ، خرجوا من مراكش قاصدين أواسط افريقية لحمل أهالي بلاد غانة ومالي على الاسلام ، فظهر أبو بكر بن عمر من أعوان الملك سني علي ، وهو بربري الأصل ، وشيد مملكة السونغاي في غانة سنة ١٠٨٧ ميلادية وهؤلاء السونغاي هم من الجنس النوبي ، رحلوا من مصر العليا عند الفتح العربي ، وكانت لهم دولة لم تبدأ بالانحطاط الا في زمن فتح المنصور (السعدي) سلطان مراكش للسودان .

فد رواق سلطانه الى أبعد من زاوية النيجر ، وجميع البلاد المعروفة الآن بساحل الذهب ، والداهومي ، وبلاد نيجريا ، الى بحيرة تشاد . وقد كانت هذه السلطنة تنقسم الى أربع ممالك ، وكانت قاعدتها جنة Djeuné التي كنت ترى فيها التجار والعلماء من المغرب الاقصى والجزائر

ومصر ، وكانت سفائن هذا السلطان تسري في النيجر ، وقوافل الصحراء تحمل البضائع الى أطراف هذه السلطنة ، فتنقل الذهب والعاج والنحاس والمسك ، ودين محمد . وانبث المرابطون في القرى ، يعلمون القرآن والكتابة بالعربية . وكان أبناء المشايخ يأتون الى تمبكتو لتحصيل العلم ، فلم تكن تمبكتو سوقا لتجارة أواسط افريقية فقط ، بل كانت دار علم انتشر ذكرها حتى سواحل البحر المتوسط . ولما مات أبو بكر بن عمر في سنة ١١٢٠ ، كانت بلاد النيجر أو نيجريليا الى حدود السكوفو اسلامية .

هذا ما كان من جهة البربر وأما العرب ، فان احدى قبائل بني هلال تقدمت من نواحي طرابلس الى واحة « ودّان » ومن هناك الى « والاته » ثم تقدمت نحو السودان ، فتلاقت مع البربر الآتين من الشمال الغربي واختلطت بهم ، وصارت تمبكتو التي اختطها الطوارق في سنة ١٠٧٧ ، مركزاً للدعوة الاسلامية تنبث منها الى كل الجهات .

وفي الجنوب الغربي وصل الاسلام الى البامباره Bambarras والمادينغ Madinges والبله Peulls ، الذين في القرن التاسع عشر صاروا اشد حماته واجهد دعاته ، في بلاد النيجر والسنيغال الأعلى . وكان في بلاد المادينغ المسماة بلاد المل Mello قد أسلم الزعماء والاشراف والتجار منذ القرن الثاني عشر ، وبقي العامة فتيشيين . ووصل الاسلام في الجنوب الشرقي الى بحيرة تشاد ، في القرن الثالث عشر . وأما في الشمال الشرقي ، فكانت الغالة Gallas والنوبة ، قد دخلوا في الاسلام بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٣٥٠ » .

ثم قال تحت عنوان « مساعدة الاسلام على تمدين افريقية » ما يأتي :

« لم ننظر الى الآن نتائج الفتح العربي الا من الوجهة الدينية ، مع انه يجب أن نعرف هل كانت للمسلمين في هذه الصفحة الاولى من استيلائهم (٦٣٨ ـ ١٠٥٠) يد في مدنية افريقية الشمالية أم لا ، وهل كان لهم سهم في نشر العلوم والآداب والصناعات ، أم لا . ففي هذا المقام يلزم أن نفرق بين مصر والمغرب ، لأن الفرق بين مدنيتي هذين القطرين الذي أولهما أخذ عن اليونان ، والثاني عن الرومان ، لم يخل من التأثير في ثقافته الاسلامية .

فلننظر أولا الى مصر وقبل كل شيء يجب أن نصحح خطأ شاع طول القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا مكتبة الاسكندرية بأمر الخليفة عمر . والحال أن العرب في ذلك العصر كانوا أشد اعجاباً بعلوم اليونان وفنونهم ، من أن يقدموا على عمل كهذا . كما انه معلوم أن قسما من تلك المكتبة ، كان احترق في أثناء ثورة الاسكندريين ، التي احترق فيها أسطول قيصر ، وأن قسما آخر أحرقه المسيحيون في القرن السادس . واختط العرب الفسطاط وتركوا للقبط ممفيس ، ولم يعترضوا القبط في دينهم ولا عاداتهم ، وأطلقوا لهم الحرية في انتخاب البطاريرك ، وبناء الكنائس . وغاية ما أبطل عمرو من العادات القديمة ، هو ما كانوا جارين عليه من زمان الوثنيين ، من رمي فتاة في النيل كل سنة التماساً لفيضانه .

وبعد أن انفصلت مصر عن بغداد ازدهرت المعارف والفنون في مصر ، وتأسست بمصر المدرسة الجامعة الباقية الى اليوم ، وهي الازهر . وكان لها مكتبة فيها ٦٠٠٠ مجلد ، وكرتان تمثلان الارض . وبني مرصد فلكي ، اشتغل فيه علماء من الطبقة الاولى مثل ابن يونس صاحب الزيج الحاكمي . وصحح العرب بمعارفهم الفلكية وبتدقيقات سياحهم ، أكثر

نظريات الجغرافيين اليونانيين ، ويكفيك ذكر المسعودي وابن حوقل وابن بطوطة وأبي الحسن لاظهار شأو العرب في علم الجغرافية ، وان من الاسباب التي دعت الى احتفال العرب بهذا العلم ، ما فرضه القرآن من الحج ولو مرة واحدة الى مكة . أما في صنعة البناء فمع كون العرب احتذوا شيئاً على مثال البيزنطيين ، لاينكر أنهم تركوا فيها آثاراً خالدة مثل قصر الخلافة في القاهرة ، ومثل القبة ، وزيزه بقرب بلرمو (في صقلية) ، ولا تنس من المساجد جامع الحسن ، وجامع عمرو ، والازهر » . الى ان قال :

أما انتشار العلوم والآداب في المغرب ، فقد كان بطيئاً في البداية بسبب مقاومة البربر لها، والفتن التي وقعت بين أمراء الاسلام . ولكن فيها بعد شيدت المدارس والمساجد في القيروان، وبجاية ، وتلمسان . وكان في بجاية في القرن الثاني عشر علماء نوابغ ، وفيها كان المتصوف الكبير أبو مدين ، وفيها تعلم ليونارد بوناكسي الحساب والجبر والهندسة . وكان في تلمسان أيضاً مدرسة شهيرة اقرأ فيها ابن خلدون وغيره . وفي القرن الماضي تخرج فيها محمد السنوسي . وهناك جوامع شهيرة في الحسن مثل جامع سيدي عقبة ، المبني على مرقد الفاتح المذكور، وجامع سيدي أبي مدين في ضواحي تلمسان ، ثم الجامع الكبير في القيروان . وكل هذه لاتداني في الرونق والبهاء جوامع مراكش . (وأطال في وصفها)

وخلاصة فصله هذا هو ما يأتي :

« ان حصة الاسلام في مدنية افريقية كانت أقل من حصة النصرانية فيما يتعلق بتثقيف الاهالي وتربيتهم ، ولكنها أهم في العلوم الصحيحة وصنعة البناء » .

ثم قال تحت عنوان « قيام النصرانية لأخذ الثار » ننقله ملخصاً لطول شرحه :

« في القسم الاول من القرون الوسطى ، اهملت أوربا المسيحية افريقية ، الا ما كان من مساعي بعض الباباوات . ولكن تألفت فيها بعد الرهبانيات وجدّت الحركة الصليبية ، وكانت سيرة مسلمي المغرب ومصر والشام الى ذلك الوقت تجاه النصارى ، سيرة تسامح وتساهل ، لا بل سيرة ولاء واحسان ، بخلاف الامم المسيحية التي كانت سالكة تجاه الاسلام خطة البغض والعدوان ، بدون رحمة ولا هوادة. ثم لما وقعت الحرب الصليبية استمد مسلمو المشرق مسلمي المغرب لقتال الصليبيين ، فتخلف المغاربة عن هذه النجدة لسببين ، أحدهما كون المغاربة برابرأ أكثر مما هم عرب ، فلذلك كان اسلامهم فاترا ، الثاني كون جيرانهم الفرنج ذوي علاقات تجارية معهم ، ولم يكونوا يطالبونهم بممالك وبلدان ، كما كانوا يطالبون مسلمي الشرق ويتقاضونهم ان يتخلوا لهم عن بيت المقدس . ثم بلغت العلاقات بين ملوك المغاربة والافرنج ، أن كان امراء تونس ومراكش يستخدمون في جيوشهم جنداً من الافرنج يأذنون لهم باقامة شعائر دينهم علنا ، في الثكن التي ينزلون بها (يقال ان المأمون أحد سلاطين الموحدين كان عنده عشرة آلاف جندي افرنجي ، وكان قد شيد لهم كنيسة في عاصمة مراكش) ، وكانت قد انعقدت عدة معاهدات بين الاوربيين والمغاربة في القرن الثاني عشر والثالث عشر ، اشهرها معاهدة بين جمهورية بيزا ، وسلطان المغرب ، وامراء تلمسان ، وجزر الباليار ـ عند ما كانت للعرب (٢٥ يونيو ١١٣٣) م . ومعاهدة بين جمهورية جنوى ، والسلطان عبد المؤمن (١١٣٥) . فكانت هذه المعاهدات تضمن للفرنج دماءهم وأموالهم ،

وتبيح لهم ان يتحاكموا عند قناصلهم ، وان يقيموا شعائر دينهم جهرا وكان ملوك الاسلام هم الذين يعطونهم عرصات الارض اللازمة لبناء الكنائس والمقابر . ومن الوثائق المشهورة الشاهدة بعظم التسامح الذي كان عليه ملوك الاسلام لذلك العهد ، المعاهدة التي عقدها ابو عبد الله المستنصر صاحب تونس مع فيليب الجريء ملك فرنسا ، وشارل دوق انجو ، وتيبو ملك نافار سنة ١٢٧٠ وذلك بعد وفاة القديس لويس ملك فرنسا ، والتي جاء بها في الشرط السادس « ان الرهبان والقسوس المسيحيين ، يمكنهم أن يقطنوا في ممالك أمير المؤمنين وتعطى لهم الارض اللازمة ، لبناء الكنائس والاديرة ، ودفن الموتى . وللرهبان المذكورين أن يقيموا شعائر دينهم ، ويلقوا المواعظ علناً كما لو كانوا في بلادهم » . فكثر بذلك عدد النصارى في بجاية وسردونية بقرب القيروان ، وكذلك في المغرب الاقصى ، حتى كان لهم مطران يقيم بفاس . ثم تحول الى مراكش (١٢٢٣) وبقى هناك كرسي للمطران الى القرن السادس عشر . ولما استولى جوان الاول ملك البرتغال على سبتة (١٤١٨) ، جعل هناك اسقفية ثانية . وكانت كنائس كاثوليكية عديدة في وهران ، وتلمسان ، وعنابة ، وبجاية ، والمهدية ، وتونس ، وطرابلس وكان يخدم فيها الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان ، ولكن بث الدعوة المسيحية بين المسلمين كان محظورا .

وكما كان عند بعض سلاطين الموحدين جند من النصارى فكان أيضا عند السلاطين المرينيين أخلافهم مثل هذا الجند ، حتى طمعوا ان يستأثروا بحراسة بعض الثغور البحرية مثل طنجة ، وسبتة ، وسلا ، وكتب البابا اينوشنسيوس الرابع (١٢٤٦) الى السيد ملك المغرب كتابا طويلا ، حاول فيه اقناعه باعطاء الجند الافرنجي الذي عنده قلعة من هذه القلاع البحرية تكون في عهدتهم ، وذلك بان للملك المشار اليه اعداء اقوياء يمكنهم ان يباغتوه ، ويسلبوا ملكه ، وان اصدق انصاره هم الجنود النصارى الذين عنده وما داموا في خدمته ، فالدول النصرانية كلها تنصره ، ولكن قد تطرأ حوادث غير منتظرة وتتغلب الكثرة على الشجاعة ، فكان من المصلحة ان يعطى لهؤلاء الاجناد المسيحيين بعض المدن البحرية المسورة ، ليعتصموا بها عند الضرورة فالسلطان السيد لم يسمع كلام البابا ، وجاء مطران مراكش الى رومة (١٣٥٠) وجدد السعي ، فكتب البابا الى السلطان المرتضى خلف السيد يلح عليه في اجابة ذلك الطلب والا فهو يمنع المسيحيين من الدخول في خدمته فلم يعبأ سلاطين المغرب بهذا الوعد ولا ذلك الوعيد ، ولا رضوا بأن يسلموا المرتزقة الافرنج الذين في جيشهم قلعة على ساحل البحر ، وبقي مع هذا عندهم اجناد كثيرة من الافرنج .

أما سيرة مسلمي الشمال الشرقي من افريقية ، فكانت تخالف في هذا الموضوع سيرة مسلمي الشمال الغربي ، اذ من المعلوم أن الزحفة الصليبية الخامسة التي كان أكثر رجالها من المجار والالمان ، والزحفة السابعة التي قام بها القديس لويس ملك فرنسا كانت وجهتهما مصر ، فأثارت الحفيظة الدينية عند أهلها بعد أن كانوا أولا في غاية التساهل مع المسيحيين . فلما استرد المصريون دمياط (١٢٢٨) ، هدموا كنيسة مار مرقس في اسكندرية ، وهدم السلطان قلاون عند توليه عرش مصر جميع المدن البحرية ، من الاسكندرية الى طرابلس الغرب ، وطرد الافرنج من هذه المدينة بعد ان كان مضى عليها نحو ١٤٠ سنة وهي في حوزة امراء

النورمانديين أصحاب صقلية . وفي ذلك الوقت استقر فرسان ماريوحنا المطرودون من فلسطين، ومن افريقية ، في جزيرة رودس . وبلغ البغض أقصاه بين المسيحيين والمسلمين ، واضطر نصارى النوبة والغالة Gallas أن يدخلوا في الاسلام في القرن الرابع عشر . ولكن الاحباش ازدادوا تمسكا بالنصرانية ، وأرسل النجاشي زيرا يعقوب وفدا من قبله الى مجمع فلورنسه (١٤٥٢) يلتمس توحيد الكنيسة الحبشية مع الكنيسة الرومانية ، ولما كان التعصب المذهبي شديدا بين الشرقيين والغربيين ، ترصد الاقباط هذا الوفد عند اآبهم من ايطالية وقتلوهم .

وكان كثيرون من اسارى الافرنج ارقاء في بلاد الاسلام ، يشتغلون في مزارع كبار المسلمين وهم في أقصى درجة من الفاقة ، حتى كان بعضهم يصبأ عن دينه طمعا في الخلاص من الرق : فانشأ الفرنج جمعيات رهبانية لفداء هؤلاء الاسارى ، اشهرهم العصبة المسماة بالفقراء Alfakker من رهبان مار يعقوب الاسبانيوليين ، وطائفة الثالوثيين Trinitaires ورهبان سيدة مرسي Notredame de la Mercy وهاتان الطائفتان من الفرانسيس . وقد كان تأسيس نظام الثالوثيين سنة ١١٩٨ ، على يد رجل اسمه يوحنا مق من البروفانس في جنوبي فرنسا ، وكان أتباعه يمشون على أقدامهم ولا يؤذن لهم بالركوب الا اذا مسهم الاعياء ، فيركبون الحمير ، ولهذا لقبوا بالاخوان ذوي الحمير . وانتشرت دعوتهم في كل أوربا ، وكان لهم في فرنسا وحدها ١٥٠ ديراً . وقيل ان عدد من انقذوا من اسرى المسيحيين من سنة ١١٩٨ الى القرن الثامن عشر يبلغ ٩٠٠ الف . وأما النظام الثاني المنسوب الى سيدة مرسي ، فكان غرضه منع الاسرى الفرنج من الدخول في الاسلام وهم في الاسر ، وكان من مبادىء أصحابه استعمال السيف اذا الجأ الامر لاجل الدفاع عن النصرانية ، وقبول الاسر والبقاء رهناً عند العدو ، لاجل منع الاسرى من التحول عن دينهم . وكثير منهم القوا بأنفسهم في التهلكة ، وعاشوا سنين في الاقياد والاصفاد عند امراء الاسلام ، لاجل المحافظة على ديانة اسرى قومهم وبلغ عدد اسفارهم الى مدينة الجزائر وحدها من جراء فداء الاسرى ٧٣ رحلة ، وعدد من انقذوه ١٢ الفا وخمسمائة أسير . ولكن بعض الرهبان تجاوزوا حدود الحمية الى التهور وقام في أذهانهم دعوة المسلمين الى النصرانية فلم يقدروا على تنصير مسلم واحد ، ووقعوا من أجل ذلك في البلاء . ومنهم من ذهب قتيل خفة عقله ، وهؤلاء مثل انطون ريفولي ، ودانيال بلفيدير ، وريموند لول ، وهو أشهرهم . وكان يعقوب الاول ملك اراغون قد استرد جزيرة ميورقة من أيدي العرب سنة ١٢٦٩ ، فوجد لول هذا هذه الجزيرة مركزا صالحا لبث الدعوة المسيحية في المغرب ، وبنى ديرا للفرنسيسكانيين في الجزيرة وجعل الغرض منه تدريس العربية لامكان بث الدعوة ، وكان هو متضلعا في العربية وقصد تنشئة مبشرين في هذا الدير ، يقذف بهم في بلاد الاسلام للغاية المذكورة . وذهب هو بنفسه الى تونس ، وأخذ يناظر علماء الاسلام ، ويقذف بالرسول امامهم فالقوه في السجن ولولا رأفة أمير تونس به ، لاوردوه حتفه . وبعد ذلك خلوا سبيله ، فجاء الى الجزائر مبشرا ، ثم الى بجاية حيث ضاق ذرعهم به فقتلوه (٢١ يونيو ١٣١٥) . وبالجملة ، فان النصرانية أمكنها بواسطة المعاهدات التجارية وحسن المعاملة ، ان تطأ أرض المغرب ، ولا تجد

النفرة التي وجدتها في مصر وطرابلس الغرب على أثر الحروب الصليبية مما يدل على كون الالطف والمحاسنة ، أوفى بالمقصود من العنف والمخاشنة .

وفي تلك الايام حصلت حركة دينية عند البربر ، وظهرت عندهم الطرق الدينية المشابهة للرهبانيات عند النصارى ، وترجع هذه الحركة الى سببين ، أحدهما ، عقيدة التصوف التي ترمي الى الفناء في الاله ، والثاني دعوة أهل البدع والاهواء ، وغير المسلمين ، الى الاسلام . وأتباع هذه الطرق يشبهون الرهبان في الانقطاع للعبادة ، وكثرة الصلاة ، ومنهم من هم نظير الرهبان العسكريين ، يعتقدون انهم مكلفون باستعمال السيف لنشر الدعوة ، ولكنهم يفترقون عن رهبان النصارى بعدم البتولة ، وعدم قطع النفس عن النساء (لا رهبانية في الاسلام كما لا يخفى) ويقال لمحل اجتماعهم رباط ، ولرئيس الطريقة مرابط . ولذلك لما قام عبد الله بن ياسين ، بالدعوة الدينية لهداية البربر من لمتونة وغيرها ، اجتمعت حوله عصابة سموا بالمرابطين ، وكانت لهم دولة وصولة بلغت أوجها في زمان يوسف بن تاشفين (١٠٥٠) . وقام مقام المرابطين الموحدون ، وكانت لهم دولة عظيمة ، وكان الشرفاء أعقاب ادريس ، من اتباع العقيدة الصوفية ، وكانت هذه العقيدة تقرأ في فاس وتونس ، وهما أعظم مراكز العلم بافريقية ، وقد أخذ بها خلق كثير . وكان عبد القادر الجيلاني المولود في جيلان من فارس ، متصوفا عظيما زكي النشأة كثير التعظيم لسيدنا عيسى ، متساهلا مع النصارى الذين كان يقول انهم أهل كتاب وان الله سينير عقولهم يوماً ، فأخذ بالوعظ والارشاد ومات في بغداد سنة ١١٦٦ ميلادية ، وله اتباع لا يحصى عددهم ، ووصلت طريقته الى اسبانية ، فلما زالت دولة العرب من غرناطة انتقل مركز الطريقة القادرية الى فاس . وبواسطة أنوار هذه الطريقة زالت البدع من بين البربر ، وتمسكوا بالسنة والجماعة . كما ان هذه الطريقة هي التي في القرن الخامس عشر ، اهتدى على يدها زنوج غربي افريقية . أما الطريقة الثانية فهي الشاذلية نسبة الى أبي الحسن الشاذلي ، اخذ عن عبد السلام بن مشيش ، الذي أخذ عن أبي مدين ، وكانت ولادة أبي مدين في اشبيلية سنة ١١٢٧ ميلادية وقرأ في فاس ، وحج البيت الحرام ، ثم استقر يعلم التصوف في بجاية . وتبعه خلق كثير انقسموا بعده الى ثلاث فرق الاولى ، الشاذلية المنتشرون في الجزائر ، الثانية الدرقاوية الذين مركزهم في مراكش ، والثالثة المدينية الذين هم كثيرون في طرابلس الغرب . (وبعد ان أفاض في بحث الطرق والزوايا وتشكيلاتها وأوضح المشابهة التي بينها وبين الرهبانيات في القرون الوسطى) قال :

ان العرب لم ينتظروا تشكيل الطرق حتى يبثوا الدعوة القرآنية في السودان ، بل منذ أواخر القرن السابع كانوا اخترقوا فزان ودخلوا السودان ، وكانت في غانة لاوائل القرن الثامن للميلاد اثنتاعشرة مدرسة للقرآن ، ولكن الاخوان (اتباع الطرق) هم الذين تم على يدهم اسلام القسم الاعظم من مسلمي أواسط افريقية ، وهم الذين أوقدوا الحمية الدينية بعد ان كادت تفتر ، وادخلوا معظم السودان في الاسلام بالارشاد والتعليم ، وبالاخذ والعطاء ، وبالمصاهرات مع ملوك الزنج . وقد تقدم ذكر أبي بكر بن عمر اللمتوني الذي امتاز بنشر الاسلام في السودان ، حتى دانت له جميع الاقطار السنيغالية والنيجيرية الى الكونغو . كذلك بنو حسن من عرب بني هلال ، توجهوا جهة ودّان جنوبي طرابلس وتقدموا منها في الصحراء الى والاته ،

فتلاقى هناك العرب مع البربر وامتزج بعضهم ببعض ، وجاءت من هذا الاختلاط القبائل المسماة بالمشدوف (هذه القبائل ليست هي المشدوف فقط بل المشدوف والدويش وغيرها وقد ألف على هذه القبائل المسيو جورج پوله Georges Poulet كتابا اسمه « مغاربة افريقية الغربية الفرنسوية » بحث فيه عن تاريخها الماضي والحاضر، وعن أحوالها الاجتماعية من كل نوع، ونظراً لكون المؤلف من مأموري المستعمرات فقد أتيح له أن يطلع على وثائق لايطلع عليها غيره ، فجاء كتابه بغاية التدقيق. والمغاربة المذكورون منهم من أعقاب بني حسن الهلاليين، ومنهم من صنهاجة وغيرها من البربر ، وبينهم اشراف ينتمون الى آل البيت، ومجالاتهم من الساقية الحمراء جنوبي السوس الاقصى ، الى نهر السنيغال ، وهم خمس طبقات الاولى ، أهل الحرب وهم بنو حسن . والحراثون وهم أشبه بالرعية ، لكنهم أحرار . والمرابطون أي طلبة العلم . وصنهاجة الذين يدفعون الضرائب . ثم العبيد . وأشهر القبائل المذكورة الطرارزة وهم نحو ٨٠ الف نسمة ، كان أميرهم لعهد تأليف كتاب المسيو پوله سنة ١٩٠٤ ، هو احمد بن سلوم . ثم البراكنة وهم من أولاد عبد الله وعددهم ٤٠ الفاً ، وأميرهم احمدو ولد سيدي علي . ثم الابكاك وعددهم ١٦ ألفا ، وأميرهم بكار ولد سويدي احمد . ثم الشراطيط وهم ٢٠ الفا ، وأميرهم المختار ولد احمد . والقبائل الساحلية منها آل سيدي محمود وهم ٤٠ الفا ، وأميرهم سيدي المختار ولد محمد محمود . ثم أولاد مبارك وهم ١٨ الفا ، وهم مع أولاد ناصر من سلائل بني حسن الهلاليين ، وعدد أولاد ناصر ١٢ الفا . ثم السكونة وهم خمسة آلاف . ومن قبائل الساحل المشدوف وهم أكثرها عددا ، وينقسمون الى عدة فرق لكل منها زعيم ، وزعيم الزعماء محمود مختار وهناك قبائل ساقية الحمراء مثل أولاد دليم ، والرغيبات ، والعروسي والغيلالي ، والصمايل ، ورئيس هذه القبائل الشيخ ماء العينين المشهور . وقد خمن المسيو پوله عددهم جميعا بثلاثمائة الف ، وكانت بين امرائهم وبين فرنسا معاهدات لذلك العهد ، اظن انها صارت الآن في خبر كان لا سيما ما كان مع امراء القبائل التي في السنيغال) .

ثم قال المسيو موري تحت عنوان « اكتشافات البرتقاليين على سواحل افريقية واستئناف البعثات الكاثوليكية » :

لا يخفى ان العرب ومن معهم من البربر كانوا افتتحوا اسبانية ، واجتازوا جبال البيرانه ، واوغلوا في بلاد الغال (فرنسا) ولولا انتصار شارل مارتل عليهم في پواتية ، لكانت فرنسا اسلامية ، ولا صاب الكنيسة الغالية ما أصاب كنيسة افريقية وكنيسة اسبانية . على انه في نفس اسبانية ، كان البرتقاليون ، وأهل نافار ، واستورية ، لايزالون يقاومون العرب . ولاسيما البرتقال ، فقد كانوا اول من طرد العرب من بلادهم . ولم يكتفوا بذلك بل شنوا الغارات على العرب في أرضهم ، فافتتحوا سبتة ، وطنجة ، وتطاون . ثم امتدوا على ساحل افريقية الغربية حتى عرفوه كله . وأشهر من قام منهم بهذه الاسفار والفتوحات ، هو الامير هنري ابن الملك جوان الاول الذي كانت امه اميرة انكليزية ، فانه ترك اشبونة دار الملك وانتبذ لنفسه مكانا في ساغر بقرب رأس سان فنسان ، يحيط به بعض اليهود وبعض علماء المغاربة من فاس ومراكش ، الذين كانوا علماء العالم لذلك الوقت وأخذوا ينقبون في جغرافيات العرب وغيرها حتى عرفوا امكان الدوران حول افريقية . ورسم الامير هنري هذا الرحل

العظيم الذي كان له الفضل على جميع أوربة ، خطة سير السفن عليها ، فاجتازت ، رأس بوجادور (١٤٤٢) ، والرأس الاخضر (١٤٤٤) على انوار غابات مادار Madères ، التي استمر بها الحريق سبع سنين الى أن بلغت سيارّة ليون Sierra Léone . وسنة ١٤٧١ بعد موت هنري أيضا ، واظب البرتغاليون على الايغال في الاقيانوس حتى قطعوا خط الاستواء وجازوا زايير (الكونغو) ، ثم رأس الزوابع الى ميناء آلغوا (١٤٨٦) . وفي ٨ يوليو عام ١٤٩٧ وصل فاسكو دوغاما الى موزامبيق ، ومنها الى ماليندي ، وثاني سنة نزل في كاليكوت من الهند الشرقية .

ولما تمت هذه الفتوحات ، شرع البرتغال بنشر الدين المسيحي وتأسيس الاسقفيات ، واختاروا لهذا الأمر الجزر البحرية ، لما فيها من الوقاية . فجعلوا كرسياً أسقفياً في احدى جزر الخالدات ، وآخر في جزيرة مادر ، وآخر في جزيرة امام الرأس الأخضر . وآخر في جزيرة بإزاء زايير ، ومنها صعد الدومينيكيون الى بلاد الكونغو وبثوا دعوة الانجيل ، ونجحوا نجاحاً حمل البابا على وضع أسقف في صان سالفادور (١٥٩٥) . وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة أرسل ملك الكونغو الفارس الثالث ، بعثة الى البابا يلتمس بها مبشرين ، فأرسلوا اليه الكبوشيين فكان نجاحهم باهراً . وخلفهم الجزويت ، فأسسوا مدارس في صان باولو ، وصان سلفادور (١٦١٩) وساروا يتقدمون الى داخل البلاد حتى بلغوا كازانغي على ٦٠٠ ميل من الساحل . ولكن هذه البعثات كلها سقطت في أواسط القرن الثامن عشر لا سيما عند الغاء رهبانية الجزويت ، وحاولت جمعية البعثات الخارجية في باريز (١٧٦٠) أن تقوم مقام الجزويت في الكونغو ، فلم تفلح . مع هذا بقيت لذلك التعليم آثار ، وكان ألوف من الزنوج يقرأون ويكتبون .

وبعد قرن كامل من انقطاع التبشير هناك جاء « آباء الروح القدس » وأحيوا ما كان درس من آثار الجزويت والدومينيكيين (١٨٦٧) ، وساعدوا على الغاء تجارة الرقيق وعلى الاكتشافات الجغرافية ، وأدخلوا في هاتيك الاصقاع زراعات وصناعات كثيرة . وكان البرتغاليون قد بشروا بالانجيل في افريقية الشرقية ، واتخذوا مركزاً للدومينكيين في موزامبيق (١٦١٤) : وأقام القديس فرانسيس كسافارس مدة في موزامبيق ، وفي مالينده ، وفي جزيرة سقطرة . وأسس فاسكودوغاما ديراً للتبشير في جزيرة زنزيبار ، وامتدت منه البعثات الى مومباسه ، والساحل ، ونمت هناك رعويات مسيحية عديدة في القرن السادس عشر والسابع عشر ، ولكن سنة ١٦٩٨ جاءت غارة عربية من مسقط اخنت على تلك الكنائس ، ورفعت علم الاسلام وحده . وسنة ١٧٢٨ ، حاول المبشرون استئناف العمل ففشلوا ، ولزم انتظار القرن التاسع عشر لأجل الرجوع الى بث الدعوة المسيحية في هاتيك الاقطار .

وكان جوان الثاني ملك البرتغال سنة ١٤٨٧ انفذ اثنين من رجاله الفونسوبايفا ، وبيرو كوفيلهام ، من طريق مصر الى الهند للبحث عن رجل هندي مسيحي يزعمون أن اسمه القسيس يوحنا ، فمات أحدهما المسمى بايفا بمصر . وذهب كوفيلهام الى الهند ، ثم عاد الى افريقية ووصل الى الحبشة ، فأكرم النجاشي موصله ، ولكنه لم يسمح له بالخروج . فأخذ هذا الرجل يراسل بلاده ويخبرهم بما رأى ، فأرسلت حكومة البرتغال وفداً من الاشراف

والكهنة ، ومعهم عدد من الحدادين ، والنجارين ، والبنائين ، والاطباء الى بلاد الحبشة ، واستمرت هذه العلاقة بين المملكتين دهراً طويلا ، حتى أن راهباً يسوعياً برتقالياً اسمه بايز حول النجاشي سوسيليوس الى الكثلكة (١٦٢٤) . وقيل ان أكثر الاحباش كانوا مستعدين للانضمام الى الكنيسة الرومانية لولا عناد بطرك اللاتين ماندز Mendez الذي لم يأخذهم بالتؤدة ، بل حاول حملهم على جميع العقائد والشعائر اللاتينية دفعة واحدة وأراد تأسيس ديوان تفتيش ، لمراقبة الذين يأبون الانقياد . فجرت من ذلك ثورة ذهبت فيها حياة المبشرين البرتقاليين ومن تابعهم من الحبش (١٦٤٠) ، وحاول الفرانسيس التبشير في الحبشة تحت حماية قناصل فرنسا ، فلم يفلحوا ، وقتل المبشرون الذين أرسلوهم الى سواكن ، ومصوع . ولكن الفرنسيسكانيين الطليان أسسوا مراكز لهم في بلاد الغاله (١٨٣٩) ، ثم توجه اخوان فرنسيان الطوان ، وارنولد آبادي ، ومعهما راهب عازاري اسمه سابيتو من قبل مدرسة البروباغنده في رومة ، التي أردفتهم بثلاثة آخرين فأقام أحدهم جاكوبيس في عدوه بقرب النجاشي ، وذهب سابيتو الى غندار للتبشير في بلاد الآماره . وكان أحدهم مونتيوري قاصداً السودان المصري ، فبعد خمس سنوات من وصولهم ، أسسوا عدة كنائس . وفي سنة ١٨٥٣ كان عدد الحبش الكاثوليك خمسة آلاف ، بالرغم من مقاومة ابونا سلامة رئيس الكنيسة القبطية الحبشية . وبقيت هذه البعثة ناجحة حتى تولى النجاشي تيودوروس ، فأراد استئصالها وحمل جاكوبيس على الأدهم ، فمات في الحبس سنة ١٨٦٠ . وبعد وفاته قام مقامه المطران بيانشي ومعه المطران ماسايه ، ووجها عزمهما الى التبشير في بلاد الغاله ، وبواسطة الحكومة الفرنسوية مع الباب العالي أخذا فرماناً بتأسيس مركز في جزيرة مصوع (١٨٦١) ، واستؤنف العمل الديني في الحبشة . ولكن لم يطل الأمر حتى وقعت المنافسة بين فرنسا وايطاليه في هاتيك الجهات ، وأسست ايطالية مستعمرة الاريتره ، وجعلت مركزها مصوع وأفردتها بأسقفية ، وطردت منها المبشرين الفرنسيس ، ولم يبق لهؤلاء سوى رعويات في تيغري ، وبلاد الآماره . وكانوا شادوا مدارس ، ومستشفيات ، ودوراً للصناعات ، وملاجيء ، للأيتام والمجاذيم . ونشر الطليان الدعوة المسيحية في بلاد الغاله ، وهم جيل اذكياء أشداء يسكنون بين الحبشة وبحيرة فيكتوريا نيانزا . وصارت هناك رعويات مسيحية زاهرة وامتدت الى بلاد كافا . ثم دخلت الى هرر ، بالرغم من معارضة أمراء الاسلام هناك . ولننظر الى الدعوة المسيحية في جهات أخرى فنقول ، ان مار فنسان دوبول الفرنسوي كان وجه همته نحو جزيرة مادافسكر ، التي بسطت يدها عليها فرنسا في أيام الوزير ريشليو ، فانتشر في سواحلها تجار الفرنسيس ، وأرسل الرهبان العازريون اثنين منهم سنة ١٦٤٨ ، وأخذا بالتبشير وصبرا على المكاره ، ومناخ تلك الجزيرة لم يؤاتهما ، فماتا بعد أن نصرا ٦٠٠ نسمة من الوطنيين . ثم ذهب بدلاً عنهم أربعة آخرون فماتوا بالحمى . فما ثنى ذلك عزم الرهبان ولا سيما عزيمة مار فنسان دوبول ، الذي بقي يحرضهم على السفر للتبشير ، فذهب آخرون وزرعوا هناك الانجيل ، وتحملوا من الانتقام والعذاب ما تحملوه ، ولكنهم تغلبوا على الوثنية مع تمادي الأيام ، فالآن الجزويت ، والبروتستانت ، الفرنسويون ، والكويكرس ، والنورويجيون يستغلون ما زرعه العازريون من مائتي سنة في تلك الجزيرة ، العظيمة .

ثم تألفت رهبانية آباء الروح القدس ، وسنة ١٧٧٨ أبحر الابوان بيرتو وغليكور الى السنغال ، فأخذوا ينصرون الزنوج في سان لويس وجزيرة غوري Gorée وفي سنة ١٨٤٨ اندمجت هذه البعثة في بعثة قلب مريم الاقدس تحت ادارة يهودي متنصر اسمه ليبرمان، أحسن التدبير ، وربط الدعوة الكاثوليكية بالحكومة المدنية ، فاتسعت مؤسسات هذه البعثة في افريقية تدريجا ، فتجد لها مراكز في الكونغو البرتغالي ، وفي غامبية ، وفي مستعمرة سيرا ليونه الانكليزية ، وزنجبار ، ولها في المستعمرات الفرنسوية اسقفية ، كرسيها داكار Dakar التي فيها ١٥ ألف متنصر. ومركز في كيتا Kita في السودان السنيغالي ، وآخر في كوناكري من غينية الفرنسوية . واسقفية في غابون Gabon من الكونغو الفرنسوي . وأخرى في أوبانغي Oubangui من الكونغو الأعلى . ولم يقتصر هؤلاء الرهبان على التبشير بالانجيل بل نشروا العلم ، وأحيوا الزراعة ، وأتوا بنباتات جديدة ، وادخلوا حيث وجدوا صناعات مفيدة ، وهذبوا الأخلاق وأبطلوا كثيراً من قبيح العادات .

ثم أتى بعد رهبانيتي العازريين والروحيين ، بعثة ليون الافريقية وبعثة الا باء البيض . ففي سنة ١٨٥٦ أسس المطران دوماريون برازيلاك أصله من الدعاة في الهند الشرقية ، مدرسة لتخريج المبشرين المراد ارسالهم لتنصير الزنوج . ثم عين هو أسقفاً في سيارا ليون ، فذهب ومعه عدد من الرهبان فهلكوا بالحمى الصفراء ، فتطوع غيرهم للقيام مقامهم ، وما زالوا صابرين ثابتين حتى أفلح عملهم ، فترى لهم اليوم كراسي في ساحل العاج ، والنيجر الادنى ، وساحل الذهب ، والداهومي ، وبنين . وقد وفقوا توفيقاً كبيراً في ساحل العاج وفتحوا تسع مدارس منها ، مدرسة دينية في دابو وقد أحمدوا طباع أهل تلك البلاد من السكينة وحب العمل ، بخلاف أهالي داهومي ، الغلاظ الشداد ، المتعصبين للفتيشية ، ثم أسسوا مدرسة زراعية في توكبو ، وأسقفية في بنين Benin .

وآخر رهبانية تأسست لنشر الدين المسيحي في افريقية هي الآباء البيض ، أسس هذه الجمعية الكردينال لافيجري مطران الجزائر سنة ١٨٦٩ ، وعاكسه في هذا المشروع المارشال ماكاهون ، الذي كان رأيه أشبه برأي الشركة الانكليزية في الهند من تجنب الدخول في قضية التنصير ، لئلا يحصل مشكلات للادارة الفرنساوية ، فالكردنيال كان يرى غير هذا الرأي ، ويقول انه يجب الامتزاج بالاهالي واستجلابهم الينا ، لئلا يلبثوا على عقيدة القرآن، التي تجعل بيننا وبينهم فاصلة كبرى . فما زال الكردينال مصر اً على فكره حتى أنشأ هذه الرهبانية وراعى فيها عادات القوم ، وأردفها برهبانية أخرى للنساء اسمها « الراهبات المبشرات لسيدتنا العذراء في افريقية» (الحقيقة أن كلا من رهبانيتي الا باء البيض والراهبات المذكورات ، نالت عضد الحكومة الفرنساوية في كل شيء وارتفعت منهما شكوى الجزائريين ، وغيرهم من سكان المستعمرات الفرنساوية بدون فائدة ، وليس هنا مقام تفصيل ذلك) .

وميادين عمل الرهبان البيض هي أولا الجزائر وتونس . ثانياً الصحراء والسودان . ثالثا بلاد خط الاستواء من افريقية . رابعا بلاد نياسا غربي الموزامبيق التي فيها كرسي اسقفية (ولسائل أن يسأل : لماذا يعملون في تونس والجزائر ولا يعملون في المغرب الاقصى ؟

والجواب : دون الآباء البيض وراهبات التبشير ، يأتي في المغرب الاقصى بعد أن يتم اخضاع الثائرين في جبال الاطلس ونزع السلاح من أيدي القبائل ، أما الآن والثورة لاتزال ثائرة ، فالحكومة الفرنساوية تمهل في هذا الأمر وان كانت لا تهمل) .

وبلاد خط الاستواء الافريقية وبلاد نياسا كلتاهما ، من المستعمرات البريطانية والبرتغالية ، فلا تهماننا الا في الدرجة الثانية . ولكنهما مع ذلك لاتخلوان من العمل ، فيما يتعلق بمقاومة الاسلامية ومنع الرق (ان الرق ليس من الاسلامية بل ان الرق عادة قديمة عرفتها النصرانية والاسلامية وغيرهما ، وما حبب الاسلام شيئا الى الناس أكثر من تحرير الرقيق الذي هو من أفضل القربات شرعا . ثم لما منعت أوربا تجارة الرقيق ثارت في وجهها شعوب مسيحية كثيرة مثل البوير في جنوبي افريقية ، وكل أحد يعلم أن امريكا انقسمت قسمين في أمر العبيد ، وثارت الحرب بين الفريقين أربع سنوات ، فاجتهاد بعض مؤلفي أوربة بالصاق الرق بالاسلام خاصة ، هو من جملة التحامل على الاسلام ، كما انني وان كنت احمد صنع الدول التي ساعدت على الغاء الرق ، لا أنكر أن معاملة العبيد السود في بلاد الاسلام ، هي أفضل بكثير من معاملات الامم المستعمرة لرعاياها البيض ، نعم ان هذه الأمم لاتبيع أهالي الجزائر ، وتونس ، وتونكين ، وغيرهم ارقاء في الاسواق ، ولكنها لا تعرف لهم أدنى حق بازاء الاوربيين ، وهي تضع يدها على ما شاءت من أراضيهم ومعادن بلادهم ، وتستثمر أرضهم ودمهم وعرق جبينهم قسراً ، بدون أن يكون لهم بذلك أدنى خيار فهل الرق سوى هذا ؟) .

فان قرار مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ بمنع الرق ، قد قاومه تجار العرب بالسلاح ، واضطرت الدول الى قمع ذلك بالقوة (يذكر المؤلف هنا مقاومة العرب وينسى مقاومة الجنس الاوربي في الترنسفال) .

أما في الجزائر وتونس ، فلما كان الحكم لفرنسا لم يكن من حاجة الى استعمال القوة ، فرهبانية الآباء البيض تلجأ الى الوسائل السلمية لا غير . فهي تؤسس بقرب كل محطة مستوصفا طبيا ، وصيدلية . الاول منهما ، يصف العلاجات والثاني يعطيها مجانا ، ثم مدرسة ودار ايتام . وليس الا بعد وقت طويل وباذن أهل الاولاد ، يلقن الآباء هؤلاء الاولاد التعليم الديني (غير معقول ان يسمح المسلمون أهل الاولاد بتلقينهم تعليما دينياً غير الاسلام بمجرد رضاهم ، بل هنا أحد امرين ، اما أن يكون أهل الاولاد لا يجسرون على الاعتراض أو يكونون هم أنفسهم تركوا الاسلام) أما اليتامى فيعلمون التعليم الديني فرضاً . وقد تقدم الآباء البيض الى الداخل فصارت لهم مؤسسات في لاقوات (١٨٦٨) ، وفي أوارغله (١٨٧٣) ، وفي توغورت (١٨٧٨) ، الخ ولما دخلت العساكر الفرنسوية مدينة تمبكتو سنة ١٨٩٤ في ١٠ يناير تحت قيادة الكولونل بونيه والقومندان جوفر ، أسس الآباء البيض مركزا في تمبكتو وستة اخرى في جوارها .

وخلاصة ما قامت به الرسالات الكاثوليكية من برتقال ، وطليان ، وفرنسيس ، في القارة السوداء ، هي انها هاجمت هذه القارة من الجانب الغربي ، ومن الصحراء ، ومن الكونغو ، ومن جهات البحيرات الكبيرة ، نعم انها لم تقدر ان تمزق العصبة الاسلامية ، لكنها هذبت قسما عظيما من الامم الفتيشية ، وتوفقت الى ابطال كثير من عاداتهم البربرية .

ثم ذكر المؤلف ، اشتراك السياح والمبشرين في تهذيب افريقية فقال : ان لفنستون في أحد تقريراته يقول : « ان نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري . وهذه حقيقة كلية اذ من المحال ان نكتشف أراضي جديدة بدون ان ينبه ذلك فينا شوق دعوة أهلها الى الانجيل ؛ هذه البشارة التي اعطتنا السلام والهناء والرجاء » . ولقد رأينا المبشرين الكاثوليك ، يتعقبون آثار البحارة البرتغاليين والفرنسيس والطليان ، ويؤسسون أوطانا مسيحية في سواحل افريقية الغربية والشرقية ، متخذين هذه المراكز في سواحل شرقي افريقية محاط في طريقهم الى الهند ، ولكن كل هذا ما عدا الذي جرى في الحبشة ، لم يتجاوز مناطق معلومة من سيف البحر . ولكن جاء فيما بعد ذلك السائحون الجوابون في الربع الاخير من القرن الثامن عشر والارباع الثلاثة من القرن التاسع عشر ، فدخلوا من مصاب الانهر . وتوغلوا في البلاد ومنهم من ذهب قتيل جرأته فكانوا هم طلائع المبشرين ، وعلى آثارهم سار هؤلاء ، وبالاجمال فمداخل افريقية التي تولج منها هؤلاء الجوابون الى باطن هذه القارة ، هي أربعة أو خمسة ، أولها النيل لامتداد طريقه من مصر الى اقصى منابعه . الثاني نهر الغامبية ثم نهر السنيغال . الثالث ، رأس الرجاء المعروف بالكاب نظرا لاهمية هذا الموقع التجاري . الرابع ، الجزائر منذ استولت عليها فرنسا ، ثم طرابلس . الخامس ، جزيرة زنزيبار بسبب علاقاتها مع السواحل التي تحاذيها .

وأول من توغل في افريقية من جهة النيل هو جيمس بروس James Bruce الاكوسي المتوفى سنة ١٧٩٤ ، وصل الى مصر سنة ١٧٦٨ ، وصعد الى الاقصر وشاهد آثارها ، ثم الى اسوان ومنها الى القصير ، ومنها أجاز الى جدة وركب البحر من جدة الى مصوع ، ومن هذه سار الى الحبشة مزوداً بتوصية من بطريرك القبط في مصر الى الراس ميشل ، وأقام مدة . مينة غندار قصد منابع النيل وظن أنه وصل الى رأس نبع النيل الازرق ، والحقيقة أنه لم يصل الا الى العبادي ، وهو ملتقى أنهر من النيل لا أصل نبعه . ثم عاد الى مصر من طريق اسوان . وبعد ١٢ سنة من سياحة بروس هذا جاء الى مصر فولناي الكاتب الفرنساوي الشهير ، ولفت أنظار قومه الى وادي النيل قائلا : « يجب الاستيلاء على وادي النيل ثلاث حروب : الاولى مع انكلترة . الثانية مع العثمانية . الثالثة وهي أشدهن مراسا مع الاسلام . لانه هو السائد في هذا الوادي . وربما كانت هذه العقبة غير قابلة الجواز » (كذا) وكان نابليون بونابارت قد قرأ كلمات فولناي ، فكانت مما استفزه الى غزو مصر . ولم يكن تجسيم فولناي صعوبة هذه الجملة الا ليزيد فيها رغبة بونابرت ، في غرامه باقتحام الصعاب وعشقه للمجد ، فكانت تلك الغزاة الشهيرة التي ظهر فيها من مزايا نابليون العسكرية ما ظهر ، وانما لم يقدر الناس قدر مهارته السياسية ، استجلابه خواطر المسلمين وامتزاجه بهم في عقائدهم وعاداتهم ، وقد كانت غزاة مصر هذه من سنة ١٧٩٨ الى ١٨٠١ ، مبدأ لاسفار ورحلات صوب منابع النيل استمرت الى ١٨٤١ ، وقد حذا حذو نابليون بونابرت في سبيل الاكتشاف والبحث ، أمير مصر الكبير محمد علي ففي زمانه ، وصل فريدريك غاليو Gailliaud الى طيبة وواحة سيوه ، ثم صعد مجرى النيل الى أن وجد خرب العاصمة القديمة مرويه Meroé (١٨١٨ الى ١٨٢٠) الى ان بلغ الدرجة ١٠ من العرض الشمالي . وبعد هذا ببضع سنين

وصل عالم الماني الى النوبة العليا ، وكان أول أوربي دخل كردوفان غربي النيل الابيض ، ثم انفذ محمد علي بعثة وصلت الى درجة ٤ من العرض الشمالي في غوندوكورو . وامتد عمل السياح الى الحبشة وبلاد شوا وبلاد الغالا ، فكان ممن اشتهروا بذلك روشه دير يكور Rochet d'hericoure وتيوفيل لوفابفر Théophile Lefebvre (١٨٣٩ الى ١٨٤٣) ، وابناء آبادي D'Abbadie (١٨٣٣ الى ١٨٣٨) وهؤلاء من الفرنسيس ثم الانكليزي شارل بيك Beke والالمانيان كرابف وايزنمان ثم ان الالمانيين أرهاردت وريبمان ، هما اللذان توغلا في اصقاع البحيرات الكبرى ووصلا الى قنن الثلج من بلاد كينيه Kenia والكيلمانجارو Kilmandjaro (١١ مايو ١٨٤٨) ومن هناك انفتحت الطريق التي انطلق منها سموئيل باكر (١٨٦٤ الى ١٨٧٣) والكولونل غوردون ، وأمين باشا ، وليننانت بك وغيرهم . وكان لهؤلاء السياح اثر بعيد الصيت في تهذيب الزنوج ، واجتهد سموئيل باكر واصحابه بالغاء الرق ، مستظهرا على ذلك بأمر الخديوي ، وهلك غوردون في الخرطوم بيد المهدي ، بعد ان أقام بضع عشرة سنة يرقي من اخلاق السودانيين .

ولم يكن شيء يشابه همة هؤلاء السياح الابطال في شرقي افريقية ، سوى همة اعضاء تلك الجمعية الانكليزية المسماة African Association التي تأسست سنة ١٧٨٨ في لندرة وكانت الاطالس الجغرافية الى ذلك الحين لا تمثل أواسط افريقية الا برقعة بيضاء متسعة ، لان الجغرافيين لم يكونوا يعرفون عنها شيئا . وكما كان السياح الذين ساروا من مصر غرضهم منابع النيل ، كان السياح الذين صعدوا من نهري السنيغال والسنيغامبيه يقصدون تمبكتو ، تلك المدينة الشهيرة عند العرب . فالماجور دانيال هوغتون Hougton ركب نهر السنيغامبيه ، ووصل الى مدينة Médina ، ومنها الى عاصمة بامبوك Bambouck (١٧٩١) ، لكنه لم يبلغ نهر النيجر ، وانقطع خبره . أما مونغاوبارك Mungopark الاكوسي ، فصعد من بلاد غامبيه ، فوصل الى النيجر عند سيغو Segou وعاد من حيث أتى ، ثم بعد تسع سنوات ، عاد فصعد النيجر ووصل الى تمبكتو ، ثم أوغل الى بوسانغ ، وهلك قتيلا سنة ١٨٠٦ . وكان رفيقه الفرانساوي موليان Mollien قد اكتشف منبع نهر السنيغال ، ومنابع نهر الغامبيه ، وريوغرانده سنة ١٨١٨ .

ثم ان رينيه كاليه Rene Caillié الفرنساوي ، لم يزل يجوب تلك الاقطار حتى وصل الى تمبكتو بعد مشاق لا توصف ، وذلك في فبراير سنة ١٨٢٨ ، وبعد ان اقام بها مدة لحق بقافلة مغربية عائدة الى فاس ، فوصل الى هذه العاصمة في ١٢ اغسطس ، ومنها ذهب الى الرباط وابحر الى فرنسا ، وأكرمته الحكومة والجمعية الجغرافية ، لكونه أول أوربي وصف تمبكتو وصفا عن عيان ، (أما العرب فكانوا يعرفون تمبكتو منذ قرون ، وبقيت هذه المدينة والممالك التي تجاورها أعصرا طويلة جزءا من سلطنة المغرب الاقصى ، ووصول السائح العربي الى تمبكتو ، لم يكن له من الشأن أكثر من وصوله الى احدى مدن المغرب) .

وسافر الضابط لنغ Laing الاكوسي من طرابلس الغرب ، قاصدا تمبكتو في ١٦ يوليو ١٨٢٥ ، فبلغها في ١٨ أغسطس ١٨٢٦ ، ولكنه قتل اثناء ايابه . وأما الاكوسي كلابرتون Clapperton فاكتشف بحيرة تشاد ، ومملكة الفلاتة ، وزار مدن كانو ، وكازينا ،

وسوكوتو ، ومات في سوكوتو سنة ١٨٢٧ وكان معه رفيق اسمه ريشاد لاندر فاكتشف مصب النيجر ثم اكمل اكتشاف مجرى النيجر الدكتور بايكي الاكوسي ومعه جماعة ، وذلك من سنة ١٨٥٤ الى سنة ١٨٦٤ .

فهؤلاء السياح وأمثالهم هم الذين بقصص اسفارهم هاجوا شوق مبشري الكنيسة الانكليكانية والمتيودية الانكليزية ، وكان الانكليكانيون منذ سنة ١٨٠٤ اسسوا مراكز لهم في سيراليون Sierra Leone واقتدى بهم الميتوديون بعد ١٠ سنوات من ذلك التاريخ ، وفي سنة ١٨٦١ ، كانت لنصارى الزنج في تلك الاقطار كنيسة مستقلة بذاتها .

وأما طريق الكاب فهي الطريق الثالثة التي دخل منها المبشرون الى باطن افريقية ، والمبشرون هنا لم يسبقهم السياح بل كانوا هم السابقين ، بدأ بذلك جورج شميد سنة ١٧٣٧ ، ويانسن سنة ١٨٠٠ ، فوصلا الى بلاد الهوتنتوت ، ثم ان الدكتور تيودور فان دين كمب الهولاندي ، ذهب الى بلاد الكافر من ناحية بور اليزابت . ثم الدكتور فيليب الانكليزي وصل الى بلاد البوشمن Buschmen ، الذين هم أشد اولئك الاقوام توحشا ، وقد تكلم هؤلاء المبشرون من قسوة طائفة البوير نحو السود ، ولا سيما الدكتور فيليب هذا ، الذي كانت له اليد الطولى في الغاء الرق بتلك الديار ، وكان هو السبب في اعطاء الهوتنتوت حقوق رعايا المستعمرات .

وممن ذهب للتبشير في بلاد الكاب بيسو Bisseux الفرنساوي أحد دعاة البعثة الانجيلية البارزية ، وصل الى وادي شارون Charron فوجد هناك اربعة آلاف مستعمر فرنسي من اعقاب الهوغنوط (بروتستانت الفرنسيس) ، جلوا الى هناك عند طردهم من فرنسا ، ولكنهم كانوا نسوا اللغة الفرنسية تماما ، ولم يبق عندهم من آبائهم الا بعض نسخ فرنسية من التوراة . ثم ان اثنين من بروتستانت باريز لمير Lemire ورولان Roland وصلا سنة ١٨٣٣ الى لسوتو Lessouto . وصار هذا القطر من ذلك الوقت مركزا للدعاية البروتستانتية الفرنسوية . وبعد هذا التاريخ بخمسين سنة ، تقدم أوجين كوليار Eugene Coillard الفرنسي الى بلاد زمبازه العليا ، ونصر كثيرا من زنوج الماروتزي Marotsé .

ولكن الاكوسيين احرزوا قصب السبق في تهذيب اهالي تلك الاقطار ، اشتهر منهم موفا Moffat الذي قضى زهاء نصف قرن ، يجتهد في تنصير امة البيتشوانه Betchouana وترجم التوراة الى لغة السيتشوانه Sitschouana ، فاوجد في لغة أولئك المتوحشين ادبا لم يكن معروفا ، وازوج موفا ابنته ، من ليفنستون الشهير المولود سنة ١٨١٥ ، وكان هذا رحالة ومبشرا معا ، بدأ سياحته بين نهر الاورانج وزمبازه ، ثم دخل اواسط القارة الافريقية ، ومنها خرج في لواندة Loanda بساحل الكونغو ، ومنها ذهب الى كليمان Quelimane بساحل الموزامبيق ، وهو أول أوربي اطلع على مجرى نهر زمبازه ، وهذه رحلته الاولى من سنة ١٨٥٣ الى ١٨٥٦ ثم باشر رحلته الثانية (١٨٥٨ الى ١٨٦١) فعرف بها مجرى النهر الادنى ، ودخل بلاد الشيري Chiré ، واكتشف النياسا Nyassa من البحيرات الكبر في أواسط افريقية . وأما في رحلته الثالثة ، فجاب الاقليم الواقع بين بحيرة نياسا وبحيرة تنغانيكا ، وعرف طرف التنغانيكا الجنوبي ، وسنة ١٨٦٨ اكتشف

بحيرة بانغفلو Banguvlo ، وفي هذه السنة انقطعت أخبار لفنستون المذكور ، فقلق بال الناس عليه نظرا لباهر اقدامه وجرأته ، فارسل مدير جريدة النيويورك هرالد أحد الاخباريين المدعو هنري ستانلي لتعقب آثار لفنستون ، فسافر ستانلي من باريز سنة ١٨٧١ ، فالتقى لفنستون بعد ١٠ سنوات في محل يقال له أوجيجي على ضفة بحيرة التغانيقا ، ومات لفنستون بعد ذلك بسنتين أي عام ١٨٨٣ على ضفة بحيرة بانغفلو . وكانت للفنستون هذا همة عالية ، وعزمة راسخة ، استخدمهما في الغاء الرق ومنع تجارة الرقيق ، وتعرض من أجل ذلك مرارا الاخطار .

أما الطريقان الباقيتان الى داخل افريقية فهما (الجزائر وطرابلس) اللتان كانت تذهب منهما القوافل الى باطن القارة السوداء ، وكانت هذه القوافل تحدث عن بحيرة عظيمة في الداخل يقال لها وانغاراه ، وكانت جمعية الشركة الافريقية في لندرة أرسلت الماجور بدي Peddie والضابط ليون بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٩ فهلك الاول ، وعجز الثاني من تجاوز فزان ولكن قنصل انكلترة في طرابلس كان يؤكد لتلك الشركة ان الطريق من طرابلس الى برنو هي مفتوحة نظير الطريق من لندرة الى ادمبرغ . (الحقيقة ان هذه الرحلات التي قام بها السياح الاوربيون في باطن أفريقية ، وعدها أهل أوربا مآثر عبقرية ، ووضع أصحابها في صف أعاظم الدهر ، كان العرب من سياح وتجار ودراويش ، قاموا بأضعاف أضعافها منذ قرون ، ولكن بدون بأو ولا فخر ولا ضوضاء عظيمة بل بكل بساطة لا يرى الواحد منهم في الذهاب الى بحيرة تشاد او الى السكنغو من الغرابة ، اكثر مما يرى في الذهاب من تونس الى غدامس . ولما وصل الاوربيون الى تلك الاقطار التي ظنوا انها مجهولة عند كل العالم ، لم يجدوا من مجاهلها مكانا الا فيه عرب ، اوآثار للعرب ، واللغة العربية) .

فأرسلت الشركة الافريقيه بعثة عقدت عليها للماجور دنهام ، فسارت من طرابلس في آخر مارس عام سنة ١٨٢٢ فمرت من فزان ووصلت الى كوكا عاصمة برنو في ١٧ فبراير عام ١٨٢٣ وتوغل كلابرتون أحد اعضاء هذه البعثة الى بحيرة تشاد وزاركانو ، وسكوتو . ثم ارسل الانكليز بعثة ثانية تحت قيادة جمس ريشاردسون ، وكان معه الالمانيان أوفرفغ Owerveg وبارت Barth فساروا من طرابلس في خريف سنة ١٨٥٠ ، واخترقوا فزان الى العاير ووصلوا الى بحيرة تشاد . وسنة ١٨٥٢ مات الالماني اوفرفغ ولكن زميله بارت لم يفتر عزمه بل أوغل في بلاد الاداموة في الجنوب وعرف ان نهر بينوي Binoué هو من شعب النيجر . ثم ذهب الى سكوتو في الغرب ، ومنها صعد وادي النيجر الى الشمال الغربي حتى بلغ تمبكتو فاقام بهذه المدينة من سبتمبر سنة ١٨٥٣ الى مايو من السنة التالية وعاد من تمبكتو ، الى برنو ، ومنها عاد الى أوربا سنة ١٨٥٥ .

وأما الفرنسيس فبعد فتح الجزائر ، بدؤا يجوبون الصحراء ، فكان اسماعيل بودريه ترجمان القلم العربي في «الاقوات» أول من أتى بالمعلومات الحقيقية عن الصحراء ، وعن التوارق الذين بين واحة وارغله ، وغات وذلك في نحو سنة ١٨٥٠ وعقبه في سنة ١٨٥٩ هانري دوفاقيه فجاء بمعلومات كثيرة عن التوارق . وبعد ذلك بسنين أرسل الكردينال لافيجري رهبانه الاباء البيض الى أقاصي الصحراء ، حيث أسسوا مراكز للتبشير وفتحوا مدارس للتعليم .

ومن المداخل المهمة التي كانت للاكتشاف والتبشير جزيرة ممباسا Mombaça وتوابعها ، وقد كانت مستعمرة برتقالية او برتغالية ، فاستولى عليها امام مسقط ، ثم سلطان زنجبار . ولما كانت منفذاً للقوافل الواردة من الداخل رأت فيها جمعية التبشير الانكليكانية ، محلا مناسبا لبث الدعوة . وسنة ١٨٤٤ جاء رجل الماني من ورتمبرغ اسمه كرايف ، فسكن في راباي بقرب ممباسا ، ثم انضم اليه جوّاب آخر الماني اسمه ربمان ، فأزمعا السير والنظر في داخل البلاد ، وكان اهم ما اكتشفاه ، جبلان مغطاة قننهما بالثلج الابدي جنوبي خط الاستواء ، وهما كينيا وكيليما نجارو (١١ مايو عام ١٨٤٨) وتقدم هذان الرحالتان في بلاد جاقا Djagga وكان اهلها من أشد الزنوج توحشا يأكلون لحوم البشر فاخذ كرايف وربمان يرشدانهم ويهذبان من اخلاقهم ، وفي احدى المرار أراد أحد ملوك تلك الناحية ان يكافىء كرايف على هدايا قدمها له فوهبه عاجا ومواشي وعدداً من العبيد فقال له كرايف : اما العبيد فلا أقبلهم لان العبودية هي خلاف القانون الالهي ، واما المواشي والعاج ، فما جئت الى بلاد اوزامباره لاجل حطام الدنيا ، فاذا شاء الملك يعطيني بعض أولاد غير ارقاء آخذهم معي الى رباي وأربيهم . ولما علمت جمعية لندن الجغرافية باكتشافات هذين الجوابين ارسلت بعثة عقدت عليها لضابطين من الجيش الانكليزي الهندي وهما ريشارد بورتون ، وسبيك ، فسافروا من زنزيبار سنة ١٨٥٨ واكتشفوا بحيرة تانغانيكا (١٣ فبراير ١٨٥٨) ثم بحيرة نياسا التي لم يروا الا قسما منها واطلقوا عليها اسم بحيرة فكتوريا ثم توغل سبيك ورفيق آخر معه في شمالي خط الاستواء الى الغرب ، فصادفا نهراً ظنا انه من أصول النيل ، ثم سارا في نحو الشمال فوصلا الى غوندوكورو في بحر الجبل ، وتلاقيا مع صموئيل باكر وأمرأته اللذين كانا يبحثان عن منابع النيل آتيين من الخرطوم.

وبعد عشر سنين من هذا التاريخ تلاقى هاري ستانلي مع ليفينغستون في اوجيجي على شاطىء التانغانيكا . والضابط كامرون خرج من زنزبار سنة ١٨٧٣ فلقي في الطريق قافلة الزنوج الامناء ، التي كانت آتية بجثة ليفينغستون وأوراقه الثمينة ، وسار من الشرق الى الغرب مخترقا جميع قارة افريقية واكتشف مجرى لوكايا Loukaya ولوالابه Loualaba ونفذ الى ساحل بنقويله Benguela على سيف الاطلانتيك (١٨٧٨) . ثم ان هاري ستانلي تمكن من نقل مركب بخاري الى بحيرة فيكتوريا نيانزا ، فجال في جميع أقسام هذا البحر الداخلي وأقام مدة ببلاد اوغاندا Ouganda ، ثم ضرب الى الغرب ، فوصل الى أعلى نهر الكونغو وعرف الشلالات التي سميت منذ ذلك الوقت باسمه . وأما الضابط البرتقالي سربا بنيتو Serpa-Pinto فاخترق هذه القارة من الغرب الى الشرق ، اذ سار من بنقويله في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٧ ؛ واوغل في مجاهل نانو ، وهيرامبو ، وبيهي ، ووصل الى الزامبيز الاعلى ومنها الى بلاد الماتيليه Matelélé ، والترانسفال .

فاسفار هؤلاء السياح هاجت شوق جمعيات التبشير الى بث الدعوة الدينية ، لا سيما كتاب ستانلي الى مسيحيي انكلترة الذي حرره من مقر متيسه Mtesa ملك الاوغانده (١٨٧٨) فقد احدث هياجا عظيما ، ورأيت جمعيات كليات اكسفورد ، وكامبريدج ، ودبلين ، وجمعية الكنيسة الانكليكانية ، والآباء البيض ، والمبشرين الالمان ، يتسابقون الى رود هاتيك الارجاء والدعاية فيها .

وهذه الاسفار ايضا كان لها التأثير الاكبر في اهتمام الدول الاوربية بمنع تجارة الرقيق المخجلة (اوافق على انها مخجلة) ، وكانت انكلترة هي السابقة في هذه الحلبة ، ولما كانت جزيرة زنزبار هي أعظم مركز لهذه التجارة فقد اجبر الانكليز سلطان زنجبار عام ١٨٧٣ على امضاء تعهد بمنع تجارة العبيد ، واخذت مراكب انكلترة تضبط جميع مراكب العرب التي تجد فيها عبيداً ، وكثر عدد هؤلاء المستنقذين ، فعمروا لهم مكانا يشتغلون فيه قصاد جزيرة ممباسه . وسنة ١٨٧٦ انعقد مؤتمر جغرافي في بروكسل ، انتخب فيه ليوبولد ملك البلجيك رئيسا للشركة الشعوبية لتحضير افريقية ، وهذه الشركة ، هي التي أوجدت حكومة الكونغو الحرة .

وسنة ١٨٨٥ ، انعقد في برلين مؤتمر لتقسيم افريقية بدعوة البرنس بيسمارك ، وخرج في نصيب المانية حصص صالحة مثل مستعمرات الكامرون ، وتوقو ، وزنجبار ، وتقرر بين الدول التشديد في الغاء الرق ، والتعهد بحماية رسالات التبشير الساعية في تهذيب السود بدون تفريق بين المذاهب والاجناس ، كما ان حرية الاهالي الدينية بقيت مضمونة . وقد أيد قرارات مؤتمر برلين هذا ، مؤتمر انعقد في بروكسل عام ١٨٨٨ ، تداعت اليه جميع الدول النصرانية وارسلت اليه بعض الدول الاسلامية مثل تركية ، وايران ، وزنجبار مندوبيها ، وتقرر انشاء دائرة دولية في زنزبار لمراقبة ابطال الرق .

الرسالات البروتستانتية في افريقية

لم تصل البعثات التبشيرية الى افريقية الا بعد البعثات الكاثوليكية بقرنين ونصف قرن ، وهو أمر طبيعي لان البروتستانتية قبل ان تفكر في نشر دعوتها في خارج اوربا ، كان عليها ان توطد قدمها في داخل أوربا . ولكن البروتستانتيين بعد ان بدأوا في التبشير ، سبقوا اقرانهم الكاثوليك في الاجتهاد والنجاح . وكانت الدول المسيحية بادىء ذي بدء ، أرادت حمل الزنوج على التنصر بنفوذ الحكومات ، وسارت زمانا على هذه الخطة ، ولكن دول انكلترة ، وهولانده ، والدانمارك ، رفضت في التالي هذه الطريقة خشية حدوث الثورات في مستعمراتها ، وتركت ايفاء مهمة التنصير للجمعيات غير الرسمية .

وان أكثر الامم رسالات دينية في افريقية هي الامة الانكليزية ، فانها تنفق بقدر ثلثي نفقات الرسالات البروتستانتية باجمعها . ولكن الذين بدأوا بالتبشير لم يكونوا الانكليز ، بل الالمان والدانمركيين . وقد كان أول من اقتحم هذه الاخطار من الالمان هم المورافيين ، حاولوا الدخول من اربعة أبواب معاً : الجزائر ، والقاهرة ، وساحل غينية والكاب . ففشلوا في الثلاثة الابواب الاولى بسبب تمسك أهل الاسلام بدينهم ، وبما فتكت بهم الحمى في غينية ، فقد كانوا يرسلون الفوج بعد الفوج ، فتحصدهم الحمى تباعا حتى عدلوا عن رسالة غينية ، ولم يستأنف العمل هناك الا بعد ستين سنة بواسطة جمعية (بال) من سويسرة الالمانية . أما في بلاد الكاب ، فقد كانت لهم اليد الطولى في تهذيب الهوتنتوت والكافر Kafres ، وتخفيف آلام المجذومين . ولما توطن المبشر الالماني جورج شميد في بافيانس كلوف على ٥٠ ميلا شرقي الكاب ، كان الفلاحون الهولانديون « البوير » يحتقرون الهوتنتوت

الى حد انه هوأقرأ امام عدة كنائس الاعلان الآتي « ممنوع دخول الهوتنتوت والكلاب الى هنا » . وسنة ١٧٩٢ اسس المورافيون في تلك البلاد مركزاً أطلقوا عليه اسم وادي الرحمة Gnadental ، وفي سنة ١٨٠٠ صار هذا المركز قرية ذات ١٢٠٠ نسمة ، فيها صناعات واشغال مفيدة ، واليوم هي من أزهر بلاد الكاب ، وفيها ثلاثة آلاف هوتنتوتي مسيحي . ثم اوغل المورافيون في بلاد الكافر الى مسافة ٦٠٠ ميل شرقي الكاب ، وعاقت أعمالهم حروب الانكليز مع امة الكافر ، لكنهم ثبتوا في موقفهم وصبروا على الشدائد من سنة ١٨٢٨ الى سنة ١٨٨٥ ، اذ وفقوا الى تأسيس مركز في شمالي بحيرة نياسه Nyassa في الجنوب الغربي من المستعمرة الالمانية الشرقية . وكان للبعثة المورافية عام ١٩٠٢ نحو ١٢ مركزا ، و ٢٢ مدرسة ، و ٢٠٠٠ تلميذ ، ونحو ١٠ آلاف متنصر وعلموا الاهالي البناء والحرث . ولكن أهم عمل قاموا به هو معالجة المجاذيم ، فان الانكليز منذ سنة ١٨١٨ بنوا مستشفى لمجذومي الهوتنتوت وسلموا خدمته الى المورافيين ، وكان مستشفى واسعاً ذا جدران عالية وباب واحد ، فلبثوا يخدمون هذا المستشفى ٤٤ سنة ، وكان الدكتور لابتز مدير المستشفى متعزيا عند وفاته ، بانه وجد من المجاذيم ٩٥ رجلا قبلوا الدين المسيحي . ولما أرادت الحكومة الانكليزية استبدال قسوس انكليز بهم ، خرجوا من ذلك المعهد الصحي باكين ، ومن الغريب انه لم يصب ولا واحد من المورافيين بالجذام مع شدة عدوى هذا المرض .

ويأتي بعد المورافيين دعاة جمعية بال (أو بازل بالالمانية) فقد لطحوا افريقية سنة ١٨٢٨ بطلب ملك الدانمرك ، فذهبوا الى ساحل الذهب وكانوا سبعة ، فمات منهم خمسة بالحمى ، والتجأ أحد الاثنين الباقيين الى أحد الجبال حيث الهواء نقي ، فجعل هنالك مركز رسالة ومصحة معاً ، وسنة ١٨٣٥ اسس في اكروبنغ كنيسة لنصارى السود ، وكانت مباديء العمل في غاية المشقة اذ مضت ٣٤ سنة ولم يتنصر سوى ٨٠٠ شخص ، ولكن منذ سنة ١٨٥٧ اخذت الرسالة تنجح وعدد المتنصرين ينمو ، حتى كان مجموعهم سنة ١٩٠٢ نحو ١٨ الفا . وهذه الرسالة اليوم ممتدة الى بلاد الاشانتي التي قاعدتها كوماسي ، والى حدود مستعمرة طوغو الالمانية . ولها أيضا تسعة مراكز في مستعمرة الكامرون الالمانية ، حيث يلتف حولها نحو ثلاثة آلاف نصراني كامروني ، وعندها في الكامرون ١٣٧ من الكتاتيب ، يختلف اليها نحو ٣٢٠٠ ولد . وقد ترجم رجال هذه البعثة التوراة الى اللغة المسماة دوالا Doualla .

ثم جمعية برلين الافريقية وهي احدى جمعيات برلين الانجيلية ، اسسها ديستلكامب Diestelkamp سنة ١٨٨٦ للتبشير في شرقي افريقية ، فارسلت دعاتها الى الجنوب الغربي من مملكة الاورانج ، والى غربي غريكا ، والى بلاد الباسوت في الترانسفال ، والى شمالي بحيرة نياسه ، فيوجد لها في هذه الايام ٢٧ مركز دعاية و ٢١ الف متنصر ، وازهر مؤسساتها مدينة بوتشابيلو ، التي عدد سكانها ٤ آلاف كلهم نصارى ، وفيها صناعات وهي في غاية الفائدة . .

ثم جمعية الكنائس الانجيلية في بلاد الرين ارسلت دعاتها للتبشير في بلاد الهوتنتوت ، ثم نطحت بلاد الناما Namas ، والهريرو Herreros الذين هم من اشد القبائل عتواً ،

والاوفامبو الذين بين نهر الاورانج والكونين ، ثم ان أحد البيوتات التجارية الالمانية من برآم اسس محلا تجاريا في اوتجيمبنغه Otijimbinge ، فامتد هناك الالمان وجعلوا لانفسهم مستعمرة سموها مستعمرة الجنوب الغربي الافريقي ، فالرسالة الانجيلية الرينية عندها في هذه الايام في مستعمرة الكاب ٢٥ مركز دعاية ونحو ١٦ الف متنصر ، وفي مستعمرة الجنوب الغربي المذكورة ٢٤ مركزا ونحو ١٢٥٠٠ متنصر .

ثم جمعية شمالي المانية التي مركزها برام ، وجمعية هرمانسبورغ التي مركزها هانوفر ، هما أيضاً تشتغلان في الدعاية بأفريقية ، فالأولى تخدم هذا المقصد في ساحل العبيد وعندها نحو ٣ آلاف مريد ، والثانية تشتغل في بلاد الباسوتو شمالي الترانسفال ، والباسوتو قوم كان البوير يعاملونهم معاملة ارقاء . ثم تقدم دعاة هذه الجمعية الى بلاد الزولو ، وشرعوا في التعليم والتبشير ، فمن نصف قرن الى اليوم صار عندهم نحو ٤٣ الف متنصر .

ثم تأتي جمعيات السويد والنورويج ، فللسويد جمعية تبشر في مستعمرة ايطالية بالاريتره ، وفي بلاد كونانه ، ومقاطعة حمازه ، شمالي الحبشة الى الغرب ، وكان عندها سنة ١٩٠٢ عشرة مراكز و٥٠٠ مريد و١٤ مكتباً للصغار . أما النورويجيون ، فقد أسسوا في ماداغسكر رسالة في غاية العظم ، فانتخبوا مقاطعة بتسيليو للعمل بالاتفاق مع جمعية لندن التبشيرية ، ثم تقدموا الى بلاد ساكالاف في الساحل الغربي من ماداغسكر ، والى الساحل الجنوبي الشرقي . وبعد جهد استمر ٣٠ سنة ، كان عندهم سنة ١٩٠٠ خمسمائة مكتب ، وواحد وخمسون ألف وثلثمائة مريد ، ولهم أيضاً مدرسة علمية عالية ، ومدرسة لاهوتية ، ومدرسة طبية تابعة لمستشفاهم بتاناناريف .

ثم الجمعيات الهولاندية ، وأول من اعتنى منها بالتبشير ، جمعية تأسست سنة ١٧٩٧ في روتردام ، اسمها جمعية جنوبي افريقية لتوسيع مملكة المسيح . وكان بطلاها تيودور فان دركامب وكيشرر ، فذهبا الى بلاد الكاب وباشرا العمل في بلاد الهوتنتوت وعند ذلك اشتدت عزيمة الكنيسة الهولاندية في الكاب ، فقامت بما يجب عليها من التبشير بين زنوج بلاد الاورانج والترانسفال . ولما دخلت بلاد الكاب تحت سلطة انكلترة سنة ١٨١٥ ، انطلقت أيدي الجمعيات التبشيرية الانكليزية في العمل لا سيما جمعية التبشير بالانجيل المعروفة بهذه الاحرف الثلاثة .S.P.G فقد بثت الدعاية بين الاهالي بهمة المطران غراي ، وسنة ١٨٦٤ دخلت هذه الجمعية ماداغسكر ، وأسست كرسي اسقفية في تاناناريف ، وصار عندها ١١ الف مريد .

ثم برزت الى الميدان جمعية رسالات الكنيسة الانكليزية المؤسسة عام ١٧٩٩ ، وكان معظم همها مصروفاً نحو افريقية ، وكانت كلمتها « ينبغي رجال ذوو عقل ديني لا كمال عمل روحي » وفي البداية كانت تكتتب أكثر دعاتها في المانية ، فقد أخذت من مجمع مدينة بال وحده ثماني داعياً كلهم من الطراز الاول . وكان ميدان عملها الكاب ووادي النيجر الاوسط ثم مومباسه ، ثم الاوغانده حيث وقع الخلاف بين المبشرين الكاثوليكيين والمبشرين البروتستانتيين وجر الى معارك دموية ، ومع هذا ، فان هذه الجمعية جمعت حولها ١٦٤ الف متنصر في الاوغانده وحدها وكان يوجد هناك نحو ٢١٢ الف زنجي كاثوليكي ، و٤٠ ألف مسلم . ولا

يزال نحو ٣٨٠ الف زنجي على عبادة الاصنام (قرأت في بعض الكتب الفرنسوية أن الانكليز عززوا قوة الدعاية الانكليزية بالسلاح في الاوغاندة وضايقوا الكاثوليك والمسلمين) فالرسالة الانكليزية بواسطة هذه الجمعية تمكنت من تأسيس خمس عشرة اسقفية وهي ما يأتي : اسقفية الكاب (١٨٤٧) ، سيراليون (١٨٥٢) ناتال (١٨٥٣) ، غراهمستاون (١٨٦٣) ، بلومفونتن (١٨٦٣) ، الزولو (١٨٧٠) سان جان في بلاد الكافر (١٨٧٣) تاناناريف بمدغسكر (١٨٧٥) ، بريتوريه (١٨٧٨) ، زنزيبار وشرقي افريقية . خط الاستواء . بلاد النيجر . نياسه وماشونه في روديزيه Rhodésia . ويضاف الى هذه الاسقفيات مدارس للعلوم والمهن كالحدادة ، والنجارة ، وجر الاثقال ، وغيرها ، وأشهر هذه المعاهد الذي في غراهامستون ، ثم الذي في بلاد الكافر ، ثم الذي في جوار الكاب ، ثم الذي في كيبوزي .

ولقد اعترف بجلائل أعمال هذه الجمعيات أبعد الناس عن الدعوة الدينية . فقال اليزه ركلوس الجغرافي الفرنسي الشهير : انه بتأثير دعاية الجمعيات الانكليزية دخل كثير من زنوج سيراليون في النصرانية وصار منهم اكثر الوعاظ والمبشرين ، وأقبل الناس على التعلم وتحرر الارقاء ، وتأسست مملكة سوداء حرة .

ثم جمعية رسالات لندن المؤسسة سنة ١٧٩٥ ، أرسلت دعاتها الى بلاد البوشمن في الاورانج الاعلى ، والى ما بين بلاد الكاب وبحيرة ناقامي ، والى جزيرة مادغسكر ، وأسست سنة ١٨٧٧ مراكز بقرب تنغانيكا ، واورامبو ، واوجيجي . وقد كان مريدو هذه الجمعية بلغ عددهم سنة ١٨٥٠ في بلاد الكاب ٣٥ الف نسمة ، واما في سنة ١٩٠٢ فكان عددهم ٩٦ ألفا عدا رعية كنيسة ناتال . وتنصر على يد ليفنستون أحد أولاد ملوك بامانقواتو المدعو كاما ، فمنع استعمال الاشربة الكحولية بين الاهالي .

وقد اقتدت بالكنيسة الانكليكانية الكبرى الكنائس التالية ، فالكنيسة المعمدانية نشرت دعوتها في خليج غينية وجعلت لنفسها مركزاً في جزيرة فرناندوبو الاسبانية ، ثم بثت دعاتها في الكامرون حيث بنت مدينة فكتوريا التي صارت قاعدة مستعمرة الكامرون الالمانية ، وتركت في تلك البلاد مآثر عظيمة من تزكية الاخلاق ، والغاء الرق ، وابطال السحر واسقاط السحرة الى أن صاروا يتوارون في الغاب وصارت الفتيشية سخرة بهزأ الجميع منها . ولما استولى الالمان على الكامرون لم يرتاحوا الى وجود المبشرين الانكليز فيها ، فتخلى هؤلاء عن مؤسساتهم لجمعية بال الالمانية (١٨٨٧) ، وابث النصارى الوطنيون مستقلين بكنائسهم . وتحولت الجمعية المعمدانية من الكامرون الى الكونغو حيث كان البرتغاليون قد أدخلوا كثيرين في الكثلكة ، فاجتهد الانكليز المعمدانيون في استمالة قسم من أهل الكونغو ، ولكن الى اليوم لا يزيد عدد المتنصرين على أيديهم على أكثر من ٦٠٠ نسمة (١٩٠٦) .

ويرجع الى هؤلاء المعمدانيين الفضل في تنبيه الافكار الى ما كان يجريه عمال البلجيك في الكونغو من المظالم والفظائع ، التي تشمئز منها الطباع ، والتي شاع ذكرها فيما بعد ، فصدر أمر ملك البلجيك ليوبولد حينئذ بالتحقيق عن هذه الفظائع ، وثار من أجل ذلك غضب اولئك

المستخدمين الذين افتضحت أعمالهم لكن المبشرين قاموا بواجبهم تجاه النصرانية والانسانية جميعا .

ثم الكنيسة المسماة بالميتودية Wesleyeune ou Méthodiste (كنيسة بروتستانية أسسها في اكسفورد يوحنا وسلي John Wesley سنة ١٧٢٩) بدأت بالتبشير في سيراليون سنة ١٧٩٦ ، ونجحت نجاحا عظيما حتى يعد مريدوها اليوم بنحو ٧٥٠ الف نسمة منهم ١٥٠ مبشرا زنجيا وعندها فروع ممتدة من غامبيه الى النيجر . وللكنيسة الميتودية هذه رعية في بلاد الكاب ، والكافر ، والزولو ويحصى مريدوها هناك بنحو ١٠٠ الف نسمة . وفيما بين الزنوج الميتوديين ظهرت الحركة المسماة بالاتيوبية Ethiopisme ، التي معناها نزوع المسيحيين السود من امة البانتو Bantous في جنوبي افريقية الى ادارة الكنائس الاهلية بدلا من الاوربيين ، عملا بقاعدة « افريقية للافريقيين » ، وقد بزغت هذه النزعة سنة ١٨٩٦ في الترانسفال ، وأخذت اسم الاتيوبية بحجة ان أصحابها يريدون الانتماء الى الكنيسة الاتيوبية أي الحبشية ، لانها كنيسة مسيحية أصلية في افريقية تأسست منذ أيام الحواريين . وهم يرمون المبشرين الاوربيين بكونهم غالبا يجعلون التبشير مصيدة للدنيا ، وغرضا من أغراض السياسة والتجارة ، ولا يفهمون حقيقة احتياج الروح السوداء ، فمرماهم تأسيس كنيسة افريقية حرة لا تحت سيطرة المبشرين الاوربيين ، ولكن أصحاب هذا المشروع كان ينقصهم العلم اللازم والقوة الكافية لتحقيقه ، فراجعوا الكنائس السوداء باميركا لاجل مساعدتهم ، فلم يفوزوا بطائل يذكر ، فانضموا سنة ١٩٠٠ الى كنيسة الكاب الانغليكانية ، واتخذوا لقب الجمعية الحبشية وعددهم نحو ١٠ آلاف ، (يعلم القارىء المفكر من هنا ان نزعة الاستقلال عمت جميع الامم حتى السوداء ، وصارت الى المسائل الدينية أيضا فما كاد قسم من الزنوج يتنصرون على أيدي الاوربيين حتى نهضوا يطلبون استقلالهم الكلي ، ويحنون الى الحبشة النصارى ، ملتمسين الانضمام اليهم لانهم افريقيون في الجنس) .

ثم الكنيسة البرسبيترية L'Église Presbytérienne في بلاد الايكوس لها مراكز دعاية في بلاد نانال ، وعندها مدرسة في ليفسفود . وكذلك الكنيسة الايكوسية الحرة لها مراكز في بلاد الكافر ، والزولو ، وعندها مدرسة صناعية في لوفيدال ، فيها نحو ٥٠٠ طالب ، ويتبعها مزرعة انموذجية ، تبلغ غلتها كل سنة الف قنطار من الحبوب .

وبالاجمال فالرسالات الالمانية امتازت بالتدقيق في اللغات الافريقية ، وبالثبات وحفظ النظام ، ولكن الرسالات الانكليزية والايكوسية امتازت بالجرأة وبعد الهمة ، وبالصدق في تحرير الزنوج ، ومنع المظالم الواقعة عليهم من المستعمرين ، على ان كلا الفريقين ادخل في افريقية الشغل اليدوي ، والصناعة والزراعة ، مقرونة بالتعليم الديني والتهذيب ، فصرت ترى من هؤلاء السود زرّاعا وعشقا (جمع عشيق أو عشوق وهو الذي يسوي رياحين الحدائق) وممرّضين وميكانيكيين وقوّامين على التلغراف .

أما البروتستانتيون الفرنسيس فقد أرادوا الاقتداء بغيرهم من ابناء سائر الكنائس الانجيلية ، وتأسست لهم جمعية تبشير في باريز سنة ١٨٢٨ ، وأرادت بث دعاتها في العالم الوثني مبتدئة في ذلك بالمستعمرات الفرنسية مثل جزر الانتيل ، والبونديشيري ، ولكن

الكاثوليكيين أبوا ذلك ، فلم يسمح كارلوس العاشر ملك فرنسا للبروتستانت الفرنسيين بالتبشير في تلك الاصقاع ، فاعمل هؤلاء همتهم في بلاد الكاب لا سيما عند جيل يقال لهم الباسوتو Bassoutos وقد مضى على دخولهم تلك البلاد سبعون سنة هذبوا فيها أخلاق هذا الجيل ، وأوجدوا بينهم العلوم والمهن ، وأسسوا مدارس وكتاتيب ومطابع ، وعندهم الآن ٣٠ الف مسيحي من الاهالي و ١٢ الف ولد في كتاتيب الجمعية ، وقد جمع المبشرون لغة هؤلاء القوم في معجم ، والفوا لها نحواً وصرفاً وآدابا ، وترجموا لها التوراة .

ولما تأسست في فرنسا الحكومة الحرة اذنت لهم بالتبشير في المستعمرات الفرنسية ، فذهبوا الى السنيغال سنة ١٨٦٢ ، والى الكونغو الفرنسي ، والى زمبيزية العليا ، والى ماداغسكر. فأما الرسالة السنيغالية فكان عليها ان تجادل خصمين عنيدين . المناخ الوبي ، والتعصب الاسلامي . وبالرغم من ذلك ، تمكنت من تأسيس مركزين أحدهما ، في سان لويس والآخر ، في بونديكور . أما في الكونغو الفرنسي فكان أولا المبشرون الامريكيون من الكنيسة البرسبيترية ، فلما قضت الحكومة الفرنسية بتعليم اللغة الفرنسية بصورة اجبارية دعا المبشرون الاميريكيون جمعية التبشير البروتستانتية الفرنسية لاخذ مراكزهم (١٨٩٢) ، وأسسوا أربعة مراكز جديدة ، وشرعوا في الوعظ بين قبيلين أحدهما يقال له الغيلوه Galoas والثاني الباهوين Pahouins . وأما في زمبيزية العليا فانهم جعلوا ميدان عملهم بلاد الباروتزي Barotsis ، فنجحوا نجاحاً عظيماً ، ومن لم يتنصر من هؤلاء القوم ، فقد تهذبت اخلاقه بالاحتكاك مع المبشرين ونشر التعليم المسيحي ، ومنهم لفانيكا ملك البلاد الذي أمر بمنع الاشربة الكحولية في مملكته ، فالبعثة الفرنسية الانجيلية عندها هناك ستة مراكز ، مع مدارس وكنائس عديدة . ولكن بدأت تزاحمها منذ سنوات في ذلك القطر الجمعية الحبشية المار ذكرها ، والتي مبدأها « افريقية للافريقيين » .

ولما استولت فرنسا على مادغسكر بتمامها سنة ١٨٩٥ ، كان التبشير في هذه الجزيرة الكبرى في يد الجمعية النوروجية ، ورسالتين انكليزيتين احداهما ، رسالة لندن ، والثانية رسالة الكويكرس . فلما زحفت العساكر الفرنسية ، اتهم بعض دعاة رسالة لندن بتحريض أمة الهوفا Hovas على المقاومة ، فطلبت الحكومة الفرنسية تخلي رسالة لندن عن قسم من مؤسساتها لرسالة فرنسا الانجيلية ، وكان لرسالة لندن حينئذ خمسمائة كنيسة ، وثلثمائة وخمسة وسبعون كتابا للاولاد . ولم يخل هذا الامر من احداث شكوك وشبهات في افكار المادغسكريين المتنصرين حديثاً فاهتبل الجزويت هذه الفرة لتحذير الحكومة من البروتستانية ، وزعموا ان بروتستانتي هو مرادف انكليزي ، وان كاثوليكي مرادف لفرنسي أو محب لفرنسا ، فبمساعدة بعض ضباط الفرانسيس القوا في السجون عدداً كبيرا من القسوس الانجيليين من الوطنيين ، وانتزعوا منهم نحو مائة كنيسة ومدرسة ، وسلموها الى الرسالة الكاثوليكية . وما زال هذا الاعتداء واقعا حتى تولى الجزيرة الجنرال غالياني ، فابطله . والآن تحت يد البعثة الفرنسية الانجيلية في ماداغسكر في مقاطعة ايميرينه Imérina ٣٤٢ كنيسة يختلف اليها ٧٧ ٧٥٨ مؤمناً ، وفي مقاطعة بستيليو Bestileo ١٨٧ كنيسة يختلف اليها ٣٢ ٣٢٩ مؤمناً ، ما عدا المدارس الابتدائية والعالية ، ودور المعلمين

والملمات ، ومستشفى للمجاذيم .

ولا ننسى مساعي الكنيسة الانجيلية المتودية الفرنسية في بلاد البربر Kabylie من جوائر الغرب ، فقد ذهب الى هناك مبشر اسمه جالابرت عظيم الثبات والمهارة فجعل مركزاً في الماتن Mathen ، وآخر في القصور ، وآخر في بجاية ، ونصر عدداً من المسلمين اكثرهم من البربر ، فظهر ان تنصير المسلمين لا سيما من امة البربر ، ليس من الصعوبة بالدرجة التي كانوا يظنونها .

ثم ان الامريكيين قد تعاطوا أيضا التبشير في افريقية وذلك ، ان سود اميركا اهتموا باخوانهـم سود افريقية من قبيل تضامن الجلدة ، وان البيض تذكروا انهم هم الذين كانوا قد أتوا بهؤلاء السود واستخدموهم واستعبدوهم ، وأذاقوهم العذاب الوانا ، فرسالتهم التبشيرية الى افريقية ، هي تكفير جناية الاعتداء على الانسانية مما ارتكبه آباؤهم بحق الافريقيين .

فللاميريكيين في افريقية ثلاث رسالات : الرسالة المتودية ، والرسالة المعمدانية ، والرسالة البرسبيترية . فلما تاسست مستعمرة ليبرية في ساحل غربي افريقية وجاءها الزنوج من اميركا (١٨٢٠) أرادت الكنيسة الميتودية ان تؤسس في ليبريه مركزا فلم تتمكن من ذلك ، ولكن سنة ١٨٥٨ اسست اسقفية وجد فيها وعاظ مشهورون مثل بورنس وتايلر . (سنة ١٩٢٢ كان محرر هذه السطور من جملة الوفد السوري ، المطالب باستقلال سورية في جنيف لدى جمعية الامم ، فحسب العادة كنا نطلب من جميع الوفود الدولية بدون استثناء ، الملاقاة معهم لبسط القضية السورية لهم ، فكانوا في الغالب يجيبون سؤالنا ولما كانت جمهورية ليبريه هي من جملة أعضاء عصبة الامم ورد لنا الجواب من مندوبيها أيضاً بتعيين موعد للملاقاة ، فذهبت أنا وزميلي احسان بك الجابري . وتذكرنا ساعة ذهابنا ، كيف ان حكومة أمة سوداء زنجية تكون حرّة مستقلة وعضواً في جمعية الامم ، وان قطراً مثل سورية وفلسطين هما من أقدم وأشرف أقطار العالم ، وأمة كالامة العربية تكون محرومة استقلالها ، ولا يكون لها حق ان تساوي هذه الامة الزنجية الصغيرة ، في الجلوس على كرسي في عصبة الامم . ولما وصلنا الى المحل الذي فيه مندوبو ليبريه التقانا اثنان اوربيان ، تكلما معنا بالفرنسية ، وعرفنا منهما انهما مندوبا تلك الجمهورية ، فشرحنا لهما قصتنا والتمسنا منهما كالعادة ضم أصواتهما الى أصوات الذين يطالبون باستقلال الامم ، فاعتذرا بأنهما يخافان الضرر من غرمائنا الفرنسيس والانكليز فيما لورفعا أصواتهما باسعافنا في مطالبنا ، اذ قالا لنا ان جمهورية ليبريه صغيرة ومجاورة لمستعمراتهم ، فيمكنهم الانتقام من الليبريين ، ونحن في الباطن عذرناهما ، ولكنهما قالا لنا ، انهما يتمنيان نجاح قضيتنا ونجاح كل البلاد الاسلامية فسألناهما وهل في جمهورية ليبريه مسلمون ؟ فالتفت أحدهما وقال مؤكدا : « ان جمهورية ليبريه سكانها مليون وخمسمائة الف نسمة ، منهم ثلاثمائة الف نصارى ، ومليون ومائتا الف مسلمون . فسألناه وكم عدد الاوربيين في ليبريه ؟ فقال : الاوربيون التابعون لليبريه هم ٥٠٠ نسمة لا غير . فلم نزد في السؤال على ذلك ، واظن ان ازدياد عدد المسلمين هناك أمر حديث العهد » .

أما الرسالة المعمدانية الاميركية فلها مراكز في مونروفيه ، وسيراليون ، وفي ليبريه ، وفي بلاد يوروبه ، وقاعدتهم في هذه لاغوس على ساحل غينيه . وقد عضدهم في مساعيهم كلها مبشرو الجمعية المعمدانية السوداء .

وأما الكنيسة البرسبيترية الاميركية ، فقد وجهت نظرها من الاول الى مصر (١٨٥٤) ، وساعدها الخديوي سعيد باشا في مشروعاتها ، فشادت مدارس في القاهرة والاسكندرية وسنة ١٨٦٣ ، اسست الكنيسة القبطية الانجيلية وصارت لها شعب في أسيوط ، والاقصر ، والمنصورة ، وسنة ١٨٩٥ ادخلت النصرانية في اسوان بعد ان كانت انقرضت من هناك منذ ١٢ قرنا ، فالاقباط الانجيليون اليوم (١٩٠٦) يبلغ عددهم ٢٥ الفاً .

وانهى المسيو بونه موري كلامه الملخص هنا بقوله ، ان نجاح هذه البعثات الانجيلية كلها في افريقية ، دليل على كون قوة الدعاية النصرانية لاتقلب فيها لو تجردت من الاغراض السياسية ، فانه لايوجد آفة على التبشير أعظم من المآرب الاستعمارية ، اذ بذلك الاهالي يحملون التبشير لجميع الآثام والموبقات ، التي تصدر من عمال الحكومات المستعمرة .

نهضة الاسلام في افريقية وأسبابها

ووسائل دعوتها

(١٧٩٠ — ١٩٠٠)

قال : ذكرنا مجاهيد الرسالات الكاثوليكية والبروتستانتية في افريقية ، سواء ، لاجل اعادة الاقباط والاحباش الى حظيرة الكنيسة الرومانية ، أو لاجل تنصير الزنوج ، وبقي علينا استئناف الكلام على امتداد الاسلام في افريقية .

فقد رأينا كيف ان الاسلام بين سنة ٦٣٨ و ١٠٥٠ مسيحية في دوره الاول فتح سريعا شمالي افريقية وأدخلها في دينه ، وامتد من ساحل البحر المتوسط الى السودان امتدادا كان بطيئا ، لكنه كان أمينا . وقد توقف سير الاسلام قليلا في القرن العاشر بسبب ثورات البربر ، وحروب الروم ، وفتن ملوك المغرب بعضهم مع بعض ، ولكنه استأنف همته وادخل في حظيرته نصارى النوبة ، وامم الغالة ، والسواحليين (سواحل زنجبار) ، وقبائل الصحراء . ثم اسس في السودان ممالك عزيزة ، ومراكز عظيمة لبث الدعوة ، وهذا في دوره الثاني .

أما في الدور الثالث من سنة ١٧٥٠ الى ١٩٠١ فقد نهض نهضة ثالثة ، على أيدي مشايخ الطرق أو الاخوان ، وذلك انه في أواخر القرن الثامن عشر ، لما دخلت الدعوة البروتستانتية من كل نوع الى افريقية ، وضاعفت الكنيسة الكاثوليكية فيها مجاهديها بسائق المنافسة ، كان لا بد من أن يتنبه الاسلام لمقاومة النصرانية ، وان يشتد الصراع بين هاتين القوتين المتقابلتين ، مقرونا ذلك بالاهواء السياسية ، التي تزيده شدة وحدة .

وأكثر أسباب هذه النهضة الاخيرة ، راجعة الى التصوف ، والاعتقاد بالاولياء ، وبظهور المهدي .

ثم ذكر المؤلف كيفية دخول التصوف في الاسلام مما لم نأره ، لان مؤلفي الاسلام أدرى بهذا الموضوع ، وأشار الى عقيدة الاولياء قائلا ، انها مخالفة أشد المخالفة لروح القرآن ، وان نبي الاسلام (ص) كان نظره عاليا جدا الى السماء ، ومجتهدا أن يعلو الى آفاق بعيدة بأنظار المؤمنين وبصلواتهم ، ولكن المؤمنين لم يلبثوا أن شعروا بالاحتياج الى الوسيلة عند الله ، واتخاذ متوسطين لديه تعالى ، يكونون أقرب متناولا . فلم يأت القرن الثالث من الهجرة حتى ظهرت في الاسلام العقيدة بالاولياء ، وابتدعت زيارة قبورهم ، وصاروا يعتبرون لهم خصائص ، ويعزون اليهم الكرامات والخوارق وأصبح لكل منهم اتباع ومريدون ، واشبهت القضية العقيدة الكاثوليكية من هذا الوجه ، فالولي الفلاني يشفي من الرياح كما كان القديس فياكر يشفي مرض الباسور . والشيخ محمد أبو طالب ، يقصده الناس لاجل لقيان الحوائج الضائعة ، كما كانوا في النصرانية يقصدون القديس انطوان بادو . والامام الشافعي ، يستغيث به طلاب الازهر ، للنجاح في دروسهم والولي الفلاني هو شفيع المحامين مثل القديس ايف Ives . والآخر مستغاث السياح ، يقيهم من اللصوص في الطريق .

وأفاض المؤلف في ذكر الاولياء والقبور ، والقبب المشيدة للزيارات واداء النذور مما لا يحتاج القارىء الى معرفته ، ثم وصل الى عقيدة المهدي فقال :

معلوم الدور الذي اخذته عقيدة المسيح المنتظر في اليهودية وظهر فيما بعد انها مستعارة من الفرس، كذلك المسلمون يعتقدون بظهور رجل في آخر الزمان يقال له المهدي يملأ الارض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا ويستدلون على ذلك بأحاديث للنبي (ص) .

ثم ذكر المهديين الذين ظهروا في الاسلام أو ادعوا المهدوية فعد منهم ابن تومرت ، الذي ظهر بدولة الموحدين في القرن الثاني عشر للمسيح . ثم قال ان كثيرين من مسلمي الهند اعتقدوا في أكبر خان المغولي سلطان سلاطين الهند في القرن السادس عشر انه المهدي المنتظر : ثم قال انه سنة ١٨٦٢ ظهر واحد من أمة البله Peulh من بلاد ماسينه في أواسط افريقية كان درويشا من اتباع الطريقة التيجانية ، فزعم انه المهدي وأسس في السودان مملكة مستقلة ، الا وهو الحاج عمر الذي سيأتي ذكره (هو الحاج عمر الفوتي قال لي سيدي احمد الشريف انه كانت له صلة مع السنوسية وانه زار الجغبوب).

قال وأشهر المهديين في عصرنا محمد احمد الذي ظهر في السودان سنة ١٨٨١ فحشد خمسين الف مقاتل من المؤمنين المتحمسين ، وهزم العساكر المصرية المرسلة لقتاله في عدة وقائع ، واستولى على الأبيض قاعدة كردوفان وعلى بربر مفتاح بلاد النوبة ، ثم حصر الخرطوم عاصمة السودان المصري الواقعة في الزاوية المتشكلة من فرعي النيل الابيض والازرق ، وكان فيها قائد أكوسي اسمه غوردون فدافع عنها دفاع الابطال ، ولكنه لم يقدر على المهدي ، فدخل هذا الخرطوم وقتل غوردون وأطاع له جميع السودان (١٨٨٥) لكنه لم تطل حياته بعد هذا الفتح فمات في ٢٨ يونيو سنة ١٨٨٥ تاركا سلطنة عظيمة ممتدة من اسوان الى النوبة الى دنقلة الى كردفان الى واحات دارفور ، وخلفه عبد الله التعايشي فوسع الفتوح التي كان فتحها المهدي وما زال حتى تغلب عليه الجنرال كيتشنر في ٢ اغسطوس سنة ١٨٩٩ في واقعة أم درمان ، وبقيت للمهدي اشياع تقاتل في الاطراف ، الا انهم انقرضوا شيئا فشيئا .

ولم يعترف جميع مسلمي افريقية بمهدوية محمد احمد وكان من جملة المعارضين له رئيس الفرقة السنوسية ، (هذا صحيح فان المهدي السوداني محمد احمد دعا سيدي محمد المهدي السنوسي للاتحاد معه ووعده بأن يجعله مقدم رجاله ، فرفض دعوته واحتج على دعواه ، وبينهما مراسلات في هذا الشأن اثبتها سيدي احمد الشريف في تاريخ جده وعمه الذي سينشره ، وقد اطلعني السيد المشار اليه عليه في هذه الايام الاخيرة) ، ثم قال المسيو بونه موري مصنف الكتاب الذي نقلنا عنه كل هذا النقل ما يأتي ملخصا :

انه في القرن الثاني عشر والثالث عشر للمسيح تاسست طرق الدراويش كانها من نوع المقابلة للرهبانيات النصرانية في القرون الوسطى وللحروب الصليبية . وفي القرن الثامن عشر والتاسع عشر حصلت نهضة جديدة عند اتباع الطريقتين القادرية والشاذلية ووجدت طريقتان هما التيجانية والسنوسية .

القادرية

فالقادرية مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى في بغداد (١١٦٦) ، وكان له حرمة حقيقية للسيد المسيح وكان يقول : « يلزم أن ندعو لا لأنفسنا فقط ، بل لكل من خلقه الله مثلنا » . فلذلك امتاز أتباعه بروح التسامح مع النصارى واليهود . والقادرية كثيرون جداً في المغرب وزاويتهم الكبرى في « عزاوات » أسسها الشيخ مختار الكبير . وبعد وفاته انقسم القادرية الى ثلاث فرق : الاولى القادرية البكائية الذين مركزهم الزاوية المذكورة ، وقد انتشروا الى تمبكتو . الثانية القادرية الذين في آدرار (آدرار واحة من الصحراء الغربية شرقي الرأس الأبيض على مسافة ٤٠٠ كيلو متر شمالي السنيغال أهلها بربر وعرب وأهم قراها ، شنقيط ، ووادان ، واتار ، عرفها الاوربيون منذ سنة ١٨٥٠ بواسطة ليوبولد بانه) ، الثالثة القادرية الذين في والاته وقد انتشروا الى السودان الغربي فلهم مراكز في كانكان وتيمبو ، من بلاد فوتاجالون (أحد أقسام السودان الفرنسي واقع بين غينية الفرنسية والسودان المعروف بهذا الاسم والسنيغال وغينية البرتقالية وهو بلاد جبلية لكن ارتفاع أعلى قممها عن سطح البحر لا يزيد على ١٣٠٠ متر . ومنها تنبع أنهر النيجر والسنيغال والفالمي والغامبية . ومناخها لا بأس به . وفيها معادن ومن حاصلاتها الزيت والقطن والمطاط أي الكاوتشوك ، وأهلها ستمائة الف نسمة من جنس الجالونكه والبله والتريقولور ، وكلهم مسلمون وامراؤهم يقال لهم المامي من جنس البله . وعاصمة البلاد تيمبو وهي تحت حماية فرانسا ، يشرف عليها والي غينية الفرنسية . عن معجم موريس فال Maurice Wahl مفتش المعارف في المستعمرات الفرانسية) وفي موساردو من بلاد الماندنيق ، (جيل من الزنج في غربي افريقية ينسب اليهم قبائل البامباره والماليكه والسونيكه) ومن هذه النقطة امتدوا الى الجهات المجاورة فعمروا ديار بلال الله ، وذكير الله ، ومدينه . ومازالوا حتى وصلوا الى مقاطعة سيراليون (مستعمرة انكليزية على ساحل غينية يحدها غينية الفرنسية شمالا والسودان الفرنسي من الشمال الشرقي والشرق ، وجمهورية ليبريه من الجنوب ، والاقيانوس الاطلانتيكي من الغرب ، عدد سكانها ١٢٦ ألف نسمة ، ومناخها وبي لكثرة

مستقبلها) وبالاجمال فالقادرية هم أحسن مبشري الدين الاسلامي في غربي افريقية من السنيغال الى بنين ، التي بقرب مصب النيجر ، وهم ينشرون الاسلام بطريقة سلمية أي بالاستعمار والتجارة والتعليم ، وتجد التجار الذين من السونينكه والماندجوله المنتشرين على مدن النيجر وفي بلاد كارتا Kaarta وماسينة Macina ، كلهم من مريدي الطريقة القادرية ومن مريديهم من يخدمون في مهنة الكتابة والتعليم ويفتحون كتاتيب ليس في زوايا الطريقة فقط ، بل في كل القرى فيلقنون صغار الزنج الدين الاسلامي أثناء التعليم ، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا الى مدارس طرابلس والقيروان ، وجامع القرويين بفاس ، والجامع الازهر بمصر فيخرجون من هناك طلبة مجازين أي اساتذة ، ويعودون الى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحي في السودان .

الشاذلية

أما الطريقة الشاذلية فقد تأسست في النصف الاول من القرن الثالث عشر للميلاد ، وهي من أوليات الطرق التي أدخلت التصوف في المغرب ، ومركزها بوبريت في مراكش . وكان من أشياخها سيدي العربي الدرقاوي (المتوفى سنة ١٨٢٣) ، الذي أوجد عند مريديه حماسة دينية شديدة امتدت الى المغرب الاوسط ، وكان للدرقاوية دور فعال في مقاومة الفتح الفرنسي . ومما امتاز به الدرقاوية هو شدة الطاعة لمشايخهم ، فان الدرقاوي المار الذكر كان يوصيهم ساعة موته قائلا : « يجب على الاخوان أن يكونوا في يد المرشد كالجثة بين يدي الغاسل » . فما أشبه هذه المباديء حتى في صيغة التعبير نفسها بمبدأ رهبانية اغناطيوس دولويولا .

التيجانية

وهناك الطريقة التيجانية ، مؤسسها احمد بن محمد التيجاني المتوفى في فاس سنة ١٧٨٢ ، وكان يتظاهر بالتسامح مع غير المسلمين ، ومع هذا ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم يقف التيجانية عن استعمال القوة في مخاصمة أقرانهم ، ونشر العقيدة الاسلامية (اذا لحظ القاريء ان تغيير طور التسامح الذي كان عليه التيجانية لم يقع ، الا في النصف الثاني من القرن الماضي ، علم انه لم يكن الا من أثر تكالب الآباء البيض جماعة لا فيجري وأمثالهم ، فمما لامشاحة فيه أن التسامح يولد التسامح ، والتكالب يهيج التكالب) . وأهم مراكز التيجانية عين ماضي على ٧٠ كيلو متراً في الجنوب الشرقي من الاغواط ، وفي تماسين . وهم كثيرون في مراكش ، ولقد تبع الطريقة التيجانية عدد كبير من أهالي ماسينه في السودان وأهالي فوتاتورو Fouta - Toro وفوتاجالون وامة البله ، وصاروا من أشد أنصار الاسلام وانضموا حول راية الحاج عمر ، فكانوا طيلة اربعين سنة هم سادة السودان من تمبكتو الى الاقيانوس الاطلانتيكي .

وكان الحاج عمر هذا ابن شيخ مرابط ولد سنة ١٧٩٧ في قرية الفار من بلاد ديمار (ناحية

من قطر السنيغال على الضفة اليسرى من النهر بين والو من الغرب وتورو من الشرق) فرباه أبوه وعلمه ، ثم حج البيت الحرام وزار المدينة ، وقرأ مدة في الازهر وعاد الى بورنو سنة ١٨٣٣ ، ثم ذهب الى بلاد الهاوسه وأخذ يعظ الناس بالرجوع الى عقيدة السلف ويطعن في تساهل القادرية . وفي أثناء ذلك جاء أخوه احمدو ومضى به الى بلاد فوتا من السنيغال ، فمرج على بلاد البامباره وحصلت معه هناك حوادث وعوارض كثيرة ، لكنه تغلب عليها ، وانضم اليه في بلد كنكان (مدينة من السودان الفرنسي جنوبي النيجر الاعلى اهلها خمسة آلاف نفس) رجل يقال له محمدو سار على طريقته وادخل في الاسلام فرقة من البله يقال لهم الواسولونكه Ouassoulonké .

ولما علت كلمة الحاج عمر ونظر اليه الناس نظرهم الى المهدي ، حشد جيشا صغيراً واثار جميع مسلمي بلاد غابون (ناحية من بلاد الكونغو الفرنسي أشهر مدنها ليبرفيل وغلاص Libreville et Glass وبلاد اوالي Oulli وبلاد الريب Rip ، ووطد فيها دعائم الطريقة التيجانية . وسنة ١٨٤٧ عاد الى نواحي فوتاجالون ، وبنى قلعة حصينة في دينقيراي Dinguiray (ناحية من السودان الفرنسي شمالي النيجر اهلها من التوكولور والزنوج المالينكه) وهزم البامباره الوثنيين شر هزيمة في تومبا ، واستولى بعدها على كونياكاري (من بلاد غينية الفرنسية) وسنة ١٨٥٤ جعل مقره العام في نيورو Nioro (من السودان الفرنسي شمالي السنيغال الأعلى عاصمة احمدو الاولى اهلها من البله ، افتتحها الفرنسيس سنة ١٨٩٠) ثم استولى على مملكة سيغو (من السودان الفرنسي على الضفة اليمنى من متوسط النيجر قاعدة ملك احمدو افتتحها الفرنسيس سنة ١٨٩٠) وعلى بلاد ماسينه . وكانت وفاة الحاج عمر سنة ١٨٦٥) وهو في حرب مع زنوج ماسينه ، وقد خلف للطريقة التيجانية سلطنة اسلامية عظيمة في وسط بلاد الزنوج الفتيشيين .

ثم خلف الحاج عمر ابن اخيه ومريد آخر له اسمه احمدو شيخو بن عمر ، وحاولا توسيع فتوحات الحاج عمر ، وأثارا اهالي فوتاتورو والسونينكه الذين في بلاد كاآرته Kaarta والتوكولور الذين في السنيغال على فرنسا (لا يخفى أن كل قوم يحافظون على استقلالهم فهم ثائرون عصاة في نظر المستعمرين) ، فصار وجود هذه السلطنة التيجانية في وسط السودان خطراً عظيما على سيادتنا .

وكان تحرير الخلاف هو هذا : هل يتم تمدين السودان الغربي على يد فرنسا وضباطها والمبشرين المسيحيين ، أم على يد التيجانية ورسل الاسلام ؟

فالكولونل ارشينارد بأخذ جنه Djenné (بلدة من السودان الفرنسي الى الجنوب الغربي من تمبكتو عدد أهلها ستة آلاف نسمة احتلها الفرنسيس سنة ١٨٩٣) وبندجاقار (من السودان الفرنسي في بلاد ماسينه لا تبعد كثيراً عن ضفة النيجر اليمنى) أوقف غارة التيجانية في هذا القسم من افريقية ويسر فتح السودان بين يدي المدنية الاوربية . ثم عقب ذلك فتح الكولونل دورغنيس ديبورد Dorgnis Desbordes لبدباما كو Bammakou واستلحاق القومندان غاليني Galiéni لبلاد فوتاجالون ، وافتتاح الكولونل ارشينارد لبلاد ماسينه ، وتتوجت جميع هذه الفتوحات باحتلال تمبكتو (١٠ يناير ١٨٩٤) مما خلد

اعظم الشرف للعساكر الفرنسية ، وأعاد ذكرى ظفر شارل مارتل في بواتيه Poitiers ، بسبب ما كان يترتب من النتائج العظام لمستقبل افريقية ، فيما لو لم يتم هذا الظفر (يشير الى أن افريقية كانت تكون كلها اسلامية لولا قضاء فرنسا على سلطة التيجانية هذه ، كما ان اوربا كانت تكون اسلامية لولا انتصار شارل مارتل على العرب في بواتيه وهي الكلمة التي يتفق عليها مؤرخو الافرنج) .

السنوسية

ثم السنوسية وهم أشد عداء للاوربيين من جميع طرق الدراويش ، وقاعدتهم الجهاد في الكفار وجمع كلمة المسلمين أجمعين على العدو العام ، وكان مع هذا ، مؤسس هذه الطريقة سيدي محمد بن علي السنوسي مستقلا في رأيه غير متقيد بالمذاهب .

(سأل محرر هذه السطور سيدي احمد الشريف خليفة سيدي محمد بن علي السنوسي ، وحفيده ، عن حقيقة هذه الرواية ، فانكر ذلك ، وانما قال ان جده كان متبعاً للسلف . وقد لحظت ان الاستاذ المشار اليه يقبض في الصلاة مثل الحنفية وغيرهم ولا يرسل يديه مثل المالكية ، فسألته عن سبب مخالفته في ذلك للمالكية مع أنه مالكي فأجاب ، أن جده كان يعترض على السادة المالكية في ذلك ، ويقول ان الذي ثبت عن الرسول (ص) هو القبض ، وان الذين نقلوا اسبال اليدين عن الامام مالك اخطأوا) .

ولد محمد بن علي السنوسي بقرب مستغانم (بمحلة يقال لها الواسطة) سنة ١٧٩١ ، وقرأ العلوم في فاس (سيدي احمد الشريف ، يقول ان ولادة جده كانت سنة ١٢٠٢ هجرية وفي الترجمة التي ألفها لجده ذكر ما تلقاه من العلوم وقرأ من الكتب ، واسماء من أخذ عنهم من الاشياخ ، وهو شيء هائل بالمرة قل أن يوفق أحد لمثله ، ومما يجدر بالذكر أنه أخذ عن السيد احمد بن ادريس دفين صبيا في عسير ، والسيد احمد بن ادريس المشهور بالولاية أخذ عن سيدي عبد الوهاب التازى المعمر الذي عاش ١٣٠ سنة ، وأدرك الولي الكبير سيدي عبد العزيز الدباغ وأخذ عنه ، ويظهر أن أبناء البيت السنوسي كلهم منتسبون الى العلم ، فان والد السيد محمد السنوسي وجده واعمامه وأبناء اعمامه ، وكثيراً من نسائهم مثل جدته لأبيه السيدة الزهراء وعمته السيدة فاطمة كانوا علماء ، وأكثر تربية السيد السنوسي كانت على يد السيدة فاطمة المشار اليها ، وكانت من فضليات أهل زمانها ، متبحرة في العلوم ، منقطعة للتدريس والوعظ ، يحضر دروسها ومواعظها الرجال ، وقد اعتنت كثيراً هذه السيدة بتربية ابن أخيها لما توسمته فيه من باهر النجابة ، أما والده السيد علي فكان قد توفي شاباً في سن الخامسة والعشرين ، وكان يجمع الى العلم والصلاح ، الفروسية والرماية الى الدرجة القصوى ، لذلك تجد السنوسية ينزع بهم عرق الى السيف كما ينزع بهم عرق الى القلم) .

ثم حج السيد محمد السنوسي بيت مكة (١٨٢٩) وفي أثناء طريقه تلقى اجازات كثيرة ، ودخل في عدة طرق ، وعاد الى المغرب واقرأ في لاغوات . وسنة ١٨٣٩ عاد الى الشرق ، وأخذ يقرأ في الازهر ولكن أحد المشايخ راعه ما هو فيه من استقلال الفكر ، والنزوع

الى الاجتهاد ، فافتى بمخالفته للشرع (لعله يشير الى الشيخ عليش الذي بلغته أشياء لم يقف فيها على حقيقتها ، فأصدر فتوى بحق الشيخ السنوسي ، وقيل انه لما فهم جلية الأمر رجع عنها) .

وكذلك حصلت ريبة في أمره بمكة ، لميله الى بعض المباديء الوهابية (هذا ما ينكره السنوسية) ، ولكنه وجد في اتفاق تام مع السيد احمد بن ادريس الفاسي شيخ القادرية ، وعند وفاة هذا الاستاذ أسس طريقة جديدة وذهب الى افريقية ، وجال في برقة ، وبنى الزاوية البيضاء ، أول زاوية له (ان بعض معمري الجبل الاخضر يقولون ، انهم سمعوه يقول وهو يبني البيضاء هذه ان الافرنج سيأتون يوماً الى هناك ، ويهدمون قبة الصحابي سيدي رافع رضي الله عنه ، ويربطون خيولهم في مسجد الزاوية البيضاء ، ويأخذون حجراً من بنيان البيضاء قديماً منحوتاً مكتوباً عليه ، عبارات لاتينية . وان هؤلاء المعمرين الذين سمعوا منه هذا الكلام رأوا مصداقه كله في آخر حياتهم ، لأن الطليان جاءوا وهدموا قبة سيدي رافع – وان كانوا جددوا بناءها بعد ذلك – وربطوا خيلهم في مسجد البيضاء ، وأخذوا الحجر الذي عليه اللاتيني من الجدار) . وكثر اتباعه في واحة الفرافرة ، وفي القطر الطرابلسي ، وفي التوات (غربي الجزائر) وفي السودان حيث له عشرون زاوية (مجموع زوايا السنوسية اليوم ثلاثمائة زاوية) ، ثم سنة ١٨٥٥ أسس مركز طريقته في جغبوب وهي سوفا القديمة ، على مسافة ثلاثة أيام من سيوه ، وصارت أعظم مدرسة لمبشري الاسلام في أواسط افريقية . وكان المؤدي الى بحيرة تشاد طريقان أحدهما ، شرقي من سوكنه الى مرزوق ، والثاني غربي من غدامس والماير ، فالسنوسية نشروا طريقتهم في واداي والباقيرمي وبوركو وتبعوا نهر بينوي الى أن بلغوا النيجر الادنى حيث تجدهم يهدون تلك القبائل الى الاسلام وبواسطة السنوسية صارت نواحي بحيرة تشاد هي مركز الاسلام العام في أواسط افريقية . ويقوّم عدد مريدي الطريقة السنوسية بأربعة ملايين ، وطريقة هؤلاء الجماعة في التبشير ، هي أن يشتروا الارقاء صغارا من السودان ويربوهم في جغبوب ، وغدامس ، وغيرهما ، ثم متى بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلم اعتقوهم ، وسرحوهم الى أطراف السودان ، يهدون ابناء جلدتهم الباقين على الفتيشية ، وهكذا يرحل كل سنة مئات من مبشري السنوسية لبث دعاية الاسلام في جميع افريقية الداخلية من سواحل الصومالي شرقاً ، الى سواحل السينغامبيه غرباً ، ولقد حذا سيدي محمد المهدي وأخوه سيدي محمد الشريف حذو والدهما في السعي الى الغرض الذي توخاه ، الا وهو تخليص الاسلام من النفوذ الاجنبي ، واعادة الامامة العامة كما كانت في عصر الخلفاء .

وبالاجمال ، فان مريدي هذه الطرق هم الذين سعوا في نشر الاسلام ووفقوا اليه في افريقية ، قال كوبولاني Coppulani ان هؤلاء تارة بهيئة تجار وطوراً بهيئة مبشرين ، يهدون الى الاسلام الاقوام الفتيشيين ، وتجدهم يبنون زوايا جديدة في هذه الاقطار الواسعة الشاسعة الممتدة من شمالي افريقية الى اقصى أقاصي السودان ، واحيانا يؤسسون ممالك مثل سلطنة رابح ، واحمدو ، وساموري . انتهى ملخصا

ثم انتقل المسيو بونه موري الى ذكر تشكيلات الزوايا ، والمدارس ، والجوامع ،

والجامعات ، مثل الازهر في مصر والقرويين في فاس ، والزيتونة في تونس ، وغيرها ، وبرامج التعليم فيها . وقال « ان العلوم التي فيها تنقسم الى قسمين الاول ، العلوم الاعدادية (مايسمونه بالآلات) كالنحو والصرف والبيان والمنطق والقراءة والعروض والحساب والجبر والثاني ، العقائد وأدب الدين وأسباب التنزيل والحديث والفقه — (قال) : ويقرأون في بعض مدارس فاس ، الكيمياء والطب والهندسة والانشاء والتصوف والموسيقى (قال) : ولم أجد ذكر الفلك في العلوم التي يعلمونها هناك ولا في محل مع ان علم الفلك كانت به عناية عظيمة في المغرب . »

قلنا لعل هذا خطأ ممن أطلعه على برامج التعليم أو سهو ، او ان علم الفلك اهمل في هذه السنين الاخيرة ، فانه من العلوم التي كانت تعلم في فاس وغيرها من مدارس الاسلام بالاعتناء الزائد ، واليك مثالا على ذلك ما قرأته في سيرة سيدي محمد بن علي السنوسي نفسه ، وهي مخطوط الفه حفيده سيدي احمد الشريف ، يذكر الشيوخ الذين اخذ عنهم في فاس فيقول : « ومنهم العلامة الهمام سيدي محمد بن الطاهر الفيلالي الشريف العلوي قرأت عليه مختصر السعد ، وجمع الجوامع ، والسلم ، وجلة صالحة من مختصر الشيخ خليل ، وهو يروي عن الحافظ ابن كيران ، والعلامة الزروالي ، وشيخهم العلامة ابن شقرون ، باسانيدهم السابقة ، وغيرهم من اماثل علماء فاس . ومنهم العلامة النقي الماهر المتفنن أبو المواهب سيدي أبو بكر بن زيان الادريسي ، حضرته في علوم كثيرة ، وقرأت عليه الفرائض والحساب ، والاربعين وصناعتهما ، والاسطرلابين وصناعتهما ، والعلوم الاربعة الرياضية والهندسة والهيئة والطبيعة والارتماطيقي ، وأصول قواعد الموسيقى ، والمساحة ، والتعديل ، والتقويم ، وعلم الاحكام والنسب (بكسر النون) والوفق والقواعد الجذرية ، والاصول الزايرجية ، والبسط والتكسير ، والجبر ، والمقابلة وغيرها الخ . »

فانت ترى ان الهيئة كانت تدرس في فاس في القرن الماضي واخبرني السيد احمد الشريف أن أستاذه سيدي احمد الريفي كان بارعا بهذه العلوم ، وبعلم الهيئة والاسطرلاب ، وكان تلقاها عن السيد العلامة ابن السنوسي ، وكانت عندهم الآلات المتعلقة بهذا العلم ، والكرات والازياج وغير ذلك .

ثم ذكر المسيو بونه موري برنامج الازهر وأشار الى أن أول مصلح لتعليم الازهر ، هو الشيخ المهدي العباسي وذكر ما أدخله فيه من الاصلاحات لعهد الخديوي اسماعيل ، وان المصلح الثاني ، هو الشيخ محمد عبده الذي ادخل في برنامج الازهر الجغرافية ، والتاريخ ، والتاريخ الطبيعي ، والرياضيات ، والفلسفة ، وغير ذلك فنفخ في الازهر روحا جديدة . (قال) وقاومه بعض العلماء الجامدين وغيروا عليه قلب الخديوي ، فأثرت هذه الحوادث في صحته وتوفي في رمل الاسكندرية سنة ١٩٠٥ .

لما كان قد تقدم ذكر الزوايا السنوسية في عدة مواضع وكان عندنا اسماء القسم الاشهر منها آثرنا الحاق هذا الجدول بما تقدم من خبر هذه الطريقة

زاوية التاج ، في واحة الكفره ، مقر السادة السنوسية ، ذرية سيدي محمد بن السنوسي .
« الجغبوب ، في واحة الجغبوب المقر الثاني للسادة المشار اليهم وفيها المدرسة الكبرى لتخريج تلاميذهم
« طرابلس الغرب ، وشيخها سيدي عبد الوهاب الميساوي .
« الرجبان ، في جبل يفرن من عمل طرابلس ، وشيخها سيدي محمد الميساوي .
« مزده ، فوق قصبة غريان ، شيخها سيدي عبد الله السني .
« طبقه ، بقرب زنتان ، اشياخها أولاد سيدي محمد الازهري .
« الحرابة ، بين نالوت ونساطو بالجبل الغربي .
« سيناون فوق نالوت .
« درج فوق سيناون .
« غدامس ، على حدود ايالة تونس ، شيخها سيدي احمد الحبيب .
« مصراطه ، شيخها السنوسي بن عبد العال .
زاوية ثانية ، في مصراطه ، شيخها عبد الله بن شنيشم .
« مسلاته .
« مراده ، بين جغبوب وفزان في الصحراء ، شيخها سيدي محمد الروابي .
« مرزوق ، قاعدة فزان شيخها سيدي عبد اللطيف بن عبيد .
« هون ، في البلاد التي على ابواب السودان ، شيخها سيدي مصطفى الهوني .
« سوكنه ، في البلاد الواقعة بين طرابلس وفزان ، شيخها سيدي الشريف حامد بن بركات .
« القطرون .
« واو في جنوبي طرابلس نحو السودان ، شيخها سيدي محمد الاشهب .
« غات شيخها الحاج احمد الغاتي .
« التوات جنوبي عمالة الجزائر .
« الهواري في واحة الكفره على مسافة خمس ساعات شمالي مقر السادة ، وشيخ زاوية الهواري سيدي الفضيل السوسي .
« الجوف في نفس واحة الكفره ، شيخها سيدي عبد الهادي الفضيل .
« نزربو من زاوية التاج على مسيرة ستة أيام ، شيخها القطب الصالح السيد المدني من تلاميذ سيدي ابن السنوسي الكبير .

زاوية ربيانه على ثلاثة ايام من الكفره ، شيخها سيدي حسين بزامه.

« الوجنقه الكبرى في أوائل السودان على خط دارفور على مسيرة ١٧ يوما الى الجنوب من الكفره ، شيخها سيدي عبد ربه البرعصي .

« الوجنقة الصغرى ، شيخها سيدي عبد الرازق الماخري.

« قرو من الوجنقة الكبرى على مسيرة ثلاثة ايام الى الغرب، شيخها الفاضل الاديب سيدي محمد بن عبد الله السني أحد دعاة الاسلام في أواسط افريقية . أصله من بلاد سنار في الحبشة عباسي النسب .

« البرقوات :

« زندر في السودان .

« يرضى على أبواب السودان، شيخها ابراهيم الغربي .

« كانو في بلاد النيجر .

« قانت بالقرب من غات ، شيخها السنوسي الغاتي الانصاري .

« عين كلك التي جرت الحرب عليها بين السنوسية والفرنسيس على مسيرة ستة أيام غربي قرو ،شيخها الفاضل سيدي عبد الله الفضيل الزويي.وعين كلك هذه فيها انهار جارية ومن أخصب بقاع البسيطة .

« ونّ قبلي زاوية عين كلك على مسافة يوم ونصف يوم مائلة الى الشرق وهي على مسافة نحو ٢٠ يوما من مرزوق فزان، وشيخ هذه الزاوية سيدي المهدي السني ولد سيدي محمد السني .

« بني غازي شيخها الاستاذ العلامة سيدي احمد العيساوي .

« أم شخنب على مسيرة ٧ ساعات الى الجنوب من بني غازي كان شيخها الاديب سيدي محمد علي بن عبد المولى .

« الطيلمون على مسيرة ١٠ ساعات من بنغازى الى الغرب شيخها سيدي محمد علي المحجوب

« مسوس قبلي الطيلمون وشيخ هذه الزاوية سيدي سنوسي الاشهب .

« اجدابية غربي بنغازي شيخها سيدي عبد اللطيف الزويي .

« القطفية على مسيرة ٤ أيام الى الغرب من بنغازي شيخها الزروالي بن عبد اللطيف .

« النوفلية غربي القطفية بمسافة ٦ أيام شيخها سيدي احمد بن ادريس .

« الزعفران غربي النوفلية على مسافة يوم ونصف يوم بجوار قصر سرت شيخها ابن شفيع

« زليطن في محل اسمه زوو شيخها سيدي محمد بن عثمان بن بركه .

« زويله من فزان .

« زله شرقي زاوية سوكنه شيخها سيدي الحريعي .

« اوجله شيخها سيدي عبد الله الفضيل .

« جالو وتسمى زاوية العرق وشيخها سيدي عبد الله التواتي .

« اللبة في أوجله أيضا وشيخها الحاج محمد غريطيس .

زاوية شنحره في بلاد جالو واوجله شيخها سيدي محمد صالح .

* سيوه وهي الزاوية الاولى تخص السادة رأسا والوكيل عليها سيدي يوسف بن عبد الله ابن احمد .
* سيوه المنسوبة الى آل معرف شيخها سيدي محمد بن عبد الله الزروبي رفيق سيدي احمد الشريف الاستاذ الأكبر في سياحته الى الاستانة والاناضول .
* سيوه الثالثة تخص السادة رأسا والوكيل عليها احمد الجبيري .
* سيوه الرابعة شيخها الشيخ احمد ابو ظالي .
* حطية الزيتون على مسافة ٦ ساعات الى الشرق من زاوية بني معرف وهي تخص السادة رأسا والوكيل عليها سيدي الحسين الشريف .
* القاره على مسافة ١٣ ساعة على الفارس الى الشرق من حطية الزيتون وهي تخص السادة رأسا والوكيل عليها صالح ولد سيدي يوسف .
* الفرافره على مسافة ستة أيام الى الشرق شيخها سيدي السنوسي بن خالد .
* القصر الى الشرق من الفرافره في الواحات شيخها ابن سيدي محمد الموهوب .
* الواحات البحرية شيخها سيدي صالح السعدي .
* الواحات البحرية الثانية شيخها سيدي المبروك القطعاني .
* منديشة الى جهة صحراء الفيوم شيخها سيدي عبد المالك الموهوب .
* القلمون في الواحات أيضا . وكل هذه الزوايا في سيوه والواحات في عيون ونخيل وكروم .
* الفيوم وشيخها سيدي عبد العال السنوسي .
* الزينية بالصعيد المصري فيها أولاد الولي الكبير سيدي احمد بن ادريس .
* سيدي ابراهيم الريس الفاسي في الصعيد
* حوش ابن عيسى بجهة الاسكندرية شيخها سيدي محمد بن مالك
* الغيط عند العامرية في مديرية البحيرة شيخها سيدي مرتضى الفرياني
* بهيج وشيخها سيدي موسى المقاري
* سيدي يادم الابيرش على مسافة ساعتين من بهيج
* سيدي عبد العاطي بن محيفظة على مسيرة نصف يوم من زاوية سيدي يادم
* الضبعة ويقال لها زاوية شنينة وشيخها سيدي عبد المنعم ابو شنينه وهي على مسيرة يومين من زاوية سيدي عبد العاطي
* قريوة على مسافة يوم من شنينه وشيخها سيدي عبد الرحيم الفاخري
* فوكه على مسافة ثلاث ساعات من قريوه شيخها سيدي عبد الرحيم التهامي
* محطة فوكه وشيخها سيدي موسى بن موسى .
* بقوش وشيخها سيدي هرون بن بدر القنائي وهي على ساعتين من فوكه

زاوية سيدي علي بن مورد الى الغرب من زاوية بقوش بساعتين
« ام الرخم غربي مرسى مطروح وشيخها ابو القاسم الطيب
« نجيله الى الغرب بيوم من ام الرخم وشيخها سيدي عبد القادر بن عمر
« شماس على ٣ ساعات من نجيله الى الغرب وشيخها سيدي عمر الاوجلي
« علم الجاول على مسافة ثلاث ساعات الى الغرب من زاوية شماس وشيخها سيدي محمد الشريف
« براني على مسافة يوم الى الغرب من هذه وشيخها سيدي الشريف بن مياود
« سيدي عمران بن ابراهيم على مسافة يوم من زاوية براني ومن زاوية سيدي عمران بن ابراهيم الى السلوم مسيرة يوم . وهذه الزوايا من الاسكندرية الى السلوم كلها في بلاد أولاد علي
« جبيل على مسافة ثلاث ساعات الى الغرب من السلوم شيخها سيدي محمد الشارف من أولاد عم السادة
« أم ركبه في موقع دفنة على ٣ ساعات من زاوية جبيل وهي زاوية سيدي علي بن عبدالله
« سيدي حسين الغرياني في دفنة أيضا على ثلاث ساعات من ام ركبه
« المرصص في غربي مرسى طبرق على مسافة يومين من التي قبلها وشيخها سيدي صالح الشريف
« أم الرزم أو أم ارزم (ام ارزم معناها الريح) على مسيرة يومين من المرصص وشيخها سيدي مرتضى فركاش وعندها عين نضاحة وبستان جليل
« سيدي محمد بن فارس على ساعتين من ام ارزم الى البحر
« مرطوبة على مسافة ساعتين الى الغرب من التي قبلها وشيخها سيدي عبد الله فركاش وفيها عيون عذبة جارية من الجبل الذي فوقها وبساتين
« درنه في نفس المدينة شيخها السنوسي الغرياني
« العزيات من درنة الى الجنوب على مسافة يوم شيخها سيدي السنوسي الجبالي
« الخيلة على مسافة يوم من العزيات شيخها محمد بن الحسين
« بشاره على بضع ساعات الى الجنوب الغربي من درنه وشيخها سيدي عبد القادر فركاش وعندها عين جارية وبساتين
« ماره الى الشرق من بشاره وشيخها سيدي عبد الله ابو سيف وهي على رأس نبع ماره من انزه وأعذب ينابيع الدنيا وعليه البساتين والطواحين
« ترت الى الغرب من بشارة وشيخها كان سيدي محمد الغزالي . وكل هذه الزوايا في بلاد قبيلة العبيدات الكبيرة
« نقا شرقي ترت شيخها سيدي الحبيب بن جاول
« العوينة بهاتيك الجهات ايضا
« الفائدية المنسوبة الى قبيلة فائد وشيخها سيدي صالح بن اسماعيل

زاوية شحات أي مدينة سيرنا القديمة وهي بلدة عالية في رأس جبل مشرف على البحر تنبع المياه من مغارة باعلاه وتسقط في شلالات بديعة ولها منظر من اجمل مناظر الدنيا وشيخ زاوية شحات سيدي محمد الدردفي . والزاوية هي زاوية قبيلة الحاسه

« ماسه وهي الزاوية البيضاء التي كانت أول ما أسسه السنوسي الكبير تبعد عن شحات نحو ساعتين الى الغرب وهي على بضع دقائق من مقام سيدي رويفع الانصاري (رضه) وشيخ الزاوية البيضاء الآن سيدي محمد الغماري . والزاوية زاوية البراعصة

« الحمامة غربي الزاوية البيضاء على ساحل البحر وشيخها سيدي السنوسي الغماري

« الحنية غربي الحمامة وشيخها سيدي احمد بن العيساوي

« القصرين قبلي زاوية الحمامة وشيخها سيدي محمد العربي

« العرقوب شرقي زاوية القصور وشيخها سيدي جاد الله الجبالي

« القصور شرقي قصبة المرج وشيخها البطل المشهور القائد للمجاهدين في حرب الطليان سيدي عمر المختار وهي زاوية قبيلتي الدرسا والعبيد

« اسقفه غربي دريانة وشيخها سيدي الامين الغماري

« دريانة غربي طلميثه وشيخها الشريف الغماري

« المرج على اربع ساعات قبلي طلميثه وهي زاوية سيدي عمران السكوري

« كرسا من زاوية ماره السابقة الذكر بمسافة ساعتين صوب البحر وجماعتها التراكي وشيخها سيدي يوسف العجال

« الاثرون على ٤٠ دقيقة من زاوية التراكي وشيخها سيدي الحبيب الجلول

« كفنطه على ساعتين ونصف ساعة الى الجنوب من زاوية الحنية السالفة الذكر وشيخها سيدي حميده بن عمور

« ميراد مسعود بحري زاوية القصرين وشيخها سيدي محمد بن حوا

« الحامدية غربي ميراد مسعود وشيخها سيدي عبد الله السكابلي

« طائة دغار على مسافة نصف ساعة من الحامدية الى الغرب وشيخها سيدي محمد الغالي

« نيانة شيخها سيدي العربي الغماري

« طلميثه على أربع ساعات بحري قصبة المرج وشيخها التواتي السكابلي

« توكره غربي طلميثه وشيخها سيدي عبد الله الجيلاني

« برسس غربي توكره وشيخها ابن سيدي عبدالله الجيلاني . واكثر هذه الزوايا في بلاد قبيلة الدرسا

« مستغانم في القطر الجزائري وشيخها سيدي احمد بن تكوك

« سيدي محمد بن صادق في بلاد الجريد من مملكة تونس وفي تلك البلاد خمس زوايا اخرى تحت نظارة الشيخ المذكور

« جدة في الحجاز تحت نظارة شيخ زواية ابي قبيس بمكة

« ابي قبيس بمكة المشرفة شيخها سيدي حامد

زاوية الطائف وهى تحت نظر الشيخ المذكور
« الجديدة في طريق المدينة
« بدر الشهداء وشيخها سيدى محمد الغماري
« المدينة المنورة وشيخها سيدى مصطفى الغماري
« ينبع البحر
« ينبع الوجه
« الحمراء
« الصفراء
« رابغ
« صبيح
« الليص . وهذه كلها في الحجاز وجملة ماهو مقيد عندنا من هذه الزوايا ١٣٠ زاوية ولا تزال زوايا كثيرة في المغرب والسودان والحبشة والصومال مجهولة عندنا . (ش)

مجاري الدعوة الاسلامية

في افريقية

قال المسيو موري : لننظر الآن الى مجاري الدعاية الاسلامية في قارة افريقية :

فالمجرى الاول هو التيار المراكشي ، الذي يتكون من زوايا المغرب العديدة ، ومدارس فاس ومراكش ، ويخترق بلاد الادرار (بجهة السنيغال) فينشر دعوة الاسلام في كاآرته ، وفوتاجالون ، والسودان .

والمجرى الثاني هو الذي يخرج من مدارس القادرية في تمبكتو ، ومن بعض زوايا التيجانية ، ويتبع مجرى النيجر الى بلاد صانقا (من الكونغو الفرنسي) ، فيتلاقى مع مراكز التبشير المسيحي في ملتقى نهري النيجر والبنيوي .

والمجرى الثالث هو الذي يصدر عن زوايا السنوسية في الجغبوب وغدامس منتحيا جهات بحيرة تشاد ، وبه أصبحت واداي وبورنو ، مراكز تتأجج فيها حرارة الاسلام .

والمجرى الرابع يخرج من الازهر بمصر فيتبع النيل الى كردوفان ، الى الاوغاندة حيث ينازع مبشري البروتستانت والكاثوليك على قيادة الارواح .

وأهم مجاري الدعاية الاسلامية هو ما يقوم به تجار المسلمين ، الذين يقصدون دارفور والسودان تارة من مصر وطورا من طرابلس ، وافعل من هؤلاء رهط التجار الذي يقوم من زنزيبار قاصدا بلاد البحيرات الكبرى الى الكونغو ، تابعا مجرى هذا النهر الى بلاد الباتنو (شعب زنجي كبير يتألف منه سكان الكونغو ، وأهالي بلدان البحيرات الكبرى ، وأقاليم افريقية الجنوبية كالزولو ، والبتشوانه الخ) حيث يسابق البعثات المسيحية على أرواح هذا الشعب .

والحق يقال ان الاسلام في هذه الصفحة الاخيرة من تاريخه قد دل على انه يملك حيوية عظيمة ، وقابلية شديدة للانتشار : فليتذكر الناس حركات امة الفله (امة سودانية تسكن ضفة السنيغال الشمالية ، ومنها أهالي فوتاجالون ، وبلاد النيجر العليا والوسطى . وسمرة الوان هذه الامة مشربة بحمرة ، وشعورهم مائلة الى السباطة ، وسحنتهم تكاد تكون اوربية ، ويقال لهم أيضا الفولاه والفولبه وكلهم مسلمون) ونشاط الدراويش اتباع الطرق ، وتكاثر الزوايا ، وثورة الحاج عمر الفوتي وخلفائه ، والمهدي السوداني ، وتجارة الرقيق . ولا ينكر ان الرق ألفي وان احمدو وساموري ومحمد احمد انكسروا ، وان الغارة الاسلامية توقفت في السودان الفرنسي وفي السودان المصري ، ولكن التعصب الاسلامي لم ينطفيء وانما هو يتوقد تحت الرماد ، وتجد الدعوة الاسلامية ماشية بالرغم من كل الحوائل في الاوغاندة ، ووادي الكونغو ، ووادي النيجر ، ووادي الغامبية ، وساحل غينية ، وسنرى في الفصل الآتي مواقف الديانتين بعضهما بازاء بعض .

الصراع بين الاسلام والنصرانية وأيهما الغالب في أمر المدنية

قال : ان الديانتين الاسلامية والنصرانية ، واقفتان كل منهما في مقابلة الاخرى على خطين طويلين ، فاذا خططنا خطاً يمتد من مصب السنيغال الدرجة ١٦ من العرض الشمالي ، قاطعا الى شرقي افريقية الدرجة ٢ والدقيقة ٣٠ من العرض الجنوبي . وخطاً ثانيا ، يمتد من الدرجة ٥ من العرض الشمالي مع الدرجة ١٠ من الطول الغربي الى الدرجة ١٥ من العرض الجنوبي مع الدرجة ٤٠ من الطول الشرقي في قرب موزامبيق ، تكونت لنا منطقة واسعة جدا ، يضطرب ضمنها مائة مليون نسمة هم معترك النزاع بين الاسلام والنصرانية .

وقد تقدم كون مراكز دعوة الاسلام هي فاس ، وطرابلس ، وجغبوب ، والازهر ، وزنزبار ، وان طلائعها في بحيرة تشاد وتمبكتو . وأما النصرانية فدعاتها من فرنسيس ، وطليان ، والمان ، وسكنديناڤيين ، وانكليز ، وامريكيين ، قد اخترقوا الكتلة الفتيشية من ثلاث أو اربع نقاط وهي : وادي غامبيه وأعلى السنيغال ، وسيراليون وساحل غينية ، ومثلث النيجر ، وأعلى الزامبيز ، وبلاد البحيرات الكبرى . وأعز مراكز النصرانية اليوم هي السودان الغربي ، والكونغو ، وبلاد الكافر ، والاوغانده ، والزامبيز الاعلى .

(الكونغو نهر عظيم في أواسط افريقية يخرج من غربي بحيرة نياسا وينتهي في الاوقيانوس الاطلانتيكي ، طوله ٤٦٠٠ كيلو متر وحجم مائه من ٤٠ الف الى ٧٠ الف متر مكعب ، والبلاد التي تجاوره تسمى بلاد الكونغو وهي اربعة اقسام الكونغو الالماني في الشمال وهو الكامرون ، والكونغو البرتقالي وهو انقوله في الجنوب ، والكونغو الفرنسي ، ثم الكونغو البلجيكي ، وأعظمها البلجيكي الذي عدد سكانه ١٤ مليونا .

وأما الاوغانده فحدها ان تكون من السودان المصري ، وهي شمالي بحيرة فيكتوريا نيانزه الى الغرب ، اهلها مليون نسمة حصلت فيها فتن بعد وفاة ملكها ميتزا بسبب الدعوات الدينية ، بين المسلمين والبروتستانت والكاثوليك ، ويقول موريس فال الفرنسي في قاموسه ان الغلبة كانت للبروتستانت ، بسبب عضد ضباط الانكليز لهم . والاوغانده كما لا يخفى ادخلتها انكلترة في مستعمراتها .

وأما بلاد الكافر فهي في افريقية الجنوبية قد مر ذكرها ، واما الزامبيز فهو نهر عظيم يتكون من ملتقى ليبا وكابومبو ، اللذين يلتقيان في نحو الدرجة ١٢ من العرض الجنوبي ، تنسب الى هذا النهر مستعمرة الزامبيز البريطانية وأهلها مليون وثلثمائة الف) :

أما من جهة العدد فالمتنصرون من السود لا يزيدون على سبعة ملايين وخمسمائة الف ، حال كون المسلمين ٣٦ مليونا اكثرهم مستعمرات فرنسا فانهم في السنيغال الى شرقي بافولابه ومنهم أكثر اهالي تورو ، وفوتو جالون ، وسوكوتو وجميع منطقة فاقبين ، وتمبكتو ، ووادي النيجر ، وبلاد فوتاجالون ، وبلاد كيتا ، وباماكو ، وسنادوغو الخ .

ثم أخذ يسرد المسيو بونه موري الاسباب التي جعلت للاسلام الفوز في افريقية بين السود ، وأهم هذه الاسباب بساطة العقيدة الاسلامية ، التي تنحصر في كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله ، مما يقبله عقل الزنجي بدون عناء كبير ، كذلك الجنة التي عند المسلمين تطابق ميول الزنوج ، أكثر من فردوس النصارى ، كذلك الاسلام ليس فيه طبقات ودرجات ، فالزنجي لا يرى نفسه محتقرا في الجماعة الاسلامية . قال ومع كون الفقير والغني متساويين عند كل الملل فليس عند أغنياء المسلمين هذه العظمة والخشونة اللتان عند اغنيائنا ، بل اغنياء الاسلام أكثر تذكرا لزوال النعم وتحول الاحوال من اغنياء النصارى ، والفقير المسلم لا يعز عليه أن يدخل بيت أي واحد من أغنياء الاسلام وان يجد هناك مضافا .

ثم ان العرب والمغاربة والبربر يتزوجون بالسودانيات ، فتحصل بينهم وبين الزنوج وشائج انساب وارحام تزيد نفوذ اولئك عليهم ، حال كونه من النادر الاندر ان يتزوج أوربي بسمراء أويرضى بمصاهرة رجل اسود . ثم ان تعدد الازواج ، وجواز الرق (كذا) ، ومنع القرآن للمسكرات ، كلها أسباب تجعل الرجحان في كفة الاسلام .

وأكثر الذين صنفوا على افريقية حتى الذين منهم اشتهروا بعداوة الاسلام ، اعترفوا بحسن عاقبة اسلام السود من الوجهة الدينية والادبية . لانهم تخلصوا من عبادة الاوثان والحيوانات ، وأقلعوا عن عادة الذبائح البشرية ، وتركوا السحر والسحرة ، وانصرفوا الى عبادة اله واحد عدل ، يعبدونه عبادة روحية منزهة . ثم ان دعاة الاسلام يعلمون المهتدين مبادىء اللغة العربية ، التي هي في الاسلام بمثابة اللاتيني في امم النصرانية . ومما لا شك فيه ، ان الاسلام يزيد النفس عزة ، وينهض بوجدان الزنجي كما قال آتربوري Atterbury وهو قوله :
« بمجرد ما يدخل الزنجي في الاسلام يشعر بكرامة نفسه ، وبعد ان كان يعتقد ذاته عبدا ، يصبح في نظر نفسه حراً . »

وان جميع وصايا جمعيات المبشرين بترك المسكرات ، لم تبلغ شيئا من درجة تأثير الاسلام في حظر هذه الرذيلة . وربما قيل انه كما كان الامساك عن شرب الخمر يرفع درجة الانسان ، فالتزوج بأكثر من واحدة يعمل عكس ذلك . والجواب على هذا أن أكثر المسلمين يقتصرون على الزوجة الواحدة أولا لان القرآن شرط لتعدد الزوجات شروطا ثقيلة ، ثانيا ، لان النفوذ الاوربي ازداد في العالم الاسلامي ، وصار كثيرون من المسلمين ينفرون من تعدد الزوجات - وأتى بونه موري على ذلك بشواهد كثيرة ، وخاض في بحث المرأة الجديدة في الاسلام ، وتكلم على كتاب المرحوم قاسم امين ، وعلى مدارس الاناث المحدثة في الاسلام الى أن قال :
« أما مواطن ضعف الاسلام بازاء النصرانية فمنها تعدد الزوجات . »

لأن تعدد الزوجات بذاته يسقط من مكانة المرأة ، التي هي في نظر السواد الاعظم من المسلمين واسطة شهوة ، ووسيلة للنسل لا غير ، فهذا من مواطن ضعف للاسلام بازاء النصرانية ثم هناك ضعف آخر وهو فساد القضاء الاسلامي وفقد العدل فيه ، اذ كل ما هو مشهور عن قضاة الحكومات السابقة في فرنسا من الرشوة والتزوير والظلم ، لا يحسب شيئا في جنب مساوىء قضاة الاسلام في افريقية ، فانه يكاد يكون مستحيلا نجاح فقير في دعوى مع غني ، أو انصاف أرملة وقاصرين في نزاع مع وصي .

فليفكر جيداً المسلمون في هذه الكلمة ، وليعلموا أنه اذا كان الله تعالى أباح تعدد الزوجات تحت شروط ، فلم يبح الظلم بوجه من الوجوه . بل الاسلام وضع العدل فوق العبادة . ومع هذا فقد صار الأمر الى أن فساد القضاء وفقد العدل في محاكم الاسلام ، أصبحا حجة على الاسلام ، ونقطة يهاجم بها . ولا شك أن أمثال هؤلاء القضاة من المسلمين ، هم بأعمالهم أفحش نكاية بالاسلام من جميع أعدائه . أفلا يعلم هؤلاء أن مثل هذه الأحوال ، هي التي رفعت ثقة الاوروبيين ، لا بل الشرقيين من المحاكم الشرعية ، وحملت الكثيرين على طلب الغائها ، أو وضعها تحت السيطرة الاوربية ؟ وأي عار على الاسلام أكبر من هذا ؟ وأي جناية على الاسلام أفظع من أن يصوره رجال الشرع بغير صورته بسوء أعمالهم ، فبدلا من أن يرغب فيه الناس تراهم يرغبون عنه بسببهم .

ثم جعل المسيو بونه موري استحلال الرق من جملة نقائص الاسلام ، واعترف بأن العبيد أبناء العبيد الذين يخدمون في البيوت ويدينون بالاسلام ، لا تساء معاملتهم ، ولكن أفاض في وصف سوء المعاملة التي يلقاها أسرى الحرب ، وطعن كثيراً في تجار الرقيق لا سيما من العرب ، ووصف القسوة التي تظهر منهم في معاملة من يصطادونهم من الزنوج . وجعل أصل التبعة في ذلك على الاسلام . ونسي أن الرق وجد في جميع الازمان ، وانه وجد في النصرانية أيضاً . وان البوير الاروبيين في جنوبي افريقية ثقل عليهم تحرير الرقيق ، أكثر من تجار العرب . وان الحرب في أميركا استمرت عدة سنوات ، بسبب أن قسما عظيما من أهالي اميركا أبوا الخضوع لقانون أبطال الرق . ونسي أيضاً صاحبنا أن أكثر الأمة الروسية ، وهم الفلاحون كانوا أرقاء للأمراء والاشراف ، ولم يتحرروا الا منذ نحو ١٥٠ سنة وهم من الجنس الاوربي لا من الزنج . كذلك غفل أو تغافل عما أوصى به الاسلام بشأن الرقيق ، وما عظم من فضيلة تحرير الرقاب ، وكيف أن آخر كلام النبي (ص) وهو على فراش احتضاره كان ، التوصية بالارقاء . فنظر المؤلف من جهة واحدة ، وذكر السيئات واغفل الحسنات .

ثم خاض المسيو بونه موري في ثمرات الدعوة المسيحية فقال ، ان عدد المتنصرين من المسلمين لايكاد يذكر ، ولكن لا يخرج من ذلك أن الدعوة المسيحية لم تكن ذات تأثير على المسلمين بل ان الميل الحاضر عندهم الى الاكتفاء بالزوجة الواحدة ، والاعتناء بترقية سوي المرأة ، واصلاح المحاكم ، كل هذا كان من نتائج الدعوة المسيحية . فاما بين الوثنيين فان دعاة الانجيل ، قاوموا عبادة الفتيش (لفظة برتغالية الاصل معناها الوثن أو المعبود من الحيوانات) والاعتقاد بالسحر والتعاويذ ، والذبائح البشرية ، والرق ، وأصلحوا حال المرأة ، واجتهدوا في تعليم الزنجي ، الاقتصار على الزوجة الواحدة ، وأفهموا السود أن على المرأة واجبات غير الولادة ، وهي تهذيب الاولاد ، وتمريض المرضى والزمنى ، بخلاف المسلمين الذين يرون في المرأة واسطة للنسل لاغير . (كذا) .

وعلموا السود النظافة وقوانين حفظ الصحة ، ومرنوهم على الاشغال اليدوية والزراعة ، واما من جهة المستشفيات ولاسيما ملاجيء المجذومين ، فحدث في هذا الباب ولا حرج . ثم أن المبشرين هم الذين نشروا في اوربا فظائع صيد العبيد حتى اهتمت الدول بذلك ، وعقدت المؤتمرات التي قررت فيها منع بيع الرقيق . ولم يتوقف المبشرون عن التشهير بمساويء تجار

الرقيق بل شهروا بسيئات المستعمرين الاوربيين انفسهم فيما لو خبطوا الاهالي بعصا العسف وذلك كما فعل المبشرون الانكليز ، عند ما رأوا أعمال بعض البلجيكيين في الكونغو . ومما لايمكن السكوت عنه أن بعض الاوربيين ارتكبوا جريمة بيع المسكرات بين الزنوج ، ومنهم ضباط وحكام استعملوا القسوة في معاملتهم ، فكانوامثالا سيئاً وان بعض المبشرين أنفسهم ، ارتزقوا من حرف غير لائقة بالعمل الذي بعثوا من أجله ، وان كثيراً من المبشرين تشاجروا بعضهم مع بعض ، لا سيما الكاثوليك والبروتستانت ، وحصلت في الاوغانده وقائع دموية بسبب نشر الدين ، فهذا مما يقدح الشكوك في قلوب الذين ذهب المبشرون لهدايتهم . وماذا تقول في حرب الترانسفال التي دارت بين امتين مسيحيتين تحت أعين الزنوج ، فجاءت بتكذيب دعوى البيض بكون انجيلهم هو واسطة السلام .

قال : وبالجملة فاذا كان الاسلام قد رجح من جهة عدد الذين اتبعوه من السود ، فالنصرانية كانت الرجحى في أهمية النتائج الادبية والاقتصادية ، ثم لايوجد وجه للمقايسة بين المدارس النصرانية وبين كتاتيب الزوايا ، فضلا عن كون مبشري الانجيل أسسوا مدارس صناعية مثل مدرسة باقامويو Bagamoyo ومدرسة لوفيدال Lovedale ، ومدارس زراعية مع انموذجاتها نظير مؤسسة الآباء البيض في كيتا Kita ، وأين تجد عند دعاة الاسلام من دور الايتام ، وملاجيء العجزة والزمنى ومستشفيات المجاذيم ، ما تجده عند دعاة النصرانية ، وأين في العالم الاسلامي النسوة اللائي مثل راهبات الرحمة الكاثوليكيات والاخوات الانجيليات ، ونساء المبشرين . لاجرم أن النصرانية في هذا الموطن هي العليا وان كان الاسلام هو الفائق في قضية منع الكحول .

فنحن لا ننكر ماقاله المسيو بونه موري من أنه لا وجه للمقايسة بين مؤسسات الاسلام والنصرانية في افريقية وغيرها من جهة الاتقان والتفنن ، وتنوع العلوم ، والصناعات ، واشتراك النساء مع الرجال في هذه المشروعات الخيرية ، وماتأتي به هذه الراهبات من الخوارق في خدمة الانسانية . كلا والله لاننكر ذلك ، والحق من ربك فلا تكونن من الممترين . ولكن مما لا ينكر أيضاً ان انحطاط المؤسسات الخيرية الاسلامية ، انما وقع بانحطاط القوة السياسية الاسلامية في الاعصر الاخيرة ، أما قبل ذلك فلم تكن مدينة تذكر في الاسلام الا فيها البيمارستانات ، ودور المجاذيم ، والمجاذيب ، وملاجيء الزمنى ، وملاجيء العميان وكل هذه المؤسسات كانت لها أوقاف دارة ، ومنابع رزق ينفق منها عليها عن سعة .

لا بل الذي خطر ببال المسلمين من جهة اسداء الخير ، واماطة الأذى ، وتخفيف آلام البشر قد وصل من التناهي الى درجات ، لم تبلغها أوربا في عصر مدنيتها هذه ، ودل على أن في الاسلام من رقة الشعور ، ودقة اللحظ ، وتوقع النادر من النوازل ، ماليس في غيره . واليك هذا المثال :

كانت في دمشق الشام عدا دور المجانين والمجاذيب والمجاذيم ، أوقاف على الحيوانات ، ويقال ان مرجة دمشق هذه التي هي اليوم متنزه أهل الحاضرة ، كانت وقفا على الخيل التي تعبت في الجهاد وأسنت ، يطوّل لها فيها دون غيرها .

وسمعت رواية من أفواه بعض الأدباء لم أجد عليها نصاً ، ولكنها قريبة الى التصديق

وهي، أنهم وجدوا في الوثائق المتروكة عن المستشفى النوري الشهير (محل المحكمة الشرعية الآن، وهو منسوب الى الملك العادل نور الدين زنكي رحمه الله) وظيفة من جملة وظائف المعالجة لم يخطر ببال الاوربيين، مع تناهيهم في الترف والعناية بالصحة أن يجعلوها وظيفة، ولا أن يرتبوا لها جعلا معلوماً، وهي تكليف اثنين بان يقفا بمسمع من المريض، وبدون أن يلحظ ان ذلك جار منهما عمداً يسأل احدهما الآخر عن حقيقة علة ذلك المريض، فيجاوبه رفيقه بأنه لا يوجد في علته ما يشغل البال، وان الطبيب رتب له كذا وكذا من الدواء، ولا يظن انه يحتاج الى اكثر من كذا من الوقت حتى ينقه، وغير ذلك من الحديث، الذي اذا تهامس به اثنان على مسمع عليل ثقيل الحال وظنه صحيحا، زاد في نشاطه، ونهض من قوته المعنوية بما يفعل فعل انجح الادوية لا سيما عند ذوي الأمزجة العصبية: فهذه نكتة، لم يتنبه الاوربيون الى ان يدخلوها في جملة وظائف المستشفيات الى هذه الساعة، مع انها في منتهى درجات الرقة والفائدة.

ومن أرق وألطف ما وجد في الاسلام من هذا المعنى وقف الزبادي، الذي كان في دمشق، وقد حدّث عنه ابن بطوطة وهو مكان توجد فيه صحاف من الخزف الصيني الجليل القدر، وقفها أصحابها لأجل انه اذا كان غلام كسر آنية لسيده وتعرض بذلك لغضبه، يذهب الى هذا المكان ويضع الاناء المكسور، ويأتي باناء صحيح بدلا عنه. فهل لحظ أرباب المبرات من الافرنج معروفاً، بلغ هذا المبلغ من الكياسة، ولطف الشعور؟

ووجد في الشام وقف لتزويج البنات الفقيرات.

ووقف لسقيا الماء المثلوج في الصيف لعابري السبيل، وقد يسقونه بماء الخروب أو غيره من الأشربة.

ووقف لمستشفى المجاذيم، من جملة أراضيه القرى التي كانت للمرحوم أحمد باشا الشمعة في حوران.

أما أوقاف البيمارستانات فهذه لا تحصى في الاسلام.

وفي مكة المكرمة وقف، مخصص ريعه لمنع الكلاب من دخول مكة.

ووقف لاعارة الحلي والزينة في الأعراس والأفراح، بحيث أن العامة والفقراء لا بل الطبقة الوسطى يرتفقون بهذا المعهد الخيري، فيستعيرون منه ما يلزمهم من الحلي لأجل التزين به في الحفلات، ويعيدونه الى مكانه بعد انتهائها فيتيسر للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلة لائقة، ولعروسه أن تجلى بحلية رائقة مما يجبر خاطرهما، وكذلك يستغني المتوسط في الثروة عن أن يشتري ما لا طاقة له به.

وفي مكة وقف آخر تستعار منه، أدوات السفر والمفروشات للولائم والوضائم.

وبلغني أنه يوجد بمصر وقف لسكنى الايامى. ووقف آخر لكسوة أولاد الفقراء. ووقف لاطعام الكلاب.

ويوجد بتونس الخضراء وقف، مرصد ريعه لتزويج بنات الفقراء واليتيمات، ووقف للصبيان، لهم يوم مخصوص هو يوم الخميس يسألونهم فيه عن جميع ما قرأوه في الاسبوع، ويعطونهم بعد ذلك دراهم بعثاً لهممهم، وتفريحاً لقلوبهم. ووقف للاستخدام مجاناً، توضع

فيه صرر من الدراهم كل صرة فيها مقدار أجرة الحمام ، فيدخل المحتاج الى الاستحمام أو ازالة الجنابة، ويتناول أحدى هذه الصرر ويذهب الى الحمام ، فيدفعها بعينها ويستحم .

ويوجد في تونس وقف غير الوقف الاول ، لتزويج البنات الابكار اللاتي بمحل الزواج .

وفي تونس وقف لدار المجانيم . ووقف آخر للمعاتيه .

وفي تونس وقف لختان أولاد الفقراء ، يختن الولد ويعطى كسوة ودراهم . وهناك وقف توزع منه الحلواء في رمضان مجانا .

وقيل لي ان في تونس كما في دمشق وقفا لمن انكسر بيده اناء ، فيذهب ويأخذ منه بدل الاناء الذي انكسر .

ويأتي الى تونس في بعض أيام السنة نوع من السمك تفيض به شواطئها ، فيوجد في تونس وقف يشترى من ريعه جانب كبير من هذا السمك ، ويوزع على الفقراء .

ويوجد في فاس وقف أشبه بالوقف الذي في دمشق ، والآخر الذي في تونس ، لمن ينكسر بيده اناء.

وفيها وقف لاحتياط آخر ، وهو أن من وقع عليه زيت مصباح ، أو تلوث ثوبه بشيء آخر ، يذهب الى هذا الوقف ويأخذ منه مايشتري به ثوبا آخر .

وهناك وقف سيدي أبي العباس السبتيّ للعميان والزمنى ، يأخذون كل يوم من ريعه ما يعيشون به ذكوراً واناثاً على كثرة عددهم .

ويوجد وقف اسمه وقف سيدي علي أبي غالب ، ينفق منه على ذوي العاهات . ووقف في فاس ، ينفق منه لرفع الحجارة من الطرقات .

ووقف للمؤذنين الذين يحيون الليل بالنوبة ، كل منهم يسبح الله نحو ساعة بصوته الرخيم ، ويسمى هذا المؤذن « مؤنس الغرباء » أو « مؤنس المرضى » لان المريض لا يقدر أن ينام ولا يوجد في كل الاحيان من يحيي الليل لاجله ، فليس له انيس أحسن من هذا المؤذن الذي يشجيه بصوته الرخيم في تسبيح البارى تعالى في ساعات الليل الاخيرة .

وفي مدينة مراكش ، وقف لسقي الماء المثلوج في ايام القيظ كما في دمشق .

وفيها مؤسسة اسمها « دار الدقة » وهي ملجأ تذهب اليه النساء اللاتي يقع نفور بينهن وبين بعولتهن فلهن ان يقمن به آكلات شاربات ، الى ان يزول ما بينهن وبين ازواجهن من النفور . وعلى دار الدقة هذه ، أوقاف عديدة دارة .

ويوجد في مراكش مكان اسمه « سيدي فرج » عليه أوقاف كثيرة دارة فائضة ، وذلك لايواء المجاذيب والمعاتيه ، ولتجهيز الموتى من الضعفاء والمساكين . ويؤخذ من ريع أوقاف سيدي فرج هذا ، لشراء ملابس توزع على الفقراء في أول الشتاء .

وروى جان وجيروم تارو الاخوان ، الكاتبان الفرنسيان في رحلتهما الى مراكش ، ان في مدينة مراكش ملجأ لا يوجد مثله في الدنيا باسرها ، وهو بناء يكاد يكون بلدة ، وله ساحة يكاد الطرف لا يأتي على آخرها ، وفي هذا الملجأ ستة آلاف أعمى ينامون ، ويأكلون ويشربون ، ويقرأون ، ولهم أنظمة ، وقوانين ، وهيئة ادارة ، وصندوق الخ . فهذا مثال مما في العالم الاسلامي من المشروعات الخيرية والمآثر الانسانية ، مما لم يتفطن لاكثره العالم

الاوربي بعد ان وصل الى ما وصل اليه من الغاية القصوى في العمران ، والدرجة العليا في الاحتياط لازاحة عل الانسان . وربما كان كثير من هذه الاوقاف والملاجيء قد انحط أو درس ، أو استأثر نظاره بريعه لسوء الحظ ، ولكن هذا لا يمنع من أن تكون هذه المؤسسات الجليلة ، وهذه الخواطر الخيرية الدقيقة قد وجدت في الاسلام ايام عزه ، ولا يزال قسم كبير منها موجودا . فافتخار المسيو بونه موري على الاسلام بوفرة الملاجيء ، ودور الايتام ، وكثرة معاهد الخير في النصرانية ، دون الاسلام ليس في محله ، ولو اطلع على هذه المعلومات ، التي هي قليل من كثير مما في الاسلام من المبرات العامة لرجع عن كلامه .

الخلاصة

استخلص صاحب كتاب الاسلام والنصرانية في افريقية من ابحاث كتابه هذا ، التي لخصنا أكثرها تلخيصا مطابقا للاصل ، ان الاديان التي جاءت افريقية بافضل وأسلم مباديء المدنية هي الاديان الثلاثة ، الموسوية ، والنصرانية ، والاسلامية . وان الوثنية التي كانت عليها قرطاجنة والاسكندرية في الاعصر القديمة لم تفد افريقية شيئا ، كما أن الفتيشية الحاضرة بين الزنوج ، هي مصدر لأنظع الاعمال واسخف العبادات .

وقد كان لليهودية دور عظيم بمصر لعهد البطالسة وفي افريقية الرومانية ، قبل مولد السيد المسيح بقرن وبعده بقرنين . ولكنها الآن انحطت كثيرا في هذه القارة ، فليس في شمالي افريقية اكثر من ٢٦٠ الف نسمة من اليهود ، أقلهم انحطاطا يهود الجزائر ومصر ، وترى جمعية الاتحاد الاسرائيلي عاملة لاعلاء شؤونهم بهمة عظيمة .

أما النصرانية فازدهرت كثيراً في القرن الثاني الى السابع للميلاد وعمت شمالي افريقية من مصر الى أقصى المغرب ، فلما جاء الفتح العربي الاول في القرن السابع ثم الثاني في القرن الحادي عشر جرفا كل آثار النصرانية هنالك الا ما كان للقبط بمصر والحبشة .

وأما الاسلام فبعد أن أشرقت به أنوار العلوم والصناعات بمصر وبالمغرب توقف على مستوىً واحد ، ثم شرع بالتدهور بعد سقوط الاندلس .

ثم عادت النصرانية بواسطة جمعيات التبشير المسيحيّ الى العمل بين الزنوج الفتيشيين ، ولذلك ترى دعاتها في سواحل زنجبار ، ونواحي البحيرات الكبرى وفي واداي ، وحول بحيرة تشاد ، وفي البلاد الواقعة بين منحدر النيجر ومنابع السنيغال ، يتصادمون مع رجال الطرق الاسلامية ، وطلبة فاس ، والازهر الذين يأبون النصرانية بأي وجه كان . فمنذ بداية القرن التاسع عشر اشتدت المزاحمة بين هاتين الديانتين ، وتسابقتا على السيادة الدينية بل على السيادة الدينية السياسية ، بما لا يقل حرارة عن مساجلتهما أيام القرون الوسطى .

فماذا ينبغي لنا أن نتمنى من جهة نتيجة هذه المصارعة بين هاتين الديانتين ؟ وأية خطة يجب أن يتبعها مبشرو النصرانية لاكمال عملهم ؟

الجواب على السؤال الأول : لا ينبغي لنا نتمنى لا فشل الاسلام ولا فوزه . لا ينبغي ان نتمنى فشل الاسلام لأنه مما لا مشاحة فيه أن دين محمد قد أعلى مستوى القبائل الفتيشية التي دانت به ، وخدم بذلك الانسانية . فان غاب هذا الدين عن بعض تلك المراكز ، سادت

فيها البربرية وهم شرب الخمور . ولا ينبغي لنا أن نشتهي فوزه لأنه اذا فاز ، هاج التعصب الاسلامي وعقبت ذلك حروب دموية ، وربما مذابح يهلك فيها الاوروبيون . هذا فضلا عن كون الاسلام اذا رفع مستوى الزنجي فانه يقف به فيما بعد على درجة ، لا يتقدم عنها ولا يتأخر . (يشير الى الجمود الحاضر).

وعندي ان الاولى بقاء الديانتين في مراكزهما الحاضرة؛ تسعى كل منهما سعيها مع التسامح والتفاهم . فاما في البلاد التي دخلت في الاسلام فيجب العدول عن سياسة التنصير والاكتفاء بادخال مبادىء مدنيتنا بواسطة المدارس الفرنسية العربية ، أو الانجليزية العربية والمستشفيات والملاجيء ، ومدارس تعليم البنات الخ . وكذلك يحسن بالاوربيين أن يقتدوا بالمسلمين في الامتناع عن المسكرات وفي احترامهم الفتيشي، الذي يقلع عن عقيدته الاولى ، وعده مساويا للابيض ، وفي الالفة بين الغني والفقير .

ولكن حيث أباح الاسلام التعذيب في القضاء ، أو تجارة الرقيق ، أو الشعوذات السحرية ، فيجب على ممثلي النصرانية أن يأذنوا بذلك حكوماتهم ، حتى تبطل هذه الامور بالقوة .

وعلى دعاة النصرانية أن يسرعوا في عملهم ، ويضاعفوا همتهم ونشاطهم بحيث يسبقون دعاية الاسلام ، ويعرفوا المائة مليون زنجي الباقين على الفتيشية بانجيل المسيح ، قبل أن يسمع هؤلاء بذكر القرآن . وعليهم ان يتوخوا البساطة في التعليم المسيحي ، وينهجوا الطريق الذي نهجه حواريو المسيح في وقتهم عندما كانوا يهدون الوثنيين . وأما الفضائل فيجب على المبشرين انفسهم ان يكونوا هم القدوة بها ، ليمحوا سيآت غيرهم من النصارى البيض . اه

هذه خلاصة كتاب الاسلام والنصرانية في افريقية عولنا عليه ، لانه اجمع ما رأينا في هذا الموضوع . وكان ستودارد قد نقل عنه . واطلعت على كتاب عنوانه « عصر في افريقية والاوقيانوس » لجمعية التبشير الانجيلية البارزية مطبوع في السنة ١٩٢٣ الماضية فوجدت فيه بعض نبذات تتعلق بالاسلام في أواسط افريقية .

فذكر ان في السنيغال خمسة أو ستة أجيال ، مجموعهم مليون ونصف مليون نسمة ، وان أحصاهم عدداً جيل يقال لهم الاولوف Ouolof فقال ان هؤلاء قاطبة كانوا مسلمين ولا يزالون مسلمين ، ولكنهم بمجيء شبانهم أثناء الحرب الكبرى الى فرانسا ، حصلت ثورة في أفكارهم وتساهلوا في الدين . قال : ولا نقدر ان نقول ان هذه الثورة الفكرية أفادتهم من الوجهة الادبية . كلا بل صاروا مدمنين للسكر ، بعد أن كانوا لا يذوقون الاشربة المتخمرة أصلا . ولم تقتصر هذه النكبة في سور التعاليم القرآنية على شرب الخمر بل تجاوزت الى عدم الصوم في رمضان وترك الصلاة .

قال وحصل منذ نحو عشر سنوات أن شاباً مسلماً ابن عائلة وجيهة في سور Sor ، تردد كثيراً على المدرسة الانجيلية في هذه البلدة ، الى أن التمس من المسيو أندري درانكور تعليمه الدين المسيحي ، ولحظ أهله ذلك فلم يعارضوه في أول الامر ظناً بأنه لا يصبأ عن دينه ، ولكنهم لم يلبثوا أن عرفوا أن الشاب ترك صلاة المسلمين وصيام رمضان ، وانه مرق من الاسلام ، فارسلوه الى جهة بعيدة لم يرجع منها .

قال فاما في هذه الايام فحوادث كهذه لا تقع لا لكون الاهالي تركوا الاسلام ، بل لكون

النشء الجديد تماص من القيود العتيقة ، فصار بعض الشبان يغشون محلات العبادة عند النصارى سواء في سان لويس ، أو في داكار ، ويشتركون في الاناشيد الروحية ، مما يدل على حالة عقلية لم تكن من قبل . فعلى المبشرين أن يستغلوا هذه الحالة الجديدة بتوجيهها الى جهة المسيح . وقد آن لنا أن نستفيد عبراً من الماضي ، فاننا نحن منذ مدة طويلة مستولون على السنيغال ، وعند ما جاء أول مبشر الى السنيغال منذ ٦٠ سنة ، كانت مقاطعات كثيرة من السنيغال لم يقبل أهلها دين الاسلام . ولكن نقصتنا الثقة وأعوزنا الثبات ، مع أن الارض اذا كانت خصبة تحتمت فلاحتها وزرعها ولو تأخر الوقت . نعم ان السنيغال بلاد اسلامية ، ولكن فيها طوائف لا يزالون فتيشيين مثل السريرين Sereres ، الذين يبلغ عددهم ٣ الى ٤ مائة الف ، وكذلك اهالي كازاماس الذين معظمهم وثنيون .

في السنيغال مليون ونصف مليون نفس كلها خلائق الله ، وكلها في حاجة الى الخلاص . ولقد كانت تربيتها الى هذا اليوم اسلامية بحتة ، ولكن جرى تحول في الافكار بهذه المدة الاخيرة ، فالساعة اذاً قد أزفت للعمل . اه

وكاتب هذا الفصل المبشر البرت درانكورت يحرض قومه على البذل والاهتمام وبث الدعاة في السنيغال .

ثم اطلعت في هذا الكتاب نفسه على فصل آخر ، لمبشر يقال له المسيو فور Faure يتكلم على البعثة الانجيلية في بلاد الغابون أو الكونغو الفرنسي ، ويقول فيه ان هذه البلاد بعد ان ضمت اليها مستعمرة الكامرون الالمانية ، صارت بقدر فرنسا أربعاً أو خمس مرات ، وان سكانها أقوام مختلفة من سود افريقية منهم مسلمون واكثرهم فتيشيون . ومن جملة ما ورد في هذا الفصل قوله :

ان الاوربيين ، قد جنوا على السلالة السوداء جنايات كثيرة لا مندوحة لهم من التكفير عنها . فاذا كانت أمم المبونغوي Mpongwé ، والغالوه Galoa ، والنكومي NKomi ، وغيرها رقد انقرض اكثرها فما ذلك الا لكون النخاسين البيض كانوا يصطادون أبناء هذه الاقوام ، ويستعبدونهم ويبيعونهم ، ولكون اكثر ارباح التجار البيض ، هي من تجارة السلاح والبارود والمسكرات ، وبالآخر المنقل الحقيقة وهي ان الزنا مع ما يجره من الامراض التي كادت تفني هؤلاء الزنوج ، انما فشا فيهم بواسطة الاوربيين . ولكم من جرم جره الاوربيون بين هؤلاء السود البؤساء ، ومما لا نقدر أن نكابر فيه هو أن الاستعمار العصري ان هو الا استغلال المستعمرات وأهلها ، بأي وجه كان . فمسؤلية أوطاننا من هذه الجهة باهظة ولا سبيل لانكارها (فليتأمل القاريء في شهادة هذا المبشر الانجيلي على قومه) فالواجب اذاً علينا نحن البروتستانت أن نعوض الضرر الذي ألحقه أبناء جنسنا بأهل افريقية ، وان نحمل كلمة الحياة والنور والقوة الى حيث الانحطاط والظلمات ولنتذكر ان مئات الوف من هؤلاء الاهالي لبوا نداء بلادنا في الحرب الكبرى ، وقتلوا في سبيلنا ، فان ثلثي هؤلاء الذين سقناهم الى الحرب لم يعودوا الى أوطانهم ، لأن منهم من قتل ومنهم من مات بالامراض الخ .

ومما يستجلب النظر في هذا الكتاب فصل لمبشر اسمه فريدريك فرنيه Frédéric Vernier من التبشير الانجيلي في ماداغسكر أشار فيه الى نجاح الدعوة في تلك الجزيرة الكبرى ، ولكنه

لم يخل كلامه من شكوى مرة من اعمال الجزويت ، الذين لبثوا مدة طويلة مستخدمين قوة الحكومة الفرنسية لاعنات البروتستانت ، ولم يتمكن هؤلاء من رفع الظلم والانتقام عنهم الا ببذل اموال جزيلة ودماء زكية . وكذلك شكا من حملة الملاحدة من الاوروبيين الذين كانوا يناوئون الدعوة الدينية مناصبها ، ثم من فساد الاخلاق وفتور العزائم المستولين على سكان ماداغسكر ، مما يجعل وصاية البعثات الانجيلية على الكنائس الوطنية حتماً .

ثم ذكر ان نسبة المسيحيين الى الوثنيين في مقاطعات ايمرينه Imérina ، وبيتسليو Betsiléo ، وتاماتاف Tamatıve ، وبلاد السكالاف Sakalaves هي نسبة اثنين الى ثلاثة . وشكا من كون الوثنية في المدة الاخيرة اخذت تتقدم الى الامام ، وان مبشرا انجيلياً فاجأ ٦٠٠ وثني مجتمعين لعبادتهم. قال : « وان جميع الاهالي في ماداغسكر يعتقدون باله واحد يسمونه « اندريا مانيترا » او « ادريا ماناماري » أي ابدي وخالق . وكما يستدل عليه من امثالهم وعباراتهم ، لا تخلو دياناتهم من مبادىء ادبية سامية . مثلا يقولون : اندريا ميترا تسي تيا راتسي . ومعناها : الله لا يحب الشر . ويقولون عبارات معناها: انه يوجد عدل لا بد ان ينتصر يوما . والله لا ينخدع . والله لا يخطىء ولكن الناس هم الذين في الضلال وغير ذلك . ومع هذا فهذه العقيدة بقيت عاجزة عن اعطاء المادغسكريين ديانة قيمة قادرة على تزكية النفوس . فانهم يوجهون صلاتهم الى جماجم الموتى ، ويظنون ان ارواح الاهالي الاصليين الذين طردتهم أمة الهوفا Hovas من ديارهم ، عادت فاتخذت مساكن في بعض الحجارة والينابيع ، فلهذا يقدمون لها القرابين لتسكين غضبها . وهم يعتقدون بالسحر والسحرة ، وبالتعاويذ والرقى ، والطلسمات ، وبالاجال فدينهم دين الخوف ، ولا يعرفون شيئاً عن الاله الكريم العفو الغفار قابل التوب . الى آخر ما قال .

ثم ان في هذا الكتاب فصلا مهما عن الكامرون نلخص منه بعض معلومات مفيدة وهو من قلم المبشر المسيو الالغره Allegret . قال :

الكامرون

ان الكامرون قطر واقع في داخل خليج غينية ، مساحتها اربعمائة وتسعون الف كيلو متر مربع اي بقدر مساحة فرنسا ، وهو من بحيرة تشاد الى الاوقيانوس من الشرق الى الغرب ، ومن النيجر الى الغابون من الشمال الى الجنوب . واما اهالي الكامرون فعددهم اربعة ملايين أي ضعف أهالي ماداغسكر ، هذا عدا القبائل العاصية المعتصمة بالجبال . والمظنون ان نحو ثلثي الاهالي لا يزالون وثنيين . ويسكن في الآجام الجنوبية جيل متوحش اسمهم البيغمه Pygmé ، والباقون من الاهالي ثلاثة أقسام :

الاول البانتو ، في السواحل والوسط والجنوب وكلهم فتيشيون ، وهم فرق الدوالة ، والباسة والثوري والبولو الخ. وبين هؤلاء تأسست مراكز التبشير بالانجيل .

الثاني السودانيون الباقي اكثرهم على الفتيشية ، وأصلهم مهاجرون من الشرق وهم سكان شمالي الكامرون ، ولهم امارات وحكومات وطيدة .

الثالث الساميون وهم الحاوسة ، والفولبة ، والعرب الذين في سواحل بحيرة تشاد . فأما

الحاوسة ، فان بايديهم جميع التجارة من شمالي الكامرون الى جنوبيها وهم يهود هاتيك البلاد وتراهم في كل مكان لا تخلو منهم بقعة ، وفي كل قرية من قرى الجنوب حارة للحاوسة ، كما أنه على أبواب المدن الكبيرة توجد قرى للحاوسة والاهالي لا يحبون الحاوسة ولكنهم محتاجون الى البضائع التي يأتون بها " ويظهر ان هذه الفرقة منهم ستزول شيئاً فشيئاً ، وسينتهي الامر بسيادة الهلال (أي الاسلام) على كل محل ان لم يبادر المسيحيون باتقاء الخطر . وفي الحالة الحاضرة لا تجدهم مفرطين في التعصب ، فلا يزال عند المبشرين المسيحيين الوقت الكافي لمسابقة دعايتهم .

ولقد كان احتلال أمة الفولبة لبلاد الآداموا ، منذ عهد غير بعيد ، جاءوا من بلاد السنيغال والنيجر ، وبورنو وانتجعوها ، وكان أصل انتجاعهم لها ارتياد المراعي لمواشيهم ، واثروا حقبة يؤدون اتاوة للملوك الوثنيين ، كما انه لا يزال طائفة منهم اسمهم البورورو Bororos يقرب مدينة نومبان يؤدونها الى اليوم . ولكن لما تكاثر الفولبة اعصوصبوا حول زعيم لهم يقال له آدما وهو الذي انتسبت الى اسمه بلاد الآداموا فاستولى على المملكة ، وصار الوثنيون هم الذين يؤدون الجزية للمسلمين وصار هؤلاء يأخذونهم أرقاء ، وانهزم جم من الوثنيين الى الجبال حرصا على استقلالهم . ومع هذا فقد بقي طوائف من المسلمين تحت سيادة الوثنيين . ويوجد أقوام مثل النيكار والبامون والبوت " يتكون منهم مناطق حائلة بين المسلمين والفتيشيين .

ثم قال وان الكامرون هي أرض مختارة للتبشير ولها مستقبل عظيم ، كأن نتمكن من تنصير الوثنيين الذين فيها ونقف حاجزاً بينهم وبين الدعوة الاسلامية ، وأخيرا المشر النصرانية بين المسلمين أنفسهم » . انتهى كلامه بحرفه

ثم في محل آخر تكلم هذا المبشر عن آفات الدعوة الدينية من تزاحم الاوربيين على التجارة والربح المالي . وزعم أن الالمان اغتصبوا الاهالى اراضيهم ، وانهم في أغسطس سنة ١٩١٤ شنقوا ملك دواله ، بحجة أنه تمرد على السلطة الالمانية . ثم انتقل الى ذكر الحرب العامة فقال انها جاءت كعرصر عاتية لم تبق ولم تذر " فخيل للناس أن عمل المبشرين حبط تماما بزوال الحكومة الالمانية من الكامرون . اذ انه لما سيق المبشرون الى الساحل اسارى هجمت العساكر السوداء من الفريقين ، وثار الاهالى وخربوا المؤسسات والمراكز التي كانت للتبشير . وأناس كثيرون هجروا القرى ولاذوا بالجبال فراراً من العساكر وان ١٥ الفاً من الالمان واعوانهم قبض عليهم وسيقوا الى دواله حيث كان منهم الى سنة ١٩٢٠ يعملون في الارض . فلا حاجة الى ذكر ما حل بالضمائر ونزل بالعقائد من جراء هذه الحوادث ، فقد مات التبشير ودرست معالمه ، وحصل رد فعل استؤنفت به قوة الوثنية ، ورفعت رؤوسها دعاة الكنيسة النصرانية الاهلية ، وصاروا ينادون علناً : لا بد أن نكون تحت سيطرة البيض ولا أن نكون مسيحيين ، اذ هذه افعال البيض قد ظهرت للعيان ؛ فلنعد الى عقائد آبائنا . وهكذا عادت الوثنية الى سطوتها الاولى . وانفرد بعض تلاميذ البعثات الاوربية بمذاهب مزجوا بها بين العقائد المسيحية والفتيشية ، وعاد كثيرون من الزنوج الى تعدد الزوجات ، واغتنمت هذه الفرصة الكنيسة الافريقية التي قاعدتها « افريقية للافريقيين » وأخذت تنفر الاهالى من المبشرين الاوربيين ، واباحت لاتباعها تعدد الزوجات . فان هذه الكنيسة الاهلية لم تكن في

الحقيقة ثمرة نهضة روحية ، بل هي نتيجة دخول روح الوثنية في النصرانية . فانقسمت الكنائس الى ثلاث كل منها تقاتل الاخرى . وانتهز دعاة الكاثوليك هذه الفرصة ليقولوا للزنوج البروتستانتيين : « أما وقد صرتم من تبعة فرنسا الآن فلا تستطيعون أن تكونوا بروتستانتاً . »

وبينما الوثنية تهاجم النصرانية من هذه الجهة اذ هاجمها الاسلام من الجهة الاخرى فأن سلطان بامون الذي كان من قبل دعا المبشرين من نفسه ولى وجهه شطر الاسلام وبنى جامعا ودعا جميع تبعته أن يتخذوا الاسلام ديناً .

ثم ذكر هذا المبشر كيف أن الحكومة الفرنسية ارسلت بعثة لاصلاح هذه الحال ، وما عانوه من الصعاب حتى اعادوا الشيء كما كان أو قريبا مما كان ، وكيف وحدوا بين الكنائس واقاموا جبهة واحدة بازاء الاسلام من جانب ، والوثنية من جانب آخر . ثم ختم فصله بقوله :

أما موضوع الاسلام فهو من الطول بحيث لااقدر أن افتحه ، فقد سبق لنا أن بيّنا كيف أن نجويا Njoya سلطان البامون ولى وجهه شطر الاسلام ، ولكن اسلامه كان ممزوجا بعقائد وثنية وأخرى مسيحية . وقد صنف كتابا يعلن فيه مذهبه وسماه «طريق الحياة» وفي الحقيقة انه فتيشي ، لم يسلم الا ليكون القائد المطلق لشعبه . ولولم تكن البعثة الانجيلية قد دخلت في البلاد ، لربما كان الاسلام قد عمها . وقد خالطت بنفسي امة البله الذين في بامون فوجدتهم مسلمين غير متعصبين وهم على جانب من الوداعة ، فظهر لي انه يمكننا أن نبذر زرع الانجيل بين هذه الامم التي تغلغل فيها الاسلام ، وان نقف تقدمه بل نهاجمه رأساً في اماكنه فيلزم أن نعيد الى الكنائس الاهلية الصبغة التبشيرية ، ونجعلها دائما تحت سيطرة رسالات الدعاية ، ولا تنفك عن الدعوة ، ونذكر كنائس سواحل الكامرون بأن الاسلام الذي اخنى على جميع كنائس شمالي افريقية ، يمكنه أن يخني عليها هي ان لم تتدارك هذا الخطر عاجلا . انتهى .

وقد اطلعت على كتاب عن المستعمرات الالمانية للاستاذ روورباخ Rohrbach الالماني ذكر فيه بلاد الآداموا من شمالي الكامرون فقال : « ان هذه البلاد هي مركبة من القسم الذي كان يخص المانية من قبل ، وأضيف اليه القسم الذي تخلت عنه فرنسا لالمانية بموجب اتفاق ١٩١١ . فالآداموا من الجنوب تتصل بالقسم الاعلى من الكامرون ، وتشتمل على اعالي بلاد فنو مع النواحي التي بين فنو واراضي لوغونه ، التي هي حدود الالمان من جهة الاملاك الفرنسية المتاخمة لبحيرة تشاد . قال : وفي هذه الجهات أقوام وطنيون كثيرون لهم سلاطين من أنفسهم ، ويقال للسلطان عندهم لاميدوس Lamidos ، والاهالي منذ عهد طويل هنا هم تحت نفوذ التعليم العربي ، واكثرهم مسلمون . ويوجد مدن مهمة مثل غاروه Garua ، وماروه Marrua ، الى الشمال من فنو . وأعظم امارات بلاد الفلاحين أي المسلمين هي رايبوبه Reibuba ، ثم من الآداموا المقتطعة من الاملاك الفرنسية بموجب اتفاق سنة ١٩١١ مدينة ليرة Lere ، وبندر Binder ، وعلى الحدود الالمانية من جهة لوغونه مدينة كوسري Kusseri ، وفي الشمال على بحيرة تشاد بلدة المونغو Mongo . قال : والاهالي في الآداموا حسنو القيام على الزراعة ، وعندهم مواسم حبوب عظيمة ، ويستخرجون زيت الزيتون والسمسم

والقطن بكثرة ، وعندهم صناعة النسج مترقية ، وهم يتفننون بها ويكتسون منها ، ولا شك أن للآداموا مستقبلاً عظيماً من جهة زراعة القطن .

ثم ذكر بلاد الطوغو من مستعمرات المانية في خط الاستواء ، وقال ان الاسلام فيها هو في تقدم مستمر ، ونشر صورة مسجد اسلامي في مدينة سانزانه مانغو Sansane Mango في شمالي الطوغو . »

وقد ورد في كتاب يسمى « المملكة الاستعمارية الالمانية » كلام طويل ، على مسلمي الكامرون وأواسط افريقية نلخص منه ما يأتي :

« انه في القرون الوسطى ، كانوا في شمالي افريقية يعتقدون بوجود شعوب زنجية سمراء في بلاد التوارق العليا والتيبستي من جهة وادي دراعة وقزان ، ويظن الرحالة الالماني ناختيغال Nachtigal ، ان هؤلاء هم الذين يقال لهم Karamant كرامانت ، وكان قد ذكرهم هيرودوتس المؤرخ . ولما فتح العرب شمالي افريقية جاء قسم من البربر وأجلوا الغوبير Gobir) الذين هم من أطراف أمة الحاوسة الحاضرين الى السودان فامتدوا هناك واسسوا الامارات السبع التي يروون انها كانت للحاوسة ، فاما الامارات الخارجة عنها فيظن انها ممالك الامم التي غلب الحاوسة عليها ويرجح كون مملكة كانم اقدم من ممالك الحاوسة . وفي القرن الثاني عشر للمسيح ، جاء الاسلام ودخل بقوة عظيمة ، وانتشر في جنوبي بحيرة تشاد وفي غربيها ، وبعد حروب شديدة مع أمة تسمى الايزو Eso ، انتهى الامر بتغلب الاسلام . وفي القرن الرابع عشر والخامس عشر ، استولى البولالا Bulala ، الذين هم من اصل عربي سوداني مختلط على الكانم . ونراهم اليوم يسكنون في الجنوب الشرقي من بحيرة تشاد ، وقد تمكنوا من بورنو الى الغرب من البحيرة ، وباختلاط هؤلاء مع الايزو المار ذكرهم تولد الجيل المسمى بالكانوري Kanuri ، ثم عظمت سلطة بورنو في القرن السادس عشر ، والسابع عشر ، والثامن عشر الى ان سقطت حديثاً (على ايدي المستعمرين الاوربيين) . وقد حقق المؤرخ دسبلانفس Desplages انه في سنة ١٢٠٠ ، جاء شعب من أصل بربري ، واجاب بخيله على غربي السودان ، وكان اسمه السوسو ، وكان شعارهم على اسلحتهم الافعى . ويظن انهم انفس الهيكسوس خرجوا من وادي النيل الى شرقي السودان فهؤلاء السوسو يحتمل أن يكونوا هم أنفس الايزو الذين في مدة اربع سنوات قتلوا اربعة من ملوك بورنو . والرحالتان بارت وناختيغال يظنان وقوع هذا الحادث في القرن الرابع عشر . وعلى كل حال فان عدداً من القبائل العربية جاءوا من شرقي السودان ، وانتجعوا البلاد الواقعة جنوبي بحيرة تشاد ، واستقروا في دارفور ووادي واختلطوا بأهلها ، وهم أصحاب البلاد لهذا العهد . ثم جاء شعب آخر من الغرب من بلاد السنيغال ، وهو الشعب الذي يقال له الفولبه واشتهر باسم الفلانه ، فهؤلاء أسسوا بلاد الكامرون ، ويظن بارت أن أصلهم من جنوبي مراكش ، ويقول دسبلانفس انهم بدو من القبائل الرحل في الصحراء ، فمنذ عدة قرون جاء هؤلاء من السنيغال وأوطنوا بلاد تشاري رعاة لمواشيهم .

وسنة ١٨٠٦ حصل انقلاب في مملكة سوكوتو ، أساسه حركة زعيم ديني اسمه الشيخ عثمان بوديو ، وظهر من الفولبه هؤلاء تعصب شديد في الاسلام ، وتأسست حكومة أمراء

ممتدة من النيجر الى البلاد العالية ، الى جنوبي بلاد الادامَوا . وصارت سكوتو هي العاصمة وصار تحت حكم سكوتو عدة ممالك ، من جملتها الادامَوا التي كانت عاصمتها يولا Jola وكان من توابعها مدينتا تيباتي Tibati ونغاومدره Nagaumdere ، وخضع لمملكة الاسلام جانب من الوثنيين ، وجرت حروب كثيرة بين أمة الفولبة ومملكة بورنو ، حضر بعض وقائعها الرحالة الانجليزي دنهام Denham ، وثبت أهالي مدينتي لره Lere ، ولامه Lama، الوثنيون أمام الفولبة ، ولكن الفولبه استولوا على ناغا ومدره ، وبانقو ، والانحاء الجنوبية .

ولما سقطت الحكومة المصرية مدة في السودان الشرقي ظهر الاسود المسمى رابح ، وفتح دارفور ، ودار بنده ، وداربونقه ، ومملكة الباقرمي وبورنو وبلاد بحيرة تشاد ، وأسس سلطنة عظيمة . (وسيأتي خبر رابح) .

وجاء في كتاب (المملكة الاستعمارية الالمانية) بمناسبة ذكر الكامرون ، انه يوجد الآن في جنوبي بحيرة تشاد ، مائة الف عربي يقال لهم شوا Schua ، جاءوا من أوائل أعصر الاسلام وقد حافظوا على لغتهم طاهرة نقية الى يومنا هذا ، حال كون قبائل عربية أخرى ، جاءت الى الادامَوا واندمجت في الاهالي ، ففقدت لغتها . على انه مما لاينكر ، ان اللغة العربية تمثل دوراً مهماً في جميع العالم السوداني الاسلامي ، لكونها لغة مكتوبة ، وهي لغة القرآن .

السودان

نقل عن المسيو موريس فال Maurice Wahl معلم التاريخ والجغرافية في مدرسة كوندورسه Condorcet ومفتش المعارف في المستعمرات الفرنسية ، تحت عنوان كلمة « سودان » الفصل الآتي ملخصاً :

« بلاد من افريقية تمتد من الصحراء شمالا الى خط الاستواء جنوبا ، (البحيرات الكبرى والكونغو) ومن الاوقيانوس الاطلانتيكي غربا الى الحبشة والبحر الاحمر شرقا ، وهو السودان المطلق في الغرب والوسط ، والسودان المصري في الشرق . فالسودان المطلق اذا دخل فيه ساحل الاطلانتيك مثل السنيغامبية وغينية العليا ، فمساحته ثلاثة ملايين كيلومتر مربع واكثره بقاع من الارض قليل الارتفاع من ٥٠٠ الى ٦٠٠ متر ، فيه بعض سلاسل من الجبال مثل سلسلة فوتاجالون في الغرب تعلو من ١٣٠٠ الى ١٥٠٠ متر ، وسلسلة نياوري في الجنوب الغربي علوها ١٨٠٠ متر ، وسلاسل جبال الاداموا وسوكوتو في الوسط وهي تعلو ٢١٠٠ متر ، وجبال دارفور في الشرق ارتفاعها ١٨٣٠ متراً . وتهطل الامطار في هذه البلاد من حزيران (يونيو) الى اكتوبر ، وهي تنقص كلما أخذت شمالا ، وهذه الامطار تملأ الانهار المسماة بالسنيغال والغامبية والكازاماس وريوغراند ومالاكوري ، في الجانب الغربي ، وكافالي اوباندامه وكومويي وفولتا ووبي ، في الجنوب . وأهم الجميع النيجر ، وهناك الشاري والدومادوغو في نواحي بحيرة تشاد . وأما الساحل الاطلانتيكي فهو شواطيء رملية من الرأس الابيض الى الرأس الاخضر ، وجبال متقطعة مشرفة على البحر من الرأس الاخضر الى جزيرة شربر ، والمراسي الجيدة فيه قليلة ، والمناخ وبي . وهواء السودان حار مع يبوسة صوب الشمال ، ومع رطوبة نحو الجنوب ، والحراج الكبار لا توجد الا في الجنوب الغربي . وأهم المحاصيل الذرة ، والارز ، والقطن ، والتبغ ، وهناك من الحيوانات الخيل والبقر والمعزى والغنم والجواميس ، ومن المعادن الرصاص والنحاس والذهب والفضة ، ويمكن تقسيم السودان الى أربع مناطق ، الاولى في الشمال الغربي وهي السنيغال والبلاد الواقعة شمالي النيجر ، وأرضها ليست خصبة . والثانية ، بلاد النيجر وجبال كونغ وفوتاجالون ، وهي ذات أرضين مروية وهواء مقبول . والثالثة ، بلاد الغابات المتاخمة خط الاستواء وسواحل غينية . والرابعة ، البلاد التي في الوسط سوكوتو والاداموا وغيرها وهي خصبة معمورة .

أما الاهالي فانهم من ١٥ الى ٢٠ مليونا ، منهم سود يقال لهم الاولوف Oulofs والسيرير Sérères والبامباره Bambara والماندينغ Mandingos والكرو Krou والفانتي Fanti والاشانتي Achantis والداهومي الخ في الغرب والجنوب . ومنهم الحاوسه والسونغاي والكانوري في الوسط . ومنهم الفول Peulhs والتوكولور Toucouleurs والبربر والتوارق والعرب في الوسط والشمال . والاكثرية الساحقة في هذه البلاد كلها للاسلام ، والديانة الاسلامية تكسب دائما من امم الفتيش . وأكثر السودان أصبح الآن مستعمرات للاوربيين ، فالسنيغال وغينية الفرنسية والسودان الفرنسي وساحل العاج والداهومي لفرنسا . والغامبية وسيراليون وساحل الذهب ولاغوس وأراضي شركة النيجر

لانكلترة . وبين السنيغال وغينية الفرنسية غينية البرتغالية للبرتغال . وللمانية بلاد توغو على ساحل غينية . وأما الممالك الاهلية المستقلة بعض الاستقلال ، فهي جمهورية ليبريه (هذه مستقلة تماماً) على الساحل الجنوبي الغربي ، ومملكة كونغ ، وأملاك ساموري على النيجر ، ومملكة سوكوتو بين البنيوي والنيجر والآداموا جنوبي النيجر ، وبورنو الى الغرب والجنوب من بحيرة تشاد ، والكانم في الشمال الشرقي ، والباقيرمي في الجنوب الشرقي ممتدا الى الشرق بواسطة واداي .

وأما السودان الشرقي فهو الواقع شرقي البلاد التي ذكرناها ، يشتمل على جميع وادي النيل من غوندوكورو الى وادي حلفا ما خلا الحبشة ، متوسط ارتفاعه عن سطح البحر ٥٠٠ متر ، والنيل يخترقه من الجنوب الى الشمال ، منضمة اليه من الشمال انهر بحر الغزال ، ومن الجنوب السوبات وأنهر الحبشة وبحر الازرق والعطبرة . والاهالي نحو عشرة ملايين نسمة وهم سود في ناحية الجنوب يقال لهم دينكا وبونغوس ونوير وشيلوق ، وعرب وبول في دارفور ، وأما في بلاد النوبة فاجناس مختلطة ، برابرة وبجة وبيشاري ممتزجون بالعرب . ويقال للناحية الجنوبية الشرقية من السودان المصري بلاد سنار ، والبلاد التي شمالي النيل كردوفان والتي الى الغرب منه دارفور ، والتي في الشمال بلاد النوبة » . اه

سوكوتو

وقال الجغرافي المذكور عن مملكة سوكوتو :

« مملكة في السودان بين النيجر الادنى والبنيوي ، مستوية في الشمال ، مضرسة في الجنوب ، يرويها نهرا سوكوتو وكومادوقو الصادران من بحيرة تشاد ، هواؤها ناشف في الشمال كثير الرطوبة في الجنوب ، زراعتها الارز والقطن وقصب السكر والتمر ، مساحتها ٤٠٠ الف كيلو متر ، وعدد الاهالي ١٠ ملايين سود ، من الحاوسه والبول والتوكولور والسونغاي ، كلهم مسلمون ، الا القليل . أعظم مدنهم كانو واورنو وسوكوتو وكفي ابديسانغه Kefli-Abdes-senga ويافوبا وغومبي . وقد كانت تأسست سلطنة سوكوتو على يد عثمان دانغ فوديه سنة ١٨٠٢ ، ومدت رواقها على جميع الاقطار الواقعة بين تمبكتو وبحيرة تشاد ، فانفصلت عنها فيما بعد ممالك بورنو والادموا وغاندو ونوبي ، ولكنها لا تزال تعترف بسيادة سلطان سوكوتو الدينية » .

بورنو

ثم قال عن مملكة بورنو ما يأتي :

« مملكة في السودان الى الجنوب والغرب من بحيرة تشاد ، بين هذه البحيرة والصحراء وسوكوتو والآداموا والباقيرمي ، مساحتها ١٥٠ الف كيلو متر مربع ، وأهلها خمسة ملايين من جنس الكانوري الذين هم متولدون من اختلاط السود والبربر والعرب . والبلاد خصيبة تجود فيها زراعة القطن ، وفيها الغنم والبقر والخيل والنحل بكثرة ، وأهلها ينسجون الثياب والسجادات ، وعاصمتها كوكا » .

الباقيرمي

وقال عن مملكة الباقيرمي ما يأتي :

« مملكة من السودان الاوسط الى الجنوب الشرقي من بحيرة تشاد ، يسقيها نهر شاري ، واقعة اليوم ضمن منطقة النفوذ الفرنسي ، وأهلها مليون نسمة ، وعاصمتها ماسينيه Massenya ، ويقيم السلطان ببلدة برقومان على الضفة اليسرى من الشاري » .

السنيغال

وذكر عن بلاد السنيغال : « انها ١٥٠ الف كيلو متر مربع ، وان أهاليها مليون وثلاثمائة الف ، من الاولوف والسيرير والبامباره والماليكه الخ . وقال ان الفرنسيس دخلوا الى السنيغال في القرن السادس عشر ، ولكنهم لبثوا احقابا لا يملكون غير سان لويس وآرغين وغوري ، ثم أخذوا يوسعون فتوحاتهم شيئا فشيئا ، ولم تصر السنيغال مستعمرة حقيقية الا سنة ١٨٧٨ ومن السنيغال تبسط الفرنسيس في أواسط افريقية » .

واداي

وقال عند ذكر واداي :

« بلاد في السودان الاوسط بين دارفور من الشرق ، والبرقوات من الشمال ، والكانم والباقيرمي من الغرب ، والكونغو الفرنساوي من الجنوب ، مساحتها ٤٥٠ الف كيلومتر مربع ، وأهلها مليونان ونصف مليون سودانيون مختلطون بعرب ، كلهم مسلمون والطريقة السنوسية سائدة هنالك ، وأرض واداي خصبة في الوسط والجانب الشرقي منها » .

كانم

وذكر عن كانم انها الى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد ، وأن أهلها عرب وتيبو ، وعددهم مائة الف وهي اليوم تابعة واداي » . اهـ .

وللفاضل الاديب الشيخ محمد بن عمر التونسي ، رحلة الى دارفور وواداي مترجمة الى اللغة الفرنسوية ، بقلم الدكتور بِرون Perron مدير المدرسة الطبية في مصر أيام محمد علي وأحد أعضاء الجمعية الآسيوية . وقد تضمنت هذه الرحلة فوائد عظيمة عن تاريخ دارفور وواداي والباقيرمي وما جاورها ، وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية وحروبها الداخلية ، نأثر منها نبذة عما يتعلق بسكان واداي ، الذين بينهم قبائل كثيرة من العرب ، وقد اضطررنا لنقل ذلك من الترجمة الفرنسية لعدم وصول يدنا الى الاصل العربي ، قال في الصفحة ٢٤٥ :

« ان سكان دار صليح (اسم واداي) هم المصاليت والميمة والداجو والكاشمرة والقرعان والكوكا والجنادرة والبيرقيد . وكل من هذه الشعوب يسكن في ناحية . فالمصاليت يسكنون في دار الصباح أي بلاد الشرق وهم أنسباء لمصاليت دارفور ، وعددهم كثير سواء في دارفور أو في واداي ، وهم مرابيع القامات شديدو السمرة ، وأكثر بلادهم سهول ،

وأما أهل واداي الأصليون فيسكنون في وسط البلاد ، ومنهم ينتخب وزراء السلطان وأجناده ، وبلادهم جبلية وأعظمها جبل آبوسنون ، وهم يزعمون انهم أصل أهل واداي وأن سائر أقوام واداي متشعبة منهم ، وهم طوال القامات اشداء كالعمالقة . وأما الكشامرة ، فيسكنون على مسافة أربعة أيام من « واره » عاصمة واداي ، في واد لطيف تجري فيه المياه وتسقي أراضيهم ، وهم كثيرو العدد ، وقراهم معمورة جداً ، واذا قرع طبل الحرب خرج من أصغر قراهم ٥٠٠ رجل شاكي السلاح ، وهم اذا اجتمعوا يشكلون وحدهم جيشا عظيما مع أنهم أطوع من غيرهم للسلطان ، وعندهم وداعة بدون ضعة ، ولونهم بين الابيض والاسود ، ولغتهم تختلف عن سائر لغات أهل واداي . وأما الكوكا فانهم كثيرو العدد ، ونساؤهم موصوفة بالجمال يضاهين أجمل النساء الحبشيات ، وهم طوال ، رشيقو القدود ، أقوياء ، مفتولو السواعد ، وقراهم معمورة وأراضيهم مروية ، والسلاطين تتزوج منهم لجمال نسائهم .

وأما القرعان فانهم في شمالي واداي ، ونساؤهم أيضا موصوفات بالجمال ، وعندهم كثير من المواشي (ذكر لي الاستاذ السنوسي الكبير سيدي احمد الشريف ان بلاد القرعان هؤلاء تمتد الى أطراف الصحراء ، والى الواح التي هي بلاد السنوسية جنوبي الكفره) :

وأما الجادو فانهم في جنوبي دار صليح جيران للكوكا ، ولكنهم غلاظ الطباع قريبون للتوحش . ويجاورهم الميمة وهؤلاء في الجنوب . والجناكرة هم عبيد السلطان ، وعددهم وافر ومساكنهم الى الجنوب الشرقي من واداي . والبيرقيد هم شرار أهل واداي ، ليس عندهم عهد ولا صدق ، يقطعون الطرق وينهبون السابلة ، قصار القامات ، وهم سقاط في نظر أهل واداي . وحول واداي تسكن قبائل عربية صريحة ، فمن الشرق ، الزيبدية وعرب البحر والعريقات ، ثلاث قبائل غنية قوية . وقد حقق لي الفقيه موسى زعيم الزيبدية أخو بدر الدين الامام الذي يصلي بالسلطان صابون صاحب واداي ان الزيبدية هم من زبيد في اليمن ، أصلهم من حمير . أما العريقات ، فقال لي الفقيه محمد أحدهم وهو ترجمان السلطان ان أصلهم من العراق ، من سلالة لخم وجذام . وأما عرب البحر فانهم كثيرو العدد ، ينقسمون الى عدة بطون ويلي أمرهم زعيم واحد . والى الشمال من واداي المحاميد وهم بطون وأفخاذ عديدة ، وعندهم أموال لا تحصى من الابل والخيل وغيرها ، وفي الجنوب يوجد عرب المسيرة والفلاّن ، وهم كثيرون جداً » · انتهى بتصرف .

وجاء ذكر العرب في محل آخر من هذه الرحلة فيقول في صفحة ٢١ : « ان قبائل الكوكا والكودكو والبيقو والداجو والماوبيه والبيرقيد والجهات والبنداله والفيرتي في الجنوب والغرب والبرتي والميمة والقيمير والمسمجة والمادانو والبلاله والهليلات في الشمال ، والمصاليت في الشمال ، وغيرهم ، كل قبيلة منها لها ملك والقبائل العربية التي كلها تسكن أرض واداي أو بعضها مثل السلامات والجعاتنة وبني راشد ، عليهم أيضا مشايخ ، وكلهم تحت نظر ولاة السلطان ، كل زعيم أو ملك تابع لوكيل السلطان الذي يليه » . اهـ

وكنت سمعت ان سلاطين واداي ينتسبون الى بني العباس ، وأخبرني سيدي احمد الشريف السنوسي أن هذا هو المشهور عند أهل السودان ، وأن أهل واداي لا يدعون على منابرهم

الا لسلاطينهم ولا يعرفون خليفة ولا اماماً غيره . فلما كنت أطالع رحلة الشيخ محمد بن عمر التونسي وجدته يشير الى انساب سلاطين دارفور وكردوفان ووادآي ، فقال ما يأتي ملخصاً :

« عند ما جئت الى واداي وكنت اصلي الجمعة كنت اسمع الخطيب يدعو دائماً بنصر السلطان محمد عبد الكريم ابن السلطان محمد صالح بن السلطان محمد جوده ابن السلطان صابيح ، فخطر لي أن أسأل شيوخ البلاد عن نسب السلطان صابيح ومحتده ، فكانت الاجوبة مختلفة ، فبعضهم قال لي انه سناوي أي من أهل واداي الاصليين سكان جبل آبوسنون . ثم لحظت ان ختم السلطان مكتوبة عليه هذه الكلمات « السلطان محمد عبد الكريم ابن السلطان صالح العباسي » فسألت عن كيفية اتصال نسبه ببني العباس ، فبعضهم ذهب الى انها نسبة غير حقيقية ، وآخرون وثقوا هذه النسبة ، فسألت العقيد احمد من أكابر رجال الدولة وكان متوقد الذهن واسع المعرفة ، فقال انه عند استيلاء التتار على بغداد انهزم العباسيون الى مصر ، ولما غلبت دولة المماليك على مصر تفرقوا أيضا في الاطراف ، فذهب منهم واحد الى الحجاز وولد له ولد سماه صالحا ، فلما كبر صالح صادف في مكة حجاجاً من سنار ، وكان فقيها عالما حكيما ورعا ، مواظبا على الفروض الدينية ، يحبه العلماء والصلحاء ، فأحبه السناريون ورغبوه في زيارة بلدهم ، فجاء الى سنار ، فرأى فيها من الفسق والفجور ما اشمأزت منه نفسه فلم يطل المقام عندهم ، وما زال يضرب في البلاد حتى وصل الى جبل آبوسنون في واداي . وكان أهل هذا الجبل وثنيين ، فأسلموا على يده لما رأوا من دينه وصلاحه وارشاده ، وأقاموه رئيسا عليهم وكانوا في كثرة عظيمة ففرض الزكاة على الاغنياء لاعانة الفقراء . ثم دعا الى الجهاد في المشركين ، فأطاعه الذين شرح الله صدورهم للاسلام وغزوا الكفار . الا ان صالحا قدم بين يدي السيف الدعوة بالالطف ، فأجابه الى الاسلام أربع قبائل كبيرة ، قبيله آبو سنون ثم الالانقه والمادابه والماداله ، وهم أصل مملكة واداي ، ولا يمكن أن يكون سلطان الا اذا كانت امه من احدى هذه القبائل . ثم يليهم قبيلة آبو داراغ ، ولا تساوي اولئك في الشرف لأن اسلامها وقع متأخراً . ثم شرع صالح في الجهاد وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فلما اتسع نطاق الاسلام في تلك البلاد ، بويع صالح سلطانا وصار الملك في أعقابه .

قال : وسمعت من جهة اخرى من الشريف صبيح ، ان ملوك واداي ودارفور وكردوفان ، كانوا ثلاثة أخوة من فزاره . وذكر تفاصيل هذه الرواية ولكنه قال ، انه لا يوجد دليل من خط أو من تاريخ مكتوب على شيء من هذه الروايات ، وكلها مسموعات واخبار شفوية غير موثوقة ، ولكن قال ان الذي اشتهر من سجايا السلطان صابيح أشبه بمناقب الرشيد والمأمون ، في العقل والحزم والكرم وشدة البأس . وعلى كل حال فسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح ، فان عهد تأسيس هذه الممالك الثلاث ، واداي ودارفور وكردوفان ليس بقديم ، ولا يزيد على مائتي سنة . انتهى

أقول ان صح كون أهل واداي لم يدينوا بالاسلام الا منذ مائتي سنة كما يذهب اليه الفاضل الشريف الشيخ محمد بن عمر التونسي ، فمن المقرر ان الاسلام دخل السودان قبل ذلك بكثير . فهذا صاحب صبح الاعشى الذي عاش قبل هذا العهد بنحو خمسمائة سنة ، يقول عن اهل برنو انهم مسلمون ، ويذكر أنه وصل كتاب من ملك البرنو في اواخر الدولة

الظاهرية (برقوق) يذكر فيه انه من ذرية سيف بن ذي يزن ، الا انه لم يحقق النسب ، فذكر انه من قريش وهو غلط منهم فان سيف بن ذي يزن من اعقاب تبابعة اليمن من حمير . قال : وقاعدتهم مدينة « كاكا » بكافين بعد كل منهما الف ، فيما ذكر لي رسول سلطانهم ، الواصل الى الديار المصرية صحبة الحجيج في الدولة الظاهرية برقوق .

واليك ما قال عن الكانم : والكانم بكاف بعدها الف ثم نون مكسورة ، وميم في الآخر ، وهم مسلمون أيضاً ، والغالب على ألوانهم السواد . قال في « مسالك الابصار » : وبلادهم بين افريقية وبرقة ، ممتدة في الجنوب الى سمت الغرب الاوسط . ثم نقل عن « مسالك الابصار » ان أحوال كانم وأحوال أهلها حسنة وربما كان فيهم من أخذ في التعليم ، ثم قال نقلا عن « مسالك الابصار » وسلطان هذه البلاد رجل مسلم ، قال في « تقويم البلدان » وهو من ولد سيف بن ذي يزن . وقال في « مسالك الابصار » وأول من بث فيهم الاسلام ، الهادي العثماني ، ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضي الله عنه وملكها ثم صارت بعده لليزنيين . وذكر في « التعريف » ان سلطان الكانم من بيت قديم في الاسلام ، وقد جاء منهم من ادعى النسب العلوي في بني الحسن . قال في « مسالك الابصار » : وملكهم على حقارة سلطانه وسوء بقعة مكانه ، في غاية لا تدرك من الكبرياء يمسح برأسه عنان السماء مع ضعف أجناد وقلة متحصل بلاد ، لا يراه أحد الا في العيدين بكرة وعند العصر ، أما في سائر أيام السنة ، فلا يكلمه أحد ولو كان أميراً ، الا من وراء حجاب . قال : والعدل قائم في بلادهم ، ويتمذهبون بمذهب الامام مالك رضي الله عنه ، وهم ذوو اختصار في اللباس يابسون في الدين ، وعسكرهم يتلثمون ، وقد بنوا مدرسة للمالكية بالفسطاط ينزل بها وفودهم » . اه . نلت من كان العدل به قائماً فلا يعد ملكه حقيرا .

مملكة مالّي

ثم ذكر في صبح الاعشى مملكة مالي في السودان قال : « ومالي بفتح الميم وألف بعدها لام مشددة مفخمة وياء مثناة تحت في الآخر وهي المعروفة عند العامة ببلاد التكرور ، قال في « مسالك الابصار » وهذه المملكة في جنوبي المغرب متصلة بالبحر المحيط . قال في « التعريف » وحدها في الغرب البحر المحيط (أي الاوقيانوس الاطلانتيكي ، والظاهر أن بلاد مالي هي السنيغال ومضافاتها ، فقد مر بك أن الاوربيين يذكرون من اعظم شعوب السنيغال المالينكه ، وبينها وبين كلمة مالي من المشابهة ما لايخفى) ، وفي الشرق بلاد البرنو ، وفي الشمال جبل البربر ، وفي الجنوب الهمج » ونقل عن الشيخ سعيد الدكالي : « انها تقع في جنوب مراكش ودواخل بر العدوة ، جنوبا بغرب الى البحر المحيط . قال : وهذه المملكة هي أعظم ممالك السودان المسلمين » : وذكر صاحب « العبر » انها تشتمل على خمسة اقاليم كل اقليم منها مملكة بذاتها . الاقليم الأول اقليم مالي ، واقع بين اقليم صوصو واقليم كوكو . صوصو من غربيه وكوكو من شرقيه . ثم ذكر اقليم صوصو (تقدم ذكر امة السوسو نقلا عن بعض مؤرخي الافرنجة وذهاب بعضهم الى انهم من الهكسوس ، وقال ربما ابدلوا الصاد سينا مهملة) ثم ذكر اقليم غانة (هي التي تقول لها الافرنجة غينية) فقال : « بفتح الغين المعجمة

ثم نون مفتوحة وهاء في الآخر وهي غربي اقليم صوصو المقدم ذكره ، تجاور البحر المحيط الغربي » . قال : وقد حكى ابن سعيد : « ان اغانة نيلا شقيق نيل مصر (هو النيجر) ، يصب في البحر المحيط الغربي عند طول عشر درج ونصف وعرض اربع عشرة . واليها تسير التجار المغاربة من سجلماسة في بر مقفر ومفاوز عظيمة في جنوب الغرب نحو خمسين يوما ، فيكون بين غانة وبين مصبه نحو اربع درج ، وهي مبنية على ضفتي نيلها هذا . قال في العبر : « وكان اهلها قد اسلموا في اول الفتح الاسلامي . وقد ذكر في « تقويم البلدان » أنها مدينتان على ضفتي نيلها احداهما ، يسكنها المسلمون والثانية يسكنها الكفار ».

ثم ذكر اقليم كوكو وقال ان ملكها قائم بنفسه ، له حشم وأجناد وقواد وزي كامل . قال : وقاعدته مدينة كوكو بفتح الكاف وسكون الواو وفتح الكاف الثانية وسكون الواو بعدها ، وموقعها في الجنوب من الاقليم الاول ، قال ابن سعيد حيث الطول أربع واربعون درجة والعرض عشر درج قال : وهي مقر صاحب تلك البلاد . قال : وهو كافر يقاتل من غربيه من مسلمي غانة ومن شرقيه من مسلمي الكانم . وذكر المهلبي في العزيزي انهم مسلمون وبينها وبين مدينة غانة مسيرة شهر ونصف » .

وذكر بلاد التكرور وهي الاقليم الخامس . قال في « الروض المعطار » وهي مدينة على النيل على القرب من ضفافه . قال : « وبينها وبين سجلماسة من بلاد المغرب اربعون يوما بسير القوافل . وأقرب البلاد اليها من بلاد لمتونة بالصحراء (آسفي) بينهما خمس وعشرون مرحلة » . قال في « مسالك الابصار » ان هذه المملكة تشتمل على اربعة عشر اقليما وهي : غانة وزافون وترنكا وتكرور وسنغانه وبانبغو وزرنطابنا وبيترا ودمورا وزاغا وكابرا وبراغودي وكوكو ومالي . قال : وفي شمالي بلاد مالي ، قبائل من البربر بيض تحت حكم سلطانها وهم نيتصر ونتيغراس ومدوسة ولمتونة » . وبعد شروح طويلة ذكر ما قاله صاحب « العبر » وهو : ان هذه الممالك كانت بيد ملوك متفرقة ، وكان من اعظمها مملكة غانة ، فلما اسلم الملثمون من البربر تسلطوا عليهم بالغزو ، حتى دان كثير منهم بالاسلام ، وأعطى الجزية آخرون . وضعف بذلك ملك غانة واضمحل ، فتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم وملكوا غانة من أيدي أهلها . وكان ملوك مالي قد دخلوا في الاسلام من زمن قديم . قال : ويقال ان أول من أسلم منهم ملك اسمه « برمندانه » ثم حج بعد اسلامه ، فاقتفى سننه في الحج ملوكهم من بعده . ثم جاء منهم ملك اسمه « ماري جاطه » ومعنى ماري الامير الذي يكون من نسل السلطان ، ومعنى جاطه الاسد ، فقوي ملكه وغلب على صوصو وانتزع ما كان بأيديهم من ملكهم القديم ، وملك غانة الذي يليه الى البحر المحيط ، ثم ملك بعده ابنه « منساولي » ومعنى منسا بلغتهم السلطان ، ومعنى ولي علي . وكان من أعظم ملوكهم ، وحج أيام الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر . ثم ملك بعده اخوه « والي » ثم ملك بعده أخوه « خليفة » وكان أحمق ، فوثب عليه أهل مملكته وقتلوه . ثم ولي عليهم سبط من أسباط ماري جاطه المقدم ذكره ، اسمه أبو بكر . ثم تغلب على الملك مولى من مواليهم اسمه « ساكبوره » ويقال « سبكره » فاتسع نطاق مملكته وغلب على البلاد المجاورة له ، وفتح بلاد كوكو واستضافها الى مملكته ، واتصل ملكه من البحر المحيط الغربي الى بلاد التكرور ،

وحج أيام السلطان الناصر محمد بن قلاون ورجع فقتل في أثر عوده .

وملك بعده « قو » بن السلطان ماري جاطه . ثم ملك بعده محمد بن قو . ثم انتقل الملك من ولد ماري جاطه الى ولد أخيه أبي بكر ، فولي منهم « منسى موسى » بن أبي بكر قال في « العبر » وكان رجلا صالحا وملكا عظيما ، له أخبار في العدل تؤثر عنه وعظمت المملكة في أيامه الى الغاية ، وافتتح الكثير من البلاد . قال في « مسالك الابصار » حكى ابن أمير حاجب والي مصر عنه ، انه فتح بسيفه أربعا وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات اعمال وقرى وضياع . قال في « مسالك الابصار » قال ابن أمير حاجب : سألته عن سبب انتقال الملك اليه فقال : « ان الذي كان قبلي كان يظن ان البحر المحيط له غاية تدرك ، فجهز مئين سفن وشحنها بالرجال والازواد التي تكفيهم سنين ، وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ثم عاد منهم سفينة واحدة ، وحضر مقدّمها ، فسأله عن أمرهم . فقال : سارت السفن زمانا طويلا حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة واد له جرية عظيمة ، فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتي ، فلم يصدقه ، فجهز الفي سفينة الفا للرجال والفا للازواد ، واستخلفني وسار بنفسه ليعلم حقيقة ذلك . فكان آخر العهد به وبمن معه » .

قلت : ان صحت هذه الرواية ولا يوجد دليل على كذبها ، فيكون المسلمون قد حاولوا اكتشاف القارة الجديدة مرتين ، أولاهما ، عند ما أبحر الاخوة المغرورون من اشبونة عاصمة البرتغال ، وغابوا في بحر الاطلانتيك ، والثانية ، على يد هذا الملك الذي حاول هذا الامر مرتين وذهب في سبيله شهيدا .

قال في «العبر» وكان حج الملك منسى موسى سنة أربع وعشرين وسبعمائة في الايام الناصرية (محمد بن قلاون) .

قال في « مسالك الابصار » قال لي المهمندار خرجت لتلقاه من جهة السلطان ، فأكرمني اكراما عظيما وعاملني باجل الآداب ، ولكنه كان لا يحدثني الا بترجمان ، مع اجادته اللسان العربي . قال : ولما قدم ، قدم للخزانة السلطانية حملا من التبر ، ولم يترك أميرا ولا رب وظيفة سلطانية الا وبعث اليه بالذهب ، وكنت احاوله في طلوع القلعة للاجتماع بالسلطان حسب الاوامر السلطانية . فيأبى خشية تقبيل الارض للسلطان ويقول : « جئت للحج لا لغيره » . ولم أزل به حتى وافق على ذلك . فلما صار الى الحضرة السلطانية قيل له : قبل الارض ، فتوقف وأبى اباء ظاهرا . وقال : « كيف يجوز هذا ؟ » فاسرّ اليه رجل كان الى جانبه كلاما . فقال : « أنا أسجد لله الذي خلقني وفطرني ثم سجد » وتقدم الى السلطان . فقام له بعض القيام وأجلسه الى جانبه وتحدثا طويلا . ثم قام السلطان موسى ، فبعث اليه السلطان بالخلع الكاملة له ولاصحابه (وافاض في وصف الخلع) ولما آن أوان الحج بعث اليه بمبلغ كبير من الدراهم ، وهجن جليلة كاملة الاكوار والعدة لمركبه ، وهجن اتباع لاصحابه وازوادا جمة ، وركز له العليق في الطرق ، وأمر أمير الركب باكرامه واحترامه . ولما عاد بعث الى السلطان من هدية الحجاز تبركا ، فبعث اليه بالخلع الكاملة له ولاصحابه . وذكر عن ابن أمير حاجب والي مصر انه كان معه مائة حمل ذهبا انفقها في سفرته تلك على من بطريقه الى مصر من القبائل ، ثم بمصر ، ثم من مصر

الى الحجاز توجها وعوداً حتى احتاج الى القرض ، فاستدان على ذمته من تجار مصر بما لهم عليه فيه المكاسب الكثيرة ، بحيث يحصل لاحدهم في كل ثلثمائة دينار سبعمائة دينار ربحاً ، وبعث اليهم بذلك بعد توجهه الى بلاده . قال في « العبر » ودام ملكه خمساً وعشرين سنة ومات فملك بعده ابنه « منسامغا » ومعنى مغا عندهم محمد يعنون السلطان محمداً ، ومات لاربع سنين من ولايته . وملك بعده اخوه «منسا سليمان بن أبي بكر» . قال في « مسالك الابصار» واجتمع له ما كان اخوه افتتحه من بلاد السودان وأضافه الى يد الاسلام ، وبنى به المساجد والجوامع والمنارات ، وأقام به الجمع والجماعات والاذان ، وجلب الى بلاده الفقهاء من مذهب الامام مالك رضي الله عنه ، وتفقه في الدين . قال في « العبر » : ودام ملكه أربعا وعشرين سنة ، ثم مات وولي بعده ابنه « قنبتا بن سليمان » ومات لتسعة أشهر من ملكه . وملك بعده « ماري جاطه » بن منسامغا بن منسى موسى ، فأقام أربع عشرة سنة أساء فيها السيرة ، وافسد ملكهم ، وأتلف ذخائرهم بسرفه وتبذيره ، حتى انتهى به الحال في السرف انه كان بخزائنهم حجر ذهب زنته عشرون قنطاراً منقولا من المعدن من غير سبك ولا علاج بالنار وكانوا يرونه من أنفس ذخائرهم لندور وجود مثله في المعدن ، فباعه على تجار مصر المترددين اليه بأبخس ثمن وصرف ذلك كله في الفسوق ، وكان آخر أمره أن أصابته علة النوم وهو مرض كثيراً ما يصيب أهل تلك البلاد ، لاسيما الرؤساء منهم ، يأخذ أحدهم النوم حتى لايكاد يفيق ، فأقام به سنتين حتى مات سنة خمس وسبعين وسبعمائة .

وملك بعده ابنه موسى ، فنكب عن طريق أبيه وأقبل على العدل وحسن السيرة . وتغلب على دولته وزيره « ماري جاطه » فحجره وقام بتدبير الدولة ، وكان له فيها أحسن تدبير . وبقي « منسا موسى » حتى مات سنة تسع وثمانين و سبعمائة . وملك بعده اخوه « منسا مغا » وقتل بعده بسنة أو نحوها . وملك بعده « صندكي » زوج أم موسى المقدم ذكره ومعنى صندكي الوزير ووثب عليه بعد أشهر رجل من بيت ماري جاطه . ثم خرج من ورائهم من بلاد الكفرة رجل اسمه محمود ، ينسب الى « منسا قو بن منسا ولي بن ماري جاطه » ولقبه منسا مغا ، وغلب على الملك في سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة قال في « التعريف » وصاحب التكرور هذا يدعي نسباً الى عبد الله بن صالح بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجوههم . قلت : هو صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون ابن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وقد ذكر في تقويم البلدان ان سلطان غانة يدعي النسب الى الحسن بن علي عليهما السلام ، فيحتمل أنه أراد صاحب هذه المملكة ، لأن من جملة من في طاعته ، غانة . » . اه ببعض تصرف .

فأنت ترى ما للاسلام في تلك الديار من القدم ورسوخ القدم . وجاء في « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » تحت عنوان « تلخيص القول في سودان المغرب والاشارة الى ممالكهم ودولهم من لدن الفتح الاسلامي الى هذا التاريخ » ما يأتي :

« اعلم أن هؤلاء السودان هم من نسل سام بن نوح عليه السلام باتفاق النسابين والمؤرخين ، ويجاور البربر بأرض المغرب منهم أمم كثيرة من أعظمها أهل مملكة غانة ، وهم

المتصلون بالبحر المحيط من جهة الغرب على مصب النيل السوداني فيه . وتتصل بهم من جهة الشرق أمة أخرى تعرف بصوصو بصادين أو سينين مهملتين مضمومتين ، ثم بعدها أمة أخرى يقال لها مالي ؛ ثم بعدها أمة أخرى تسمى كوكو ويقال كاغو ، ثم بعدها أمة أخرى تعرف بتكرور ويقال لها أيضا سنغاي (مر بك ذكر السونغاي في ما نقلناه عن كتب الاوروبيين) ثم بعدها أمة أخرى تدعى كانم ، وهم أهل مملكة برنو المجاورة لافريقية من جهة قبلتها ، ثم بعدها أرض النوبة المجاورة لبلاد مصر . فأما أهل غانة فقد كانوا في صدر الاسلام من أعظم أمم السودان ، أسلموا قديما وكان لهم ملك ضخم ، وكانت حاضرة ملكهم هي غانة ، وهي مدينتان على ضفتي النيل السوداني من أعظم مدن العالم وأكثرها عمرانا ، ذكرها صاحب نزهة المشتاق (الشريف الادريسي) وصاحب المسالك والممالك وغيرهما . وقال الفقيه الاديب أبو العباس احمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي في شرح المقامات الحريرية ما نصه : غانة بلد من بلاد السودان واليها ينتهي التجار يعني من المغرب ، والمدخل اليها من سجلماسة ومن سجلماسة اليها ذهابا مسيرة ثلاثة أشهر ، ومن غانة الى سجلماسة ايابا مسيرة شهر ونصف ، وسبب ذلك ان الرفاق تنجهز اليها من سجلماسة بالامتعة والاثقال فتباع في غانة بالتبر ، فمن سافر اليها بثلاثين جملا يرجع منها بثلاثة اجمال أو بجملين ، واحد لركوبه ، وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها الخ . الى ان قال : والاماء فيها قد جعل الله فيهن من الخصال الكريمة في خلقهن وخلقهن فوق المراد ، من ملاسة الابدان وتفتق السواد وحسن العينين واعتدال الانوف وبياض الاسنان وطيب الروائح . اه . وقال ابن خلدون كان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين ، يعرفون ببني صالح . قال صاحب الاستقصا الشيخ احمد الناصري السلاوي : ثم أن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم في المائة الخامسة ، واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جهة الشمال مما يلي البربر ، وزحف اليهم الامير أبو بكر بن عمر اللمتوني فاتح المغرب ومستخلف يوسف بن تاشفين عليه ، فلما رجع الامير أبو بكر الى الصحراء غزا بلاد السودان وفتح منها مسيرة ثلاثة أشهر ، واقتضى منهم الاتاوات ، وحمل الكثير منهم ممن لم يكن أسلم قبل ذلك على الاسلام ، فدانوا به . ثم اضمحل ملك أهل غانة بالكلية ، وتغلب عليهم أهل مملكة صوصو المجاورين لهم ثم ان أهل مالي كثروا امم السودان في نواحيهم تلك واستطالوا على الامم المجاورين لهم فغلبوا على صوصو ، وملكوا ما كان بأيديهم وبأيدي أهل غانة ، ثم افتتحوا بلاد كوكو وأضافوها الى ملكهم ، وصارت دولة مالي متصلة فيما بين غانة في الغرب وأرض التكرور في الشرق ، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان ، ومن هذه الدولة كان السلطان منسا موسى بن أبي بكر وأخوه منسا سليمان اللذان كان بينهما وبين السلطان ابي الحسن المريني (صاحب المغرب) من المهاداة والمواصلة ما تقدم ذكره ، (ومنسى موسى هو الذي حج ومرّ بمصر في أيام الناصر ابن قلاوون حسبما تقدم) وكان مع السلطان منسا موسى المذكور ، الاديب الشاعر أبو اسحاق الطويجي الاندلسي الذي بنى له القبة المربعة ، العجيبة الصنعة ، البديعة النقش والتخريم ، التي اجازه عليها باثني عشر الف مثقال من التبر ، وغير ذلك مما مر في أخبار الدولة المرينية . وكان منها أيضا السلطان ماري زاطه (وفي صبح الاعشى يقول ماري جاطه) ، الذي هادى السلطان

أبا سالم المريني وأغرب عليه بالزرافة حسبما تقدم ، قالوا وكان هذا السلطان مسرفا مبذرا بحيث أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم (ونقل الحكايات التي نقلناها من صبح الاعشى) ، ثم مات بمرض النوم ، ثم توارث بنوه الملك من بعده ، ثم كانوا في تراجع وانتقاص الى ان انقرض أمرهم شأن غيرهم من الدول ، وظهرت دولة آل سكية من أهل مملكة كوكو ، ويقال كاغو . قال الامام التكروري في كتابه « نصيحة أهل السودان » : ان آل سكية أصلهم من صنهاجة وملكوا كثيرا من بلاد السودان ، وأول ملوكهم الحاج محمد سكية بضم السين وسكون الكاف بعدها ياء مفتوحة ثم هاء تأنيث . وكان الحاج محمد المذكور رحل في أواخر المائة التاسعة الى مصر والحجاز ، بقصد حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلقي بمصر الخليفة العباسي ، اذ كان رسم الخلافة العباسية لا زال قائما بها يومئذ ، حتى محاه السلطان سليم العثماني ايام تغلبه على مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، فلما اجتمع الحاج محمد سكية بالخليفة المذكور طلب منه أن يأذن له في امارة بلاد السودان ، وان يكون خليفته هنالك ، ففوض اليه الخليفة العباسي النظر في أمر ذلك الاقليم وجعله نائبه على من وراءه من المسلمين، فرجع الحاج محمد سكيه الى بلاده وقد بنى أمر رياسته على قواعد الشريعة ، وجرى على منهاج أهل السنة ، ولقي بمصر أيضا الامام شيخ الاسلام حافظ الحفاظ جلال الدين السيوطي واخذ عنه عقائده ، وتعلم منه الحلال والحرام ، وسمع عليه جملا من آداب الشريعة وأحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه . فرجع الى السودان ونصر السنة ، وأحيى طريق العدل ، وجرى على منهاج الخليفة العباسي في مقعده وملبسه وسائر اموره ، ومال الى السيرة العربية وعدل عن سيرة العجم ، فصلحت الاحوال ، وكان الحاج محمد المذكور سهل الحجاب ، رقيق القلب خافض الجناح ، شديد التعظيم لأئمة الدين ، محبا للعلماء مكرما لهم ، ولم يكن في أيامه كلها بؤس ولا بأس ، بل كانت رعيته في خفض عيش وأمن سرب ، وفرض عليهم شيئا خفيفا من المغارم وظفه عليهم ، وزعم انه ما فعل ذلك حتى استشار الامام السيوطي شيخه ، ولم يزل على سيرته المذكورة الى ان اخترمته المنية . فقام بالامر بعده ولده داود بن محمد ، فاحسن ما شاء وتبع سيرة أبيه الى ان لحق بربه . فقام بالامر بعده ولده اسحاق بن داود فعدل عن بعض سيرة أبيه واستمر حاله الى ان غزته جيوش المنصور (السعدي صاحب المغرب) ، فتقضت ممالكه ونثرت سلكه ، وانقرض آل سكية بعد ان كان تحت طاعتهم مسيرة ستة أشهر من بلاد السودان . وأما مملكة تكرور وكانم فقال ابن خلكان ، ان كانم بكسر النون جنس من السودان وهم بنو عم تكرور ، وكل واحدة من هاتين القبيلتين لا تنسب الى أب ولا ام ، وانما كانم اسم بلدة بنواحي غانة ، وتكرور اسم الارض التي هم فيها . قال في الاستقصا انه كان لاهل كانم مع الدولة الحفصية (بتونس) في المائة السابعة وما بعدها ، مهاداة ومواصلة كما كان لاهل مالي مع بني مرين . ونقل عن الشيخ احمد بابا السوداني من تقييده المسمى بمعراج الصعود ، أن أهل السودان اسلموا طوعا بلا استيلاء أحد عليهم ، كاهل كانو وكتني وبرنو وسنغاي ، ما سمعنا قط ان احدا استولى عليهم قبل اسلامهم ومنهم من هم قدماء الاسلام كاهل مالي اسلموا في القرن الخامس أو قربه ، وكاهل برنو وسنغاي . اهـ . قال وقد علمت ان أهل غانة تقدم اسلامهم على هذا التاريخ

وقال المسيو اندري آرسين André Arcin مدير القلم المخصوص بوالي غينية في كتابه المسمى غينية الفرنسية La Guiné Française المطبوع سنة ١٩٠٧ ، ان احمد بابا المذكور ، يزعم انه سنة ٦٠ للهجرة ، كان في مدينة غانة العظيمة لا أقل من ١٢ جامعاً ولكن في هذا القول مبالغة عظيمة ، والارجح أن مملكة السولغاي لم تدخل في الاسلام الا في القرن الحادي عشر (أي القرن الخامس للهجرة) .

أما ياقوت الحموي فيقول في معجم البلدان من أهل كانم انهم سودان مشركون ، وقد كان ياقوت في أواخر القرن السادس الى أوائل السابع فيظهر أن اسلام أهل كانم أحدث عهداً من اسلام أهل مالي وغانة ، أوان خبر اسلامهم لم يبلغ ياقوت في وقته . وذكر ياقوت شاعراً بمراكش اسمه الكانمي ، كما أن صاحب الاستقصا ذكر شاعراً هو ابو اسحق ابراهيم بن يعقوب الكانمي الذي انشد المنصور الموحدي قوله : ـ

أزال حجابه عني وعيني تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابي

قلت اظن الشاعر الكانمي الذي ذكره ياقوت هو هذا الذي ذكره صاحب الاستقصاء لان عهد ياقوت هو عهد الموحدين ، وأما هذا المعنى الذي نظمه فقد اخطر ببالي من شعر الحداثة قصيدة نظمتها وأنا ابن ست عشرة سنة ومنها :

لقد أناك بالقدر التداني وقد أدناك بالحب التنائي
توقد شدة وتذوب لطفاً كطبع السيف من نار وماء

وذكر صاحب الاستقصاء من علماء برنو ، الشيخ العارف بالله أبا محمد عبد الله البرنوي شيخ الولي الكبير أبي فارس عبد العزيز الدباغ قال ، وكان فيهم العلماء والصلحاء والادباء والشعراء .

وذكر صاحب الاستقصا دخول ملك برنو في طاعة السلطان المنصور السعدي ، صاحب المغرب في خبر طويل نقلا عن « مناهل الصفا » خلاصته انه في سنة تسعين وتسعمائة ، ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدوم رسول ملك برنو ، ومعه هدايا مما جرت عادتهم بان يجلبوه من فتيان العبيد والاماء وكسي السودان وطرفه . وكان من ذلك عدد كثير يناهز المئين ، فوافى المنصور بمعسكره على رأس الماء من ساحة فاس ، وكان يوم ملاقاته يوما مشهودا حسنا وأبهة وجلالة ، جلس بالقبتين التوأمتين المضروبتين امام السياج المحيط بقبابه ، واستوقف الموالي والمماليك سماطين من التوأمتين الى القبة العربية ، ثم منها الى فسطاط الجلوس المداوم بالديوان ، ثم منه الى باب المعسكر القبلي وأتي بالرسول يخترق السماطين حتى نزل بالديوان ، وكان الملأ من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوسا ، وكرسي المملكة وسرير الخلافة منصوبا به ، والمهابة قد اخرست الالسن وأخشعت القلوب والابصار ، فجلس الرسول هنالك مليا ، ثم توجه به على سبيل الترقي الى القبة العربية فجلس بها ، ثم جاء الاذن الكريم بايصاله الى مقر أمير المؤمنين بالتوأمتين ، فوقف بين يديه وتشرف بالنظر الى طلعته السعيدة ، وأدى الرسالة وقضى فرض التهنئة وسنة الهدية ، وأعرب عن مقاصد مرسله ، واعترف للمملكة العظيمة بحقها ، واظهر من الخضوع والاستكانة والطواعية ما أوصاه به مرسله ثم توجه به

الى معسكر ولي العهد تاج الاسلام ، وكافل الأمة بعد والده المولى الامير أبي عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله ، وكان لصق معسكر أمير المؤمنين برأس الماء . فأشرف الرسول على دنيا اخرى ، وأبهة مدهشة ، وعظمة هائلة ، فوقف موقف الحيرة واستدرج الى أن وصل لقباب ولي العهد ومضاربه ، وكان قد نمد له بفسطاط جلوسه افخم قعود ، ولما استؤذن عليه ووقف بين يديه ، حيي وفدى والصرف عنه الى محل نزوله بالقصبة من فاس ، وأدر عليه من الانعام والاكرام ما لم يكن له في حساب . وكان من أغراض الرسالة التي انفذه بها سلطانه طلب المدد من امير المؤمنين بالعساكر والاجناد وعدة البندق ومدافع النار ، لمجاهدة من يليهم بناصية السودان من الكفار . وكان هذا الرسول قد وفد من قبل على سلطان الترك بالاصطنبول السلطان مراد العثماني ، يطلب منه المدد لجهاد كفار السودان ، واخفق سعيه ولم يحصل على طائل ، فوجهه في هذه النوبة الى ملك المغرب يطلب منه المدد ، فكان الذي دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول ، جر اليهم ذلك توغلهم في الجهل ، وعدم من يحسن الاعراب عن مقاصدهم من فرسان الانشاء ، لطموس معالم العلوم عندهم على الجملة . وقارن ذلك ما كان من توجيه أمير المؤمنين عساكره لتدويخ قطري توات وتيكورارين وامل ان يجعلهما ركابا لبلاد السودان ، والاستيلاء على ممالكها التي وجه اليها عساكره بعد ذلك ، فبلغت مملكة مالي الى ان وردت من نيلها على مائة مرحلة من ثغور المغرب . فاغتنم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة ، وبنى عليه ما اعتد به على صاحب برنو ، ورجع الرسول الى مرسله بعد مكافأته ، وتوجيه هدية من عتاق الخيل بكسى من ملابس الخلافة ، واسباب اخر . ولما بلغ الرسول ، والقى المعذرة الى سلطانه ، استأنف الهدية واعرب اذ ذاك عن مراده ، ورد الرسول ثانية الى باب أمير المؤمنين فوافاه بحضرته ودار خلافته من مراكش ، فازال اللبس وبين الغرض ، فلما تحقق المنصور بقصده ، صدع له بالحق والدعاء الى التي هي أقوم ، وطالبهم بالبيعة له والدخول في دعوته النبوية ، التي اوجب الله عليهم وعلى جميع العباد الانقياد اليها ، وقرر لهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزل على جده الصادق ، ان الجهاد الذي ينتحلونه ويظهرون الميل اليه لا يتم لهم فرضه ، ولا يكتب لهم عمله مالم يشدوا في أمرهم الى اذن من امام الجماعة الذي اختص الله أمير المؤمنين بوصفه ، اذ هو الكافل لهذه الامة ووارث تراث النبوة ، وقيضه الله لخلافة بيضة الاسلام ، وخصه بالشرف القرشي ، الذي هو شرط في الخلافة باجماع من علماء الاسلام ، وائمة السنة الاعلام ، والزمهم القيام في اقطارهم بدعوته ، ومجاهدة اعدائهم الكفار بكلمته ، وعاق لهم ايده الله (صاحب مناهل الصفا محرر هذا الكلام معاصر للمنصور) الامداد على البيعة والوفاء بهذا الشرط ، فالتزمه الرسول وزعم أيضا عن سلطانه بالقبول والاجابة ؟ وطلب من السلطان نسخة يتوجه بها من صورة البيعة اذ ليس ببلدهم من يحسن الانشاء ، فانشأها كاتب الدولة ابو فارس عبد العزيز الفشتالي ونصها : « الحمد لله الذي أعلى لكلمة الحق منارا ، يسامي في مطالعها النجوم ، وزاح بها عن شمس الهداية المنيرة ، غياهب الغباوة المدلهمة ، وسحاب الغواية المركوم » الخ وارسلوا نص البيعة الى السلطان أبي العلا صاحب مملكة برنو . وانتخب المنصور رسولا عارفا مجربا ممن لهم بصيرة باحوال السودان فبعثه معهم عينا يأتيه باخبار البلاد

حتى كأنه يشاهدها ، وبعث معه رسالة الى السلطان اسحق بن داود من آل سكية صاحب مملكة كاغو من أرض السودان يأمره فيها ، بان يرتب على معدن الملح الذي في تغازي بين المغرب والسودان وظيفا ، بان يجعل على كل من يحمل منه شيئا من الواردين عليه مثقالا من الذهب العين تستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار ، لأن ذلك بحر لا ساحل له . وكان المنصور لم يكاتبه في ذلك حتى استفتى علماء ايالته واشياخ الفتيا بها ، فافتوه بما هو المنصوص من ان النظر في المعادن مطلقا انما هو للامام ، وانه ليس لاحد ان يتصرف في ذلك الا عن اذن السلطان او نائبه . وبعث اليه المنصور بتلك الفتاوي مع الرسالة الموجه بها مع الرسول ، من انشاء العلامة الاديب مفتي الحضرة المراكشية ، المولى ابي مالك عبدالواحد ابن احمد الشريف السجلماسي . ولما بلغت رسالة المنصور الى السلطان اسحق سكية واطلع عليها ، شق عليه ذلك وماطل في الجواب ، وحيث ابطأ الرسول ، فطن المنصور لما انطوى عليه سكية من عدم اجابته لما طلب من الوظيف على الملاحة ، فاشتد غضبه وعزم على توجيه العساكر الى السودان . قال الفشتالى لما رجعت ارسال المنصور اليه من عند اسحق سكية واعلموه بمقالته وامتناعه واحتجاجه بأنه امير ناحية والمنصور امير ناحية ، وانه لا تجب طاعته عليه ، شاور المنصور اصحابه وأهل الرأى والتقى في يوم مشهود . فقال لهم « انى عزمت على منازلة امير السودان صاحب كاغو لتجتمع كلمة المسلمين ولان بلاد السودان كثيرة الخراج يتقوى بها جيش الاسلام » الخ فلما فرغ المنصور من كلامه سكت الحاضرون ، فقال لهم اسكتم استصوابا لرأيي ، أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لي . فاجاب كلهم بلسان واحد ان ذلك رأي عن الصواب منحرف ، وذلك لان بيننا وبين السودان مهامه فيحاء ، تقصر فيها الخطى وتحار فيها القطا ، وليس فيها ماء ولا كلأ ، فلا يتأتى السفر فيها ، وايضا فان دولة المرابطين على ضخامتها ، ودولة الموحدين على عظمتها ودولة المرينيين على قوتها ، لم تطمح همة واحد منهم لشيء من ذلك ، وحسبنا أن نقتفي اثر تلك الدول ، فان المتأخر لا يكون اعقل من الاول . فلما قضى اولئك الاقوام كلامهم قال لهم « ان كان هذا غاية مااستضعفتم به امري وفيلتم به رايي ، فليس فيه حجة ولا مايخدش فيما عندي ، فاما قولكم بيننا وبينها صحار مخوفة ومفاوز مهلكة لجدوبتها وعطشها ، فنحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك المهامه في كل وقت ، ويخوضون احشاءها مشاة وركبانا وجماعة ووحدانا ، ولم تنقطع قط ركاب التجار عنها ، وانا اقوى اهبة منهم ، وللجيش همة ليست للقوافل . واما قولكم ان من كان قبلنا من الدول الطائلة لم تطمح ابصارهم لذلك ، فاعلموا أن المرابطين صرفوا اعتناءهم لغزو الاندلس ومقاتلة الافرنج ، والموحدون اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية ، والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بني عبد الواد بتلمسان ، ونحن اليوم قد انسد عنا باب الاندلس باستيلاء العدو عليها جملة ، وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها ، ثم ان اهل تلك الدول لو أرادوا ما أردنا لصعب عليهم لان جيوشهم كانت فرسانا رامحة ورماة ناشبة ، ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق ، واهل السودان ليس عندهم الآن الا الرماح والسيوف ، وهي لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة ، فقتالهم سهلة وحربهم أيسر من كل شيء » (لله در المنصور السعدي كأنه دولة استعمارية تتكلم !) وأيضا فان السودان أنفع من افريقية ، فالاشتغال بها أولى من

منازلة الترك ، لانه تعب كثير في نفع قليل ، فهذا جواب ماعرض لكم ، ولا يحملنكم ترك الملوك الاول ذلك على استبعاد القريب ، فانه كم ترك الاول للآخر » . فلما فرغ المنصور من خطابه ، انفصل الجمع على البعث الى السودان ومتابعة المنصور في رأيه عليه . قال صاحب الاستقصا : وفي كلام المنصور امران يحتاجان الى مزيد بيان الاول ، ماقاله من ان الملثمين لم تكن لهم سلطنة على السودان ، يعني بهم الذين أقاموا بأرض المغرب مثل يوسف بن تاشفين وبنيه ، فلا يرد عليه ان الامير أبا بكر بن عمر غزا السودان وفتح منه مسيرة ثلاثة اشهر ، لأن ذلك بعد رجوعه الى الصحراء واستقراره بها ، واعراضه عن ملك المغرب . الثاني ، ما قال من أن البارود لم يكن في تلك الدول الفارطة ، يعني به لم يكن موجوداً فيها بكثرة ، فلا يرد عليه ان ظهوره كان في أوائل المائة السابعة لاول دولة بني مرين . ثم انه في سنة سبع وتسعين وتسعمائة ، اخذ باعداد آلة السفر ومهماته ، وتهيئة المدافع والعجلات التي تحملها ، والبارود والرصاص ، وبقي في الاستعداد مدة طويلة . وفي اليوم السادس عشر من ذي الحجة سنة ٩٩٨ خرجت العساكر وعدتها اثنان وعشرون الفا ، منهم الفان من المدفعية والبحرية وعقد المنصور على ذلك الجيش لمولاه الباشا جوذر ، وشد ازره بجماعة من اعيان الدولة ، وكتب الى قاضي تنبكتو العلامة أبي حفص عمر بن الشيخ محمود بن عمر آقيت الصنهاجي ، يأمره بحض الناس على الطاعة ولزوم الجماعة . فنهض العسكر من تانسيفت الى ثنية الكلاوي الى درعة ودخلوا القفر فقطعوه مائة مرحلة ، ولم يضع لهم عقال بعير الي أن وصلوا الى تنبكتو ثغر السودان ، فاراحوا بها أياما وساروا قاصدين دار اسحق سكية ، فاحتشد لهم امم السودان وقبائلها ، والملثمين المهادنين لهم يقال انه جمع فوق مائة الف مقاتل . ولما تقارب الجمعان عبي الباشا جوذر عساكره للحرب ، فدارت بهم عساكر السودان من كل جهة ، وعقلوا أرجلهم مع الابل وصبروا من الضحى الى العصر ، وكانت اسلحتهم هي السيوف والرماح ، فلم تغن مع البارود شيئا . ولما كان آخر النهار ، انهزم السودان وحكمت في رقابهم سيوف جوذر وجنده ، حتى كان السودان ينادون نحن مسلمون ، نحن اخوانكم في الدين ، والسيوف عاملة فيهم (اذاً لم تصدق دعوى المنصور بأنه انما يحارب لاجل الاسلام) ، وتم النصر لعساكر المنصور في منتصف جمادى الاولى سنة ٩٩٩ ، وراسل ابن سكية جوذرا في الصلح على مال معين يدفعه ، فاجابه الى ذلك على مشورة المنصور وامضائه اياه . وكانت العساكر أصابتها الحمى فاتفق رأي الامراء على الرجوع الى تنبكتو ، وكتبوا الى المنصور ولبثوا ينتظرون الجواب . وأخذ جوذر في انشاء السفن وتركيبها ، ولما كان دفعها في النيل ، ولما بلغ المنصور خبر الصلح قام وقعد ، وقوم عسكرا خفيفا ارسله مع مملوكه الآخر محمود باشا وهو أخو جوذر ، وقلده أمر العساكر كلها وعزل جوذر عنها ، وأمر محمود باشا ان يبقيه معه وكتب الى امراء العساكر يعاتبهم على الصلح مع ابن سكية ، ويؤكد عليهم في الرجوع الى بلاده ، واتباعه حيثما توجه ولو عبر النيل الى العدوة الاخرى . وخرج محمود باشا في عسكره في زمن الحر ، في وقت لا يقدر على الحركة فيه الا القطا الكدر ، وقطع القفر في خمسين مرحلة ، ونزل بالعساكر على رأس تنبكتو على رأس سنة الالف . ثم شحنوا السفن وساروا بالملاحين والجند الى أن نزلوا على مدينة كاغو قاعدة ملك سكية ، وكان هنا حشد لهم امم

السودان ، لكنهم لما سمعوا رعد المدافع والمهاريس ورأوا ارتفاع القنابر في الجو ، انهزموا وسار اسحق سكية في فل من جموعه وعبر النيل الى العدوة الاخرى ، فتبعه محمود وعبر النيل خلفه وأوقع به ، ونهب جميع ما احتوى عليه معسكره ، فانهزم الى القفر وهلك فيه . وقام اخو اسحق وجمع جموعا وزحف الى محمود باشا ، فهزمه هذا وقتله . وتمهدت السودان كلها وكتب بخبر الفتح الى المنصور ، فاقام مهرجانا عظيما بظاهر الحضرة ، وزينت الاسواق واخرج فيه المنصور الصدقات ، واعتق الرقاب ، ووصلته من محمود باشا الغنائم مما لا يحصى من جملتها اربعون حملا من التبر الخ وانتظمت الممالك السودانية في سلك طاعته ما بين البحر المحيط من اقصى المغرب ، الى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر . وكان في تنبكتو اسرة يقال لها آل آقيت ، ممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والقضاة وتوارثوا رياسة العلم في السودان مدة تقرب من مائتي سنة وكانوا من اهل اليسار والسؤدد لا يبالون بالسلطان فمن دونه ، فلما فتح جيش المنصور بلاد السودان اقامهم محمود باشا على حالهم الى ان كانت سنة ١٠٠٢ ، فكان اهل السودان سئموا ملكة المغاربة فتخوف المنصور من آل آقيت ، فكتب بالقبض عليهم وتغريبهم الى مراكش ، فقبض على جماعة منهم ، فيهم العلامة ابو العباس احمد بن احمد بن احمد بن عمر بن محمد آقيت المدعو احمد بابا صاحب تكميل الديباج وغيره من التآليف ، والقاضي ابو حفص عمر بن محمود بن عمر بن محمد آقيت ، وغيرهما ، وحملوا مصفدين في الحديد الى مراكش ومعهم حريمهم ، وانتهبت ذخائرهم وكتبهم . واستمروا مدة في مراكش في حكم الثقاف الى ان انصرم امد المحنة ، فسرحوا في ٢١ رمضان سنة ١٠٠٤ وفرحت قلوب المؤمنين لذلك . ولما دخل الفقيه ابو العباس على المنصور قال له : اي حاجة لك في نهب متاعي وكتبي وتصفيدي من تنبكتو الى هنا ، حتى سقطت عن ظهر الجمل واندقت ساقي . قال له المنصور : « اردنا ان تجتمع الكلمة ، وانتم في بلادكم من اعيانها ، فان اذعنتم اذعن غيركم » . فقال له الشيخ ابو العباس : فهلا جمعت الكلمة بترك تلمسان ، فانهم اقرب اليك منا ؟ فقال المنصور : « قال النبي صلى الله عليه وسلم ، اتركوا الترك ما تركوكم ، فامتثلنا الحديث . فقال ابو العباس : ذاك زمان ، وبعده قال ابن عباس ، لا تتركوا الترك وان تركوكم . فسكت المنصور وانفض المجلس ، وبقي آل آقيت بمراكش الى ان مات المنصور ، فاذن لهم ابنه بالرجوع الى تنبكتو . » انتهى ببعض تصرف . وعقب على ذلك صاحب الاستقصا بفصل في

مسألة الرقيق والشرع

آثرنا تلخيصه قال : قد تبين لك بما قصصناه عليك من اخبار السودان ، ما كان عليه اهل تلك البلاد من الاخذ بدين الاسلام من قديم ، وانهم من احسن الامم اسلاما واقومهم دينا ، وبهذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلوى المغرب (والمشرق) من استرقاق أهل السودان مطلقا ، وجلب القطائع الكثيرة منهم في كل سنة ، وبيعها في اسواق المغرب ، يسمسرون بها كما تسمسر الدواب ، بل أفحش ، قد تمالأ الناس على ذلك ، وتوالت عليه اجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون ان موجب الاسترقاق شرعا هو اسوداد اللون ، وكونه مجلوبا من تلك الناحية . وهذا

لعمري من أعظم المناكر في الدين ، اذ أهل السودان قوم مسلمون ، فلهم ما لنا ، وعليهم ما علينا . ولو فرضنا ان فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر ، فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم هو الاسلام ، والحكم للغالب . ولو فرضنا ان لا غالب ، وان الكفر والاسلام هناك متساويان ، فمن لنا بان المجلوب منهم هو من صنف الكفار . والاصل في نوع الانسان هو الحرية والخلو من موجب الاسترقاق ، ومدعي خلاف الحرية مدعي خلاف الاصل . ولا ثقة بخبر الجالبين لهم والبائعين ، لما تقرر في الباعة من الكذب مطلقا عند بيع سلعهم ، وفي باعة الرقيق خصوصا ، ولا يعتمد أيضاً على قول ذلك العبد نفسه أو الامة نفسها كما نص عليه الفقهاء . لاختلاف الاغراض والاحوال في ذلك ، فان البائع قد يضربهم حتى لا يقروا الا بما لا يقدح في صحة بيعهم ، وقد يكون للعبد او الامة غرض في الخروج من ملك من هو بيده بأي وجه كان ، فيهون عليه ان يقر على نفسه كي ينفذ بيعه عاجلا . وقد استفاض من اهل العدل ان أهل السودان اليوم وقبل اليوم ، يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم ابناء بعض ، ويسرقونهم من الاماكن النائية عن مداشرهم وعمرانهم ، وان فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب (والمشرق) في اغارة بعضهم على بعض ، واختطاف مواشيهم ، والكل مسلمون ، وانما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع ، فكيف يسوغ للمحتاط لدينه ان يقدم على شراء ما هو من هذا القبيل . (الى أن يقول) أما وضع يد الجالبين لهم عليهم ، فلا تكفي شرعا في جواز الاقدام على شرائهم . لضعف هذه العلامة بما احتف بها من القرائن المكذبة لها ، وليستفت المرء قلبه فقد قال (ص) استفت قلبك وان أفتوك . فانه اذا رجع الى قلبه في هذه المعضلة ، لا يقدر أن يحوم حوله هذا الحمى بحال . ونقول لو لم يكن في ذلك الا الشبهة القوية وفساد الزمان ، ورقة ديانة أهله ، لكان في هذه الامور الثلاثة مع ملاحظة سد الذريعة الذي هو أحد أصول الشريعة لا سيما عند الامام مالك (رض) ، ما يوجب التخلي عن ملابسة هذه المفسدة بالعرض والدين . نسأل الله ان يوفق من ولاه أمر العباد لحسم مادة هذا الفساد ، فان سبب الاسترقاق الشرعي الذي كان على عهد النبي (ص) والسلف الصالح مفقود اليوم ، وهو السبي الناشيء عن الجهاد المقصود به اعلاء كلمة الله ، وسوق الناس الى دينه الذي اصطفاه لعباده ، هذا هو ديننا الذي شرعه لنا نبينا (ص) وخلافه خلاف الدين ، وغيره غير المشروع . انتهى ببعض تصرف . والحمد لله على كون الحكومات الاسلامية العصرية ، انتبهت لسد الذريعة ووافقت على ابطال الرق .

تتمةُ ذكر السودان

وذكر المسيو اندري راسين صاحب كتاب « غينية الفرنسية » ما محصله ان البربر هم الذين من الشمال زحفوا على امم الفتيش ونشروا بينها الاسلام ، فصارت في الجنوب مراكز عظيمة للدعاية الاسلامية مثل « دييته » Diéné المدينة التي يقطنها السونغاي ، فقد اجتمع فيها بعد اسلامها بقليل سنة ١٠٥٠ مسيحية ، من جميع أصناف مسلمي الشمال ، لا سيما العلماء ، وصارت أعظم ملتقى للتجار في غربي افريقية بل من أعظم مراكز الاسلام التجارية . وبنى فيها كومبورو مسجدا جامعا مدهش البناء ، ثم تأسست مدينة تنبكتو في الشمال ، فصارت

مركزا آخر يتسرب منها دعاة الاسلام الى الجنوب . ودخلوا الى بلاد ساراكوله Sarakholé على ضفاف السيفال ، وبلاد منابع النيجر (النيل السوداني) وغينية وبوري Bouré وقسم من سانكاران Sankaran ومن وازولو Ouasoulou ، مع المدينة الدينية كانكان Kankan وما زال الاسلام ينمو على النيجر حتى اسلم أكثر أهالي وادي النيجر وسواحل السيفال وسيراليون ، وبقيت كورة واحدة أكثرها فتيشية لجهة البحر : وأكثر هذا النمو الاسلامي ، كان سببه أمة الفوله والحاج عمر وساموري وانما كان الذين اتوا بالاسلام من الاصل ، قبائل من البربر المتعلمين ، مثل القبيلة المسماة أهل سيدي علي وأولاد فاضل وأولاد برّي والشيوش والجياوبة والكونتة وغيرهم . ومن هؤلاء الكونتة البكاءون الذين اشتهروا في جهات تنبكتو . وأصل الكونتة من زناتة من بلاد التوات هاجروا الى الجنوب في القرن الثالث عشر للمسيح ، وبنوا في تنبكتو المدارس والرباطات مما لمعت به تلك المدينة طويلا ، وتراهم الآن متفرقين في السوادين ، لكن أهم مراكزهم تاغان Tagan واريبنده Aribinda . والبكاءون يزعمون انهم من سلالة عقبة (بن نافع بن عبد القيس الفهري) الفاتح العربي ، ثم انضم الى ذلك تأثير الطرق الصوفية ، لان هذه الطرق هي من أحسن الاجهزة للنضال . وأحدثها عهدا وأشدها عزما هي السنوسية ، والتيجانية . وهذه الثانية هي في السودان الغربي والسواحل أعظم انتشارا . وأما الطريقة القادرية فهي أعظم من الجميع ، وقد اشتهرت بالتسامح والتساهل ، وان كان المهدي السوداني وكثير ممن حاربونا نحن ، هم من اتباعها . وتجد القادرية في السودان أقساما منها القادرية البكائية ، والقادرية المختارية ، والقادرية اتباع زين العابدين ابن سيدي احمد ، والقادرية اتباع الشيخ سيديا ، والقادرية الفاضلية جماعة الشيخ سعد بو . فالسواد الاعظم من مسلمي السيغال وغامبيه وغينية والنيجر الاعلى هم قادرية من اتباع هؤلاء ، ثم في بلاد أولاته Oualata القادرية الرقانية اتباع الشيخ احمد الرقاني ، وهم ثلاث فرق . أما التيجانية فهي حديثة العهد تأسست فى سنة ١١٨٦ للهجرة ، وأشهر من شهرها في السودان الحاج عمر ، ومن الغريب انها في الجزائر تنصح بالموالاة للفرنسيس ، وفي السودان ترفع راية الجهاد . وأما السنوسية فموصوفون بالشدة ومعاداة الاجانب اكثر من الجميع ، واتباعهم في السودان الغربي ليسوا كثيرين ، ولكن مملكة واداي أكثرها لهم .

ولا يوجد في غينية مرابطون على النحو الذي في المغرب ، بل يوجد بمقام المرابطين رؤساء سياسيون حولهم اتباع وأعوان ، وطبقة اخرى هم معلمو المدارس والفقهاء في الدين ، ويسمى الواحد من هؤلاء « كاراموكو Karamokho » وعندهم لقب آخر للمجاهدين والذين فتحوا البلدان وهو « المامي » منحوتا من « أمير المؤمنين » (أو نسبة الى الامام) .

وليس عند أهل غينية رغبة عظيمة في الحج ، بل الذين يحجون الى مكة كل سنة هم عدد قليل بالرغم من كون توردو الحاج موسى بنى لهم في مكة رباطا . ولكن لا ينبغي ان نغتر ببعض ظواهر الفتور التي تلوح على اسلام غينية ، بأن نعتقد عدم رسوخ الاسلام فيهم وعدم امكان تحفزهم للقيام علينا : فانك لتجدهم شديدي الرغبة بتعليم عقائدهم وفيهم علماء كثيرون لا يكتفون بالقرآن ، بل يقرأون السنة وكتاب خليل في الفقه المالكي ، وعندهم

مكاتب شرعية مهمة . أخبر الدكتور بليدن Blyden انه عرف منهم اناسا يشترون النسخة الواحدة من المصحف بخمس ليرات انكليزية ، ولا يجدون ذلك كثيرا . ونجد منهم كثيرين مؤلفين وأكثر تآليفهم مخطوطة ، ولكن القرآن صار يطبع في سيراليون وكوناكرى . وان التربية الدينية في تلك البلاد ، هي أوسع مما يظن لا سيما في جهات فوته وكنكان ، فالبنات يدرسن سنتين والذكور أربع سنوات واحيانا ثماني سنوات . ومدة الدرس كل يوم تبلغ أربع ساعات . ومن التلاميذ من يرغب في زيادة التفقه ، فيذهب الى الشمال مثل بلد دينه وتورو أو يقصد المغرب . ولدينا احصاء اداري عن مدارس الاسلام في بعض النواحي . ففي الديتين Ditinn ٣٤٦ مدرسة فيها ٢٩٦٢ تلميذا ، وفي كانكان ٦٠ مدرسة فيها ٨٠٠ تلميذ ، وفي كوين Koïn ٤١ مدرسة فيها ٥٧٤ تلميذا ؛ وفي سيغوري Sguri ٢٨ مدرسة فيها ١٦٠ طالبا . وكان في فوكومبه Foukoumba مركز بلاد فوته الديني سنة ١٨٩١ ثلاثون مدرسة للذكور والاناث . وكان في دينغيراي Dinguiray سنة ١٩٠٠ نحو ٢٠٠ مسجد و ١٨٠ مدرسة فيها ٨٠٠ طالب . وهذا العدد في دينغراي على ٣٢ الف نسمة لا زيادة . ووظيفة المعلم محترمة موقرة ، وكثيرون من الزعماء هم يعلمون أولادهم بأنفسهم . ويأخذ المعلم عادة ٢٠ فرنكا على كل سورة يحفظها التلميذ . وعند ما يحفظ نصف القرآن يقدمون له ثوراً ، ومتى حفظ القرآن كله يعطونه فرسا . والمعلم يعلم الاولاد الكتابة بواسطة ألواح في أيديهم ، وهذا هو التعليم الابتدائي . ولكن الذين يريدون اكمال التحصيل يتعلمون التفسير . وانما قد تبين من تقرير رسمي فرنساوي على حالة التعليم في احدى كور وادي النيجر ، انه من بين الف ولد يخرج ٧٠٠ لا يعلمون شيئا ، و ٢٥٠ يعرفون القراءة والكتابة و ٤٠ يحفظون القرآن كله بدون ان يحسنوا تفسيره بلغتهم ، و ١٠ يمكنهم أن يفسروه بلغتهم . أما الصلاة وأحكام العبادة فمحفوظة جيدا ، واسم الصلاة « سالي » أو « دالي » وساعة الصلاة « ساليفانا » وفي بعض السواحل « سولوفانا » ، وصلاة الفجر في السواحل « سونفوفو » وصلاة العصر « لانسارا » ، ويقال لها عند المالينكه « لاناسا » وصلاة المغرب « سونفوماني » وأما امم الديولا والسونينكي والماندي فيطلقون عليها اسماءها العربية . ونهار الجمعة يجتمع المسلمون في المسجد الجامع ، ولكن مما يذكر أن هذه العادة قد خفت كثيرا بعد استيلائنا لاسيما في فوتا ديالو Fouta Dialo ، وقل ازدحام المصلين في صلاة الجمعة . ويصومون رمضان لكن لا بالتشديد الذي عليه المغاربة ، وعند ما يلوح الهلال يكون العيد الصغير ، فيطلقون البواريد . ويسمون عيد الفطر « سونغالو سالي » أو « كالوسالي » وهذا بلغة الماندي ، أما في لغة الفوله فاسمه « كوريايورو سومايي » ، وفي العيد الكبير يضحون كل واحد كبشا . ويسمى هذا العيد « تاباسكي » بلغة الاولوف و « سالييا كالو » أو « دونكي سالي » بلغة المالينكه و « باناسالي » بلغة السانينكه .

(ثم ذكر اندري ارسين بعض الحروب التي وقعت بين المسلمين والفتيشيين ، وقال) ان هؤلاء طالما قاوموا الاسلام بشدة بالغة الحد ، وقد استولى الفتيشيون مرة على كانكان هذه المدينة الاسلامية المقدسة ، ولكن امة السونينكه الاسلامية كانت تواصل التقدم من الشمال ، وصارت بوري وموسادوغو وموساردو مدنا اسلامية ، وهي أحسن المدن وأعمرها وأنظفها

هناك ، ولكن الفتيشيين لبثوا فتيشيين . وكانت غينية العليا أسلمت بتمامها في ايام الامي ساموري ، ولكن بعد موته رجع الكورما ، والوازولو ، والتورون ، والسانكاران ، والكورانكو ، والكيسي الى أوثانهم ، وعادوا الى شرب المسكر . وأما بلاد التوما فمن البداية لم تطع ساموري .

أما في الأوان الحاضر فدين الاسلام في غينية العليا ممتدة على طول الانهر ، وفيها كثير من الغرباء الذين يتواردون اليها منذ قرنين . وبالاجمال ففي مقاطعة بوري من غينيه أشهر مدن الاسلام ، كيروانه Kérouané ، والاهينا Alahina ، ومدينة Médina ، وكاكاتومبو Kakatoumbo ، وفي مقاطعة سييكه Sieké لهم بيرامفيرا Biramfera ، وسيندوقو Sindougou ، وتوقين Togin ، وفي مقاطعة كولوكالان Kouloukalan لهم دوقوره Dougoura ، وكوباني Kobani وكينيكرو Kiniékroa ، وفي المادينغ Mading ، أهم مدنهم بالانكوما كونا Balankoumakana وأما في سائر المدن لا سيما في مقاطعتي ديوما Diouma ونوغا Nouga ، فالاكثرية ليست للاسلام . وأما كانكان فهي من أعظم كراسي الاسلام في السودان الفرانسي ، أكثر أهلها سوننكه . وكذلك كونغ وديينه . وقد أسس اشياخ الطريقة التيجانية مدارس في كانكان ومكاتب ، ونشأ فيها مرابطون كثيرون كانت لهم اليد الطولى في نشر الاسلام في افريقية الغربية والجنوبية . والى هذا اليوم هي مركز جاذبية لبلاد سينغيري وكوروسه . وفيها آل سريفو الذين يدعون انهم اشراف من آل البيت ، وان اسمهم مشتق من شريف . ومن المدن الاسلامية العظيمة مدينة طوبا Touba في ساحل العاج ، وبيلا Beyla وذاكر الله ، وبلال الله ، ونيالا ودياكوليدوغو الخ . وأما بلاد الفوته ديالو فان لها تاريخا مهما في الاسلام هناك ، فقد جاءتها الدعوة من الشمال بواسطة التوكولور ، ومن الشرق بواسطة السوننكه ، ولذلك تألف بها حزبان أحدهما يقال له «ألفيا» Alfaia والثاني « صوريا » Soria ، فالصوريا هم الشرقيون اتخذوا الطريقة القادرية حال كون الالفيا بحسب قول المسيو لوشاتليه Le Chatelier تمسكوا بالسنة ولم يعرفوا الطرق وقد كان مبدأ الاسلام في فوته على أيدي البهل والسوننكه ، ولكن لما اسلم على أيديهم الديالونكه صار هؤلاء من أشد الدعاة حمية . وليست بلاد فوته منقسمة الى كور اسلامية وأخرى وثنية كما هو الحال في غينية العليا ، بل جميعها دار اسلام . والمدينة المقدسة فيها هي فوكومبا ، وفي جامعها جرت العادة بمبايعة الامي ، وهذا الامتياز لها ، من أجل كون أمير هذه البلدة هو أقدم امراء تلك البلاد اسلاما . ومن البلدان الاسلامية العظيمة «فوتاطورو» وهي أقرب البلاد الى ديالو . وبلاد الساراكولي وهم من الاقوام الشديدة الاعتقاد ، وفيها مدارس للعلوم الدينية . ومن المراكز المشهورة في تعليم الدين « تمي » و « لابي » و « دونهول فلاح » و « فوكومبا » و « بارفلا » و « دنتاري » و « كولانغي » وغيرها وفيها الجوامع العظيمة .

والاسلام ممتد أيضا في الجهات الجنوبية الغربية من غينية ، والسبب في امتداده الي هناك هي فتوحات القبائل الشمالية مثل السوننكه والتورودو والديولا والدياكانكه . ومن هذه الاقوام جند الحاج عمر أحسن عساكره ، وخلفه مريدين قاوموا الفرنسيس اشد المقاومة ،

مثل المرابط محمد ، ولامينا درامي . وقد كان اختلاط السوننكه والديولا بأهالي الجنوب سببا في زيادة نشر الدعوة المحمدية ، حتى لا يكاد يخلو منها مكان في سواحل غينية . واشتهر بشدة التمسك بالاسلام أمة النالوماندي . حتى ان ملك النالو تلقب بأمير المؤمنين . كذلك زعيم الساراكولي في بلاد ميلاكوري لقب بمامي موريا أي امام موريا . فوريا وموريبايا وكالوم وسومبويا وبراميا وبولنو ونوز العليا ، الاكثرية فيها هي للاسلام والاهالي من جلس الصوصو . وكان الميكيفوري Mikiforé باقين على الفتيشية ، لكن الضابط بروكارد Brocard قرر بعد فحص اجراه ان الاسلام غلب عليهم اليوم ، حتى قال انهم يعتقدون ان الرجل الحر له وحده الحق بالقاء السلام . وكذلك قبيلة الباغافوره Baga Foré التي هي من أشد قبائل السواحل عتواً . دخلها الاسلام وبدأ كثير من رؤسائها يهجر الخمرة . وفي بعض الاماكن تجد الزعماء قد صاروا مسلمين وان كان عامة شعبهم باقين على الوثنية . ولقد سرت مع أحد حكام غينية السفلى وهو المسيو نوارو Noirot في اطراف هذه البلاد ، وكانت مضت عليه سنون طوال في جنوبي غينية ، فاندهش مما رآه من آثار العقيدة الاسلامية مما لم يكن رآه قبلا ، اذ في كل قرية حتى في صغريات القرى تجد مصليات للاسلام . نعم ان مسلمي جنوبي غينية ليس عندهم تعصب مسلمي الشمال . ومن المدن الاسلامية المشهورة في الجنوب « بنا » و « كيسي كيسي » و « كوناكري » وبلاد « الهربو » وأما بلاد « كادي » و « كونسوتامي » و « بومبايا » فهي اسلامية بحتة ، ومعدودة من أقسام « فوته » الضاربة في بحر الاوقيانوس . ومن علامات تقدم الاسلام في الجنوب شيوع لقب « المامي » في ملوكهم مما يغضب أهل فوته ديالو ، الذين يقولون : ما من مامي في كل غينية سوى أميرهم . وقد يعترفون بهذا اللقب لمامي موريا ، ولكن يصعب عليهم الاقرار به لملوك « ريوبونغو » و « كانيا » و « تاميسو » و « نالو » و « كالوم » .

وجميع المرابطين الدعاة في كورة « واسو » هم في الاصل من السوننكه ، ويقال لهم « السايسي » و « الدارامي » والتوري والى الشرق من ميلاكوري يوجد قوم اسمهم « اليولا » متمسكون جدا بالاسلام ، وكان لهم يد في نشره بين الامم المجاورة . كذلك في جهة « فارانا » يوجد قوم اسمهم « الفيريا » مقيمون لشعائر الاسلام بكل دقة لا سيما في « داندو » و « أولادا » .

والشرف الاعظم في نظر مسلمي السودان هو الانتساب الى العرب « فالعرب عندهم هم انموذج الشعوب كما قال المسيو فامشون Famechon ، لا سيما الانتماء الى آل البيت . »

وأنهى المسيو اندري آرسين كلامه على غينية أو ظانة بقوله « ان الاسلام انتشر بسرعة عظيمة في بلاد الزنوج نعم ان تقدمه اليوم أصبح ابطأ من ذي قبل ، لكنه صار ارسخ من ذي قبل بسبب السكون والامان . واذا اعتبر الانسان انه منذ مائة وخمسين سنة لم يكن مسلمون في غينية السفلى ، وانهم الآن صاروا نحو النصف من الاهالي عرف مقدار سير الاسلام في هذه الاقطار . كذلك المرابط منذ ثلاثين سنة فقط ، لم يكن يجرأ ان يتوغل في هاتيك الاصقاع ، فصار اليوم يسير وبين يديه جماعات وله اتباع . ثم قال مؤلف « غينية الفرنسوية » نمو الاسلام بين السود بساطة قواعده ، وما أشبه ذلك من الاسباب التي أشار اليها مؤلفو

كتاب « الاسلام والنصرانية فى افريقية » .

وقد عرفت الرحالة الشيخ عبد الكريم مراد ، نزيل كانو من بلاد النيجر ، أصله من طرابلس الشام زارني في لوزان سويسرة في العام الماضى ١٩٢٣ ، فسألته عن بلاد النيجر والسوادين فقال لي : « ان بلاد النيجر تشتمل على ٢٠ مليون نسمة ، مقسومة بين الانكليز والفرانسيس ، وان عاصمة النيجر الانكليزي مدينة لاغوس Lagos ، وان سلطان سوكوتو كان كبير سلاطين السودان كلهم قبل دخول الانكليز ، فلما دخل الانكليز أخرجوا كل اولئك السلاطين من طاعته ، فبقيت له سيادة اسمية . وأما السلاطين المذكورون ، فنهم سلطان كشينا حج في العام الماضي . وسلطان كانو . وسلطان برنو . وسلطان زاريا . وسلطان بدّا . وسلطان آبدان . وسلطان لوري وغيرهم . وأما سلطان لاغوس وسلطان أبي كتا ، فمشركان . ولكن الاسلام قوة في بلادهما وفي جميع بلاد الفتيشيين . وسلطان هؤلاء يحتفل بعيد الاسلام ، ويلبس فيه الملابس الرسمية وعنده سلطان أبي كتا وزير مسلم ، والجوامع كثيرة في بلاد الكفار تقام فيها الجمع والاذان مسموع . وسألته عن مدينة كانو التي كان فيها ، فأجابني ان أهلها نحو ثلاثين الف نسمة وهم مسلمون .

وأختم هذا الفصل بنكتة سمعتها من المرحوم الشيخ عبد الجليل برّاده من علماء المدينة المنورة ، وأدباء عصره ، قال : سأل واحد من أهل الادب وهو في موسم الحج حاجاً أسمر عن بلده في السودان ، فأجابه : غانة . فأنشد السائل على الفور هذا البيت :

كذا كذا فليزر مولاه من عرفه من غانة غاية الدنيا الى عرفه

(ش)

العرب في الكونغو

اطلعت على رحلة لاحد ادباء البلجيك المسمى فريتز فان در ليندن Fritz van der Linden استوفى فيها الشرح على الكونغو ، فعثرت فيها على بعض جمل تتعلق بالعرب في الكونغو ، وعلمت ان الاسلام قد دخل في هذه المملكة العظيمة التي هي الكونغو البلجيكي . قال في الصفحة ٢٦١ ، في بحث عن تداول الاهالي للمسكوكات : « ان أكثر الاهالي المستعربين Arabisés يعرفون النقود ، وان تجار العرب من الكاسونغو وأكبر التجار الذين لهم علاقات مع زنزبار ، يؤثرون الذهب لاسيما الليرة السترلينية ، لأن علاقاتهم متصلة مع عرب الاوغانده ، والمستعمرات الالمانية في شرقي أفريقية . وتراهم مع شدة مراقبة الحكومة ، يتمكنون من أخذ العاج وادخال البارود الى مستعمرتنا سراً . وأما تجارة الرقيق فانهم لايتعاطونها الا في داخل البلاد من قرية الى قرية ومنع ذلك يكاد يكون مستحيلا ، اذ ليس الاسترقاق هو اليوم بالقوة المسلحة كما كان قبلاً ، بل فظائع الاستعباد التي كان يصفها ليفنستون وستورم وهوديستر هذه كلها دخلت في خبر كان . ولكن العربي أو المستعرب لايشتغل بيده فلا يستغني عن العبد ، لاجل الفراش وخدمة البيت والنقل والحمل ، وليست معاملته للعبد بسيئة وقد ينتقل العبد من سيد الى سيد ، والذي يظهر انه لو تحرر هؤلاء العبيد كلهم دفعة واحدة ، لكانت ضربة قاضية على سعادة البلاد ، وتحول هؤلاء الى رعاع متشردين .

وان العنصر العربي لايزال عظيما في جهات كاسونغو ، لكن مجده الماضي قد زال ، والمراكز التي كانت لموني محره (يظهر انه اسم زعيم عربي) وسعيد بن عبدلي قد ذهبت . أما كاسونغو القديمة ، فهي قرية جميلة مبنية باللبن مقطعة بالشوارع وهناك عرب صراح يلبسون جبباً بيضاء ، ويتلفعون بكوفيات مطرزة تطريزاً بديعاً ، سيماهم تدل على الكرامة والوقار ، وحركاتهم وسكناتهم مقرونة بالادب التام ، والكياسة المتناهية ، والرصانة الفائقة ، فنسق حياتهم يختلف كثيراً عن نسق الزنزباريين العبيد القدماء ، الذين يظهرون عظمة تستحق السخرية ، بتقليدهم ساداتهم العرب في كسوتهم ورفاهيتهم .

ومرة دعاني أحد العرب في كاسونغو الى منزله قائلا : سفا كيدي كاريبو . ومعناها : صباح الخير تفضل . فدخلت الى بيته فوجدته مفروشاً بالحصير ومزيناً بالمتاع اللطيف ، وأبواب البيت والشبابيك كلها منقوشة ، وعلى أحد الابواب كتابة عربية أظنها آية من القرآن . فقدم لي العربي طاساً لذيذاً من القهوة ، وباعني بعض الحصر ، وهو يظهر انه انما أسدى الي مكرمة .

وترى القرى على الطريق المؤدية من كاسونغو القديمة الى كاسونغو كلها جميلة نظيفة ، والمسحة العربية بادية عليها ، ولكن مرض النوم فاش في هذه الانحاء ، وقد نقص كثيراً في عدد الاهالي في جوار كاسونغو . ولا تجد في جوار كاسونغو أكثر من الف مستعرب من الرجال البالغين ، وثلاثة أو أربعة عرب صراح ، وأربعة أو خمسة زنجباريين . وليس بين الاهالي جامعة يخشى من عواقبها ، فنقدر أن ننظر الى المستقبل باطمئنان .

ثم ذكر مدينة نيانقفة Niangwe ، فنقل عن قائم المقام السويدي غليروب Gleerub قوله في سنة ١٨٨٦ :

« ان نيانقفه هي مقر العرب الاصلي وهي مقسومة الى قسمين يفصل بينهما واد عميق تكثر فيه مزارع الارز ، فاذا بلغ ارتفاع نهر الكونغو معظمه طمت المياه على هذا الوادي . وقد ازدادت هذه المدينة من عهد ستانلي ازديادا عظيما ، فأهلها اليوم يبلغون نحو عشرة آلاف . وترى على جانبي الوادي أنضر المزارع والمغارس وجميع الاشجار المثمرة المجلوبة من أفريقية الشرقية ، كذلك العرب أدخلوا فيها المواشي والحمير الفارهة للركوب » اه . قال فريتز فان درليدن :

« أما اليوم فقد نزلت نيانقفه عن درجتها هذه ، بسبب ثورة سنة ١٨٩٣ ، وبمرض النوم أيضا ، ولم يبق فيها الا الفا رجل . وتحولت تلك المخارف البديعة التي كانت مصطفة بها الاشجار على ضفتي النهر ، الى شعاب سطا عليها العوسج والشوك ، ولم يبق في نيانقفه منزل يستحق الذكر ، سوى بيت بيانيسنغا Pianisengha هذا الزعيم العربي الذي بقي أمينا للحكومة البلجيكية ، وحظي بمقابلة الملك في قصر بروكسل » .

ثم في الصفحة ٢٧٤ من الكتاب ذكر المؤلف نهرا يتشعب من الكوانغو ، ويمتد نحو ٣١٥ كيلو متر بعرض يتفاوت من ٢٠٠٠ الى ٦٠٠ متر ، وقال ان على جانبيه القرى ، وان الاهالي هم من العرب والمستعربين ، والطرّاء من أماكن بعيدة . ووصف العرب بالنظافة والاتقان في العمل ، وقال ان المستعربين والعبيد الذين يخدمونهم يشكلون قرى لطيفة تحيط بها مزارع ارز واسعة . ثم اطرى هؤلاء الاهالي في شدة انهماكهم بالتجارة .

وفي الصفحة ٢٩٠ ذكر قرية مستعربة مدحها بنظافتها ، وبين الفرق العظيم بينها وبين القرى الاخرى التي يسكنها غير المستعربين ، وشاهد فيها سوقاً مهمة تقام كل يوم من الصبح الى نحو الظهر في ساحة القرية ، ووصف الدكاكين التي فيها ، معروضة أمامها أصناف البضائع ، وحوانيت الخياطين وباعة الخزف والخرص وغير ذلك ، وقال ان المستعربين رحبوا بهم ترحيبا ودعوهم الى منازلهم ، فعاجوا على معلم كتاب أمامه جماعة من الصبيان يعلمهم القرآن .

وذكر ان سكان هذه القرية المستعربة يبلغ عددهم الفي رجل . وقال انه سأل المسيو دوموليستر المندوب العام في الكونغو ، عن عدد المستعربين في الولاية الشرقية من الكونغو فقال له : لا أقدر أن اجزم بشيء ، ولكنني أظن انهم نحو مائتي الف . فقال له : أفلا تراهم خطراً دائما على المستعمرة ؟ فأجابه : كلا . لأنهم متفرقون ، ولاننا نحن نملك القوة اللازمة لقمع كل ثورة . ثم قال له :

« طالما اتهم هؤلاء العرب والمستعربون تهما باطلة ، فلا أنكر انه يجب علينا مراقبتهم واجبارهم على طاعة القوانين ، ولكن مما لا انكره أيضا انهم عنصر جيد في البلاد ، لأنهم قوامون على الزراعة ، مدنيون بطبعهم ، وعندهم ميل الى الجلس الابيض ، ونحن كل سنة نشتري منهم في جهات ستانليفيل وبونتيارفيل ولوكاندو وكيروندو ، مقدارا مهما من الارز » . اه

(ش)

سلطنة رابح

معلوم انه كان رجل يقال له الزبير باشا حاكما من قبل الايالة المصرية على بلاد بحر الغزال من السودان ، فصرفته الحكومة المصرية من هناك برجل ايطالي الاصل ، اسمه جسي باشا ، واعتقلت الزبير باشا بمصر . فثار ابنه سليمان انتقاما لابيه ، فانهزم وقتل ، وتفرق الجماعة الذين كانوا حوله وحول أبيه ، ومنهم عبد للزبير اسمه رابح ، انفرد بنفسه وتبعه كثير من الضباط الذين كانوا مع الزبير ، فحشد ثمانية بيارق كل بيرق ١٢٠ رجلا الى ١٣٠ رجلا مسلحا ، ووقع ذلك سنة ١٨٧٩ فباشر رابح بهذه القوة غزواته الشهيرة ، ولقبه رهطه السلطان رابح وهذا كان مبدأ أمره .

وقد كتب كثير من الاوربيين على رابح هذا ، من جملتهم صديقنا البارون ماكس أوبنهايم الالماني الذي هو من أشهر الرحالات الذين عرفوا الشرق وأهله ، فانه الف كتابا اسمه Rabeh undTchadgebiete أي ، « رابح وبلاد تشاد » ، جاء فيه بخبر هذا الرجل الآفاق على وجهه (١٩٠٢) وكذلك كتاب جنتيل Gentil المسمى «سقوط سلطنة رابح» ، المطبوع سنة ١٩٠٢ أيضا . وقد جاء ذكر رابح في كتاب للدكتور دكورس Decorse طبيب الجنود في المستعمرات الفرنسية ، والمسيو دومبين Demombynes أحد أساتذة مدرسة المستعمرات ، واسم هذا الكتاب « رابح وعرب الشاري » وألف المسيو دوجاري Dujarric كتابا اسمه « حياة السلطان رابح » وغير ذلك .

وأول ما بدأ رابح بالعمل كان في « دارمانغا » اذ منها غزا غزوة في دارفور ، ثم في واداي ، ثم واصل غزواته في باطن السودان ، وجعل مركزه في بلاد شاري . ثم صعد في نهر شاري الى ضفته الشمالية ، ثم نزل الى ضفته الجنوبية واقام مدة ببلد « كوتي » وغزا بلاد « سومراي » وما زال من غزاة الى غزاة الى سنة ١٨٩٢ فأقام ببلدة « بوسو » على الشاري وجهز حملة على « الباقيرمي » ، فاستولى عليها . والتجأ سلطان الباقيرمي الى بلاد الشاري الاسفل ، ثم الى واداي (١٨٩٤) فوجه رابح حينئذ عزمه الى بورنو واستولى على « كرناك لوغون» فارسل اليه سلطان بورنو قوة يقودها محمد طاهر ومالا كريم ، فهزمهما رابح وزحف رابح قاصدا « كوكا » عاصمة بورنو بطريق « نغالة » فخرج هاشم سلطان بورنو لقتاله ، والتقيا في أم « حبيس » فانكسر هاشم ودخل رابح « كوكا » وجعل عاليها سافلها ثم اعتصم ببلدة اسمها « ديكوا » فقام بسلطنة بورنو أبو غياري عم السلطان هاشم ، وناوش رابحا القتال . ثم انبرى لمقاومة رابح زعيم ديني اسمه الشيخ أبو قنطور ، فصارت بينهما واقعة في « غاجيبو » الى الشرق من ديكوا ، ومع هذا فبقي رابح سائدا ، وكان سلطان زيندر يدفع اتاوة لسلطان بورنو ، فلما استولى رابح على بورنو ابى دفعها له ، فزحف فضل الله بن رابح الى سلطان زيندر المذكور وقاتله فلم يظفر منه بطائل .

وبينما الامور متسقة لرابح وهو يفكر في تأسيس سلطنة عظيمة اذ زحف اليه الفرنسيس الذين هالهم مستقبل أمره ، فقصدوا خضد شوكته قبل ان يستفحل شأنه ، ففي ١٥ يونيو

(حزيران) سنة ١٨٩٩ وصل الضابط بريتونه Bretonnet الى كونو ، فنهد اليه رابح بقوة صامدًا نهر شاري وما زال من بلد الى بلد حتى وصل الى كونو ، فلما علم الضابط الفرنسي بوصوله أخلى كونو واعتصم بهضاب عالية موافقة للدفاع من بلاد « نيالم » ، ولكن رابح استأصل تلك القوة الفرنسية بأسرها مع قوة « غاورانغ » سلطان الباقيرمي ، الذي كان حليفاً للفرنسيس ، وذلك في ١٧ يوليو سنة ١٨٩٩ .

وعاد رابح الى كونو فهاجمه الفرنسيس بقيادة جنتيل في ٢٧ اكتوبر من السنة المذكورة ، فلم يقدروا على أخذ المدينة ، ولكنهم اضطروا رابحًا الى اخلائها من نفسه . فانحاز رابح الى بلدة « ميلتو » ثم قصد « لوغون » من جهة بحر الرقيق وعاد الى ديكوا ، فلم يقم بها الا شهرا وذهب يحشد جنوده في « كوسري » .

فزحفت اليه معا جنود البعثة الصحراوية ، وبعثة افريقية الوسطى ، وبعثة شاري ، تحت قيادة جولاند Jolland ومانييه Maynier وذلك في ١٠ دسمبر سنة ١٨٩٩ ثم في السنة التالية أردفا بقائدين آخرين ، فورو Foureau ولامي Lamy فجاء فضل الله بن رابح وناوش مانييه القتال ، وكانت قوة فضل الله ستمائة بندقية . ثم بلغه ان لامي استولى على كوسري . فزحف الى كوسري من الجنوب ثم اضطر ان يرجع الى لوغون . وجاء رابح بنفسه فخيم في « لخنة » ودارت رحى الحرب فانكسر رابح وقتل في ٢٢ ابريل ، ولكن رجاله قتلوا من الفرنسيس عددا كبيرا ، منهم القائد لامي نفسه ، وقائد آخر اسمه « كوانته » .

وبلغ فضل الله خبر مقتل أبيه ، وهو في لوغون ، فاخلى هذه المدينة قاصدا ديكوا التي كان فيها اخوه « نيابي » ، فقصده الفرنسيس الى ديكوا فخرج منها بدون قتال ، فتعقبه الفرنسيس بقوة أدركته في ٢ مايو سنة ١٩٠٠ في مكان يقال له « دغيمبه » فدحرته الى الجنوب فساروا وراءه الى محل يقال له « ايشيغوية » فلم يفوزوا منه بطائل ، ثم وقف فضل الله في بلدة تسمى « برغامه » وأخذ يحشد جنوده مراقبا حوادث بورنو .

وكان سلطان بورنو « عمر ساندا » يكره الفرنسيس فعزله هؤلاء وولوا مكانه اخاه « غرباي » فقصده فضل الله وتغلب عليه في واقعة « نقاله » ففر الى جهة كانم . فاشتد عزم فضل الله وكشر عن ناب العداوة للفرنسيس وبعث الى قائد منهم اسمه « روبيليو » يطالبه باسلاب ابيه التي أخذوها من كوسري ، فارسل روبيليو الى فضل الله ثلاثة رسل يعرض عليه الملاقاة فأمر فضل الله بقطع رقابهم ، فقصده روبيليو بجيشه وهزمه . فالتجأ فضل الله الى مستعمرة النيجر الانكليزية ثم رجع الى معسكره الاصلي في « برغامه » وهناك دخل في مفاوضات مع الانكليز وزاره الماجور « ماك كلينتوك » ، ثم بلغ فضل الله ان غرباي عاد الى بورنو واستوى على عرشها ، فقصده وهزمه ودخل ديكوا . فزحف الكولونل الفرنسي دستناف الى ديكوا فوجد فضل الله قد برحها فارسل في أثره قوة دهمته في « قوجبه » من أراضي المستعمرة الانكليزية فقتل فضل الله في المعركة وتشتت الذين معه ، ودخلوا الى بلاد « كيردي » التي أهلها وثنيون فقاتلوهم بالسهام فاضطر نيابي بن رباح أن يستسلم الى الفرنسيس . وهكذا انتهت سلطنة رابح وأولاده بعد أن لمعت سيوفهم لمعانا هائلا في باطن افريقية .

(ش)

﴿ تابع للكلام على مملكة واداي ودارفور وباقيرمي وبورنو وغيرها من ممالك اواسط افريقية ﴾

تقدم مانقلناه عن تأسيس سلطنة واداي من رحلة الشريف ابن عمر التونسي ، وقد اطلعنا على رحلة لرجل انكليزي محفوظة عند السادة السنوسية ولم يصرح فيها باسم المؤلف فلها رواية ثانية وهي هذه ملخصة :

في السنة العشرين بعد الالف أسقط عبد الكريم بن يامي حكومة « تينجر » الكافرة ، واسس حكومة واداي . وابنه خاروط الذي خلفه اسس مدينة « وارا » وجعلها عاصمة للمملكة المذكورة . وخلفه ابنه خريف الذي قتلته قبيلة « تاما » لثلاث سنين من ملكه . وخلف هذا اخوه الاصغر يعقوب عروس ، وهذا هو الذي كان قاتل سلطان دارفور موسى بن سليمان وسليمان هذا هو أول سلطان مسلم على دارفور . وقد دارت الدائرة على يعقوب سلطان واداي وخلفه ابنه خاروط الثاني الذي استمر ملكه اربعين سنة بالراحة والسعادة . ثم خلفه ابنه جوده الملقب بخريف التيمان ، والملقب أيضاً بمحمد صولاي الذي معناه محمد المنجي ، لأنه نجى واداي من نير دارفور في مدة السلطان أبي القاسم سلطان دارفور وهذا هو المسلم السادس من سلاطين هذه المملكة ، ثم ان محمد صولاي هذا استولى على كانم ، انتزعها من يد سلطان بورنو ، وتولى أربعين سنة . وخلفه ابنه صالح الملقب « بدرة » ولم يكن محمود السيرة . وفي السنة الثامنة من حكمه ثار عليه ابنه عبد الكريم الملقب بصابون ، فقتل الوالد وتولى الولد وكانت حكومته أكثر حكمة من جميع الحكومات التي عرفتها واداي . فتقوت في أيامه واداي وطوعت الباقرمي وأراد أن يفتح طرقا الى الشمال الى البحر الأبيض ، لكنه توفي سنة ١٢٣٠ تاركا ستة أولاد من الذكور لعشر سنوات من ملكه . ووقع اختلاف بين أولاد صابون وحروب انتهت بظفر حزب ولده يوسف . فهذا تولى ١٦ سنة بالظلم والقهر ثم قتل سنة ١٢٤٥ وخلفه ابنه راكب ، فمات بتلك السنة . وجلس على كرسي الملك أحد أفراد البيت المالك واسمه عبد العزيز بن رادما ، فتولى نحو خمس سنوات ونصف سنة وتوفي ، فتولى ولده الصغير آدم فهذا بقي سنة واحدة ثم أخذ أسيراً الى دارفور بطلب محمد صالح أخي السلطان عبد الكريم صابون الذي استمد محمد فضل سلطان دارفور لاسترجاع ملكه . فجلس محمد صالح على كرسي واداي سنة ١٢٥٠ واحسن السياسة ، وفي سنة ١٢٦١ هاجم مملكة بورنو فلم يفز بطائل ثم ثار محمد بن محمد صالح بابيه ولشبت حرب داخلية .

قال الرحالة الانجليزي : ولما برح الناقل باقرمي ، كان سمع ان الابن غلب اباه وجلس مكانه فليس في هذه الرواية شيء من خبر انتساب سلاطين واداي الى بني العباس .

وذكر هذا الرحالة فوائد كثيرة عن أواسط افريقية ، فلما كان في سياحته هنالك أي منذ ثمانين سنة ، كان جيش دارفور عشرة آلاف فارس ، وكان في وسع واداي أن تجهز خمسة أوستة آلاف من الخيالة ، وكانت مملكة الباقرمي تقدر ان تجند ثلاثة آلاف فارس ، هذا مع العرب الذين يقال لهم « شوا » ويقولون لهم « شيوا » .

قال : وعرب شيوا الذين في باقيرمي ، ينقسمون الى أولاد سلامه وبني حسن وأولاد موسى وأولاد علي وديناغره .

وذكر معلومات اخرى عن تأسيس ممالك دارفور والباقيرمي أو الباجيرمي مآلها : أنه من السنة التسعمائة الى الالف للهجرة ، كانت امة التينجر من الكفرة تملك جميع دارفور ووادای والباقيرمي ، ففي نحو السنة الالف غلب على دارفور الامير المسمى كورد واسس سلطنة دارفور وكان خلفه الثالث سليمان وهو أول من اسلم من ملوك دارفور . ثم فاز عبد الكريم ابن يامي بسلطنة واداي . واسلمت سلطنة الباقيرمي بعد واداي بعشر سنوات . وأول من ملكها من المسلمين السلطان عبد الله ، وخلفه ولده « وانجا » وخلف وانجا « لاوني » وفي مدة لاوني اضطرت الباقيرمي ان تدفع اتاوة لسلطنة بورنو . ثم ملك السلطان بوغومانداني الباقيرمي ، ثم الحاج محمد الامين ، وكان ملكه حليفاً للاقبال والمجد . وخلفه ابنه عبد الرحمن فحاربه عبد الكريم صابون سلطان واداي ، وقهره وقتله بطلب محمد الكانمي شيخ بورنو من عبد الكريم (الرحالة التونسي يذكر ان سبب غزو عبد الكريم صابون للباقيرمي هو سوء سيرة سلطان هذه البلاد وتماديه في اتباع شهواته حتى انه تزوج باخته مع نهي علماء الدين له باجمعهم) ووضع عبد الكريم على تخت الباقيرمي ابن السلطان المقتول وهو عبد الرحمن وكان صغيراً . فجاء أخوه الاكبر عثمان وسمل عينيه وجلس مكانه فعاد سلطان واداي الى الباقيرمي وحارب عثمان وهزمه وأعاد الى السلطنة اخاه الاعمى . ولما عاد عبد الكريم الى بلاده ، ظهر عثمان وغلب أخاه واغرقه في النهر وجلس محله ثانية . ثم ثار به الاهالي فخلعوه ، ونصبوا اخاً آخر له يسمى الحاج فالتجأ عثمان الى عدوه القديم سلطان وادي . وأعاده عبد الكريم الى ملكه ولكنه ضرب عليه اتاوة اعظم مما كانت تؤدي الباقيرمي الى بورنو . فلما رأى الشيخ سلطان بورنو ان الباقيرمي لا تريد أن تكون تحت سلطة بورنو ، استمد يوسف باشا والي طرابلس لقتال الباقيرمي ، فارسل اليه اميرلوان مصطفى الاحمر ومعه قوة سنة ١٢٣٣ ، ثم في سنة ١٢٤٠ كانت حرب انقالا الثانية ، ولم يوفق سلطان بورنو لتدويخ الباقيرمي . ومات عثمان سنة ١٢٦٠ وخلفه ابنه عبد القادر الذي كان هو الجالس على عرش باقيرمي يوم حرر ذلك السائح رحلته وقال ان سكان باقيرمي يومئذ كانوا مليونا ونصف مليون نسمة .

وذكر سياحته الى مملكة « لوغون » ومقابلته لسلطانها ، ولكن بدون أن يشاهده وجهاً لوجه بل كان السلطان قاعداً وراء ستر من الحصير ، وكان يترجم بينهما ضابط بورنوي ، اسمه « كاشلا معدي » كان ذهب الى هنالك لقبض الاتاوة السنوية التي تدفعها لوغون الى بورنو . ويقال لسلطان لوغون « ميارا » (بتشديد الياء) فعرض السائح الانكليزي للسلطان المذكور ان الدولة الانكليزية كانت أرسلت ضابطاً معتمداً من قبلها وهو المسمى بالرئيس خليل ، لاجل تقديم التحية لوالده « ميارا صالح » ، وهي الآن مرسلته هو لاجل تقديم التحية لسعادته السلطانية . فسر السلطان بذلك وكان اسم هذا السلطان ميارا يوسف . وكانت مملكته تدفع اتاوة لبورنو وللباقيرمي معا . ويقول السائح الانكليزي ان مملكة لوغون كانت جديدة ولم يكن مضى على دخولها في الاسلام أكثر من ستين سنة ، يوم جاءها السائح . وقال ان فيها قبائل من العرب وذكر انه فارق مدينة قارناق لوغون عاصمة لوغون قاصداً الباقيرمي ، وبعد أن ذكر تفاصيل

كثيرة عن أحوال تلك البلدان، وصناعتها وزراعتها وغاباتها وأنهارها، ومن عرف من رجالها ، ذكر رجلا اسمه الحاج أبو بكر صادق من أهل الباقيرمي كان يحسن العربية ، أنه سهل له أموره وساعده في شدائد كثيرة عرضت له ، وفي دخول « ماسنه » عاصمة الباقيرمي . وكان سلطان الباقيرمي يوم وصول السائح غائبا فتعرف فيها بثلاثة رجال أحدهم الحاج أحمد ، أصله من البامباره على ساحل البحر المحيط ، كان يتجر بين تنبكتو والتوات ثم قصد المدينة المنورة ، ومنها جاء الى بر الشام وحضر حصار ابراهيم باشا ابن محمد علي لعكا ، ثم ذهب الى بغداد والبصرة وأخيراً عاد الى المدينة المنورة ، وكان مجيئه الى الباقيرمي لاجل أخذ عبيد لخدمة الحرم النبوي؛ والثاني هو المسمى بالفقيه سامبو من الفلاته ، كان مكفوفا ، لكنه في غاية النباهة ، قرأ في الازهر وتبحر في الادب والفلسفة ، وكان قصد مدينة زبيد في اليمن لدرس الحساب والجبر لاشتهار زبيد بهذه العلوم ، فحال دون وصوله الى زبيد ما كان من حروب الوهابية ، فجاء الى دارفور ومنها الى واداي ، واتصل بسلطانها عبد العزيز ، ثم بعد موت هذا السلطان تحول الى الباقيرمي . قال السائح الانكليزي ان فقيه سامبو كان يروي تاريخ الخلافة ، ويحدث عن عظمتها من بغداد الى الاندلس ، ويعرف ذلك حق المعرفة . وأما الثالث ، فكان رجلا مصريا اسمه سليمان هو في غاية التهذيب ، وقد عرف استانبول ومكة وغيرهما من البلدان . قال، واثناء اقامته بعاصمة احتبس المطر طويلا ، فتطير به الاهالي وقالوا ان قدوم هذا السائح الانكليزي هو السبب في امتناع الغيث فقال لهم : ان هذا عيب عليكم لانكم مسلمون ولا يجوز ان تكون لكم افكار عبدة الاصنام . فقال له أحد رجال تلك الدولة : نعلم انه لا يحتبس المطر بسبب احد ، ولكن نرغب اليك أن تشترك أنت مع الاهالي في الدعاء بنزول الغيث . ثم وردت الى السائح كتب من الحكومة الانكليزية تشكره فيه على عمله ، ومن سلطان بورنو يلتمس منه الرجوع اليه . فوقعت هذه الكتب في أيدي رجال الحكومة الباقيرمية ، فحصلت لهم فيه شبهة وأرادوا أن يعتقلوه ، وطلبوا منه كتاب الرحلة الذي كان يحرره ، وأحيلت هذه الكتب والرحلة الى جماعة العلماء الذين هناك ومنهم الفقيه سامبو ، فبعد البحث فيها قالوا للحكومة ليس في هذه المكاتبات شيء يوجب الحذر ، وهذا الرجل انما غايته العلم والاطلاع ، وبعد ذلك امكنت السائح مقابلة السلطان عبد القادر صاحب الباقيرمي ، فقال للسلطان : ان الدولة الانكليزية هي متفقة مع سلطان استانبول ! ومن هنا يظهر انه طالما تقرب الانكليز الى ملوك الاسلام ، حتى في السودان، بدعوى الاتفاق مع سلطان استانبول . . . .

(ش)

شرقي أفريقية

من البلاد الاسلامية المعدودة في افريقية ، بلاد سواحل زنجبار والصومال والغاله Gallas والقسم الاسلامي من الحبشة. ولما كان هدفنا الذي نرمي اليه في هذه التعليقات ليس التعريف بجميع بلدان الاسلام وشؤون الاسلام ، بل التعريف بما نأى من البلاد وغمض من الشؤون وخفي من الاخبار ، مع ترك الحقائق المشهورة والتواريخ التي يعرفها الخاص والعام ، رأينا أن نقول كلمة عن هذه البلاد .

لا يخفى أن سياسة « المناطق » هي الصفحة الاولى من الاستعمار ، ولا يوجد شيء أشد خطرا على الممالك المستقلة من تعيين الدول العظام « المناطق » ، التي يتفقن على اعطائها لكل منهن ، فقد تكون أعدى من الجذام ، وقد تجر الى الحروب العظام . وما أخذت فرنسا مراكش الا مقابلة لاخذ انكلترة مصر ، وما دخلت ايطالية طرابلس الا مقابلة لاخذ تينك الدولتين مراكش ومصرا . وما شبت حرب البلقان الا على أثر الغارة الايطالية على طرابلس وذلك ان دول البلقان الصغيرة لما رأت ايطالية قد استباحت حمى الدولة العثمانية بدون أدنى محرج ، وخلافا للمعاهدات الدولية ، أباحت هي لنفسها ما اباحه غيرها لنفسه ، فكانت الحرب البلقانية التي هي بلا مراء أم الحرب العامة . فانت ترى ما ولده جشع الدول الكبرى وما نشأ عن تقسيمات فرنسا وانكلترة في افريقية بموجب عقد سنة ١٩٠٢ ، ولنذكر لك الآن خلاصة استيلاء الالمان على مستعمرة شرقي افريقية ، وقضاءهم على سلطنة تلك البلاد التي كانت للعرب فنقول :

كان بسمارك يكره الاستعمار ويذهب الى كون المانية يجب ان تكتفي باستثمار داخل بلادها ، وتمضي في طريق ترقيها الصناعي الذي فاقت فيه جميع الامم ، وكان يتجنب مشكلات الاستعمار التي هي مفاتيح للحروب والمصائب ، ولكن جميع الالمان الذين كانوا يسيحون في البلدان الشرقية ، ويرون أعلام فرنسا وانكلترة وهولاندة خافقة على بلاد السود والحمر والصفر ، لم يكونوا يرون رأي بسمارك ، بل كانت تأخذهم الغيرة من تبسط هاتيك الدول وراء البحار مع انكماش المانية في داخل بلادها . مع انه كما قال الشاعر :

فلا كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع

ثم لما اتسعت تجارة المانية وارتقت صناعتها هذا الارتقاء الهائل ، لم تشأ الشركات الالمانية أن تبقى في استجلاب المواد الخام عالة على تجار الممالك الاخر ، بل احبت أن تكون لها مستعمرات هي أيضا تأخذ منها ما تحتاج اليه رأسا ، وما زال الالمان ببسمارك حتى ازلوه الى ميدان الاستعمار .

وأول شركة تجارية المانية حاولت التملك في افريقية هي شركة فرمن Wöermann النقالة ، كانت لها مصالح عظيمة في سواحل افريقية الغربية ، فارادت عام ١٨٨٢ ان تملك لنفسها مرسى على تلك السواحل ، وسنة ١٨٨٣ ابلغ سفير المانية في لندن حكومة بريطانية العظمى ، ان الاراضي التي لا يكون عليها دعوى من انكلترة أو دولة اخرى ، تحفظ المانية

لنفسها حق وضع اليد عليها . وفي ٢٤ ابريل سنة ١٨٨٤ ابلغت المانية انكلترة أن الاراضي التي تملكها الالمان داخل مرسى «انغرا بكينا» وشمالي نهر الاورانج بموجب صكوك بينهم وبين بعض زعماء الهوتنتوه هذه ، قد صارت تحت الحماية الالمانية . وأبدت حكومة مستعمرة الكاب معارضة لهذا التملك الالماني في تلك الناحية ، فارسل بسمارك بارجتين حربيتين سلمتا الالمان هاتيك الاراضي بالقوة .

وفي تلك الاثناء كانت فرانسا قد اتفقت مع انكلترة على اقتسام البلدان الواقعة شمالي سيراليون ، وانكلترة اتفقت مع البرتغال على اقتسام مستعمرات جنوبي افريقية ، فاشتدت حركة الغيرة في المانية ، وسنة ١٨٨٣ اشترت شركة فرمن السالفة الذكر أرض مالنبا Malimba في الكامرون ، وسنة ١٨٨٤ التمس بعض زعماء بلاد توغو باغراء تجار الالمان حماية الامبراطورية الالمانية ، ومنذ ذلك الوقت تأسست مستعمرة الكامرون واضطرت انكلترة وفرانسا ان تحددا حدود مستعمراتهما بينها وبين المانية ، التي صارت مالكة الكامرون والتوغو ، وتم ذلك سنة ١٨٨٥ و ١٨٨٦ .

ولم يقتصر الالمان على منافسة الانكليز والفرانسيس في غربي افريقية بل تبسطوا في شرقي هذه القارة ، فاشترت « شركة الاستعمار الالماني » سنة ١٨٨٤ اراضي واسعة في بلاد فيتو Witu ، واتفقت مع سلطان فيتو على ان يعترف بحمايتها للاراضي المذكورة . فاحتج سلطان زنجبار على عمل سلطان فيتو وزعم أنه لا يملك حق النزول للالمان عن شيء ؛ وسرح جنودا الى هاتيك الارجاء لحفظ حقوق سيادته عليها . وكان سلطان زنجبار يدعي حق السلطة على جميع البلاد الممتدة من راس دلغادو Cap Delgado جنوبا ، إلى فارشيخ Warscheich شمالا ، والتي تمتد من البحر الى البحيرات الكبر في داخل القارة .

فالالمان نالوا من الانكليز الاعتراف بصحة عملهم ، في اتفاق مؤرخ في ٣٠ مايو سنة ١٨٨٥ ، وفي ٧ أغسطس من تلك السنة جاءت خمس بوارج حربية المانية ، وهددت سلطان زنجبار في عاصمته بجزيرة زنزيبار . فانتهى الخلاف بعقد معاهدة بين السلطان والالمان ، على ان تعفى من المكوس جميع البضائع والمتاجر المشحونة الى بلاد الالمان ، وجعلت فرضة دار السلام على الساحل الافريقي في يد المانية . وتأسست مستعمرة شرق افريقية الالمانية ، وتعينت لجنة المانية مختلطة بانكليز وفرنسيس لتحديد حدود هذه المستعمرة .

وسنة ١٨٨٦ تم تعيين الحدود ، فخرج في نصيب سلطان زنجبار جزر زنزيبار وبما ولاممه Lamee ومافيا Mafia ، وعشرة أميال بحرية من العرض على طول سيف البحر الممتد من مصب نهر الميلنغاني في جون زونغي Zunghi الى كيبيني Kipini ، مع بلاد كيسماجو Kismaju وبارافا Barawa ومركا Merka ومقديشو Makdischu وفارشيخ . وتعين لسلطان فيتو البلاد التي تمتد من كيبيني الى شمالي جون ماندا Manda .

وكان حد المستعمرة الالمانية من الجنوب نهر روفوما Rovuma ومن الشمال خط يمتد من مصب نهر الفانغا Wanga الى بحيرة جيب Jipo ومن هناك في وسط أراضي زافتا Zaveta ودشاقا Dschagga تابعا المصب الشرقي من «كليمانجارو» حتى بحيرة فكتوريا نيانزا وتعهدت المانية بان لا تمتد شمالي هذا الخط ، وانكلترة بان لا تمتد جنوبيه . وأما البلاد التي في

الشمال الى زانا Zana ومنها الى معارضة الدرجة ١ من العرض الشمالي مع الدرجة ٣٧ من الطول الشرقي ، فجعلت منطقة نفوذ انكليزية . واتفقت دولتا انكلترة والمانيـه على اقناع سلطان زنجبار بقبول معاهدة الكونغو ، كما ان المانيـة رضيت بامضاء الاتفاق الانكليزي الفرنسي ، المتعلق بتمام استقلال زنزبار . وفي ٤ ديسمبر سنة ١٨٨٦ امضى سلطان زنزبار هذا الاتفاق الذي امضته فرانسا أيضا . وفي ١٠ ديسمبر رضيت البرتقال أن يكون نهر روفوما حداً بينها وبين المستعمرة الالمانية ولكن الالمان ابعوا خطة غيرهم في التوسيع ، فاضطرت انكلترة ان تذكر المانية بكون معاهدة سنة ١٨٦٢ الانكليزية الفرنسية تضمن استقلال سلطنة زنزبار ليس الجزر فقط ، بل السواحل التي تقابلها . فادّعت المانية أن كلا من سلطان زنزبار وسلطان فيتو عاجز عن توطيد الامن والنظام في أرضه ، وأرادت ارسال حملة عسكرية بحجة الغاء الرقيق وتنظيم البلاد . ولما كان بسمارك بدهائه لايريد ايجاد معضلة سياسية بينه وبين دولة عظيمة كانكلترة لاجل مستعمرة ، فقد اختار طريقة اخرى وهو ان يشتري سكوت انكلترة ببعض المسامحات ، فاعترف في ١٩ اغسطس سنة ١٨٨٩ بان المانيا تعتبر الاوغانده ووادلاي والاراضي الواقعة شمالي الدرجة الواحدة من العرض الجنوبي ، خارجة عن دائرة العمل الالماني .

وفي مدة كابريفي عقدت المانية مع انكلترة اتفاقا تنزل فيه هذه عن جزيرة هليجولاند التي في البحر الشمالي ، بمقابلة تخلي المانية لانكلترة عن حماية سلطنة فيتو وساحل الصومالي ، وصار لانكلترة بموجب هذا الاتفاق حق السيطرة على سلطنة زنزبار ، مع جزر بمبا والاراضي التابعة لفيتو ، وأنزل سلطان زنزبار لالمانية عن جزيرة مافيا ومايقابلها . وذهبت سلطنة فيتو باستيلاء انكلترة عليها ، وهكذا تمزقت هذه السلطنة العربية كل ممزق باتفاق انكلترة مع المانية ، وهو الذي نقضت بموجبه جميع هاتيك العهود السالفة . وكان ينبغي للعرب الذين اغتروا بمواعيد انكلترة لهم في أثناء الحرب العامة ، أن يطلعوا على ما جريات هذه الدولة ومعاهداتها مع عرب آخرين مثلهم ، فربما كان لهم بذلك عبرة يعتبرون بها . . .

ولم تقبل فرانسا ان تصدق هذه المواطئات الانجليزية الالمانية الا ببدل ، هو اعتراف انكلترة بحماية فرانسا لمداغسكر .

وتبلغ مساحة المستعمرة الالمانية المسماة بمستعمرة شرقي افريقية ، ٩٩٥٠٠٠ كيلومتر وعدد سكانها سبعة ملايين وخمسمائة واحد عشر الف نسمة ، من أصلها ثلاثة ملايين من امم البانتو والواميهي والمانيتي والقاهوما والأساوي . وهم سكان البلاد الاصليون ، ومن بقي فهم جنس اسمه السواحلي ، متولد من اختلاط العرب والزنوج ، فهؤلاء يبلغون ثلاثة ملايين ونصف مليون هذا بحسب تقويم المسيو براديه Prader ناموس مجلس الامة الفرنسي في كتابه المسمى « بالمستعمرات الالمانية وقيمتها » المطبوع في سنة ١٩١٩ ، ويقول المؤلف المذكور ان في هذه المستعمرة خمسة آلاف عربي ، ونحو عشرة آلاف هندي ، ونحو ٥٣٠٠ اوربي أكثرهم المان. وهذه البلاد من أوفر بلاد الله محاصيل وغلات ، وفيها معادن كثيرة ، وقبل الحرب بقليل صدر منها الى المانية ١٢ الف بالة قطن ، ونصف مليون كيلو من البن ، وأطنال الكتاب .

وقد ورد في كتاب « السلطنة الاستعمارية الالمانية » ما يأتي ملخصا :

« ان البرتقاليين لما جاءوا الى هذه البلاد في أواخر القرن الخامس عشر ، وجدوا فيها كثيرا

من التجار الهنود والصينيين ، ولكن هؤلاء لم يتركوا أدنى أثر من مدنيتهم بين الاهالي السود حتى ان ما يوجد من الخزف الصيني بهذه البلاد انما وجد بواسطة العرب والفرس .

يقول المؤرخ بطوليموس ان العرب في النصف الثاني من القرن الاول للمسيح ، كانوا بدأوا يتجرون مع شرقي افريقية بالعاج والعبيد ويصلون الى حدود الموزامبيق ، اما بعد ظهور الاسلام فازدادت هذه التجارة في شرقي افريقية ازدياداً عظيما حتى انقلبت في نحو القرن الثامن للمسيح استعماراً حقيقياً . وتأسست في أوائل القرن العاشر « مقدشو » و « باراكا » وفي السنة ٩٧٥ جاء فرس من شيراز واسسوا «كيلفا» ، وتوغلوا في السواحل الى « رودسيا » طالبين الذهب ، وانتشروا على طول الساحل الشرقي ووصلوا الى مقدشو وباراكا وماليندي ومومباسه وارنغوني وزنزيبار وبمبا عند دار السلام الحالية ومافيا وغيرها . ووجدت امارات فارسية صغيرة بين الامارات العربية . ولما ورد البرتغاليون تلك البلاد ، وجدوا فيها المدنية الاسلامية مؤسسة مؤثلة . ولم يقتصر هؤلاء العرب والفرس على التجارة في أعمالهم هناك ، بل اشتغلوا بالزراعة وعلموا غيرهم ، وغرسوا شجر الكوكو وعدداً لا يحصى من أشجار جزيرة العرب وفارس ، مثل المانغو والرمان والاترج وقصب السكر وادخلوا زراعة القطن والسمسم الهندي والبهارات الهندية والارز واتوا بكثير من حيوانات بلدانهم . وبقيت المدنية الاسلامية قروناً طويلة في هذه السواحل ، لكنها في القرن التاسع عشر ادخلها العرب الى الداخل . على ان البرتقال ، كانوا قد وضعوا حداً للدور الاول من مدنية العرب عندما احتلوا زنزيبار سنة ١٥٠٣ ، وباراكا سنة ١٥٠٤ وكليفا سنة ١٥٠٥ ، ومومباسه في السنة نفسها . وكان مقصدهم بهذا الاحتلال تأسيس قواعد تجارية للبضائع التي تأتي من الهند ، ووضع اليد على معادن الذهب في « سوفالا » وبقي البرتقال هم السادة في تلك السواحل الى أواسط القرن السابع عشر اذ قاتلهم عرب عمان قتالا شديداً ، بدأوا به في سواحل عمان نفسها سنة ١٧٥٠ ، فلما جلوهم من هنالك هاجموهم في مستعمراتهم بالهند وفي شرقي افريقية ، وفتحوا زنزيبار ومافيا وبمبا ومومباسه في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . ثم ان حروباً داخلية في عمان حملت السلطان سعيداً على تحويل كرسيه الى زنزيبار ، ثم صار ماجد سلطانا لشرقي افريقية ، وبقي السلطان تويني على كرسي مسقط . وهذا في نحو سنة ١٨٥٦ ، ثم توفي ماجد وخلفه أخوه برغش . وفي ايام هذا السلطان بدأت الحوادث ، التي انتهت بتقسيم هذه السلطنة العربية . وبالجملة فالسلطنة العمانية العربية ، التي استمرت من آخر القرن السابع عشر الى آخر القرن التاسع عشر ، قد تمكنت من التوغل في داخل افريقية اكثر من جميع الدول التي قبلها ولم يكن السبب في ذلك هو التجارة فحسب ، بل الزراعة التي كان العرب يستجلبون لها العملة من داخل البلاد . وازدادت تجارة الرقيق بازدياد الغراس ونمو الزراعة في السواحل ، واسس العرب في البلاد الداخلية فى قسم انجامفيزي Unjamwesi المدينة المسماة «طابوره» و «اودجيدشى» وغيرهما ، ووصلوا الى الكونغو الاعلى واسسوا فيها مدنا وقرى ، وكانت لهم هنالك جنود مسلحة لحماية قرانانهم ولا جرم ان العرب بحضارتهم كانوا يفيدون الامم الزنجية السوداء . ولما الغيت تجارة الرقيق في زمان السلطان برغش سنة ١٨٧٣ ساءت حالة الزراعة في السواحل وتقهقرت البلاد الى الوراء بسبب ندورة العملة . اه .

ثم ذكر مؤلفو كتاب « السلطنة الاستعمارية الالمانية » تاريخ بسط انكلترة والمانية حمايتهما على سلطنة زنجبار وملحقاتها مما لا يخرج عما تقدم ، ولكنهم قالوا : انه في ٨ ابريل سنة ١٨٨٨ استأجرت الشركة الالمانية الاستعمارية من سلطان زنجبار مكوس السواحل كلها فلما أرادت وضع اليد عليها ثار العرب مع من معهم من الزنوج ثورة عظيمة لاسيما مع كراهيتهم من قبل للجنس الاوروبي ، وكان متقدم هذه الثورة الشيخ ابو شيري . وسنة ١٨٩٠ في الثلاثين من يناير (كانون الثاني) أصدر المجلس الالماني (الرايستاغ) قراراً بتجنيد جيش من السود واخماد نار الثورة ، وعين المرفيزمان قائدا عسكرياً وواليا ، وكانت حرب شديدة صعبة المراس ، لانه كان لا بد من ايجاد كل شيء من العدم ، ولكن هـذا الجيش بمساعدة الاسطول تمكن من فتح البلاد .

ثم جاء في هذا الكتاب ذكر أهالي البلاد ، فقيل انهم عرب وعجم وهنود وكومورو وزنوج والامة التي يقال لها السواحليون ، وهم من أصل يقال له فانقفانا Wangvana اختلطوا مع العرب من الف سنة ، واختلطوا مع السود سكان الداخل ومع سائر الاجناس حتى الاجناس البيضاء . وهم يزعمون كونهم من أصل شيرازي ، وصورهم جميلة ، وتقاطيعهم لطيفة ، وهم أهل نظافة ينظفون أسنانهم ويغتسلون دائماً ولا يستعملون الوشم مثل الزنوج ويختتنون لانهم مسلمون . ومن عادتهم لبس البياض ، ويجعلون على رؤسهم كمة بيضاء اذلم يلبسوا الطربوش الاحمر . ولكنهم الى اليوم لا يلبسون البنطلون . ونساؤهم لا يتنقبن ، ولكنهن يأتزرن بشيء اسمه (الشقة) يغطي الجسم ويجعلون على الاكتاف شيئا اسمه (كسوتو) وهم اجمالا سواء منهم سكان المدن أو القرى ، لا يشبهون في شيء سكان الداخل من الزنوج ، بل عندهم ادب وكياسة ، ومن صفاتهم حسن المعاشرة ، وقرب الالفة ، وسرعة العاطفة والبر بالاهل والحنو على الاولاد ويحبون السكنى بعضهم بقرب بعض ، ومنازلهم بغاية النظافة بل الشوارع التي بين بيوتهم نظيفة ، ويبنون بيوتهم صفوفا ويغرسون أمامها صفوفا من الاشجار الكبيرة مثل الكوكو والتامارينده ، وأينما وجد السواحلي اعتنى بغرس الشجر . وأكثر شغل الحقول يقوم به نساؤهم واما الرجال فيصطادون السمك أو يتجرون بالبضائع أو يحملون الاثقال . وبالاجمال فلا تعد هذه الامة بين الامم الموصوفة بالشجاعة ، لكن بين الامم الموصوفة بالوداعة . ويقال ان عندهم شيئا من الكذب والكسل ، وان عندهم ميلا عظيما الى الطرب ، يحبون الزفن والغناء ، ويعزفون بالطبول والطنابير ، ويقضون أوقاتهم بالسرور . ولغة السواحليين اكثر لغات تلك البلاد انتشارا يقال لها « كيسواحلي » Kisuaheli وانقى هذه اللغة ما يتكلم به في بلد (لامو) ويسمى (كينغوزي) وهو بمقام لغة ثقيف أو سعد بن بكر في العربية . وأردأ السواحلي ما يتكلمون به في جزيرة زنزيبار ، لانه خليط من العربي والفارسي والاوردو والانكليزي والبرتغالي ، وبعد الاحتلال الالماني دخل فيه الالماني أيضا . وليس للغة السواحلية كتابة ولا آداب وكانوا يكتبون بالحروف العربية ، وصاروا اليوم يكتبون كثيراً بالالماني والانكليزي ، واللغة المذكورة غنية بالكلمات الدالة على العواطف والمعاني المجردة . ويوجد في لغتهم خاصة لا توجد في غيرها وهي أن بعض الكلمات يتغير معناها بتغير كيفية لفظها ، كأن تمد الحرف او تقصره أو ترفع صوتك عند اللفظ أو تخفضه .

أما شعب جزائر الكومور أو القمر فاسمهم (الفاسيغا) أجسامهم حسنة التركيب وعقولهم جيدة ، ولكن أخلاقهم غير جيدة ، وبسبب لباقتهم وذكائهم يستخدمهم الاوربيون في البيوت حشما وفي السفن نواتية .

أما السوماليون فكانوا يأتون الى هذه السواحل للتجارة ثم استقروا بها ، وهم طوال القامات مع دقة في العضلات .

وأما العربي العماني النبيل ، فقد بدأ يقل وجوده هناك (وياللاسف) ! وكانت له هيئة جميلة جدا في زنزبار وتلك السواحل ، وكانت على العربي سيماء الشرف والسراوة ، حتى الى ما بعد سقوط سلطنة العرب هناك وانقضاء دورهم السياسي والتجاري. فلم يزل الباقون منهم يعيشون معيشة الاكابر محفوفين بالحشم والعبيد ولا يعملون بايديهم . وهم يناظرون الهنود في التجارة. وكانت منهم بيوتات غنية كثيرة ، هوت في الفقر بسقوط دولة العرب السياسية ولكنها بقيت حافظة وقارها وكرامتها ، لأن العرب في تلك البلاد هم اشراف البلاد ، لا يشتغلون بأيديهم أينما وجدوا . ويرتدون ملابس بهية منها ما يسمونه التفطان ، جوخ أسود مطرز مفتوح من الامام تحته قميص أبيض طويل يسمى كازو ثم نطاق واسع يحملون من فوقه خنجرا محلى بالفضه ، وهم طوال القامات ، رشاق القدود ، سمر الالوان ظاهرو الرصانة تجد حركاتهم كلها موزونة بدون تملق بل بشيء من الانقباض ويوجد صنف آخر من العرب اسمه « شحري » نسبة الى الشحر من جهات حضرموت ، فهذا الصنف ليس من النمط الاول لانهم فقراء يتجرون بالسجاد والزيت ، وليسوا ممن يقدرون على مزاحمة الهنود في التجارة .

وفي سواحل زنجبار اناس من البلوج ، وهم فقراء ، قليلو العدد . واناس من الفرس الباقين على عبادة النار ، يعرف الانسان بمجرد رؤيتهم انهم من الجنس الآري ، ويلبسون مثل الاوربيين تقريبا ، ويجعلون على رؤوسهم قبعات مخروطية الشكل وهم تجار ، ومنهم محامون صغار لدى المحاكم .

وأكثر الغرباء في تلك السواحل هم الهنود ، وهم قسمان المسلمون والوثنيون ، فالمسلمون اكثرهم من طائفة « الخوجه » (قسم من الاسماعيلية) وهم تجار وصناع ، منهم صاغة ، ومنهم خياطون وحذاءون وقصارون ، ومتى اثرى الخوجه عاد الى وطنه . وأما الوثنيون فبراهمة وبوذيون ، وكلهم يتعممون كالعرب لكن بعمائم مطرزة بالقصب ، ويستحضرون نساءهم الى تلك البلاد ، وهن جميلات يتحلين بالجواهر الكريمة ، ولكن داخل منازلهم قذر لا يعرفون النظافه ، حتى ان الشوارع التي امام منازلهم تغلب عليها القذارة . ومن الهنود صنف اسمهم البنجان ، ضعفاء لا يأكلون لحوم الحيوان ، ولا طعام لهم الا من النباتات ، ولا يقدرون ان يقربوا سائر الامم ، ولا يأتون بالاثهم من الهند . وبالاختصار فانهم مثقلون تحت التكاليف الدينية ، ومنذ مدة بدأ الهنود يدخلون الى الداخل ويوغلون في البلاد ، فازداد عددهم في « موروغورو » و « كيلوسا » و « ايرنيغا » و « طابوره » و « موانزه » و « بوكوبا » واجتمع منهم طراء كثيرون .

وهناك صنف اسمهم « الغوانزه » نسبة الى « غوا » بلدة من الهند تولاها البرتغاليون مدة طويلة ، فاختلطوا بالاهالي وتناسلوا وجاء منهم هذا الصنف ، ويسمون انفسهم باسماء

برتقالية مثل « دوسيلفا » و « دوسوزا » وما أشبه ذلك ، وهم يشتغلون بالتجارة والخياطة والطبخ وخدمة الفنادق .

وفي تلك السواحل عدة آلاف من الالمان ، ثم عدة مئات من الانكليز ، ثم جماعات من الهولانديين والنمسويين والسويسريين والطليان ، وهناك أروام وسوريون ويقال لهم « الاوربيون المتوحشون » وهؤلاء يشتغلون بالزراعة والتجارة والصناعة ، وبأيديهم الفنادق ، وهم في غاية الجد والنشاط وقد تملكوا الاملاك ، ففي الثلاثمائة رجل منهم ، ٥١ رجلا متملكون » اه ملخصا وقد آلت مستعمرة شرقي افريقية الالمانية الى مستعمرات انكلترة بموجب معاهدة فرسايل. (ش)

مسلمو الحبشة

أما الحبشة فبلاد من شرقي افريقية يحدها من الشمال النوبة والبحر الاحمر ومن الشرق بلاد الدناقيل والصومال ومن الجنوب بلاد الغاله ومن الغرب السودان المصري وهي بلاد جبلية مرتفعة متوسط ارتفاعها ٢٠٠٠ متر وفيها قنن يبلغ علوها نحو ٤٦٠٠ متر كالتي في جبل « ابا » في الشمال واخرى يبلغ علوها ٤١٢٠ كالتي في جبل « غونة » في الجنوب ويوجد الثلج على قنن الجبال المتناهية في العلو صيفا شتاء . وأما الهواء فهو حار في القسم الادنى الذي هو دون ارتفاع ١٥٠٠ متر ومعتدل في الاماكن التي ارتفاعها يقع بين ١٥٠٠ متر و٢٧٠٠ متر وبارد فيما هو أعلى من ذلك . وفي أراضيها الحديد والذهب والصفر وفيها زراعات متنوعة ولكن اعتماد أهلها على المواشي . وفي جنوبي الحبشة بحيرة « تانا » التي يخرج منها بحر الازرق والى الشمال من هنالك يخرج نهر العطبرة الذي مصبه في النيل ومارب الذي لا ينفذ من صحاري بلاد النوبة . والاحباش أجناس مختلفة منها من السلالة السامية ومنها من البجاه ومنها من الزنج وهم يفترقون عن الجنس الزنجي بالرغم من شدة سوادهم . وبين اللغة العربية واللغة الحبشية تشابه يثبت كون اللغة الحبشية هي من اللغات السامية . وبلاد الحبشة ثلاثة أقسام ففي الشمال بلاد « التيغري أو التيجري » ومدنها عدوة واكسوم . وفي الوسط « الأمباره » وعاصمتها غندار وفي الجنوب « الشوا » ومدينتها آنكوبر . والى ولاية الشوا هذه اضيفت بلاد هرر التي أخذها الاحباش من يد امرائها المسلمين سنة ١٨٨٧ .

وبلاد الحبشة من قديم الزمان هي في منازعات وحروب دائمة منها ما هو بين الاحباش النصارى والاحباش المسلمين ومنها ما هو بين رؤوس الاحباش بعضهم مع بعض . وفي سنة ١٨٥٥ تنزّى على عرش الحبشة قائد اسمه كاساي بعد ان قهر جميع أقرانه وتتوج ملكا لملوك الحبشة باسم تيودوروس الثالث الا انه خاشن في معاملته دولة انكلترة فساقت عليه حملة قهرته فانتحر سنة ١٨٦٨ فخلفه في السلطنة أمير التيغري وتلقب يوحنا . وحصلت بينه وبين المصريين حرب كانت الطائلة له فيها آخر مرة فكف الخديوي اسماعيل عن قتاله . ثم خلفه نجاشي آخر اسمه يوحنا في أيامه دبت دولة ايطالية الى هنالك تبغي الاستعمار فصادمها بقوة

الا ان السودانيين جماعة المهدي تغلبوا عليه وقتلوه فخلفه منليك ملك شوا وصالح الطليان وامتد هؤلاء في الاريتره واطراف التيغري لولا ان الخلاف وقع بينهم سنة ١٨٩٥ فانتهى بواقعة « عدوه » الشهيرة التي انهزم فيها الطليان هزيمة شنيعة عدلوا من بعدها عن استعمار الحبشة واكتفوا بالاريتره .

أما عدد أهالي الحبشة بجغرافيات الاوربيين تحصيه خمسة ملايين ؛ وهو من باب المتابعة والتقليد لاقوال قديمة العهد اذ مما لا شك فيه أن الحبشة اليوم فيها أكثر من ثمانية ملايين وقد ورد في جريدة الطان عددها المؤرخ في ١٧ مايو سنة ١٩٢٤ فصل عقدته بمناسبة الرأس تافارى كافل ملك الحبشة لهذا العهد وزيارته لباريز جاء فيه ما يأتي :

«ان الحبشة مساحتها نحو ٦٠٠ الف كيلو متر مربع وأهلها نحو ٧ ملايين الى ٨ ملايين منهم ثلاثة ملايين ونصف مليون نصارى (على مذهب الكنيسة القبطية) وثلاثة ملايين مسلمون داخلا في هذا العدد البلاد الاسلامية التي اطاعت مؤخرا . ومليون ونصف مليون وثنيون ونصف مليون يهود وبعض كاثوليك وبروتستانت .

« ان البلاد الواقعة في شرقي افريقية المسماة بالحبشة هي أشبه بقلعة طبيعية كبرى شوامخها مطلة على سيف البحر الاحمر وبلاد الصومال الفرنسي والصومال الانكليزى والاريتره الايطالية وارض النوبة والسودان المصري ، ولا يدخل الى هذه القلعة الا من منافذ ضيقة تحميها قبائل عاتية .

« أما ملك الحبشة الحديثة فينتهي الى زعيم وصل بغزواته وحروبه الى ان أخذ تاج الحبشة وتلقب بتيودوروس الثالث ثم غلبه الانكليز سنة ١٨٦٨ فانتحر في مغدلة وخلفه أمير آخر تنزى على الملك وتلقب بالنجاشي الاكبر أي ملك ملوك الحبشة . واسمه يوهانس وكان في زمانه حاكم ولاية شوا واسمه (ساهلا ماريم) قد حارب يوهانس هذا وعانده ثم صاهره وانتهى الامر بأنه خلفه على العرش باسم منليك الثاني وذلك لانه ادعى كونه من ذرية سليمان بن داود الذي عشق الملكة سبا وجاءه منها ولد اسمه منليك كان هو النجاشي الاول . ولاجل توطيد وشائج الملك أعطى منليك ابنته (زاوديتو) الى ابن يوهانس فمات هذا بدون ذرية ولم يكن لمنليك أولاد ذكور وانما كانت له ابنة ثانية (شوارقاد) زوجها من أمير مسلم كان حاربه وتغلب عليه ثم تنصر على يده وهو المسمى بالراس ميكائيل . وولد له من ابنته هذه ولد اسمه (ليج ياسو) فجعله ولي عهده فلم يرق ذلك للامبراطورة (تايتو) ولا للاهالي ولكن توج بالرغم من ذلك ياسو امبراطورا سنة ١٩١٤ وتسمى أبوه الراس ميكائيل ملكا على (قولو) و (التيغري) والنائب العام للمملكة . وكان مولد الامبراطور الفتى سنة ١٨٩٧ فظهرت منه أفعال شاذة اغضبت الاهالي واشتد الغضب عند ما أظهر الاسلام راجعا الى دين أهله فاجتمع الاساقفة والامراء وعظماء المملكة وعقدوا مجمعا خلعوا فيه ياسو وبايعوا زاوديتو ابنة منليك امبراطورة وجعلوا الراس تافاري كافلا للمملكة ووليا للعهد (٢٧ سبتمبر ١٩١٦) وكان الراس تافاري متزوجا بابنة الراس ميكائيل اخت ياسو فعزله ياسو من ولاية هرر فزحف على رأس العساكر الحبشية لقتال حميه وابن حميه فكانت حربا ضروسا طالت واشتدت ولكنها انتهت بتغلب تافاري على حميه وجيء بهذا مصفدا بالحديد الى اديس ابابا

بعد ان دارت عليه الدائرة في وقعة «دبره برهام» (٢٧ اكتوبر ١٩١٦) وفي ٢ نوفمبر استعرضت الامبراطورة الجيوش وجيء بالراس ميكائيل أيضا مقيدا بالسلاسل امام العرش الامبراطوري فيقال ان صهره وغالبه الراس تافاري رق لحاله وتذكر ما بينهما من الرحم فقام وأجلسه مكانه . أما ياسو فبعد مقاتلات شديدة ايضا اخذ أسيرا وحبس في قلعة واستوسقت الامور للراس تافاري» انتهى .

فقد ظهر لك ان الحبشة هم مسلمون ونصارى وان المركز الاول في هذه المملكة للنصارى وجريدة الطان تنقل ان عدد النصارى ثلاثة ملايين ونصف مليون وعدد المسلمين ثلاثة . ولكن الملحوظ ان عدد المسلمين في مملكة الحبشة بعد ان توسع ملك الحبش الى جهات هرر والصومال والغاله أصبح أكثر من عدد النصارى حتى نقل عن كافل ملك الحبشه يوم كانت الحرب واقعة مع تركية على أثر الحرب العامة انه لا يريد زوال تركية لانها مملكة اسلامية ولان المسلمين من رعاياه اكثر من النصارى . وقد اطلعنا على حديث أفاض به رجل من علماء الترك أقام بالحبشة مدة طويلة وعاد الى الاستانة في العام الماضي فسأله أصحاب مجلة سبيل لرشاد ان يفيدهم ما عرفه من أحوال الحبشة فذكر لهم فوائد جمة وقدر عدد مسلمي الحبشة بسبعة ملايين .

وقد يظن بعض القراء ان في هذا العدد مبالغة وليس هذا الظن بصحيح . فعليك بان تقرأ ما ذكره المسيو موريس قال في معجمه الجغرافي تحت اسم غاله Gallas : « شعب من افريقية منتشر في جنوبي الحبشة وفي البلدان الضاربة الى الجنوب أيضا مما يجاور اقليم البحيرات الكبير المنفصل عن البحر ببلاد الصومال . وهم أقوام جميلة الخلقة لونهم نحاسي يختلفون في الشكل عن الاقوام المجاورين لهم من جنوبيهم كما انهم يختلفون عن الاحباش والصومال ويقدر عددهم من ٦ الى ثمانية ملايين وأكثرهم سكان مدر والغالب عليهم الزراعة ومعظمهم مسلمون . وقد كانوا أكثر الاحيان في حروب مع الاحباش واخيرا تغلب هؤلاء عليهم فقسم من قبائل الغاله يؤدون اتاوة لملك شوا من الحبشة »

فانت ترى انه ليس في كلام السائح التركي ادنى مبالغة لانه عدا هذا القسم الخاضع من الغاله لمملكة شوا الحبشية يوجد مملكة هرر التي استلحقها الاحباش بمساعدة بعض الدول الاوربية ويوجد مسلمو نفس الحبشة الذين هم كثيرون في وسط تلك المملكة منذ وجد الاسلام .

وقد ذكر جغرافيو العرب بلاد المسلمين التي في اطراف الحبشة فقال ياقوت : زيلع بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح اللام وآخره عين مهملة جيل من السودان في طرف أرض الحبشة وهم مسلمون . ثم ذكر غرائب من عاداتهم في أمر الزواج وغيره .

ونقل صاحب صبح الاعشى جملا كثيرة عن الحبشة القسم المسيحي والقسم الاسلامي منها فنأخذ نتفا مما قاله : مملكة عظيمة جليلة المقدار متسعة الارجاء فسيحة الجوانب . قال في مسالك الابصار : وأرضها صعبة المسالك لكثرة جبالها الشامخة وعظم أشجارها واشتباك بعضها ببعض حتى ان ملكها اذا أراد الخروج الى جهة من جهاتها تقدمه قوم مرصدون لاصلاح الطرق بآلات لقطع الاشجار واحراقها بالنار . قال : وهم قوم كثير عددهم ولم يملك بلادهم غيرهم من النوع الانساني لانهم اجبر بني حام واخبر بالتوغل في القتال والاقتحام طول زمنهم في

الاسفار وصيد الوحوش وقتالهم انما يكون عريا من غير لامة تدفع عنهم ولا من خيلهم . ثم وصفهم بعد ذلك باوصاف لولا ماهم عليه من الشرك لكانوا في الرتبة العليا من مراتب بني آدم فذكر ان المشهور عنهم مع ماهم عليه من الجاهلية انهم يقبلون الحسب ويصفحون عن الجرائم ومن عادتهم ان من رمى سلاحه في القتال حرم قتاله ويكرمون الضيف ولا ينقض الصديق منهم عهد صديقه واذا أحبوا أظهروا المحبة واذا أبغضوا اظهروا البغض والغالب عليهم الذكاء والفطنة وصدق الحدس . ولهم قلم يكتبون به من اليمين الى الشمال كما في العربي حروفه ستة عشر حرفا لكل حرف منها سبعة فروع فيكون عدتها مائة واثنين وثمانين حرفا سوى حروف أخر مستقلة بذاتها لا تفتقر الى حرف من الحروف المذكورة مضبوطة بحركات نحوية متصلة بالخط لا منفصلة عنه . ومع كونهم جاسا واحدا فلغاتهم تزيد على خمسين لسانا الخ ثم ذكر في صبح الاعشى القسم الاول من الحبشة وهو بلاد النصرانية قال وهو القسم الاوفر عددا الاوسع مجالا . وهو الذي يملكه ملك «امحرا» بفتح الالف وسكون الميم وفتح الحاء والراء المهملتين والف في الآخر وهم جنس من الحبشة .ثم ذكر تقاسيم مملكة امحرا وصفات تلك البلدان بلدا بلدا الى ان قال ان ملكهم في الزمن المتقدم كان يلقب بالنجاشي وقد ذكر المقر الشهابي ابن فضل الله في مسالك الابصار ان الملك الاكبر الحاكم على جميع أقطارهم يسمى بلغتهم «الحطي» بفتح الحاء المهملة وتشديد الطاء المهملة المكسورة وياء مثناة تحت في الآخر ومعناه السلطان اسما موضوعا لكل من قام عليهم ملكا كبيراً . الى ان قال: ومع ماهم عليه من سعة البلاد وكثرة الخلق والاجناد مفتقرون الى العناية والملاحظة من صاحب مصر لأن المطران الذي هو حاكم شريعتهم في جميع من أهل النصرانية لا يقام الا من الاقباط اليعاقبة بالديار المصرية بحيث تخرج الاوامر السلطانية من مصر للبطرك المذكور بارسال مطران اليهم وذلك بعد تقدم سؤال ملك الحبشة الذي هو الحطي وارسال رسله وهدايا .ه قال : وهم يدعون انهم يحفظون مجاري النيل المنحدر الى مصر ويساعدون على اصلاح سلوكه تقربا لصاحب مصر. وقد ذكر ابن العميد مؤرخ النصارى في تاريخه انه لما توقف النيل في زمن المستنصر بالله الفاطمي كان ذلك بسبب فساد مجاريه من بلادهم وان المستنصر ارسل البطرك الذي كان في زمانه الى الحبشة حتى اصلحوه واستقامت مجاريه.

ثم ذكر القسم الاسلامي من بلاد الحبشة وقال انه البلاد المقابلة لبر اليمن على اعالي بحر القلزم (البحر الاحمر) وما يتصل به من بحر الهند ويعبر عنها بالطراز الاسلامي لانها على جانب البحر كالطراز له (قرأت في تاريخ نور الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي ان ساحل الصعلين يقال له أيضا الطراز الاخضر) قال في مسالك الابصار وهي البلاد التي يقال لها بمصر والشام بلاد الزيلع قال : والزيلع انما هي قرية من قراها قال الشيخ عبد المؤمن الزيلعي الفقيه : وطولها براً وبحراً خاصاً بها نحو شهرين وعرضها يمتد أكثر من ذلك لكن الغالب في عرضها انه متقارب مقدار العمارة فهو ثلاثة وأربعون يوما طولا وأربعون يوما عرضا. الى ان قال: ان بلادهم ليست بذات اسوار ولا لها فخامة بناء ومع ذلك فلها الجوامع والمساجد وتقام بها الخطب والجمع والجماعات وعند أهلها محافظة على الدين الا أنه لا تعرف عندهم مدرسة ولا خانقاه ولا رباط ولا زاوية وهي بلاد شديدة الحر والوان أهلها الى الصفاء وليست شعورهم في غاية الفلفل كما في اهل مالي

وما يليها من جنوب المغرب . وفطنهم أنبه من غيرهم من السودان وفطرهم اذكى وفيهم الزهاد والابرار والفقهاء والعلماء ويتمذهبون بمذهب أبي حنيفة خلا « وفات » فان ملكها وغالب اهلها شافعية .

وقال ان هذه البلاد تشتمل على سبع قواعد : الاولى «وفات» والعامة تقول اوفات ويقال لها أيضا « جبرة » والنسبة اليها جبرتي وموقعها بين الاقليم الاول وخط الاستواء. وقال الشيخ عبد الله الزيلعي : وطول مملكتها خمسة عشر يوما وعرضها عشرون يوما بالسير المعتاد وكلها عامرة آهلة بقرى متصلة وهي أقرب اخواتها الى الديار المصرية والى السواحل المسامتة لليمن وهي أوسع الممالك السبع ارضا وعسكرها خمسة عشر ألفا من الفرسان ويتبعهم عشرون ألفا فاكثر من الرجالة . والقاعدة الثانية «دوارو» وطولها خمسة ايام وعرضها يومان وهي على هذا الضيق ذات عسكر جم نظير عسكر اوفات في الفارس والراجل . والثالثة « أرابيني » وطولها اربعة أيام وعرضها كذلك وعسكرها يقارب عشرة آلاف فارس. أما الرجالة فكثيرة للغاية . والرابعة « هدية » بالهاء والدال المهملة والياء المثناة التحتية ثم هاء في الآخر وموقعها بين الاقليم الاول من الاقاليم السبعة وبين خط الاستواء وطول مملكتها ثمانية ايام وعرضها تسعة ايام وصاحبها أقوى اخوانه من ملوك هذه الممالك السبع وأكثر خيلا ورجالا واشد بأسا على ضيق بلاده عن مقدار اوفات ولملكها من العسكر نحو أربعين ألف فارس سوى الرجالة فانهم خلق كثير مثل الفرسان مرتين أو أكثر . والخامسة « شرحا » وطولها ثلاثة ايام وعرضها اربعة أيام وعسكرها ثلاثة آلاف فارس ورجالة مثل ذلك مرتين فاكثر . والسادسة «بالي» وهي تلي شرحا المتقدمة ولكنها أكثر خصبا وأطيب سكنا وأبرد هواء . والسابعة « دارة » وهي تلي بالي المتقدمة الذكر وطولها ثلاثة وعرضها كذلك وهي أضعف اخواتها حالا وأقلها خيلا ورجالا وعسكرها لا يزيد على الفي فارس ورجالة كذلك . انتهى ملخصا .

ثم ذكر ان هذه الممالك السبع هي كلها خاضعة « للحطي » او النجاشي سلطان امحرا . وان الملك فيها في بيوت محفوظة الا بالي اليوم فان الملك فيها صار الى رجل ليس من بيت الملك تقرب الى سلطان امحرا حتى ولاه مملكة فاستقل ملكا بها . قال نقلا عن مسالك الابصار : وجميع ملوك هذه الممالك وان توارثوها لا يستقل منهم بملك الا من أقامه سلطان امحرا واذا مات منهم ملك ومن أهله رجال قصدوا جميعهم سلطان امحرا وتقربوا اليه جهد الطاقة فيختار منهم رجلا يوليه فاذا ولاه سمع البقية له واطاعوا فهم له كالنواب وامرهم راجع اليه ثم كلهم متفقون على تعظيم صاحب اوفات منقادون اليه . ثم قال : وهم مع ذلك كلمتهم متفرقة وذات بينهم فاسدة ثم حكى عن الشيخ عبد الله الزيلعي وغيره انه لو اتفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم قدروا على مدافعة الحطي او التماسك معه ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف وافتراق الكلمة بينهم تنافس . ثم قال : وقد كان الفقيه عبد الله الزيلعي قد سعى في الابواب السلطانية بمصر عند وصول رسول سلطان امحرا الى مصر في تنجز كتاب البطريرك اليه بكف اذيته عمن في بلاده من المسلمين وأخذ حريمهم وبرزت المراسيم السلطانية للبطريرك بكتابة ذلك فكتب اليه من نفسه كتابا بليغا شافيا فيه معنى الانكار لهذه الافعال وانه حرم هذا على من يفعله بعبارات أجاد فيها . قال : وفي هذا دلالة على الحال . قال :

القلقشندي صاحب صبح الاعشى . قلت وقد كتب في أوائل الدولة الظاهرية « برقوق » كتاب عن السلطان في معنى ذلك وقرينه كتاب من البطريرك متى بطريرك الاسكندرية يومئذ وتوجه به الى الحطي سلطان الحبشة برهان الدين الدمياطي الخ ملخصا .

ثم قال : واهمل المقر الشهابي بن فضل الله في مسالك الابصار والتعريف عدة بلاد من ممالك الحبشة المسلمين منها جزيرة « دهلك » وهي جزيرة مشهورة على طريق المسافرين في بحر عيذاب الى اليمن وبينها وبين بر اليمن نحو ثلاثين ميلا . وملك دهلك من الحبش المسلمين . ومنها مدينة « عوان » على ساحل بحر القلزم مقابل تهامة اليمن واذا كان وقت الضحى ظهر منها « الجناح » وهو جبل عال في البحر . ومنها مدينة مقدشو قال في « مزيل الارتياب » وهي مدينة كبيرة بين الزنج والحبشة وهي على بحر الهند ولها نهر عظيم شبيه بنيل مصر في زيادته بالصيف وقد ذكر انه شقيق لنيل مصر في مخرجه من بحيرة كورا ومصبه ببحر الهند على القرب من مقدشو . ثم قال القلقشندي : وقد أتى الحطي ملك الحبشة على معظم هـذه الممالك بعد الثمانمائة وخربها وقتل أهلها وحرق ما بها من المصاحف واكره الكثيرين منهم على الدخول في دين النصرانية ولم يبق من ملوكهم سوى ابن مسمار المقابلة بلاده لجزيرة دهلك تحت طاعة الحطي ملك الحبشة وله عليه اتاوة مقررة . والسلطان سعد الدين صاحب زيلع وما معها وهو عاص له خارج من طاعته وبينه وبينه الحروب لا تنقطع وللسلطان سعد الدين في كثير من الاوقات النصرة عليه والغلبة والله يؤيد بنصره من يشاء . انتهى ملخصاً .

وقد حرر كثير من مؤرخي الافرنج ورحالاتهم كتباً عن الحبشة ملأى بوقائع الحروب بين مملكة الحبشة النصرانية وملوك الحبشة المسلمين كاصحاب هرر وبلاد الزيلع وكما انه وجد في ملوك الحبشة النصارى من قهر الاسلام واثخن في المسلمين وقتل وسبي واحرق ودمر كذلك وجد في امراء الاسلام هناك من كال لملوك الحبشة بكيلهم وازيد ومن اشهرهم السلطان سعد الدين هذا وأشهر منه الامام احمد بن ابراهيم الذى الف على غزواته وفتوحاته شهاب الدين احمد بن عبد القادر الملقب بعرب فقيه كتاباً ممتعاً اسمه فتوح الحبشة نشر الجزء الاول منه بنصه العربي المستشرق الفرنسي « رينه باسه » René Basset مع ترجمة للكتاب باللغة الفرنسية فهذا الامام الغازي احمد بن ابراهيم يصح أن يقال انه صلاح الدين يوسف الحبشة فقد والى الهزائم على الحبشة النصاري مع شدة باسهم وصعوبة مراسهم ووعورة جبالهم وكون بلادهم بقيت بكراً لم تطمثها قدم فاتح ولا ترقت اليها همة غاز فكان هو الذي أوغل في قلب بلادهم وملكهم من نواصيهم واستنزلهم من صياصيهم حتى قال المستشرق « باسه » ان اشهر دور من أدوار تاريخ الحبشه التي بقيت اخبارها محفوظة في اذهان الغربيين هو دور احمد جران (لقب الفاتح المذكور) الذي كاد أن يسحق نصرانية الحبشة ويبيدها كبلاد النوبة . وقد كان دخول البرتغاليين في هذه المعمعة هو الذي استجلب الانظار الى هذه القطعة من تاريخ المشرق وجاءت كتابات البرتغاليين والطليان موضحة لها فلهذا نقول : ان هذا الدور هو أصح ادوار تلك البلاد اخبارا لتضافر الروايات على وقائعه من كل جهة فقد انضمت الى المنابع الغربية المنابع الشرقية مثل الكتاب العربي الذي نحن ناشروه الآن (تأليف عرب فقيه) وكتب

مؤرخي الحبشة أنفسهم فيكون لدينا شهادات من جميع الامم التي اشتركت في هذه الحرب ونجد الغالب والمغلوب مدلين بالوثائق والبينات التي يكمل بعضها بعضا ويؤيد واحدها الآخر على اني اذهب الى كون الموقع الاول في غزارة التفاصيل هو للتأليف العربي الذي حرره شهاب الدين احمد عرب فقيه لا من جهة كونه اقل ميلا من غيره الى قومه بل من جهة كونه شهد بنفسه أكثر وقائع الامام غران فلهذا تجد في مؤلفه تفاصيل دقيقة موضحة لا تجدها في كتاب آخر من كتب المسيحيين على ان هؤلاء متفقون معه في الروايات عن الحوادث الواردة في كتابه».

ولقد روى عرب فقيه من خبر الامام احمد بن ابراهيم ما ملخصه :

كان للسلطان سعد الدين من الاولاد ابو بكر وبدلاي فبدلاي له ولدان أحدهما محمد بن بدلاي جد السلطان عثمان بن سليمان .

ولابي بكر ولدان أحدهما علي وهو جد السلطان بركات وحبيب . فعلي له أولاد منهم أظهر الدين وعبدالله محمد ومحمد له عمر دين . والولد الثاني لابي بكر اسمه آزر وهوجد السلطان محمد ابن ابي بكر بن محمد بن آزر بن أبي بكر بن سعد الدين .

والولد الثاني الذي لبدلاي بن سعد الدين اسمه شمس الدين وقد انقرضت ذريته وتولى البلاد السلطان محمد بن آزار بن أبي بكر بن سعد الدين ثلاثين سنة من القرن التاسع . وخرج السلطان محمد للجهاد فالتقى المسلمون والحبشان فكانت الدائرة لهؤلاء على المسلمين وقتلوا من المسلمين خلقا كثيراً . وعاد السلطان محمد الى بلاده فقتله صهره محمد بن أبي بكر بن محفوظ وملك البلاد بعده سنة فقتله ابراهيم بن أحمد صاحب بلاد هوبت وملك بعده ثلاثة أشهر فقتله «وسني» مملوك الجراد محفوظ وملك البلاد ثلاثة اشهر واسر بعد ذلك اسره منصور بن محمد وقيده وارسله الى زيلع وقتل في زيلع . وملك البلاد بعده الامير منصور بن محفوظ بن محمد ابن الجراد آدش وتحارب الاميرمنصور مع الجراد ابون سبع سنين واقام الحق وامر بالمعروف ونهى عن المنكر واستأصل قطاع الطرق وابطل الخمور واللعب والرقص وعمرت في زمانه البلاد وصلحت الاحوال . وكان احمد بن ابراهيم (مترجم عرب فقيه) يومئذ فارساً من فرسان الجراد ابون وكان ذا عقل ورأي وشور في صغره وكبره الهاماً من الله تعالى للامر الذي أراده الله على يديه وكان الجراد ابون يحبه حباً شديداً لما رأى من شجاعته وبراعته وكان السلطان أبو بكر ابن السلطان محمد بن آزر من ذرية سعد الدين قد جمع جموعا من الصومال وغيرهم وقاتل الجراد ابون فقتل الجراد ابون بن آدش وتولى السلطان أبو بكر البلاد ولكنه أساء السيرة في الرعية وظهر قطاع الطرق وحدثت امور أوجبت انكار العلماء والفقهاء من المظالم وشرب الخمور وكان الامام احمد (الغازي) في عسكر الجراد ابون كما تقدم فخرج هو وجماعة من رفاقه واجتمعوا في محل يسمى هوبت وكانوا نحو مائة فارس وامروا عليهم الجراد عمر دين فبينما هم كذلك اذ سمعوا بأن بطريقا من بطارقة الحطي ملك الحبشة من النصارى يسمى فانيل من أهل دواروا ومعه جماعة من البطارقة قصدوا بلاد المسلمين واسروهم وسبوا عيالهم ونهبوا مواشيهم . فسمع احمد بن ابراهيم بذلك فقصد جيش النصارى في مكان يسمى عقم وهو نهر عظيم كثير الماء فاشتبك الفريقان في قتال شديد انتهى بالدبرة على النصارى وقتل جماعة

من البطارقة وغنم المسلمون غنائم كثيرة ورجعوا فرحين مستبشرين الى محل اسمه زيله بقرب بلد السلطان أبي بكر بن محمد . فلما سمع السلطان بخبرهم وما فعلوه من الجهاد وحازوه من الغنائم انهزم هو ومن معه من الصومال الى بلد يسمى كداد من بلاد الصومال فقصدهم احمد ابن ابراهيم الى هناك فتلاقى الفريقان عند نهر يقال له قرن فاقتتلوا وانهزم السلطان ومن معه وقتل منهم جماعة . فانثنى احمد واصحابه راجعين الى بلادهم هرر من بر سعد الدين فلم يستقروا بالجلوس حتى جمع السلطان ابو بكر جموعا من الصومال وغيرهم وجاء بخيول وجيوش لايحسبها حاسب فاخلى احمد بن ابراهيم هرر وسار الى بلد اسمه هوبت زبرت واعتصم بجبل عظيم فيه فقصدهم السلطان بجموعه وحصرهم وضيق عليهم فنزلوا من الجبل وناجزوا السلطان القتال فانهزموا وقتل أميرهم عمردين ورجع احمد بن ابراهيم وأصحابه الى بيوتهم ودخل الناس واصلحوا بينهم . وما طال الصلح حتى غدر السلطان أبو بكر باحمد وجرده من خيله ورجله وقتل اميراً كبيرا اسمه عثمان بن يس ففر احمد من وجهه لاحقا ببلده زهكه وليس معه الا ثلاثة من الخيل فتلاقى مع غلام للسلطان اسمه عدوش بن محفوظ معه أربعة من الخيل فاخذها منه وخرج الى مكان اسمه شميح ومعه سبعة من الخيل فانضم اليه أمير يسمى جراد ابو بكر ابن اسماعيل ثم وصل اليه الامير حسين الجاتري فقصدهم السلطان بعساكره فلم يزالوا من بلد الى بلد يغير السلطان عليهم ويغيرون عليه فحدثت بين الفريقين وقائع عديدة انتهت بظفر احمد ابن ابراهيم ودخوله هرر فاقام الحق وأزال المنكر وصاح المنادي كل أحد يلزم بيته وكل على عادته ولا تخافوا ولا تحزنوا . ولكن السلطان عاد فجمع الجموع من الصومال وغيرهم وقصد احمد للقتال فرتب هذا عساكره وزحف اليه فاعتصم السلطان بجبل اسمه حون فدخل الناس من الاشراف والفقهاء بينهم بالصلح على ان السلطان يكون سلطانا على حاله واحمد بن ابراهيم يكون من تحته ويلقب بالامام والبلد بينهم بالسوية فارتضى احمد بذلك حقنا للدماء واقام ببلدة سيم واقام السلطان بهرر . وأما وجه تسمية احمد بالامام فاشهر رواية فيها ان رجلا اسمه سعد ابن يونس العرجي رأى النبي (ص) وعن يمينه ابو بكر الصديق وعن يساره عمر بن الخطاب وبين يديه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وبين يدي علي بن أبي طالب احمد بن ابراهيم فقال الرائي لهذه الرؤيا يارسول الله من هذا الرجل الذي بين يدي علي بن أبي طالب فقال صلى الله عليه وسلم هذا رجل يصلح الله به بلاد الحبشة. وكانت هذه الرؤيا والامام حينئذ جندي ولم يكن الرائي يعرفه من قبل . فوصل هذا الرائي الى هرر في زمان الجرادابون فقص رؤياه على اهل البلد فقالوا له هذا الذي رأيته في منامك فقال لا فلم يزل يتولى البلاد امير بعد امير الى ان جاء الرائي في زمن احمد بن ابراهيم فلما رآه عرفه وقال لاهل البلد هذا الذي رأيته في الرؤيا بين يدي علي بن أبي طالب فسماه الناس الامام . وقيل ان بعض المشايخ رأى في المنام الولي الصالح احمد بن محمد بن عبد الواحد القرشي التونسي والشريف الولي ابا بكر ابن العيدروس وهما يقولان لاتسموه السلطان ولا الامير ولكن سموه امام المسلمين .

وبدأ من ذلك الوقت الامام احمد بن ابراهيم يغزو الحبشة النصارى لانهم كانوا في زمان سعد الدين وفي زمان من تولى بعده وفي زمان الجرادآبون يغزون بلاد المسلمين وقد خربوها مرارا كثيرة وكان بعض المسلمين يؤدون لهم الخراج فلما ظهر الامام احمد منعهم من ذلك وكان

يجلس لاقامة العدل ويرفق بالمساكين ويرحم الصغير ويوقر الكبير ويعطف على الارملة واليتيم وينصف المظلوم من الظالم ولا تأخذه في الله لومة لائم .

ثم اختلف الامام مع السلطان أبي بكر وتجددت الحرب فقتل السلطان وانفرد الامام بالامر وأقام عمر دين أخا السلطان محل أخيه . وغزا النصارى بلاد المسلمين وكان عليهم بطريق كبير من الجبابرة اسمه دجاجان صهر الملك وتحته بطارقة كثيرة فوصل الى اطراف بلاد المسلمين وخربها ونهب أموالهم وسبي حريمهم وسبى أم أمير من امراء المسلمين اسمه الامير أبو بكر قطين . فسار الامام اليهم بعسكره فالتقى الجمعان في موضع يقال له الدير (بكسر الدال) وكانت واقعة شديدة انتصر فيها المسلمون وأسروا نحو خمسمائة أسير وعاد الامام الى بلده منصورا محبورا . وكان عمره مع كل ذلك يومئذ احدى وعشرين سنة لا غير. ثم توالت غزواته منها غزاة الاطجار وغزاة قيجي وغزاة وانباريه في داوارو وغزاة افات التي كانت فيها امرأة الامام مع زوجها . وكانت واقعة هائلة غنم فيها المسلمون ما لا يحصى وسبوا نساء كثيرة منهن بنت خالة الملك فوهبها الامام الى وزيره عدلي ففداها ملك الحبشة بخمسين أوقية من الذهب الاحمر . واستولى الامام بعد هذه الواقعة على انطوكية ودخل كنيستها العظيمة ومعه زوجته دلونبره بنت الامير محفوظ وجم غفير من الامراء مثل الامير حسين الجاترى صاحب دوارو بعد الفتح والامير علي صاحب عنقوت بعد الفتح والجراداحروش وكوشم ابو بكر والشيخ الزاهد حامد ابن الزاهد الفاضل شيخ واشره ثم خرب الكنيسة وأحرقها . وقصد الامام بلدة جندبلة وهي بلدة يملكها ملك الحبشة ولكن أهلها مسلمون فتلقوا الامام بالفرح والسرور وأعانوه بعشرين أوقية من الذهب وقالوا له نحن نعطي هذا الذهب لزوجتك دلونبره فرفض الامام ذلك وتوسط الامير حسين الجاتري والوزير عدلي والجراد دين والامير علي صاحب عنقوت في أن يقبل الامام هذه الهدية لزوجته فاصر الامام على الرفض وقال لا يحل هذا وأنفقها على الجهاد واشترى بها ١٠٠ سيف وشهدوا بها وقعة شنبز كوره (أول رجب سنة ٩٣٥ هجرية) .

وسار الامام من جندبله في طريق حار دليله فما دري هو وجيشه الا وهم وسط شجر مشتبك أصبحوا لا يقدرون معه ان يتقدموا فأمرهم الامام بقطع الاشجار فما زالوا يقطعون منها حتى خرجوا الى الطريق الواضحة ووصلوا الى الدير فقسم فيها الغنائم وعاد الى هرر مؤيدا منصورا . ثم استنفر قبائل الصومال للجهاد فكانت أول قبيلة لبت نداءه « هبرمغدي » مع مقدمهم احمد جري بن حسين الصومالي فوصلوا الى هرر بعدتهم وخيولهم وسر بهم الامام سرورا عظيما . ووصل بعدهم قبيلة جري ومقدمهم عثمان بن عثمان بن خالد الصومالي فاظهروا آلاتهم وسلاحهم وتنكبوا قسيهم وركبوا جيادهم وكانت معهم أخت الامام فردوسة وهي امرأة كبيرهم . ثم طلعت قبيلة زربه ومقدمهم السلطان محمد بن عمة الامام ومعه من الرجالة الصناديد الف وستون رجلا وتخلفت قبيلة مريحان بعدم استقامة مقدمها حرابو فعزله الامام وأمر عليها ابن أخيه فجاء منهم نحو ثمانمائة مجاهد بين فارس وراجل . وبعد ذلك تهيأ الامام لقصد بلاد الحبشة وجهز الجيوش وانفق الاموال وباع حتى حلي لنسائه واثاث بيته وخرج بجيوشه ومعه امرأته دلونبره وكانت حاملا ووصلوا الى زيفه فتلقاهم الجراد دين

ابن آدم وكان رجلا صالحا فاضافهم واكرمهم وكذلك الجراد شمون والجراد كامل عسين الامام والامير مجاهد فاكرموا الامام اكراما زائدا . ووضعت امرأة الامام في زيله غلاما سماه محمدا وتاخرت بسبب الوضع عن المسير وبقيت في زيله عند مؤنسة اخت الامام . وسار الامام قاصدا ملك الحبشة « وناج سجد » وهو في أرض بادقي فاخذ ملك الحبشة يجمع جموعه قبائل التجري أو التيغري وقبائل آقوا وقبائل قجام وأهل المنقوت وأهل جن وأهل قده وغيرهم وانقلبت الحبشة باسرها وكان بطارقة التجري أربعة وعشرين بطريقا كل منهم تحته جيش عظيم . وكان من جملة البطاريق بطريق اسمه عثمان بن دار علي كان مسلما وكان ابوه مسلما اسره الاحباش في زمان السلطان محمد فارتد وصار بطريقا وولد له أولاد كثيرون نصارى ثم في آخر عمره عاد الى الاسلام وجاهد واستشهد . ثم ان ملك الحبشة ما زال يحشد الجيوش ويستفز القبائل لملاقاة الامام وبقي ينتظره في امحره كما ان جيوشا اخرى كانت معبأة في بادقي . وكان الامام قاصدا كنيسة بادقي ناويا احراقها والاحباش يقولون لا يصل الى الكنيسة حتى نقتل عن آخرنا . وقيل ان خيل الحبشة كانت ١٦ الفا والرجالة كانت نحو مائتي الف لذالك طالت الوقائع في شبز كوره وكانت أيام للمسلمين وأيام للنصارى وعبى الامام احمد جموعه هكذا : السلطان محمد بن السلطان علي ابن خالته والشيخ أنس ابن الشيخ شهاب بن عبد الوهاب وقبيلة « زمن برة » وقبيلة « برزرة » وقبيلة « يقله » وقبيلة « جاسار » وقبيلة «عرب تخا» وقبيلة « القي » وغيرهم من قبائل الحرله في الميمنة . وقبيلة « جري » وقبيلة « مريحان » وقبيلة « يبري » وقبيلة « هرتي » وقبيلة « جران » وقبيلة « مزر » وقبيلة « برسوب » وكلهم صومال في الميسرة وكل قبيلة بأميرها . وكان الامام في القلب ومعه أعيان الفرسان مثل الامير حسين الجاتري والامير زهربوي محمد . وفرشحم علي والوزير نور بن ابراهيم والامير مجاهد وفرشحم السلطان وعبد الناصر والشيخ داود وأبو بكر قطين وفرشحم دين والجراد احمدوش وصبر الدين وجاسا عمر والجراد عثمان بن جوهر الخ وجمع خمسمائة من الابطال ممن حضروا الحروب والغزوات وأمرهم بان يلازموه . وضم اليهم ثلاثمائة من قبيلة هرتي من الصومال واربعمائة من قبيلة يبري لشدة صلابتهم وكان الثلاثمائة من أهل السيوف والاربعمائة من أهل القسي . ثم التقى الجمعان وكان المسلمون كالشامة البيضاء في جلد الثور الاسود . وقام الامام يخطب في المسلمين ويحرضهم على الجهاد وقرأ : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » . فحينئذ قال له المسلمون دعنا نحمل عليهم . فمنعهم الامام من الحملة وقال لهم اثبتوا مكانكم ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم به واشرعوا الرماح واستتروا بالدرق ولا تخطوا بارجلكم خطوة واحدة الا وانتم تذكرون الله . ثم حمل الحبشة على المسلمين من جهة الميمنة حملة رجل واحد فصبر المسلمون لهم وحملت ميمنة الحبشة على ميسرة المسلمين من الصوماليين وحملت قبائل التيجري والبطارقة على القلب الذي فيه الامام واختلط الجمعان واستمر القتل فانكشفت ميسرة المسلمين التي فيها الصومال وقتل الحبشة منهم ثلاثة آلاف واسروا كثيرا وانحاز من ثبت منهم الى القلب . وأما ميمنة المسلمين من الحرله فتكاثر عليها الحبشة ايضا

وزلزلوها فاتحازت ايضا الى القلب فحمل الحبشة بأجمعهم على القلب ودامت الحرب من الضحى الى العصر الاخير فرد الامام الحبشة على أعقابهم وقتل منهم الوف وامتلأت الارض من جثث القتلى وضج المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وولى الحبشة الادبار والمسلمون يتبعونهم يقتلون ويأسرون فقتل من بطارقتهم البطريق رو بيل من بطارقة التيجري قتله أرعدي من خدمة الامام . وقتل البطريق عقبا أخوه وكان من أبطالهم قتله الامام بنفسه طعنه بالرمح في صدره فخرج السنان يلمع من ورائه وقتل بطريق سيري شوم قتله الجراد دين، وقتل البطريق زمنجان ا بن عم البطريق وسن سجد قتله الوزير عدلي، وقتل بطريق محنطي زماه رجل من الصومال مقدم الرماة فقتله . وقتل بطريق زونجيل قتله عبد الرازق بن سوحه أخو الامير مجاهد ، وقتل بطريق شوم عجامية ، وقتل بطريق النبتين وقتل بطريق حمدو قتله رجل اسمه آدامو ا . وكان جملة من قتل من الحبشة عشرة آلاف ومن البطارقة مائة وأربعة عشر . وكل بطريق تحته الف فارس أو خمسمائة أو مائتان وعرقب المسلمون من خيل الحبشة في المعركة ستمائة فرس . وكانت جملة من قتل من المسلمين من الصومال ومن الحرله ومن المساي ومن العرب خمسة آلاف ختم الله لهم بالشهادة . وغنم المسلمون غنائم لا تحصى وأسروا بطريقا كان صهرا للملك اسمه تخلي مدحن ففدا نفسه بخمسمائة اوقية من الذهب الاحمر .

وبعد هذه النصرة الطائلة أراد الامام ان يسير المسلمين الى قلب بلاد الحبشة ويجهز على الباقي من جيشها فشكا له المسلمون ما حل بهم من الجهد وطلبوا الجمام فعاد الامام الى بلده واستراح شعبان ورمضان ونصفا من شوال ثم نهض غازيا الى جهة دوارو فدخلها من جهة نهر الوبي وهو نهر كبير يكثر فيه التمساح وطواهش كثيرة يسكب في البحر المالح من ناحية مقدشو وقسم الجيش الى فرقتين فرقة عليها الوزير نور بن ابرهيم والفرقة الثانية قادها الامام بنفسه فوصلوا الى الجواتر وقاتلهم بطريق ادل مبرق فهزموه وأسروه ويقال ان الذي اسره كان رجلا اسمه تكية قد قطع الامام يده اليمنى ورجله اليسرى في حق الله تعالى فبلغ من شجاعته ان اسر البطريق وهو مقطوع اليد والرجل. وغزا الامام بلد راس بليات فاتفق مع بطريقها على أن يقدم له الضيافة وبعض هدايا والامام لايتعرض له . ثم تقدموا الى بلد اسمه مصيعب فخربوها وخلوها رمادا وساروا الى بلد اسمها « مي فلح » ونهبوها وكان رجل اسمه راجح اصله مسلم تنصر وأعطاه ملك الحبشة أرضا وصار يغير على أطراف بلاد المسلمين فلما قرب الامام من أرضه أرسل اليه الامام قائلا : أنت مسلم وابن مسلم ومجاهد بن مجاهد من أول الزمان وقدر الله بالذي كان فتب وارجع الى الاسلام وكن أخانا ولا تقنط من رحمة الله . فلما وصل اليه الرسول . قال له : كم فعلت وقتلت ونهبت من المسلمين وأخشى اذا رجعت ان تأخذوني بما فعلته . فراجعه الامام قائلا قد عفونا عنك فارجع فارسل راجح يقول : ارسلوا لي أميرا بجيوش كثيرة حتى أدلكم على أموال العدو فذهب اليه الوزير عدلي ومعه جيش فقتلوا واسروا ونهبوا وعادوا وراجح معهم . وحصلت بعد ذلك عدة غزوات والفريقان يبديان من ضروب الصبر وصدق اللقاء ما يندر مثله في التواريخ . وعاد الامام الى هرر ثم جمع جموعه وقصد بلاد الحبشة وجمع هؤلاء جموعهم وتلاقوا في محل اسمه انطاكيه وكان المسلمون خمسمائة فارس وعشرة آلاف راجل فاجتمع عليهم من الحبشة ستة آلاف فارس ومائة الف راجل

وكانت مع الامام مدافع وأسر الامام عشرة من شجعان رجاله وهم الامير زحربوي واحمد جويتا والامير علي والجراد احمد بن لاد عثمان والامير ابو بكر قطين وتكية السابق الذكر مقطوع اليد والرجل بان يسيروا معه الى جهة « بالي » وكان عسكرهم قد آذى المسلمين كثيرا وأمر بأن يأتوا له بمدفع وأمر مقدم المهرة من العرب بأن يضرب عليهم بالمدفع فضرب فماج بعضهم في بعض فحمل عليهم المهرة والمشاي فهزموهم وذهبوا في طريق أخرى ولم يرجعوا الى بطريقهم . وكان تكية مقطوع اليد والرجل قال للامام في بلده : ان شاء الله هذا السوط الذي في يدي اضرب به فارسا من الكفرة وانزله عن فرسه وآخذ فرسه . وكان الامر كما قال ففي ذلك اليوم ضرب فارسا حبشيا بسوطه ورماه عن فرسه وغنم فرسه . ثم ان الحرب دارت رحاها وانتهت بفوز المسلمين وأشبهت وقعة صمبر كوري في كثرة من قتل فيها من الاحابيش . واحرق المسلمون كنيسة انطاكية وغنموا غنائم لاتحصى وكان ذلك في الخامس من رجب سنة ٩٣٧ هجرية . واوغل بعدها الوزير عدلي في بلاد الحبشة واثخن فيها . وكان ممن أسره اثنان من كبار الحبشة عرضا فدية أنفسهما الواحد بمائتي أوقية ذهب والآخر بمائة اوقية فرفض الوزير الفداء وقتلهما وأقام أياماً بارض جنبه ثم سار الى ارض شرخه وتلاقى فيها مع الوزير اور واسروا وسبوا . وكان من جملة السبي امرأة البطريق ازماج واولاده . فلما علم هذا باسرهم دخل وأسلم فردوا عليه امرأته واولاده واسلم كثير غيره . وبعد ذلك وصل الامام ومعه وزراه الى عندورة وفيها كنيسة لوسن من أعظم كنائسهم واغناها فاحرقوها ونهبوا ما وصلت اليه أيديهم .

فجمع ملك الحبشة جموعاً أخرى وأمر عليهم بطريقا اسمه تخلي سوس وكان معه ثلاثون بطريقا من التجري فجاء اثنان من المتنصرة أحدهما اسمه عمر والآخر اسمه سكوكانا ارتدا عن الاسلام واقطعهما ملك الحبشة بلداً يأكلان خراجه فلما وصل الامام بجيوشه الى قرب بلدهما دخلا على الامام وطلبا العفو ودلاه على عورات النصارى فتصدهم الامام وتلاقوا في واد فحمل المسلمون على النصارى وكان اول من حمل منهم صبر الدين صاحب وشلة بعد الفتح ودخل وسطهم ومن بعده علي الورادي وعبد الله بن ناصر الدين الحموي وآدش بن ماعي وانتضى هذا سيفه وضرب به رأس البطريق تخلي سوس ضربة ابانت رأسه عن جسده وحمل سائر المسلمين فانهزم الاحباش وقتل منهم البطريق اسلامو قتله أبو بكر بن جراد يماج واسر بطريق مرجاي والبطريق شوتلاي أسرهما فرشحم علي ثم اسلم شوتلاي وحسن اسلامه وقتل في الجهاد وكذلك اسلم بطريق مرجاي وجاهد في صفوف المسلمين . واسر في ذلك اليوم البطريق كفلي والبطريق اسير واسر البطريق جرجيس صاحب قجام وكان جملة من قتل من البطارقة الكبار مائة وثلاثون واما فرسانهم ورجالهم فقتل منهم الوف وغنم المسلمون خمسمائة فرس وكثيرا من الاثقال . ثم سار الامام في أثر المهزومين الى عواش ومنها الى دل ميده ثم الى حميت وقسم الامام الغنائم وفرق الخيل والبغال على المجاهدين ثم سار الامام من حميت الى قنبورة وسوق دوارو وكان أهل سوق دوارو مسلمين يدفعون الخراج لبطريق دوارو . وفي تلك الاثناء تشاور أهل دوارو بعضهم مع بعض وقر رأيهم على مهادنة الامام وكف الحرب ولو نديهم النجاشي لم يطيعوه وان يبقى كل منهم على مملكه ودينه ومن أراد منهم الاسلام فله ذلك

فكف عنهم الامام وقبل هداياهم وسار الى الامام فوصل الى ارض الماية ودخلوا المرزير من أرض الماية . وكان فيها كنيسة عظيمة فأحرقوها وكان نجاشي الحبشة على مسافة يومين من هناك فعلم ان الامام يقصده فزحف الامام الى ارض بادقي ظانا ان ملك الحبشة يخرج لصده فيقاتله . فلما وصل الامام الى نهر دوخم نظروا نارا تشتعل في وسط بادقي فاستدعى الامام بطريق حبيب الذي كان أسلم وصار معه فسأله عن موضع هذه النار فقال له هذه قرى الملك فقال له هل تعرف سبب هذا الحريق فقال له نبيت هنا ولا نلبث أن يأتينا الخبر واذا بتجار مسلمين يسكنون بادقي اخبروا ان الملك كان في ارض جبرجي فلما علم بقرب وصول المسلمين أرسل بطريقا من بطارقته وقال له : سر الى بادقي وحرق بيوتي وبيوت اخواني قبل أن يسبقك المسلمون اليها فيحرقوها ويقولوا حرقنا بيت الملك اما الكنيسة فلا تحرقها اذ لا يحل لنا تحريقها في كتبنا . فلما كان الغد ارسل الامام سرية عليها فرشحم علي فاحرقوا كنيسة بادقي وكان في شراريفها ذهب ومن فوقها صليب من الذهب الاحمر . وسار الامام وجيشه الى « انموتنه » وهي قرية الملك نفسه وكان له فيها بيت فيه تصاوير كصورة الاسد وصورة الآدمي والطيور فدخل المسلمون البيت وحرقوه وعين الملك تنظر وكان بينه وبين البيت مرحلة واحدة فاصابه من الحزن أشد مما أصابه لتحريق بيوته في بادقي وبكى وجمع الجموع وعبى الجيوش وسار الى قتال المسلمين وكان نهر عواش فاصلا بين الفريقين وكان فياضا لا يقدر أحد ان يقطعه فاخبرت طلائع المسلمين الامام بان النصارى وصلوا الى نهر عواش فارسل الامام عبد الناصر صاحب جنز وبشاره وشمعون وصبر الدين وعلي ورادي ومعهم ثلاثون فارسا يستقصي أخبار الحبشة فوصلوا الى النهر فوجدوهم على شاطئه من الجانب الآخر ومعهم الملك بنفسه فتشاتموا بالكلام ولم يصل أحد الى الآخر . ثم رجع النصارى الى أرض «ورب» وجلسوا فيها وانبث المسلمون في الاطراف ينهبون الكنائس وكان فيها من الذهب والفضة والنفائس مالا يقع عليه احصاء فوقعت كلها في أيدي المسلمين واحرقوا الكنائس . ثم تجاوز المسلمون عواش بعد أن قل ماؤه ووصلوا الى جبرجي وحرقوا بيت الملك فيها فانحاز الملك الى « نزارجيح » من أرض الداموت ووافاه بطريق كبير اسمه « وسن سجد » كان معظما عندهم يسمونه ابا الساكين ويخافونه أكثر مما يخافون الملك فقال للبطارقة كيف ترضون أن يفعل بكم المسلمون هذه الفعائل وقد مات آباؤكم وأجدادكم وما فعل بهم أحد من المسلمين مثل ما فعل هذا الرجل يعني الامام وما هذا الا من ظلمكم وجوركم فسلط الله عليكم هؤلاء المسلمين أخربوا عليكم بلاد دواروا وفطجار وبادقي وبرارة وحرقوا الكنيسة التي فيها بطرككم والتابوت الذي فيه جسد البطرك الخ فلما سمعوا كلام وسن سجد هذا قالوا له مربما شئت فنحن نقاتل المسلمين ونموت بين يديك فقال لهم مضى مامضى فكونوا بعد الآن رجالا ثم كتب الى الامام كتابا يقول له فيه : اما بعد انتم المسلمون ونحن النصارى وقد كنا نسير الى بلادكم ونخربها ونحرقها والآن فقد ادال لكم الله علينا والنصر لا يدوم كل يوم والآن يكفيك ما فعلت وارجع الى بلادك وأنت تقول في نفسك انك هزمت الملك في صمبر كوري وتقول فعلت في انطاكية وفعلت في ازري فلا تغتر بنفسك فان الملك صارت عنده جيوش كثيرة ما رأيتها ولا سمعت بها فارجع الى بلدك بغنيمتك وذهبك والافالميعاد بيننا وبينك يوم السبت ظانا الذي قتل أخاك الجراد ابون ابن الجراد ابراهيم .

وهو اكبر منك وهزمت جيشه وفعلت ذلك مرارا ولا تظن انني مثل من لقيت من البطارقة؟ فلما وصل هذا الكتاب الى الامام كان الامام مريضا فقال الامراء الذين بين يديه لرسول البطريق وسن سجد : اما ما خوفتنا به من لقائنا يوم السبت فقد اعلمنا مشايخنا ان قتالك يكون يوم السبت وان القتال هو بغيتنا ومرادنا وهذه البلاد لسنا بتاركيها حتى نأخذ الحبشة بأسرها ان شاء الله . فرجع الرسول وأخبر البطريق بما سمع فداخله الخوف والجزع وارسل الى الامام مرة اخرى يقول : انني ما تكلمت بكلامي الاول الا خوفا من الملك والبطارقة ولقد أعلمني الرهبان انني ساقع في يدك فاذا وقعت فارحمني . فلما جاء رسوله واخبر الامام بذلك ضحك الامام وقال له ، قل له ، اذا صرت في أيدينا رحمناك ،

وفي الثالث والعشرين من رمضان سنة ٩٣٧ تعافى الامام من مرضه ونوى أن يقصد ملك الحبشة في أرض الداموت فراوده من معه عن ذلك فلم يسمع لاحد كلاما وزحف واول ما حط في بلدة زرارة وهي بلدة كبيرة يسكنها التجار من نصارى مصر ونصارى الشام ومن تولد منهم بارض الحبشة يسكنها لطيب هوائها . ثم تقدم منها الى ويز وهي أيضاً مدينة عظيمة فيها سوق ليس في الحبشة مثلها وجاءت جواسيس للامام تخبره ان الملك دخل ارض الداموت وان البطريق وسن سجد رجع الى وراء في ارض وج كانه يتهدد بلاد المسلمين . فمضى الامام يطلب الملك فاعتصم الملك بجبل مانع له طريق واحدة لاغير وعبى جموعه في الجبل ووكل بمدخل الطريق الواحدة رجلا اسمه أورعي عثمان بن دار علي وكان مرتدا فجاء المسلمون وهاجموهم وتساق فريق منهم الجبل قاصدين الملك في مكان ظن ان لن يصلوا اليه ففر الملك وجيشه قاصدين بلاد وج والمسلمون في أثرهم ثم قصدوا بلادشوا لاخذ خزائن الملك واحرقوا كنيسة اند قبطن وكنيسة داردبى . وخضع للامام أهل شوى واهل ورب وادوا الجزية وصالحوا على بلادهم ووصل الامام الى برارة فقدم له اهلها الطاعة والضيافة . وهطلت في هاتيك المدة الامطار الغزيرة واشتدت العواصف وكل هذا لم يثن الامام عن عزيمته في متابعة الجهاد وارسل من احرق كنيسة دير لبانوس على شاطيء نهر اورمه وهي من أعظم وأقدس كنائسهم . وما زال طول هاتيك المدة يضيق على الملك وهو يفر من وجه الامام من مكان الى مكان ومعه اربعون رجلا من الافرنج . ولكن البطريق وسن سجد تلاقى مع المسلمين واشتدت الحرب وجرت عدة وقائع وتبارز البطريق وسن سجد مع فارس من أمراء المسلمين اسمه الجراد عابد فطعن البطريق الجراد عابدا بالرمح طعنة نافذة في يده اليسرى وكان عليه عدة مانعة فخرج السنان من يده ومن العدة واراد البطريق ان ينزع رمحه فانكسر في يد الجراد عابد فاراد أن يسل سيفه ويضرب الجراد عابداً فكان هذا قد ضربه في رأسه ثم ثنى فاسقطه عن جواده فقال له لاتقتلني أنا وسن سجد فنادى الجراد عابد اصحابه ان وسن سجد قد سقط فنادى المسلمون الاحباش ان رئيسكم وسن سجد قد مات فانهزموا وأخذ البطريق يصيح وهو في الارض صريع : النخ بلا ، النخ بلا . اي انا حي . ولكن الحبشة كانوا انهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون واجهز الجراد عابد على وسن سجد فعاتبه الامام فيما بعد قائلا له : لم قتلته قبل ان أنظره ؟ فاجابه : قلت له أريد ان اوصلك الى سيدي فاضطجع الى شجرة هناك وابى وقال اقتلني في مكاني هذا وشتمني فقتلته . وبعد هذه الواقعة امر الامام بالاسارى من البطارقة

فكانوا ثلاثين بطريقاً فقتلهم منهم البطريق جان نهد الذي أسره الوزير عدلي والبطريق قاسم وكان مسلماً مرتداً ولاه الملك جان اموره بين التجري والعنقوت ، وكان من أشد البطارقة اذى للاسلام اسره رجل من الصومال من قبيلة مثان . ومنهم بطريق هنه • ومنهم بطريق إسمه جبر اندرياس عمره تسعون سنة مابقي ارض في الحبشة من زمان الملك ادماس الي اسكندر الي ناود الي ايام الملك وناج سجد الاتولاها .

قال شهاب الدين احمد الملقب بعرب فقيه : فلما قتل وسن سجد افتتحت البلاد وذلت جيوش الكفرة واسلم اكثرهم كما سيأتي ذكره ، ثم وصل الامام الى جان زلق فهرب أهالي البلد الى بلد شجره فارسل الامام بعض من أسلم من الاحباش فنصحوهم فجاءوا الى الامام واسلموا. وأرسل الوزير عدلي الى « زقالة » والى « لال بلا » فسبقه الامير مجاهد ونهبهم فاسلموا . فلما وصل الوزير وجدهم مسلمين . فسار الوزير عدلي الى « عواش طبوا » فاسلم أهلها • وسار الامام الى ارض انطيط وكان هنالك كنيسة للملك اسكندر مملوءة ذهباً فحط المسلمون عندها وأخذوا ما فيها من الذهب ثم احرقوها . وفر اهالي جان زلق الى الجبال ولم يسلموا فارسل اليهم الامام خالداً الواردي وكان يعرف مسالك بلادهم فقال لهم : تعرفون اني اعرف جميع بلادكم فاسلموا قبل أن نقاتلكم • فتشاور بعضهم مع بعض وقالوا ان لم نسلم نحن وقد أسلم أكثر الحبشة يرسل الينا الامام جيشاً يأخذنا كلنا ولا يفلت منا أحد . فقدموا على الامام هم وأهل قوت وأسلموا جميعا . وأسلم من البطارقة بطريق دلو وبطريق دبلي وبطريق اسمه حيزو وحسن اسلامهم وشهدوا المشاهد التي كانت بعد . ولما أسلم اهل قوت كانوا الف فارس وأربعة آلاف راجل كان معهم بطريق اسمه ايبس لحطي ابى أن يسلم وقال اناماجئت لهذا ولا أفارق ديني الذي مات عليه آبائي وأجدادي فقال له الامام : أنت أحسن من هؤلاء الذين اسلموا ؟ . فقال البطريق : هؤلاء بدو لايعرفون دينهم ولا دينكم فاذا اسلموا لاعار عليهم اما انا فاذا أسلمت يعيرني الناس عند الملك والرهبان . فقال له الامام : لا تفعل فانت كبير النصارى وبيننا وبينك مصاهرة . وذلك لأن جارية الامام هاجرة كانت ابنة عمه • فبقي أسيراً ولكنه على دينه فقام البطارقة الذين أسلموا وقالوا له أسلم والا نقتلك افأنت أحسن منا فأسلم وجلس مع الامام ثلاثة أشهر فلما غزا الامام امحرا هرب ولحق بالملك ورجع الى النصرانية ثم أمر الامام على جان زلق الجراد عثمان بن جوهر وعلى أهل قوت خالداً الورادي فسار اليهم وأسلم نساؤهم وأولادهم وحسن اسلامهم . ثم سار الامام الى بلد شجرة فتقبله الجراد نصر وقال له : بلادنا كلها أسلمت ببركة الله تعالى وببركتك . فقال له الامام : امرتك على الذين أسلموا وأما الذين لم يسلموا فسر اليهم وائتني بهم فسار اليهم وقتلهم واتى ببطريقين اسيرين فقال لهما الامام : كل البلاد أسلمت فما لكما لا تسلمان . فابيا الاسلام . فقال الامام: حكمنا بضرب اعناقكما • فقالا : مرحبا . فتعجب الامام من كلامهما وأمر بقتلهما •

وامر الامام أميراً اسمه شمسوان يسير الى افات ويفتحها فسار اليهم وقهرهم وحصرهم في الجبال فاسلموا واحرق المسلمون كنيسة للملك المتقدم اسكندر كان فيها ذهب كثير وانجيل ورقه من الذهب لا يحمله الا رجلان • وسار الامام الى ابونه فاسلم اهلها ومعهم بطريقهم اسلامو . فلما سار الامام الى امحرا ارتد البطريق ولحق بالملك أما عسكره فقد جلسوا على

الاسلام وقاتلوا مع شمسو عامة فتوح الحبشة . وكان اورعي عثمان المرتد في افات. فلما رأى جيوش الامام اقبلت وايقن ان قد احيط به قال لعساكر : أنا أقاتل المسلمين ولا يدخلون بلادي . ولكنه من جهة ثانية ارسل الى الامام سراً يقول : انا مسلم وابن مسلم اسرني المشركون ونصروني وقلبي مطمئن بالايمان والآن أنا جار الله وجار رسوله وجارك ان تقبل توبتي ولا تؤاخذني بما عملت وهذه الجيوش التي معي أحتال عليهم حتى يدخلوا عليك ويسلموا. فاجابه الامام : اذا فعلت هذا فقد قال الله تعالى : قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر الله لهم ما قد سلف . لا تخف ولا تحزن . ويكون الميعاد بيننا وبينك ارض طويية فاني سائر اليها . وأرسل اليه الامام مسبحته للامان وطيبة لنفسه . وبعد أيام جاء اورعي عثمان ومعه مرتدان آخران من صبيان الامام يريدان الرجوع الى الاسلام ومعهم نحو عشرين الف نسمة من الحبشة من رجال ونساء واولاد فدخل اورعي عثمان على الامام وقبل يده وطلب العفو فتقبله الامام تقبلاحسنا وقال له : لا تخف ولا تحزن وقل للعسكر اسلموا . فاسلموا جميعهم من الظهر الى المغرب ومعهم نساؤهم وأولادهم وكان فرشحم علي في دبر برهان فارسل اليه الامام أن يسير الى ارض « تقلت » والى وقدة والى مجر ويقاتل أهل هذه البلدان أو يسلموا ففعل فرشحم علي ما امره به وسار الامام الى « جدم » فاسلم أهلها باجمعهم.

أما ملك الحبشة فقطع الامل من استرجاع البلاد التي ذهبت من يده وانهزم الى بيت امحره اصل المملكة وجمع حوله ما بقي من قوته . وكان هنالك كنيسة اسس بناءها الملك ناود ابو الملك وناج سجد اشتغل ببنائها ثلاث عشرة سنة ثم خلفه ابنه فقام يجهد في عملها أحسن مما جهد أبوه وبقي يتمم بناءها خمسا وعشرين سنة. وكان طولها مائة ذراع وعرضها مائة ذراع وعلوها مائةوخمسين ذراعا وكلها بالذهب مرصعا بفصوص الجواهر واللؤلؤ والمرجان وكان قبرالملك ناود ابن ادماس بن زراقوب فيها. فلما فرق الملك جيوشه الى ابواب المدينة دخل هذه الكنيسة فنظر اليها يمينا وشمالا وقال : هؤلاء المسلمون يريدون أن يحرقوا هذه الكنيسة وهي دار ملكي ودار الملوك المتقدمة . فقال له من معه : المسلمون لا يصلون الى هذا أبداً ونحن نقاتل دونها حتى نموت .

أما الامام فارسل احد امراء جيشه « جويته نور » الى بلد كسايه من أرض جدم وكان بها كنيسة عظيمة فيها الف راهب فنهبها واحرقها . وأرسل اناسا الى بلد جن يدعوهم الى الاسلام فاسلم بعضهم . ثم وصل الى الامام رجل من النصارى اسمه « وسن جان » ومعه خمسمائة من أهل الدرق الابيض فاسلموا . وما زال الامام يجد في اثر ملك الحبشة حتى أدركه ودارت بينهما الوقعة المسماة بوقعة واصل فانهزم الملك ومن معه وقتل من رجاله خلق كثير وبلغ الامر به ان فر بنفسه شريداً ماشيا على رجليه ومعه خمس جنائب تقاد أمامه بألجمتها وعددها وذلك من وعورة الطريق . وذهب الامام من طريق أخرى هو وأصحابه وقد ترجلوا من صعوبة الطريق أيضا . ومر الجراد عثمان بن جوهر وأورعي عثمان من على مقربة من الملك وهم لا يعلمون به وهو قد اختفى في شجرة في تلك الاوطار الى أن مر المسلمون فقر قاصدا بلد العنبا واحتوى المسلمون على غنائم لا تحصى ووصلوا الى خيمة الملك وهي منصوبة كما هي وفيها سريره وسلاحه وفرحوا فرحا عظيما وكانت هذه الواقعة في ١٦ ربيع الاول سنة ٩٣٨

ودخل الإمام بعدها بيت امحره في أيام برد شديد مات فيه بعض عسكره من شدة البرد وكان العسكر يطعنون الماء المتجمد بالحديد حتى يكسروه . ولما وصل الى كنيسة امحرا العظيمة التي سبق الكلام عليها دخل اليها هو والمسلمون فاعترتهم الدهشة مما شاهدوا فيها من بدائع الصنعة وروائع العظمة ووفرة الكنوز ونهبوها وبات الامام بجانبها واستدعى من كان معه من العرب وسألهم هل يكون في الروم أو في الهند أو غيرها مثل هذه الكنيسة ؟ فأجابوه لا نظن في الدنيا مثلها . وكانت بجانب الكنيسة ثلاثة بيوت للملك يسكنها وكانت فيها عجائب لمن نظرها فجلس الامام في أحدها وأعطى بيتا الى الامير احموشه والامير ابي بكر بن قطين وجعل البيت الثالث مسجدا . وأما الوزير نور فوصل الى كنيسة أتروس مريم ووصل آخرون الى كنيسة بيت سمايات التي بنتها أم الملك وآخرون الى كنيسة دبر نقدقاد وكان الملك ادماس قد بناها وهو مدفون فيها كما ان ام الملك مدفونة في كنيسة بيت سمايات فانتهب المسلمون جميع هذه الكنائس وأخرجوا منها من احمال الذهب والفضة والديباج والحرير ما يعجز وصف الواصفين وأحرقوا الكنائس ووجدوا في كنيسة بيت سمايات أربعة رهبان لما شبت النار بها دخلوا اليها واحترقوا معها . ووصل عبدالناصر الى كنيسة يقال لها جنت جرجس من بناء الملك اسكندر فلم يجد فيها شيئا لان أهلها كانوا اخذوها معهم فحرقها . وأرسل الامام الذين من أصحابه الى بلد « واله » فوجدوا فيها أربع كنائس منها كنيستان مصفحتان بصفائح الذهب فجعلوا يقلعون الذهب بالقداديم . وأرسل الامام سرية الى جبل العنبا وهو جبل يسكن فيه أولاد الملوك ومن عادتهم انه اذا ولد للملك ولد ذكر أصعدوه الى هذا الجبل وبقي فيه حتى لا يكون خلاف في الدولة فاذا مات الملك انزلوا من يريدون توليته من ابناء الملوك من هذا الجبل وولوه الملك . وهو جبل لايصعد اليه الا بالسلالم فوقعت هناك مقاتلات انهزم في آخرها المسلمون وقتل اورعي عثمان وعلي ورادي والجراد متان الصومالي وعبد الله بن ناصر الدين الحموي واسر الجراد احموشه . وكانت هذه الهزيمة لاربع عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة ٩٣٨ ورجع المنهزمون الى الامام واخبروه بما جرى فحزن لاسيما على صهره متان واسترجع وبكى ولكنه أراد ان يعاقب المنهزمين فربط أكابرهم فرشحم علي والجراد احمدوش ومائة فارس معهم وأراد قتلهم فشفع فيهم الفقهاء والامراء فحلوا كتافهم ولكنه قال لابد ان تسيروا الى جبل العنبا وتقاتلوا فقال الامراء للامام اتريد أن تخلص الجميع في ذلك المكان الضيق فان كنت تريد ان تهلك الجميع فسر أنت بنفسك على انه ان أعطاك الله النصر وفتحتها لم تجد الا أولاد الملوك اذ ليس فيها شيء غير ذلك ونحن والحمد لله صار عندنا مال مثل التراب والاولى ان نرجع الى الوراء ونجتمع مع الوزير عدلي والجيوش التي خلفاها في قطبجار . فانقاد الامام لنصيحتهم ورجع وسار يريد عنقوت فحط في بحر حيق وهو عذب الماء في وسطه جزيرة وفي وسط الجزيرة كنيسة وبساتين فيها ألذ الفواكه وكان الامام أرسل الامير زهربوي محمد ابن عمه والوزير مجاهداً وعبد الناصر وحيشه والجراد صديقاً واورعي احمد وضم اليهم ثلاثمائة فارس فتقاتلوا مع الحبشة عند كنيسة دبرازهير ونهبوها وأخذوا منها من الكنوز ما لا يحصى عدده . وكان لها من التاريخ يوم أحرقوها سبعمائة وعشرون سنة .

أرسل الامام الى أهل جزيرة بحر حيق يدعوهم الى الطاعة ويأمرهم بتسليم الاسير المسلم الذي عندهم .

وكان من قصة هذا الاسير انه غزا مع السلطان محمد فلما انهزم المسلمون في « دل ميده » وقع أسيرا فلما علم الملك انه من حشم السلطان محمد ارسله الى تلك الجزيرة وأمرهم أن ينصروه فتنصر وبقي عندهم ١٦ سنة وقلبه مطمئن بالايمان . فهذه المرة ارسل الامام رسولا سبح في البحر حتى وصل الى الجزيرة فرماه أهلها بالحجارة فقال لهم : لا ترموني أنا رسول ، فقالوا له : انت رسول هذا الساحر أي الامام فكلمنا من بعيد . فبلغهم الرسالة فاجابوه : قل لسيدك لا نعطي الجزية ولا الطاعة ولا نفك الاسير يفعل الذي يقدر عليه عرفنا انه يطلع الجبال بالخيل والرجال أما هذا فبحر . فرجع الرسول وأخبر الامام بما وقع فجمع الاشراف والعرب والمغاربة والمهرة وقال لهم : نحن ما نعرف أيها العرب الا البر والجبال وأما البحر فهو شغلكم تعرفون اموره فطلب منه العرب الاخشاب والحبال فجمعوا لهم أخشابا كثيرة ونحو عشرة آلاف حبل فشدوا بها شيئا يقال له الرمس (ارتمس في الماء انغمس فيه) وأنزلوه فسار سيرا بطيئا فقال لهم الامام لا تصلون بهذا السير الى قرب الجزيرة حتى يكونوا اهلكوكم بالحجارة والنشاب . فاحتالوا للسرعة بشيء آخر وهو انهم وضعوا تحت الخشب قربا فسارت مثل السهم ففرح الامام وقال هذا ما كنت أريد . وأمر مقدم المهرة احمد بن سليمان المهري ان يركب البحر هو وأصحابه وأردفهم بغيرهم من الجيش وكان أهل الجزيرة قد نظروا تجربة الارماس وعلموا أن المسلمين واصلون اليهم وقالوا هذا من شغل العرب ومعهم المدافع واذا خالفنا أمرهم أخذونا عنوة ، فعولوا على طلب الامان وأرسلوا الاسير في سنبوق ليلا فاوصله رجلان منهم وعادا في الليل فلما أصبح الصباح شاهده الامير ابسهانور عند صلاة الصبح فقال له من أنت فقال : أنا حرب ارعد بن اورمي حبر الدين الاسير في الجزيرة ، فاخبر الامام بخبره فامر بدخوله فلما رآه الامام بكى شفقة عليه لما رآه من تغير حاله بالاسر وبكى الاسير ثم أبلغه ان أهل الجزيرة خافوا من شغل العرب وهم يطلبون الصلح على شرط انك لا تقتلهم ولا تحرق كنيستهم فقبل الامام ذلك وقال له : ارجع اليهم وقل لهم يكون ذلك . فرجع الاسير وأخبرهم وأشار عليهم بان يرسلوا الأبون الذي عندهم (الرئيس الديني) ويعقد لهم الامان . فركب الابون سنبوقه وجاء الى الامام وأراد ان يقبل الارض فمنعه الامام وقال له : يا خسيس لا تسجد للناس . ثم قال له : تكلم حاجتك . فقال : جميع الرهبان يريدون أن تعطيهم الامان على أنفسهم وكنيستهم . فقال الامام بشرط ان لا تخفوا المال فقال : السمع والطاعة انا اذهب الى الجزيرة واجيء بالمال . فقال الامام : لا نأمن لكم ولا بد ان يذهب اصحابي الى الجزيرة ويأتوا بالمال . فقال الابون : اذا كان لا بد من دخول أصحابك فاوصهم بان لا يغيروا على كنيستنا ولا ينقضوا عهدك . فقال له الامام : اذا اعطيتك الامان انا ولا أحد يقدر ان ينقض عهدي : فامر الامام زهربوي محمدا بان يذهب ومعه رجال من العرب والمهرة والمغاربة وأوصاه بان لا يفعل شيئا سوى نقل المال . فكان من الذهب والفضة حمل مائة رجل وأصاب كل رجل من المسلمين ثلاثمائة أوقية ذهب وفضة وارسلوا الى الامام الارمسة ثلاث مرات مشحونات وبايس في الواحد منها أكثر من خمسة رجال مع

انها يسع الواحد منها ١٥٠٠ رجلا . فرأى الامام أموالا هائلة وقسمها فسهم أعطاه للعرب وسهم اعطاه لزحربوي ولعسكر بحر والسهمان الباقيان فرقهما على جيوش المسلمين . ثم سار الامام الى بيت امحرا وذلك لانه كان بقي فيها كنيستان فاراد ان يحرقهما احداهما مكان مريم والاخرى دبتره مريم فوصل الى امحرا وأحرقهما . وذهب منها الى حنبورة حيث جلس لمرض الشريف أحمد القديمي الذي كان معه فبقي معه الى ان مات رحمه الله وصلى الامام عليه . وارسل الامام الوزير عدلي الى دوارو فوصلوا الى نهر عواش فوجدوه ملآن وفي جانبه جيش الحبش فجعلوا يرمون المسلمين بالسهام في الليل فقام من أبطال المسلمين الجراد شمعون وقال نحمل في الماء وخيولنا تسبح فيه وحمل هو وخيله في الماء وحمل المسلمون من ورائه والحبشة يرمونهم بالنشاشيب الى ان خرجوا الى الجانب الآخر . فدخل الجراد شمعون وسط صفوفهم وهو يجندل أبطالهم وحمل معه أصحابه فانهزم الاحباش وقتل منهم ثلاثمائة وخمسون . ثم جاءتهم من الاحباش كرة اخرى فتقاتلوا قتالا شديدا وانهزم هؤلاء وقتل منهم نحو ١٥٠ رجلا ثم اعادوا الكر ثالثة فانهزموا وقتل منهم نحو ٥٠ رجلا .

ثم سار الجراد شمعون الى « دبر برهان » فصادفه البطريق جرجيس فاقتتلوا قتالا شديدا وقتل من الحبشة الوف . أما الامام فكان سار الى بلد ملك الحبشة وهزمه هو وبطارقته وسبى نساءهم وفر الملك برأسه . وعاد الامام بالغنائم الى معسكر الوزير عدلي . وكان هذا سار الى دبر برهان فلما وصل الامام احب الوزير عدلي ان يعرض امامه الجيوش لانهم كانوا في وسط بلاد الحبشة وعليهم جواسيس للعدو فاستحسن الامام رأيه وجاء الوزير عدلي بخمسين راية وكل راية يقدمها من الجرادات والامراء فكان عدد خيل الوزير يومئذ ثلاثة آلاف فارس لابس وثلاثة آلاف فارس غير لابس وكان عدد اصحاب التروس البيض عشرين الف تراس وكان عدد أهل القسي مثلهم وكان مع الامام خمسة آلاف فارس كلهم لابسون بتجافيف التماسيح والتطبيقة المثقلة بالذهب لا تظهر منهم الا احداق عيونهم من الدروع . ودخل أصحاب عدلي في الصف الاول من الصومال مع مقدميهم والتقوا مع الامام وسلموا عليه وداروا ناحية الى جنب المحطة . ودخل الصف الثاني من أهل القطبحار والماية وأهل شوا ومن دخل في الاسلام وسلموا على الامام وداروا ناحية جنب الصف الاول . وجاء الصف الثالث وفيه الوزير عدلي والامير حسين والامير شمعون واورعي نور وكانوا خمسين أميرا في عدد عديد وزرد نضيد فجعلهم صفا بعد صف لكثرة جيوشهم فتواجهوا مع الامام وسلموا عليه وجلسوا وتحدثوا فبكى الامام بكاء السرور . وكان من يوم فارقهم الامام الى اليوم الذي واجههم فيه سبعة اشهر واخرج الامام الغنائم من الذهب والفضة والحرير وفرقها وكثر الذهب بين أيدي الناس حتى صار البغل يباع باربعين اوقية من الذهب لكثرة الذهب وابتذاله وكان الرجل يعطي صاحبه مائة اوقية الى مائتي اوقية من الفضة فلا يرضى بها .

ولما رجع الامام الى دير برهان ارسل ملك الحبشة البطريق راس بنيات وكان من اعاظم البطارقة وامره بكبس افات والقبض على اورعي ابون الذي كان فيها . وكان الامام ارسل الى افات الوزير عباس مع نجدة فتلاقى الفريقان في كساية وانهزم البطريق ومن معه . ثم شاور الامام اصحابه فيما يصنع فقال بعضهم ان البلاد ما اسلمت من نهر عواش الى نهر وبي

وكذلك ارض بالي والجنز والوج فالرأي أن اسير اليها . فقال لهم الامام : ان اهل افات وجلم وشيجره اسلموا فاذا سرنا عنهم وتركناهم بلا عسكر فقد يرتدون . فقالوا له : المهم هو البلاد التي نقصدها لا التي نحن ايها . فوافقهم الامام وساروا الى ارض الماية وبعد قتال شديد في الجبال والاوعار قاتل فيه الحبشة بالسهام المسمومة التي تقتلهم وتغلب عليهم المسلمون فاسلموا وارسل فرشحم علي الذي كان قائد الحملة في جهة الماية بكتاب الى الامام يقول فيه ان اهل « مايه » اسلموا وكذلك ارض « زقاله » وبلاد « سجتوا » و « ارحتلو » و « شجن » أسلموا جميعهم ففرح الامام فرحا شديدا . وكذلك كان أرسل عبد الناصر الى « سجنز » وقال له قاتلهم او يسلموا أو يعطوا الجزية . وأرسل الوزير مجاهدا الى ارض « وج » والي « جبرجي » وقال له : قاتل وانا سائر من ورائك . فاهل وج وجبرجي اعطوا الطاعة وادوا الجزية واما بطريقهم « اسلام دحر » والبطريق الآخر « وينداب » صهر الملك فأبيا ان يسلما . فاما وينداب فسار بمائة وخمسين فارسا لاحقا ببلاد الداموت وأما اسلام دحر فارسل الى الامام ولده وبطريقا اسمه عسبو ليتكلما مع الامام في الصلح وكان عسبو فصيحا لبيبا فقال للامام : هذا ولد البطريق اسلام دحر وانا صهره جئناك على ان لا تخرب بلادنا ولا تحرق كنائسنا ونؤدي الجزيه ونبقى على ديننا . فرضي الامام بهذا منهما فاظهرا رغبتهما في الاسلام بعد ذلك فقال لهما الامام : قولوا نشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله . فاما البطريق فقالها وحسن اسلامه . وأما ولد البطريق اسلام دحر فقال انا لا أسلم حتى تحلف لي انك تتخذني ولدا فضحك الامام من قوله وقال له : اسلم انا افعل لك ما اردت كله . فقال لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم انه كان معهما ثلاثون فارسا فاسلموا جميعا . واما « تسفو » مقدم بلاد المايه فارسل الى الامام قائلا : لا تخرب بلادي فاني اسلمت على يد فرشحم دين . فأمنه الامام وقدم عليه هو والفي راجل من الرماة فاكرمهم الامام واقر تسفو على امارته . وجاء الوزير مجاهد مع اهل وج الذين اسلموا ووصل فرشحم دين بعد الوزير مجاهد ومعه من اسلم على يده وهم اهل ستة بلدان بفرسانها وبطارقتها وكانوا الوفا فسجد الامام لله شكرا ودعا لفرشحم دين . واما عبد الناصر فاقر الجزية على الذين فتح بلادهم وبعضهم تحصنوا بالجبال فسار الى « كنبات » وقاتلهم وقتل منهم خلقا كثيرا الى ان اقر الجزية ورجع الى « جيطو » من اطراف بلاد هديه فقاتلوه فقاتلهم الى ان اقر الجزية .

اما الامام فكان في أرض وج صام فيها رمضان وافطر في « جراجي » وارسل جيشا فيه عدة أمراء تحت قيادة الامير حسين الى دوارو فدخلوا ارض زري ثم ارض وطمات وكان هناك ساقو ابن البطريق وسن سجد وغيره من البطارقة فانهزموا من وجه المسلمين . ودخل ساقو أرض « جان زجرة » فتعقبوه اليها فانهزم الى عتوت لاحقا بالملك وأخبره بما فعل المسلمون فحزن جدا . اما الامير أبو بكر فانه دخل جان زجرة وخربها وأحرق كنائسها ثم سار الى ارض « جراوراري » وحط فوق نهر « بور » فدخل عليه بطريق جراوراري والبطريق « روبيل » والبطريق « وسن جش » والبطريق « تيدروس » واسلموا جميعا وحسن اسلامهم . وكذلك اسلم الجزاد هزو وتحصن خمسة من البطارقة في الجبال فقاتلهم الامير

أبو بكر وأسرهم هم ونساءهم وأولادهم.

واما الامير حسين والوزير عدلي فدخلا أرض جاتر فجاء أهل « ادل مبرق » اليهم وأسلموا جميعا. وكذلك أهل « اراولده » و « وان » و « أجبيت » و « ارقوي » كل هذه من أرض دوارو فاسلموا جميعا.

اما الامام فسار من جراحي مسيرة يومين وحط فوق بحر زواي وهو بحر ماؤه عذب تسير فيه سفاينهم مسيرة ثلاثة ايام وفيه ثلاث جزائر كل جزيرة فيها ثلاث كنائس فاراد الامام غزو هذه الجزر فقال له المسلمون دع البحر الآن وسر الى أرض هديه فجاء صاحب هديه وهو مسلم من الاصل وكان يؤدي جزية الملك الحبشة وكان يقدم كل سنة بنتا من أبكارهم جميلة للملك يأخذها وينصرها. فلما دخل صاحب هديه على الامام مع جنده قال أنا مسلم وأنتم مسلمون. فأكرمه الامام وخلع عليه وهو واهل بلده اضافوا العسكر فسألهم الامام بصنعهم الذي كانوا يصنعونه وهو أن يصطفوا كل سنة بنتا لحسنها وجمالها ويقدموها للملك النصارى. فقالوا له: انه حكم على آبائنا الاولين وحكم علينا ان لا نلبس عدة الحرب ولا نمسك السيف ولا نركب الخيل بالسروج وحكم ان نعطيه البنت فكنا نعطيه مخافة أن يقتلنا ويخرب مساجدنا وكنا متى جاءنا الذي يريد أخذ البنت غسلناها وكفناها بثوب وحسبنا أنها ميتة وأعطيناه اياها فانا وجدنا آباءنا يعملون ذلك ففعلنا فالآن اتانا الله بكم وقد هزمتم الذي يحكم علينا وقتلتم جيوشه فنحن نجاهد معكم. فسار الامام الى ارض « أي فرس » ومعه صاحب هديه وأرسل « احمد جويتا » الى « شرخه » فأسلم أهلها. وسار الامام الى جاتر فأسلم أهل جاتر. وأهل « جان جي » وهم خلق كثير. وأسلم عثمان بن تخلي وكان أبوه مسلما فارتد في أيام السلطان محمد فعاد هذه المرة الى الاسلام هو وأخوه خالد ومعهما عدد عديد جدا من الفرسان والرجالة فولى الامام ارض جاتر شهابا وولى الامير عمر ارض «استرجاتر» وفرق خمسين أميرا على البلاد التي فتحها. وجلس الامام في «عندوره» وارسل عبد الناصر الى «جبينه» وقال له: لا يسعك غيرها لان معك جيوشا كثيرة. وبينما الامام في عندورة ارسل اليه البطريقان « سيمو » و « صبرو » انهما معه لا مع أهلهما ويطلبان منه جيوشا حتى يقاتلا فيها فارسل الامام الى الوزير عدلي والامير حسين بالمجيء بجيوش كافية فحضرا اليه فبلغه ان الاحباش خربوا بلاد هديه وبلاد جنز فاعاد عبد الناصر الى جنز وجعل صبرو في هديه واسلم البطريق صبرو على يد الامام وأرسل الامام وزيره عدلي الى بالي وولاه عليها فسار اليها ومعه من ابطال المسلمين الوزير عباس ابن اخي الامام والجراد احمد جويتا واورعي قاط عمر والجراد احمد وش بن محفوظ وفرشحم سطوت وفرشحم علي واورعي احمد بن هرجاي محمد وحامد بن سوحه. ثم لما بلغ الامام ان صاحب بالي في قوة عظيمة أرسل عبد الناصر صاحب الجنز والجراد صديق صاحب شرخه وصاحب هديه مددا للوزير عدلي وكان دليلهم البطريق صبرو الذي اسلم وكان فارسا مشهورا ووافاهم البطريق سيمو واسلم ايضا. فارسلوا الى بطريق بالي ينصحونه ان يخضع لئلا يندم ويخوفونه بكثرة جيوش الاسلام فاجاب بانه لا يسلم ولا يؤدي الجزية وانه حاضر للقتال وامر صاحب بالي جنوده أن يخرجوا للحرب ومعهم نساؤهم واولادهم وتلاقى الجمعان في بلدة زلة واما المسلمون فكان على ميمنتهم الوزير عباس والجراد عثمان وعلى الميسرة عبد الناصر

واصحابه وفي القلب الوزير عدلي واصحابه وفي المقدمة ابسما اور وصبر الدين البطل المشهور . واما صاحب بالي فصف الكروس قدام الخيول وركب فرسه وقام في وسط القلب كأنه برج من حديد وجعل نساءه وراءه وعليهن زينتهن وفعل سائر البطاريق مثل فعله . ولما اختلط الجمعان حمل فرشحم علي على بطريق بالي حتى اقتلعه من سرج فرسه وضرب به الارض وسقطا معا فنهض فرشحم علي واستل خنجرا كان معه وقطع رأس البطريق فلما رأى الحبشة زعيمهم قد قتل ولوا الادبار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل من الحبشة عدة الوف وكانت اسماء المسلمين حمان ايضا وراء رجالهن وهن على بغالهم فكانت المرأة منهن تقول بعد الوقعة اسرت اربع نسوة وتلك تقول خمسا وتلك تقول ستا او سبعا . وكان جملة البطارقة الذين قتلوا مائة بطريق منهم البطريق اسحق قتله ابسما اور . وايب بطريق جانر وكان شيطانا شجاعا قتله البطريق سيمو الذى اسلم . وبطريق لبمو صاحب شرخة قتله الجراد احمد وش بن محفوظ . والبطريق غفاني قتله حبشي أسلم . وقتل زمنكر ابن بطريق بالي قتله تماش ابون . والبطريق مجن قتله البطريق صبرو الذي اسلم مع سيمو . واسر نحو مائتي بطريق منهم « ازاج زخره » وكان من خواص الملك . ومنهم البطريق نقدية وكان مسلما مرتداً . ومنهم البطريق جرجيس ومنهم ابن دحرجويته . وقتل من الرجالة والفرسان ممن لم تعرف اسماؤهم ثلاثة آلاف . وملك الله المسلمين خيولهم ومتاعهم ونساءهم وأولادهم وما ملكوا جميعا . وحط الوزير عدلي في بيت البطريق عدلو في زله وسأل هل بقي من البطارقة أحد فقالوا نعم وعدوا له خمسة بطارقة . قال الآن اين يكونون . قال البطريق سيمو : ما يقصدون الا ارض « قاقية » عند البطريق ايدبس فارسل الوزير البطريق سيمو ومعه أربعون فارسا فلقيهم مختفين في الاشجار فاسروهم وأخذوا معهم خمسين فارسا . وكان الوزير عدلي لما سار الى بالي ارسل الامام الجراد « جوشو » ابا بشاره الى باب دارة وقال له الذي يخرج من بالي لا يفلت منك لأنه لاطريق الا من هذا الباب فكان ما توقع وهو ان خمسة بطارقة ومعهم ستون فارسا قصدوا العبور وهم منهزمون فما شعروا الا والمسلمون عند الباب فاسروهم وضربوا أعناقهم وقطع الجراد جوشو رأس البطريق « حجه » وأرسل به الى الامام لان الامام كان يتحرق عليه غضبا اذ كان ارسل الى الامام يقول له اريد ان اسلم فارسل اليه الامام رسولا فقتله ولحق بارض بالي فلما وقع هذه المرة في يد الجراد جوشو قتله وارسل برأسه الى الامام ففرح به . ولم يكن وصل اليه خبر انتصار الوزير عدلي في بالي فلما رأي الامام الراس قال للرسول : من أين لكم صاحب هذا الراس . فقال الرسول : اما جاءكم الخبر من الوزير عدلي بما جرى . فقال الامام : وماذا جرى . فاخبره الرسول بالنصر العظيم الذي من الله به . فصلى الامام ركعتين شكرا وخلع على البشير خلعة تامة وجلس في الفلاة وأمر بضرب النقارات والطبول . ثم وصل بشير الوزير عدلي بتفصيل خبر المعركة وهو يسأله كيف يفعل بالاسارى ونساء البطارقة وأولادهم فاجابه : أما البطارقة ونساؤهم وأولادهم والخيول التي غنمتموها فاخرج خمسه وفرق الباقي على المجاهدين . واما امرأة البطريق عدلو فخذها لك ومن أسلم من البطارقة يكون معك ومن لم يسلم فاقتله . واما نقدية المرتد فاشنقه بباب البلد زله . واما خارج وازاج زخره وجرجيس وابن دحرجويته فارسلهم الي . ثم ارسل الامام الى البطريق سيمو سيفا من الذهب الاحمر فيه ٢٠ اوقية على مقبضه وذلك لما فعل

من الجبل وكونه لم يغدر. فانفذ الوزير امر مولاه وفرق الاموال ونساء البطارقة واخذ امرأة البطريق عدلو لنفسه . وارسل الى الامام الاسارى الذين طلبهم فامر بضرب أعناقهم . وأما خارج المرتد فشفع به المسلمون وقالوا للامام : هـذا قد تربى في بيتك وهو صغير وقد تاب . فعفا الامام عنه . اما اهل بالي فاسلموا باجمعهم بعد هـذه الواقعة . وكانت واقعة بالي يوم الجمعة يوم الحج الاكبر سنة ٩٣٨.

ثم ارسل الامام الوزير مجاهدا الى أرض وج فقاتله بطريقها « اسلام دحر » صهر الملك اسكندر ومعه ثلاثون بطريقا بجنودهم فهزمهم . وقتل اسلام دحر ومن معه من البطارقة واطاعت وج سهلها وجبلها وارسل الوزير مجاهد بخبر الفتح الى الامام وهو في جراجي . وكان ملك الحبشة أرسل بطريقا اسمه « أيكر » ومعه جيش الى بلاد جنز فقصده عبد الناصر من أرض هديه وهزمه وأسر عسكره ولم يفلت الا البطريق وحده واسلم العسكر الذين وقعوا في يد عبد الناصر وحسن اسلامهم وشهدوا فيما بعد عامة الوقائع . وأرسل الامام قائدا اسمه يعقيم الى ارض ورب فاجتمع الحبشة تحت قيادة بطريق اسمه ا كايل وقاتلوا يعقيم فهزمهم وقتل منهم الف رجل وكتب الى الامام بالفتح وسأله ماذا يفعل فاجابه بأن يأخذ من أهل ورب جزية سنوية مقدارها ١٥ الف حمل من الحنطه والف اوقية ذهب والف كدوجة من العسل والسمن. فاطاعوا على ذلك وجلس يعقيم في بلادهم .

فبعد فتح الامام لبلاد دوارو وبالي وهديه وجنز ووج وورب وفطبجار وافات وما حولها لم يبق خارجا من طاعته الا قدر ثلث الحبشة فارسل الامام الى بر سعد الدين بطلب امرأته وأمر المجاهدين بان يطلبوا نساءهم ويسكنوا ببلاد الحبشة ففعلوا وبعث الوزير عدلي الى بلاد الداموت ففتحها وهزم بطارقتها وفتح بلاد جافات وغنم غنائم لا تحصى . ثم جمع الامام الامراء في دبر برهان ، وقال لهم : قد انفتحت بلاد الحبشة ولم يبق الا بلاد التيجري وعدر والتوجام فاما أن نسير اليها واما أن نجلس في هـذه البلاد سنة حتى نقررها . فاشار بعضهم بالجلوس سنة واحـدة حتى تتقرر الاحوال وقال الآخرون مثل الوزير عدلي وعبد الناصر والوزير مجاهد وزحر بوي محمد لا بل الاحزم أن نقصد ملك الحبشة من الآن لاننا في قوة ومنعة . فقبل الامام رأيهم وسار بجيوشه من عدة طرق وجرت معه وقعة بقرب بيت امحره أخذ فيها أربعة آلاف مع بطريقهم ابن دجلجان فعرض عليهم الاسلام فاسلموا ولبثوا مع الامام الا ان ابن دجلجان فر فيما بعد.

ثم سار الامام الى جبل العنبا الذي تقدم ذكره وهو الذى يحفظون فيه اولاد الملوك ولا يمكن الصعود اليه الا بالسلالم وكان المسلمون عجزوا عنه أول مرة فحط الامام على هذا الجبل وأمر ملك الحبشة جميع جيوش التيجري ان تقاتل الامام دون هـذا الجبل فقاتلهم الامام نحو شهرين وما زال حتى فتح الحصن الاول والصخور والحجارة من فوق المسلمين مثل البرد تقع عليهم . وكان مع النصارى واهل التيجري مدافع وبنادق وكان يضرب لهم بالمدافع رجلان من المسلمين أحدهما عربي اسمه حسن البصري والآخر عبد أصفر تركي كان عند الامام ثم تنصر ولحق بالحبشة . ولكن الامام كان أرسل الى زيلع فاشترى مدفعا كبيرا من نحاس ومدفعين صغيرين من حديد وجيء بها على الجمال الى جنب الجبل ثم حملتها الرجال الى محلة الامام لان الجمال

كانت لا تقدر على السير في تلك الاوعار وكان مع المدافع مهتاران من الهنود فضربا بالمدافع واشتد القتال وكان حسن البصري يضرب بالمدافع على المسلمين فلما رأى الامام أن لا سبيل الى أخذ الحصن الثاني امر بالرحيل وقصد بلاد التيجري ومر بكنيسة اسمها « لا ليلا » وهي كلها منقورة في الصخر وأعمدتها من الصخر وفيها صهريج ماء منقور في الصخر وليس في هذه الكنيسة خشب سوى التماثيل والتوابيت فاحرق الامام ما فيها من التماثيل . وسارت طلائع المسلمين مع مقدمها شمسو مسيرة يومين حتى بلغت نهر حرار وكان الاحباش عبروه وتركوا أثقالهم ومعها بنت أخت ملك الحبشة فوصل المسلمون وأخذوا الاثقال وبنت اخت الملك وعادوا بها الى الامام فتسرى الامام بنت أخت الملك وولدت له . ثم قدم الامام القائد شمسو فسار يومين فتلاقى مع الاحباش وهم في عدة عظيمة ومن جملة ما معهم حبال كثيرة هيأوها لربط المسلمين فهزمهم شمسو وقتل منهم ثلاثة آلاف وربط كثيرا منهم بحبالهم . وزحف الامام الى الأمام واستشهد معه زهربوي محمد بحربة مسمومة فحزن عليه حزنا شديدا وهزم العدو وحط عند كنيسة مارية . وولدت له زوجته هناك ولدا سماه احمد النجاشي وكان أول ولد ولد في التيجري ثم سار فحط في « قرقاره » وهي كثيرة البر والعسل فاقام الامام بها . وسرح جيوشه تغزو البلاد فتلاقى المسلمون مع العدو في أرض التلبين فهزمهم وقتل منهم ثلاثة آلاف وسار يريد مدينة اكسوم فحط في ارض « ارمدة » .ودخل عليه اناس من مسلمي بلاد التيجري من قبيلة بلو وقالوا له : ان الاحباش اجتمعوا بجبل هناك . فقسم جيشه قسمين وقصدهم وأفنى منهم اكثر من عشرة آلاف حتى امتلأ السهل والوعر بجيف القتلى ونهبوا من مواشيهم ما لا يقع تحت حصر . ووصل الخبر الى ملك الحبشة ان المسلمين دخلوا الى التيجري وأخربوها فبكى وحزن حزنا شديدا وجمع جميع بطارقته وجيوشه وسار الى اكسوم وأخرج الصنم الكبير من كنيسة اكسوم وهو حجر أبيض مرصع بالذهب ومن كبره لم يمكن اخراجه من الباب بل نقبوا من الكنيسة على قدره وأخرجوه وحمله اربعمائة رجل وذهبوا به الى حصن اسمه تابر . وسار الامام قاصدا اكسوم فمر بثلاثة حصون صالحه على الجزية أهل حصنين منها فخلاهم . وقاتله أهل الحصن الثالث فقهرهم وقتلهم عن آخرهم . وفر ملك الحبشة الى « مزجة » وسلطانها مسلم اسمه مكتر . فارسل هذا الى الامام يستصرخه قائلا: ادركني قبل ان يقتلوني فجد الامام في السير حتى ينقذ مسلمي مزجة ومر بكنيسة اباسا مثيل وكان فيها خمسمائة راهب فقتلهم جميعا وصادف جمعا من الحبشة مقبلين لنجدة الملك فاستأصلهم . ووصل اليه من السلطان مكتر رسول يخبره بان النصارى ضيقوا عليه وقتلوا كثيرا من رجاله وثلاثة من اولاد اخته وهو ينتظر وصول الامام فارسل اليه الامام انه قادم اليه ففرح فرحا لا مزيد عليه وخرج وهو مريض وركب فرسه ولبس درعه وسار يلاقي الامام ومعه خمسة عشر الف مقاتل من النوبة . فنزل الامام بجيشه عند السلطان مكتر فاضافهم عشرة ايام . وبلغ ملك الحبشة ان الامام صار الى هناك فانهزم بجيشه الى أرض قبجام . وسار الامام وراءه فبعد مسيره بثلاثة أيام مات السلطان مكتر فاخفت اخته « جوة » خبر موته عن العساكر وأرسلت تخبر الامام بموته فولى الامام ابنه نافع مكانه وهو صغير بكفالة عمته وكانت تدبر الامور في حياة أخيها . ثم تقدم الامام الى أرض الدنيه وسأل عن ملك

الحبشة فقالوا له ذلك من ثمانية ايام . فسار الامام وحط عند كنيسة انفراز وأحرقها وقام يتبع الملك ففي الطريق أدركوا فارسا من النصارى فأسروه فاذا هو أبون أخو الوزير مجاهد وكان قد ارتد ولحق بملك الحبشة فساله الامام عن الملك قائلا : اما نلحقه اذا سرنا وراءه . فقال لا لانه قطع بلدانا كثيرة . ثم امر الامام بضرب أبون المرتد هذا وعفا عنه فلم يقتله . وبقي الامام مجدا في السير فصادف خيام الملك ومطابخه قد رموها في ارضها ثم القي صناديقهم مرمية قد تركوها حتى لا يتأخروا بسببها . وأدرك الامام ساقة جيش النصارى وفتك بهم ولم يدرك الملك وهذا نزل على نهر « اباوين » الذي يتصل بنيل مصر وكان الامام في طليعة جيشه اختلط بعسكر النصارى ولم يشعر الا وهو في وسطهم فكانوا يتكلمون بكلام النصارى حتى لا يعرفوهم . ولما لم يدرك الملك وقف حتى وصل اليه جيشه . وأسر في تلك النوبة أحد صبيانه واسمه انس كان ارتد ولحق بابن البطريق دسلجان فامر الامام بقطع يديه وأسروا البطريق اقابسات الذي هو قاضي الحبشة وهو عندهم ثاني البطرك فقتله الامير ابسمانور وأسروا أخت ملك الحبشة وكان اسمها « امي دنقل » . ودخل الامام بلاد التيجري وقد اشتد بها الغلاء والجوع فبلغ ثمن كل ثلاثة آصع مثقالين من الذهب وصارت الاحباش تسرق بغال المسلمين . وكانوا لما دخلوا أرض التيجري كل واحد منهم معه خمسون بغلا فما خرج منها الواحد الا ببغل أو بغلين : وكان الوزير عباس ذهب الى أرض السراوي ثم تبعه الوزير عدلي وأهلها مسلمون ومنهم نصارى فاسلموا . وقاتل البطريق « تسفولولو » في مكان حرج مشتبك الاشجار وهناك طريق ضيقة لا يقدر ان يمر بها الفارس الا وحده يتبعه الفارس . فاراد الوزير عدلي أن يتقدم الجميع في هذه الطريق فلما توسط الطريق رماه النصارى بالحراب والمزاريق فأثخنوه بالجراحات فسقط فتقدم من المسلمين رجل اسمه بربري فحمله على ظهره وبه حشاشة على ان يهرب به والسهام عليهما مثل المطر فقال الوزير عدلي لبربري ارمني عن ظهرك فما بقيت بي روح . فتقدم فارس من صبيان الوزير عدلي يسمى كبير محمد فقتلوه فتقدم آخر اسمه الجراد عيجو من أهل بالي فاستشهد . فلما رأى المسلمون ان لا سبيل للمرور رجعوا الى الوراء وحطوا في مكان فسيح . وقطع النصارى رأس الوزير عدلي وأرسلوا به الى ملك الحبشة . ولما وصل خبر موت الوزير الى الامام جمع الجيوش وكان اكثرهم من الذين أسلموا جديدا فامر مناديا ينادي ان عبدا من عبيد الامام مات ويقوم واحد مكانه وهو الوزير عدلي فحينئذ ارتجت المحطة بالبكاء والنحيب وحزن المسلمون حزنا شديدا . أما النصارى فلما وصل رأس الوزير عدلي الى الملك جلسوا ثمانية أيام يضربون طبولهم ونقيرهم ويظهرون زينتهم ويشربون خمورهم .

وجعل الامام الوزير عباسا مكان الوزير عدلي وأرسله الى أرض السراوي فتصدى البطريق « تسفولولو » وأسرع بالمسير آملا الظفر وامام جيشه راهب على حمار يقول للحبشة اليوم نكسر العصر على الوزير عباس فالتحم الفريقان وحمل رجل من المسلمين على البطريق تسفولولو فجندله صريعا فلما رأى الاحباش بطريقهم قتيلا ولوا الادبار فتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم أحد وقتل الراهب وهو على حماره ، وقتل أولاد البطريق وأخذ الوزير

عباس بثار الوزير عدلي وأرسل برأس البطريق ورؤوس أولاده الى الامام ففرح بالنصر وأخذ الثار .

وجلس المسلمون في بلاد التيغري سنة واحدة حتى فرغ زادهم واضر بهم الجلوس فمات منهم اناس كثيرون في أرض السراوي بالطاعون مات اورعي ابو بكر ومات احمد النجاشي ولد الامام وماتت طارسي امرأة الوزير عدلي ومات الجراد عبد الناصر وامرأته بلقيسة وارثه بعض المسلمين ومنهم أخو فرشحم سلطان مع كثير ممن كانوا اسلموا وذلك من الجهد الذي جرى للمسلمين . ولم يبق لهم ظهر ولا حمار يحملون عليه فكان كثير منهم يحمل دبشه على ظهره . فلما رأى الامام ما حل بالمسلمين في ارض تيغري سار بهم قاصدا أرض « بقي مدر » لكثرة خيراتها وولى ولاة من قبله على بلاد السراوي وبحر نجاش والحماسين وعزل الشريف نورا عن ذخنو وولى مكانه السلطان احمد بن اسماعيل الدهلكي . ومر الامام بارض مزجة التي اهلها مسلمون وصام عندهم رمضان سنة ٩٤١ ثم سار الى بقي مدر فكمن له الاحابيش في الطريق وكان عليهم بطريق بقي مدر ومعه ثلاثة بطاريق فهزمهم واسرهم . وفر منهم بطريق ساول الى بلاد سمين ، وهي جبال لا يوجد اعصى منها في جميع الحبشة واهلها من يهود الحبشة ويقال لهم بلغتهم فلاشة يقرون بوحدانية الله ولا يعرفون غير ذلك من الايمان . وكان أهل « بحر عنبا » استعبدوهم اربعين سنة يحرثون لهم ويستخدمونهم فلما انتصر الامام على الحبشة جاءوا اليه من كهوف جبالهم وخدموه وصاروا حراثين للمسلمين ثم استفتح الامام بقي مدر وصار أهلها فلاحين للمسلمين واستفتح « وقرة » وبنى فيها مساجد وولى عليها الجراد صبر الدين واستولى على بلاد « دربه » من بقي مدر وولى عليها فرشحم عليا وبنى فيها المساجد وصار أهلها فلاحين للمسلمين . وأخذ بلاد الوفلة وكنفات الى ارض واق وجعل فيها الامير ابا بكر قطين مع جيشه وبنى فيها المدن والمساجد . ودخل بلاد الدنبيه وهي كثيرة الخيرات وبندر الذهب فاتخذها مسكنا وأصلحها وبنى فيها المساجد وصار أهلها فلاحين للمسلمين . وأعطى بلاد « تاكه » وهي ثغر بلاد الهبج الى الوزير عباس واستراح المسلمون وسار الامام الى بلاد قجام فاخربها وتلاقى فيها مع الامير شمعون وكان لما تركه الامام في جدم قصده ملك الحبشة بجموعه فهزمه شمعون وأخذ كل ما معه . وكان في الدنبيه بحر عذب مسيرة أربعة ايام في وسطه ثلاثون جزيرة مملوءة فواكه ورياحين وكان كل من لم يطع المسلمين من الاحباش التجأ الى هذه الجزائر فغزاهم الامام بالسنابيق الى جزائرهم . انتهى

هذه خلاصة الجزء الاول من كتاب عرب فقيه ولم يعثر المستشرقون على الجزء الثاني وانما تجمل الاخبار التي في هذا الكتاب مؤيدة بكتب الحبشة وتواريخ الافرنج . وقد ظهر هنا ان بلادا كثيرة مما عده صاحب مسالك الابصار من ممالك المسلمين في الحبشة ونقله عنه صاحب صبح الاعشى كانت في ايام الامام احمد بن ابراهيم من بعض ولايات الحبشة مثل أوفات ودوارو وهديه وشرخه وبالي وان الامام الغازي احمد انما فتح البلدان التي كان أصلها للمسلمين . وأغرب من هذا وذاك المبالغة التي حصلت في احصاء اجناد تلك الممالك الاسلامية وان هذه فرسانها اربعون الفا وهذه عشرون الفا الى غير ذلك مما لا يمكن ان يكون بدليل أن جميع فرسان الامام الذي هو اكبر غاز في الحبشة عند ما عرض الجيش الوزير عدلي كانوا

أحد عشر الف فارس وار بعين الف راجل وهو الجيش الذي يمثل قوة مسلمي الحبشة باجمعها ثم ان صاحب « هدية » الذي قال عنه انه أقوى اخوانه وأكثرهم خيلا ورجلا وان عنده أربعين الف فارس سوى الرجالة فانهم مثل الفرسان مرتين واكثر هو هو الذي ذكر صاحب « فتوح الحبشة » انه كان يقدم كل سنة لمليك الحبشة بنتا مسلمة يتسراها وينصرها وانه لما رجنهم الامام الغازي احمد بن ابراهيم على قبول ذلك قالوا له : كان هـذا الملك مستبدا بنا ضاربا علينا الذلة والمسكنة محظورا علينا مسك السيوف وركوب الخيل بالسروج فكنا نقدم له الطاعة والمال والبنت هذه فداء عن انفسنا ومساجدنا . فكيف تخاط هـذه القصة التي تاريخها في القرن العاشر للهجرة (٩٣٠) مع قصة الاربعين الف فارس والثمانين الف راجل التي يجب ان يكون تاريخها قبل ذلك بقرنين أو قرنين ونصف قرن ولا يظهر من حال هاتيك البلاد بحسب وصف عرب فقيه انهـا تحتمل هـذه القوى الهائلة كلها لا سيما ما كان منها مثل مملكة هديه ضيق الرقعة قليل المادة . ولا شك ان عرب فقيه الذي كان في البلاد نفسها ادرى من الشهابي بن فضل الله ومن القلقشندي ومن المقريزي الذين نقل بعضهم من بعض .

لقد لخصنا فتوحات الامام احمد جران وفتكه بالحبشان النصارى وحمله اياهم على الاسلام وليس ذلك الا جزءا مما كان يفعله الحبشة النصارى بالحبشة المسلمين والصومال والنوبة قبل ظهور السلطان سعد الدين والامام احمد وبعدهما ومما كانوا لا يزالون يفعلونه الى عهد قريب وهاك ملخصا تعريب ما جاء في الانسيكلوبيدية الاسلامية الفرنسية تحت إسم الحبشة ، فبعد ان ذكر فيها ان جغرافيي العرب الاولين والمتوسطين مثل ابن خرداذبه والمقدسي والمسعودي والادريسي وأبا الفدا والدمشقي وابن الوردي والحراني لم يذكروا شيئا طائلا عن الحبشة جاء فيهـا ان المؤلف الوحيد الذي تـكلم بالتفصيل عن تاريخ الحبشة في الاعصر الاخيرة وأخبار ممالك الاسلام فيها هو المقريزي في رسالته « الالمام باخبار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام » .

فالمقريزي يتكلم عن اقليم من الحبشة يسمى زيلع يشتمل على سبع امارات : اوفات ودوارو وارابابني وشرخه وبالي وداره ومملكة هدية القوية . فكل من هذه الممالك كان عليها أمير مستقل بها لكنهم جميعا كانوا تحت سيادة الحطي سلطان امحره وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر دخل مسلمون كثيرون في أرض شوا ووصلوا الى بقى مدر (تقدم ذكرها في فتوحات الامام) وأول من أساء معاملة المسلمين من ملوك الحبشة يقال انه الملك يقونو املاك (١٢٧٠ـ١٢٨٥) فجرهذا الاضطهاد الى حروب ووقائع مستمرة اشتهرت كثيرا لاسيما في أيام الملك عمدسيون الذي انتصر على ملوك عدال صبر الدين وجمال الدين الخ (١٣١٤ـ١٣٤٤) واستمرت هذه الحروب في أيام خلفاء عمدسيون مثل نوايا كريستوس (١٣٤٤ـ١٣٧٢) ودانيت (١٣٨٢ـ١٤١١) ويسحق (١٤١٤ـ١٤٢٩) وزارا يعقوب (١٤٣٤ـ١٤٦٨) وبيدامريم(١٤٦٨ ـ ١٤٧٨) واسكندر (١٤٧٨ ـ ١٤٩٤) الخ وقد اخضع بيدامريم ملك الدناقيل أيضاً وهم امة مسلمة لا تزال ساكنة الاقليم بين جبال الحبشة والبحر الاحمر ففي أوائل القرن السادس عشر (أي منذ نيف واربعمائة) كان الاسلام في هاتيك الاصقاع في ذل عظيم .

وكانت تلك الحروب كلها مدة قرنين كاملين خارج الحبشة الاصلية ولكن سنة ١٥٢١ نقل سلطان « عدال » أبو بكر بن محمد كرسيه الى هرر فازداد الاحتكاك بينه وبين شوا والحبشة ثم لم يلبث ان ظهر احمد بن محمد جران القائد الصومالي (الذي نعرفه انه احمد بن ابراهيم) الذي عاونه الترك بالمدافع والجنود (على كل حال في الوقائع التي لخصناها من صاحب تاريخ فتوح الحبشة لا يوجد أثر للترك) فشن الغارات على الحبشة حتى بلغ أقصى شماليها ونهبها مرارا واحرق كنيسة اكسوم. وكتاب هذه الفتوحات الذي الفه عرب فقيه (١٥٤٣) هو التأليف العربي الوحيد الذي يذكر كثيراً اقاليم الحبشة. وسنة ١٥٤٤ انتصر الملك غلاديوس على جران هذا وقتله ولكن نور الدين خلف جران أخذ بثأره فغلب غلاديوس وقتله سنة ١٥٥٩ وكان الاتراك قبل ذلك بسنتين احتلوا مصوع وبمساعدة أمير البلاد الساحلية احتلوا عدة مدن من جملتها « دباروه » وثار هذا الامير واسمه يسحق على الملك « سارسا دنقل » وظاهره الترك فانكسروا جميعا في واقعة « عبا جريه » وسنة ١٥٨٩ هزم سارسا دنقل الباشا التركي « قداورت » بقرب اركيكو وقتله .

وبسبب هذه الطوائل وغيرها مما احرزه الملك سارسا دنقل على محمد الرابع سلطان عدال وبمساعدة البرتغاليين للحبشة ضعف المسلمون في الجنوب والشمال ولم يبق منهم خطر . ثم فتح الملك سوسنيوس مملكة سنار (١٦٠٧ - ١٦٣٢) وسنة ١٦٣٢ استفز المسلمون العصاة سلطانهم طلحة لمقاتلة الحبشة فجاوبهم بان هذا لم يعد ممكنا . ثم ان البجه الذين كانوا أسسوا سنة ١٦٥٠ مملكة سنعار لم يقدروا على ملوك الحبشة مع اعتدائهم أحيانا على الحدود واضطر النائب موسى بسبب نهب أمتعة تخص الملك ياسو الاول أن يذهب الى اكسوم ويطلب العفو . وسنة ١٦٩٧ تغلب الحبشان على أمير البجة وسنة ١٧٦٩ ثار البجة على ملك الحبشة لمدوخ الراس ميكائيل بلادهم على ان غزوات الاسلام لاسيما فتوحات جران فتحت أبواب الحبشة للاسلام وقد فهمنا من كتاب عرب فقيه ان مغازي جران حملت كثيرين في نفس بلاد الحبشة مثل قافو ودنبيه الخ على الدخول في دين الاسلام وشيدت فيها مساجد مما يحمل على الاعتقاد بان الدخول في الاسلام لم يقع على حدود الحبشة فقط . وفي سنة ١٦٤٨ وصلت رسل اسماعيل المتوكل امام صنعاء الى الحبشة فوجدوا بقرب غندار مدينة أهلها كلهم مسلمون وشاهدوا في بلاد اندرته (سبق ذكرها) مسلمين شافعية ، وكان في نفس غندار حارات للمسلمين . وسنة ١٦٦٨ عقد الملك يوهانس مجمعا قرر منع المسلمين من السكنى مع النصارى ثم تجدد هذا الامر سنة ١٦٧٨ مما يدل على كثرة المسلمين الذين كانوا بين النصارى .

وفي القرن الثامن عشر انتشر الاسلام في امة الغاله الذين الى الجنوب الشرقي من الحبشة والى الشمال من شوا ويقال ان امة الفرلو هداهم الى الاسلام عربي اسمه دبلو . وقد حقق روبل Rüppel انه سنة ١٨٣٠ كان الاسلام ينمو في الحبشة وبالفعل ظهر ان امما من التيجري كانوا في أوائل القرن التاسع عشر نصارى هم اليوم جميعاً مسلمون مثل الحباب والتاماريان والتاكل الخ وان امما اسلم بعضهم مثل المنسا وغيرهم .

ولا يجوز أن نغفل ان التجارة قد أفادت الاسلام في الحبشة كثيراً فان التجار لاجل الوصول الى هناك كان عليهم أن يمروا ببلاد المسلمين فانحصرت التجارة في ايدي هؤلاء وازداد

عددهم ونفوذهم . وكان الراس علي من الغاله الذي نفذت كلمته كثيراً من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٥٥ مع تظاهره بالنصرانية يساعد المسلمين كثيراً مما أوجب حصول رد فعل في أيام الملك تيودوروس عدو الاسلام الاكبر . وازدادت هذه العداوة عند احتلال المصريين بعض أقاليم الشمال من الحبشة (١٨٣٠ ـ ١٨٤٠) فارسل الخديوي جيشا الى مصوع فاستأصله يوحانس (١٧ نوفمبر ١٨٧٥) وسنة ١٨٨٠ أصدر هذا الملك أمراً بوجيه ينبغي فيه للمسلمين أن يتنصروا أو يهاجروا من الحبشة . فهاجر كثير منهم الى القلابات وخلت غندار منهم تماما . واما مسلمو سراك وهمازن وغيرها فنالوا الاذن بان يسكنوا في بلدين خاصين بهم لكن هذه الاوامر لم يطل بها العمل . وكان المسلمون قبل تيودورس ويوحانس متفرقين بدون نسبة في العدد فكانوا قلائل في قوجام (تقدم ذكرها) وكانوا نصف أهالي الفولو وادجو والى اليوم نجد المسلمين كثيرين جدا في بلاد كوالا حال كون المسيحيين كثيرين في الداقا . أما في الشوا فالمسلمون كثيرون جداً ولكنهم ليسوا كثيرين في دنبيه مثلا . أما مستعمرة الاريتره الايطالية ففيها مائتا الف مسلم أي ثلثا أهل المستعمرة ولهم أربعة قضاة في المدن الاربع مصوع وكرن واقوردا واسماره وهناك امامة للحباب متوارثة في بيت امارة من قبيلة الدركي .

وما عدا أهل مصوع فمسلمو الاريتره اربع فرق : الاولى السوحو واتباعهم الى الجنوب الشرقي من الاريتره وكان قسم منهم قد أسلم في القرن التاسع عشر . والثانية مسلمو الساحل والانسبا الاوسط واسلامهم حديث العهد ولكنهم شديدو التمسك به . الثالثة البجه والحبشان الذين أسلموا من قديم وانشروا الدين المحمدي بين قبائل التيدن والباريا فهؤلاء منذ ٥٠ سنة فقط دخلوا في الاسلام . الرابعة مسلمو البلاد النيجرية من الاريتره .

على ان اسلام الحبشة المنتشر بين الغاله والسوحو والبجه ليس له من القوة والشدة ماله فى البلاد الاخرى فليس ثمة مدارس دينية مربوطة بالمساجد وان وجد بعض افراد من مصوع يحبون أن يتفقهوا في الدين ذهبوا الي الازهر بمصر وفي الغالب لا يرجعون الى أوطانهم كما ان الطرق الصوفية التي هي من أعظم أسباب قوة الاسلام في هذا العصر مجهولة في الحبشة . انتهى .

وذكرت الانسيكلوبيدية الاسلامية الفرنسية هرر فقالت ما محصله :

ان هرر مركز تجاري عظيم في شرقي افريقية هي الآن داخلة في ملك الحبشة وقاعدة ولاية اسمها ولاية هرر . موقعها بين ٤٢ و ٢٤و٣٦ من الطول الشرقي و٩ و ٢٣ من العرض الشمالى وعدد سكانها ٥٠ الفا منهم الثلث فقط هرريون في الاصل والباقون صومال وغاله وحبشان وهنود وسوريون وارمن واروام واوربيون وأشهر مساجدها مسجد الشيخ أبي ذر ومسجد عمر الدين . ويقال ان الاول هو الذى أدخل الاسلام في هرر ونشره في تلك الاصقاع أما الثاني فكان سلطانا على هرر في أيام أحمد جران (تقدم ان جران جعله سلطانا بعد قتل أخيه) وهرر هي مركز الدعاية الاسلامية في شرقي افريقية ومنها يذهب دعاة الاسلام الى بلاد الوثنيين من الغاله وعلاقاتها كثيرة ببلاد العرب ومصر . وقد سقطت هذه الاهمية وخفت هذه الحركة الدينية بعد استيلاء الحبشة النصارى عليها ولكن أهالي هرر لايزالون متعصبين للدين . والوان أهالي هرر شديدة السواد لكن ما مال منها الى الصومالي كان أميل الى الصفاء ولما كان الحبشان في القديم استولوا على هرر فاللغة الامحرية معروفة فيها وان كان دخلها كثير من الصومالي

والنالي ولا سيما من الغربي . ولا يوجد وثائق تاريخية عن فتح الحبشة الاول هرر والمظنون أنه كان في القرن الحادي عشر والذي يليه ثم الذي يليه . أما في القرن الرابع عشر فتدفق السيل الاسلامي الى الغرب حتى وصل الى الحبشة نفسها وطمى عليها في القرن السادس عشر. وأول ما ذكرت هرر في تاريخ الحبشة هو في زمان الملك عمداسيون لأن امراء هرر تألبوا عليه مع غيرهم فكانت يومئذ هرر قاعدة بلاد الزيلع . وأول أمير عرف من امراء هرر هو عمر ولا شما الذي يظن أنه تولاها سنة ١١٥٠ ثم ان الامير أبا بكر جعل كرسيه فيها سنة ١٥٢١ ولا شك أن السبب في ذلك هو قدوم الترك في زمان سليم الاول اذ استولوا على اليمن وجميع سواحل افريقية الشرقية الى رأس غواردافي فاشتبكوا في الحرب مع البرتغال . ثم ظهر أحمد جران ومعنى جران الاعسر وكانت ولادته سنة ١٥٠٥ وخدم فارساً في عسكر الامير ثم دبر مكيدة وعصى سيده وما زال حتى استقل واجبر الصومال ان ينضموا الى عسكره ولا يزال الى يومنا هذا اسمه عظيما في الحبشة ولم يتخذ لقب سلطان ولا أمير بل اتخذ لقب امام . ومنذ عام ١٥٢٦ لم يزل يوالي الغارات على مملكة الحبشة حتى دوخها كلها واحرق الكنائس والاديرة والكتب ونهبها وسبى النساء والاولاد واسترقهم فدخل كثيرون من النصارى في الاسلام بحيث انهم فيما بعد التزموا في الكنيسة الحبشية ان يوجدوا هيئة خاصة لاعادة الذين أسلموا الى النصرانية . وقتل جران سنة ١٥٤٣ في حربه مع الحبشان والبرتغال وقد كان الملك قلوديوس ممن اشتهروا في قتال امراء الاسلام ولكنه قتل هو في حرب مع الامير نور صاحب هرر . ثم نزلت هرر عن مقامها الاول وبقيت تضعف الى سنة ١٨٧٥ اذ افتتحها القائد المصري رؤوف باشا بينما كان الامير حسن باشا ابن الخديوي اسماعيل يقاتل الحبشة من الشمال . فاما حملات حسن باشا فقد نشلت واما رؤوف باشا فقد تمكن في هرر وزيلع . وسنة ١٨٧٨ عزل رؤوف باشا وتوالى على هرر عدة ولاة مصريين الى أن قرروا اخلاءها سنة ١٨٨٤ وسلموها الى الامير عبد الله فزحف اليها منليك الثاني من شوا واستولى عليها في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨٧ فحازها الحبشة النصارى بعد ٦٠٠ أو ٧٠٠ سنة من فتحهم الاول . انتهى :

أما بلاد الصومال فهي الممتدة من مرسى تاجورة الى راس غواردافي ومن راس غواردافي على البحر الهندي الى نهر جوبا . وفيها سلسلة جبال تعلو الى نحو ٢٠٠٠ متر عند بربرة وهواؤها حار والامطار فيها غزيرة لاسيما في السواحل وزراعتهم قليلة واكثر اعتمادهم انما هو على المواشي والخيل والجمال . وعدد الصوماليين مليون نسمة أصلهم مختلط من الغالة والسودان والعرب وكلهم مسلمون وهم اشداء البأس اعزة . وشمالي بلادهم داخل في مستعمرة أوبوك الفرنسوية وباقي هذا الساحل مع زيلع وبربرة يخص انكلترة وادارته في عدن وأما الساحل الشرقي من راس الخيل الى نهر جوبا مع مراسي اوبيا ومقدشو ومركا فهو تحت الحماية الايطالية .

(ش)

الاسلام في ماداغسكر

وجزائر القومور

أجأنا في غير هذا المكان الى كون الغرض الذي توخيناه في هذه الشروح ، هو التعريف بلاد الاسلام النائية ، ومطارحه القاصية ، والمواضيع التي تحتاج منه الى ايضاح ، دون البلدان المعروفة ، والمواضيع المطروقة . ولما كان من جملة هذه المواضيع مبحث الاسلام في ماداغسكر ، وجزائر القومور ، فقد لخصنا منه ما يأتي معتمدين في أكثره على كتاب « المسلمون في ماداغسكر وجزائر القومور » للمسيو غابريال فران الفرنسي Gabriel Ferrand أحد معتمدي الوزير المقيم من قبل فرنسا في ماداغسكر ومن أعضاء الجمعية الآسيوية بباريز .

قال في مقدمة كتابه هذا ما مؤداه :

ان تاريخ الاسلام ونموه في بلاد خط الاستواء الافريقية ، والجزر المجاورة لها ، لا يجود لنا الا بكلمات قلائل على الاشخاص والاشياء في بحر الهند . فماداغسكر وجزائر القومور الاربع ، وسائر الجزر التي في الشمال الغربي من ماداغسكر ، لا تكاد تذكر في جغرافيات العرب ولا رحلاتهم الا نادرا (قلت جاء في معجم البلدان لياقوت قوله : والقمر بالضم ثم السكون جمع أقمر ، وهو الابيض الشديد البياض ، ومنه سمي القمري من الطير ، وقمر بلد بمصر الى ان قال : والقمر أيضا جزيرة في وسط بحر الزنج ليس في ذلك البحر جزيرة اكبر منها ، فيها عدة مدن وملوك كل واحد يخالف الآخر ، يوجد في سواحلها العنبر وورق القماري الخ . واكثر ما تذكر العرب هذه الجزائر فبكلمات قصار كهذه .) وقد اثبتنا نقصان معلومات الشرقيين عن هذه الاماكن في نشر تذكراتنا على الصومال ونحو اللغة الصومالية سنة ١٨٨٤ و ١٨٨٦ . ولم يعرف ساحل افريقية الشرقي الا منذ سنين معدودات ، ومن عرف الشعوب التي تأهله اليوم وقدر حالتهم الاجتماعية علم لماذا اسلافهم لم يلعبوا دورا خطيرا في التاريخ السياسي والديني فيما مضى من الاعصر ، لان أقواما تتقوت بحفنة من الارز ، وتكتفي من كل اللباس بقطعة من القماش ، وتتحلى بحلقة من النحاس في الاصبع ، لم تكن لتشاطر غيرها المدارك الحيوية الكبرى ، فلهذا تجدها معتزلة بقية الناس جاهلة غيرها بل جاهلة نفسها ، راغبة في ان تبقى مجهولة . وهذا هو اكثر السبب في سكوت مؤلفي العرب عن الكلام عليها . أما عن ماداغسكر فان معلوماتهم كانت عدما ، فان اكبر شعب فيها وهو « الهوفا » لم يعرف الكتابة الا منذ زمن قصير . وقد كانت قبيلة « الانتيموروناً » استعملت الخط العربي قبل الهوفا بكثير ، وصار عندهم بسبب دخولهم في الاسلام شيء من الادب اللغوي ، فترجمة بعض كتبهم تهدينا الى معرفة اصول القبائل التي تسكن ماداغسكر ان لم يكن كلها .

وأما جزر القومور الثلاث « انجزيجة » و « انجوان » و « موهلي » فالمكتوب عنها نزر جدا . عرر « الماتركوست » بعض مقالات عن لغة سكان هذه الجزر ، ونقل الربان البحري « جوان » في كتابة سردا على القومور عن كتاب عربي مخطوط في مايوت

(مايوت هذه جزيرة من القومور في المنفذ الشمالي من قناة الموازمبيق بين ١٢ و ٣٩ و ١٢ و ٥٩ من العرض الجنوبي و ٤٢ و ٦١ و ٤٣ و ٢ من الطول الشرقي مساحتها ٣٦٦ كيلومترا مربعا وسكانها تسعة آلاف تسعة عرب وماداغسكريون وسواحليون وهنود وفيها ٢٠٠ فرنسي) وذكر المسيو غفراي Gevrey في بحثه عن القومور ما معناه ان عمارة المسلمين الى تلك الجزائر هي من عهد سليمان بن داود .

وفي « ماجونقا » (ثغر من ثغور جزيرة ماداغسكر) جالية قومورية عظيمة من المسلمين السنيين وجميعهم يكتبون لغتهم بالاحرف العربية ، وبعضهم يتكلمون بالعربية جيدا وقد قضت علينا ضرورات الخدمة بان تكون لنا علاقات حبية مع مسلمي ماجونقا اثناء اقامتنا مدة سنتين بهذه البلدة ، فاتيح لنا ان ندرس أحوالهم وأخلاقهم وان نستفيد منهم معرفة مما يتعلق بتاريخ هذه الجزر ، واطلعنا عندهم على كتاب مخطوط بلغة نجزيجه « مع ترجمة عربية له ، يذكر شيئا على وجه الاختصار من أهالي جزيرة القومور الكبرى قبل الاسلام . ولقد ذكر « فون در ديكن » ان لهجات القومور ان هي الا لهجات سواحلية الاصل ، تغيرت من أصلها باختلاف اللفظ ، وباختلاط الهوجز مع الماداغسكريين . فان هؤلاء منذ احقاب متطاولة في صلة مستمرة مع القومور يين ، ومنهم من تقلد منهم مناصب عالية ، فان الامير سولي صار سلطانا على جزيرة مايوت ، وهو الذي نزل عنها لفرنسا . ونتمنا ان نرسل مدققا في نفس الجزر المذكورة ياتي بمعلومات ذات بال من لغات القوموريين وآدابهم . وقد اكدوا لنا ان من استقرى هذه الجزر ، وجد كتبا مخطوطة ، منها ما هو عربي ومنها ما هو قوموري ، يؤخذ منها تاريخ القومور السياسي والديني » .

ثم قال فران « ان تأليفنا هذا ثلاثة أقسام أولها يتكلم عن مسلمي ماداغسكر و جزائر القومور ، والثاني عن القبائل الاسلامية الساكنة في الساحل الشمالي الغربي من ماداغسكر وفي الجزر الاربع نجزيجة وموهلي وانجوان ومايوت الصغيرة . والقسم الثالث موضوعه نشر بعض مخطوطات قومورية وضبط كلمات من لغات القومور مع مقابلتها باصلها من السواحلي أو العربي ونضم الى ذلك متن لغة من كلام ماداغسكر الخاص بالمسلمين الذين فيها مع ذكر ما هو منها من أصل سواحلي أو عربي » .

ثم ذكر من القبائل الماداغسكرية الكبيرة التانالا Tanala ، والانتانكارانا Antankarana ، والانتيهاناكا Antsihanaka ، والسكالافا Sakalava والبتسيميزاراكا Betsimisaraka ، والهوفا والانتايموروا Antaimorona وقال انها مع اختلاف اسمائها متشابهة بعضها مع بعض تشابها شديدا تمثل امة واحدة من كل وجه تقريبا . ولا شك ان الذين دخلوا ماداغسكر من الغرباء ، سواء كانوا ممن جاؤوها جرد الهوا ، مثل امة الهوفا أو ممن قصدوا اليها زرافات ووحدانا مثل العرب قد أدخلوا فيها عاداتهم ومعتقداتهم . ولكن لم يطل الامر حتى امتزجوا بالاهالي الاصليين ولم يبق من معتقداتهم ومعارفهم الا الشيء اليسير يحفظه الافراد لا الجماعات فالهوفا القادمون تأثروا بلغة الماداغسكريين وبدلوا اسماءهم واقتدوا الغالب بالمغلوب . وأما العرب فلم يظهر تأثيرهم الا في قبائل الانتايمورو التي اسلمت ولكن اسلاما ضعيفا . والناس منها رجعوا الى كثير من عقائدهم الاصلية التي لا تزال كثير من

القبائل متمسكة بها ويجد الانسان آثارها حتى بين المتنصرين من الاهالي .

ثم تكلم المسيو فران على قبيلة الانتآمورونا الاسلامية ، فقال انها تسكن في الساحل الجنوبي الشرقي من مادا غسكر بين مصب نهر « الماتجاراه » ومدينة «مازيندرانو» أي على طول ٢٢٥ كيلو متراً . ويسكن الى الشمال من هذه القبيلة قبيلة البتسيميز اراكا ، والى الشمال الغربي قبيلة البتسيليو ، والى الجنوب الغربي قبيلة تانالا ، والى الجنوب أقوام متفرقة . وعاصمة الانتآمورونا هي مدينة ماتيتانانا على ضفة النهر المسمى باسمها . ويوجد فروع كثيرة من الانتآمورونا مستقلة بعضها عن بعض لكنها خاضعة من الوجهة الدينية والحكومية لقبيلة الانا كارا والانا كارا هؤلاء فيهم بيت الملك ولهم التقدم على الجميع ولا يتزوج بعضهم الا من بعض فكأنهم قريش الانتامورونا ، ومنهم ملوك القبيلة كلها . وهم أمناء الديانة وفي أيديهم ادارة الجوامع التي يفرضون لاجل نفقاتها ضريبة غير زهيدة على أبناء ملتهم . ويزعم الانتآمورونا ان أصلهم من مكة ويحفظون كتبا خطية عربية متناهية في القدم ، والوانهم نحاسية ، وأبصارهم حادة ، وشعورهم جعدة وهم أشد المداغسكرين اعتقادا بالخرافات ، ولكنهم هم وحدهم الذين سبقوا سائر المداغسكرين الى تعليم أولادهم ، كما قرر ذلك المسيو دسكامب والدليل على ذلك كثرة الكتاتيب التى عندهم والقانون الذي هم ملتزموه من أن كل انسان منهم يجب عليه أن يقرأ ويكتب العربي ليكون أهلا لتقلد منصب أو للزواج . والى الزمن الذي أدخل فيه مبشرو الانكليز استعمال الحروف اللاتينية في تاناناريث (عاصمة مادا غسكر) كانت جميع الكتابات الرسمية في قصور ملوك الهوفا يكتبها امناء السر من الانتآمورونا باللغة العربية . والانتآمورونا مشهورون بالاعتناء بأولادهم ، وعندهم عادة أن يحلقوا شعور أولادهم ما داموا في حجور آبائهم ، فلا يؤذن للولد بارسال شعره الا بعد الزواج .

وهم رجالا ونساء لا يختلفون في ازيائهم عن سائر أهالي مادا غسكر وبالرغم من دعواهم شدة التمسك بالاسلام يشربون المسكرات ، ويصنعون هم بانفسهم المسكر المسمى « الروم » من عصير قصب السكر مع اضافة قشر شجر يسمى آمبولوا يعجل في تخمير قصب السكر .

والخصومات والامور العامة يفصل فيها محتسب معين من قبل الملك . وعندهم مجموعة قواعد في العقوبات أشبه بقانون جزاء . فالسرقة مثلا يعاقب عليها بالحبس والتكبيل بالحديد من سنتين الى عشر سنوات بحسب درجة الجريمة . وأما سرقة المواشي فيعاقب عليها بالقتل لأن اقتناء المواشي ذات القرون هو عندهم في غاية الاهمية . وأما القتل فيجزى بمثله ولا يتحرجون من التعذيب في القتل . ولا ينفذ حكم القتل الا بارادة الملك الذي عنده أعوان يتولون أمر القتل ، وهؤلاء الجلادون يقومون بايصال البرد الملوكية وهم عند ملوك الانتآمورونا أشبه بطبقة يقال لها « تسيماندو » لدى ملوك الهوفا . واذا قتل الرجل ابنه وكان الولد في سن الخمس عشرة سنة فما فوق ، عوقب الوالد بالقتل . وان كان الولد دون تلك السن حصروا الوالد في غلاف من قصب « البامبو » يمنعه من كل حركة ، وبقي محصورا هكذا الى أن يموت . ويقال ان مثل هذا العقاب معروف عند الحبشة وأمة الغالا الذين يظن بعض المؤرخين ان أصل الامة المداغسكرية منهم . واذا أنكر المتهم الجرم امتحنوه بعدة أمور ليثبت براءته فيسقونه كأس ماء بارد وضعوا فيها قطعة ذهب ، وقرأوا على هذه القطعة نصيبا من العزائم ، فان لم

يصيبه بعد شربها شيء عد بريئا ، وقد يكلفونه أن يقطع نهر الماثيتا نا سباحة ، فان وصل الى الضفة الاخرى سالما من أذى التماسيح الكثيرة التي في ذلك النهر فهو بريء أو يشيرون اليه باجتياز حقل من الارز ، فان لم تتعرض في طريقه افعى ، ولا طار فوق رأسه طائر ، ولا حصل حادث غير معتاد أثناء اجتيازه هذا ، كان أيضا بريئا .

واذا أراد الانتاآمورني الزواج ، تنكب قوسه وحمل ترسه على ذراعه ، وذهب مساء الى من يكون خطب ابنته فيقول له : ادخل ، فيدخل ، فيفاجئه بضربة حربة يجب عليه أن يتقيها بلباقة ، وبدون أن يحدث للضارب أذى ، فاذا وفق لذلك جلس بين المائدة وأخذ الفتاة ، والا فان أصيب أو لم يحسن اتقاء الضربة خرج متعثرا بأذيال الحياء . والانتاموروناً بحسب قول الاب لافسيار La Vaissiere أصحاب أخلاق فاضلة وطهارة وآداب ، يبالغون في مراعاتها ، وهم يتزوجون باكثر من واحدة ، وتسمى المرأة الاولى « فاديب » ومعناه الزوجة الكبرى .

وكان الانتاآموروناً في جاهليتهم ، قبل أن دانوا بالاسلام في أدنى درجات الجهل . وكان عندهم كهنة يحفظون بعض مبادىء أصلية ، ويقدمون قرابين دينية ، ويحتجنون ذلك لانفسهم دون أن يطلعوا عليه العامة ، ويسمون الخالق « زاناهاري » وليس في مادافسكر تواريخ عن أصل الاهالي ، وما كانوا عليه في القدم تتجاوز القرن السادس عشر ، فتاريخ تلك الجزيرة مظلم جدا الا ما كان عند الانتاآموروناً بسبب وجود الكتابة العربية عندهم . والذي قدرنا أن نفهمه من هذه الكتابات ان القبيلة المادافسكرية ، التي باختلاطها بالعرب نشأ منها الانتاآموروناً ، كانت قبل دخولها في الاسلام تعتقد باله واحد ، أزلي ، أبدي ، خالق الكون كله بيده كل شيء ، لكن كانوا يتصورون لهذا الاله جسما وصورة على منتهى الجمال والكمال بحيث لا يمكن تشبيه تلك الصورة بصور الآدميين ، وكانوا يقولون بوجود آلهة صغار حول ذلك الاله الاعظم ، هم الشفعاء لديه وكل منهم له وظيفة خاصة به ، واليهم يلجأ الناس في حاجاتهم ، لان الاله الاكبر هو أعلى من أن تصل اليه مطالب العباد ، فكان لا بد ثمة من الوسطاء (عبارة ما كان عليه العرب في جاهليتهم بعينها جعلوا لانفسهم آلهة صغارا نحتوا لهم اصناما ، وقالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) فكان أصل تلك العقيدة توحيدا انقلب بسبب هؤلاء الشفعاء والوسطاء شركا . واقبلت العامة على عبادة اولئك الآلهة الصغار وبالغوا في الامر حتى انقسمت تلك الامة الى قسمين أحدهما الرؤساء والعامة والارقاء ، وهم حزب الوسطاء الذين جعلوهم لله اندادا ، وانتهى الامر بان رفضوا الاعتقاد بالاله الاعظم . والثاني الكهنة ، وأتباعهم الذين ثبتوا على الاعتقاد بالاله الواحد ، ورفض اشراك غيره في القدرة والتصرف فوقعت بين الحزبين منازعات تغلب فيها المشركون على الموحدين والزم هؤلاء أن يتظاهروا بعبادة الانداد الا أنهم كانوا يعبدون الاله الواحد سرا .

وفي تلك الاثناء جاء العرب بتوحيدهم فانتصر بهم حزب الكهنة الموحدين ، لان العقيدة العربية جاءت مؤيدة لما بين أيديهم فلما أسلم الجميع عاد هؤلاء الى مقامهم الاول بل ازدادوا سناء ورفعة . أما الزمان الذي وقع فيه اهتداء الانتاآموروناً ـ ويقال الانتاآمورو والانتاآمور ـ الى الاسلام فغير معلوم ، وانما يرجح كون هذا التحول لم يصادف معارضة شديدة ، بل تلقى هؤلاء القوم الدين الجديد بالفرح والنشاط ، ثم لم يطل الامر حتى عادوا الى كثير من

عقائدهم الاولى فصار اسلامهم مختلطا بالوثنية (كذا) وهم مثل العرب يستعملون غالبا جملا عربية ، هي دائما على شفاه المسلمين مثل : ان شاء الله . مكتوب الله . ويبدأون جميع كتاباتهم بجملة : الحمد لله وحده . ويكتبون : بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله محمد رسول الله . ولا يبدأون بعمل الا بعد تلاوة هذه الجملة .

وهم يحافظون على الصلوات ، ويمتنعون من أكل الحيوانات النجسة ، ويختنون أطفالهم . ومن العادات الاسلامية عند الاناكارا الذين فيهم بيت الملك ، انهم يقرأون أمام كل عمل صلاة تناسبه مثلا اذا أرادوا ذبح حيوان قالوا اللهم اجعل لحمه صالحا ، اللهم اجعل أجسادنا تنعم به وما أشبه ذلك . واذا مات الانسان جعلوا على جبينه وبطنه وعنقه أوراقا كتبوا عليها أدعية وقال أحدهم : هذه عادة قديمة جداً عندنا جاءتنا من مكة والمدينة . ويقولون للمدينة أحياناً « مدينازي » وأحيانا « مديناتي » ويقولون لمكة والمدينة « المدينتين » ويدعي الانكارا انهم من ذرية علي .

وبالاختصار فالانتآمور اجتازوا عدة أدوار دينية . الاول في الجاهلية قبل الاسلام ، وهو قسمان : دور توحيد ، ودور شرك . والثاني بعد الاسلام ، وهو أيضا قسمان : اسلام صرف واسلام مشوب بوثنية . فالآلهة الصغار الذين يعتقدون بهم بعد الاسلام هم ستة : « جوبوريلينا » و « مينكالو » ، و « سيرافيلو » ، و « زاربزلو » ، و « بزيلو » ، و « شيرا كيزيلو » وباللغات السامية يقال جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وعزرائيل . فجبرائيل هو المكلف بالوحي الى الانبياء . وميكائيل هو المكلف بالطبائع والغيم والمطر . وعزرائيل هو ملك الموت . واسرافيل هو الذي ينفخ بالصور في آخر الزمان . فأما المسلمون المداغسكريون فيجعلون لهؤلاء مقامات بائنة عن الباري تعالى ، وهي سبع طبقات منفصلة بعضها عن بعض بجدران غليظة بينها أبواب من حديد فالطبقة الاولى منها هي مكان الجزاء الالهي من الناس من تكون آثامه فظيعة فيخلد في عذاب النار . ومنهم من تكون آثامه خفيفة ، فيعذب الى أجل مسمى ثم بعد ان يتطهر يدخل الى النعيم المعد للصالحين . وهذه عقيدة تشابه تماماً ما عند النصارى . والطبقة الثانية هي التي فيها « شيرا كيزيلو » الموكل بالزرع والاشجار وهو الذي يلتمس منه تزكية الزروع والطبقة الثالثة مقر « بزيلو » وهو الموكل بالمواشي . وفي شهر يناير يقدمون له القرابين من النعاج . ثم ان « زربزلو » هو اله الانهار والبحيرات ، و « سرافيلو » هو اله الحوادث السماوية والارضية ، وميكالو هو اله الكواكب والشمس والقمر . وأكبرهم جوبوريلينا ، وهو ذو المقام الاول ، ولكنه دون الله ، وهو المبلغ ارادة الباري تعالى الى البشر سواء رأسا أو بواسطة سائر الآلهة (الذي نرجحه ان الذي سماهم المؤلف هنا آلهة ، وزعم أن مسلمي مداغسكر اتخذوهم آلهة ، ان هم الا ملائكة لكل منهم وظيفة كما هو في سائر الاديان السامية ولكن قد تكون خيالات المداغسكريين أوسعت هذه الوظائف وزادت عليها) .

ويعتقد الانتآمور بخلود النفس ، ولكن اعتقادا يخالف اعتقاد الهوفا . فان الهوفا يقولون ان النفس يمكنها أن تترك الجسد مدة بدون أن تفنى بذلك شخصية الانسان . أما الانتآمور فيقولون انه بمجرد انقطاع نفس الانسان تصعد نفسه الى السماء ، وتمثل أمام جوبوريلينا الذي يعين

لها مثوى بحسب استحقاقها . وان النفس عند تمثلها في الملكوت تتخذ قالباً شبيهاً بالجسد الذي تكون فارقته في هذه الدنيا ، وهذا القالب يشاطر تلك النفس اقدارها كلها من لذة أو ألم في الدار الآخرة (هذه النظرية تخلص من مشكل بعث الاجساد يوم الحساب بعد أن تكون بليت ودخلت أجزاؤها في تراكيب أجسام اخرى) ولا شك ان الانتاآمور بسبب معرفتهم للخط العربي تفوقوا على سائر سكان جزيرة مادا غسكر ، وهؤلاء بجهلهم اعتقدوا ان هذا النوع من ترجمة الضمائر بالاشارات على الورق لا يمكن أن يكون الا سحراً ، وفشا عندهم الرأي بان الانتاآمور بايديهم أقفال الغيب وانهم مطلعون على كل شيء .

وعندهم الممنوع أو النجس اسمه « فادي » وقبيلة الساكالاف تقول « فالي » لعله محرف عن الفال العربي كما ان المقدس يقال له « اودي » ــ ومن اشتهر بالتقوى من المسلمين ولم يعهدوا عليه طول حياته سوءاً يصير بينهم موضوع تقديس حتى في حال حياته ويذهبون الى تأثير شفاعته لدى الباري تعالى ، ويستشيرونه في المعضلات ، ويأخذون رقاعاً مكتوبة بيده يتقون بها المصائب .

والكتاب المقدس عند الانتاآمور يسمى بلسانهم « سوراب » ومعناه الكتابة الكبرى روى المبشر الانكليزي هوكت Huckett الذي كان قاطناً « فيانارانتسوا » قال : ضربنا الى الشمال على طول الساحل فزرنا مدن « نوسيكالي » و « اندريناميي » و « آمبوهاب » و « آمبوهيبو » وصرنا بين قوم يقال لهم « تيمورو » أو « انتيمورو » يعلن أنهم جالية عربية . ومما لاشك فيه ان اسلاف هؤلاء الناس من جهة الذكور عرب ، قذف بهم البحر الى هذا الساحل وعندهم « السوراب » أي الكتابة المعظمة ، وهي نسخة من القرآن مع التفسير ، وتراهم مفتخرين باصلهم ومتمسكين جداً بكتابهم . ففي المصائب والاحزان والامراض يرجعون الى هذا الكتاب ويأخذون منه ما هو في الموضوع وينسخونه على ورقة من شجر « الرافيالا » ثم ينقعون الورقة في الماء ثم يشرب المصاب هذا الماء » أما المسيو فران فيقول ان السوراب هو كتاب غير القرآن أتاهم به اسلافهم العرب ، وليس بذي فصول ولا أبواب وقد زيد عليه بتداول أيدي المشايخ له . وفيه تاريخ القبيلة ووقائعها المهمة وتجد فيه آيات كريمة من القرآن وكلاماً على المغيبات ، وأحراز وطلاسم ، مما يستعمل في دفع النوائب ومعالجة الاوصاب الى غير ذلك .

وكان جغرافيو العرب على ما يظهر يجعلون جزيرة مادا غسكر من جملة جزائر القمر ويرونها كبرى هذه الجزائر ، كما ان الاوربيين يسمون « انجزيجه » بجزيرة القمر الكبرى ، حال كون المسلمين الذين يأخذون ويعطون على الساحل الغربي من مادا غسكر لا يسمونها الا انجزيجه وان الحكومة الفرنسية عندما ضربت النقود باسم سلطان جزيرة القومور الكبرى ، كتبت عليها هذه العبارة : سيد علي بن سيد عمر سلطان انجزيجه حفظه الله تعالى » .

أما مادا غسكر عند أهل عمان العرب فتسمى جزيرة القمر ، كما كان الجغرافيون الاولون يظنون . وأما باللغة السواحلية فيقال لها « بوكيني » وهي مركبة من « بوكي » التي معناها « غريب » و « ني » وهي حرف بمعنى « في » أي « في بلاد الغريب » .

ولقد ذكر الجغرافي العربي ابن سعيد تفاصيل كثيرة على جزيرة القمر تدل في حال مادا غسكر

مثل كونها طويلة عريضة طولها مسيرة أربعة أشهر وعرضها مسيرة ٢٠ يوما ومن مدنها مدينة ليران زارها ابن فاطمة . وقال انها هي وماغداشو تحت حكم المسلمين ولكن أهلها أوشاب من جميع الاجناس وهي مرسى يرفأ اليه ويقلع منه الخ . وقد ذكر شمس الدين أبو عبد الله محمد الدمشقي في فصل على بحر الزنج جزائر عديدة يظن أن منها ماداغسكر وهي جزيرة قنبلو التي فيها الابنوس ومعادن الذهب والبحيرات ، وجزيرة طايسان التي فيها جبال نار تقذف بالحمم فلا يستطيع أحد أن يسكنها بسبب حرارة البراكين وجزيرة بربرة وجزيرة القطربية فيها مدينتان للزنج . وجزيرة زنجه • وجزيرة المحترقة ، وجزيرة العور •

وكان البرتقاليون يعرفون ايضا ماداغسكر باسم جزيرة القمر ، وآخرون من البرتقاليين والطليان كانوا يطلقون على ماداغسكر اسم جزيرة سان لورانت St. Laurent انظر الى ما قاله السائح «اندريا كورساله» الذي كان في خليج موازمبيق سنة ١٥١٤ : «عند ما كنا في موازمبيق وجدنا سفينتين برتقاليتين قادمتين من جزيرة سان لورانت الواقعة في عرض البحر بازاء موازمبيق ، وهي من أعظم الجزائر التي اكتشفت في ايامنا هذه» وبعد ان وصف ما فيها من الحيوانات والحاصلات والمعادن قال : « ان اهلها لا يكادون يفقهون حديثا وانهم يتكلمون بلغة غير لغة الموازمبيق ، وانهم ليسوا بشديدي السواد ، ولكنهم في جعودة شعرهم كسائر أهل تلك السواحل ، وان المورو (اي المسلمين) هم الذين بايديهم مراسي هذه الجزيرة يشترون محاصيل البلاد بما يأتون به من القطن ومتاجر الهند » .

وقال « ادوارد وباربوزا » في نحو سنة ١٥١٦ ما يأتي : « بازاء هذه الارض على مسافة ٦٠ مرحلة من راس « كوريانت » توجد جزيرة عظيمة جدا اسمها سان لورانت ، يسكنها الوثنيون وفيها بعض مدن للمورو . وفيها ملوك كثيرون من الوثنيين والمورو معاً الخ » وسنة ١٥٢٩ كان اسم ماداغسكر قد صار معروفا ، وقد اشار « بارمانتيه » Parmentier الى وجود مورو بيض في هذه الجزيرة . وذكر « جان دوس سانتوس » في تاريخ اتيوبية الشرقية : « ان مورو جزيرة سان لورانت ثاروا على البرتغال ، وان هذه الجزيرة قد اكتشفت في سنة ١٥٠٦ ، وصل اليها القبطان « تريستان دا كونيا » اثناء سفره الى الهند وسميت سان لورانت لكونهم وطئوا ارضها في عيد سان لورانت مع ان اسمها الاصلي ماداغسكر » . الى ان قال : « وفي أيام ولاية « جورج دومنيس » في موازمبيق ثار المورو على البرتقاليين ، وحاولوا منعهم من دخول المراسي ، زاعمين انهم يعارضونهم في جمع الحبوب . والحقيقة انه كانت علالا مقصدهم به اخراج المسيحيين الذين كانوا يضمرون لهم أشد العداوة . فارسل جورج دومنيس بارجة حربية معلنا الحرب على المورو فيما لو استمروا على المعارضة ، فلما وصلت البارجة مال المورو الى السلم وادعوا انهم لا ينوون شرا ، ولكن البرتقاليين لم يأمنوا شرهم ، ولم ينزلوا الى البر الا راهبا منهم اسمه الاب «دوسان توما» ورجعت البارجة الى موازمبيق بمن فيها . ولكن وردت اذ ذاك بارجة من مكة (كذا) فيها مورو ، فلما علموا بما وقع ارادوا الانتقام وسمموا الراهب المذكور ، فمات ، فانتقم البرتغال من ذلك في السنة التالية ، وخربوا البلاد ورجعوا الى موزامبيق وصادف ان مركبا آخر للمورو جاء من مكة فغرق ، فنهبوه وتم بذلك الفوز » .

ومن ارتباكات الاوربيين في معلوماتهم عن المسلمين لا سيما في الاعصر الماضية ما ذكره رجل اسمه « جواو دو باروس » قال :

«أول من سكن زنجبار عصائب من بلاد العرب دخلت في الاسلام يقال لها امو زيدي » بحسب تاريخ وجد عن مملكة « كيلوا » كانوا نفوهم الى هناك لانهم اتبعوا مذهب رجل مورو اسمه زيد هو ابن اخي الحسين بن علي ، الذي هو ابن عم محمد ، وزوج ابنته عائشة ، فزيد هذا كانت له آراء مخالفة للقرآن . ومن تبعه يقال لهم اموزيدي » .

يريد ان يقول أن اول من سكن بلاد زنجبار هم اناس من الزيدية ، نفوا الى هنالك بحسب اختلاف مذهبهم ، وأنهم ينتسبون الى زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن عم الرسول (ص) وزوج ابنته فاطمة الزهراء وليس في مذهب الزيدية شيء يخالف القرآن ولكن معلومات الاوربيين عن الاسلام لا سيما بذلك العصر كانت ملأى بمثل هذا الخلط والى هذا اليوم مع تغلب روح التدقيق عليهم لا تخلو من الخلط والخبط ايضا .

اتفق المؤرخون على جعل مدينة « ماتاتان » أو « ماتيتانانا » هي البلدة الاولى التي نزلتها الجالية العربية . وهي التي صارت عاصمة للقبائل المداغسكرية التي اتبعت الاسلام ولا تزال الى هذه الساعة المركز السياسي والادبي للمسلمين المداغسكريين في الساحل الشرقي من الجزيرة ، وبها يقيم أشهر المتعلمين والمتأدبين من الانتآمور .

وممن اشار الى وجود الاسلام بمداغسكر ، السائح الشهير ماركوبولو الايطالي البندقي وفي أواسط القرن السابع عشر ذكر الانتآمور المسلمين هؤلاء رجل فرنسي اسمه « فرانسوا غوش » خلطفي اخباره عنهم على طريقة قومه في ذلك الوقت ومما قال : « ان الديانة المحمدية التي يدين بها اهالي السواحل المقابلة لمداغسكر لا شك انها وصلت الى اهالي مداغسكر ، فانهم يختتنون ولا يشتغلون يوم الجمعة (لا حرج في الشغل يوم الجمعة الا وقت الصلاة) ولا يأكلون لحم الخنزير وكذلك أهالي جزر القومور القريبة منهم ، اكثرهم عرب وفرس تابعون لدين محمد (ص) ، ويكتبون بالعربية ، ولا يأكلون الحيوان الا اذا كان مذبوحا ، فلا يأكلون المختنقة ، ولا يجلسون الا متربعين على السجاد أو على الحصير على عادة الترك ، ولا يعملون شيئا من الشعائر بدون ان يغتسلوا » انتهى :

وفي نحو سنة ١٦٥٨ ذكر المؤرخ « فلاكور » Flacourt ان اهالي مقاطعة ماتيتانانا يستعملون الحروف العربية التي كانت معروفة عندهم منذ قرنين ، ولكن المداغسكريين بدلوا بعض صور التلفظ فيجعلون الياء زايا والذال تاء .

وقال الكونت « دومانداف » De Mandave الذي عرف مداغسكر سنة ١٧٦٨ أن جالية عربية وصلت الى مداغسكر في اوائل القرن السادس . ومما قاله : ان الروهاندريان حكام بلاد « آنوسي » هم غرباء مثلما أصلهم عرب جاءوا الى الجزيرة منذ مائتين وخمسين سنة ، وعندهم معرفة بالكتابة يستعملون الحروف العربية والورق يصنعونه في وادي امبول وبدلا من القلم يستعملون البامبو . على أن العربية غير منتشرة في الجزيرة ما عدا الشمال الغربي . ثم قال : معلوم أن العرب اسسوا ممالك عظيمة على ساحل افريقية المقابل لمداغسكر ثم استولوا على جزائر القوموز ويتجرون في مسقط وعدن وسواحل اليمن ، ولكن أكثر

تردد مراكبهم الى ماداغسكر ثم ذكر دو ماندراف وجود كتب عربية ماداغسكرية ، وقال هو وغيره أنه يرجى بواسطة المخطوطات العربية الاطلاع على تاريخ تلك الجزيرة .

ثم ذكر المسيو فران نفسه أنه حصل على بعض مخطوطات عربية بواسطة رجل اسمه رامازينورو (رمضان) هو ابن ملك الاناكارا وشرح مضمونها وتكلم عن الكتب العربية الماداغسكرية التي في المكتبة الوطنية في باريز وفي غيرها ثم ذكر عناية الماداغسكريين بعلم الفلك والنجوم والحروف ومعرفة المغيبات واطال في ذلك وتكلم على لغة ماداغسكر وامتزاجها بالعربية ثم قال :

« ان قبائل الاسلام في الجنوب الشرقي من ماداغسكر تزعم انها سلائل اناس هاجروا الى ماداغسكر من مكة » الى ان يقول « وهذه القصص التي نجدها عند كثير من الامم التي دخلت في الاسلام مؤداها أن الانتا موورونا قد اسلموا في زمان النبي (ص) نفسه . قال المسيو رينيه باسه René Basset يجب الحذر من تصديق هذه الاقاويل فمن هذا القبيل أن أسرة مالكة كانت تلي هرر في الحبشة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فكانت تزعم ان اول من قدم هرر هو عقيل بن علي (الذي نعرفه أن عقيلا هو أخو علي) مع ان عقيلا ماوطيء تلك الارض . وان مسلمي كانتون في الصين يزعمون ان الذي بنى مسجد كنتون هو وهب ابن أبي كبشة خال الرسول (ص) ، مع ان مؤرخي سيرة الرسول مع احاطتهم بكل ما يخصه لم يذكروا شيئا من هذا » .

قال المسيو فران ان دعوى الانتساب الى آل البيت فاشية عند مسلمي السواحل الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية من ماداغسكر ، ولكنه مما لا ينبغي أن يوثق به كثيراً .

ثم ذكر باللغة الماداغسكرية وبالحروف العربية كتابات على سبيل المثال ، اخترنا منها القصة الآتية ننشرها بحروفها وحركاتها ونردفها بترجمتها : ـ

طَطَر طمين اعَلَى مُحَمَّدُ

ططَّر طَّمين اعلى مُحَمَّدُ . نِيفِّى رِكِّىُ امين أُنكَرَّنى بُوَاهَيِ . امَكَ أُمْدِينا
أُمدِيناَّنىْ نِيَّ دِيِ طمْين أُفِي رَوْنِي رَوَاً أَعَلِيْ مُحَمَّدُ بوْنِياً طَق بُوْ اطَوَّاوُرَّ .
أَنَكَرَ . آطِي وَارِّي كِيْ وَآهوكَّي . نِيَ أُرَكَ طَمِيْنَ ع ي الأَهاطِي ع مَك .
اَمَدِينا امَدِينْاتِ . طُوْدِي طِي مَهُورُو امي ايُوْبِيْ اطَوّ الاَ ورِّي انفِرِكِيْ طَوْ
اَنكَرَ نَادِيْ هَانِي ع تِيمُوْ طَوْ امطِيطَنا . طِي مَهاتِرَ . نانِشِيْ طَاً كي ع أُطِي
تِي مِيْ طُبُوْ . طُوفُو طَينَ طَاوْ أُلوْهَا اطِي تِيْ امِيْبطُوْ . نِي شِيْ طَا كِي . طع
بطُوْ نانِشِي طبِكِي . اطِي اتِيْ مِيطبُوْ الكِ هِي رِنِى يُواوطُومَشِنِ اَنكَرَايْ أُبِي

إياهى طرَنكَى أعلي محمدُ تِي طِي طَا إِنْيِنْ ي، فَنُ داَ فِيْ إِعِ يْ اللهُ كِبَرُ اللهُ كِبَرُ اللهُ كِبَرُ .

الترجمة

تاريخ علي ومحمد الى أن جاءا الى الاناكارا . جاءا من مكة والمدينة . وتقاتلا هما الاثنان مع فاراونى (فرعون) وابحرا مع الانتا آنوترا ، والاناكارا . والانتا فاندريكي ، شعوب كانت تصحبهما من مكة والمدينة . فوصلوا الى داهوري ، وميازومي . أما الانتا آنوترا فلبثوا هناك واما الاناكارا فاوغلوا في الجنوب الى ماتيتانانا . ففي ماهازارا طردهم الانتا سيهانو . لان هؤلاء كانوا أصحاب الارض قبلا فذهبوا الى آمبانو . فطردهم الانتا سيهانو ثانية . فاقاموا أخيراً بفانومازينا حيث هم الى الآن . فنحن ذرية علي ومحمد هذه ليست بلادنا انما جئنا من وراء البحر . الله أكبر الله أكبر الله أكبر .

ثم ذكر المسيو فران في الجزء الثاني من تأليفه قبائل سبعا هي « الزافيندارامينا » و« الانتامبا هواكا» و « الاونجاتسي » والآنتا آيوني و« الزافيكازيمامبو» و «الانتا فاندريكا» و « الساهافي » وقال انهم يسكنون بين قرى « مانانجاري » و« فارافانغانا» بين ٢١ و٢٣ من العرض الجنوبي . فهؤلاء عقائدهم وأطوارهم تشابه عقائد الانتا موروونا وأطوارهم ، قال ويزعمون انهم يرجعون الى أصلين أحدهما : بني راميليا . وهم الزافيندراميليا والانتامباهواكا والثاني : أبناء الذين هاجروا من مكة الى ماداغسكر وهم القبائل الخمس الباقية . وذكر المؤلف مايحيط بهذه المهاجرة من الحكايات والخرافات التي فيها من الخلط ما تقدمت له أمثلة ، ولكن القوم معتقدون بها . ويظهر ان راميليا محرف من رحمن أو عبد الرحمن ، ويقولون من جملة خرافاتهم ان هذا الرجل كان صهرا الرسول (ص) وانه هاجر مع امرأته الى ماداغسكر على أثر المظالم التي وقعت على آل البيت .

وقد اشتهر الاونجاتسي ، والاناكارا ، والزافيكازيمامبو ، والزافيتسيهانو ، بالسحر والطلسمات واجراء الخوارق . ويقول بعضهم ان أجدادهم رافقوا راميليا جد الانتامباهواكا في هجرته من مكة وهؤلاء جلودهم مائلة الى الحمرة وشعورهم سبطة . وذكر الاب دوشون ، انهم أهل شجاعة وبصائر بالحرب . على انه لم يبق من نسبة عند قبيلة الانتامباهواكا الى الاسلام سوى ما يدعونه من كونهم من ذرية راميليا الذي قدم من مكة . فانهم تركوا حتى بقية العبادات الاسلامية التي لا تزال عند الانتا موروونا ، وكذلك هم يجهلون الخط العربي ، وانما يحترمون التعاويذ والرقى .

وعلى بعض الروايات ، أصل الذين هاجروا من مكة خمسة امراء « راماكارارو » « راجوزوفا » و« آندزيامارووهالا » و« راليفوازيري » و « آندريانبوا زيريبه » جاءوا من هنالك بسبب ثورة أسقطت الاول منهم عن عرشه . وثلاثة من هذه الاسماء أصلها عربي ظاهر وهي راجوزوفا محرف عن يوسف . وراليفوازيري يظن أنها محرفة عن علي الوزير .

واندريامبوازيب يحللونها بأنها من اندريانا وهي بالمداغسكري الامير ، ثم الوزير ، ثم البه ومعناه الكبير أي الامير الصدر الاعظم .

وذكر المسيو فران رحلة لاحد البرتقاليين الى مداغسكر سنة ١٦١٣ جاء فيها : « أن أهالي هذه الجزيرة يزعمون أن أصلهم من مانغالور ومن مكة ، جاءوا من جهة الهند ووطئوا شاطىء الجزيرة الشمالي ثم انتشروا الى الجنوب ، وكانوا ينسبون قبائلهم الى أصلها ، منها ما عرفوا منها الى حد ١٧ بطنا ومنها الى حد ١٤ بطنا ، وهم موردو اوسوليما (اليوم مسلمو الساحل الغربي من ماداغسكر يقال لهم سوليما ويظن انها محرفة من اسلام) عندهم القرآن مكتوب بالعربي ، ولهم مشايخ يعلمونهم القراءة والكتابة وهم يختتنون ويصومون رمضان ، ولا يأكلون لحم الخنزير ، ومنهم من يتزوج باكثر من واحدة ، وألوانهم كالوان مسلمي الهند والجاوى ومن اعجب العجب محافظتهم على أصل عقيدتهم ونسبتهم مع تقطع ما بينهم وبين المسلمين في سائر الاقطار . اه

وذكر الاب روشون الانكليزي الذي ساح الى ماداغسكر سنة ١٧٩٢ أحوال أهالي هذه الجزيرة فقال « ان السود منهم اربع قبائل : « القوادزيري » و « الاوهافوهتيز » « الاونتزوا » و « الاونديفا » وأعلاهم درجة القوادزيري الذين يقال انهم سلائل ملوك البلاد ، وعندهم كثير من العبيد والمواشي ، وللواحد منهم الحق بأن يملك اكثر من قرية واحدة . أما الاوهافوهتيز ، فليسوا بدرجة اولئك ولا حق للواحد منهم بأن يملك اكثر من قرية ، ويجوز لهم الاستكثار من الماشية . ومن العادات المعروفة انهم لا يقدرون على ذبح الحيوان الا بيد واحد من قبيلة الروهاندريان ، أوالاناكاندريان (المنسوبين الى العرب) أما القوادزيري ، فيقدرون ان يذبحوا الحيوان بايديهم الا اذا وجد واحد من هؤلاء ، فيكون الاولية له في ذلك . وبعد الاوافوهيتز يأتي الاونتزوا وليس لهم شيء من المكانة . أما الاونديفاه فهم عبيد منذ ولادتهم . وأما البيض ، فانهم يسكنون مقاطعة أنوسي ، ومقاطعة كاركانوسي ، ويزعمون انهم أنسباء محمد (ص) ويسمون « زافراهيميني » وأما البيض الذين في « فولبوانت » و « نوسي ابراهيم » وخليج آنتونجيل ، فيقال ان أصل بعضهم قرصان ، وأن الآخرين من أصل يهودي لذلك لقبوهم زافي ابرهيم أي أولاد ابرهيم . وهناك طبقة أخرى من البيض يروي انهم ارسلوا من مكة لاجل هداية أهل ماداغسكر الى الاسلام . فاستولى هؤلاء على ماتاتانا ويقال لهم زافي كازيمامبو ومهنتهم تعليم اللغة العربية ويعتقد الزافراهيميني ان اجدادهم قدموا من مكة وهم ثلاثة أقسام : الروهاندريان ، والانكادريان ، والاونتزاتسي . وأعلاهم درجة الروهاندريان ولهم الحق في ذبح الحيوان ، ومنهم ينتخب الملوك . وأما الانكادريان ، فاصلهم من الروهاندريان من جهة الاب ، ولكن امهم كانت أدلى نسبا فلذلك انحطت درجتهم عن الروهاندريان . اما الانزاتسي ، فانهم عسكر لا مزية لهم سوى الحرب . » اه

أما مسلمو الساحل الغربي من ماداغسكر فانهم خمس فرق : الانتانكارانا الذين يسكنون في أعالي راس العنبر من شرقيه ومن غربيه . وقبائل الايبوانا الذين عاصمتهم موجانغا أو ماجونغا . والساكالافا أصحاب بلاد الانبونغو الذين من أشهر رؤسائهم الملكة « باره

رانوني » صاحبة خليج « نارامبياسي » والسكان « سانبتامو » و « سافيابالا » صاحبتا « بالي » و « سوالالا » ثم الساكالافا الذين في « ميناب » الشمالية حول مدينة « ماتيرانو » وما عدا بعض فصائل من الانتانكارانا والساكالافا الذين هم في علاقات دائمة مع مؤسساتنا في « دييغو سوارس » و « نوسي به » وبعض فرق من ساكالافا خليج « بومبتوك » الذين معاشرة الاوربيين هذبتهم شيئا ، فالاهالي الذين يسكنون بين أهالي راس العنبر ونهر موروندافا ، كلهم في حالة الهمجية ، والملوك الذين عندهم سلطتهم اسمية تقريبا ؛ واذا شهروا حربا فلابد لهم من استشارة رعاياهم فيها . وأكثر الساكالافا رحل يبدوون في وسط الغابات ؛ والحضر منهم الذين في السواحل على جون « ثارينديري » و « ماهاجاما » وجنوبي موجانقا يزرعون الارز والبطاطة ، وعندهم بعض المواشي ولكن أراضيهم المزدرعة عالية دائما عن البحر ، ولا يقطنون قراهم البحرية الا من شهر دسمبر الى شهر مايو حينما تبدأ سفن الهند ، ومسقط ، وزنزيبار بالتردد على سواحلهم . ولم يكن الا نزر من هذه القبائل خاضعا لملوك الانتيماريينا الذين في تاناناريف ؛ حتى انه لما دخل الفرنسيس تاناناريف ، وخضعت لهم الملكة رانافالونا ، الثالثة ، وأبلغ الفرنسيس الملكة باره رانوني انه لم يبق امامها الا الخضوع أجابت بكل اباء : « انني أنا لم أكن خاضعة لهؤلاء « الانتيموالامبو » (لفظة تحقير معناها الكلاب الخنزير) حتى بمجرد خضوعهم أخضع لكم ، وأن عساكرهم لم تدخل بلادي الا اسرى ؛ فانتصاركم عليهم لا يعنيني أنا ، فانا باقية على استقلالي » وباره رانوني هذه ملكة مسلمة كسائر رؤساء الساحل الممتد من رأس العنبر الى موروندافا .

ويقول المسيو فران : « ان الجغرافي العربي المسعودي أشار الى كون العرب فتحوا جزيرة قنبلو ، التي يترجح انها هي انجوان الحاضرة ، من أرخبيل القمر في أواخر أيام بني أمية أي في نحو ٧٥٠ سنة للميلاد ، فلا يبعد أن يكونوا فاتحو القمر او القومور قد وصلوا الى مادافسكر لمسافتها للقمر ، فيكون مضى على العرب أحد عشر قرنا وهم ينشرون عقيدتهم وتجارتهم في هذه الارض . ومن هذا يفهم الانسان الموقع الرفيع الذي نالوه في جزيرة ماداغسكر لا سيما بين الساكالافا .

وهؤلاء نظير الانتايموروا لم يتعلموا من الاسلام الا ما وافق عاداتهم وأذواقهم ، وتراهم يكتفون بحفظ الشهادتين : « لا اله الا الله محمد رسول الله » . وبجمل مثل بسم الله الرحمن الرحيم . وان شاء الله . وبعضهم يقرأ القرآن ، ولكنهم يجهلون العربية وبعضهم لا يأكل الخنزير ، لكنهم يحبون الاشربة المتخمرة ويصنعونها بأيديهم .

ويوجد في مدينة موجونقا جوامع ومدارس اسلامية ، والاذان مسموع عندهم في الاوقات الخمسة ، وأبنية البلدة الحجرية التي على شاطيء البحر تخطر في البال المدن العربية التي على ساحل الاوقيانوس الهندي أو البحر الاحمر . ولكن المسلمين الهنود يصلون في مسجد الشيعة ؛ والمسلمين العمانيين والزنزيباريين والقوموريين يصلون في مسجد أهل السنة . وأما الاولاد الذين يقرأون في المدارس ، فجميعهم ابناء المسلمين الغرباء أو ابناء الذين هم متزوجون ببنات مادافسكريات . ولم يعهد أن أحداً من الساكالافا أرسل ابنه الى هذه المدارس . وقد زرت بعض قرى هؤلاء مثل انداموتي ، وسوالالا ، وبالي . وهي القرى التي يزورها العرب

والباقون المسلمون لم أشاهد فيها مسجداً ولا مدرسة ، ولا رأيتهم يقيمون الصلاة ، ومن الغريب أنهم يحتفلون برمضان بدون ان يصوموه ، بل تراهم في هذا الشهر يقومون قبل طلوع الشمس ويجتمعون في ساحات قراهم ويشربون ويرقصون وهم على شكل حلقات ، ويعملون بايديهم وأرجلهم حركات موافقة لاغاني النساء اللاتي بجانبهن يغنين ويصفقن بالايدي ، ويدور في وسط الحلقة السحرة يتولون ادارة الحلقة وتسمع الراقصين يهتفون معاً بكلمة «الله أكبر» واذا ختنوا أولادهم تضرعوا في وقت واحد الى الله والرسول محمد (ص) ، والى زاناهاري اله الخير والى انغاترا اله الشر . والغالب على الامة المداغسكرية انها ولو دخلت في دين جديد لا تترك عقائدها الاولى . وتجد أعاظم رجالهم مثل « رآنيلياريفوني » الصدر الاعظم الذي كان عند الملكة رانافالونا الثالثة ، يستشيرون العرافين ويستمعون لهم ، وفي ثورة ١٨٩٥ ثبت أن السحرة والعرافين ، هم الذين دفعوا الشعب الى الرجوع الى عبادة «الصامبي» أي الصنم والى قتل الاوربيين . وفي غربي مقاطعة آمبوديرانو ثاروا ونهبوا بيوت المتنصرين والمبشرين ، وقتلوا اسرة مبشر انكليزي ، فساقت السلطة الفرنسية عليهم تابورا من الجند ، يقاوموه أشد مقاومة ، لان السحرة كانوا وزعوا عليهم تعاويذ اعتقدوا انها واقيتهم من النار ، فما زالوا يقاتلون حتى ماتوا عن آخرهم .

وقد وصف بعضهم قبائل الساحل الغربي بالتعصب الاسلامي وليس ذلك بصحيح ، وانما الساكالافا هم لم يزالوا في الهمجية ، أما القبائل الاسلامية الاخرى مثل الانتآمور الانتآمباهواكا ، فقد تلطفت طباعهم كثيرا وصار الابيض يسافر بين قراهم بدون وجل ، بل يكون له قبول حسن بخلاف القبائل الوثنية مثل « الانتازاكا » (كلمة انتا معناها جماعة فاذا قيل الانتازاكا فالمعنى جماعة زاكا) وجماعة « ماناموندرو » وجماعة « آفيبولا » وجماعة « مانانتينا » الخ ، فان الغريب بينهم لا يأمن على نفسه وهم لا يحبون الضيف . وكانت البعثة النورفجية ارسلت الى ملك « الاندرياباكارا » تلتمس منه رخصة في فتح مدرسة لتعليم أولادهم ، فاجابها الملك : « ان الاندريا باكارا لا حاجة لهم بمدرسة لتعليمهم زراعة الارز والبطاطة واجتناء الكاوتشوك ونحن لا نحتاج الا الى هذه الاشياء الثلاثة » . فبذلوا كل ما يمكن وقدموا له هدايا ليسمح لهم بتأسيس المدرسة ، فاصر على المنع وصرف المبشرين من بلاده . وكذلك الساكالافا ، المسلم منهم والوثني يكرهون الغريب وكل أبيض يصادفونه بينهم يظنونه جاسوسا للمكة تاناناريف ، التي تكره استقلال قبائل الساحل الغربي . وحصل اعتداء في « مانتيرانو » عاصمة ميناب على بعض الاوربيين . فهذه البلدة هي من أهم المراكز الاسلامية وأهلها يرفضون قبول الاجانب . وليس هذا الامر بحديث العهد ، بل منذ القرن السابع عشر وقعت الحرب بين قبيلة الساكالافا هذه والبرتقاليين الذين كانوا يغزونهم من موزامبيق ، ولكن كانت الطائلة أكثر الاحيان للمداغسكريين الذين كان يقودهم العرب من القمر أو زنزبار ، مما يدل على ان عدد العرب كان يومئذ كثيرا في تلك الديار .

وبالاجمال فان مسلمي الساحل الجنوبي الشرقي ائتلفوا مع الاوربيين وأصبحوا لا ينفرون منهم بخلاف اهالي الساحل الغربي الذين منهم الساكالافا ، والانتيبوانا المسلمون المستقلون ، والميناب والمازيكورو ، والماهافالي الوثنيون المستقلون فانهم يكرهون الاوربيين ولا يطيقون وجودهم بينهم .

ومن هنا يقدر الانسان ان يقول ان دخول بعض هذه الاقوام في الاسلام لم يزدهم بغضا للاوربيين. قال المسيو فران : « ولا أريد هنا الدفاع عن الاسلام ، بل المسلمون خلقوا أعداء لكل من ليس بمسلم وما ليس من القرآن ، وأن عدم تسامحهم لا حد له . ولكن اسلام الوثنيين في افريقية كان مرحلة لهم في طريق المدنية . ثم هذه المرحلة يقفون عندها ولا يتزلون عنها » . وأفاض المؤلف هنا في شرح هذه النظرية التي كثيرا ما تقرأها في كتب الاوربيين وهو كون الاسود يترقى بدون شك متى اسلم عما كان عليه وهو وثني . ولكن ترقيا محدودا بخلاف مالو دان بدين الافرنج فان رقيه لا حد له . والجواب على هذا ، ان ليس هنالك رقي محدود ورقي غير محدود ، بل الرقي كله غير محدود وان كانوا يرون رقي الذين اسلموا من الزنج محدودا ، فالسبب فيه ليس طبيعة الاسلام بل التأخر والجمود اللذان بلي بهما الاسلام في الازمنة المتأخرة مما ليس هنا محل شرحه ، والاشبه ان يكون السبب فيه قلة العمل بمباديء الاسلام الحقيقية من أن يكون العمل بها .

ثم قال ما يأتي بحرفه : يكون مخالفاً للسياسة أن نعضد الدعاية الاسلامية في مستعمرتنا الجديدة (ماداغسكر) أو أن نترك في ساحلها الغربي أقل نفوذ للبيي (البيبي هو المسلم القوموري أو الزنزيباري الذي يتزوج بملكة من الساكالافا) . نعم ان مسلمي الساحل الجنوبي الشرقي لا يحتاجون الى هذه المراقبة الشديدة ويمكن أن يتمتعوا بحقوق « البتسيميزاراكا » ، ولكن التدابير الاستثنائية الشديدة لابد منها في معاملة الجماعات الاسلامية في الساحل الغربي » اهـ

ثم قال : « أما المسلمون الغرباء في الساحل الغربي الذين أصلهم من زنزيبار والجزائر القمر الاربع بجزيجه ، ومحلي ، وانجوان ، ومايوت ، ومن عمان ، ومن صور (غربي مسقط) ، ومن المكلا وحضرموت ؛ فان عددهم قليل ، وهم يجيئون ويرجعون . وأكثر من يهاجر الى ماداغسكر القوم المسمون بالباتو من زنزيبار والقومور ، فهؤلاء يظهرون بمظهر عظيم من الصلاح ويلازمون المساجد ، ويحملون المسابح ، ويكحلون أعينهم ، ويخضبون أيديهم وأرجلهم بالحناء ويلبسون الجبب الواسعة ويطوفون في الاسواق ، ويحثون الناس على العبادات ، ويذكرون بالثواب والعقاب ، وأخيراً تصير لهم الكلمة العليا عند الساكالافا الذين يأخذون منهم التعاويذ والتمائم ، وبسبب معرفتهم الكتابة يتفوقون بالبداهة على السحرة الماداغسكريين وقد يصلون الى أن يتزوجوا ببنات زعماء البلاد وأحيانا بالملكات . فتصير لهم الكلمة النافذة ويأخذون من العوائد والمكوس ، وأحياناً يصيرون هم الوزراء عند ملوك الساكالافا ، وأهل الحل والعقد . »

ولكن مع كون الاسلام معروفا منذ عشرة قرون من تلك الديار ولا يزال القوموريون والزنزيباريون ، يدعون اليه ويعلمون عقائده ، فلا يبرح في ماداغسكر تأثيره سطحياً ، فان الساكالافا والانتاَمور والانتامباهواكا قد تقبلوا الاسلام بدون أن يتركوا عقائدهم الاولى ، ولا تجد جوامع الا في موجانغا ومانتيرانو ، والذين بنوها هم العرب والهنود .

والحقيقة ان الماداغسكري لا يقدر أن يغير عقيدته ، قالقبائل الماداغسكرية كلها ، التي هي الانتيماريتا والبتسيليو في وسط الجزيرة ، والبتسيميزاراكا والسيهاناكا في الشرق ،

والانتا موروانا والانتامباهوا كا في الجنوب الشرقي، والانتيبوانا والساكالافا في الغرب والشمال الغربي ، والبارا في الجنوب ، والمازيكورو والماهافالي والانتامبروزي والانتانوسي والانتازاكا في الجنوب والجنوب الغربي والجنوب الشرقي ، كلهم غير قابلين للاهتداء .

فالمسلمون يعلمونهم الاسلام منذ قرون . ومن سنة ١٨٢٠ وصلت اليهم جماعات المبشرين من جمعية لندن ، ثم وصل الجزويت واخوان العقيدة المسيحية ، وراهبات ماريوسف وراهبات التبشير بالانجيل ، والمبشرون النورفيجيون والاميركيون والمازريون الفرنسويون ، وأخيراً مبشرو البروتستانت الفرنسيين . وكل هـذه الجمعيات حصلت على اتباع ، ورؤساء الانتيماريتا يهذبون أولادهم فيها ، وحركة التنصير ماشـية بدون انقطاع منذ ثلاثة أرباع قرن وبحماسة فائقة . وقد تعلم كثير من المداغسكريين القراءة والكتابة ، وتعلموا كثيراً من الحرف ، ومن اللغات كالانجليزي والفرنسوي ، ولكن الايمان لم يدخل في قلوبهم . واذا ذهبوا الى الكنائس وأبطلوا العمل يوم الاحد فذلك اطاعة لاوامر الحكومة وخوفاً من العقاب الصارم لأن المبشرين حملوا الحكومة على سن قانون يجبرهم على الصلاة وغشيان الكنائس ، ومن لم يفعل يعاقب بشدة . واما سريرة المداغسكريين ، فهي الاعتقاد بزاناهاري والفاترا والاستماع للعرافين والسحرة لاغير . والآداب المسيحية لم يحصل لهم نصيب منها بل هي عندهم كالاسلام مما لا يطيقون حمل تكاليفه . فانهم شعب عائش تحت قانون الطبيعة . وأما الفضائل الاخلاقية ونقاء العرض والطهارة ، فامور لا يعرفونها ، فالمرأة في مداغسكر ، من الملكة الى الامة ، لاتمنع نفسها من شهوة ولا تجد النساء في ذلك سوى استعمال وظيفة طبعية . فالرجل والمرأة عندهم وجد كل منهما للآخر . ولذلك لا يقدرون أن يتصوروا التبتل والرهبانية ، بل يجدونهما مخالفين للطهارة . وهم لا يجدون اثماً كبيراً في الكذب والسرقة والسكر وسائر الرذائل ، وفي هـذا لا يختلفون من سائر الامم المالايزية والبولينيزية ، التي هم واياها من أصل واحد . ويسمون الذهاب الى الكنائس « فانومبوانا » أي سخرة قهرية ، لانهم يذهبون اليها بالرغم من أنوفهم . وهم يتساءلون : « أيتها هي الديانة الحقيقية من جميع هذه الديانات التي جاءتنا من وراء البحر ؟ اهي الكاثوليكية أم البروتستانتية ؟ وأيتها من النحل البروتستانتية هي أصحهن قولاً ؟ أترى هي الانقليكانية أم المتيودية ، أم الكويكرس ، أم النورفيجية ، أم اللوثيرية الاميركية ، أم البروتستانتية الفرنسية ؟ أم الاسلام ؟

وكان واعظ كاثوليكي في كنيسة « فيانارانتسوا » يتكلم يوم الاحد على جهاد سيمون دومونتفوره في أصحاب البدعة الالبيجية Albigeois وكيف ان هـذا المجاهد الكاثوليكي صدع بامر البابا اينوشنسيوس الثالث واستأصل تلك الفئة الخارجة . وفي الاحد الذي يليه ، قام المبشر الانكليزي وتكلم في المسئلة نفسها وقال ، ان سيمون المذكور لم يكن الا سفاحاً قام يستأصل الالبيجيين لكونهم تمسكوا بالحق وتركوا الضلال . ففهم المداغسكريون من ذلك ان الفرنسيس الكاثوليك كانوا قاتلوا الانكليز البروتستانت ، وان تذكار هذه المنازعات لا يزال حياً . وكذلك سمع المداغسكريون مبشري الكاثوليك والبروتستانت يطعنون أفحش الطعن في المسلمين ، وهؤلاء يسمون اولئك كفاراً . فتجد المداغسكريين يذهبون الى كهنتهم ويسألونهم عما يرون . فيجاوبهم هؤلاء : « لا تصدقوا شيئاً من خرافات هؤلاء الاجانب أترى الانسان

قادرا أن ينزل الله في قطعة من الخبز أو قطرات من الخمر ! أيكون شخص واحد ثلاثة ! أيكون الابن مساويا لابيه ! هذه أضاحيك . والحقيقة ان زانامارى (اله الخير) والفاترا (اله الشر) هما المحركان لهذا الكون قد عرفهما آباؤنا فاقتدوا بهم وباحترامهما تكونون احترمتم آباءكم . »

ثم ان الاصنام الرسمية قد أحرقت سنة ١٨٦٨ عندما دخلت الملكة رانافالونا الثانية في البروتستانتية ، ولكن العقيدة الاصلية لم تتغير .

وكذلك العمل باوامر القرآن ونواهيه شاق عليهم ، لا سيما منع الخمر والميسر والانصاب والسحر فهي أمور يحبونها حبا جا . وأما الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، والعفة ، فلا يعملون منها شيئا ، ويجدون آلهة ماداغسكر اقل تكاليف من اله النصارى واله المسلمين . فالقبائل الانتانكارانا ، والانيتبوانا ، والانتانبولنو ، والميناب يسمون انفسهم « سيلامو » اي مسلمين وليس فيهم من الاسلام سوى الاسم .

والخلاصة التي استخلصها المسيو فران من المباحث التي اجراها بنفسه ومن الكتب والرحلات التي قرأها عن ماداغسكر ، والكتابات العربية الماداغسكرية التي اطلع عليها ، ان الاسلام دخل الى السواحل الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية من ماداغسكر بواسطة العرب او المسلمين المتكلمين بالعربية ، مما يستدل عليه من الكلمات العربية الكثيرة التي يجدها الانسان في لغة ماداغسكر . فلا شك ان العرب الذين كانوا في الساحل الشرقي من افريقية منذ القرن السابع للميلاد ، نشروا دعوة الاسلام في بحر الزنج منذ القرن الثامن ، بجزيرة قنبالو التي ذكر المسعودي ان العرب فتحوها سنة ٧٥٠ ليست الا على مسيرة ٦٠ ميلا من مايوت و ٢٥٠ ميلا من خليج بومباتوك في ماداغسكر ، وهي هي انجوان الحالية . ثم ان العرب نزلوا موجانقا ، ووصلوا الى ماتيتانانا ، ومن هناك أحاط بقصص مجيئهم الى هناك من الخرافات والخيالات ومن خلط قصة بأخرى ما تقدم لك مثاله . انتهى .

ونحن نرى ان العرب نزلوا بتلك الجزيرة منذ القرن الثاني والثالث للهجرة ، وان تلك الحكايات التي يروونها دائما من كون مسلمي ماداغسكر اصلهم من مكة هي من جملة الافتخار بالاصل العربي ولم يكفهم ان يكونوا عربا حتى جعلوا انفسهم قرشيين ، بل من آل البيت - على انه لا يوجد مانع من أن يكون أناس من قريش ، أو من الطالبيين وصلوا الى هناك . فاما بقاء المسلمين في ماداغسكر على ما هم عليه من الجهل ، لا يمتازون عن سائر أبناء وطنهم الاقليلا فله سببان أحدهما ، شدة تمسك أهالي ماداغسكر بعقائدهم القديمة ، بحيث انه لا الاسلام ولا النصرانية أمكنهما قلع تلك العقائد من رؤوسهم تماما ، الثاني قصور المسلمين في ماداغسكر كما في سائر الاقطار من جهة التشكيلات اللازمة للدعاية ، ولو كانت لهم هناك مدارس ومكاتب وطرق منتشرة ، لكان الاسلام أرسخ وأنقى مما هو الآن في ماداغسكر بدون شبهة .

جزائر القومور أو القُمر

العرب الأولون يسمون هذه الجزائر بالقمر بضم القاف وسكون الميم وقد تحرك الميم فتلفظ قُمُر بضمتين ، ومنها قول الافرنج « قومور » ، وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب ان

قنبالو او انجوان فتحت سنة ٨٢٤ (بالحساب المسيحي) على أيدي الازد الاباضيين ، وبحسب قول كارثي Carthy في كتابه « جزر افريقية في بحر الهند والجزر العربية » المطبوع في باريز سنة ١٨٨٥ ليس تاريخ هذا الفتح معلوما ، وانما ثبت ان رجلا عربيا امتاز بالبسالة والاقدام جعل نفسه سلطانا على جزيرة القمر الكبرى ولكن بسلطة محدودة . ولا شك ان أعقاب هذا الرجل ، هم الذين اشتبكوا في الحرب مع البرتقاليين عندما طرأوا على هاتيك البحار . ثم انه بعد ذلك طرأت جالية عديدة من شيراز العجم ، فنزلت بساحل الزنج . وكان لهم زعيم اسمه محمد بن عيسى ، فاستولى على جزيرة القمر الكبرى ، وعلى جزيرتي هنجوان ومحلي ، وجعل فيهما ابنتيه ملكتين ، ثم جاء فزار جزيرة مايوت فاحسنوا استقباله ، فاستصحبها على هنجوان ، وتزوج بنت سلطان مايوت .

ثم نقل المسيو كارثي عبارة حررها كاتب عربي ، اسمه الشيخ يوسف ابن المعلم موسى ، لسائح فرنسوي ، اسمه فيكتور نويل وهي هذه :

«ان جزيرة مايوت كانت تابعة لامراء جزيرة انجوان بحسب قول هؤلاء ، ولكن المايوتيين لم يكونوا يذكرون اسم أمير انجوان في خطبة الجمعة الا في بعض فترات . ولما آل الامر في انجوان الى السلطان احمد الذي ملك من سنة ١٧٦٠ الى ١٧٨٥ ، جرت حوادث من غارات الساكالافا ومن الفتن الاهلية زعزعت ملك الانجوانيين ، فاضطرب حبل الامن فيها ، وكانت اسرة عربية أصلها من عمان أقامت ببلدة « تشينغوني » حاضرة جزيرة انجوان القديمة ، وكانت ذات ثروة طائلة من تجارتها ، وقد أحسنت استعمال المال في وجوه الخير والبر ، وتزوج واحد من هذه العائلة واسمه صالح بن محمد بن بشير بن المنظاري العماني ، وكان شابا ماضيا في الامور عظيم الجاه بابنة سلطان مايوت . وسنة ١٧٩٠ مات سلطان مايوت ، فخلفه صهره صالح بن محمد ابن بشير وتحول عن مذهب الاباضية الذي عليه أهل عمان ، الى مذهب الشافعية أهل السنة والجماعة الذي عليه أهل جزائر القمر الخ » وقال المسيو غافراي Gevrey : ان أصل سكان القومور يهود أو ايدوميون ، جاءوا من البحر الاحمر بعد عهد سليمان ، وجاء اليها في الوقت نفسه زنوج من زنجبار ، وكانت تختلف اليها كثيراً سفن العرب ، ولكن هؤلاء لم يتوطنوا فيها الا في القرن الخامس للهجرة . ثم في القرن السادس عشر للميلاد جاء البرتقاليون وفتحوها ، ولكنهم مروا عليها كعابري سبيل ، وبعد انصرافهم من هناك جاءت طارئة من الشيرازيين ، فنزلت بها تحت قيادة محمد بن عيسى أما تاريخ جزيرة « محلي » فلا يعلم عنه شيء كثير ، وغاية مايعلم أن أول من سكنها زنوج جاءوا من افريقية ، ثم جاءها العرب والماداغسكريون ، وفي سنة ١٥٠٦ جاءها طائفة من الشيرازيين تحت قيادة أحد أولاد محمد بن عيسى . واما جزيرة انجوان او انزوان فقد عمرت نظير ما عمرت محلي ، وفي العهد نفسه فقد جاءها أولا الزنج ثم العرب ثم الماداغسكريون ولما وصل محمد بن عيسى الى جزيرة القمر الكبرى أرسل ابنه حسن بن محمد ، فاحتل انجوان بشرذمة من الشيرازيين » .

نجزيجة أو جزيرة القمر الكبرى

نأخذ زبدة معلوماتنا عنها من رسالة للدكتور نيقولا دوبلانتيه Du Plantier رئيس

الاطباء في جيش المستعمرات الفرنسي ، مطبوعة بباريز سنة ١٩٠٤ اسمها « القومور الكبرى » La Grande Comore

قال « ان ارخبيل القومور مؤلف من أربع جزائر : مايوت وانجوان ومحلي والجزيرة الكبرى ، كلها واقعة في مضيق موزمبيق طولها نحو ٢٤٥ كيلو مترا ، مع انحراف من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي . فالقومور الكبرى هي بين ٥٥ر٤٠ و ١٢ر٤١ من الطول الشرقي و ١١ر١٣ من العرض الجنوبي ، وبينها وبين شاطيء افريقية ١٦٠ ميلا ، ومنها الى محلي ٢٨ ميلا ، والى انجوان ٥٠ ميلا ، والى مايوت ١٦٩ ميلا . وطول هذه الجزيرة ٦٦ كيلو مترا في عرض ٢٤ ، وأكبر مراسيها « مروني » في الغرب ، و « ميتساميولي » في الشمال الغربي ، « وشيندبني » في الجنوب الشرقي ، و « ساليماني » في الجنوب الغربي . وهي جزيرة مرتفعة فيها جبل يقال له « الـكاراتالا » علوه ٢٥٠٠ متر وفي رأسه حطمة نار . وتكثر في هذه الجزيرة الحراج ، ويبتديء القيظ فيها بشهر مايو وينتهي باكطوبر . وتكثر في الشتاء العواصف والزوابع ، ويغزر المطر ، ومع هذا فليس في هذه الجزيرة مياه جارية كما في اخواتها الجزر الاخرى . وكل ما فيها من العيون عينان اضاحتان احداهما ، في مقاطعة بادغيني والاخرى ، في مقاطعة ميتساميولي . واعتماد الناس انما هو على الحياض التي تجتمع فيها مياه المطر ، وأهل سيف البحر يحفرون على الشاطيء ، فيستنبطون ما يشربون . وبالرغم من قلة المياه فاراضي الجزيرة خصبة جدا ، ومناخها من أجود ما يكون يناسب الغريب ، والحميات الملارية غير معروفة فيها ، والصحة العمومية فيها جيدة جدا . ومن قصد الفرار من الحر يجد في الاماكن المرتفعة غير بعيدة عن الشاطيء ما يرضيه ، واجسام أهالي هذه الجزيرة في غاية القوة والنشاط وهم يحبون النظافة كثيرا .

وعدد أهالي القومور الكبرى خمسون الف نسمة ، لـكن النساء أكثر جدا من الرجال حتى انهم حسبوا بازاء كل رجل ثلاث نسوة . وسبب نقصان عدد الرجال عن النساء ، هو الحروب التي كانت قد وقعت فيها بين سلاطينها ، مع كثرة المهاجرة الى زنزيبار . اذ انتقل منهم سنة ١٨٩٩ ، نحو ١٥ الف رجل الى ثالث الجزيرة . ويقال ان العرب نزلوا في القرن العاشر بهذه الجزيرة قادمين من مسقط وغيرها ، ومعهم عبيد كثيرون ، ووجدوا فيها زنوجا من امة « الـكافر » لم يعلم عهد مجيئهم . فباختلاط هذه الاجناس من السلالة السامية الخالصة الى المادافسكرية ، الى البانتو ، تكون الجنس القوموري الحالي . وكذلك جاء فيها بعد هنود وعرب . والقوموري طويل القامة ، غليظ الشفتين بدون برطمة ، عالي الجبهة ، أقنى الانف ، اسود العينين ، قليل شعر اللحية . أما المرأة القومورية فهي صغيرة ، حسنة التقاطيع ، طويلة الذوائب ، لـكن اذا تزوجت حلقت شعرها . وكبار القوم يخضبون اظافرهم بالحناء والنساء يستعملن الوشم والرجال الاغنياء يلبسون القميص الطويل من الجوخ الاسود أو الحرير المزركش وعلى رؤوسهم الـكوفية المطرزة بالقصب ، ويحملون في أوساطهم خناجر معقوفة بقبضات من ذهب أو فضة . وأما النساء فيلبسن الحرير ضافيا ، ويجعلن على أكتافهن ورؤوسهن منديلا من الحرير ، ويرخين احيانا نقابا مزركشا مفتوحا عند العينين ، ويتحلين بانواع الحلي من عقود اللؤلؤ ، والاساور والخلاخيل ، الذهب منها والفضة ، ويتطيبن بانواع الطيوب ، وفي النهار

مجلس المرأة من هؤلاء في منزلها محاطة بجواريها ، أو تتنزه على سطح البيت ، فاذا غابت الشمس كان لها أن تخرج من منزلها وتتنزه في الشوارع متنقبة جيدا . فاما الفقيرات ، فيظهرن في الاسواق ويشتغلن ويلبسن ثوبا واحدا من القطن ويتنطقن عليه .

أما المساكن فبنية بالحجر والجير ، وأكثرها ذات طبقة واحدة وسطوحها مستوية ، وسقوفها ودورها بالخشب ، والابواب والنوافذ مصنوعة بالخشب المنقوش المخرم . وعندهم مقاعد من خشب ذوات أرجل أربع مغطاة بالطنافس والمساند . ويشربون بالنارجيلة ، ويحبون الراحة ، ويقضون جانبا من أوقاتهم اما في الجوامع أو في ساحات البلدة مستأنسين الاحاديث ، وكل واحد سبحته في يده . وهم قوم متوكلون ، لكنهم كسالى لا ينشطون للعمل الا قليلا ، ويميلون الى اللذة والرقص والغناء ، والى الاسراف في النفقة ، فقد وجد منهم من يرهن عقاراته بمبلغ من المال ويشتري عدة رؤوس من البقر ويتصدق بلحمها على فقراء بلده ، أو يشتري ثيابا مزركشة بالذهب ، أو يتزوج امرأة جديدة . وللزواج عندهم افراح طويلة عريضة تستمر أياما ، وقد يكون ذلك شهرا ، وتقدم الهدايا النفيسة الى العروس ، وتذبح الذبائح العديدة ، وتولم الولائم طول مدة الفرح لجميع الاهالي بين الزفن والغناء والطبل والزمر .

والطلاق معروف في القومور ، ولكن الولد في هذه الحالة يبقى عند امه ويتبع حالتها ، فهو أمير اذا كانت اميرة وفقير اذا كانت فقيرة ، وللمرأة حق التصرف المطلق باملاكها .

ويحتفلون أيضا بالختان ، فاذا ختن أحد الاكابر ولده ، عمل عيدا اشتركت فيه جميع أهالي المدينة . والمآتم عندهم لها شأن كبير ايضا .

وجميع القوموريين ، أهل الطبقة العالية ، شديدو التمسك بدينهم الاسلامي ، وأهل الطبقات الدنيا يميلون الى الخرافات . والجوامع كثيرة في المدن والقرى ففي « موروني » مقر المقيم الفرنسي ١٢ مسجدا ، مع أن أهل هذه البلدة لا يزيدون على ٢٥٠٠ نسمة . والمشايخ يعلمون الاولاد القراءة والكتابة ، والجميع يراعون الشريعة أتم المراعاة ويوجد مدارس في كل المدن والقرى ، أما لغتهم ، فهي نوع من اللغة السواحلية الزنزبارية وتكتب بالاحرف العربية ، أما لغة دواوين السلطان ، فهي العربية الفصحى .

ولما جاءت فرنسا وبسطت يد حمايتها على القومور الكبرى كان فيها ١٢ مقاطعة ، لكل منها سلطان وأكبرهم اسمه « سلطان تيبه » يخضع له جميعهم . وقد كان السلطان السيد علي ابن السلطان السيد عمر صاحب هذا المقام ، وأبوه السيد عمر كان سلطانا على جزيرة انجوان ، وقد قام بخدمات جزيلة لفرنسا ، وذهب علي في صغره الى مايوت وتعلم الفرنسية ، وكان السلطان تيبه في القومور الكبرى عمه السلطان احمد ، فقبلما توفي أوصى بأن يكون هو خلفه ، فلما مات احمد وجاء علي يتسلم الملك ، اعترض بقية السلاطين وقالوا انه غريب ، واعصوصبوا حول الامير موسى فومو ، سلطان مقاطعة ايتساندرا ، الذي طمع أن يكون السلطان تيبه . فوقعت الحرب ودارت الدائرة على الامير موسى بسبب معاونة سلاطين انجوان ومحلي ، وسكان مقاطعة بادغيني الكبيرة للسلطان علي . وبعد ذلك جاء مركب من قبل سلطان زنزبار ، عليه قنصل انكلترة يعرض على السلطان علي حماية الانكليز ، فرفض علي حماية انكلترة ، وأرسل الى قائد مايوت يعرض دخوله تحت حماية فرنسا (هذه رواية المؤلف

الفرنسوي) فلم يحصل يومئذ على جواب ، لكن بعد ذلك بثلاثة أشهر ، جاء المسيو همبلو Humblot العالم الطبائعي الفرنسوي بمهمة علمية الى القومور الكبرى ، فاعظم السلطان على مقدمه ، وشاهد المسيو همبلو خصب الاراضي ، فحول مأموريته من علمية الى سياسية .

وكان الامير موسى فومو قد رضي بحماية انكلترة ، وأرسل له الانكليز ذخيرة وأسلحة ، فتهافت السلطان علي على طلب حماية فرنسا ثانية ، فرجع المسيو همبلو الى فرنسا وأدى الرسالة . وفي ٦ يناير (ك ٢) سنة ١٨٨٦ ، عقدت فرنسا مع سلطان القومور الكبرى معاهدة تتضمن أن يكون لفرنسا الموقع الاول دون سائر الاجانب في جزيرة القومور الكبرى ، وان السلطان لا يتنزل عن شيء من الاراضي لدولة اجنبية ، ولا يعقد مع دولة من الدول معاهدة الا برضى فرنسا . ورضي السلطان بابقاء خمس مقاطعات وهي ، بامباو ، وايتساندرا ، وميتساميولي ، وبودي ، وبادفيني ، كل مقاطعة منها يليها سلطان تابع للسلطان علي الذي يلي مقاطعة بامباو رأسا ، جاعلا مركزها بلدة مروني . وان السلطان لا يعزل أحدا من أولئك السلاطين ، ولا يعلن حربا الا برضى الحكومة الفرنسوية . وعند موت السلطان يكون لفرنسا وحدها الحق في تعيين الخلف ، أو تعيين شكل ادارة البلاد . وقد تعهد السلطان علي باقرار الاعطيات التي اعطاها الفرنسيس من اراضي الجزيرة ، وبتسهيل اعطاء غيرها لهم . وفي السنة المذكورة جاء المسيو ويبر معتمدا من قبل الدولة الفرنسية مقيما بالجزيرة .

فاثارت هذه المعاهدة ثائر القوموريين الذين اتهموا السلطان عليا بأنه ، أتى لهم بالفرنسيس الى الجزيرة وباعها من المسيو همبلو ، وخرب ديارهم وصيرهم عبيدا . وكانت الثورة بدأت سنة ١٨٨٩ في مقاطعة بادفيني ، وتولاها أمير اسمه آشيمون ، فارسلت فرنسا قوة واخمدت نارها ، وقتل آشيمون في اثنائها ، ولكن أهالي الجزيرة باجمعهم بقوا ناقمين (ولا نراهم مخطئين) بحيث اضطر السيد علي ان يفر ليلا الى محلي (٢٣ فبراير ١٨٩١) فجاء القائد الفرنسوي من مايوت الى محلي ، وأخذ السيد عليا معه على ظهر بارجة حربية الى القومور الكبرى ، وحاول اقناع الاهالي بكون السيد علي لا يزال سلطانا وان فرنسا لا تزال معترفة بسلطنة القومور ، فلم يقبلوا كلامه فاعاده معه الى مايوت وازدادت الثورة ، فارسلت فرنسا قوة ضئيلة قمعت الثورة . وفي ٦ يناير سنة ١٨٩٢ ، عقدت مع السيد علي اتفاقا الغت بموجبه السلطنات الخمس وقسمت الجزيرة الى ١٢ مقاطعة ، وجعلت الحكم في كل مقاطعة لقاض وعلى رأس كل قرية شيخا ، وصارت السيادة التي كانت للسلطان الى مجلس القضاة الذي ينعقد بحضور معتمد فرنسا المقيم ، وفرض على كل مكلف من الاهالي من سن ١٢ الى سن ٦٠ سنة دفع روبيتين ونصف روبية سنويا .

ولكن بعد ذلك جرى اعتداء على بعض الفرنسيس ، وقصد اناس من الاهالي اغتيال المسيو همبلو ، فجرح وجرح صهره المسيو لوغرو ، فاتهم السلطان علي انه هو مدبر هذه المؤامرات ، فنفي الى دياغو سوارس ثم الى بوربون ، وخلعته فرنسا (كما خلعت عبد الحفيظ سلطان المغرب مع انه هو الذي ادخلها الى مملكته وكل منهما لقي جزاءه) وصار الامر الى المعتمد المقيم وهو المسيو همبلو ، فبقي الى سنة ١٨٩٦ ، ثم خلفه المسيو دوكاز De Cazes ثم المسيو بوبيغوين Pobeguin ، ثم خلفه المسيو بلانتيه (الذي ننقل عنه هذا التاريخ)

وتوالى من بعده المقيمون الى اليوم .

وليس لجزائر القومور حق في ارسال مبعوثين في البرلمان الفرنساوي (كما ليس لجزائر الغرب) ، وانما يوجد لها ممثل خاص في مجلس المستعمرات الاعلى ، ويكون فرنسيا من أصحاب الاملاك المستعمرين في تلك الجزائر .

وأما الادارة الوطنية في الجزيرة ، فهي في أيدي ثمانية قضاة، و١٤١ شيخ قرية . فالقاضي يفصل الدعاوي وينفذها ويصدق العقود ، وفي حال استئناف الدعاوي يوجد مجلس مركب من كل القضاة . وأما شيخ القرية فيجبي الاموال ، ويقوم بالضبط والربط في القرية ؛ وله أعوان في مهمته . واذا وقعت دعاوي مدنية بين الاهالي والفرنسيس ، فالفيصل فيها المعتمد المقيم . أما في الدعاوي الجزائية فالمرجع هو ، محكمة مختلطة يرأسها المقيم ؛ ويكون فيها اثنان من القضاة الوطنيين واثنان من الفرنسيس . وفي قصبة مروني مدرسة فرنسوية يتعلم فيها الاحداث ، ويحضر دروسها كثير من الرجال البالغين ؛ وفي القوموري ذكاء مفرط واستعداد عظيم للتعلم والتمدن .

وميزانية الجزيرة المالية هي ١٥٠ الف فرنك ، يؤدى منها سنويا خمسة آلاف الى السيد علي في منفاه ؛ و ٤٥ الفا الى شركة المسيو همبلو من فائض الدين الذي كان لها عند السيد المشار اليه ، فلا يبقى لادارة الجزيرة كلها سوى مائة الف فرنك .

جزيرة انجوان

هذه الجزيرة هي أيضا من ارخبيل القومور ، وكان لها سلطان مستقل بها نلخص أخبارها من كتاب اسمه « سلطنة انجوان » تأليف المسيو جول ربليكه Repliquet من كبار مأموري المستعمرات الفرنسية قال : « انها بين ٤١ ، ٥٢ و ٤٢ ، ١١ ، ١٥ من الطول الشرقي و١٢ ، ٣ ، ٣٥ و١٢ ، ٢٢ ، ٣٠ من العرض الجنوبي على ٢٠ مرحلة شمالي مايوت الى الغرب و٩ مراحل عن محلي الى الشرق ، و ١٥ مرحلة عن القومور الكبرى . ومساحة انجوان ٣٧٨ كيلو مترا مربعا ، وأعلى قمة فيها ارتفاعها ١٥٧٨ مترا . وهي جزيرة بديعة كثيرة الاشجار ، غنية بالنباتات ، لاسيما المقاطعة المسماة منها بوموني : والقسم الفاصل منها هو القسم الغربي ؛ والى الشمال الغربي منها جزيرة صغيرة مغطاة بالشجر ، اسمها جزيرة السرج . وفي أكثر جزيرة انجوان تجد مياها جارية تفيض من بين الاودية ، وتسقي الاراضي الى الساحل سائلة من شلال الى شلال ، وكان الاهالي لجهلهم يسرفون في قطع الاشجار ، فاصدر السلطان عبدالله برأي المعتمد الفرنسي المقيم المسيو اورمير أمراً يمنع فيه استئصال الشجر .

ومن جداول انجوان التي تسيل صيفا وشتاء اكياني ، وبوزيني ، وشيكوني ، والباجي الذي له مصب في جون ترفأ اليه السفن ؛ وموروباجيني ، وباسي عواني ، وهذه الجداول تجدها من الغرب الى الشرق . وأما في الشرق فجدول يقال له التاتنغا مجرورة مياهه الى مزارع القصب والجيجي . ثم الى الجنوب جوماني . وأنهار وسواق اخرى أقل بالا من تلك تدلك كلها على غزارة المياه الجارية في هذه الجزيرة الصغيرة البديعة . وفي جهتها الشرقية ، بحيرة

صغيرة مساحتها عشرة آلاف متر متناهية في العمق وصفاء الماء وبرودته يظن أنها خزان الجداول الشرقية .

وفي انجوان مراس جميلة للسفن مثل فرضة انجوان ، ومرسى اوماني ، ومرفأ بوزيني وباجي وباتسي ، وهي في الشمال ، ومراسي آجو ، وبومباو ، وغيرهما في الشرق ، وبمبيني وسيامستا لفاني في الغرب . ومرفأ بوموني في الغرب ؛ يصلح لايواء البوارج الكبار .

وهواء انجوان معتدل الحرارة ، ففي الصيف متوسط درجة ميزان الحرارة هو ٢٣ في الظل ، والمناخ في الجزيرة جيد ، والحميات قليلة مع وفرة المياه والاصطياف في أعالي الجزيرة يفيد الصحة جداً .

وتنقسم الجزيرة الى نواح ، فمنها في الشمال الشرقي موتسامودو ، وموالي ، وباندانى . وفي الغرب شيزيواني . وفي الشرق دوموني . وفي الجنوب بوموني ونيوماكيلي . وفي الوسط يوجد بامباو متوني وكوني . والعاصمة هي موتسامودو ، تنسب الى رجل زنجي كان اسمه موسى مودو أي موسى الاسود ، كان يرعى مواشيه حول جون انجوان ثم استقر هنالك ، وكان أول من بنى هنالك بيتا ، ثم جاء الآخرون وبنوا بجانبه . وكانت لمدينة موتسامودو أيام سعيدة لعهد سلاطين الجزيرة الذين سوروها بجدران عالية وحصنوها بقلعة . أما الآن فكل هذه الاسوار متداع الى الخراب . وفي الحارة المساة « آمومبو » (ان العرب من عادتهم أن لا يلفظوا الباء بعد الميم أبدا بل لا يسبق الميم عندهم الا النون مثل تنبكتو مثلا ، ولكن الافرنج يجعلون أبدا محل هذه النون ميما فيقولون تمبكتو Tombouctu ولما كنا ننقل من كتب الافرنج حافظنا في الاسماء على كيفية نطقهم بها مع علمنا بان الاصطلاح العربي هو لفظ مثل هذه الكلمات بنون بعدها باء كما حقق ذلك العلامة اللغوي ، الاب انستاس الكرملي) التي هي محلة الاشراف تجد قصر سمو السلطان، والمحكمة المختلطة، ودار الخزانة القديمة ، وبعض الدور القديمة الباقية على حالها . وبالقرب من هنالك « موكيره جيموي » أي الجامع الاعظم بمنارته السوداء ذات المصابيح وفي الخارج من السور على طول نهر موروجانجيني الضواحي المساة باندامانجي ؛ فيها أكواخ الفقراء .

أما القلعة ، فهي شاهقة مبنية على صخرة سينيجو ، لها برجان عاليان مربعان وبرج آخر يرتفع عليه العلم السلطاني الابيض والاحمر في الاعياد . ومن القلعة الى المدينة سلم عدد درجه ٢٨٠ ولكن هذه القلعة تنهار يوما فيوما بانهيار السلطنة العربية التي كانت شيدتها . وقد كان آخر عهدها بالقوة سنة ١٨٩١ يوم اطلقت مدافعها النار على البوارج الفرنسوية . والى اليوم في هذه القلعة ١٠ مدافع قديمة بالية .

وعلى مسافة أربعة كيلومترات من موتسامودو ، تظهر بلدة موالي بمنارتها وسورها ومنازلها . وهنالك عاصمة ثانية للجزيرة ؛ اسمها دوموني واقعة في شبه جزيرة . وهي نظير أختها موتسومودو متداعية الى الخراب . وكانت قبلا كرسي السلاطين . ولنظرا لمنعة موقعها ؛ كان أهلها اذا هاجمهم الملاغاسكريون من البحر قرعوا طبول الحرب ، فهرع الاهالي من الجوار ودخل رعاة المواشي وآووا الى جدرانها بقطعانهم . فلم يبق اليوم من سابق عظمة دوموني سوى بعض جوامع ، وبعض منازل للاشراف. وفي أحد هذه الجوامع صومعة منحوتة في

الحجر ، داخلها مزخرف بالنقوش العربية ، وهو أثر معماري يستحق الذكر . والجاوي الجزيرة في تيوما كيلي مدينة صغيرة اسمها « مويا » وفي الجزيرة كلها ٨٠ قرية أكثرأهلها من جنس الماكوا الزنوج . وأما مباني الادارة الفرنسية فهي على ارتفاع ٢٠٠ متر بمحل يقال له « هومبو » يشرف على موتسامودو وقلعتها . وتجد جميع الدوائر الرسمية والمستشفى والسجن مختفية تحت أشجار المانغا وغيرها من الادواح الكبيرة وتحت أكمة هومبو مقبرة الجنود الفرنسيس ، الذين قتلوا في حوادث سنة ١٨٩١ (يوم استولوا على الجزيرة) .

وجميع سكان هذه الجزيرة ١٥ الف نسمة ، يرجعون الى ثلاثة أجناس ، من العرب والبوزمن والماكوا . ويقال ان أول من عمر هذه الجزيرة هم البوزمن ، ثم جاء العرب ومعهم الماكوا . والبوزمن هم من أصل مالي بولينيزي كأهل ماداغسكر . وهم أقوياء شجعان يحبون الحرية أسلموا في القرن السادس عشر ، ولكنهم لم يقبلوا الرق وذهبوا من وجه العرب الى الجبال أما من جهة التمسك بالاسلام ، فانهم في الدرجة القصوى يتهاونون بالاوامر والنواهي القرآنية يحرفونها ، ولا يؤولونها بحسب أهوائهم مثل العرب (كذا) .

أما العرب ، فاصلهم من سواحل خليج فارس أو سواحل البحر الاحمر ، وعليهم سحنة أهل اليمن ، وفي نسائهم جمال بدقة التقاطيع ، وتدوير الوجه ، وملاسة الشعر ، وسواد العينين ونفوذ اللحظ . وأكثر العرب كسالى أهل مكر ودعوى (كذا) وكلهم تقريبا يدعون الشرف وكونهم من ذرية الرسول (ص) وأكثر أوقاتهم يقضونها مضطجعين في داخل بيوتهم بين نسائهم ، حتى اذا أزف الغروب ذهبوا الى الجامع للصلاة ، ومن هناك يفيضون بالاحاديث التي فيها يكثر لعن الكافر الابيض (الذي لا يقدرون أن يحبوه لأنه استولى على الجزيرة وسلبهم ملكهم) وهم شديدو البغضاء لنا لاننا نصارى ، ولأننا نحب الشغل وبحركتنا ونشاطنا صار لنا التفوق عليهم . وقد فهموا أنهم كانوا هم المغلوبين ، لكنهم لا يريدون أن يجعلوا كسلهم هو المسؤول عن ذلك وهم مهما تقربوا الينا يكذبون ولا يوثق بظاهر محبتهم (كذا) . أما الماكوا فاصلهم عبيد من الموزامبيق ومن سواحل شرقي افريقية ، أتى بهم العرب ليعملوا في أراضيهم فسكانوا هم الحراثين لهم وصاروا الآن الحراثين في أراضي المستعمرين الاوربيين ، وهم أهل مودة ومعرفة للجميل . ولا تخلو انجوان من الهنود البانيان ومن الماداغسكريين . أما لغات انجوان مع صغر حجمها فهي أربع ، العربية ، ثم السواحلية ، ثم الانجوانية ، ثم الماكوية فالعربية « لاتينية الشرق » هي لغة الديوان والدين ، وبها تصدر الاوامر السلطانية ومضابط القضاة الى هذا اليوم . وأما السواحلية فهي لغة التجارة ، وكثيرا ما تكتب بها أوراق رسمية . وأما الانجوانية فهي خليط ، من العربي والسواحلي والماكوي والبرتقالي والفرنساوي والانكليزي ويتكلمون بها في كل الجزيرة . وأما الماكوية فهي لغة الزنوج ، وهي تتلاشى أمام اللغات الاخرى .

وذكر المؤلف عن ملابس أهل انجوان ما يقرب مما تقدم عن ملابس القومور الكبرى وهي في الحقيقة ملابس العرب الضافية مع الكوفية على الرأس ، والخنجر في الوسط ، وذكر أن الشبان يحملون بأيديهم عصيا يسمى واحدها « البانكوره » من الخشب الصلب (يقال له في جبل لبنان الباكور أو البمكور) ، وقال ان العرب رجالا ونساء يتطيبون ، ويرشون على ثيابهم ماء الورد والمسك ، ويكحلون عيونهم ، ويخضبون أظافرهم بالحناء .

والانجوانيون يتبعون الشريعة الاسلامية بجميع أوامرها ونواهيها، ولكن عندهم عادات غلبت عليهم ولولم توافق الشرع، مثلا المرأة هي دائما صاحبة البيت الذي تسكن فيه مع بعلها فاذا وقع الطلاق وجب على الرجل أن يفارق البيت.

وكذلك الانجوانيون لا يعتبرون رقبة الملك للسلطان، بل يرون ان تملكهم للاراضي هو من الله تعالى. وحكم القضاة هو بمذهب الامام الشافعي، والكتب التي يعتمدون عليها من المذهب هي منهاج الطالبين والفتح القريب. ولم يبق في الجزيرة سوى قاض واحد في موتساموددو. وكان السلطان في الماضي يبلغ الحكم بمجلس مشهود من الاعيان والقضاة أما الآن فلم يبق للسلطان الا اعطاء بعض النصائح لا غير.

ثم تكلم المؤلف عن العادات المألوفة في انجوان في الولادة والختان والزواج والجنازة مما لا يخرج عما تقدم في الكلام على القومور الكبرى، ومما هو معهود في البلاد العربية مع بعض الزيادات. ولكنه قال ان الخاطب اذا خطب البنت من أهلها وارتضاه والداها، زوجاه بدون معرفة الفتاة، اذ الشريعة المحمدية لا تشترط رضى المخطوبة في الزواج، وهذا خطأ عظيم هو من جملة خلط الاوربيين الذين يلتقون كل ما يسمعون واحيانا ما لا يسمعون، بل ما يتصورون بمجرد خيالاتهم، فيقررونه وقائع ثابتة. فانه مما لا ينكر كون الوالدين في كثير من الاحيان يستبدان بالبنت، ويعقدان عليها بدون استشارتها وهي تطيعهما حرمة وتأدبا معهما. ولكن القول أن هذا هو من الشريعة الاسلامية خطأ فاحش فان البنت البالغ لا بد من رضاها في الزواج، واذا عقد العقد قبل البلوغ وبلغت المعقود عليها، كان لها الحق أن تفسخه:

ثم ذكر ما عند الانجوانيين من حب الرقص، والغناء، والضرب بالمعازف وآلات الطرب وما عندهم من سرعة الخاطر في ارتجال الازجال العامية الرقيقة، التي يطرب لها كل من يسمعها. وقال انهم يضربون بالطمطام (نوع من الدربكة)، والقابوسي (نوع من العود) وقال انهم مغرمون أيضاً بلعب الورق والشطرنج ويحبون المصارعة ولعب السيف والترس، وغير ذلك مما هو من أوضاع العرب.

وفي السادسة من العمر يرسلون أولادهم الى الكتاب ذكورا واناثا ولا يفصلون بعضهم من بعض الا في سن البلوغ، والمعلم يعلمهم القراءة والكتابة والحساب والتقويم والعقائد، ويكتب لهم على الواح بيضاء بقلم من قصب الكامو، وحبر يقال له نيونئو (مركب من البخار المتلبد محلولا بالماء) آيات من القرآن لا بد للاولاد أن يحفظوها. ويواظب أهالي انجوان على الصلوات الخمس، ويوم الجمعة يخرج السلطان الى صلاة الجمعة وامامه اثنان يحملان العلم السلطاني والمظلة السلطانية ذات المذبات الخضر ومن العادات القديمة أن أهالي قرية ميرونسي يؤلفون موكب السلطان في ذهابه الى صلاة الجمعة. وجميع الاهالي يصومون رمضان حتى الذين ليسوا مسلمين من الزنوج يصومون. وتقل في انجوان الاوقاف لكن يوجد منها ما هو مربوط بالجوامع ومنها ما يقفه الانسان على جهة بر ويجعل نظارته في ذريته حفظا لثروة البيت بعدم امكان بيع الوقف. وأما حجاب النساء فهو شديد في انجوان حتى الذين ليسوا معروفين بشدة العقيدة ومن يشرب الخمر سراً، لا يتسامحون في

أمر الحجاب . وتسود الخرافات عند البوزمن والزنوج في انجوان حتى أن العرب قلدوهم فيها ، فانهم يمتحنون السارق ، مثلا ، بأن يجبروه على مضغ حفنة من الارز غير المسلوق وهم يقرأون عليه سورة يس ، فمن لم يمكنه أكلها ثبت انه سارق ، (الغالب على الاوربيين انهم اذا اطلعوا على حادثة أو حادثتين جعلوا ذلك قاعدة فلذلك تقل الثقة في مروياتهم . أما الصناعات في انجوان فهي قليلة ، يعملون الفخار البسيط ، وينسجون الحصر والزنابيل ، وعندهم مطاحن على الهواء ، ويستخرجون عصير السكر ، وكان السلطان عبد الله قد أسس معمل سكر في بامباو ، وغيره من الاهالي صنعوا السكر ونجحوا فيه . وأما الزراعة فهي في حال التأخر ، والفضل في المحاصيل انما هو لخصب الاراضي . وللعرب في الاودية مزارع لطيفة من قصب السكر والكوكو ، وكان عندهم كثير من شجر البن . أما التجارة فلهم فيها نفاذ عظيم ، فقد ولدوا من بطون امهاتهم نواتيه وتجارا . ومنذ القرن السابع عشر ، كان الانجوانيون ينقلون بضائع ماداغسكر وساحل شرقي افريقية الى خليج فارس ومسقط . أما تجارة الرقيق فقد بطلت منذ سنة ١٨٤١ ، عندما استولت فرانسا على جزيرة مايوت . وبعد الغاء هذه التجارة سقطت تجارة انجوان عن درجتها الاولى ، أما سفنهم فهي قوارب ذات قلع واحد ، وهم في غاية المهارة في البحر سواء في ادارة السفن الشراعية أو ذات المقذاف .

أما تاريخ انجوان فهو تابع لتاريخ سائر القومور ، وكان استولى البرتقاليون مدة على هاتيك الجزر ، ثم ثار الاهالي بهم فأخلوها . وجاء محمد بن عيسى من شيراز مع جماعته ونشر فيها الاسلام واستقر ابنه حسن بن محمد في أنجوان ، فتلقاه الاهالي براً وترحيبا ، وبنى جوامع في جميع القرى ، وأسس هو سلطنة انجوان اذ كان زعيم بلدة موتسامودو المسمى فاني علي قد أعطاه ابنته ، فتزوجها وتلقب بالسلطان ثم خلفه ابنه محمد ، فتزوج بامينة ابنة ماسيلاحا ، رئيس جزيرة مايوت ، فالحق بهذه الواسطة مايوت بانجوان ، ثم استضاف محلي واطاعته ملوك القومور الكبرى . ولكن هذه الطاعة لم تطل كثيرا حتى انقلبت الى طاعة اسمية في أيام عيسى ابن محمد . ثم مات عيسى وعهد بالامارة الى امرأته موالانه ، فانتقض أهالي مايوت عليها ولولا حزم « موانيه فاني » زعيم موتسامودو لكانت نجحت ثورتهم ، الا أن موانيه فاني هذا استأثر بالامر ونقلت الملكة موالانه الى مدينة دوموني ، وهناك زارها ربان البارجة الهولاندية « ناسو » وتكلم أحد ضباطها فان دن بروك في رحلة كتبها عن اكرام هذه الملكة لهم . ثم مات موانيه فاني وخلفته امرأته فاتنة في الملك فصارت ملكة في دوموني وملكة في موتسامودو . وبقيت الاحوال مختلفة الى زمان « حالة » التي بنت الجامع الكبير في موتسامودو (١٦٧٠) وبعد ذلك شن الماداغسكريون الغارة على انجوان واكتسحوها ، وأحرقوا اقراها واستباحوا حرمها ، واسروا رجالها ، وقتلوا امراءها فقام في وجوههم أحمدي حفيد حالة ودفع غارات الماداغسكريين ثم خلفه الشيخ سليم وملك الى سنة ١٧٩٧ ، فمات وبويع ابنه أحمد وهو دون البلوغ ، فقام عمه علوي وأحدث ثورة ليستأثر هو بالملك ، ففشل أول مرة والتجأ الى زنزيبار ، ثم عاد بعد سنتين وخلع أحمد وتولى مكانه ، وبقي في الملك الى سنة ١٨٢٠ وبعد موته خلفه عبد الله الاول ، وقضى معظم ملكه في قتال الزعيم الماداغسكري « راماناتيكا » وهذا الرجل كان ابن عم « رادام1 » ملك الهوفا ، فبعد موت الملك نفي مع جماعته من ماداغسكر

فالتجأ الى أنجوان لما كان اشتهر به عبد الله من حسن الوفادة ونجدة الملهوف فتلقاهم عبد الله بالاكرام وانزلهم أحسن منزل . ولكن راماناتيكا كان كنودا للنعمة كسائر الهوفا ، فلم يلبث أن أخذ يحرك الثورة على مضيفه ، وأخيرا عالنه الحرب ، فدارت الدوائر على الباغي ، وفر هذا من انجوان الى محلي واستولى عليها . فأخذ عبد الله يجهز قوة لاسترداد محلي . وكان في هذه الجزيرة امير من الساكالافا ، اسمه سولي ، أبى ان ينقاد الى راماناتيكا ، ولم يلبث عبد الله ان هاجم الضيف الخائن في مايوت ، وطرده منها ، فنصب سولي الساكالافي أميرا كما كان وجاء يطارد العدو في محلي (١٨٣٦) فصادفه اعصار شديد فرق مراكبه وقذف بالسفينة التي كان فيها الى الشاطيء ، فوقع في يد راماناتيكا ، فقتل جماعته صبرا وأمر بوضعه في السجن ، ومنع عنه الطعام الى أن مات . فجمع الامير سولي فل الجند الذي كان لعبد الله وجاء بهم الى انجوان وبايعوا علوي بن عبدالله مكان أبيه بالرغم من دسائس عمه سالم الذي طمع في الامارة . ثم اشتعلت الفتنة بين العم وابن أخيه ، فزحف سالم برجاله ، وحصر علوي في موتسامودو ، فكان سولي أمير مايوت ينجد علوي برجاله ، فثبت هذا في وجه عمه نحو أربع سنوات . ولكن سالما أثار ثورة في نفس مايوت حالت دون ارسال النجدات الى علوي ، ثم تعاهد مع رماناتيكا الذي كان متوليا أمر محلي وهاجمت جنودهما موتسامودو ، فتسلقوا جدران قلعتها ليلا وانسل علوي خفية الى البلدة وركب قاربا أخذه الى القومور الكبرى ومنها ذهب الى موزامبيق ، ثم أخذه الانكليز الى كلكتا ، ثم جعلوا اقامته بجزيرة موريس حيث مات سنة ١٨٤٢ فانفرد سالم بالامارة ودفعه الانكليز لمقاومة احتلال فرنسا لمايوت باعتبار أنها تابعة لسلطنة انجوان ، فلما نزل الامير سولي عن مايوت لفرنسا احتج على ذلك بشدة ، فلم تبال وزارة غيزو باحتجاجه واستضافت فرنسا هذه الجزيرة الى مستعمراتها .

وبعد موت سالم خلفه ابنه عبد الله الملقب في بلده بالكبير . وكان صديقا للانكليز وقد امضى معهم معاهدة رضي فيها بابطال الرق ، وكان يحب تنظيم ادارة بلاده على الطريقة العصرية الاوربية واتخذ لنفسه مستشارا طبيبا اميركيا اسمه ولسون . وفي سنة ١٨٥٤ حاول علوي حسيني اغتياله ليملك مكانه ، فدخل عليه في القصر فجأة بشرذمة من رجاله ، ولكن جماعة عبد الله استماتوا من دونه وقبضوا على المعتدي وصاب . وسنة ١٨٨٢ عندما امضى عبد الله معاهدة ابطال الرق ، ثار عليه أخوه الامير محمد واعصوصب حوله جماعة وهاجم أخاه مرتين ، فهزمه السلطان في كل منهما ، وعفا عنه فيما بعد . ولكن تلك الحرب الاهلية مع علوسن عبد الله أوهنت قواه وفتت في عضده ، فطلب حماية فرنسا . وفي ١٥ اكتوبر سنة ١٨٨٧ أصدر أمرا بقبول نظام الحماية ، وأرسل الفرنسيس معتمدا مقيما عنده اسمه المسيو ترويل . فكانت منذ ذلك الوقت سياسة المقيمين في أنجوان اقامة النفوذ الفرنساوي مكان النفوذ العربي باسقاط سلطة السلطان تدريجا . ولكن لم تكن هذه الطريقة لتتم بدون صعوبة اذ قدم المقيم للسلطان مرة صورة أمر طلب منه امضاءه ، وهو يقضي بان تكون الادارة الداخلية في يد معتمد فرنسا ، فابى السلطان امضاءه ، وثار العرب وهجموا على مقام المقيم ، وأهانوا العلم الفرنسي وأنزلوه فارسل المقيم المسيو اورميير الى مايوت ليأتي بسفينة حربية وفي هذه الاثناء مات السلطان عبد الله قيل مسموما وقيل مخنوقا ، فبايع الماكويون (الزنوج)

السيد عثمان أخا عبد الله ، وبايع أهل موتسامودو السيد سالما بن عبد الله ، فهجم الزنوج على البلدة واضطروا سالما والعرب الذين معه أن ينهزموا الى دوموني فسار عثمان خلفهم الى دوموني ونهبها ، وقتل كثيرا من اعيانها ، وقبض على سالم ورهطه وجاء بهم الى موتسامودو . وكان الفرانسيس في تلك الاثناء أتوا باسطولهم وأنزلوا عساكرهم الى البر ، وسلم سالم الامر اليهم ، أما عثمان فبقي يقاومهم نحو شهرين الى ان فرغ كل ما عنده فاستسلم اليهم أيضا . فنفي عثمان ونفي سالم معا الى كليدونية الجديدة (جزيرة في البحر المحيط من الجزر البولينيزية تنفي اليها فرنسا المجرمين السياسيين) وأخذت الاسلحة من ايدي الاهالي وجيء بالسيد عمر ، وهو أمير من امراء انجوان خدم سياسة فرنسا كثيرا في القومور ؛ وجعل سلطانا في يوم مشهود سنة ١٨٩١ ، واتحد العلم المثلث الالوان مع علم الهلال والنجمة الانجواني ، وسنة ١٨٩٢ امضى قبول الحماية تأكيدا لما كان سبق من السلطان عبد الله ، ومات في تلك السنة وخلفه ابنه السيد محمد ، وفي مدته جعل لسلطنة (ا) انجوان وسام اسمه « نجمة أنجوان » وجعلت طوابع بريدية خاصة بانجوان . اه .

وأما جزيرة محلي فهي مع انجوان أخصب القومور ، واما مايوت فارضها بركانية وقد سبق الكلام عليها .

وربما يقال لماذا أطلنا البحث عن جزر صغيرة كهذه ، سكان أكبرها ٥٠ الفا ، وسكان الاخرى ١٥ الفا . وما هي الفائدة من ذلك ؟ والجواب ، ان الذي حدانا الى اطالة البحث عنها انما هو صغرها مع الادوار التي مرت بها والحكومات التي تاسست فيها ، والسلاطين الذين لم يمنع ضيق بلادهم وقلة عدد رعاياهم من ان يكونوا مستقلين ذوي شأن وان تكون لهم جنود وقلاع ومدافع ، مما يدلك على ما تبلغه هذه الامة العربية ، من النفاذ والمضاء ومعالي الهمم في الصغير من البلدان فضلا عن كبيرها ، هذا اذا سلمت من الشقاق والنفاق اللذين هما آفة عزها وسلطانها . (ش)

الامير محمد بن عبد الكريم زعيم الريف

لا نبالغ اذا قلنا ان الامير محمد بن عبد الكريم ، متولي كبر الثورة على الاسبانيول في شمالي سلطنة المغرب ، هو في الثورة الحاضرة ، بطل الاسلام ، واسده الضرغام ، والعلم المفرد الذي سار بذكره القاصي والداني والخاص والعام ، لا بل اذا نظر الناس بعين الانصاف ، يجدونه بطل العصر الحاضر بين جميع الامم لا بين المسلمين وحدهم .

وذلك ان العبقرية لايجب ان تحدد على نسبة الاعمال التي يقوم بها الانسان من حيث الاهمية بل على نسبة الاعمال من حيث الوسائل التي يملكها عند العمل . فاذا نظرنا الى رجل عظيم قام في دولة عظيمة ، وبسط يده الى ما حوله ، فامتلأت بالوسائل والاسباب الكافلة بحصول المرام ، الواقعة على طرف الثمام ، ففاز بالغلبة على العدو ، أو باتمام مقصد من المقاصد العالية ، فليس في ذلك من دواعي الاعجاب ، ما في عمل رجل عظيم ، اذا بسط يده وجدها خلواً من كل شيء ، سوى بعض المواهب الفطرية ، واذا نظر فيما حوله ، لم يجد من جميع أسباب القوة سوى قوة الارادة . لهذا لا نجد في شخصية «المارشال فوش» قائد جيوش دول الحلفاء ، الذي حاز الغلبة القاطعة في أعظم حرب عرفها التاريخ ، ولا في شخصية «المارشال هندنبورغ» ، الذي وقف في وجه قوى تفوق قواه عدة مرات مدة تزيد على أربع سنوات ، ولا في شخصية الغازي مصطفى كمال ، الذي أحيى الدولة التركية بعد ان أرادت انكلترة ان تطويها طيّ السجل للكتاب ، ولا في شخصية لنين ، الذي ثلّ عرش أعظم قيصرية في العالم وحل محلها بحكومة صعاليك مفاليس لم يسبق لها مثيل على وجه الكرة ، ما نجده من حقيقة الرجولية ، والبطولة ، وجد الفضل ، والحصل ، التي في شخصية محمد بن عبد الكريم الريفي ، الذي تغلب على دولة اسبانية وأجبرها على الجلاء عن الريف .

فان «فوش» عند ما انتصر على جيوش الالمان ، كانت تحت قيادته نحو خمسة عشر مليون جندي تامة العدد والاعتاد ، ووراءها سبعة وعشرون دولة هنّ أكثر سكان المعمور وأوفرهم ثروة . وان هندنبورغ عند ما تواقف مع هذه السبع والعشرين دولة مجتمعة ظهرة واحدة على دول أربع لايساوين ربعها ولاخمسها ، انما كان على رأس الجيش الالماني الشهير احسن جيوش العالم دربة ونظاما واتقان عدة . وان مصطفى كمال نهض بامة قديمة العهد بالاستقلال ، حديثة العهد باتساع السلطنة والبسطة ، مفطورة على حب الغزو والقتال ، مالكة لكثير من أسباب الدفاع ، قد أراد لويد جورج ان يحرمها كيانها السياسي دفعة واحدة ، وان ينزلها من السنام الاتجد الى الحضيض الاوهد ، ورماها بدولة صغيرة كالدولة اليونانية ليست بكفؤ للترك في قوة ولا منعة ولا عدد ولا نخوة ، فتمكن مصطفى كمال ورفاقه بحسن قيادتهم واستبسال امتهم التي عرض عليها الموت صاحا ، فآثرت الموت حربا ، وبتراخي ميادين القتال على جيش نظير الجيش اليوناني مدة سنوات متوالية أنقضت ظهره ، وأوهت صبره ، فقهر مصطفى كمال العدو وأخرجه من الاناضول ، وأخذه أخذاً عزيزاً ، وأعاد لتركية وجودها السياسي الذي لم يكن من السهل نزعه منها . وان لنين كان يمثل الوفا ومئات الوف من الصعاليك الذين كانت لهم جمعيات واشجة العروق في جميع البلاد ، على حين قد ضرست الروسية الحرب الكبرى

تضريسا اتى فيها على الحرث والنسل ، وأنشب فيها أنياب الجوع ، فتهيأت فيها الفرصة لثل أعظم عرش بليت قوائمه على الظلم والغشم ، وامتهان الشورى ، وتقديس ارادة الفرد ، والعمل باهواء اللذات والمودات ، والعبث بحقوق الشعب ، فكان أعظم عامل للانقلاب الهائل هو رد الفعل ، وأقوى نصير للذين على تاسيس الحكومة الشيوعية هو ما ينشأ من تجاوز الحد من تحول الامر الى الضد ، سنة الله في الخلق وما لسنة الله من مرد .

أما محمد بن عبد الكريم ، فانه قد تغلب على اسبانية ، وهزم جيوشها من الريف ، وهو بالقياس الى اسبانية بمثابة واحد الى اربعين في العدد ، وأقل من ذلك في العتاد . وهذا تقدير قد يكون فيه نقص أو زيادة ؛ ولكنه على كل حال لا يخرج منطقة الريف بجملتها من هذه النسبة . فقد قيل ان عدد سكان الريف الذي تدعي اسبانية «حمايته» هو نصف مليون نسمة ، وقيل انه ستمائة الف ، وقيل انه سبعمائة ألف وقيل بل هو لا يزيد على اربعمائة الف . وليس للريف احصاء محرر ، ولا لسلطنة المغرب كلها احصاء وثيق ، وانما الذي نسمعه ان الريف هو سبع السلطنة المغربية ، فاذا كان المغرب سبعة ملايين فيكون الريف مليونا ، اللهم الا اذا قيل ان رقعة الريف أقل سكانا من سائر المغرب بالنسبة الى المساحة . فلهذا لم يكن في الريف مليون نسمة . أما من جهة الثروة فلا ثروة في هذه المنطقة ، وفي الحقيقة لا ريف في الريف (الريف في اللغة هو ما قارب الماء من الارض ولذلك يطلق احيانا على الساحل وعلى المكان الذي فيه المياه والخضرة . والريف هو ايضا الخصب والسعة) وسفوح جبال الريف لا تجري فيها الانهار كما في سفوح الجبال الاخرى كالاطلس مثلا . وأعظم مدن الريف هي سبتة ومليلا ، وهما من المدن الاسبانية من القديم ، ومنها تطاون ، والعرائش ، وكلها لا أهمية لها في جانب مدن المغرب . فلهذه الاحوال والظروف كان بدعا لا ينظر في التاريخ ، وسرا تحيرت فيه العقول ، ان يتمكن ابن عبد الكريم من طرد الاسبانيول بعد حرب ضروس استمرت عدة سنوات ، وان يخرج من هذه الهيجاء ظافرا ، في عصر لم تتعود فيه اوربا ان تجد امة اسلامية غالبة على امة مسيحية ، ولا ان ترى امة متبدية أو غير متمدنة ظاهرة على امة متمدنة راقية . لا سيما وهوة الفرق بينهما عميقة جداً في العدد والعدد . فان مملكة اسبانية عدد سكانها ٢٢ مليونا ، وهي مجهزة بجميع أدوات الحضارة العصرية ، وجيشها معدود من الجيوش المنظمة التي لا تقل عن سائر الجيوش الاوربية دربة ونظاما ، وجودة سلاح ، واتقان ضباط . وقد ساقت اسبانية الى ميدان حرب الريف فيالق جرارة . كانت تبلغ مائة الف جندي احيانا و ١٥٠ الفا الى ٢٠٠ الف . وقرأت ساعة تحرير هذه السطور في جريدة « الجورنال » الباريزية ، رسالة لمكاتب هذه الجريدة في الريف ، يصف بها « الخزامي » مركز الامير محمد بن عبد الكريم ، ويذكر فيها ملاقاته معه . وقد ورد فيها في موضع الدهشة من أمر هذا الرجل « انه هو الذي قهر جيشا عصريا عدده مائة وخمسة وسبعون الف جندي اسبانيولي » . فكيف كانت الحال ، لحرب الريف هذه ، وظهور الريفيين فيها ، هما من بواهر الآيات وخوارق العادات ، ومحمد بن عبد الكريم رجل أخذ مكانه من التاريخ ، واخجل جميع عظماء الرجال ، بعظمة عمله ، وصغرهم في أعين انفسهم ، حتى اذا ما اخذت أحدهم هزة بأو وعجب ، فتذكر عظمة عمل ابن عبد الكريم ، مع فقدان جميع الوسائل التي لا يتأتى

الظفر بدونها ، رأى لنفسه غير عظيم بجانب ذلك العبقري الكبير . ولا جرم أن حرب الريف ومقاومة السنوسيين في طرابلس ، قد رفعت من شأن الاسلام ، وحدت أوربا على أن تحسب له حسابا ، ولا تسترسل في الاغترار الى قوتها ، والاحتقار للامم الاسلامية التي كانت تحسبها بتجردها من السلاح الحديث ، امرا قد انطوى بساطها . فاوربا اليوم ، ولا سيا دول الحلفاء « انكلترة وفرنسا وايطالية » صارفة جد اهتمامها الى منع السلاح عن الامم الاسلامية بجميع الطرق ، ومراقبة سواحل افريقية ، وآسية وامضاء المعاهدات والمواثيق الدولية بعدم بيع الاسلحة الى الامم التي « مدنيتها من الدرجة الثانية » تريد أن تعبر بذلك عن الامم الاسلامية ولم يذهب قلق هذه الدول بمجرد منع الآلات والاعتاد الحربية عن هذه الامم ، حتى قام رجال سياستها يتشاورون ويدوكون في عمل ما يسمونه « جبهة » بازاء الاسلام ، على أثر تسحب الجيش الاسبانيولي مدحوراً عن الريف ، وثبوت استقلال الحكومة الريفية تحت امارة ابن عبدالكريم . ففرانسا قامت وقعدت ولم تكتم جرائدها كونها لا تطيق استقلالا اسلاميا بجانب المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وعلى ساحل البحر المتوسط . وانكلترة ، خشيت مغبة ظفر الريف في استنهاض الاسلام شرقا وغربا ، وصيرورة قصة الريف مثالا يحتذى عليه ، فتهيج له الخواطر في مصر ، وبلاد العرب ، الى الهند . وايطالية ، واقعة مع طرابلس في حيص بيص ، فلا تزيد أخبار الريف عزائم الطرابلسيين الا ثباتا .

وقال الكابتن سبنسر برايز على اثر عودته من زيارة الامير ابن عبد الكريم في حديث له مع مكاتب جريدة منشستر غارديان :

« ذهبنا براً من طنجة متنكرين بملابس عربية فاجتزنا المناطق الجبلية وأول ما أدركناه هو أن بلاد الريف وعرة المسالك ، كثير الاودية والمرتفعات الشاهقة ، وهي شقة من الارض يبلغ طولها نحو ثلاثمائة ميل ، وعرضها نحو سبعين ميلا الى الشرق من طنجة ، وهي أوعر الاقطار التي رأيتها في حياتي . وليس في داخليتها طريق معبدة ما ، اللهم الا طريقان يلتمسها اسرى الاسبانيين الآن قرب اجدير ، وقد أنشأ الاسبانيون طريقا عسكريا من تطوان الى شفشوان ولكن لا يمتد من هذه الطريق فروع الى أماكن اخرى .

« أما نحن فاننا ذهبنا الى أجدير على ظهور البغال ، وكان يرافقنا خمسون خيالا من العرب وقضينا عشرة أيام في السير من طنجه الى اجدير . وعند عودتنا ، ساءت المسالك في سبيلنا لأن الأمطار هطلت والأودية فاضت بالأنهر ، فصرنا نتربص في السير ريثما يهدأ ثوران الطبيعة .

« ومما لحظناه ، أنه على الرغم من الخلاف الذي كان متأصلا بين القبائل ، تمكن عبد الكريم من توحيد نزعاتها ، وجمع شتاتها ، وضم أطرافها ، فأصبحت كتلة واحدة تأتمر بأمره وتحارب الاسبانيين الى جانبه .

« وقد ذهبنا الى سنادة ، حيث مركز الاسرة الشريفة ، فاستقبلنا سيدي حميدو الوزاني رئيس هذه الاسرة ، وادبت لنا المآدب الشائقة حسب عادات القوم ، حتى ذقنا ذرعا بكرم الوفادة ، وحسن الضيافة . وزرنا أماكن لم يزرها أوربي بعد ، مع أنها لا تبعد عن جبل طارق سوى ٣٠٠ ميل .

« أما ما قيل من أن الريفيين يسيئون معاملة اسرى الحرب ، فقد عرفنا بالاختبار أنه كذب صراح . فالاسرى يعاملون معاملة حسنة ، ويستخدمون في انشاء الطرق . ولا صحة أيضاً لما يقال عن أن الاسبانيين يكثرون من استعمال الغاز الخانق ، فهم رجال قتال معلومون شهامة . ولا شك أنهم لا يجدون بداً من القاء القذائف والقنابل على القرى ، لانه لا يمكن التفريق بين جنود الجيش الريفي وأفراد الاهالي ، ويذهب كل فرد من الاهالي الى الانضمام للجيش والمقاتلة تحت لوائه عند ما يأتيه الدور .

« وأما ما يقال عن المركز العسكري ، فان الاسبانيين قد عملوا بانسحابهم عملا باهراً ، كان معرضاً لكثير من المصاعب والمشقات . فقد انسحبوا من عدد من المراكز المتفرقة انسحابا منظما ، وعسكروا على خط تطوان — فندق الحصين . فاذا أراد الريفيون مواصلة القتال فانهم سيصطدمون بهذا المركز المنيع، وهم غير مسلحين بغير البنادق والمدافع التي أخذوها من الجيش الاسباني ، ومعظمها من بنادق موزر ومدافع شنيدر التي تجرها البغال .

« والريفيون في حاجة عظيمة الى المساعدة الطبية . نعم انهم لم يصابوا بخسائر جسيمة ، وليس فيما بينهم أمراض وافدة عمومية ، ولكن جميع رجالهم يذهبون الى الحرب بالدور ، حتى ان البلاد كلها تحارب . وليس في الريف كله طبيب ما ، ولا عقاقير صحية ما عدا القليل الذي اخذناه نحن معنا ، مرسلا من جمعية الهلال الاحمر البريطانية ، فالحاجة عظيمة جداً الى المساعدة الطبية .

« والريفيون شعب من الزراع والرعاة، وهم يعيشون في قرى تبنى منازلها باغصان الاشجار وبالطين .

« ويعزى معظم نجاح عبد الكريم الى مقدرته على بسط سلطته على جميع القبائل . فاستطاع بذلك أن يزيل من بينها الضغائن والخصومات . والريفيون يجيدون الرماية . والخطط التي يسلكونها في مقاتلة الاسبانيين هي مهاجمة المراكز المنفردة ، حتى يتعذر على الاسبانيين ان يحتفظوا بها . اما الآن فقد تبدل الموقف امامهم بعد انسحاب الاسبانيين التام من تلك المراكز ومرابطتهم على خط واحد . » اه .

والحاصل ان المستعمرات هي سلسلة آخذ بعضها برقاب بعض ، فلا تجد قطرا تحت استعمار أمة اوروبية قامت فيه ثورة ، الا وضعت جميع الدول الاستعمارية ايديها على قلوبها الواجفة ، ترجو ان ينتهي الخطب بظفر الدولة المستعمرة ، حتى لا تدب الثورة الى المستعمرات الاخرى ويتبع بعضها اثر بعض . والاسلام في نظر اهل أوربا أمة واحدة ، مهما تفككت اجزاؤه ، وتباعدت اقطاره ، وقد شبهه المارشال ليوتي معتمد فرنسا في المغرب « بصندوق رنان » اي اذا ضربت عليه برأسه رن الى كعبه . فسياسة الدول المستعمرة هي سياسة من يعلم شدة ارتباط الاسلام بعضه ببعض ، ومن يأخذ اخذه لمنع هذا الارتباط بقدر الامكان ، فان لم يتأت منع هذا الارتباط تماما — وكيف يتأتى وهو مع الضغط الاوربي والعسف الاستعماري لا يزداد الا شدة — فعلى الاقل العمل على أن لا تظهر له نتائج فعلية . ولقد أصيب المسلمون في هذه السلسلة الاستعمارية بأشد مما اصيبوا به في كل المواقف ، فانك اذا طالبت باستقلال وطن متمدن راق مستحق للاستقلال ، مثل مصر ، لم تلبث ان تسمع ان

الدول التي ليس لها شيء بمصر ، والتي تدعي محبة أهل مصر ، لا ترتاح الى قيام دولة مصرية عزيزة ، خشية عدوى الاستقلال المصري لسائر المستعمرات . ومثل ذلك سورية ، ومثل ذلك تونس ، ومثل ذلك العراق . ومن شواهده ان (الوفد السوري) الذي محرر هذه السطور من اعضائه كان يراجع البعثة الاسبانيولية في جمعية الامم بمدينة جنيف ، في أمر استقلال سورية ، فكان جواب المندوب الاسبانيولي لزملائي الذين لم أكن معهم في ذلك اليوم : « ان اسبانية لا تقدر ان تروج هذا المبدأ لانه مخالف لمصلحتها ، وعندها من داهية الريف ما يكفيها » . فانت ترى ان الشام والريف حلقتان من سلسلة . لا بل مصر ، وفلسطين ، والعراق ، والهند ، وزنجبار ، والسودان ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس الخ كلها . حلقات من نفس السلسلة . وما اجتهدت دول الحلفاء ان تقضي على الدولة العثمانية التي كانت تحمل الخلافة الاسلامية ، الا على خوف انها قد تكون السبب في مسك هذه السلسلة . فحاولت الدول المذكورة ان تجعلها من جملة تلك الحلقات ، وتضمها للسلسلة ، توثيقا لسلكها ، حتى كان ذلك هو السبب الاعظم في الغاء الاتراك اسم الدولة العثمانية ، والاكتفاء باسم « تركيا» وابطال الخلافة الاسلامية من عندهم ، فرارا من الوقوع في هذه السلسلة . ولقد بلغ التضامن الاوربي الاستعماري بازاء الاسلام ، ان صارت حكوماتهم تخاطب بعضها بعضا في المسائل الاستعمارية كأنها امور مشتركة بينها . ومنذ أيام جمعني القدر باحد رجال الحكومة الاسبانيولية ، فتجاذبنا اهداب القضية الريفية ، ولما كنت انصح لهم بالصلح مع زعيم الريف على قاعدة استقلال هذه المنطقة ، أقسم لي أن اسبانية تود من أعماق قلبها مصالحة هذه الامة والاعتراف باستقلال الريف رسميا . ولكن فرنسا وانكلترة تمنعانها من هذا الاعتراف ، وتستظهران عليها بالمعاهدات المشتركة . فترى اسبانية من هذه الجهة متحيرة في أمرها . فهي قد اخلت الريف الى الساحل ، ولكنها كما لا تقدر على امضاء صلح رسمي مع عبد الكريم لا تقدر أن تستمر على محاربته . ومما لا مشاحة فيه ، أنه لو لا خشية فرنسا مغبة حرب الريف بانها تفتح عليها باب ثورة في المغرب يتعذر عليها سده ، وتبلع من النفقات الباهظة ما لا قبل لها به مع ما هي عليه من الارتباك في أحوالها المالية ، لكانت في هذه المدة الحرب مشتعلة بينها وبين الريف ، وكانت طيارات الجيش الفرنسي الآن تمطر قرى الريف وابلا من الكرات المحشوة بالمواد السامة — لان الدول تعاهدت على منع استعمال المواد السامة ، والغاز الخانق في الحروب الاوربية ، واستثنين من هذا القيد المستعمرات التي تجيز فيها اوربا «المتمدنة» طرق الحرب الوحشية . كما أن الاسبانيول رموا قرى الريف بالغازات السامة ، وقتلوا بها كثيراً من الاطفال والنساء والضعفاء — ولكن فرنسا اجتزأت عن اجتياح الريف كله باقتناص بعض أطرافه ، وتحصين المراكز التي على الحدود بين المنطقتين ، والتربص بعبد الكريم الدوائر ، عاملة على اثارة الريفيين بعضهم على بعض ، وفصم عروة وحدتهم ، مما هو أحد وامضى اسلحة الاستعمار الاوربي في قتال الامم الاسلامية .

فقضية الريف حين تحرير هذه الاسطر هي بالمركز الآتي لك تحديده :—

أما فرنسا ، فانها تحصن الحدود التي بين المنطقتين ، وتبني المسالح والمعاقل ، حيطة وراء الحرب التي تنوي اصلاءها الريفيين في أول فرصة . وهي مع ذلك لا تهمل شيئا من الوسائل

السياسية لاسقاط سلطة عبد الكريم ، ومنع تأسيس استقلال اسلامي في الريف ، يكون بحسب زعمها « بؤرة » للجامعة الاسلامية في افريقية .

وأما انكلترة ، فهي في حيرة عظيمة من امر الريف ، لانها من جهة ترى اسبانية عاجزة عن المضيّ في مصارعة أهل الريف ، فلا مندوحة لها من الانكماش في جوار مليلا وسبتة في منطقة ضيقة . ومن جهة اخرى تخشى ان فرنسا تفتح الريف في يوم من الايام فتصير بازاء جبل طارق ، وفي ذلك من الخطر ما فيه ، فتود لو استعصى الريف على فرنسا. ولكنها توجس في فوز الريف خيفة نشاط ينبعث في العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه ، وذلك عندها هو الهلاك الاكبر . وقد عولت أخيرا على منع اسبانية من عقد صلح رسمي مع الريف الى ان تكون ازدادت الحوادث جلاء .

وأما اسبانية ، فانها تحطت الريف من أنفها ورفعته من ذهنها ، بعد تجارب استمرت سنوات عديدة ، لم تعد عليها الا بالخسارة . وقصارى ما تنويه هو الاحتفاظ بمنطقة ضيقة حول مليلا وسبتة ، ومنع الريفيين عن الاتصال بالبحر ، أملا بان ينقادوا للحكومة الاسبانية تحت تضييق الحصر ، وان تلعب بينهم ايدي الشقاق ، فتنال اسبانية بحوادث الدهر ، ما لم تنله بوسائل القهر . ولذلك تعلن ان منطقة ابن عبد الكريم لم تبرح تحت « حمايتها » (١) .

وأما ايطالية ، فتزعم انه لاحق لفرنسا فيها لو أخلى الاسبانيول الريف ان تجرد زحوفها عليه ، وتبت امره بدون مشورة الدول . ومرادها بذلك ليس ان تأخذ حصة من الريف الذي لو عرضت جرته على ايطاليا لاعتذرت عن مد يدها اليها ، وانما هي مساومة تقصد بها الحصول على التعويض في مكان آخر .

وأما العالم الاسلامي ، فقد تخلى بأجمعه عن الريف ، ولم يفكر في معاضدته بشيء وذلك للاسباب الآتية : ــ

الاول : انصراف كل من الاقطار الاسلامية الى هم نفسه ، والاشتغال بقضيته الوطنية الداخلية . فما كان منها مستقلا تمام الاستقلال مثل تركيا ، وفارس ، والحجاز ، ونجد ،

(١) اشرت (مجلة المجلات) الانكليزية بعددها الصادر في يناير ـ فبراير ١٩٢٥ ، ترجمة نداء بليغ لاحد أعاظم الكتاب الاسبان ، السنيور ايبانيز ، أذاعه هذا في بني قومه في نوفمبر ١٩٢٤ ، يبين لهم فيه فضائح الملك الفونس الثالث عشر والحاكم بامره الجنرال بريمودي ريفيرا ، في سياسة الدولة وفي حرب الريف ، ويدعو هذا الكاتب امته لاسقاط الملكية واستبدال الجمهورية بها . ومما جاء في هذا النداء القيم المقدم الذي كانت طيارتان مستاجرتان تجوبان آفاق اسبانية وترميان الناس به كراديس ، انه لما قام ملك اسبانية والجنرال بريمودي ريفيرا ، منذ عدة أشهر ، بزيارة البابا في الواتيكان ، ألقى الملك الاسباني خطابا لدى البابا ، ملؤه الغيرة الشديدة على الكثلكة خاصة والنصرانية عامة . ومما جاء في هذا الخطاب ، قول الملك : ــ

« ان اسبانية أيضا قد تجندت لحرب المسلمين في افريقية حربا لا تنفك عنها حتى تفوز بغرس الصليب في ديار المسلمين ، وجعلت اتباع محمد يخضعون له قهرا » وهذا الخطاب لم يرتجله الملك ارتجالا ، بل سبق له فاعده في مدريد قبل ان اتى رومية ، وكان الاب توريس الجزويتي الشهير بمدريد هو الذي أنشأ وأعد هذا الخطاب للملك . « المعرب »

واليمن ، وافغانستان ، تجده مشغولا بلم شعث نفسه ، عن اغاثة الريف ولو بما يبل الصدى . وما كان استقلاله لما يتم ، مثل مصر والشام ، والعراق أو كان باقيا رهن الاستعمار مثل الهند تجده مشغولا عن النظر الى الريف بمسئلة استكمال استقلاله أو الحصول على الاستقلال الداخلي .

الثاني : الازمة الاقتصادية التي ولدتها الحرب العامة ، ولا تزال تفعل مفعولها شرقا وغربا

الثالث : فشو الاعتقاد في تركيا ، ومصر ، وقسم من بلاد العرب ، بان سياسة الاتحاد الاسلامي شيء مضر بالمسلمين ، حافز لاوربا على التألب عليهم ، ومنعها استقلال ما يرجى استقلاله منهم ، حال كون الشعوب الاسلامية لو قامت بصائحة وطنية أو قومية خالية من صبغة الدين ، لما وجدت اوربا باساً من اعطائها استقلالها . واما شعور اوربا بكون الاسلام في وجهها متماسكا بعضه مع بعض ، فانه مما يزيد تصميمها على سد كل طريق فرج في وجه أبنائه . وقد زاد هذه العقيدة رواجا في تركيا ، فشو الدعوة التورانية التي معناها ان الاتراك ينبغي أن يكونوا تركا في الاول ثم مسلمين في التالي ، بل يذهب الغلاة من التورانيين الى محاربة الاسلام بكل الوسائل ، لاجل قلع نفوذه لمحو الصبغة العربية من بين الاتراك . كما زاد ذلك رواجا بمصر مراعاة جانب القبط الذين رأى بعض كبار الزعماء ان ادماجهم الحقيقي في الكتلة الوطنية المصرية ، متوقف على نفض اليد من الجامعة الاسلامية . فكانت خطة هؤلاء الزعماء مؤثرة في سياسة الشعب ، لا سيما مع غلو الشعب المصري في متابعة ذوي الزعامة فيه . ولا تخلو هذه النزعة من البلاد العربية ايضا ، لا سيما بين الحزب الذي انتقض على الاتراك ايام الحرب العامة ، والذي تحالف مع الانكليز وتمنى فوزهم في الحرب ، بحجة ان الذي ينبغي ان يكون نصب نظر العرب هو القومية العربية ، لا الجامعة الاسلامية ، وان هذه الجامعة توجب نفور انكلترة التي كانت عند هذه الفئة مناط آمال العرب . . . بخلاف ما لو كانت النزعة عربية قومية ، فان انكلترة ترحب بها ترحيبا (!) ولقد خاب ظن هذا الحزب ، وتناقص عدده جدا ، ولكنه ما زال يفر من الجامعة الاسلامية مراعاة لانكلترة ، أما في الماضي فثقة واعتقاداً ، وأما في الحاضر فخوفا ورثاء . وقد كان لهذا الحزب العربي المناويء للجامعة الاسلامية ، اليد الطولى في حمل الاتراك على نبذها ، لان التورانيين احتجوا بانه ان كان العرب الذين ظهر الاسلام بهم وظهروا به ، بدأوا بمعاكسة أوامره ونواهيه ، وأخذوا بالسياسة القومية ، ومالأوا الانكليز على الترك ، فالترك الذين لم يكن الاسلام الا دخيلا فيهم ، أولى بترك ما تركه العرب من جهته . والخلاصة أن شيوع هذه المباديء في الآونة الحاضرة كان مما صرف الانظار عن مساعدة الريف .

الرابع : ان الاعتقاد بكون نجاح الريفيين موقتا ، وانه لا بد من ان تكون الطائلة الاخيرة لاسبانية . لان المسلمين ، لا سيما المفكرين أو الذين يقال انهم مفكرون منهم ، قد عمهم التشاؤم وفقدوا كل ثقة في الاسلام ، وصاروا ينظرون الى كل مقاومة اسلامية لسلطة اوربية من قبيل حركة المذبوح تحت السكين . ويقولون ان اوربا نائلة منهم كل مرادها لا محالة ، الى غير ذلك من العقائد السياسية التي زادت الاسلام وهنا على وهن ، والتي كان هؤلاء المفكرون يتبارون فيها اظهارا لدرجة تعقلهم ، وبعد افكارهم عن الخيالات . . . . الا ان

مصطفى كمال وعبد الكريم كذبا هذه المبادىء التي كانت سائدة بينهم وان انهزام الاسبانيول من الريف غير متمصدين الكرة عليه آخر مرة ، قد انعش آمال المسلمين ، واثبت لهم عدم استحالة المقاومة الاسلامية للسلطة الاوربية ، بعد ان كان القول بها عنوان التعقل ودليل بعد النظر . وان ظفر عبد الكريم القاطع ، فتّ في عضد التشاؤم ، وجذب بضبع التفاؤل ، وصاروا يفكرون بمقتضى قول شاعر الحماسة :

قاتلي القوم يا خزاع ولا يأخذكم من قتالهم وهل
القوم أمثالكم لهم شعر في الحرب لا ينشرون اذ قتلوا

نعم انهم لا يزالون خائفين على عبد الكريم من فرنسا ولكنهم أيقنوا بأنه يتأتى للمسلم اذا ترجل وقام بالواجب عليه ، أن يصارع الاوربي ويصرعه . فلهجت الالسن لا سيما في بلاد العرب والهند ، بذكر محمد بن عبد الكريم وأجمع الناس على أنه أحق انسان بلقب « بطل الاسلام » ونشرت أخباره الجرائد الشرقية بالاعجاب ، والجرائد الاوربية بالعجب العجاب ، والجرائد الفرنسية خاصة بالتشاؤم والارتياب . وظهرت عند الحزب التوراني من الترك غيرة ونفاسة من عظمة عمل محمد بن عبد الكريم مع قلة وسائله ، فتسلوا على ذلك بزعمهم أنه بربري غير عربي ، وان أهل الريف هم من جنس البربر . ولكن لحظنا أن الامير محمد بن عبد الكريم يقال له الخطابي وهذا دليل على نسبته العربية ، وسنشرع الآن في ترجمة حاله اذ أن كتابا في حاضر العالم الاسلامي ، لا يجوز أن يخلو من ترجمة الامير محمد بن عبد الكريم فنقول :—

لاشك أنه ستنشر فيما بعد سيرة الامير محمد بن عبد الكريم الريفي وتؤلف كتب على وقائعه ، ومنشأه ، وأصله وفصله ، ويستفيض خبره عند الخاص والعام ، ولا يبقى شيء من أمره مجهولا . أما الآن فاننا لا نعرف من خبر نسبه شيئاً ثبتا ، وبلغني أنه قد أخرج أحد الفلسطينيين في ترجمة الامير المشار اليه كتابا اطلعت على وصفه في جريدة « الشورى » التي ظهرت حديثا بمصر ، ولكنني لم أقرأ فيما قرأته نقلا عن هذا الكتاب في « الشورى » الا نعته « بالخطابي » ولم أعلم ما وجهه فيجوز أن يكون شريفا فاطميا ، ويجوز أن يكون قرشيا ، ولكن لا بد للتحقق من الاطلاع . فاما ما عندي من المعلومات عنه ، فهو خلاصة أخذتها من فم رجل شريف ادريسي ، يقال له السيد أحمد بن محمد النقاش من أشراف فاس وله علاقة ببلاد الريف ، وقد وجدت رواية عن وقائع الحرب تطابق أخبار الجرائد الاوربية والجوائب الطارئة علينا من تلك البلاد .

قال لي ان السيد محمد بن عبد الكريم الذي هو أمير الريف اليوم هو من بني ورياغل من تاجدرت . وبنو ورياغل هؤلاء هم من القبائل الريفية العاتية على الاسبانيول ، ومنهم بنو تمثامن ، وبنو وليشك ، وبنو تافركسيت ، وبنو توزين ، وبنو سعيد ، (وسلف هؤلاء من الاندلس) ويضم اليوم قسم من بني الطف ، وبني بقيوه ، وبني زرقط ، وهؤلاء هم القائمون بجهاد الريف ، وأكثرهم برابر ومنهم عرب ، ويوجد بجانبهم قبائل مثل غلمية ، والمطالسة ، والعبابدة ، وكبدانة ، (هؤلاء كانوا في البداية متذبذبين) . قال : وعدد الجيش الدائم الذي يقاتل الاسبانيول هو ٣٠ ألفا ، وانما المقاتلة فيه تحضر بالمناوبة ، كل ثلاثة

أيام النوبة على قسم . وكثيراً ما قرأت في الجرائد الاوربية أن الجيش الريفي لا يتجاوز ٣٠ ألفا ، مع أنه يناويء من ١٥٠ الى ٢٠٠ ألف جندي منظم من الاسبانيول . والامير هو في نحو الثالثة والاربعين من العمر ، كان قاضيا عند الاسبانيول في مليلا ، وكان تحصيله للعلم بمادريد ، وكان الاسبانيول يحبونه جداً ، ولكن وقعت له واقعة في مليلا تحامل عليه بها الاسبانيول ، فخاصموه ، فالقوا به في السجن ، ففر منه بان رمي بنفسه من النافذة ، فانكسرت فخذه واحتمله الاسبانيول الى المستشفى حيث بقي الى أن انجبر كسره ، فلاطفه الاسبانيول وحملوه على البقاء في منصبه ، ولكنه كان في نفسه قد آلى أن يفارقهم ويلحق بقومه . ومما هو متواتر أن سبب خصامه مع الاسبانيول ، بعد أن تربى ونشأ وتولى القضاء عندهم ، هو ما كان يراه من عسفهم بأبناء قومه، واحتقارهم للمسلمين، ومعاملتهم اياهم بما يعامل به السيد عبده أو بما يعامل به سائر المستعمرين الاوربيين أهالي مستعمراتهم . وقد اطلعت في جريدة « الاومانيته » الاشتراكية الفرنسية ، على فصل لكاتب اشتراكي اسبانيولي ، بعث به الى جريدة « السياسة » بمصر فعربته ونشرته ، فان صح جزء من الاخبار الواردة فيه من طغيان الاسبانيول وتعديهم على حقوق المسلمين ، وخبطهم اياهم بعصا القهر الى تجاوزهم على أعراض النساء ، كان كافيا لاشعال هذه الثورة عند شعب مثل هذا الشعب الباسل .

قال لي الشريف الذي روى لي خبر محمد بن عبد الكريم : وكان الاسبانيول يومئذ في حرب مع أهالي الريف ، على حسب العادة باستمرار الحروب بين الفريقين . وكان لا يقدر مغربي على الخروج من مليلا الا باجازة من الحكومة الاسبانية . وكانت هذه الحكومة قد عهدت باعطاء الاجازات ووضع الاشارات على التذاكر الى ابن عبد الكريم نفسه . فاستاذنهم في الخروج من مانيلا ، فلم يأذنوا له ، ففر من مليلا خفية الى تاجدرت من طريق البحر . والمسافة بينهما في البحر أربع ساعات . وقبل فراره كان عنده في البنك ١٧ ألف ريال فسحبها منه ، وقطع علاقته مع مليلا ، ووطن نفسه على قتال الاسبان .

وكان هؤلاء قد بنوا ٤٦٠ معقلا وثكنة للاجناد ، وشحنوها بالمقاتلة والعتاد ، وكانت كل قبيلة تقاتل فى أرضها منفردة بدون نظام يجمع بينها . ولا علم يوحد حركاتها . فبمجرد وصول ابن عبد الكريم أبرم بينها اتفاقا أكيداً على الحركة الباً واحداً في وقت واحد فحصرت القبائل جميع هذه الثكن وهذه الحصون ، وقطعوا عنها الماء فكاد يهلك الجنود الذين فيها عطشا فصارت اسبانيا تبعث اليهم بالجمد والثلج بالطيارات لتبل من ظمأهم . ولكن لم يطل الامر حتى اضطروا الى التسليم بعد ستة ايام من وقوع الحصار . وكان في كل ثكنة مئات من العساكر ، فاخذهم المغاربة وقتلوا منهم عدداً كبيرا ، واستحيوا الضباط وكانوا ٥٧٠ ضابطا فارسل الاسبان الى ابن عبد الكريم يلتمسون منه ارسال الضباط ويقولون له ان ارسلت الضباط نخل لك مليلا . فاجابهم : لا نريد ان تخلوا مليلا ، ولكن ارسلوا بمؤونة الضباط والا ماتوا جوعا . فارسلوا اليه بمله باخرة ارزاقا ، ومعها مبلغ عظيم من المال . وقد هدم الريفيون جميع هاتيك الثكن والنقاط العسكرية ، واخذ كل ما فيها من سلاح وكراع ومتاع ، فكانت جملة الغنائم ١٦٠ مدفعا ، و ١٥٠ رشاشا ، وبنادق لا تحصى ، وأمتعة لا يقع عليها حصر . وضيق المغاربة على مانيلا ، وأحرقوا قطار السكة الحديدية والمحاط ، وفر كثيرون من

الاسبانيول في البحر الى بلادهم . قال لي الراوي : ورشى الاسبانيول قبيلة « قلعيه » و « بويحي » بواسطة رجل يقال له عبد القادر بن شلال ، فانحازوا الى الاسبانيول ، ولولا خيانة غمارة وبويحي وقلعيه والعبابده لم يبق من الاسبانيول احد في تلك الديار . قال : وبعد ان فاز الريفيون هذا الفوز اجتمعوا في محل يقال له « انوال » وانتخبت كل قبيلة قوادها ، ورتبوا مايلزم للحرب ، وبدأوا بحفر الخنادق ، وجعلوا جزاء على كل من يتخلف في النوبة عن الرباط ، وجزاء على كل من يترك الصلاة ، واتفقوا على قتل القاتل ، ورجم الزاني ، وقطع السارق . وهذه الحادثة وقعت من نحو ثلاث سنوات . اه

وسألت الشريف المذكور عن الرسولي وما شأنه ، وما هي نسبته ، وما هي خطته في الريف فقال لي : ان الرسولي هو من ذرية سيدنا عبد السلام بن مشيش الولي الكبير الحسني الادريسي شيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما . وله مقام بجبل العلم (محركة) على مسيرة ستة ايام من فاس وثلاثة أيام من الريف . ومسكن الرسولي في الريف هو بجوار غمارة ، والخماس ، ووادرس ، وهي قبائل كثيرة يسكنها الرسولي بأموال يأخذها من الاسبانيول . اه .

والظاهر ان الشريف الذي روى لي هذه الاخبار يشير بما تقدم الى الواقعة التي جرت سنة ١٩٢١ في شهر يوليو واستأصل الريفيون فيها ٢٥ الف مقاتل ، وقيل بل أكثر من ذلك جدا ، وغنموا ١٧٠ مدفعا على رواية الجرائد الاوربية ، و ١٠ طيارات ، و ٧٠ الف بندقية ، ومقدارا لا يقع عليه الاحصاء من القرطاس المحشو ، وارزاقا في غاية السعة . وفي الحقيقة ان الريفيين يحاربون اليوم باسلحة الاسبانيول وعددهم وعتادهم . وقد هجم الاسبان بعد هذه الواقعة نحو سنة ، ثم جهزوا بعوثا جديدة نحو مائة وستين الف مقاتل ، فصادمها الريفيون بقلوب من حديد ، وردوها على أعقابها بخسائر فادحة . ثم لما آل الامر الى الجنرال دوريفيرا ، الحاكم بامره اليوم في اسبانية ، وكان مذهبه ترك الريف ، أراد ان يطبق برنامجه هذا من التسحب الى ساحل البحر ، فثارت عليه الضباط والقواد ، ورأوا في التقهقر الى الوراء امام قبائل بربرية وقوة غير منظمة ، ذلة ومهانة لا تليقان بدولة اوربية ، فالتزم مجاراة رجال العسكرية ، وذهب بنفسه الى مليلا ، وتولى القيادة ، وظن انه آخذ قريبا بناصية عبد الكريم ، وصرح بذلك على الملأ . فلما بدأ القتال ، صلي من نار الريف بنار لم يقو على أوارها ، وبعد وقائع متوالية ذهب فيها من الاسبانيول أكثر من ٢٠ الف مقاتل عاد الجنرال المذكور الى رأيه الاول ، وأخرست عظمة الخسائر الاسبانيولية بالمال والرجال أفواه اولئك الذين كانوا يرعدون ويبرقون ، بل صاروا راضين من الغنيمة بالاياب . فسحب الجنرال الجيوش الى الوراء ، واختط خطا في جوار سبتة ومليلا ، يدور على منطقة صغيرة لانعلم مقدار سكانها ، لكن يرجح انه لا يكون أكثر من ٨٠ أو ٩٠ الف نسمة . وقد كان الاسبانيون اثناء اخلائهم المراكز الريفية ، ونكوصهم على الاعقاب ، عرضة لمهاجمات الريفيين الذين كانوا لا يمهلونهم فواقا ، فلما دخل الاسبانيول المنطقة التي اختطوها لانفسهم ، عدوا ذلك فوزا عظيما ، أي حسبوا ظفرا كونهم لم يهلكوا جميعا . وعاد الجنرال ريفيرا الى مادريد ، بعد ان باء بالفشل واصيبت جيوشه بالرزايا الوجيعة ، ولكنه قوبل في عاصمة الاسبان مقابلة فاتح آب من

الحرب بفتوحات عذراء . وتلقى الاسبانيول خبر الانكماش الى سيف البحر والاكتفاء بمنطقة ضيقة جدا ، كبشرى فرحوا وتهللوا بها . هذا بعد ان كانوا ينزلون صواعق النقم بمن تحدثه نفسه بترك شبر أرض من الريف أو صلح مع عبد الكريم .

والنفس راغبة اذا رغبتها واذا ترد الى قليل تقنع

وصدق من قال : السيف وجهه أبيض . ولي في هذا المعنى من قصيدة :

فبدأ لحمانا كل من يمنع الحمى ومن ليس يرضى حوضه متهدما
فما العيش الا ان نموت أعزة وما الموت الا ان نعيش ونسلما
تأملت في صرف الزمان فلم أجد سوى الصارم البتار للسلم سلما
ولم أر أنأى عن سلام من الذي تأخر يبتغ السلامة مغنما
يقولون وجه السيف أبيض دائما وما ابيض الا وهو احمر بالدما
فان كان دفع الشر بالرأي حازما فما زال دفع الشر بالشر احزما
تجاهل أهل الغرب كل قضية اذا لم يجيء فيها الحسام مترجما
وكابر قوم ينظرون بأعين ألا انه الانسان أعمى من العمى

وقضية الريف هذه هي أيضا من القضايا التي تجاهلتها اوربا ، ولم تفهم فيها أدنى نغمة حتى جاء فيها الحسام ترجمانا فصيحا فاصغى اليه الجميع . وأتذكر انا لما كنا في لندرة في يوليو سنة ١٩٢٢ لاجل الاحتجاج على مجلس عصبة الامم عند ما قرر ما يسمونه « بالانتداب » الفرنسي على سورية و « الانتداب » البريطاني على فلسطين ، تلاقينا في عاصمة انكلترة باثنين من جماعة الامير محمد بن عبد الكريم ، أحدهما السيد عبد الكريم ابن الحاج علي ، والثاني السيد محمد بن محمدي صهر الامير ، وكانا موفدين من قبله الى الدولة الانكليزية لاجل طلب وساطتها في الصلح ، فدارت بيني وبينهما أحاديث طويلة ، وكانا لم يحصلا على جواب شاف من انكلترة على ما التمسا ، فقلت لهما : «لا أظن ان انكلترة تقبل هذه الوساطة وهذا محافظة منها على رضى دولة اسبانية أولا (١) ، ولما تعتقده من كون الاسبانيول لا بد من أن تكون الغلبة الاخيرة لهم ثانيا . والذي أشير عليكم به هو ان تطلبوا الوساطة ،

---

(١) وهذا هو تصريح مستر تشمبرلين وزير الخارجية يؤكد هذا الرضى والعطف . فقد نشرت جريدة « الاهرام » في ١٧ فبراير ١٩٢٥ برقية لمراسلها الخاص في لندن تحت عنوان (موقف انكلترا تجاه حرب الريف) ما يلي : —

تكلم مستر تشمبرلين في مجلس النواب البريطاني اليوم . ومما قاله عن حرب الريف ما يأتي :

« يسرني ان أغتنم هذه الفرصة لانكر صراحة جميع الانباء التي ذاعت في طنجة عن حصول الريفيين على عطف الحكومة البريطانية ومساعدتها في حربهم على اسبانيا . فالحكومة البريطانية تعطف على الحكومة الاسبانية في المصاعب التي امامها في مراكش وقد رفضت في كل حين وما زالت ترفض اظهار أي رضى عن علاقات أو مخاطبات بين بعض الرعايا البريطانيين وعبد الكريم » . (المعرب)

لكن بدون تهافت يشعر بالضعف ، لان انكلترة لا تحب ضعيفا . واني على يقين بان الانكليز اذا رأوكم قد ثبتم في مواقفكم الى الآخر يعودون فيستدعون لكم » وهكذا حصل فبعد ان كانت الجرائد الانكليزية مثل التيمس ونحوها تعرض عن الريف والريفيين ، وتصد عن كل كلمة صلح بينهم وبين الاسبان ، صارت تشير على هؤلاء بحسم هذه المادة ، وتتكلم في عقم هذه الحرب وضررها باسبانية ، وحسبك ان من جملة من ذهبوا الى وجوب مصالحة الاسبان للريفيين ، أي الوقوف عن التجريدات والحملات ، هو لويد جورج ، في مقالة حررها بهذه السنة ولم يكن السبب في ذلك سوى ما شاهده الانكليز من ثبات الريفيين مع النجاح .

وهذا لا يمنع من كون انكلترة تهوى هذا الصلح بشرط ان لا تتأسس في الريف دولة إسلامية مستقلة ، يكون شأنها مثالا لغيرها ، وتمتد شرارتها الى سائر المستعمرات ، لان البلاد الاسلامية مهما تناءت بعضها عن بعض سريعة التأثر بعامل واحد . على ان الجرائد الانكليزية تشبه سياسة النكوص الاسباني عن الريف بحركة الانكليز في الهند الشمالية الغربية (افغانستان وما جاورها) اذ عول الانكليز هناك على التخلية بعد الدخول ، وقد ردت عليها بعض الجرائد الاسبانية بان الفرق عظيم بين المكانين ، لان بلدان الهند الشمالية الغربية خارجة عن الطرق العامة العالمية ، بخلاف الريف و «الجباله» الواقعة على مضيق جبل طارق ، وقد حثت هذه الصحف الاسبانية على اتحاد الدول الاوربية في وجه الاسلام واعتبرت تقهقر الاسبان الحالي أمراً موقتا .

وقد اطلعنا على بعض مقالات واردة في الصحف الاوربية لمشاهدي عيان ذهبوا بانفسهم الى الريف وتحادثوا مع الامير ، وسبروا غور الامور الريفية ، فمنها رسالة للكابتن سبنسر برايز والكابتن غوردون كانينج ظهر تعريبها في جريدة الاهرام بتاريخ ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٤ نقلا عن جريدة « مانشستر غارديان » وهي التي تقدمت في ص ٣٩٥-٣٩٦ من هذا الكتاب وفيها فوائد شافية

وجاء في جريدة الجورنال الفرنسوية رسالة لكاتبها المسيو جاك مارسيلياك ظهرت في الجورنال بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٢٥ أي منذ خمسة أيام ، يصف فيها الكاتب قرية اجدير مقر ابن عبد الكريم ، ثم يصف الامير ، ويروي مادار بينهما من الحديث بحضور من يقول ان اسمه « آزرخان » وهو ناظر الامور الخارجية في دولة الريف ، وسيدي عبد السلام ناظر المالية فيقول ان عاصمة امارة الريف المستقلة عبارة عن قرية صيادي سمك فيها مساكن عبد الكريم وأعوانه ، وكلها أبنية بسيطة ، ليس فيها شيء من صنعة البناء ولا تطاول البنيان . وذكر منها المقعد الذي استقبله فيه الامير ، وليس فيه شيء سوى حيطان مجيرة بالكلس البسيط بدون زخرف ولا نقش ، وبعض كراسي من المتاع المأخوذ من الاسبانيول . وذكر ان عبد الكريم هو في نحو الاربعين من العمر ، وفقا لما تقدم من كلام الشريف احمد بن محمد التمثان . وكذلك يقول مارسيلياك انه يعرج من احدى رجليه ، وهذا أيضا مطابق لما سبق من رواية الشريف ، وانه متوسط القامة ، أسود العينين ، حاد النظر ، أفلج الاسنان ، ذو لحية سوداء خفيفة ، بسيط الملبس كل ما عليه جلابية من تحتها ثوب من القطن وهو يحتذ بابوجا أصفر ، وليس في اصبعه خاتم ولا عليه شيء من الشارات المعتادة للامارة ، وعليه ملامح رجل

ساكن ، رابط الجاش ، راجح العقل ، موفق الطالع وكثيرا ما يتبسم قال الكاتب : « صافحني الامير ، ودخلنا في الحديث تارة بالاسبانيولي الذي يجيد الكلام فيه ، وطورا بالعربي الذي يختار المكالمة فيه بواسطة الترجمان ، لاجل أن يطلع أصحابه على معنى المحاورة . ولم يطل عليّ الديباجة بل سألني فوراً عن غرضي من هذه الزيارة فقلت له : لما كنت قد عقبت حركات الجيش الاسباني كنت شديد الشوق الى معرفة ذلك الذي تمكن من تلك الطوائل الحربية عليه . ونحن نبغي أن نعرف في فرنسا ما هي غايتك من هذه الحرب ؟ اهي نشر لواء القتال لطرد الاجنبي أيا كان ، أم هي مجالدة لاجل الريف فمتى استقل الريف كفى الله المؤمنين القتال ؟

فاصغى عبد الكريم الى الآخر ، شأنه في جميع مفاوضاته ، ثم قال : عرفت ماذا تريد أن تسأل عنه . ان الجنرال دوريفيرا وأصحابه أرادوا أن يحدثوا شبهة ، بان يذيعوا كون مرادنا حربا دينية لاحربا وطنية ، وان مرمانا هو أن نطرد من المغرب جميع الافرنج ، فهذا كذب . نحن نريد الريف ولا نريد غير الريف .

فقلت له : ان بعض الناس ممن لهم خلطة بك يزعمون ان مرادك الوثوب على المراكز الفرنسوية في « ورغا » ، واذا خرقتها زحفت الى فاس حيث يبايعك القوم سلطانا على المغرب في جامع سيدي ادريس .

فقال : هذه كلمات مسلوب من العقل ، وأنا والحمد لله أظن نفسي عاقلا .

فقلت : مع ذلك وجد بين المقاتلة التي صدت جنودنا على الحدود التي لم نتجاوز فيها على الريف رجال من ربعك ، فانت تكون في مقاومتك للسلطان قد هاجمت فرنسا .

قال : صحيح انه كان بعض رجال من جماعتي بين الذين قاوموكم في زحفتكم هذه . وذلك اني كنت راجعتكم بعدة كتب ، أسألكم فيها ماذا تبتغون من هذا التقدم ، وما هي المراكز التي هي هدفكم ، فابيتم الجواب . ومن جهة اخرى كان رؤساء الناحية يستصرخونني ويتذمرون من عدم اعتنائي بهم ، وعليه فانتم تدرون المركز الذي وجدت فيه حينئذ . فانا لست عدوا لفرنسا بل أنا باغي الاتفاق معها . وفي أثناء أزمات شديدة كنتم تعانونها كان كثير من الزعماء يحرضونني على القيام والزحف عليكم ، فكنت أرفض اقتراحهم لا بل أشير عليهم بمصالحتكم وطالما كتبت لكم عن ذلك ولكن ولا مرة حظيت منكم بجواب ، ولا لمجرد المجاملة .

فقلت له : وأنت أيضا ينبغي لك أن تعرف مركزنا في مسئلة الريف ، فاننا نحن مقيدون بعهود نعترف بها لاسبانية بأنها هي وحدها صاحبة الريف .

فقال الامير : الريف هولي ولاصحابي أهل البلاد . (على قاعدة مصر للمصريين وسورية للسوريين الريف للريفيين) .

فقلت : لماذا لم ترفعوا احتجاجاتكم في وقتها ؟ ولماذا لم تؤيدوا حقوقكم يوم انفصلت قضية المغرب في مؤتمر الجزيرة ؟

فقال : ان عهد الجزيرة كان ضامنا لنا جميع حرياتنا الاقتصادية ، والتجارية ، والدينية . فلما ابتدأت اسبانيا بغصب حقوقنا ، رفعنا احتجاجنا . وطالما نبهت أنا الحكومة الاسبانية الى المظالم والمغارم التي كان رجالها يرتكبونها ، وبينت لها الطريق المضلة التي تسير عليها فلم يشأ الاسبان أن يلتفتوا الى كلامي . (سيرة الاستعمار واحدة في جميع البلدان).

فقلت له : أكدوا لي في تطاون انك تنوي محاربة فرنسا ، وان نيتك هذه قديمة منذ سنة ١٩١٤ اذ أردت اثارة القبائل علينا وهربت اليهم السلاح .

فثار دم عبد الكريم عند هذا السؤال الخشن وقال بحدة : لما كنتم في نضال مع عبد المالك كانت سيرتي معكم معروفة . وأما تهريب السلاح فقد كنت عاملا عند الاسبانيول لما حصل وكانت قوافل السلاح تخرج من مليلا تخفرها ضباط الاسبانيول وهي لتجار المان . ولقد اثبت بعد مصير الريف الى رياستي اني أود الاتفاق مع فرنسا . ولقد جاءتني كتب من المغرب ومن جميع بلاد الاسلام تحثني على قيادة الحركة لطرد كل رومي من المغرب (هذه رواية مارسيلياك الفرنسوي عن عبد الكريم ، ولا ينبغي أن نتلقى جميع مايرويه آية منزلة ، لان الصحفيين الاوروبيين لا يروون الا ما في اذاعته مصلحة لدولهم . واذا لم يجدوا بدا من النقل زادوا ونقصوا ، بحسب مقتضى مصلحة قومهم) فابيت ذلك حبا للسلام معكم . أما أنتم فكنتم دائما تقابلون تقربي اليكم بالانقباض ، ومنعتم أن تمر في منطقتكم الي أقل الاشياء ، فلم تسمحوا بمرور حتى أدوات الحرث ، والمجارف ، والمعاول ، والجير ، والزيت اللازم للاوتوموبيلات .

فقلت له : أظن اننا اذا تكلمنا بحرية نجد الفرنسيس في هذا غير مخطئين : اذ متى اعتقدنا أنك ستهاجمنا في أحد الايام ، فلماذا نسمح لك بمرور المعاول والمجارف ؟ أفلأجل أن تحفر بها خنادق للقتال ؟ أو نسمح لك بالكاس لاجل أن تشيد به مواقي للرشاشات ، وبمادة لتسيير السيارات الكهربائية لاجل سرعة حركة أركان حربك . فهذه المواد ان لم نمنعها نحن رعاية للعهود مع الاسبانيول ، منعناها من أجل الشبهات التي عندنا من جهتك . أفترى الحرب الدينية مستحيلة الى هذه الدرجة ؟ على أن فرنسا لم تزل تحترم دين البلاد التي تحتلها كما هو في المغرب وسائر مستعمراتها .

فقال : قلت لك اني اعتبر فرنسا نوعا من مملكة الاسلام ، ولا أقول انها تضطهد المسلمين وأنا ممن يرى اطلاق الحرية الدينية للمسيحيين أيضا في بلادنا . فهذه الاديان كلها صالحة ، ديانتكم صالحة لكم وديانتنا صالحة لنا . ويكفي للاتفاق في هذه النقطة وغيرها صدق النية وحسن الارادة من الجانبين .

قلت له : اذاً ان صرت أميرا للريف غير مدافع ترضى بدخول الاجانب الى مملكتك .

فاجاب : هذا بدون شك . أفلا ترى كيف نعامل من يقدم علينا من الفرنسيس ، وكيف قوبلت أنت . اننا لذوو رغبة أكيدة في الاخذ والعطاء معكم لتتجروا عندنا ونستفيد من أساليبكم .

قلت له : وفي ورغا ! أفلا ترى اننا حقا أن نصل الى حيث وصلنا ؟ أم أنت تبغي مهاجمتنا هناك ؟

قال : هذا الحد هناك لا أعرفه جيدا ولا أظن ان قد جرى هناك تخطيط حدود بين المنطقتين . مع هذا أنا مستعد للمناقشة في هذه المسألة مع الميل الاكيد للتسوية . انني لست برجل سياسي وارى الاولى الحرية والصراحة في القول ، فانا أرجو منك أن تقول عنا انني أود الاتفاق مع فرنسا واني أبذل كل مافي طاقتي في هذه السبيل .

قلت له : اسمح لي أن أراجعك أيضا . في مفاوضة اسبانية معك في الصلح ، اشترطت عدا

اداء الغرامة تسليم معدات حربيــة ، لا سيما من المدافع ذات العيار الكبير ، فالى من توجه هــذه المدافع ؟ بديهي ليست موجهة نحو الاسـبانيول لانك ستصالحهم . اذاً مرادك باخذها حرب فرنسا .

فتبسم عبد الكريم ساعتئذ . وقال ان المفاوضة المذكورة لم يكن هو الذي تولاها ثم قال : هــذه مساومات فعلى فرض اننا لم نحصــل على الذي طلبناه كله فلا ينبغي من ذلك تعطيل كل شيء .

وصــلت عند ذلك الى مركزه بازاء سلطان مراكش وهي أدق المسائل . وكنت أعلم ان الـكثيرين رغبوه في اعلان الخروج على السلطان وأن يتخذ هو لقب سـلطان لنفسه . ولكن عبد الكريم ظهر بمظهر رجل حكيم موزون العقل ، لم تسكره فتوحاته المدهشة ، ولا أضاع في ظفره الحزم والروية ، فانه أقنع أصحابه بالاكتفاء بلقب «أمير» ولذلك مغزى كبير اذ لورضي أن يحمل لقب « سلطان » لصعب عليه فيما بعد أن يطيع سـلطان مراكش . ولقد تلطفت كثيراً معه في المدخل بهذه المسئلة ، وتحوطت كثيراً بحيث لا اسوءه عند ذكر السلطان مولاي يوسف الذي يسميه أعداؤه « بسلطان الفرنسيس » .

فاجابني : كتبت اليه مراراً بان يضع حدا لتعدي الاسبانيول بماله من صفة سلطنة المغرب ، فلم يجاوبني ولا مرة . (لأنه مادام الفرنسيس لايجاوبون فمولاي يوسف لايقدر أن يجاوب)

فقلت: وهل تأبى أن تعترف به الا كسلطانا للمملكة الشريفية كما قد يطالب منك الفرنسيس؟

ففكر قليلا ثم قال : ولماذا لا ؟ وان الفرنسيس ماهرون في ايجاد الصيغ . فليجربوا العمل فقد يجدون صيغة يمكن أن أرضاها » انتهى .

من تأمل في هــذا الحديث مع كونه من الممكن أن يكون الراوي الفرنسوي أختزل بعض مالا يوافقه منه ، يحكم بدهاء محمد بن عبــد الكريم في السياسـة ، وبعد غوره في المفاوضات الدولية ، وتحاشيه ما لا يفيد من الـكلام ، ويقول انه أهل لما صار له ، وانه أصبح الخوف عليه قليلا ، الا ان طرأ ما ليس في الحساب .

أما فرنسا ، وهل تقنعها تأكيدات ابن عبد الـكريم المكررة بحبه لها وخطبته لولائها ! لا نعتقد ذلك أبدا . انما نعتقد انها ما دامت أحوالها الماليــة غير مساعدة لها فلا تعلن عليه حربا ، وتكتفي بمصانعته ، كما يريد هوان يصانعها . وما نجده يكرر من خطبته ولاءها الا لما يعلم من ثقل ظفره على كل اوربا ، ولا سيما على فرنسا ، ومالا يخفي عليه من تحفزها لصدمه وتوجسها خيفة مجده . فهو يحاول أن يسكن روعها بالتودد ، ويخدر أعصابها بالقول اللين ، وكل هذا يدل على عبقريته في ادارة السلم ، كعبقريته في ادارة الحرب .

فدحت في أهل الريف الرزايا ، وعظم نقصهم في الانفس والثمرات، وفشت فيهم الجراحات والعاهات ، وعضتهم المسغبة بانيابها ، مما هو كله بديهي بالنظر الى فقرهم ، وضيق أراضيهم ، ووعورة مسالـكهم ، وتأخر المدنية في بلادهم، مع تفوق عدوهم عليهم في كل الوسائل. ولقد مضت على الريف بضع سنين وهم في أشد بلاء ، وأعظم كرب ، وتولوا كبر هذه الحرب ، ولم تمتد اليهم يد مسعف ولا منجد من جميع العالم الاسـلامي برغيف خبز ، ولا ضمادة جرح ، ولا زجاجة حامض فينيكي . وقد كان الامير محمد بن عبــد الـكريم خاطب العالم الاسـلامي

بمنشور بعث به منذ ثلاث سنوات مختصا به مسلمي الهند ، والصين ، والافغان ، والجاوى ، فلم يهج بالترك ، ولا بالعرب ، ولا بالمصريين ، ولا بالمغاربة لعلمه ان الترك هم في شغل عنه وعن غيره . وان العرب يكفيهم ما هم فيه من التخاذل والتواكل ، فيما هو أدنى اليهم من الريف فما ظنك بالريف ، ولا بالمصريين لما هم فيه من الانصراف الى مسئلة مصر دون غيرها ، حتى فى الامور التي ليست من السياسة . ولا بالمغاربة لثقل الضغط الواقع عليهم الحائل دون أدنى مساعدة للريف من جانبهم. وكذلك لم يكتب في منشوره الى اولئك كلمة يستمدهم فيها الاعانة بالمال أو القوت ، وانما عرفهم انه مع العدو المعتدي في جهاد .

وكنت فيما أظن ، أول من نبه في الصحف السيارة الى وجوب اغاثة الريف بمعالجة الجرحى ، ومسك ارماق الاطفال والعيال الذين برحت بهم هذه الحرب الضروس . وحررت في ذلك النداء تلو النداء ، فلم أحس أدنى نجدة . ثم تصدى لهذا الموضوع الاستاذ الفاضل الشيخ فراج المنياوي رئيس جمعية تضامن السادة العلماء بمصر بعد خطاب ورده من معتمد امارة الريف بطنجة ، فنشر نداء في الجرائد المصرية لم يكن فيه الا كالنافخ في رماد . ولكن وردت الاخبار الاخيرة بانه حدثت حركة في الهند لارسال بعثة طبية الى الريف لمعالجة الجرحى والمرضى. وقد بدأ بعض الناس بمصر يتبرعون بشيء ، فربما تهتاج الحمية ، وتاخذ القلوب الرأفة فيزداد التبرع ولا ينحصر في مصر والهند . وقد اطلعنا على رسالة واردة الى الاهرام بتاريخ ٨ يناير الحالي (١٩٢٥) بامضاء « محمد سعد الدين الجباوي » الذي يقول انه كان هناك فى الاطلاع عليها غنى عن التعريف بالحال الحاضرة في الريف وهي هذه :

« عدت من الريف منذ ثلاثة أشهر ، بعد أن مكثت به مدة من الزمن ، وقد تحملت مشاق ومخاطر في سبيل الوصول الى تلك الديار يعجز قلمي عن سردها . وأهم تلك الموانع كان اجتياز الحدود الفرنسية الريفية تارة ، واختراق المناطق العسكرية الاسبانيولية ليلا تارة اخرى ، بين الجبال ، وذلك في منطقة الرسولي التى يطلق عليها اسم « الجبالا » وقد حيل بيني وبين الوصول الى حدود المنطقة المذكورة من قبل الرسولي ، حتى ارغمت على العودة بعد اجتيازى مائة وخمسين كيلو مترا في مرتفعات صخرية صعبة المسالك ، الى أن تمكنت من الدخول عن طريق « وجدة » وبلاد « المطلسة » رغما من المراقبة الفرنسية ، وذلك بواسطة مندوب الامير ورجاله ، الذين يدخلون ويخرجون الى المنطقة المذكورة بقصد شراء مواد اقتصادية .

وقد كنت ضيفا مدة وجودي كلها بالريف ، في منزل دار جمهورية الريف ومع وزير الداخلية القائد يزيد ، الى أن اقتضى الحال عودتي الى هذه الديار السعيدة لطلب النجدة والمعونة من هذه الامة النبيلة ، وهذا الشعب الكريم ، ولاشك انهم ملبون الدعوة لتكوين هيئة صحية ، باقرب ما يستطاع ، وارسالها باسم الهلال الاحمر لاسعاف المجاهدين عن أوطانهم والمدافعين عنها بكل ماأوتوا من قوة .

وبهذه المناسبة ننفي على صفحات جريدتكم الغراء صحة الاشاعات التي أشيعت على لسان الجرائد الاجنبية ، وبالاخص منها الفرنسية من أن بالريف ضباطا من الترك والالمان ، وان هناك أجانب يبيعونهم أسلحة ، وكذلك ننفي ماأشيع منذ مدة من أن الهلال الاحمر العثماني أرسل بعثة صحية .

ويعلن الريف الى العالم انه ليس للمجاهدين بالريف كبيرهم وصغيرهم مآرب الا الاستقلال التام ، وهم يدافعون عن أنفسهم غير ماجورين من رئيس جمهوريتهم الامير عبد الكريم ، ولا مرغمين من حكومتهم على ذلك. وهم وحدهم بشجاعتهم وقوتهم المعنوية ، وأساليبهم الحربية ، وذكائهم الفطري ، حصلوا على كميات وافرة جدا من أعدائهم الاسبانيين من مدافع ميدان مختلفة العيارات ومدافع متراليوزات تعد بالمئات ، عدا بضع طيارات ، وكذلك لديهم جميع ما يحتاج اليه هذا العدد الوافر من الذخائر الحربية المنوعة .

وقد كان لبعض الجنود الريفيين الذين كانوا يخدمون في الجيش الاسباني قبل هذه الحرب نشاط عظيم في تعليم أبنائهم استعمال هذه الادوات الحربية بطريقة فنية ، حتى أصبحوا اليوم كما يعلم العالم ، قادرين ان شاء الله على مقاومة أكبر عدو يريد الاعتداء على استقلال بلادهم.

وهم يعلنون للعالم انهم لا يريدون من هذه الحرب الا استقلال بلادهم ، وهم يحترمون المناطق المجاورة لهم اذا احترمت مناطق حدودهم ، والريف يفضل الاتفاق مع أقرب جارة من الدول اليه ، للاشتراك في استخراج معادنهم ، اذ تكون المنفعة متبادلة بين الحليفين ، اذ لا يمكن لامة على الارض أن تعيش وحدها منقطعة عن العالم .

والشعب الريفي يرجو تذليل صعوبة الطريق ، ويرجو ذلك من الامة الفرنسية وحكومتها في داخل منطقتها للهيئة الصحية المنتظرة ، اذ يكون هذا التسهيل اعلانا للرغبة في توثيق عرى المحبة والوداد بين الريف وبين فرنسا .

محمد سعد الدين الجاري »

ولا نظن الا أن العالم الاسلامي يعطف أخيرا على الريف ، ويلبي استغاثة أهله ، لاسيما وقد جاء منهم هذا البطل العظيم أحسن الله عاقبته . (ش)

مسلمو الفيلبين

(تابع ص ١٩٥ من هذا الجزء)

جاء في « مجلة العالم الاسلامي » الفرنسية تحت عنوان « السياسة الاسلامية » بقلم الكاتب المطلع على أحوال الشرق المسيو شاتليه Chatelier الجملة الآتية : ـ

« ان الحروب التي كان الكاثوليكيون الذين افتتحوا الفيلبين يصلونها مسلمي « سولو » لم تات بثمرة من جهة منع اولئك القرصان من اجتياح جزر ذلك الارخبيل ، الا في أواسط القرن التاسع عشر ، بعد وصول السفن الحربية على البخار . ولكن لما استولى الاميركيون على الفيلبين ، وكانوا الطف ملسكا من الاسبانيول ، تحولت حركة تلك المقاطعة الاسلامية من الاوقيانوس من الدعارة الى التجارة .

وبينما كان المالبزيون في بروني Brunei وساراواك Saravak وبورنيو يترقون في درجات المدنية ، ويقتدون بالاوربيين مثل مسلمي ملقا ، وتجد منهم أعضاء الاندية والتجار والسماسرة ، كان مسلمو الهند النيرلاندية يعرجون أيضا في مراقي الحضارة الا في آتجه Atjeh حيث قوة التدين لا تبرح ظاهرة بمظاهر المقاومة الحربية ، أما فيما عدا هذا المكان من الجاوى وسومطرة والجزر القريبة ، فانك ترى الاسلام أبعد عن الفتن من الهيئات الاجتماعية التي ترجع الى نصاب هندي . ومضى زمن طويل على المالبزيين كانوا فيه تحت ضغط اداري هولاندي من مبادئه القهر والاحتكار . فكانوا لا يتجاوزون افق العمل لغيرهم كرها ، فاما في هذه الآونة الاخيرة فقد نالوا شيئا من الحرية ، وبدأوا بالصعود المادي والمعنوي والاجتماعي ، فانفسحت أنظارهم الى ما يشمل عالم القارات الكبرى ولا ينحصر في عالم هاتيك الجزائر .

وفيما يتجاوز الجزر التي تملكها هولانده توجد جاليات من المسلمين مبعثرة في جزر الباسيفيك كلما تباعدت من القاعدة المالبزية قل عددها ، ولكنها على كل الاحوال اكثر في هذه الاصقاع البعيدة من الجاليات الاوربية ، وهي تبث الاسلام هناك بالتجارة والاخذ والعطاء عوضا عن الفتح والغزو . وهكذا ففي نفس استرالية من جالة الافغان وتجار الهنود وصيارفة المالبزية ، جالية اسلامية لها جامع شهير في برث Perth ، كما انك تجد مسلمين كثيرين من الهند في فانكوفر Vancouver من أميركا ، وتجد مسلمين ومسيحيين من أبناء اللغة العربية من سورية في الولايات المتحدة والارجنتين وزنوجا مسلمين من افريقية في البرازيل » اه ثم قال : ان اسلام الشرق الاقصى نقطته النهائية في ماليزيا ويقدر بنحو ٤٠ مليونا عدد المسلمين في مستعمرات هولانده وبورنيو وسائر الجزر الى « بابوازيا » الى « الفيلبين »

(ش)

استدراك

استشهد المؤلف في موضعين في: (الفصل الاول ـ اليقظة الاسلامية) من هذا الكتاب ، ببعض أحاديث نبوية ، ترجمناها بمعناها حين الترجمة دون الاشارة الى ذلك . وقد رأينا من اتمام الفائدة والحرص على سلامة الايراد ، أن نذكر الآن هذه الاحاديث بنصها الحرفي ، وهي هذه على ما أرشدنا اليه حضرة الاستاذ العلامة الشهير السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار :

الصفحة ٤١ السطر ١٣ —

« انما أنا بشر ، اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر » . رواه مسلم بهذا اللفظ عن رافع بن خديج .

الصفحة ٤١ السطر ١٥ —

« انكم في زمان من ترك فيه عُشر ما أمر به هلك ، ثم يأتي زمان من عمل منهم عشر ما أمر به نجا » رواه الترمذي عن أبي هريرة . وروى احمد في مسنده عن أبي ذر مرفوعاً: « انكم في زمان علماؤه كثير وخطباؤه قليل من ترك فيه عشر ما يعلم هوى ـ أو قال هلك ـ وسيأتي على الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه ، من تمسك فيه بعشر ما يعلم نجا »

الصفحة ٤٦ السطر ٢٣ —

« اطلبوا العلم ولو في الصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » . رواه العقيلي في « الضعفاء » ، وابن عدي في « الكامل » والبيهقي وابن عبد البر عن انس (ض) .

الصفحة ٤٦ السطر ٢٣ —

« اطلب العلم من المهد الى اللحد » أفادنا الاستاذ السيد رشيد انه لم يره حديثاً نبوياً

الصفحة ٤٦ السطر ٢٤ —

« لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من ان تصلّي مائة ركعة » . رواه ابن عبد البر من حديث أنس ، وفي بعض ألفاظه « مائتا ركعة » ، ورواه آخرون بألفاظ أخرى ليس منها « كلمة حكمة الخ . . »

الصفحة ٤٧ السطر ١ —

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » رواه ابن عبد البر عن الشيرازي عن أبي الدرداء (ض)

الصفحة ٤٧ السطر ٢ —

« العلماء ورثة الانبياء » رواه احمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن أبي الدرداء .

الصفحة ٤٧ السطر ٣ —

« أول ما خلق الله العقل فقال له اقبل فاقبل ، ثم قال له ادبر فادبر ، ثم قال عزّوجلّ : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً اكرم عليّ منك ، بك آخذ ، وبك اعطي وبك اثيب وبك اعاقب » وفي رواية « ماخلقت شيئاً احسن منك » .

﴿ تم الجزء الاول ﴾

فهرس

الجزء الاول للاعلام

الالف

التاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الراء — الزاى

السين

الشين

الصاد

الطاء

العين

الغين

الفاء

الميم

النون

الهاء

[illegible]٢٣١ [illegible]